أنيس منصور

هموم هذا الزمان

دار الشروق

هموم هذا الزمان

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

هموم هذا الزمان

دار الشروق

تحريف الحاضر لبناء الماضي : مأساة !

- هل نقول عليه العوض ؟
- نعم . قلها ولا تخف !

فقد ضاع الكثير . ولا عوض إلا فى وجه الله . أما الذى ضاع ، فهو « النظرية الفلسفية » أى الرؤية لحياتنا .. كيف نفكر كيف نعمل ... كيف ننجو من الخسائر المتلاحقة .

- هل نعلن افلاس الفلسفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى يجب أن نعيش وفقا لها ؟ هل نقول أننا استنفدنا عدد مرات الرسوب .. ولذلك يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر تحت الشمس أو تحت الأرض أو عن طريق آخر .. أو عن نظرية أخرى !*
- نعم . قلها ولا تخف !

فما الذى أضاع من أقدامنا الطريق .. ما الذى أضاعنا من أنفسنا ؟ إنه فهمنا الخاطىء للتاريخ ..

فالتاريخ هو مسرح الإرادة الإنسانية من أجل أن نتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم .. من أجل المزيد من الحرية ..

ولكننا أوقفنا التاريخ . جعلناه الماضى فقط . فلا حاضر ولا مستقبل . واخترنا من الماضى أتعس مافيه .. واستوقفنا التعاسة وأقمنا مناحة كبرى على الذى أصابنا .. فهل ذهبنا إلى ما بعد النكسة العسكرية ؟ نعم قليلا جدا .. فقط لكى نراها أوضح ، ثم نعود اليها نبكى الذى كان والذى ما يزال يهد كيان مصر من أولها لآخرها .. فاقمنا السرادقات نتلقى فيها العزاء .. نعزى أنفسنا فى أنفسنا .. نمد اليد اليمنى نشد على اليد اليسرى .. نطوى عقولنا على قلوبنا ونقول : منه لله الذى كان السبب .. ولا يزال السبب !

وأمام النكسة العسكرية التى امتصت حاضرنا عشرين عاما وعشرين

أخرى سوف تجىء .

استراح بعض الناس فقد وجدوا ينبوعا لا يجف من الحزن والآسى .. وعذرا قويا لأن يتوقف كل شيء عن الحركة .. فقد سقطنا جميعا فى مستنقع الهوان والذل والشلل . أصبحنا مثل سفن « ألف ليلة وليلة » التى شهدتها جزيرة المغناطيس .. فسحبت مساميرها واعوادها الحديدية .. فإذا هى ألواح خشبية .. وإذا قادة السفينة وملاحوها مثل ركابها غرقى فى بحر الدموع !

واستراح دراويش النكسة العسكرية إلى التفاف الناس حولهم والبكاء فى حلبات الذكر .. واذا بهم يقدسون أبطال النكسة القادرين على توحيد الأمة المصرية والأمم العربية فى يونيفورم اسود .. فى فعل واحد هو البكاء .. ورد فعل واحد هو محاربة كل من يحاول سحبهم من الحداد الأبدى وضرب النفس بالجزمة .. والدراويش يرون فى هذه القدرة الفذة على توحيد الزى وأداء نشيد قومى وهتاف واحد : بالروح والدم نفديك ياجمال .. بغبغانات تفدى من قتل مئات الألوف وشرد مئات الألوف ومحا حاضر ومستقبل مصر وجعل ماضينا ممتدا .. وأوقف التاريخ وهدم المسرح والمعبد على رؤوسنا كشمشون الجبار .. ومثل رومولوس العظيم آخر أباطرة روما الذى قرر أن يصفى الجيش وأن يحاكم الامبراطورية وأن يدينها ، وأن يدخل الشعب كله فى قفص الاتهام لماذا ؟ لأنه قرر أن يحاكم الناس وأن يدين التاريخ قبل أن يحاكموه ويحكموا عليه !

ثم إننا أوقفنا التاريخ مرة أخرى عندما صدقنا ما قاله عبد الناصر من أنه اشتراكى ، وأن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا ـ أى أنها شيء جديد لم نعرفه ولم يجربه أحد من قبل . كيف ؟ اسألوه .

وجاء من بعده السادات يبحث عن ذاتنا .. فاستعصى عليه أن يفلت من الاشتراكية الذاتية ، أو أن يجد هذا الذات .. حتى انتصارات اكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تفلح بكل عظمتها وجلالها أن تهون علينا الهزيمة .. وانما جاءت مثل جاكته جديدة أنيقة على جسد مقطع الذراعين .. إنها تسترت على الخسارة الفادحة ، ولم تعوضنا عنها !

أحسن ما قيل فى هذا المعنى ما قاله توفيق الحكيم عندما سألته ونحن فى جنازة ولده الوحيد : وكيف حالك ياسيدى ؟

قال الحكيم ، وهو حكيم فعلا : ولا حاجة .. إنها عاهة أصابتنى ، وسوف أعيش بها !

وكانت نكسة سنة ١٩٦٧ عاهة مصر ولا نزال نعيش بها .. وإن كانت هذه العاهة لاتزال أكبر منا ، بل نحن عاهة نعيش بها هذه النكسة .. فهى لاتزال الأقوى !

ومما يؤسف حقا أن العسكريين قد اعتصموا بالصمت . عن تصحيح الاخطاء أو توضيح الحقائق . هل لأنهم لا يقدرون ؟ هل لأنه لا يصح لهم أن يقولوا شيئا .. هل لأن عندهم قانونا يمنعهم من الخوض فى السياسة ؟ وكلها أعذار .. فليس أسهل من أن يعطوا المادة العلمية والتاريخية لاى كاتب أو مؤرخ فيروى لنا ما هو صحيح .. وينفى عن حاضرنا ما هو كذب وتضليل وتهويش وتخريف ووثنية !

ثم إن قادة اسرائيل جميعا قد كتبوا مذكراتهم وأوضحوا وفضحونا فى كل اللغات .. أما نحن فالعسكريون لا ينطقون وهواة التاريخ ودراويش النكسة يكتبون ويكذبون ويقدسون الخطيئة الأولى فى عصرنا الحديث . وضاع الماضى وضاع الحاضر وارتبكت عقول الشباب بين الذى يصدقونه وبين الذى لا يصدقون .. وضلت عقول وقلوب الشباب .. فقد تكومت أمامها الأحجار وامتدت أيديها الى الأحجار تريد أن ترجم عبد الناصر أو منظمة التحرير الفلسطينية أو اسرائيل .. أو القومية العربية ـ أما السادات فقد اغتالوه .. والأحجار لاتزال فى كل مكان والملايين تبحث عن ابليس الأمة العربية .. بعضهم أضاف احجارا إلى الأحجار .. وبعضهم صعد فوق الأحجار وألقى بنفسه من فوق عاجزا عن الفهم .. فبدلا من أن يقتلوا القاتل وانبياءه الكاذبين ، قتلوا أنفسهم !

هل ترى فداحة الخسارة ؟

لقد خسرنا أجيالا من الشباب .. كلهم حيوية وأمل وإرادة وشجاعة مستعدون لأن يصنعوا تاريخا . ولكن عندما أخذوا الطريق ولم يجدوا الطريقة .. أو وجدوا الطريقة ولم يجدوا سيقانهم .. أما عيونهم فلم تعد ترى ، فمن كثرة الظلام فقدت وظيفتها .. وعقولهم من كثرة الضباب لم تعد تفكر .. أما قلوبهم فمن نقص الحياة تحولت الى حجر ..

أرأيت الذى أصابنا ؟ لقد تحولت ساحاتنا وحقولنا ومعاهدنا الى ما أصاب مدينة « بومبيى » الايطالية .. ثار عليها البركان وألقى عليها الحمم . فكانت نوعا من الصمغ القاتل .. فتجمد كل الناس فى مواقعهم ، فكانت لوحة صارخة بارزة للموت الرهيب .. أما الرسام الحقيقى فقد نسى أن يوقع على لوحته ..

ولكننا نعرفه إنه البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر حسين .. الشهير بناصر ..

إذن لقد آمنا إيمانا مطلقا بأننا انهزمنا . ولكن المصيبة أننا ذهبنا الى أبعد من ذلك فقد آمنا بأننا مهزومون .. لامرة واحدة ولكن آلف آلف مرة .. لاق الماضى ولكن ف الحاضر والمستقبل أيضا .. فنحن الهزيمة . وهذا الايمان جعلنا لا نساهم بشىء ف شىء . ولا نريد . لقد حررنا أنفسنا من مؤهلات العمل ، وحيثيات الحياة ، ومسوغات التعيين أعضاء عاملين ف المسرح المتحرك العائم القائم الدائرى الذى اسمه التاريخ!

وف نفس الوقت تسلطت علينا هذه السلبية المطلقة حين رفضنا الواقع المصرى والواقع العربى والواقع الدولى .. رفضنا كل محاولة لانتشالنا من وهدة الفشل والاحباط واليأس .. رفضنا أن يكون لنا دور .. أو أن نستأنف دورنا ف إلقاء أطواق النجاة للأجيال القادمة .. ف إقامة الجسور واضاءة الطريق والتوزيع الموسيقى لبناة المستقبل ..

شىء خطير قد حدث كنوع من الرفض والانسحاب والهروب : فبدلا من أن يقف الناس امام غول الهوان العسكرى والذل النفسى واقامة حائط للصواريخ للتيارات المعادية وتنشيط المضادات الحيوية للموت القومى ، فقد انفرط الناس .. تفككوا .. تكوروا .. داروا حول أنفسهم بعيدا .. كل واحد ف نفسه .. كل واحد لنفسه .. يا الله نفسى .. يا روح ما بعدك روح .. وأنا مالى ـ « وأنا ماليزم » : هذه هى النظرية الجديدة ف مصر! وعند شباب العالم كل واحد قفز من السفينة .. سابحا الى الشاطىء .. الشاطىء الحقيقى أو الشاطىء الوهمى .. المهم انه قرر أن ينجو بنفسه .. فهو يعيش لنفسه ، ويموت فى نفسه!

وأصبحت علاقة الناس بالناس هى أن يتقاربوا ف حذر .. وأن يتباعدوا ف راحة .. وإذا تقاربوا فلكى يخطفوا ويجروا .. وكل واحد يخطف اللقمة والقرش والمقعد .. وإذا استطاع فانه يخطف انفاس الأخرين ، ويسحب الأوكسجين من هوائهم وكريات الدم من عروقهم .. ويسرق جهاز المناعة ليعيش ويموتوا .. المهم أن يعيش وحده على خرائب الآخرين!

حتى تكون الجمعيات والاتحادات والشلل الصغيرة ، ليس سببها أن الانسان لا يستطيع أن يعيش وحده بالآخرين ومعهم وضدهم ، وإنما سبب

هذه التكوينات الصغيرة ليس إلا تضخيما للفرد .. تعاظما للأنا فى مواجهة الادارة والمؤسسة والسلطة والحكومة والدولة .. وليست هذه الجمعيات إلا دعوة عامة لأن تتفكك كل المؤسسات إلى شركات صغيرة .. إلى شراذم .. إلى عصابات .. تواجه الدولة وتعارضها وتعتدى عليها .

ولكن يجب ألا نسىء فهم هذه الفردية الصاعدة .. أو هذه الانانية الاجتماعية .. أو هذه الذاتية النفسية .. هذه « الانامليزم » فهى تدل على أن الفرد قوى .. وأنه متين .. قادر على أن يقوم بنوع من الحكم الذاتى .. فى مواجهة الدولة .. والحقيقة أنه اسوأ من ذلك كثيرا جدا ..

فمثلا : ما هذه الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات .. لماذا هى حيوية ضرورية . بغيرها لانجاة ولانجاح ؟ لماذا هى أقوى من فقر الأب ، وصحة الأم ، وسلطان الدولة ؟

لسبب مهم جدا هو اننا قررنا .. أن يكون أطفالنا « عالة » .. علينا .. أن يظلوا أطفالا .. يرضعون ولا ينفطمون .. أن يظلوا عاجزين عن الاعتماد على اطرافهم ، ليبقوا مدى الحياة جالسين على حجر المدرس وصدر الأم .. مقعدين .. معوقين .. يمتصون مرتب الأب وعلاواته وحوافزه حتى يقترض ويرهن الدولاب والتليفزيون ومصوغات الأم والأخت ويمد يده إلى أيدى الآخرين !

والدولة لامانع عندها . فهى لاتستطيع أن تعطى لأى مدرس ألوف الجنيهات التى يبتزها من أولياء الأمور .

فالدروس الخصوصية هى علاوة يقبضها المدرسون من الطلبة .. والدروس الخصوصية هى « البوليو » شلل الأطفال الذى يصيب الشباب والرجال بالطفولة الدائمة .. بالكساح .. بالتواكل والسلبية .. حتى إذا تخرج الشباب فى الجامعة ظلوا مثل عرائس الريف ينتظرون ابن الحلال لكى يحملها على حصان أبيض من بيت أبيها إلى « بيت العدل » أى بيت الزوجية السعيدة .. فالشباب يتخرجون وينتظرون أن تعينهم الدولة فى غير تخصصهم . بعد أن يكونوا قد اشتركوا مع الدولة فى أكذوبة اسمها : الخدمة العامة .. فلا هى خدمة ولا هى عامة .. وإنما هى « الخدعة » العامة ..

الدولة تخدع الشباب ، والشباب يخدع نفسه بأنه قد عمل شيئا من أجل الدولة .. أو من أجل نفسه .. أى تهيئته لأن يكون عاملا ـ لاشىء من ذلك !

فكأننا قررنا سرا : أنه لاعمل فى أى مجال .. ولكن لابد أن نملأ فراغا .. وأن يكون لهذا الفراغ اسم ورقم ودوسيه وكادر وأن يكون اسمه : العمل .. فكل واحد منا « عامل أنه يعمل » .. فالخدمة العامة » أصبحت مثل المسرحيات والأفلام .. أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمتفرج .. أى أنها شىء ليس حقيقيا .. شىء لم يقع ..

ولكن الممثل سوف يجعلنا نشعر أنها قد حدثت وأنه سوف يهزنا بعنف حتى البكاء .. وبعد أن نبكى نصفق لبراعته وقدرته .. والخدمة العامة هى هذه المسرحية .. هى هذه الأكذوبة ولأنها ركيكة فأننا لانبكى ولا نصفق ! .

ففى الأفلام والمسرحيات يتزوج الممثلون وتكون زفة وراقصة وطبل وزمر .. ثم يكون الموت للعروسين فى حادث ـ وكل ذلك لم يحدث . ولكن استطاع المؤلف والممثل والمخرج أن يقنعنا بكل ذلك ـ فنصفق فى النهاية للذين ضحكوا علينا وأدخلونا فى حياتهم دون أن ندرى . ولكن « الخدمة العامة » هزيلة التأليف سيئة الاخراج .. ثم شبابنا هو الممثل والمتفرج على خيبته .. ملايين المرات !

★ ★ ★

أبشع من ذلك أن الشباب أحس فجأة أنه غريب عن أهله .. عن بلده أنه « لاينتمى » .. ولذلك فهو يقول : وأنا مالى ـ مع أن المال ماله ـ ويقول : وهل أنا الذى نكست الجيش ومصر كلها ، هل أنا الذى خربت البيوت وهدمت النفوس .. هل أنا الذى حبست الألوف وقتلت مئات الألوف وكدست الديون .. هل أنا الذى حذفت اللون الأبيض من علم مصر فإذا هو أسود دموى أو هو دم حزين .. أننا ورثة العار وأبناء الهوان .. أحفاد الخطيئة .. فمن هذا الذى يطلب منا أن نرتفع فوق الألم .. كيف .. إن الذين يطلبون من الشباب هذا التسامى .. هذا التنامى .. هذا التعامى .. لم يفلحوا هم أنفسهم فى أن يكفوا عن لطم الخدود وشق الجيوب ..

ولذلك فهم يقولون : وأنا مالى أعالج مريضا فى مراحله الأخيرة .. وأنا مالى أزرع أرضا حرثتها دبابات النكسة ودبابات النصر أيضا .. كيف أسدد ديون والد سكير وأم غانية .. أنهم لم يوفروا لنا القهوة السادة نشربها حدادا أبديا .. أين نجد لسانا يتذوق ، بعد أن ضاعت وظيفته كعضو ناطق بالألم .. كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ أين ؟

ولذلك أسند ملايين الشباب ظهورهم للحائط .. لسور المدرسة والجامعة

والمسجد .. ونظروا إلى مواكب الحياة فى مصر ، لايشاركون فيها !

قضية الشباب فى العالم كله واحدة .. لقد عزلوهم عن الحياة ، وعزلوهم عن المشاركة ، وأخفوهم فى بطون أمهاتهم وانتهزوا غيابهم فهدموا كل صروح الحضارة والإنسانية .. ومن هول الحرب وفداحة النكسات العسكرية فى كل مكان أجهضت الأمهات فكان هذا الجيل المبتسر الذى يجب أن ينمو بسرعة .. يقف يبنى الذى لم يهدمه .. يروى الذى لم يزرعه .. يحصد الشوك الذى لم يبذره .. وأن يبتسم من أجل الغد حتى يكون قادرا على صناعة المستقبل .. وتكفيرا لخطايا والديه ؟ ! كيف ؟ !

ولما تعددت النظريات والمذاهب وظهر الأنبياء الكاذبون .. والمسيخ الدجال فى السياسة والاقتصاد .. ولم يفهم الشباب شيئا لأن رؤوسهم أصغر من الأكاذيب الضخمة والاجتهادات الابهة . كانت الدروس الخصوصية فى الأحزاب والندوات والمؤتمرات الشعبية .. لابد من الدروس الخصوصية .. فقد اعتاد الناس ، ألا يفكروا ، وألا يدبروا .. فقد كان يهبط عليهم التفكير من فوق ، وينزل عليهم التدبير من فوق ايضا .. وبذلك يتأكد عجز الشباب عن الفعل ورد الفعل .. ويتأكد انه ليس له فى نفسه شىء ، ولا فى جسمه ولا فى إرادته ولا فى حياته ولا فى مستقبله ولا فى شهادة الميلاد .. فالكبار الذين يملأون له « خانات » الميلاد .. فيلدونه فى أى وقت ويجعلونه ذكرا وأنثى ، وشرعيا ولقيطا .. ثم يتفاءلون به ويدعونه هو الآخر إلى أن يتفاءل ..!

وبعد ذلك نتقاذف التهم .. نحن نقول إن الشباب متطرف .. أى انه يقف على طرف بعيد عنا .. ومن حق الشباب هو الآخر أن يقول إننا نحن الكبار متطرفون أيضا ، ولنفس السبب .. فنحن نقف على طرف بعيدا منه .. ولكننا الكبار نملك وسائل ادانته فى الاذاعة والتليفزيون والصحف وعلى المنابر وهو لا يملك إلا أن يشكونا الى الله .. يدعو .. ويستعدى علينا عدالة السماء .

ولما تعددت الكتب المقدسة فى أيدينا .. اناجيل عبد الناصر ومزامير السادات .. وخطب حسن البنا « وكاستات الخومينى » وبروتوكولات ماركس ، تساقط الشباب ساجدين أمام الكتاب الواحد الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ..

ولما تعددت الزعامات المشروخة والانبياء النصابون وقف الشباب طابورا حول الشخص الواحد الذى هو على خلق عظيم ، الذى هو خاتم الانبياء وسيد

المرسلين .. ولما ضاق الشباب بنفسه ، وضاق الذين حوله به ، احتشدوا .. فى المكان الواحد .. أنبل وأشرف مكان فى قبلة واحدة ، يدعون ربهم خوفا وطمعا مهاجرين إلى الله ، كافرين بهذه الامشاج من الناس فى البيت والمدرسة والحزب !

★ ★ ★

وأفظع من كل ذلك أن لديهم شعورا بالنهاية نهاية القرن .. نهاية الطريق .. نهاية الحياة .. بأن القيامة سوف تقوم .. وكأن هؤلاء الشبان لم يكفهم ما يلقون من عناء وعنت ، فانهم راحوا يستعدون للعذاب بالقراءة عنه .. فانتشرت كتب عذاب القبر والعذاب فى عرصات القيامة .. وعذاب البعث والنشور .. وعذاب الصراط المستقيم .. ونسوا أن يقرأوا عن الجنة والسعادة فيها وعن الراحة السامية « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاماً » .. ولكن احدا لم يكتب عن الجنة . كأنه لا جنة .. وانما عذاب مقيم .. كأن العذاب هو نصيبهم فى الدنيا والآخرة .. أليسوا شبابا ؟

انهم مثل الذين وقفوا فى المحطة فى انتظار آخر اتوبيس .. قلقون .. يتزاحمون .. يتضاربون .. يدوس بعضهم بعضا .. يحشرون أنفسهم فى أضيق باب .. آخر فرصة .. ولذلك فهم لم يفهموا شيئا .. فقط انتظروا .. أحرقوا أعصابهم .. دماءهم .. لم يأكلوا لم يشربوا .. لم يفكروا . أحيانا يتوهمون انه آخر اتوبيس .. ويتوهمون انه جاء .. وانهم وجدوا مقعدا .. فإذا جاء مات بعضهم من الفرحة .. ومات بعضهم من الزحام .. والسائق هو الآخر يريد أن يفرغ من هذه الشحنة الثقيلة .. فلا يتوقف .. وهو لا يسمع الصرخات .. يسابق السيارات ويصطدم بها ويدوس الناس .. فالكل يجرى .. يسابق .. ينهش .. يلعن .. يصرخ .. إنها النهاية .. نهاية كل شىء .. وليس بعد ذلك أى شىء !

فكل شىء مخيف .. واذا لم يجد الناس ما يخيفهم فانهم يخترعون المخاوف .. يضعونها ويبكون أمامها .. لقد اخترعنا الموت الذرى ورحنا نلعنه .. اخترعنا التلوث وجعلنا نفزع منه .. اخترعنا الامراض فى دمائنا ونحاول التخلص من دمائنا وجلودنا .. نقلنا الخوف من خارجنا الى داخلنا .. لقد اسكنا الموت فى عروقنا ، ونعمل جاهدين على اخراج الموت لكى نحاربه فى ساحات القتال .

ولكن الشعور بالنهاية يتعمق عند الشباب فهم على يقين من أن الموت قادم

من داخلهم ومن خارجهم .. قادم لا محالة .. وكما ان الفلكيين يتوقعون نهاية الحياة بأن تقترب الارض من الشمس فتحترق ، او تبتعد الأرض عن الشمس فنموت من البرد .. فالموت حارا أو باردا قادم لا محالة . ولذلك يجب أن يعيش الشباب ، فى حالة انتظار للنهاية .. وانتظار الموت هو موت يسبق الموت !

* * *

أفدح من ذلك أن يشعر الشباب بتفاهتهم .. فراغهم .. خوائهم بأنهم قد افرغوا الحياة من المعنى والدور .. تماما كما أن حاضرهم قد افرغ من المستقبل .. فالحاضر ماض قريب ، والماضى حاضر بعيد ..

بل أن لديهم شعورا بتآكل المستقبل .. خائفون .. مضيعون .. مبددون .. شظايا .. شظاياهم ..

أما وسائل النجاةالمزيفة فهى البطولات الوهمية السينمائية والمسرحية .. ففى الأفلام يجدون قصصا رائعة وقصورا .. وحياة سهلة .. ومسارا منطقيا لكل الأحداث .. وله بداية ونهاية سعيدة .. يعيشون هذا الكذب الجميل ، ويتعلقون بالأبطال الخرافيين والخرافات .. ويجدون فى هذه المعايشة نوعا من التعويض ،، هذا التعويض النفسى والمادى ساعة أو ساعتين .. وبعد ذلك يعودون إلى حياة النهاية .. أو نهاية الحياة أو انتظار لفرج أو التفريج الذى يجىء فيبعدهم عن كل شىء .. فى انتظار موت هذا الزمان ..

أو بالمخدرات التى تحقق لهم ما هو اروع وابدع واهدأ من كل ذلك .. فإذا لم يجدوا المخدرات ، أراقوا الدماء من أجل الحصول عليها.. فكأنهم عندما كرهوا النكسة العسكرية وكرهوا الضحايا واستنكروا الدم ، كان لابد من دماء المدنيين لكى ينسوا بها دماء العسكريين !

ما الذى يريدونه ؟ ما هى آخر رغباتهم قبل النهاية ؟ . انهم يريدون أن يتركوا أثرا ، أى أثر ، بعدهم .. صرخة اهة ..بقعة دم .. انهم يمدون أيديهم إلى ما بعدهم ، ويلقون ظلالهم إلى ما وراءهم ..

هل هناك أمل ؟

نعم . كيف ؟

لا سبيل إلا أن نتوقف فورا عن « تجريف » الحاضر من أجل بناء الماضى !

٢ أغسطس ١٩٩٠ **أنيس منصور**

ولكننا لم نخرج من يونيو !

مجموعة من الشباب الألمان كتبوا مذكراتهم عن رحلة فى مصر فى العام الماضى . جعلوا مذكراتهم على شكل خطابات بعثوا بها الى أصدقائهم فى القاهرة والاقصر والاسكندرية والعلمين .. الكتاب عنوانه « وسوف نبقى أصدقاء » .. أى أنهم رغم النقد المرير لكل الذى لم يعجبهم فى مصر ، ستبقى الصداقة بينهم ولاداعى لأن أكرر مانعرفه جميعا عن النظافة ـ انعدام النظافة ـ والنظام والأخطاء الاملائية فى اللافتات الرسمية والأهلية .. وعن فوضى المرور وعن العمارات التى تنهار فور الانتهاء منها .. وعن الضوضاء والتلوث بكل أنواعه .. وعن ابشع منظر يراه انسان فى كليات مصر كلية الآداب جامعة القاهرة نموذج للقذارة .. الأرض والأبواب والنوافذ والسلالم والبوفيه ..

وقد اندهش أحد الطلبة الألمان عندما زار أحد زملائه من كلية الهندسة فقد لاحظ أن البالوعة مسدودة .. وأن هناك « ماسا » فى بعض الأسلاك .. وأدهشه أكثر أن يظل هو وصديقه يتحدثان عن هذا الخلل ، ثم لايفكر صديقه المصرى فى اصلاح شىء .. وانما استدعى شابا بجلباب أصلح البالوعة والسلك الكهربائى .. وأعطاه مبلغا من المال . وراح يشكو من ارتفاع أجور الاسطوات والعمال الفنيين الى أضعاف مايتقاضاه المهندس .. ثم الشكوى العامة من كل الأوضاع فى مصر والوجود الاسرائيلى فى قلب الأمة العربية .. أما الذى لم يفهمه الطالب الألمانى فهو أن زميله المصرى يستطيع أن يصلح البالوعة .. ويستطيع أن يصلح الأسلاك الكهربية وبمنتهى السهولة .

أما تعليقه على ذلك فهو أن العمل اليدوى لايزال غير محترم فى مصر . ولم يفهم الطالب الألمانى كيف يكون الإنسان مهندسا ثم لايستخدم يديه .. وما العيب فى أن تتسخ يداه ؟ لم يفهم !

ومعه حق . ولكن هناك سببا أهم من ذلك هو أن لدينا احساسا عاما بأن شيئا « يغرق » .. أو بأن كل شىء يغرق . وأنه لاأمل فى علاج او اصلاح . وأن المصريين يفضلون الشكوى والبكاء .. فنحن لانصلح البالوعة ولا الأسلاك وانما نأتى بمن يفعل ذلك وندفع له .. ثم نشكو من ارتفاع أجور الاسطوات ..

وبدلا من أن نصلحها نحن بأيدينا لتبقى أطول ، فاننا نختار من يصلحها بالفلوس ، ويبقى الاصلاح وقتا قصيرا فنشكو ونستدعيه وندفع ونشكو أكثر وأطول .. فكأننا نساعد السفينة على ان تغرق وتغرق ..

وأحيانا نرفض إصلاح الأشياء وإنما نتركها . لا لأن اصلاحها صعب .. ولكن لأن عدم اصلاح اى شيء « يتمشى » مع عدم اصلاح كل شيء فى الاقتصاد والسياسة والزراعة والتعليم .. فهناك شعور عام بأن كل شيء قد فسد ولا أمل فى اصلاح .. بل لاداعى للاصلاح .. فقد وصلت الأشياء الى أسوأ حالاتها .. وانما الأمل أصبح نوعا من الترف .. وننسى ان « غرق » كل شيء هو « غرق » لنا ايضا .. واذا اردنا أن ننجو فليس بالهرب من السفينة والقفز الى المحيط ، وانما باصلاحها معا حتى نبلغ اى شاطئ للأمان .. ونبدأ فى الاصلاح المكثف أو بناء جديد للسفينة وبناء لنفوس البحارة والقيادة والمسافرين !

وقد لاحظ الطلبة الألمان أن المصريين على درجة كبيرة من الغرور وأنهم سادة العالم وسادة العرب بصفة خاصة .. وأنهم لم ينهزموا فى كل الحروب مع اسرائيل !

والملحوظة صحيحة . ولكن لأسباب أخرى غير التى ذكروها . فهذا الغرور أو هذه النغمة الكاذبة ، سببها شعور عميق بالاحباط والفشل .. فالمصرى قد انسحب من المعارك الى داخل مدينته ، ومن المدينة الى داخل الأسرة ، ومن الأسرة الى داخل الذات .. فهو قابع فى داخله .. وعندما وجد نفسه مع نفسه أحس أنه فى أمان وأنه قوى .. وأنه عظيم .. وأنها لم تلد غيره .. أمه لم تلد غيره وكذلك اسرته ومدينته ومصر والأمة العربية .. فهو مثل مخمور وقع فى الوحل ويقول : أنا جدع ـ هو الذى يقول ، ولكننا لانراه

كذلك فهذه النفخة أو هذه « العظمة » هى نوع من التعويض دفعه لنفسه ، عن الاهانات الشخصية والعائلية والقومية التى لحقت بنا بعد النكسة العسكرية بصفة خاصة . ومازال يعانى هو وأولاده لأجيال قادمة ـ مالم نجد له حلا أو علاجا هو الحل ، او حلا هو العلاج !

وبعض الحيوانات والطيور تفعل ذلك .. فنجد أن الطائر عندما يتعرض للخطر فانه ينفخ ريشه ويشغل مساحة اكبر وتتطاول رجلاه وجناحاه وعنقه ومنقاره .. إن الخوف يدفعه الى التظاهر بأنه كبير قوى مخيف . والحقيقة أنه ليس كذلك . وانما يوهم غيره ونفسه بذلك !

فهذا الغرور وهذا الامتلاء بالذات والزهو ليس إلا فهما خاطئا للأشياء والعلاقات ـ فهم خاطئ لنفسه ولما حوله .

★ ★ ★

ولابد من هذه الأسطورة الاغريقية التى تساعدنا على فهم انفسنا : يقال ان شابا جميلا اسمه « نارسيس » .. أبدعت الآلهة فى صنعه .. وفى صنع أخت له جميلة جدا . ولسبب ما ماتت الأخت . وحزن الأخ عليها . وفى يوم جلس الى نبع من الماء فرأى صورة على الماء .. فظن ان الذى يراه فى الماء هو صورة « روح » هذا الينبوع .. أو هى صورة « الحورية » التى تحرسه .. أو هى صورته هو .. ولأنه شبيه بأخته ، فهو يرى فى صورته مايذكره بأخته .. وكلما حاول أن يمسك الصورة اهتز الماء ، واضطربت الصورة .. وظل يحاول وقد امتنع عن الطعام والنوم . ولما يئس قتل نفسه يأسا وحزنا ولما سقط جسمه فى الماء اختفى الجسم الجميل وظهرت زهرة النرجس ، بيضاء ناصعة وعليها موجات من اللون الأحمر .. وملأ عطرها المكان .. ومن تناثر الماء الى الشاطىء نبتت زهرات النرجس التى لاعطر لها ..

ولما جاءت أمه وأبوه واقاربه ينقلون الجثمان ليدفنوه فى مكان آخر ، لم يجدوا الا هذه الزهرة ..

وكانت الآلهة قد حذرت الأم من أن ينظر ابنها نارسيس ـ ومعناه نرجس ـ الى صورته فى الماء .. وسوف يطول عمره اذا لم ير نفسه . وقد أفلحت أمه فى ابعاده كثيرا عن الأنهار والمرايا حتى كبر ، ولكن عندما ماتت أخته ظل هائما يبحث عنها حتى وجدها فى صورته هو فى الماء !

وتقول اساطير الاغريق ايضا إن كل من يحمل اسم نرجس تحل به هذه اللعنة .. فقد كان للامبراطورة مسالينا سكرتير اسمه نرجس .. هذا السكرتير استولى عليها وعلى السطة ، ومازال يتسلط عليها حتى اقنع الحاشية بقتلها .. وقتلوها . وقد جاءت أختها ، فانتقمت فقتلته . أما جريمة نرجس هذا فهى انه كان يرى انه أحق الناس بالملك .. بل انه أول رجل فى التاريخ أعلن أنه لن يتزوج .. فهو الزوج والزوجة معا .. وعندما كان يحس بحاجته الى امرأة ، كان يرتدى ازياء النساء . وعندما كان يحس بأنه فى حاجة الى رجل كان يرتدى ملابس الرجال . وكان يقول : أنا فى حالة اكتفاء ذاتى .. إننى غنى عن الناس .. وعن كل شىء !

وكان يقول : انا البداية والنهاية !

وهذه هى « النرجسية » .. اى الأنانية المطلقة .. أى عشق الانسان لذاته ، وكراهيته لغيره من الناس .. بل انه يرى الآخرين وسيلة يحقق بها رغباته .. أو أنهم « أداة » آلة .. وانه فاشل اذا اتصل بالآخرين .. ولذلك ليس أمامه إلا نفسه .. وإلا احساسه .. وإلا رغباته .. وارادته .. فهو لم يفلح فى التعامل او التوافق مع الآخرين ، فهرب منهم إلى نفسه .. وفى نفسه وجد الحضن الدافىء والكنز الذى لا ينفذ ..

والانسان ـ عادة ـ لايرتد إلى نفسه إلا فى اعقاب الهزات النفسية العنيفة .. فالنرجسية من مظاهر اضطراب الشخصية .. فالانسان ليس سويا اذا كان يتصور انه هو العالم .. أو وحده فى العالم ، وانه يستطيع أن يفعل وأن يكون كل شىء بنفسه ودون حاجة الى أحد .. أو أنه لاأحد سواه !

فهل درسنا وحللنا وفهمنا ماذا أصاب المصريين من الزلزال العنيف الذى حدث فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعده حتى اليوم ؟

هل ذهب علماء النفس يسألون الجنود والضباط :

ماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ واذا كنت نجوت من الموت ، فهل نجوت نفسيا أيضا ؟ ما الذى تراه فى نفسك ومن نفسك ؟ وما الذى تراه فى أهلك وفى بلدك ؟ خسران أنت أو كسبان ؟ هل حاربت ؟

هل انتقمت من عدوك ؟ هل انتقمت ممن هزمك ؟ هل تحارب مرة أخرى من أجل مصر التى لا أعطتك ولا أحترمتك ولا قدرتك . ولاسألت عن الذى أصابك وأولادك وزوجتك وشرفك ؟ هل لاتزال تعتقد أنك أفضل من عدوك ؟ هل تعتقد أنهم هزموك ، أو أنك أنت الذى انهزمت قبل ان يهزموك ؟

لم نسأل رجال القوات المسلحة العائدين من النكسة . ولا عرفنا ما الذى أحسوا به يومها وبعدها بأيام وشهور وسنين !

ولكن اسرائيل فعلت ذلك . فقد انتهت حرب الأيام الستة بسرعة مذهلة . حتى كأنها لم تكن حربا وانما كانت تدريبا عمليا على القتال . ورغم ان اسمها حرب الأيام الستة ، فبعض الجنود حارب يوما وبعضهم حارب يومين .. فقد بدأت الحرب فى مصر واستمرت فى الأردن وانتهت فى سوريا .

لم تكن حربا شاملة ، وانما كانت حربا دفاعية ـ قامت بها اسرائيل ضد

قوات عربية أقوى وأكثر عددا واستعدت للابادة الشاملة ـ هذا ما يقوله العلماء الاسرائيليون للعسكريين والمدنيين ..

ووجد علماء اليهود من اسرائيل ومن أمريكا أن الحروب تسبقها عادة مشاعر ودوافع قوية تجعل القتال راحة كبرى للجنود الذين استعدوا طويلا للقتال ، والذين شعروا بالملل من الانتظار والذين يحنون لعائلاتهم ، ويريدون استئناف حياتهم العادية . وفى اسرائيل نوعان من الجنود : المنظمون والمتطوعون .. والمتطوعون لهم حياتان : عسكرية ومدنية ..

وعند الجندى الاسرائيلى عقيدة أنه إما أن ينتصر أو يموت .. لابد أن ينتصر وإلا تكاثر عليه الأعداء من كل مكان وقضوا عليه . ولذلك استعدت اسرائيل بأن جعلت الوحدات العسكرية وحدات عائلية . فالجندى ينضم الى وحدة عسكرية لا يتركها حتى الموت .. فهم يعرفون بعضهم البعض تماما . ولا توجد فوارق بين الضابط والجندى .. ولذلك فالوحدة كأنها جندى واحد قوى . والجندى فى دفاعه عن الوحدة ، والوحدة فى دفاعها عنه ، إنها تحمى الفرد والدولة أيضا . وهذه الوحدة العائلية تهون عليه الخوف والشعور بالخطر .. وفى نفس الوقت تجعله لايفزع اذا رأى الموت والدماء .. فان لم يقاتل ويقتل فسوف يلقى نفس المصير .. ثم شىء آخر : هو يجب ألا يعرض نفسه أو زميله للخطر .. واذا أصابه شىء فلا خوف ، فسوف يصلون اليه مهما كان .. إن كان جريحا نقلوه أو حملوه بالطائرات ، وإن كان قتيلا فسوف يعيدونه الى أهله .. وان لم يعيدوه كله .. فخصلة من شعره أو اصبع من قدمه .. أو حتى حذائه .. لن يتركوه مهما كانت إصابته ..

ولاحظ العلماء أن هذه الحرب قد أفلحت فى تذويب الفوارق بين اليهود الشرقيين والغربيين .. كلهم حاربوا وقاتلوا وتفوقوا ..

ولاحظ علماء النفس أن الجنود الاسرائيليين قد أصيبوا بصدمة عنيفة .. فهم لم يتصوروا أن تنتهى الحرب بهذه السرعة . ولم يتصوروا أنهم بهذه القوة . لقد أخافتهم قوتهم . وبعضهم قد تعلم أن اسرائيل دولة تريد أن تعيش فى سلام . وأن دينهم يدعو للحياة والسلام وليس للقتل والدمار .. ولذلك عاد كثير من الشباب الى مستعمراتهم لا يتكلمون ولا يريدون وعندما ذهب اليهم علماء النفس يسألونهم رفضوا الكلام . رفضوا أن يقولوا شيئا عن الذى حدث .. وأنهم كرهوا بلادهم وأنفسهم ودينهم أيضا ، والأكاذيب الطويلة التى

عاشوا بها ومن أجلها .. وأن قادتهم السياسيين والدينيين قد خانوهم !

وقد أطلقوا على هؤلاء الجنود : الجيل الصامت !

أما أكبر مشكلة واجهها علماء النفس فهي ظاهرة الغرور والنفخة والزهو والتعالى .. الغرور الفردى والغرور القومى والغطرسة السياسية والنرجسية الدينية . أحس العلماء أن هذه أكبر كارثة .. وأن هذه كلها تدل على مصيبة قد حلت باسرائيل كلها .. فسوف يؤدى هذا الغرور الى حرب أخرى .. واذا انهزم اليهود فى هذه الحرب فسوف تكون أكبر كارثة حلت بالغرور الفردى والغرور القومى والعنصرى - إن اسرائيل كلها بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت هى ثلاثة ملايين نرجس الذى رأى صورته فهام بها ومات فى سبيلها .. لقد انتفخ حتى انفجر - هذه هى المصيبة الكبرى . ومعنى هذه المصيبة أن اسرائيل قد انتصرت عسكريا ، ولكنها انهزمت نفسيا وفرديا وعائليا وقوميا !

وكلما بالغت اسرائيل فى عظمتها وبراعتها وعبقريتها ، ازدادت رغبة العرب فى الانتقام .. وزاد التعصب الدينى لليهود وللصهيونية العالمية ولأمريكا . ولذلك لابد أن يتدارك العلماء هذا الموقف بسرعة .. وأن يلقوا بعض الماء البارد على رؤوس هؤلاء الذين أسكرهم النصر .. والذين وصفوا شارون بأنه الملك شارون .. ووصفوا عودتهم الى مصر ، بعودة موسى الى الأرض التى طرد منها .

وظهرت رواية تقول بانه لابد من نسف السد العالى وأغراق مصر كلها .. وبدلا من إلقاء اليهود فى البحر ، فإنهم سوف يغرقون المصريين فى نيلهم .. وهنا تجىء سفينة نوح من اسرائيل لانقاذ المصريين .. وبدلا من القاء اليهود فى البحر ، فإن اليهود سوف يأتون بالبحر لكل العرب ..

وظهرت الأغانى والنكت والقصص والمسلسلات كلها للسخرية من مصر والعرب .. وهنا فزع العلماء من نتيجة كل ذلك !

ولما انتصرت مصر على اسرائيل يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك أسوأ يوم فى تاريخها .. فقد ضربتهم مصر فى عيد الغفران .. وبكت جولدا مائير ومعها كل القادة .. فقد انهزموا بالزهو فى سنة ١٩٦٧ ، وبإيمانهم المطلق بأن نصرهم هو النهائى ، وأن مصر قد وجدت لتنهزم وراءها ومعها كل العرب ..

وكان الرئيس السادات قد حطم أعصاب اسرائيل عندما كان يبعث لهم من حين إلى حين بجثة وجدناها فى البر والبحر .. فهذه الجثة كانت تجدد الأحزان فى اسرائيل .. وبقدر سعادتهم بأنهم وجدوا جثة ، بقدر حزنهم على أنها حركت

الأوجاع النائمة والآلام المبرحة ..

وقبل انسحاب اسرائيل من سيناء ذهب سفير اسرائيل موشى ساسون إلى الرئيس السادات يطلب إليه : سيادة الرئيس أرجو ألا تجعل يوم الانسحاب يوما حزينا فى اسرائيل .. أرجو أن يتم الانسحاب بهدوء بلا طبل عنيف وزمر مدو .. !

ولذلك كان الاحتفال برفع العلم المصرى هادئا .. وكان السادات يقول : تكفينا هزيمة اسرائيل فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. ولتفتح صفحة جديدة للتعايش الهادىء والسلام !

* * *

أما أمريكا فقد درست حال الشباب بعد أكبر نكسة عسكرية فى تاريخها فى ڤيتنام . فقد اصطدمت رؤوس الشبان فى أمريكا بناطحات السحاب وتمثال الحرية وتمثال واشنطون .. وأحس هؤلاء الشبان أن دولتهم كذبت عليهم .. فعلى تمثال الحرية كتبت الشاعرة ايما لازاروس تدعو المضطهدين والمعذبين فى العالم إلى أحضان أمريكا التى هى أم المساكين والمظلومين .. أم التسامح بين الأديان والألوان ..

لقد أحس الشبان أن أمهم كاذبة .. كيف تبعث بقواتها تقتل الأبرياء فى ڤيتنام دفاعا عن أمريكا ، تقتلهم حبا فيهم ، تشوههم اعجابا بهم ، تضع السموم فى المياه وتقتل النباتات والحيوانات من أجل أن يبقى شعب ڤيتنام .. كيف ضربت بالقنابل الذرية شعب اليابان .. ثم تدعى بعد ذلك أنها حصن السلام ، درع الأمان كنز الفقراء ، جنة الخاطئين ..

لقد كفر الشباب الأمريكى بهذه الدولة الجبارة ، بهذا العملاق الذى طار عقله ، بهذا العبقرى المجنون الذى يبدد البلايين على الصواريخ وسفن الفضاء ، بينما لو أعطاها لملايين الفقراء فى العالم ، لأصبحت الدنيا جنة حقيقية .. ولقضت بذلك على الشيوعية التى تكسب أرضا وشعوبا بتعميق كراهيتهم لأمريكا وتناقضاتها السياسية والفلسفية .. كفر الشبان .. تركوا المدارس وهربوا من الخدمة العسكرية .. وهاجروا من البيت وناموا فى الغابات يقلدون جثث القتلى فى ڤيتنام .. ثم هاجروا من أمريكا إلى غابات الأمازون ينتحرون معا .. فقد كرهوا الحياة معا فى أمريكا .. وكرهوا أن يموتوا على أرضها !

واتسعت لهم الحانات والمواخير والاصطبلات .. وارتفعت من أفواههم سحب الدخان الأزرق .. لقد قرر هؤلاء الشبان ، بمئات الألوف ، أن ينسحبوا من الحياة ومن العائلات ومن المعامل ومن الجيش .. وأن يضعوا أنفسهم فى قائمة الهاربين من الحياة .. وحذفوا أنفسهم من الأحياء فى بلادهم .. إن بلادهم تقتل أبناء فيتنام بلا قضية ، فلماذا لايقتلون أنفسهم بأيديهم فداء لأهل فيتنام ..

وظهر العنف بكل أشكاله .. والسرقات والخطف .. وهتك الأعراض .

وفى احدى المحاكم سأل القاضى طالبا صغيرا : كيف تعتدى على فتاة صغيرة تحبها ؟

قال الطالب : أننى لم أعتد عليها .. أننا اتفقنا على ذلك .. أما السبب الحقيقى فهو أن والدها قسيس .. وهذا الاعتداء على ابنته هو اهانة له .. وفضيحة له أمام الطائفة المسيحية : إذ كيف يدعو الناس إلى الفضيلة بينما هو لايستطيع أن يحمى ابنته .. فأنا لم أعتد على ابنته ، وإنما عليه هو .. على مذهبه .. وعلى دينه .. وعلى الدين كله الذى لم يمنع أمريكا من قتل الأبرياء .. فلا أحد من أهل فيتنام قد اعتدى على أمريكى واحد فى أى مكان ؟ !

ونهض علماء النفس والاجتماع والتربية لدراسة هذه الحالة المروعة التى انحط إليها الشباب الأمريكى .. وكيف يمكن علاجها ؟ ..

وتشكلت لجان حقيقية ذات صلاحيات عريضة وذات فترة محدودة لتقديم التشخيص والعلاج . وقدموا تقارير علمية لرئاسة الجمهورية . فالموقف خطير . والخطر شامل . وهذا الشمول يهدد المؤسسات العسكرية والمدنية ، فالشباب ضد الدولة : ضد الادارة بكل أشكالها .. وهذا الشباب هو المستقبل . وحتى لايضيع المستقبل لابد أن يتداركه الحاضر بسرعة ..

ومن أعجب التقارير وأمتعها التى قدمت للرئيس الأمريكى تقرير عنوانه : التقرير المصور المقدم لرئيس الجمهورية من لجنة بحث الخلاعة والصور العارية .. التقرير فى ٣٥٠ صفحة كل صفحة من ثلاثة أعمدة وبالبنط الصغير .. وهو من أعمق وأجمل وألطف الدراسات التى قرأت فيها .. فقد لاحظت هذه اللجنة بعلمائها المائة والأربعين .. أن ظهور الاباحية والصور الانحلالية العارية والأفلام الجنسية دليل على أن الشباب مصر على أن ينسحب من الحياة ، وأن يستغرق فى الجنس دون أن يشارك فى الحياة الايجابية ..

ويساعده على ذلك الكثير من المخدرات .. وأهم مايساعده على ذلك : إهمال الأب والأم ويأس المدرسين ورجال الدين واستهانة الحكومة بكل ذلك .. وابتعاد علماء النفس والتربية عنهم .. فقد تركوهم يفكون عقدهم ويخففون توترهم وحدهم .. أما العلاج فيبدأ بأن تمتد الأيدى إليهم ، وأن نعانقهم بحرارة وبعد ذلك نفسر لهم هذا المسلك الأبوى الذى يجب أن يسبقه الاعتذار الشديد عن الإهمال لهم .. وبعد ذلك يبدأ الحوار .

ومما أهتدت إليه هذه اللجنة أن عددا كبيرا من الشباب يصنعون التماثيل ويضعونها فى مكان مرتفع . أما المعنى فهو نوع من تقديس الذات . كرد فعل عن اهمال الدولة لهم ، واحتقار المجتمع لسلوكهم .. فهم ليسوا عظماء هكذا ، وانما هم ينتقمون لأنفسهم ، ويعوضون أنفسهم بأنفسهم عن خسائرهم المادية والمعنوية - وهى قمة النرجسية !

ووجدوا التشخيص وعرفوا العلاج واستأنف الشباب دوره الايجابى فى حياته وحياة بلده !

* * *

* * *

أما نحن - وهذا هو الأهم - فلم ندرس ما الذى أصاب المصريين بعد النكسة العسكرية ؟ !

أول غلطة وقعنا فيها : أننا تكلمنا عن النكسة وعن الذين نكسونا وأسرفنا على أنفسنا فى ذلك حتى مللنا .. وضقنا بأنفسنا . رحنا نطالب بأن نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب .

وهى غلطة لأن الملل سوف يدفعنا إلى أن نسكت والسكوت إلى أن نتجه الى شىء آخر غير فهم وتحليل ما حدث ودراسة أثره العميق فينا ثم علاج ذلك - كما حدث فى اليابان بعد ضربها بالقنابل النووية ، وبعد نكسة أمريكا فى فيتنام . وبعد انتصار اسرائيل فى يونيو وهزيمتها فى أكتوبر ..

والغلطة الثانية : أن ظهرت كتب « الاعترافات » ..والذين اعترفوا كانوا عسكريين .. اعترفوا بأخطاء غيرهم من العسكريين .. أى أن العسكريين هم الذين ارتكبوها . وليكن ؟ فما هو أثر ذلك على الجنود وعائلاتهم وأولادهم وعلى المدنيين وعلى مصر فى السنوات التى جاءت بعد النكسة .. وعلى العشرين عاما الماضية !

فلم نكن نعرف أن العسكريين أيضا . مثل المدنيين ذئاب يهاجمون بعضهم بعضا .. ولم نكن نعرف أن حقد العسكريين على العسكريين يجعلهم هكذا يفضحون مصر على أعلى مستوياتها العسكرية ويعرضون أمنها للخطر .. لقد قال لى قائد عظيم أن ما كتبه الفريق فلان الفلانى يرقى إلى مستوى الخيانة العظمى لأنه بما كتبه قد عرض مصر لأكبر خطر فى تاريخها ـ ولكن أحدا لم يحاكم الفريق الفلانى على خيانتة العظمى !

الغلطة الثالثة : أن أحدا من القادة العسكريين قد صحح أخطاء القادة الذين اعترفوا بأخطاء غيرهم وبراءة أنفسهم ! وفى ذلك الصمت دليل على القبول .. أو دليل على العجز .. وفى الحالتين نحن أمام خيانة عسكرية ارتكبها الذين نكسونا والذين فضحونا !

الغلطة الرابعة : أن المدنيين من هواة التاريخ والمؤرخين والأدباء قد تفننوا فى السخرية من الجميع .. فقد لاموا العسكريين ، ولاموا المدنيين على انهم سكتوا .. ومازال المدنيون ساكتين ، وفى ذلك تأكيد للعجز العام عن فعل شىء أو فهم شىء !

وإذا حاولنا اليوم هذه الساعة ، أن نصحح التاريخ فسوف تواجهنا مشكلة كبرى وهى أن كتب الفضائح العسكرية قد سبقت الى النشر باللغات الاجنبية .. وسبقتها أيضا الكتب التى اقامت المهرجانات للجيش الاسرائيلى والتحقير للجيوش العربية .. فقد أضعنا على أنفسنا فرصة أن نصحح وأن ننصف أنفسنا من أنفسنا .. فقد أقفل باب التصحيح ! والتاريخ غير قادر الآن على استئناف الحكم فى النكسة العسكرية التى هى وكسة مدنية وكارثة نفسية وردة حضارية ! .

الغلطة الخامسة : هى أننا لا ندرى تفسيرا لهذا التشرذم الدينى والسياسى فى بلادنا . ونظن أن سببه نقص الحريات الدينية ، أو أنه الأزمة الاقتصادية ..

أما أن هناك سببا دينيا فليس صحيحا . فنحن لا نشكو من نقص فى الدين أو الايمان بينما « الجرعة » الدينية المتزايدة تنهال علينا من كل القنوات والبرامج والصحف .

فالدولة هى التى تتزعم التطرف الدينى .. فالتطرف الدينى تطرف رسمى ، أما الذى تراه فى الشارع فليس الا « رد فعل » .. أما الفعل فهو عشرات

الساعات فى الاذاعة والتليفزيون والصفحات عن الدين وأهوال القيامة .. أما أن هناك عناء اقتصاديا وخللا اجتماعيا فلاشك فى ذلك .. ولكن « التشرذم » والتعصب .. والعصابات .. ليس إلا بسبب النكسة العسكرية .. التى أصابت كل إنسان بالهزيمة فى نفسه وفى بيته وفى بلده وفى جيشه وفى أمته بين كل الأمم .. انهزمنا .. قهرونا . مسحوا بنا الأرض وهتكوا العرض وقالوا لنا : اشربوا من البحر الأبيض والأحمر والأسود .. اشربوا مياها ملوثة .. وموتوا بغيظكم .. فأنتم الذين جعلتم حكامكم فراعنة عليكم .. يضربونكم بالجزمة .. ثم تبكون على ذلك .. فأنتم قد اعطيتم والآن اخذتم ما تستحقون .. فلماذا الشكوى ؟

وأمام القهر الشخصى والعائلى والاجتماعى والقومى ، يتراجع المواطن .. ويتراجع حتى ينكمش فى ركن من بيته .. وحتى تنكمش نفسه فى ركن من جسمه .. وبعد ذلك يقوم بعمل تعويض لكل ذلك فيقول : أنا عائلتى وحدها .. مدينتى وحدها .. دينى وحده .. مصر وحدها .. نحن العرب وحدنا .. نحن المسلمين ..

وهكذا يخرج من تعصب الى تعصب .. وكل تعصب يحمل فى طياته سلوكا فرديا شاذا .. وعداء اجتماعيا .. عداؤه للآخرين .. وللعائلات الأخرى .. والديانات الأخرى .. والشعوب الأخرى .. وكراهية للغرباء رغم احتياجه لهم - وهذا هو اضطراب الشخصية الفردية والعائلية والدينية والقومية .. وإنه كفرد على حق والمجتمع غلطان ... أو أن الجماعة على صواب والجماعات الأخرى على خطأ .. ودينه هو الأصح ، وكل الديانات ضالة مضللة .. وقومه هم القوم ، ومن عداهم برابرة وحوش ..

والفرد مليان بنفسه .. وإذا كان فى الجماعة ، فلا يشعر بهم .. وإذا كان لاعبا فى فريق ، فهو وحده الذى يأخذ الكرة ويجرى بها ليضعها وحده فى الشبكة .. فلا روح للفريق .. ولا روح للجماعة .. ولا روح للدين ..

ومثل هذه « النرجسية » من علامات الطفولة أيضا .. فالطفل عندما تنمو شخصيته ، فهو يريد أن يكون وحده .. يلعب وحده ، ويأكل وحده .. هو الذى يقرر وهو الذى يعارض الآخرين ..

أما دور التربية والتعليم بعد ذلك فهو تحويل هذا الحيوان الصغير إلى حيوان يعتمد ويتعاون ويواجه الآخرين ثم يعيش معهم ..

فهل يا ترى نحن المصريين نريد أن نظل أطفالا ؟ ..

هل نريد أن نبقى هكذا منفوخين قد امتلأنا غرورا وفى نفس الوقت عجزا ، دون أن تمتد أيدينا الى أنفسنا نعالجها ؟

هل نحن المصريين آسفون على القدر المتعاظم من الحرية ، ونتعمد افساد هذه الحرية فنحولها بسرعة الى لعب بالنار ، هل نحن نريد ان نستدرج الحاكم إلى أن يبطش ويسجن .. وإلى إلغاء الحرية وفتح أبواب السجون .. وبذلك يريحنا من الحرية .. حرية الاختيار وحرية القرار .. والانتقال من البكاء الدائم على الماضى الى الحاضر والمستقبل ،، هل نحن نحفر قبورنا باظافرنا من أجل أن يظهر فرعون يلهب ظهورنا بالكرباج .. وبعملية حسابية نجد أن الكرباج الرسمى أرحم كثيرا من كرباج الضمير ومن مشقة ممارسة الحرية ؟

هل لو ظهر الفرعون نستريح الى أننا نرى فيه انفسنا : عظيما يبتلع كل العظماء ـ أو الذين يظنون فى انفسهم العظمة .. حين يكون عصا موسى التى تبتلع الثعابين الصغيرة .. هل المصريون لسبب جهلهم بما حدث ، أى بجهلهم بأنفسهم وما اصابهم ، يريدون أن يريحوا أنفسهم وعقولهم بالتطلع الى واحد يلغى العقل بوضعها جميعا فى النار .. فنموت أطهر وأنظف موتة ـ ولكننا نموت !

هل هذه رغبة مجنونة عميقة فى نفوسنا ، لميلاد من يحمل عنا كل الذنوب والندم ويكون مرة أخرى أكبر مجرم فى حق مصر والشعوب العربية ؟

إننا لا ندرى .. فلم يتبرع أحد من علماء النفس فيضع أصابعه على الداء الذى عمره الآن أكثر من عشرين سنة !

يدخل قلبك
ويسرق كلبك !

ففى ذلك الوقت كانت نوعيات المصريين : أتراكا وموظفين وفلاحين .. باشوات وأفندية وذوى الجلاليب الزرقاء . وكان المثل الأعلى هو أن يخلعوا الجلباب ويلبسوا البدلة والطربوش وألا يمسكوا فأسا وإنما قلما .. ليكونوا فى خدمة الأتراك من الأسرة المالكة أو حاشيتها .. فالمصريون لا فيهم أديب ولا فيهم خطيب .. ولا هم من أمثال أبناء اليابان تقدموا الفلاحين والصيادين واخترعوا لقد كانت اليابان ولا تزال مثلا أعلى لكل دولة ناشئة ناهضة ..

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كانت من أجل إنصاف ذوى الجلاليب الزرقاء من ذوى الياقات البيضاء . أى الباشا وحاشيتهم من الموظفين ..

قال شاعرنا حافظ ابراهيم يعيب على الفلاحين المصريين أنهم يحلمون بأن يكونوا أفندية باكوات باشوات . ومن أجل هذه الألقاب يهون كل شىء وكل أحد .. ولكنه يريد لبلاده أن تكون من المخترعين .. كاليابان مثلا :

وهل فى مصر مفخرة
سوى الألقاب والرتب
أرونى نصف مخترع
ارونى ربع محتسب
أرونى . ناديا حفلا
بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم
من التعليم والكتب ؟
وماذا فى مساجدكم
من التبيان والخطب ؟
وماذا فى صحائفكم
سوى التمويه والكذب ؟
فهبوا من مراقدكم
فإن الوقت من ذهب

فهذى أمة اليابان
جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفا
وهمنا بابنة العنب

وكان المثل الأعلى عند الفلاح أن يكون إبنه « أفندى » .. وأن يتوب الله عليه من الطين والترعة والشادوف . وأن يجلس على المكتب إلى جوار النافذة وأن يبقى فى القاهرة حيث الاتراك والبكوات والباشوات . من يدرى ربما صار واحدا منهم . فالمثل الأعلى عند الفلاح الذى صار « أفندى » أن يكون « بك » والبك أن يكون باشا . بشرط أن يأكلوا جميعا من الريف من بعيد لبعيد .. أن تكون لهم أطيان ليعيشوا فى القصور ..

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ألغيت الألقاب .. ولم يبق منها الآن إلا لقب « باشا » نطلقه على كل الناس .. وفى توسيع استخدام هذا اللقب أصبح تافها .. أصبح حاجزا بيننا .. فبدلا من أن تقول لأى أحد اسمه الحقيقى تقول له : يا باشا .. وبدلا من أن تقول فلان بك .. وقد يكون هذا وزنه أو حجمه فأنت تقول له : يا باشا .. وبذلك تعمل على اضاعة وزنه وحجمه .. وفى نفس الوقت « تمييع » صورته عندك .. لأنك تريد ذلك ، ولانك لا تعرف لأحد وزنا حقيقيا .. ولأن الناس جميعا باشوات ..

سمعت من الملكة السابقة فريدة ـ رحمها الله ـ أن بوابا كان ينقل لها احدى لوحاتها فسألها : أين أضع هذه اللوحة يا مدام ؟

فقالت له : لا تقل لى يامدام .. قل لى أفندم .. أو قل لى جلالتك .. فقد سمعتك تخاطب بوابا آخر وتقول له : يا باشا .. فكيف يكون هو باشا وأنا مدام ؟!

وأصبحت كلمة باشا تساوى : فلان الفلانى .. فأنت باشا يعنى : أنت أى انسان .. فهى ليست تحية لك .. وانما هى إبعاد وتجهيل لك !

وفى السنوات الأولى للثورة كنا نقول لبعضنا البعض : يا سيد .. وكنا نطلقها بصورة مضحكة مهينة .. حتى ماتت على ألسنتنا ونبتت مكانها كلمة باشا .. ويا باشا !

وبعد ثورة يوليو انفتحت أبواب القرية على المدينة ، والعكس .. وانفتحت المدارس لكل الناس .. ابن الخفير وابن الوزير .. كلهم يريدون تعويضا أدبيا وماديا عن الذى أصابهم .. كلهم يريدون أن يتعلموا وأن يتوظفوا .. فالوظيفة

حق ، لأن التعليم حق .. والتعليم هو الطريق إلى الوظيفة .. وبدأ المجتمع المصرى يزحف ويتعالى ويتسامى على الأرض وعلى الطين وعلى الزراعة من أجل الوظيفة .. والفلاحون هم أيضا تركوا الريف إلى المدينة .. ومازال النزيف الريفى يصب فى المدينة .. حتى ابتلعت المدينة كل القرى .. وبدلا من أن تأكل المدينة من أيدى الفلاحين ، جلس الفلاحون تحت موائد الأفندية ينتظرون الرغيف والخضار والفاكهة .. فالفلاحون تنكروا للأرض ، والأفندية تنكروا لآبائهم من الفلاحين .. وأصبحت الأغلبية الساحقة من الريفيين أى من الأفندية أولاد الفلاحين ! فالفلاح هو الذى يضرب الأرض بالفأس ، والريفى هو الذى أبوه فلاح ولم ير الفأس إلا على شاشة التليفزيون !

سألت طفلة صغيرة أباؤها من الفلاحين إن كانت قد رأت القبقاب فأجابت بسرعة : نعم مع طانط شجرة الدر !

تقصد أنها شاهدت ذلك فى فيلم شجرة الدر التى قتلت زوجها وقتلوها بالقباقيب !

وفى السنوات الأولى لثورة يوليو كان المثل الأعلى عند الشباب إلى جانب أن يكون طبيبا وطيارا أن يكون ضابط غواصة .. ليس فقط أن يكون فى الجيش وانما أن يكون ضابطا لا على الأرض ولا فى الجو ولكن تحت الماء . ليحارب العدو من أجل مصر . ولم يكن المثل الأعلى لأى احد أن يعيش فى دمشق وبغداد .. أى ينتقل من مصر لأى سبب ، رغم دعاوى الوحدة العربية بين كل الدول . ولم يكن أحلام أحد أن يهاجر . كيف يترك العظمة المصرية وأحلام امبراطورية صلاح الدين من المحيط إلى الخليج ؟ .

ولكن بعد هزيمة ١٩٦٧ كانت كل أحلام الشباب أن يهاجروا . إلى أين ؟ إلى أى مكان .. المهم أن يتركوا مصر .. الجمل بما حمل .. فلم تعد الحياة تطاق . وأقسى ما فى الحياة فى مصر : الكذب .. كله كذب .. لم يعد للكلام معنى .. لم تعد للخطب أية دلالة .. فالرجل الذى كان بطل أبطال العالم ، صاحب الأرقام القياسية فى وزن الهموم الثقيلة صار فى الحضيض السياسى .. كيف صدق الناس جمال عبد النصر .. كيف ابتلع الناس الطعم خطبة بعد خطبة ، كيف أنام الناس ومغنطهم ؟!

إن بعض الذين يديرون تسجيلات لصوته يندهشون كيف أنهم لم يكتشفوا هذه « الخنافة » الثقيلة فى أنفه .. كيف لم يكتشفوا هذه المرارة فى شفتيه ، كيف

لم يتبينوا هذا الحقد فى عينيه ، كيف لم يدركوا انه ليس إلا تمثالا نصفيا بعيد الكتفين والصدر يمشى على ساقين نحيلتين .. ولكنه الخوف والفزع والارهاب والبطش جعل الناس يقفون عند عينيه ولا يدعون الله الى الخلاص منه .. والذين لديهم تسجيلات لخطب هتلر أيضا يندهشون كيف أن هذا الرجل الحاد الحركات والملامح الأجش والذى ليس عميق الصوت والنبرة ، استطاع أن يصيب شعبه كله بالجنون ، فيمشى وراءه حتى الموت سعيدا بذلك .. كيف ؟ انها الرغبة العميقة عند الشعوب فى أن تمشى وراء من ينقذها ومن يخلصها .. فرغبتها العميقة وخوفها الغريزى ، هو الذى يجعلها لا تفرق بين الأنبياء والدجالين .. فكان المثل الأعلى لكل مصرى هو أن يهرب من مصر .. فمصر لم تعد مصر .. وانما مصر قد احتلتها قوات مصرية ، لها طعم القوات الأجنبية ، لها عنف الانجليز ، وبطش اليهود ، وإن كانت تتكلم العربية بلهجة مصرية ، لم تعد مصر هى البلاد المصرية ، لقد أحس المصريون بأنهم غرباء فى بلادهم .. فلماذا لايختارون بلادا أفضل .. وسوف يبقون فيها غرباء أيضا . ولكنهم فى بلادهم غرباء بلا أمل ، وفى البلاد الأخرى غرباء عندهم أمل !

سألت صديقا مصريا يعيش فى موسكو : كيف حالك ؟

قال : غريب هنا وغريب فى مصر .. أقلية هنا وأقلية فى مصر .. ولكن أحدا هنا لا يجعلنى أشعر بأننى غريب !

وهناك نوعان من الهجرة : الهجرة الطويلة فى أمريكا وكندا واستراليا .. والهجرة القصيرة فى البلاد العربية فالمهاجر الى البلاد العربية عنده رغبة فى أن يعود وقد امتلأت جيوبه ، ليستأنف حياته فى مصر .. أو توطين نفسه فى وطنه .. فيتزوج وتكون له شقة وثلاجة وسيارة ويكون قادرا على تربية أولاده .. وبعضهم رأى أن الهجرة إلى البلاد العربية كانت أقسى وأوجع .. فهذه الهجرة قد جاءت بعد الهزيمة العسكرية التى صدمت المصرى والعربى .. وكشفت كم هو « فشار » ذلك المصرى الذى أعلن أنه سوف يدخل تل أبيب فى ساعات ويستولى على القدس فى دقائق ويلقى باليهود فى البحر الذى جاءوا منه .. وينتهى كل شىء .. وبذلك يكون جمال عبدالناصر هو الطبعة المنقحة الأنيقة من صلاح الدين الايوبى أو الاسكندر الأكبر أو نابليون .. أو هو أفضل من كل هؤلاء لانه نابع من أرض مصر ، التى لا تنبت إلا القطن والدودة .. فهو خارق لكل قوانين الزراعة المصرية .. فهو « هبة » السماء الى الأرض .. وبسرعة

جعله المصريون نبيا أو كأنه نبى .. وإن لم يكن مثل الأنبياء فهو خامس الخلفاء الراشدين . وهذه وظيفة ومرتبة يدخرها المصريون لكل حاكم خدمهم ، حتى يلقى مصير ثلاثة من الخلفاء الراشدين هم عمر وعثمان وعلى : اغتياله أو محاولة ذلك !

وكان المصريون قبل الهزيمة العسكرية قد أجمعوا على أن المثل الأعلى هو أن يكون كل شاب ضابطا طيارا . أى ضابطا فى السماء يقتل العدو ويهرب ، وكان ما كان مما نعرفه ، وقلنا فى ذلك الوقت ان الطائرات الاسرائيلية التى محقت الطيران المصرى ، كانت تقودها سيدات حوامل ؟ ! أى أن السيدات اليهوديات انتصرت على الرجال المصريين .. ولم يكن سيدات فى غاية اللياقة البدنية ، وانما سيدات مريضات بسبب الحمل وانتظار الولادة . أى سيدات فى أضعف حالاتهن . وكان ذلك إمعانا فى تعذيبنا وتحقيرنا لأنفسنا !

ولم نكتف بذلك وانما صدقنا أننا استولينا على قطار ملىء بالأسرى اليهود .. انتصار عظيم .. ولكن لكى نسلب هذا الانتصار من أنفسنا ، قالت الشائعات أن القطار كله مجندات .. أى أن اسرائيل حاربتنا برا وجوا بالنساء ـ أما الرجال فلم تجد داعيا لتعبئتهم ضدنا ـ استمرار فى تعذيب أنفسنا وامتهان ذاتنا وتحقير قيادتنا وزعيمنا !

ولذلك كان على المهاجرين المصريين فى كل البلاد العربية أن يسمعوا الشتيمة وينظروا الى الطعام الجيد الذى يأكلونه والسيارات المكيفة ، وأن يقارنوا بين الذى هم فيه ، والذى هو فى مصر .. وكانوا يقررون جميعا أن يأكلوا العيش بالجبن !

وأصبح المثل الأعلى عند المصريين فى الخارج : لا شأن لنا بالسياسة . نحن خبراء مصريون ، أو خبراء يجب أن ننسى أننا مصريون !

وكان المصريون بعد الهزيمة العسكرية يسمعون الأشقاء يقولون لهم : يا بتوع الفول .. يا بتوع الطعمية .. يا بتوع البلهارسيا !

والشاعر القديم يقول : ولأم المخطىء : الهبل !

مادام قد أخطأ فهو عبيط وأمه وأبوه !

ويقول المثل : العجل وقع فكثرت السكاكين !

وكنت أقول : اذا انهزمنا فنحن مصريون ، واذا انتصرنا فنحن عرب . ونحن منهزمون دائما .. فراعنة .. فلاحون ، وفى نفس الوقت نحن بالنسبة

للعرب كالزواج : شر لابد منه . لابد منا ولابد منهم !

ولا أحد فى مصر على كل مستوياتها يعرف عدد المصريين المهاجرين .. انهم لا يقولون عند خروجهم من مصر ان كانوا مسافرين أو سائحين أو أن عشرات البلاليص قد انكسرت وراءهم حتى لا يعودوا ، هم الذين اشتروا البلاليص !

وكأن الدولة لا تريد أن تعرف عددهم .. فهى لا تريد أن تبدى اهتماما بالذين تركوا لها البلاد وما عليها ومن عليها .. فهى لا تعترف بأن هؤلاء المهاجرين غاضبون ساخطون هاربون .. أو أن الدولة سعيدة بذلك .. فالباب يسع الجمل وما حمل .. أو السكة التى تودى .. فالفلاحون هجروا القرية الى المدينة .. ثم هجروا القرية إلى المدن الأجنبية ، دون أن يتوقفوا لحظة فى أية مدينة مصرية ! الفلاحون هاجروا إلى العراق .. يقال مليون ويقال اثنان ويقال ثلاثة .. والصيادون المصريون هاجروا من دمياط إلى الجزر اليونانية .. والصيادون اليونانيون تركوا لهم البحر ليعملوا سائقى تاكسى ، وسائقو التاكسى ليعملوا جرسونات فى الفنادق التى هجم عليها المصريون هربا من مصر . فاليونان أرخص وأنظف وأجمل !

لقد كانت الهزيمة العسكرية مثل طوفان نوح ، خربت بعده الأرض ونجا القليلون مع نوح .. فنوح عليه السلام هو « آدم الثانى » الذى بدأت به البشرية حياة جديدة .. وتفرق أولاده بين القارات .. تماما كما حدث بعد « سيل العرم » فى اليمن تفرقت بعده قبائل خزاعة وغسان والأزد والأوس والخزرج ، ولكن المصريين المنكوبين فى عقولهم وقلوبهم وأحلامهم تفرقوا وتشرذموا على أرضهم .. فإذا كان لابد من الهوان والاهانة فلتكن إهانة وطنية .. إهانة اخوتهم المصريين لهم أوقع وأوجع . والشاعر يقول : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة .. والمثل الشعبى يقول : الدخان القريب يعمى .. والعيار القريب يدوش .. وقد اشتدت مضاضة ومرارة المصريين الذين أعماهم دخان ونار أقاربهم ، ولكنه أرحم من دخان ونار الأشقاء العرب !

وكل الجماعات الدينية مهاجرة من مصر إلى مصر .. كلهم رافضون ساخطون غاضبون .. اقتلعوا جذورهم بأيديهم من الأرض الخصبة ، وأعادوا زراعتها وشتلها فى الكهوف المظلمة وعلى أطراف الصحراء .. إنهم مهاجرون من مصر إليها .. تماما كما تضرب طفلك فيلوذ منك إليك !

فما المثل الأعلى ؟

عند الفلاح : أن يكون « أفندى » ..
وبعد الثورة : أن يكون الأفندى جامعيا ..
عند الجندى : أن يكون ضابطا .

عند جندى الشرطة أن يكون : أمين شرطة .. عند أمين الشرطة أن يكون ضابطا .. عند ضابط الجيش أن يكون مثل ضابط الأمن لا يحال إلى المعاش فى الخمسين ؟ !

جاءت ثورة يوليو واقتلعت ملكا واحدا وعينت مائة ملك .. ألف ملك .. وضعت على رؤوس كل المؤسسات ملوكا وأمراء من لابسى الكاكى .. لماذا ؟ إنهم الذين اشعلوا الثورة ولابد من المكافأة .. والمكافأة أن يظلوا فوق .. فوق كل المدنيين ، دون ثقافة أو علم أو كفاءة !

ولذلك كره المدنيون أن يكونوا مدنيين .. فلا أمل عندهم ، لأن السقف قد هبط فوقهم كتلة من الخرسانة المسلحة ، لا يحق لهم أن يخترقوه أو يتطاولوا إليه أو عليه .. وكرهوا أن يكونوا عسكريين ، فما الذى فعله العسكريون بمصر .. فالعسكريون بعد الهزيمة العسكرية قد أهينوا مرتين : مرة فى الحرب عندما واجهوا اسرائيل ومرة عندما عادوا يواجهون الشعب .

ولكن العسكريين شعروا بالارتياح عندما خرجت المظاهرات «المفبركة» من المدنيين تطالب الرئيس جمال عبدالناصر أن يبقى رغم الهزيمة .. لقد شمت العسكريون فى المدنيين الذين ارتضوا الهزيمة .. وطبلوا وزمروا ورقصوا ، فداك ألف هزيمة وهزيمة يا ريس ! وكانت المظاهرات نوعا من « الزار » القومى .. ألوف يضربون أنفسهم بالجزم والسيوف حزنا على النكسة ، وحزنا على أن قائد النكسة فكر لحظة واحدة فى أن يلقى المصير الذى يستحقه من الشعب .. كيف يفكر فى ذلك ؟ صحيح أنه هو الذى انفرد بالتفكير لكل الناس والتدبير لهم .. فهو الذى خلع الملك وخلع العقل أيضا .. لقد ترك الأمر للشعب ، والشعب لا أمر له ولا رأى ، فالرأى رأية والأمر أمره . ولذلك كان قرار الشعب هو قراره هو ، وأمره هو ، فقال بلسان المتظاهرين : يجب أن أبقى ، وبقى وأحس الناس الطيبون أن المظاهرات استفتاء شعبى حر بعودته الى قيادة مصر من هزيمة إلى هزيمة .. ومن كفر به الى كفر بأنفسنا ، وضاعت كل الطرق وكل القيم ثم مدلول الكلمات والشعارات .. وعجز الناس عن التفكير والتدبير والتفرير .. وعن البقاء وعن الهجرة ، فكان الحل الوسط الذى هو انعدام القرار

أو هو تعليق الحكم : أن يبقوا وكأنهم ليسوا فى مصر ، وأن يهجروا مصر الى مصر ! .

وداخ الأطفال والشباب بين بابا جمال والبطل جمال وبين مهندس الهزيمة ونقص المناعة النفسية والجسدية والقومية . ضاعت الحقيقة . وما تزال ضائعة . ماذا حدث ؟ كيف حدث ؟ ماذا قلنا للأطفال ماذا بقى للشباب ؟

وجاء أنور السادات يصحح كل الأخطاء والخطايا .. وفى ثلاث سنوات عرفت مصر أعظم انتصاراتها وأروع أمجادها العسكرية . ولكن كان النصر مثل زفاف عروسين فى غرفة الانعاش .. صدمة قوية بعد صدمة أقوى .. لكمة فى الرأس ولكمة فى القلب .. حضن حار حطم الضلوع .. وتوالت انتصارات السادات داخليا وخارجيا .. وكانت مثل باقات الورود فى غرفة مريض .. العطور قوية ولكنها خانقة ؟ !

قال شوقى : الموت بالزهر مثل الموت بالفحم !

أى دخان الفحم قاتل ، مثل الزهور الكثيرة إذا تنفست ثانى أوكسيد الكربون . فهو قاتل أيضا !

واغراق انسان فى طمى النيل ، مثل اغراقه فى بانيو من الشمبانيا . كلاهما مميت !

وارتبك الناس مرة أخرى . ما المثل الأعلى ؟ ماذا تريد لنفسك ولأولادك ولبلادك ؟

انفتحت أبواب مصر .. دخلت البضائع والفلوس .. انتعشت التجارة والصناعة . كل الناس يريدون أن يكسبوا .. الفلوس .. صنم جديد كنا قد نسيناه .. أحسسنا كأننا بنو اسرائيل تركهم موسى ليكلم ربه .. ثم عاد موسى ومعه وصاياه العشر : لا سرقة .. لا قتل .. لا زنى .. ولكن وجد قومه قد اهتدوا إلى سر الكون : جمعوا الذهب وصنعوا منه تمثالا يعبدونه !

وأمام الذهب يذوب الحديد والحدود . وتناولت القصص والمسرحيات والأفلام عريس المستقبل .. العريس المثالى : وكان على الفتاة الجامعية وعلى الأسرة كلها أن تختار بين الأسطى الغنى صاحب الشقة والفيديو وبين الجامعى المفلس إلا من آماله الكاذبة وغضبه النبيل وإيمانه بتدخل السماء عند آخر لحظة . واختارت أسرة الفتاة : الأسطى صاحب العمارة القادر على أن يكون أبا لأولاد يتعلمون فى مصر وخارجها !

وكان ذلك بداية وتعميقا لأزمة ثقة بين الشباب وبين الدولة :

هل زواج الجامعية من غنى جاهل معناه أن التعليم لا قيمة له .. وأن المثل الأعلى عند الشباب بأن يكون جامعيا ، كلام قديم .. كلام فارغ ؟ ! فكأن الدولة تعلم الناس مجانا لتخلق منهم ساخطين متعلمين وكافرين جامعيين .. ثم تطل عليهم من تليفزيون الدولة وصحفها وتخرج لسانها وتقول لهم : كما مات أباؤكم بغيظهم ، عيشوا أنتم بغيظكم !

وبسرعة انقسم الجميع نصفين : أناس عندهم فلوس ، ولذلك فعندهم كل شيء آخر .. وأناس جامعيون مفلسون وليس عندهم أى شيء ، إلا السخط على الدولة وعلى أنفسهم .. وإلا التربص بالجميع !

لقد وقف رجلان فى مواجهة الشعب المصرى والعربى :

عبد الناصر والسادات ..

أيهما البطل .. هل المنهزم كان على حق ، والمنتصر كان خائنا .. الذى أعطى اسرائيل كل الأرض وكرامة مصر وعزة العرب .. أو الذى استرد الأرض والعرض والكرامة والثراء ووعد بالسلام والرفاهية ..

وعبد الناصر مات مسموما ؟ والسادات قتيلا !

فما هو الثواب وما هو العقاب !

وما هذا البلد الذى يقتل أبطاله ويبكيهم ؟ وما هذا الشعب أيضا ؟ وما هذا العنف فى رواية التاريخ ؟ وما هذا العنف فى مسح التاريخ ؟ وما الذى يريده الشباب لنفسه ولبلده ومن بلده ؟ من الذى قهره على أمره ؟ من الذى أكرهه على دينه ؟ من الذى أطال أظافره خناجر ، وجعل دينه « ديناميت » ؟

ولماذا كل ناجح غشاش ؟

ولماذا كل غنى لص ؟

وكيف ينجح الناس وكيف يصبحون أثرياء .. ما هى قواعد النجاح ؟ ما هو هدف النجاح ؟

النجاح : فلوس وشهرة وسلطة .

والنجاح : يشترى كل السبل من أجل استمراره .. ولو كان ذلك على جثث الآخرين من الفقراء والأبرياء ..

الفلوس من أى طريق ومن كل طريق .. والفلوس كالأسمدة لابد من نثرها فى كل مكتب ، وبذرها فى كل أرض .. ولابد من الرشوة وشراء العلاقات والخطوات

وكل المواصلات الى الشهرة والسلطة !
واختلط على الناس كل شيء :

لقد جاء عليهم وقت يقولون إن الهزيمة العسكرية وفرت لهم الطعام والشراب . أى أن الهزيمة العسكرية كانت خيرا على الفقراء ؟ !

وكانت الهزيمة كالانفتاح الاقتصادى أيام السادات : الدكاكين مليئة بالبضائع والجيوب مليانه بالفلوس ..

ولكن الهزيمة كانت أفضل فلم تكن لنا صلة باسرائيل أما الانفتاح فقد ملأ البيوت بكل أنواع الأطعمة ولكن جعلنا نتفق مع اسرائيل فيغضب كل العرب ..

ومغالطة كبيرة وقعنا فيها ، وعندنا استعداد للوقوع فى المغالطات لأننا لا نفكر .. لأن عقولنا قد نزعت منا منذ وقت طويل .. هى الأخرى أمموها وصادروا معها الأمل فى أى شيء وأى أحد .. فقد صدرت الأوامر بملء أفواه الناس بالطعام .. وإذا امتلأ الفم استحت العين أن ترى ، وإذا رأت أن تقول ، وإذا قالت أن يكون همسا .. وإلا تكون نكتا .

فالرئيس عبد الناصر هو أول حاكم فى التاريخ طلب من الشعب ألا يطلق نكتا على الجيش .. ولم تكن على الجيش وإنما على قيادة الهزيمة العسكرية والخديعة الوطنية !

ارتبك الناس واختلطت عقولهم وتداخلت آمالهم وهذيانهم ، وتحيرت فى أيديهم أدوات اغتيالهم لزعمائهم .. وتلعثمت الاقلام تلطخ تاريخ مصر الحديث بين العدوان على عبد الناصر سنة ١٩٥٤ والعدوان على السادات سنة ١٩٨١ .. وقبل ذلك بعد اغتيال النقراشى باشا والامام حسن البنا .. ثم اغتيال أجهزة الأمن القومى . وزراء الداخلية !

يا ناس يا هوه .. لقد توضأنا ونريد أن نصلى : أين القبلة ؟ أين الامام ؟ ما الصواب ما الخطأ ؟ ما الوطنية ؟ ما هى الخيانة ؟ ما هى الأمانة ؟ ما النجاح ؟ ما السعادة ؟ ما الحل ؟

لقد حاول عبد الناصر والسادات أن يحققا نوعا من التوازنات العنيفة .. استعان عبد الناصر بالشيوعيين لضرب الاخوان .. لقد اختل فقد التوازن بعد الهزيمة .. واستعان السادات بالاخوان لضرب الشيوعيين فقد أختل التوازن بعد النصر .. انها قصة الفئران والقطط فى استراليا .. عندما استشرت الفئران تأكل الطيور والحقول ، استوردت استراليا القطط تأكل الفئران .. فأكلت

الفئران وانتقلت تأكل الطيور والأطفال والصغار ..

فأتوا لها بالكلاب تطارد القطط ولكنها تأكل الأرانب . وتحولت الكلاب الى ذئاب .. ولم يتحقق التوازن العاقل بين قوى البيئة .. وفى الهند عندما انتشرت موضة الشنط والجزم من جلد الثعابين فى أوروبا وأمريكا ، هجم الهنود على ملايين الثعابين يقتلونها ويبيعونها .. وفجأة أحس الهنود انهم ارتكبوا غلطة قاتلة لملايين الهنود .. فالثعابين كانت تأكل الفئران التى تأكل حبوب القمح والذرة .. فلما اختفت الثعابين انفردت الفئران بكل المحاصيل .. ولذلك حرمت حكومة الهند قتل الثعابين لكى تأكل الفئران فلا يموت ملايين الهنود من الجوع ..

لقد قام عبد الناصر والسادات بتقليب المجتمع وتأليب فئاته بعضها على بعض . لعبة خطيرة ، وأخطر من هذه اللعبة أننا انتقلنا من حرب اسرائيل الى حرب مع مصر .. انتقلنا من حرب محدودة معروفة الملامح ، إلى حرب داخلية سرية حدودها بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين أسرته وجامعته ومجتمعه وبلده .. بين دينه ودنياه . فطالت لحى الشباب وتبرقعت الفتيات ..

ولكن المثل الأعلى لهذا المجتمع التجارى الصناعى ـ أو الذى يحاول أن يكون كذلك ـ هو الخطف .. الخبطة .. اللطشة .. المكسب السريع .. والهرب بعد ذلك .. وأصبح الخطف معادلا للشطارة .. والشطارة هى الذكاء .. وأصبح اللص الفاشل هو الذى يقع فى قبضة البوليس ، أما اللص الشاطر فهو الذى يشترى أمنه وأمانه ، ويبقى بعيدا عن العيون والآذان .. فاللص الضعيف هو الذى يجب ألا يكون . وانما اللص القوى ، هو أيضا اللص الشريف ، لأن أحدا لا يدرى به ..

وامتلأت الدنيا باللصوص من التجار والشطار والساسة . ولهم جميعا صفة واحدة : خداع الناس !

وعند الأغريق أن للتجار واللصوص والخطباء والساسة ربا واحدا . هذا الرب اسمه : عطارد .. هذا الرب عنده قدرة فريدة على أن يظهر وأن يختفى .. وأن يتخذ أى شكل : إنسان حيوان نبات جماد .. وهذا الإله الاغريقى هو الذى اخترع القيثارة بأوتارها .. فهو قادر على أن يخدع وأن يكذب وان يغالط وأن يقنع وأن يبهر .. وأن يسرق أيضا .. وشعاره : أن يدخل قلبك ويسرق كلبك وعيده هو يوم ١٧ يونيو من كل عام . ففى ذلك اليوم يمشى التجار واللصوص

والساسة فى طوابير يقدمون القرابين لهذا الرب ويستغفرون لاخطاء عام مضى ، ويطلبون معاونته على خطايا عام قادم .. وكان يعدهم بذلك . فهو يعلم أن اللصوص لا يتوبون وانه هو شخصيا يسرق الكحل من العين ، والبريق من النجوم ، والحرارة من الشمس ، والرحمة من القلوب .. وهو القادر على أن يحول الوردة تلقيها إلى من تحب ، إلى سهم يصيب القلب ويقتل !

* * *

* * *

ما الذى أصاب الناس ؟

تسأل أى واحد : ماذا تريد ؟

ويكون جوابه : وحياتك ولا حاجة .. الستر ..

وأربى العيال !

كأنه غلطان لأنه تزوج وكأنه غلطان لأنه أنجب أطفالا .. وهو لا يطلب إلا أن يكون مستورا أمام أولاده فلا تفضحه ملابسهم الممزقة ، ومصاريف الدروس الخصوصية . وأن يجدوا عملا بعد التخرج . فقط أن يجد شباكا يقفله إذا نام ، وبابا يغلقه إذا أكل ، وان يضع أولاده على أول الطريق والباقى عليهم .. فقد قام بما عليه . ويا الله حسن الختام !

وكما ترى فهو لا يعمل ولم يعمل ولا يريد أن يعمل .. فقط أن يعيش على الحد الأدنى من أى شىء .. وإن أراد أولاده أن يعيشوا أفضل فهذا شأنهم . ولكن كيف يعيش الأولاد أفضل ، إذا كانوا غير قادرين على أن يغيروا دنياهم ؟ فلا دخل لهم فى الذى حدث .. فكيف يغيرون مالم يرتكبوا ؟ وكيف ينجحون وقد انسدت أمامهم كل أبواب الأمل فى شىء أو إلى شىء !

قيل : الأمل فى الأرض ..

قيل : الزراعة كنز لا يفنى !

وما أوسع أرض مصر . ولكننا نحن الذين نضيقها .. ونشدها علينا ونخنق بها أنفسنا .. نحن نأكل الأرض المزروعة ونبنى فيها البيوت أو نبنى عليها البيوت .. وإذا أعطينا الشباب أرضا وأملا ليزرع ، عدنا وخنقناه فى أرضه وعلى أرضه .. كأنه فاتنا أن نخنقه على الأرض المزروعة ، فأنتظرناه حتى يصلح أرضا جديدة لنقطع عنه الماء والنور ونطلق عليه جراد الضرائب والمجتمعات الجديدة والاصلاح والكهرباء والرى وهى الآفات الجديدة لكل المجتمعات

الشابة .. وتبقى الأرض ، كما كانت من ملايين السنين .. أما الذى يذبل شكلا ومعنى فهم الشباب .

يا ناس يا هوه .. ارفعوا أيديكم عنهم واتركوا أيديهم تعمل وتزرع ، واتركوا عقولهم تفكر ، وقلوبهم تخفق ، وآمالهم ترفرف .. أعيدوهم إلينا ، حتى لا يهجرونا ويكفرونا .. أعيدوا لهم «المثل الأعلى» .. والقيم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ..

إن الأغريق قالوا قديما : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب !

وأرضهم تتحرك يمينا وشمالا وأعلى وأسفل ، وهم أيضا . فبالله كيف ينبتون على أرضهم .. وكيف يثمرون أملا ونورا فى مستقبل مصر ؟ !

حتى يعود نهر عمر بن عبد العزيز

كان ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ فى طهران . وكان المتحدث هو ستالين . قال كثيرا عن بلاده وعن استعداد القوات السوفيتية لخوض كل أنواع الحروب . وانه سوف ينتصر حتى لو انهزم الحلفاء جميعا .. واقترب من تشرشل أكثر وأكثر وقال : حتى لو انسحبت بريطانيا من الحرب .. فإن الجيش السوفيتى سوف يجتاح أوربا كلها وسوف يدق مكتبك ويوقظك من نومك السعيد !

وأحس تشرشل أن ستالين يكذب ، وأنه يريد أن يوهم تشرشل أن روسيا قوية لهذه الدرجة . وأنه لا يثق فى الانجليز . فقال له تشرشل : اسمع ياسيدى إن الحقيقة ثمينة جدا لدرجة انه من الضرورى أن تحشد لها جيشا من الاكاذيب لحمايتها !

ومعنى ذلك انه يقر ستالين على كل هذه الاكاذيب .

ويراها ضرورية فى الحرب . وهذا ما فعله تشرشل نفسه . فعندما هاجمت القوات اليابانية حامية بريطانية فى سنغافورة لم يجد اليابانيون إلا ثلاثة جنود .. بينما كانت الاذاعة البريطانية تؤكد أنها حامية القدر .. وأن اليابان سوف تفنى جميعا عند ابوابها ولن تدخلها !

ولكن الذى قاله تشرشل كان مجرد احساس الزعيم السياسى الذكى بالازمة التى تعانيها بريطانيا والحلفاء . وأمام الاستعداد الهائل للالمان كان على الحلفاء أن يحاربوا بهذين الجيشين . قواتهم المسلحة واكاذيب الدعاية التى تحمى حقيقة هذه القوات !

وفى ذلك الوقت كان الألمان قد اهتدوا إلى نظرية جديدة فى السياسة والدعاية والحرب . هذه النظرية هى التى ابتدعها وزير الدعاية النازى جوبلز . النظرية تقول : اذا كانت هناك ازمة ، فمن الضرورى جعلها أعمق وأقوى .. حتى يشعر المواطن بأن هذه الأزمة مزمنة ، وأنه لا خروج منها . فاذا كان هذا احساسه

فمن الواجب اظهار المعجزة . والمعجزة هى الحل . فاذا انحلت عاد اليقين إلى الشعب بأن القيادة لاتزال قادرة على المعجزات . قادرة على النصر على العدو ..

أو بعبارة أخرى : إنها نظرية الشحن والتفريغ .. أى شحن الناس بالأزمة حتى تتفجر جوانبهم أو تكاد .. ثم حلها . ويكون لهذا الحل دوى . ويكون الدوى دليلا على القدرة والانطلاق !

ففى سنة ١٩٤٣ استطاع مونتجمرى أن يتغلب على القوات الالمانية فى العلمين . إنها بداية النصر الانجليزى والهزيمة الالمانية !

والقيادة الالمانية امامها عدة بدائل :

إما أن تعلن انها انهزمت تماما ..

وإما انها تتراجع لتنظم خطوطها ، وانها سوف تنتصر حتما ..

وإما ان الانسحاب وبداية الهزيمة الالمانية فى شمال افريقيا هى سياسة عليا لتتمكن القوات الالمانية من مواجهة الحلفاء فى اوروبا .

ولكن وزير الدعاية الالمانى كان لديه بديلان فقط :

أن يعلن ان الهزيمة تمت وكان روميل على رأس القوات الالمانية .. أو يعلن ان الهزيمة تمت وكان روميل غائبا فى أوروبا يفتش على الاستحكامات ويدعمها .. أى ان الهزيمة وقعت بسبب غيابه عن الجبهة ولو بقى روميل فى الجبهة ما استطاع مونتجمرى وجنوده ان ينتصروا على الألمان !

ولم يتردد هتلر فى أن يعلن أن القوات الألمانية تنسحب لأنها انهزمت .. دون ذكر لغياب روميل !

أما المعنى فهو أن هتلر يريد ان يقول انه انهزم مع وجود روميل . فالهزيمة لا شك فيها . وان على الجنود ان يدركوا ان روميل الاسطورة من الممكن ان ينهزم . وقد انهزم !

وكان ذلك هو القرار الصحيح . لانه لو أعلن ان الهزيمة تمت فى غياب روميل . لتساءل الجنود . ولماذا غاب ؟ ومن هذا الجاهل الخائن الذى أصدر قرار غيابه ؟ ولابد من عودة روميل ليحقق النصر . وعلى ذلك يطالب الجنود بضرورة أن يعود القائد الاسطورة . فلماذا لم يعد القائد ، تزايدت الشكوك على الجبهة وعلى الجبهات الاخرى ..

والحقيقة انه غاب عن الجبهة .. ولكن ليس من المصلحة أن يقال ذلك . وانما الكذب اسلم . لقد انهزمت ألمانيا . وليس من الضرورى ان يعرف الناس ما الذى حدث بالضبط .. وانما سوف يجىء وقت ليعرف الناس تفاصيل ما حدث !

هذه النظرية هى القاعدة الاولى لنظرية اوسع اسمها : نظرية ادارة الازمات .. فن ادارة الازمات ..

وقبل أن أقارن بين الذى حدث فى هزيمة سنة ١٩٦٧ عندنا ، يجب أن أشير إلى ما فعله الامريكان فى ادارتهم لازمة فيتنام ـ هزيمتهم فى فيتنام . لقد استخدم الأمـريكان قوات ضخمة وأحدث اسلحتهم الفتاكة للانسان والحيوان والنبات . ورغم كل ذلك انهزمت امريكا .

فكيف أدار الامريكان هذه الأزمة ؟

كان عندهم هدف أهم من الحرب . هو أن يظل الشعب الامريكى والعالم كله يصدقهم . يجب أن يظلوا مصدقين مهما حدث . فالهزيمة والنصر تجىء فى الدرجة الثانية . أما الذى يجىء فى المقام الأول فهو أن امريكا لم تكذب . ولن تكذب . وأنها سوف تصارح العالم بما حدث .. يجب أن يصدقها الناس فى الحرب القصيرة والسلام الطويل .. يجب أن يصدق العالم كله .. التاجر الامريكى والمهندس والمدرس ورجل الدين والسياسى والرئيس ورجاله .. يجب أن يصدقهم الناس إذا تحدثوا عن الهزيمة وعن ويلاتها واثرها العميق على الشباب وعلى صورة البطل الامريكى والأمل الامريكى .

وهكذا خرجت امريكا منهزمة عسكريا منتصرة سياسيا فى معارك فيتنام . وعندما ثار عليها الشباب وتظاهروا ضدها ، أعلنت ان الشباب على حق وانها هى التى اخطأت فى احدى عمليات الحساب ، لا فى كل الحساب .. وانتهت ازمة فيتنام لصالح الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى أيضا !

بينما فشلت امريكا قبل ذلك فى معركة خليج الخنازير أيام الرئيس كيندى . فكان الذى يهم الرئيس كيندى انه انتصر وسوف ينتصر . أما الحقيقة فلم تكن تهمة . فكذب ورجاله أيضا . ولم تؤد الصواريخ السوفيتية فى كوبا إلى اختلال فى توازن الرعب النووى من الشرق والغرب !

فماذا كان يحدث لو أعلن الرئيس عبد الناصر اننا انهزمنا عسكريا سنة

١٩٦٧ ؟ وانه هو المسئول عن الهزيمة . أو اعلن أننا انهزمنا ، وترك لنا أن نفهم أنه هو الذى انهزم ـ أى هو ورجاله وكل استراتيجية الحرب وتكتيكات الدفاع .. وأن الهزيمة ليست نهاية مصر ولا نهاية الصراع بين مصر واسرائيل .. وأن الحرب لابد منها ، وأن التعبئة العامة مؤجلة .. الخ .. وترك حكاية الفاعل الحقيقى للهزيمة الى ما بعد سنة او سنتين .. لو حدث لتغير الكثير جدا فى ظروف مصر العسكرية والسياسية . وأهم من ذلك ما تركته هذه الصاعقة الصريحة الجريئة من أثر على حالتنا الاجتماعية والنفسية ..

ولكننا لم نكن نعرف نظرية تشرشل ولا فلسفة جوبلز .. وانما كان الارتجال والحداقة والفهلوة هى التى جعلتنا نشير الى عبد الناصر الذى يشير إلى عبد الحكيم عامر الذى يشير إلى صلاح نصر الذى يشير الى اعتماد خورشيد ! ! فلا أحد فيهم مسئول عن الذى حدث .. ولكنه شخص ما ، رجل أو سيدة ، مصرى أو أجنبى أو عفريت هو الذى أدى إلى الهزيمة العسكرية ..

ولو كان جوبلز وزيرا للاعلام المصرى ، لقام بتعميق الشعور بالازمة .. حتى تتمكن الازمة من كل النفوس .. ومع الازمة حزن الزعيم على الذى كان .. على الخيانة الامريكية للشعوب العربية كلها والشعب المصرى بصفة خاصة ومحاولة القضاء على الزعيم ودفنه حيا بين جنوده . ويكون الحداد شاملا والحزن عميقا . وفجأة بعد أن يتأكد لدى الناس أنها الهزيمة .. وأن القتال سوف يستمر بأسلحة أخرى يعلن أن الزعيم لم ينهزم ، وانما هى غلطة من غلطات الزعيم ـ الذى لا يخطىء ـ انه كان عميق الثقة بأعز اصدقائه . ويتجه الناس الى الصديق الخائن .. فالصداقة من الممكن أن تؤدى الى الخيانة ، أى من الممكن أن يخونك اقرب الناس اليك .. ومن الممكن ان تعميك الثقة بالصديق ، وان يعميك الصديق عن ان ترى الحقيقة .. حقيقة الصديق وحقيقة الواقع .. وهكذا يؤدى كشف الغطاء عن الحقيقة الى انهيار الاخلاق ايضا .. ويصبح الانهيار تاما : عسكريا واخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا .

وفى مواجهة هذا الضياع المفاجىء لابد من التلويح بأطواق النجاة . ومن أحق الناس بأن يكون « نوح » الجديد غير الزعيم .. انه زعيم الحرب زعيم السلام .. انه هو الذى هدمنا ، وهو الذى سوف يبنينا .. وهو الذى أماتنا وسوف يحيينا ، وهو الذى مسح بنا الارض ، وسوف يمسح بنا السماء .. انه وانه ـ ولحسن الحظ لم يحدث كل ذلك . وانما حدث استعراض ركيك لفن

مسرحى هزيل جدا . عندما حشد الزعيم رجاله يطبلون ويزمرون ويطالبون بعودته . ولا يهمك الهزيمة ولا الف هزيمة ياريس .. اركب ياريس .. خدودنا مداس ياريس .. وضربك لنا بالجزمة شرف ياريس !

وكل هذا لا يهم ، سواء كان تطبيقا ناجحا أو فاشلا ، لنظرية ادارة الازمات . ولكن الاخطر ، ولا يزال خطيرا ، هو اننا لم ندرس لم نفهم لم نطل ماذا حدث فى مصر بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وبعد انتصارنا سنة ١٩٧٣ ؟ .. فكما كانت الهزيمة فالنصر كان أزمة ايضا . فقد خلقت موقفا معقدا . وقد تضاعفت العقد وركبت بعضها البعض ، حتى أصبح من العسير علينا أن نعرف البداية والنهاية .. وان نعرف اين نحن واين كنا وإلى اين ..

وكما ان هناك أجهزة للرادار فى الطائرات ترسم شكل الجو .. شكل السحب ومواقع المطبات الهوائية والشحنات الكهربائية .. فيستعد الطيار .. والركاب بربط الحزام وعدم الحركة .. أو بالدعاء والصلاة .. فهناك موقف آخر للطيار نفسه .. كيف يدخل المطب وكيف يخرج منه .. ويكون اتجاه الريح معاكسا ، ويكون اتجاه الريح مناسبا .. وتكون الطائرة فى قلب الاعصار .. فى عين الاعصار .. نحن أحد اطرافه .. هل يعلو الطيار فوق الاعصار .. هل يهبط تحته ، هل يقتحمه .. هل يخاطر .. وكلها حسابات دقيقة . فما هذا الذى حدث ويحدث فى هذا الوقت القصير وبهذه السرعة الكبيرة وعلى هذا الارتفاع الشاهق وبهذا العدد الكبير من المسافرين ..

إنها ازمة .. انتظار للازمة .. دخول فى الازمة .. تلاحم مع الازمة .. احتواء لها .. خروج منها وانتصار للعلم والعقل والاعصاب ونجاح لصناعة وفن الطيران والرحلات بين القارات .. وعودة الى ركوب الطائرات من كل نوع فى اى وقت !

وماذا تحدثه البراكين والفيضانات والسيول والجفاف والحرائق والسحب السامة والاشعاعات النووية .. وكلها مقدمات لازمة وازمة وحل لكل مشاكلها بعد ذلك !

فما الذى انتهينا اليه فى مصر ـ اقصد دراويش الرئيس عبد الناصر : ان الهزيمة حدثت فى غيابه .. وان النصر ايضا حدث فى غيابه .. فاذا غاب انهزمنا ، واذا غاب انتصرنا .. اى انه انهزم حيا ، وانتصر ميتا ـ كيف ؟ !

ماذا حدث فى عالم الادب والفن ؟

كيف كانت الهزيمة .. كيف تلقينا كل ذلك .. كم من اشعاعاتها السامة امتصتها أرضنا وسماؤنا وأجسادنا وأقلامنا .. كيف واجه المفكر والاديب والفنان والمدرس وخطيب المسجد هذا الذى حدث .. ماذا قلنالبعضنا البعض .. ما الذى قاله الاب للابن .. وماذا يقوله الابن الذى هو فى العشرينات الآن .. وماذا سيقوله هو ايضا لابنه .. وهل ابن العشرين يكن اى احترام لوالده .. وهل يتصور أن ابنه سوف يحترمه هو ايضا .. ولماذا انعدام الاحترام بين الجميع .. فما هذا الذى لم نعد نحترمه . اننا وقعنا فى الذى حرص الامريكان الا يقعوا فيه بعد فيتنام . ان تغرق الدولة والشعب فى بحور الكذب .. الكل يكذب .. ولا احد يصدق أحدا . واذا كنت انت لاتصدقنى فما الذى يدعونى الى الكلام .. واذا كنت كلما فتحت فمى بكلمة . فتحت فمك بتثاؤب .. فاذا تثاءبت انسدت اذناك ..

دخلت مصر مرحلة التثاؤب الطويل . الكل يتكلم والكل يتثاءب .. الكل يتكلم والكل لايسمع . ماسم هذا الحوار بيننا ؟ . مامعنى هذا الاصرار على الكلام والصمم .. مامعنى الافواه التى فتحناها والآذان التى سددناها ..

إن روحا من « الهزل » قد أغرقت مصر بعد الهزيمة العسكرية .. الكل يهذى ويهزل .. أو الكل يهزل فهو هذيان ، أو الكل يهذى فهو هزل !

ليس بالضبط كذلك . ولكن الاصح ان نقول إننا دخلنا فى حالة من « العبث » - أى اللعب فى موقف الجد . والجد فى مقام اللعب ...

فالعبث معناه الفلسفى : فقدان المعنى .. فقدان المنطق .. فقدان دلالة الالفاظ .. تماما كما تمتلىء جيوبك بعملات ورقية كانت لها قيمة .. ولسبب ماألغيت .. فاصبحت ورقا لاتساوى وزنها ترابا .. وكذلك الكلمات أصبحت بلا عائد بلا مدلول ..

بلا معنى .. فالكلمات اصوات .. وليس غريبا ان نقابل هذه الاصوات بلا آذان .. هن .. حق .. ها .. بها .. شوها - مثل هذه الاصوات تخرج من الصحف ومن الاذاعة ليلا ونهارا .. من يطلقها يعلم انه لايقول شيئا ، ومن يسمعها يعلم انه لاشىء .. ولكن هناك اصرار على ان يقال ، وعلى ان يسمع ! وقد تنبأ الرئيس جمال عبد الناصر بحالة العبث هذه فى كتابه « فلسفة الثورة » . فقد اشار الى نفسه وزملائه الثوار كأنهم شخصيات فى مسرحية الكاتب الايطالى بيراند للو - المسرحية اسمها « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . يريد

الرئيس عبد الناصر ان يقول من الفهم البسيط لعنوان المسرحية ـ هو يسميها (رواية) ؟ ! انهم كانوا حائرين بأفكارهم واشخاصهم يبحثون عن واحد ينظم لهم افكارهم واهدافهم او يضعهم فى النص الصحيح ويطلقهم على المسرح ادوارا فى الحياة !

هذا هو الفهم العابر البسيط لعنوان المسرحية التى لم يقرأها الرئيس قطعا .. ولكن المعنى الذى قصده المؤلف الذى اصدر هذه المسرحية عندما كان الرئيس فى الثالثة من عمره ، فهو شىء آخر تماما .. فالمسرحية تصور مجموعة من الممثلين يقومون ببروفات لاحدى المسرحيات . وفجأة ظهر ستة اشخاص يقتحمون المسرح ويواجهون المخرج ويقولون له : ان مؤلفا قد اخترعنا جميعا . فكل واحد يعرف اسمه ورسمه ومكانه فى الحياة . ولكن المؤلف لم يشأ ان يكملنا .. فكل واحد منا هو حقيقة الا قليلا . ونحن نريد ان تؤدى ادوارنا التى خلقنا لها .. وهى مفاجأة كبرى للمخرج وللممثلين الآخرين .. فنحن أمام شخصيات لها قوة الواقع ، وامام ممثلين يحاولون ان تكون لهم قوة .. وممثلين يحاولون ان يقوموا بأدوار هذه الشخصيات .. وهؤلاء الممثلون لايستطيعون ان يؤدوا ادوار الشخصيات .. لان الشخصيات « تعيش » أدوارها .. بينما هؤلاء الممثلون « يؤدون » ادوار الشخصيات ..

أى ان هناك واقعا ووهما .. والشخصية لها واقع ادبى ولكنه واقع قوى .. والممثلون لهم واقع مسرحى ، وهو واقع وهمى ..

فالمؤلف بيراند للو يريد أن يقول ان كل شىء وهم .. وكل شىء وهمى بدرجات متفاوتة ..

وأعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استراح إلى هذا المعنى لأنه فعلا لم يكن يدرى بالضبط ما الذى يفعله بنفسه وزملائه وبلده .. فلا عنده نظرية ولا مذهب سياسى . ولا كان مؤهلا لكل ماحدث بعد ذلك .. وهذا واضح فى الأسماء المختلفة التى أعطاها لنفسه ولزملائه الثوار .. قالوا : الحركة المباركة .. وقالوا الانقلاب .. وبعد ذلك قالوا : الثورة .. وواضح أنهم كانوا يبحثون عن المؤلف .. ووجدوه .. فراح يصوغهم ويصوغ أفكارهم .. ويجرجر وراءهم الشعب المصرى والعرب من المحيط إلى الخليج ..

والشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه « بقايا ذكريات » فرغ من النشيد الذى كان يتردد فى الخمسينيات :

من المحيط الهادر
إلى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر !

كأنه لازعماء ولا رؤساء ولا ملوك .. هو فقط .. وهو أيضا يقال له : لبيك .. لبيك !

وبعد ذلك كان عبد الناصر يستمع إلى من يقول له : إنه استطاع أن يوحد بين العرب كما لم يستطع الرسول عليه السلام ؟ ! ـ إقرأ مذكرات الشيخ أحمد حسن الباقورى !

ولم يكن يضيق بذلك .. بل أن هذا هو المعنى العميق الدفين .. هذا المعنى لم ينطلق إلا مع رصاص حادث المنشية .. فقد كان يصرخ ويقول : إن قتلونى فقد قتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .. ولكننى إذا قتلت يجب أن يتذكر المواطنون أننى منحتهم الحرية والعزة والكرامة .. سيبنى ياشيخ أحمد !

ولم يعترض عبد الناصر عندما أعلن بعد ذلك أحد من الصعيد أنه نبى .. أو كأنه نبى .. أو أنه من أهل البيت !

اذكر أننى كنت أتناول طعام العشاء مع الأمير أحمد فؤاد وزوجته الأميرة فضيلة فى باريس . والأمير فؤاد أو الملك السابق لمصر شاب طيب بسيط محب لمصر .. ومنتهى أمله أن يكون عنده جواز سفر دبلوماسى ليدخل ويخرج من مصر كأى مواطن مصرى .. والأمير فؤاد طبعا لايعرف ماذا حدث له ولمصر .. فهو ولد يوم حريق القاهرة .. ولد ملكا (سابقا) .. وخلع من الملك وهو لايدرى .. فكنت أداعبه وأقول لـه : إنها غلطة والدك .. فقـد هوشة على مـاهر .. فخاف أبوك مع أن ضباط الثورة كانوا أكثر خوفا منه ـ ولو صبر أبوك قليلا ، لكنت ولاتزال ملكا لمصر .

ولا استحال على واحد مثلى أن يتناول العشاء معك الآن ! وكان يضحك هو وزوجته ..

ولما سقط الملك نهض الضباط الشبان ودارت رؤوسـهم ودرنا حولهم .. لانحن عارفون ولاهم .. هم يبحثون عن مؤلف ونحن نبحث عن مخرج .. وكان ماكان .

ولكن الذى تنبأ به الرئيس عبد الناصر قبل الثورة ، قد وقع بعدها . وكان ذلك هو الطبيعى والمنطقى . فبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وقبلها بقليل ، كانت مصر تهيأت تماما لقبول « العبث » كواقع حقيقى صادق .. لقبول المعنى الغائب

واللفظ الحاضر على أنه حقيقة الشعور المتبادل بين الكاتب والقارىء .. فقد غاب من هوائنا الأوكسجين ، وانحسرت عن ألفاظنا المعانى .. وكانت الصحوة مثل الدوخة تماما .. والذى فى يده زجاجة حبر كالذى فى يده كأس .. ولم نعد نعرف إذا ذهبنا إلى المسرح إن كانت الستارة أمامنا أو وراءنا .. إن كان الممثلون فوق أو هم تحت .. أو كنا نحن الممثلين والمؤلفين والمخرجين معا .. أو أن الذى تراه ليس الا حلما وهميا . فنحن أيضا نبحث عن مؤلف ومخرج ونص ومسرح .. فكله تمثيل فى تمثيل .. كذب فى كذب .. وهم فى داخل حقيقة فى قلب وهم .. ضاع الناس من الناس .. وضاعت الدنيا من العين ، والصدى من الأذن .. والمستقبل من الحاضر !

وكان من الطبيعى أن تظهر مسرحيات « العبث » فى مصر . وظهرت . وترجمنا . وتحمسنا . ظهرت مسرحيات يونسكو وأداموف وبيكت .. وقبلها مسرحيات برشت .. وبعدها مسرحيات توفيق الحكيم : ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالمعلقة الصينى .. فكما ترى طالع الشجرة سيجد فوقها بقرة ، والبقرة تدر لبنا واللبن تشربه بملعقة صينى .. وترى كل ذلك معقولا مقبولا . فكلنا نطلع الشجرة ، ونتخيل ذلك ، ونجد أبقارا حقيقية تدر لبنا وهميا لتشرب بمعلقة ذهبية صينية خشبية ؟ !

مجانين نحن ؟ نعم ولكن بعضنا عقلاء .. ولكن العقلاء إذا تكلموا لم يستمع إليهم أحد . والحل ؟ لقد وجد توفيق الحكيم الحل أيضا فى حكايته عن « نهر الجنون » .. الناس شربوا من هذا النهر فكانوا مجانين .. ولكن ظل الملك وحاشيته عقلاء .. ولكنهم عاجزون عن التفاهم مع المجانين .. والحل هو أن يصيروا مجانين فشربوا من نهر الجنون . وصاروا .. والجنون فنون - أى الجنون أشكال وألوان .. ومن الجنون أن نبقى عقلاء والأغلبية مجنونة ، ومن العقل أن نصبح مجانين كالأغلبية !

فماذا كان يقول مسرح العبث فى الستينات فى مصر ؟

يكرر ماقاله مسرح العبث فى أوروبا كلها : إن الكلمات لامعنى لها .. وإن الاتصال بيننا مستحيل .. لأن اللغة هى وسيلة الاتصال بيننا .. وحيث لاتوجد لغة ، فلا صلة .. ولا اتصال .. ولا توصيل .. ولا تواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل .. وأنما نحن فى حالة الغيبوبة - التى هى حاضر باهت لماض غامض ومستقبل أكثر غموضا ..

وفى مسرحيات الكاتب الفرنسى الرومانى الأصل « يونسكو » نجد ممثلين على المسرح يتحركون ويقدمون المقاعد والطعام والشراب لأناس لا وجود لهم .. ومطلوب من المتفرج أن يشاهد وان يصدق .. يصدق هذا الكذب .. هذا الوهم .. هذه الخرافة .. أى يصدق ان هناك أناسا أو عليه أن يتخيل ذلك .. دون أن يكون هناك معنى .. وليس من حق المشاهد أن يطلب من الممثل ان يكون منطقيا .. ولو فعل لنزل الممثل وصفعه ثلاثة اقلام على خديه الأيمن والأيسر وعلى قفاه وهو يقول له : وهل أنت منطقي ؟ وهل أنت عاقل ؟ فكيف أكون أنا ؟

وقد اعتاد يونسكو على أن يجد مسرحيته المسماه « الكراسى » بلا جمهور .. اى ان الستار ينفتح على عدد هائل من الكراسى .. فعلى خشبة المسرح عدد من الكراسى الخالية وفى الصالة أضعاف هذا العدد من الكراسى الخالية ..

يقول يونسكو : فعلا المسرح مرآة الواقع .. فاعظم تحية للمؤلف أن يواجه الجمهور هذه الكراسى الخالية على المسرح باضعافها من الكراسى الخالية فى الصالة !!

فبالذمة لماذا هذه المسرحية ؟.. ولماذا المسرح اذا كان المؤلف لا يهمه ان يذهب الناس ؟ بل يسعده ألا يذهبوا ؟ اليس هذا هزلا ـ اقصد عبثا اضافيا لعبث النص والمسرح ؟! إنه فعلا عبث . ولكن ليس من حقك أن تسأل عن المعنى لاننا اتفقنا على انه لا معنى .. وليس من حقك أن تسخر منه ، لأنك يجب أن تقدم له معنى يقبله هو لكلمة السخرية ..

وهذا ما حدث فى مصر : ماالذى يمكن أن نقوله للناس عن البطل والنصر القريب والهزيمة المؤكدة ؟.. أين الهام البطل الملهم والزعيم الخالد .. وأين المحيط الهادر والخليج الثائر لبيك عبد القاهر والظافر ؟!

هل يقول للناس إنهم لا يفهمون فى الحرب فكيف تناقشون النصر والهزيمة ؟ وأنتم لا تفهمون فى الاستراتيجية والتكتيك فكيف تناقشون فى العروبة والاسلام والفرعونية والوطنية ؟ ثم ان هذه الكلمات التى تستخدمونها قد تغيرت معانيها ؟ وقواعد اللعبة السياسية والعسكرية والاخلاقية قد تغيرت قواعدها ـ ولكن دون إخطار سابق .. ولكنها تغيرت والسلام !

يعنى تغيرت ولكن ليس من الضرورى إخطار الناس بذلك ـ لأنه معنى للناس وقيمة للناس وما شأن الناس بشئونهم وحياتهم والافكار والقرار ؟!

وأحس المصريون فى ذلك الوقت أنهم فى اواسط افريقيا .. وأنه حدث لهم ما

يحدث للناس السذج هناك .. ففي اواسط افريقيا قبائل تغير اسمها كل يوم .. ويقوم كل فرد بتغيير اسمه . فتناديه باسمه الذى كان معروفا به بالأمس فلا يرد .. وتظل تحاول ولكنه لا يرد .. لأنه غير اسمه دون أن يخطرك .. فاذا حاولت أن تهتدى ، فانه لا يساعدك .. فكأنه غير اسمه حتى لا يناديه أحد ، فلماذا الاسم ؟ فكأنه جعل لنفسه اسما لا يعرفه سواه .. مع أنك لست فى حاجة الى اسم لكى تنادى به نفسك .. وانما هذا الاسم ليناديك به غيرك ويميزك عن الآخرين .. فالدولة والقيادة والزعيم هو هذا الذى يغير اسمه واسم القبيلة والطعام الشراب وقواعد السلوك .. دون أن يجد من الضرورى أو اللائق أن يخطر بذلك احدا ـ لانه لا أحد سواه !

وانسحبت مسرحيات « العبث » من دور العرض . وانتقلت المسرحيات الى الكتب .. اى ان العبث المسرحي الذى هو صورة للعبث السياسى ، قد قبع فى الكتب .. انتقل الى التاريخ الأدبى !

★ ★ ★ ★

والعبث لايزال موجودا ولكن بصورة أخرى .. فالعبث معناه : انه لا فائدة من شيء .. لا جدوى .. وانتشار المسارح الهزلية فى مصر الآن ، ليس إلا « العبث » ولكن باسلوب اخر .. فكل هذه المسرحيات تسخر من الواقع ومن الناس .. وتسخر من التمثيل والممثلين انفسهم . وقد تحولت المسارح الى حياة مسرحية يشارك فيها الممثل والمتفرج فى الضحك والتضاحك والزغزغة .. الممثل يزغزغ المتفرج والمتفرج يزغزغ الممثل .. والكل يضحك ، والمعنى : ان المسرح هو الزغزغة اليومية لكل الناس وكل القادة والوزراء .. والناس يضحكون ضحكا شاملا ، والمعنى هو انه على الرغم من النقد لكل شيء وكل أحد ، فلا خوف على الممثل ولا على المتفرج ، لأنه لا معنى لكل هذا النقد . فلن يأخذ به أحد ، ولا يخيف احدا .. فكأنه لا مسرح ولا نقد ولا رأى ، وانما غيبوبة من الضحك .. وغيبوبة المعانى والاهداف .. لانه لا معنى لهذا المسرح ولهذا النقد !

واذا كان المفهوم التقليدى للمسرح الضاحك هو ان المتفرج يضحك على عيوبه .. وينفضح امام نفسه وغيره ، وعن طريق هذه الفضيحة الضاحكة أو الضحكات الفاضحة ، يصلح نفسه بنفسه ، فإن مسرح العبث الضاحك معناه : اضحك ولا يهمك .. اضحك ولا تصدق كلمة واحدة مما تقول .. فلا

نحن نعنى ما نقول ، ولا انت تصدق ما تقول .. ونحن هازلون وانت أيضا . فلا كأننا قلنا ، ولا كأنك سمعت .

فالعبث الاول كان عبث الهزيمة .. عبث الغيبوبة الحزينة ..

والعبث الثانى هو عبث النصر .. عبث النشوة السعيدة .. فالناس بعد الهزيمة كلامهم رمز وهمز ولمز .. وهمس .. والناس بعد النصر كلامهم : زعيق وصراحة وقباحة ووقاحة ..

وعبث الهزيمة : يائس !

وعبث النصر : اكثر يأسا !

* * *

دعنى اضرب لك مثلا آخر ..

افرض أنك دخلت أحد المستشفيات وتنقلت بين ممراته ولم تسمع صوتا لواحد يقول : اه .. ولا رأيت عربة اسعاف .. ولا رأيت غرفة عمليات .. ولا وجدت صيدلية فى هذا المستشفى .. فالمعنى الذى يخطر على بالك : ان الناس جميعا فى صحة جيدة ، ولا مرض ، مادام لا مرض فلا حاجة الى دواء .. ولا عمليات جراحية .. انه مستشفى الصحة والعافية ..

ونفرض انك دخلت مستشفى مجاورا فوجدت الصرخات والصيحات والناس داخلون خارجون . والصيدليات فى كل مكان والاطباء يهرولون وغرف العمليات تتفتح .. هيصة وفوضى .. وأمراض وأوبئة كثيرة !

وملاحظتك خاطئة فى الحالتين : فالمستشفى الاول قد صدرت له تعليمات صارمة الا يفتح المريض فمه ويقول اه .. ولا كلمة ولا نفس فالهدوء اضطرارى والصمت قهرى واختفاء الطبيب إجبارى !

كذلك كانت مصر قبل الهزيمة وبعدها ..

والمستشفى الاخير عادى جدا . طبيعى أن يقول المريض : آه وأن يقولها طويلة وقصيرة وأن يسأل عن الدواء ويجده .. وأن يفزع الاطباء واهالى المريض .. وأن يلعن الناس الممرضات .. والدواء المغشوش والاجور المرتفعة .. فالضوضاء هنا ليست فوضى .. ولكنها الحرية فى مواجهة الازمات العادية فى حياة الناس . وكذلك كان الناس فى عصر السادات .. يقولون ويصرخون .. وتتعالى اصوات الرأى والآراء الاخرى وتكون ابواب ونوافذ ومداخل ومخارج وتنفتح مصر على الدنيا ، والدنيا عليها !

ولكن « العبث » لايزال نصا واخراجا وفرجة .. فكما أن المسرح العبثى كان خاليا من الممثلين ، وكانت الصالة خالية من المشاهدين ، فكذلك مسرح العبث اليوم .. المسرح مليان بالناس الواقفين ، والصالة أيضا قد غصت بالواقفين ، لان المقاعد قد ضاقت عنهم .

ومن اهم معالم مسرح العبث القديم انه لا يوجد « بطل » واحد طويل عملاق والناس حوله اقزام .. او واحد طرزان يقفز بين الأشجار وينتصر على الحيوانات ويقتلها دون ان يصاب بسوء .. لا احد كذلك فى الواقع ، ويجب ألا يكون أحد من مثل ذلك على المسرح .. لأن الابطال هم الانبياء بلا كتب مقدسة .. او هم الانبياء فى غيبة الانبياء ..

أما السبب فهو أن الحضارة الغربية قد اصابتها الكوارث بسبب الزعماء الانبياء .. بسبب هؤلاء الابطال الذين يمشى وراءهم الناس عميانا لا يفكرون ولا يديرون ، ثم كانت المصائب الكبرى .. مصائب هتلر وموسولينى وستالين وفرانكو .. والشعوب تنظر إلى الابطال نظرتها إلى الاشخاص الافذاذ القادرين على انقاذ البشرية من ويلاتها وعثراتها .. ولكن الشعوب من الممكن أن تقتل ابطالها ، إذا الابطال خانوا الشعوب ..

فالبطل الذى يجعل الناس تستسلم له تماما ، وتترك له الافكار والقرار ، اذا هو سقط .. أو انهار .. أو ضعف فان الشعوب تشعر انه غدر بها .. انه صدمها فى عزيز لديها .. وانه اذا كان سبب العظمة ، فقد أصبح أساس الهوان .. وينسون ما كان لهم على يديه ، ولا يذكرون إلا ما اصابهم بسببه .. فيقتلونه .. بقتلون الخائن الغادر . ولا يدركون انه هو هو القاهر الظافر الأمين ..

وكان من الممكن أن يغتال عبدالناصر أقرب الناس إليه .. وأحبهم أيضا ـ أى أكثرهم حبا له .. ولنفس هذه الأسباب ، تماما كما تفعل المرأة العاشقة إذا خانها العاشق .. فان انتقامها رهيب والشعوب أيضا !

ولذلك كان اغتيال السادات منطقيا .. أن يقتله ضابط فى يوم عيد الضباط والجنود ، لماذا ؟

نهاية كرة القدم :
بداية كرة الندم ..!

قال أمير الشعراء أحمد شوقى :

نحن الكشافة فى الوادى
جبريل الروح لنا حادى .
يارب بعيسى والهادى
وبموسى خذ بيد الوطن !

★ ★ ★

فى السهل ترف رياحينا
ونجوب الصخر شياطينا
نبنى الابدان وتبنينا
والهمة فى الجسم المرن !

★ ★ ★

الرياضة أصبحت حقدا وعنفا ودما وسفالة ـ انها حرب لا ينقصها إلا الديناميت !

الله مع الفريق الذى عنده أحسن مدرب !

★ ★ ★

لم أجد رياضية واحدة تقول انها قادرة على شغل البيت !

★ ★

مصارعة الثيران يكرهها الناس لا لأن فيها تعذيبا للثيران ، وانما لأن فيها تعذيبا للانسان !

★

الفرق بين الرياضة والحب ان الرياضة تتوقف عندما تظلم الدنيا !

★

اعظم رياضة الآن : الفلوس !

★

عندما يقتل الانسان نمرا فهى رياضة ، عندما يقتله النمر فهى وحشية !

وهذا هو المعنى التربوى الاخلاقى الوطنى للرياضة :

صحة وعافية وعمل وبناء وظل هذا هو المعنى للرياضة والألعاب الرياضية الى وقت قريب جدا .. أما بعد ذلك فقد فسدت الرياضة وأصبحت تجارة وشطارة ..

مع أن الرياضة هى أعظم هروب من متاعب الحياة اليومية . فأنت الى عملك تذهب وتتزاحم وتجلس وتقع الضغوط على دماغك .. وتركز على الذى امام عينيك وفى يدك .. ومن الشد والجذب والتوتر والضغط على غيرك يكون التعب والارهاق والعجز عن العمل والمشاركة والانتاج . هنا تجىء الرياضة فتنقلك من حالة من الوعى الى حالة أخرى .. ومن تركيز الى تركيز من نوع آخر ..

وتكون الرياضة مثل هروبات أخرى مختلفة : الجنس والمخدرات والخمور .. فهى تنقل الانسان الى درجات أخرى من الوعى وشبه الوعى واللاوعى ..

والفارق بين الرياضة وبين هذه الهروبات المختلفة أن الرياضة ليست لها مضاعفات جانبية .. فالذى يتعاطى الرياضة ليس كالذى يتعاطى الخمر و الحشيش يصاب بالدوخة أو الصداع أو التقلصات المعوية والمعدية ..

والرياضة نشاط انسانى ليس له فائدة مادية .. والذى يلعب ليس كالذى يزرع الأرض أو يصنع الزجاجات .. أو يزيد مساحة الأرض المزروعة .. وانما الانسان يلعب ، لأن اللعب متعة . ولأن هذه المتعة تقضى على متاعب أخرى .. فهو يلعب لأن اللعب غاية .. هدف ..

ثم ان الرياضة تطلق خيال الانسان وتجعله يعيش فى عالم آخر .. ليس هذيان المخمور أو المسطول .. وإنما ان تذهب الى الملعب وتجلس بين المتفرجين . وأمامك حدود وسدود .. لك حدود لا تخرج عنها . واللاعبون قد رسمت لهم على الأرض حدود .. هذه الحدود من الرمال ومن الطباشير .. حدود يمكنك أن تمسحها بجزمتك .. ولكن هذه الحدود لها قوة القانون .. أنت لا تدخلها واللاعبون لا يخرجون منها .. وهذه الحدود لها قوانين . هذه القوانين فالقاضى له ضميره . ونحن نتركه لضميره . حتى لو اخطأ . فلا استئناف لحكمه . واللاعبون كأنهم معتقلون .. معتقلون بارادتهم .. فالناس بين العلامات البيضاء لهم عالمهم .. دنياهم .. فقد حبسناهم مع القاضى فى محاكم علنية .. هم يلعبون والقاضى قد انفرد بهم .. ونحن نتفرج ونصرخ وكأنهم لا يسمعوننا .. وهم يلعبون وكأنهم لا يروننا ..

والفرجة على اللاعبين تستغرقنا .. تغرقنا فى حماس وبهجة ومتعة ..

ونحن المتفرجين قد ساوت الرياضة بيننا .. فأنت لا تنظر الى جارك من هو ولا ماذا يعمل ولا ماذا يرتدى ولا ماذا يقول .. قد يصرخ ويبكى وقد ينفجر فيك صارخا أو شاكيا .. وقد يشتم ويلعن .. وقد يكون واحدا من المشتومين أخاك أو ابنك .. وأنت لا ترى فى ذلك اهانة شخصية .. وانما هذه الاهانة هى من شروط اللعبة .. اللاعب يقبلها .. والمتفرج يقبل عليها .. وكما ان اللاعب يرضى مقدما أن ينكسر وان يقع على الارض .. واذا طال وقوعه على الارض فان الجماهير تطالب باخراجه حتى لايتوقف اللعب .. فاللعب أهم من اللاعب .. والمتعة والاثارة هما الهدف ..

فاللاعب المكسور على الارض يفسد هذه المتعة . وقد يكون اللاعب المكسور هو مصدر المتعة .. هو الذى أحرز هدفا بعد هدف .. ولو .. ولكنه فى هذه اللحظة يوقف مسار الاثارة .. ولذلك يجب أن يخرج .. هذه القسوة من المتفرجين يقبلها اللاعبون ، كما يقبلون الاهانة والبهدلة من المتفرجين .. انها شروط اللعبة . واللاعب قد وافق عليها قبل ان ينزل الى ما بين العلامات البيضاء .. التى هى حدود ذلك العالم المثير الذى يشعل النار فى خيال اللاعب والمتفرج ..

والرياضة تحتاج من اللاعب الى البراعة والذكاء والمقامرة والتركيز على الاهداف .. هذه هى الرياضة جوهرا وشكلا وأسلوبا وغاية .

والرياضة لاتساهم مثلا فى صراع الانسان من اجل السيطرة على قوى الطبيعة : الشمس والماء والهواء والجوع والمرض والجهل والظلم . لا شأن لها برفاهية المجتمع أو تنظيم النسل أو سعادة الاسرة .. لا شىء من ذلك ! فالرياضة نشاط بلا فائدة مادية ..

ولذلك استحقت الرياضة بكل أنواعها عداء رجال الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى . لانها تشغل الناس عن الانتاج . ولانها لهو . ولانها مضيعة للوقت والطاقة والمال . ولانها تضع أمام الناس نماذج لا قيمة لها . وأنها تغرى الناس بأن يلعبوا وأن يهربوا ..

ويقال إن الرياضة هى من مظاهر الترف عند الاغنياء هم الذين يلعبون . فليسوا فى حاجة الى زراعة الارض أو صناعة الطعام ـ فعندهم من يقوم بهذا العمل . والاغنياء هم الذين ساعدوا على بقاء الرياضة . لانهم قد اكلوا وشربوا وناموا وقاموا يكملون المتعة بالفرجة على اللاعبين .

وكان ذلك هو جوهر النقد الذى وجهه المصلحون الى اللهو الرياضى .. وعندما ظهرت الاشتراكية رأى الاشتراكيون أن الاقطاعيين والرأسماليين يشجعون الرياضة لأنهم يشجعون الحرب والدمار وتسخير الشعوب من أجل اطماعهم التوسعية . فالرياضة ليست إلا نوعا من العسكرية .. من الانتظام والالتزام والعنف والهجوم والدفاع .. وليست الا تشجيعا على الصراع والخلاف والازمات .. والتعصب للفريق وللوطن .. وليست الا نوعا من التفرقة العنصرية .. وذلك بتمجيد الرجال والرجولة وفى ذلك عداء للمرأة .. أى ان الملاعب هى المصنع الحقيقى لكل الاحقاد واثارة الغرائز من أجل القتل والحرب والموت .

وفى العصر الحديث ، وفى الدولة النازية الشمولية كان الشعار الهتلرى : القوة عن طريق المرح .. أى القوة العسكرية عن طريق اللعب واللهو .. فقد شحنت المانيا كل أطفالها وشبابها جيوشا تحت التمرين الى أن تجىء لحظة الحرب . وجاءت . وكان وقودها ملايين الشبان الاصحاء ..

ولم تختلف النظريات الماركسية والنازية عن الرأسمالية أيضا .. فكلها تنظر الى الرياضة على انها وسيلة لتحقيق القوة والصحة والجمال والحرب .

فالرئيس كنيدى مثلا أنشأ مجلسا اسمه ، مجلس اللياقة الشبابية ، يقول فى برنامجه : إن نعومة الشباب وطراوته المتزايدة ، خطر فادح على الأمن القومى !

أو بعبارة أخرى : هناك فرق بين اللاعب والمتفرج .. بين الشاب النشيط المتحفز والمتفرج المسترخى . فإذا استعار اللاعب سلبية المتفرج فهذا هو الخطر . وهو نقد عنيف للمتفرجين أيضا . وتهمة كبيرة أن يوصف اللاعب بأنه متفرج .. أو كأنه يتفرج على اللعب ولا يشارك فيه !

وفى سنة ١٩٦٧ اعلنت حكومة كوبا الماركسية : أن التربية والثقافة والصحة والدفاع والسعادة وتنمية الشعب كلها حلقات فى سلسلة واحدة : الرياضة !

وفى سنة ١٩٢٥ اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : ان الرياضة يجب ان تستخدم كوسيلة للتجمع الجماهيرى من العمال والفلاحين فى نشاط اجتماعى واحد ..

والدول الماركسية ضد تمجيد الفرد ، وان كانت كثيرا ما تقع هى فى ذلك .. وإلا فلماذا قداسة لينين ونجاسة ستالين ؟ !

ولذلك كثيرا ما رأينا فى تاريخ الماركسية أنهم نزعوا البطولة من الأفراد

وجعلوا البطولة للمتظاهرين .. الوف الناس الذين لا نعرف لهم ملامح .. إلا انهم حشد يتدفق كأنهم موج .. طوفان .. حريق .. أعصار . أو بطولة المدن .. المدينة هى البطل .. الحائط .. الكوبرى هو البطل .. أو القلق هو البطل .. أو الصبر .. أو الجليد .. أى شىء وأى نشاط إلا أن يكون فردا محددا .. وكذلك الرياضة هى البطل أو مصدر الفساد .. ليس واحدا من اللاعبين . وانما تجمع اللاعبين ..

ولكن لحسن حظ الرياضة والقيم الفنية والجمالية ، أن قاوم كثير من الشعوب فرض هذه القوالب الحديدية على اللعب .. على متعة الفرجة .. ومتعة الكفاح على أرض الملاعب .. كفاح على أرض الملعب وداخل علاماته البيضاء من الطباشير والرمال .. فقط فى داخل العلامات لا من أجل أن يفوز لاعب بكرة .. أو بالشبكة .. أو الاستيلاء على الملعب .. على النادى على البلد .. أبدا كل شىء بين العلامات البيضاء .. يبدأ داخلها وينتهى داخلها وهذه العلامات على الأرض كأنها جدران من الكريستال .. ترى منها ولا تذهب الى ما بعدها .. هذه هى الحدود والاصول والقواعد .. ارتضيناها لاعبين ومتفرجين ..

وليس صحيحا أن يقال إن المتفرج سلبى . إنه ايجابى جدا . ولكن بصورة أخرى .. أى بالصورة المسموح بها قانونا .. فهو يجىء ويدفع ويجلس ويتحمس ويصرخ ويشترى ويدفع ويأكل ويشرب وهو يحل مشاكله كلها جالسا واقفا صارخا وهو الذى يقوم بتمويل النشاط الرياضى . وهو المسئول عن اتساع الملاعب ورواج صناعة الرياضة .. فالرياضة علوم وفنون وصناعة وتجارة . والمتفرج هو أكبر قوة استهلاكية لكل ذلك !

وفى مواجهة الأزمات الكبرى والهزات العنيفة تختلط الأشياء والعلاقات بين الناس .. ونحن فى قلب الطوفان أو قلب البركان لا نعرف من أين جاء الماء أو جاءت النار والدخان .. نحاول ولكننا لا نعرف .. ولن نعرف إلا بعد ان ينحسر الماء وينقشع الدخان وتخمد النار ، وتسكن الأرض وتستقر عيوننا فى محاجرها وألسنتنا فى حلوقنا .. ورءوسنا فوق أعناقنا وقلوبنا فى ضلوعنا وكل ذلك يحتاج الى وقت .. والآن ليس أو انه .. وانما يجب ان نبعد كثيرا وطويلا من مكان الكارثة .. نبعد فى المكان وفى الزمان لنرى أوضح ونسمع أعمق ، ونكون أكثر حرية وأمانا . والمفكر الفرنسى مالرو يقول : اننا فى حاجة الى مائتى سنة لكى نحسن رؤية الثورة الفرنسية .

أى فى العام القادم يمكن لأى مفكر أن يقول بوضوح كل ما كان غامضا على المعاصرين للثورة وأحقادها والخائفين منها والخائفين عليها ..

ولكن قبل ذلك لا نملك إلا أن نشير بأصبح فى الكف .. أو الكف كلها أو الذراع .. وليست هذه اشارة كافية . ولكن هذا هو الممكن لكل مائتى سنة ..

وبعد الهزيمة العسكرية فى مصر ارتبكت النظرة وتعمقت الحسرة .. والتفت الناس يسألون : ما الخبر ؟ من فعلها ؟ من أين جاءنا الطوفان من أين تفجر البركان .. من الذى ركب سحابا ، ونطق رعدا ، وامتشق برقا ، وهزم الانسان .. إرادة الانسان . كبرياء الانسان ..

لم نترك أحدا أو شيئا لم نجعله مجرما .. إلا المجرم .. إلا المجرمين حقا !

ولم يكن صعبا على الناس أن يدركوا أن هناك علاقة بين الرياضة والعسكرية .. بين الرياضة التى أفسدها العسكريون ، أو العسكريون الذين أفسدتهم الرياضة .. حتى إذا ذهبوا إلى القتال : راحوا يلعبون .. وكانت الهزيمة فكأن العسكريين كانوا مهزومين قبل أن يحاربوا .. انهزموا فى الملاعب قبل أن يلعبوا فى الميدان .. فلأنهم استغرقوا فى اللعب ، عندما ذهبوا الى القتال استمروا فى اللعب ..

أو لأنهم عسكريون فاشلون فلم يفلحوا فى تحويل الرياضة الى معسكرات الى جيوش تحقق النصر فى النهاية ..

أى أن العسكريين انهزموا مرتين : مرة فى الملاعب ومرة فى الميدان .. وكان الناس يقصدون :

الفريق أول مرتجى رئيس النادى الأهلى .

والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الاوليمبى والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الطيران .. وكان المشير عبد الحكيم عامر رئيس اتحاد الكرة ..

فأما أنهم أفسدوا الرياضة ..

وأما أن الرياضة أفسدتهم ..

والنتيجة أنهم لم يصبحوا عسكريين ولا رياضيين .. ولم يكن فى استطاعة الناس أن يحاكموا كل هؤلاء .. وكل الذى استطاعه الناس هو إدانة الرياضة .. أدانة كرة القدم ..

أذكر أننى كتبت بعد الهزيمة العسكرية مقالا فى الصفحة الأخيرة لأخبار اليوم بعنوان : كرة الندم !

وفى هذا المقال كنت ألوم على الناس أنهم حملوا الكرة والرياضة مالا تطيق .. فلا الكرة ولا رياضة كرة القدم ..

وإنما هو الجهل بالعدو والاستخفاف بالحرب .. وضياع المسئولية بين الزعيم الكبير والمشير الأسير . بل لو أننا أتقنا الكرة وتذوقنا علوم الرياضة ، لكنا فى الحرب أحسن ولكانت اعصاب المقاتلين والمتفرجين أهدأ .. ولكن دخلنا الرياضة محاربين ، ودخلنا الحرب لاعبين .. فلا أصبنا هدفا ولا استعدنا موقعا .

وفعلنا ما تمليه النكتة الشهيرة : ان رجلا ضبط زوجته مع رجل فى فراشه ، فباع السرير .

نحن أوقفنا المباريات الكبيرة فى كرة القدم أربع سنوات .. خمس سنوات .. خجلا من هزيمتنا .. وخجلا من عجزنا عن الاشارة الى المجرم والمجرمين .. بعنا السرير .. أو اقفلنا نوافذ غرفة النوم حتى لا يرى أحد مسرح الخيانة ومادمنا قد انهزمنا فى الملعب وفى الميدان ، فنحن إذن قد انهزمنا فى كل شىء .. والمواطن المصرى ليس له إلا وصف واحد : انسان مهزوم ـ منتهى القسوة على أنفسنا لأننا قد بلغنا اقصى درجات الندم !

وجاء علينا وقت كنا نندم عند الضحك .. ونرى أن الضحك لايليق بنا ، وانما الذى يليق هو البكاء والحداد ..

ولذلك ظهرت فى أفراحنا فرق موسيقية تردد الاناشيد الوطنية .. لا لأن الناس يريدون ذلك . ولكن لأن هناك شعورا بالندم . هذا الشعور يجعلنا عاجزين عن الاستغراق فى البهجة .. والاستغراق فى اللعب . فكان الفنان محمد نوح يهز الافراح باغنيات : شدى حيلك يا بلد .. وكانت لمحة ندم .. وخزة الم .. وكان الناس يرددون معه ووراءه وبعد ذلك ينصرفون الى الراقصة .. ويصفقون لها بنفس الحماس . وبقيت الراقصة وذهب محمد نوح ، فلم نكن جادين عندما ارتضينا محمد نوح بعض الوقت .. ولا استرحنا الى ذلك .. وانما نحن فى حالة من الاستسلام لأى إنسان يصفعنا على الخد الايمن فنعطيه الأيسر وقفانا ايضا ..

وظهر عندنا مسلسل تليفزيونى اسمه « فرافيرو » .. وهو لا يختلف كثيرا عن السوبر مان أو عن توم وجيرى .. وهاجمته الاقلام ، التى هاجمت الرياضة ، لأن فرافيرو هو المسئول عن تعميق الشعور بالخرافة عند الأطفال والأدباء ..

لأن فرافيرو هذا صانع المعجزات . ومن شأن الايمان بالمعجزة أن يشعر الانسان أنه صغير تافه .. وأنه فى حاجة إلى قوة اكبر .. ومادام لا يملك هذه القوة ، فسوف يظل عاجزا ، كسولا .. فى انتظار المعجزة التى لا تجىء . !

وأن فرافيرو هو المسئول عن ارتكاب الناس للجرائم .. كأن الشر والقتل والسيطرة والطمع من اختراعات التليفزيون .. فأين كان هذا التليفزيون يوم ارتكبت أول جريمة على الأرض .. يوم قتل قابيل أخاه هابيل ..

وقبلها قيل إن أم كلثوم هى التى اشاعت الذل والهوان وانتشار الحشيش فى مصر .. بسبب اغانيها الرومانسية للشاعر احمد رامى ..

إن الرمانسية فى فرنسا لم تمنع قيام الثورة الفرنسية .. ثم إن الصينيين الذين زرعوا الافيون ودوخوا العالم كله معه ثم شنقوا كل من يزرعه أو يدخنه ، لم يسمعوا ام كلثوم !

ولكننا نتخبط فى البحث عن المجرم .. وانتهينا إلى أننا جميعا مجرمون . فلا أحد برىء .. فقد شاهدنا وشاركنا وسكتنا . فالجريمة عامة . والادانة شاملة ـ أصابعنا يجب أن ندبها فى احشائنا ، ففى احشائنا يكمن المجرم الذى صفق وطبل وزمر وهتف بالروح بالدم .. وكلنا بنحبك يا ناصر .

ومن قبل الثورة كنا عارفينك . وقولوا لعين الشمس ما تحماشى لاحسن حبيب القلب راجع ماشى .. مهزوما من الجبهة !

ومع الثورة الصناعية .. وتطور أدوات الانتاج وقيامها بكل العمل اليدوى .. وقف الانسان أمام الآلة يساعدها ويراقبها ويستعير منها أسلوبها فى الانتظام والانضباط والصلابة .. فهو الذى اخترع الآلة ، وأصبح آله .. هى التى تضغط عليه . وهى التى تتدخل فى تشكيله النفسى والاجتماعى .. والانسان أيضا مثل الآلة : قطع غيار .. اذا ضعف أو « نعم » كان لابد من استبداله .. لأن الآلة .. لأن المصنع يجب أن يمضى فى الانتاج ..

والمثل الأعلى فى المجتمعات الصناعية هو : صلابة وبرودة وانضباط الالة !

ولذلك اصبحت الحياة « آلية » .. رتيبة .. مملة .. ولهذا كان لابد للانسان ان يفلت من قبضة الالة .. أن يهرب من الرتابة .. من الملل .. أى أنه فى حاجة الى شىء يهزه .. يثيره .. يعصف به .. يشيله ويهبده .. يغرقه ويستغرقه .. ويدوخه .. أى يهرب به من ضجيج المصانع إلى صراخ الملاعب .. ومن الانضباط إلى الانفلات والانطلاق .. والاقلاع والانخلاع .. وكانت الرياضة هى

الملجأ والمهرب الوحيد .. فاليها هرب وفى أحضانها ارتمى ، ولشروطها استسلم .. فالعمل الممل بلا متعة فيه .. العمل المنضبط لا إثارة فيه .. ولذلك كانت الرياضة هى العلاج لكل متاعب العمل ..

والمثل الاعلى للعمال هو : البلادة .. أى لا يهتز ولا ينفعل . وإنما يستمر .. يمضى .. يروح ويجيء كأنه آلة .. أو بعبارة اخرى ، مت عاطفيا لكى تعيش !

بينما الرياضة تقول : تنفعل أكثر تعش أطول !

ولكن الآلات لاتنفعل .. وكذلك يجب أن يكون العامل والموظف والفلاح !

وكل مواصفات الرياضة مرفوضة تماما فى المصانع فاللاعب يقامر ويخاطر ويضحى ثم إن اللاعب يقلق والمتفرج يقلق .. وكلها صفات وحالات مرفوضة فى المصانع . فلا مقامرة .. فكل شيء دقيق ومنظم . ولايصح أن يتدخل فيه الانسان ..

ولكن ظهور الانتاج بالجملة فى المصانع أدى إلى أن المستهلك أصبح قوة عظيمة .. أى المتفرجون قوة . وهى قوة لاغنى عنها فى الملاعب . قوة لها دور . ودورها هو أن يشعر بها اللاعب . يشعر بوجودها عندما يرى الوانها وأعلامها فى المدرجات ويعتز بصراخها . ويرى أن شروط اللعب الجيد وجودها ..

ولذلك نحن نقول فى وصف المباريات أن جمهور الاهلى يلعب على أرضه ووسط جمهوره . أى أنه مادام يلعب على أرضه ، فهذه قوة ، وبين جمهوره فهذه قوة اعظم وعلى ذلك فلا عذر له إذا لم ينتصر .. فاقصى مايمكن ان نقدمه له : ارضه ومشجعوه .. وإذا لم يلعب النادى على أرضه أو بين جمهوره ، فنحن نتوقع الا ينتصر .

ومعنى ذلك أن الجمهور قوة . وأن تدخل الجمهور شرط للعب .. أو شرط لاصابة الاهداف .. فنحن هنا قد اقتطعنا جزءا من قوة اللاعبين واعطيناها للمتفرجين !

أكثر من ذلك أدى إلى افساد روح الرياضة : ان اللاعبين ايضا يستعرضون براعتهم او يبالغون فى اصابتهم .. لان الكاميرا تتابعهم . فهم يلعبون للكاميرا .. ويلعبون للجمهور .. وكلما ظهرت صورهم ارتفعت أجورهم ..

والشعار الذى يتردد فى العالم كله هو : الكرة اجوال ! اى ان اهم اهداف اللعب هو أن تكون هناك اجوال ..

فمن أجل الجول يهون كل شيء وندوس كل قيمة وكل مبدأ وكل احد .. فلم

يعد اللعب لمجرد اللعب هو الهدف .. لم يعد اللعب الجيد هدفا .. لانه ليس أسهل من ان تقول ولكن ما الفائدة ؟ أى مافائدة أن تلعب دون أن تهز شبكة .. كيف نعرف أننا انتصرنا إذا لم نحرز اهدافا .. ودون ان نكش الملك .

انتهى زمن اللعب فن .. والفن للفن . وانما اللعب اجوال .. والهدف هو الكسب او المكسب او الانتصار .. وبدلا من أن يكون اللعب . « لعبا » اى نشاطا بارعا ذكيا فيه طفولة وبراءة أصبح فى اللعب عنف المراهقة وغلظة الرجولة ، وخشونة الملاعب ، وجاف الرمل وبدلا من أن تكون الروح الرياضية معناها التسامح والمساواة بين كل الناس أيا كان لون الفالنة ـ الفانلة خطأ ـ أيا كان البلد .. أيا كان الدين واللون .. أصبح اللاعب والمتفرج يتعصب للون والدين والجنس والبلد ..

أصبح من أهم عيوب اللاعبين احساسهم بالجمهور وليس باللاعبين معهم وضدهم .. فالجمهور هو القوة والكاميرا هى طاقة القدر .. وكذلك الجمهور لم يعد يهتم باللاعبين وانما بالكاميرا ايضا يضحك لها ويصرخ ويرفع الاعلام من أجلها . إنه هو الآخر يستعرض قوته .. واللاعبون كذلك .. فاللعب أصبح استعراضا تمثيليا !

والاحساس بالجمهور هو شعور الممثل والمطرب ..

ولذلك فهناك فرق بين الاغنية التى يسجلها المطرب فى الاستديو . والاغنية التى يسجلها فى احدى الحفلات .. الفرق هو الجمهور يشعر بالمطرب ، والمطرب يشعر به .. وصارت شركات الاسطوانات تضيف الى الاغنية المسجلة فى الاستديو صوت الجماهير وتصفيقها ماخوذا من الحفلات العامة .. كوسيلة لاقناع الجمهور انه موجود .. انه كان هناك أو أن هذه الاغنية قد لقيت حماسا جماهيريا .. وهذا الحماس التسجيلى يشعل حماس المستمع ويؤثر عليه ..

وكذلك هناك فرق بين « التمثيلية » المسجلة فى الاستديو .. والمسرحية .. المسرحية هى « التمثيلية » أمام الجمهور ، والتمثيلية هى المسرحية بلا جمهور .. فالتمثيلية تشبه الفيلم تماما .. تم تمثيله وتسجيله أمام عدد من المصورين وموظفى الاستديو ، اعتادوا على مثل هذه المناظر ، فهم أقل الناس حماسا لها ، واكثر الناس قرفا من الكذب الفنى الذى يعيشون به وعليه ليلا ونهارا .

ولذلك اكبر عقوبة لاحد الاندية الرياضية أن يلعب بلا جمهور !

واكبر صدمة يتلقاها الجمهور هى عندما يذهب الى الملعب يشجع الفريق الذى يحبه ثم ينهزم الفريق .. هنا يشعر الجمهور أن اللاعبين قد خانوه .. فقد أوهموا المتفرجين أنهم إذا جاءوا فسوف ينتصرون . أى أن شرط النصر أن يجىء المتفرجون . وصدق المتفرجون ذلك . فذهبوا وكانت الهزيمة !

ولذلك ينقض المتفرجون على اللاعبين الذين ضحكوا عليهم وخدعوهم فاللاعبون قد استعدوا نفسيا وتهيأوا وتخيلوا المباراة ، وتخيلوا الأهداف وتخيلوا النصر .. والخروج إلى الشوارع والمظاهرات .. وتخيلوا ما سوف يقولونه للخصوم .. وتخيلوا الولائم والنكت والسخرية بالخصوم وفجأة انهدم الخيال كله والسبب هو اللاعبون والسبب أنهم صدقوهم .. فكذبوا عليهم وجعلوهم أضحوكة للخصوم ولكل الناس ، وبعض المشجعين يتوارى فى بيته ولا يذهب إلى العمل .. أو ينهار .. أو يصاب بأزمة قلبية .. أو يموت .. أو ينتحر .. كأنه راهن بكل ما يملك ، وخسر كل شىء .. ونفسه ايضا !

وجاء التليفزيون وزاد عدد المتفرجين .. نشر الوعى بالرياضة ، ولكنه لم ينشر قيم الرياضة أو تذوقها .. ولذلك كان هدف متفرجى التليفزيون هو العنف والإثارة .

حتى الرياضة دخلتها النظريات : الهواية والاحتراف أيهما افضل لفن الكرة ، أن يكون اللاعب هاويا . يلعب لأنه يحب اللعب ولا يهمه المكسب المادى .

أو يلعب لأنه يعيش من اللعب .. فاذا لم يلعب مات .. ولذلك فهو يتفنن لكن يعيش أفضل .. بالكسب الكثير ..

اختلف علماء الرياضة .. ولكن أحدا لا يفكر ، لم يعد يفكر ، فى أن يتفرج فقط .. وأن يجد فى ذلك متعة .

انتهى ذلك الزمان الذى كان المتفرج يظل متفرجا لا يتدخل .. يرى ويسمع ويقول فى نفسه : الله تماما كالذين يتفرجون على التمثيل المسرحى أو الغناء المسرحى أو الموسيقى السمفونية .. فقط أن يصفق فى النهاية ، ولكنه لا يتنفس ولا يتدخل ..

ولكن تقاليد المسرح هى الأخرى قد انهارت .. فكان الممثلون يظهرون على المسرح ويعيشون حياتهم الفنية .. ونحن نتفرج فقط .. كأنهم لا يشعرون بنا ، وكأننا لا نعايشهم ..

أما الآن فمسرح العبث جعل من حق الممثل أن ينزل إلى مقاعد المتفرجين .. ومن حق المتفرج أن يصعد إلى المسرح ويضرب الممثل قلما .. أو يدخل معه فى قافية .. ويدور حوار خارج عن النص .. أو بالاتفاق مع المؤلف أو الممثل .. تماما كما يحدث فى الملاعب .. اللاعب عينه على المدرجات ، والمدرجات عينها على الكاميرا .. ولا أحد ينظر الى اللعب أو اللاعبين .. فلم يعد اللعب للعب ، أو الفن للفن .. وإنما كل شىء من أجل الاستعراض والمكسب !

لقد فسدت الرياضة نهائيا .. لم يعد لها ذلك البريق ذلك السحر .. لم تعد لها تلك الطقوس الدينية : المتفرج قد احتشد نفسيا وعقليا واجتماعيا أيضا . وذهب يتمتع فى استغراق .. واللاعب عينه على الكرة وعلى زملائه .. وكل همه هو أن يبدع وأن يتفنن ، انتهى كل شىء .. أما الأهداف ، إن جاءت فليست هى الهدف !

وجمهور التليفزيون الجالس فى بيته يريد من الجميع ان يقوموا بالتسلية .. أصبحت الرياضة تسلية .. مثل أعمال السيرك .. فالكاميرا عندما تتسكع بين المدرجات فلكى تبحث عن شىء غريب شاذ .: يجعل المتفرج يضحك .. واللاعب عندما يتشقلب أو يتهجم على اللاعبين أو الحكام ، فانه يساهم فى العنف والاثارة التى يتعطش اليها المتفرجون !

حتى ملاعب التنس ، التى هى رياضة ارستقراطية ، تجد الجمهور يصرخ ويقلق ويشتم ، ونسمع الحكم ينبه المتفرجين إلى الهدوء والأدب .

ويحدث الآن ما كان يحدث فى القرن التاسع عشر . ففى القرن الماضى كان المصلحون يستنكرون الرياضة لأنها تدعو إلى الفوضى وإلى تعاطى الخمور .. والخمور من شأنها أن تطلق سراح الناس على الناس .. ولذلك لعنوا الرياضة التى تجعل الناس يفقدون عقولهم مرتين : مرة بالحماس ومرة بالخمر .

والآن فى كثير من الملاعب يمنعون تعاطى الخمور .. بل يمنعون كل من شربها قبل دخول الملعب .. والسبب هو حماية اللاعبين والمتفرجين من العنف والتدمير ..

والرجل الذى انشأ الدورة الاوليمبية واسمه بير دى كوبرنان له عبارة مشهورة قال : إننى معجب بانجلترا لأنها جعلت الهدف من الرياضة هو بناء الشخصية المتكاملة !

وماتت هذه العبارة معه فلم يعد ذلك هو هدف الرياضة من أى نوع ،.ضاعت

الاهداف ، وفسدت السبل .. أفسدها اللاعبون والجمهور والمعلقون والاندية وشركات الكرة !

* * *

طبيعى أن يقول رجل مثل الجنرال ماكارثر إن بذور النصر فى الحرب كانت هناك فى الملاعب ! ولا أعرف ما الذى قاله يوم انهزمت امريكا فى موقعة هاربور .

قالوا الكثير ولكن ليس من بين الذى قالوه : إنها الملاعب التى إنهزمت فيها امريكا امام امريكا قبل أن تهزمها اليابان .

والسبب أن هناك أنواعا مختلفة من الملاعب .. ملاعب الرياضة وملاعب القتال .. وإن كانت امريكا ، بتقدمها الصناعى الهائل ، قد أفسدت الرياضة بكل انواعها فأصبحت تجارة .. ولكن عندما هددت السياسة بافساد الدورة الاوليمبية أعلنت كل دول العالم أن السياسة لا علاقة لها بروعة الشباب وجماله وبطولته .. ولا يحق للسياسة أن تفسد ما تبقى من ملذات الناس ، فتقضى على الملاعب أيضا .. وامتنعت دول عن المشاركة فى الدورة الاوليمبية الامريكية .. وامتنعت أيضا دول عن الدورة الاوليمبية فى كوريا الجنوبية : كوبا والبانيا واثيوبيا وكوريا الشمالية .. ولكن الاغلبية المطلقة ترى أن الرياضة يجب أن تبقى ، بعيدة عن السياسة وأن تحتفظ لها بمبادئها القوية فى إزالة الفوارق بين الناس ، وفى الابقاء على المعادلة الصعبة بين التنافس والتعاون .. أى أن يتعاون الفريق الواحد فى تنافسه مع فريق آخر .. ودولة أخرى ، وأن تكون الرياضة استعراضا لاعظم ما بلغه الشباب .. مثل مهرجانات الأغنية والمسرحية والأفلام .. ومعارض الكتب .. كلها أسواق للدعاية والإبداع .

وفى الحرب العالمية الثانية كانت قوات الحلفاء فى مصر .. يلعبون ويرقصون .. ولكن رأينا أعظم ما أبدع العقل الانسانى : مئات ألوف الكتب فى طبعات صغيرة ورخيصة .. كل الشعر والمسرح والفلسفة والعلوم والروايات .. كلها على أرصفة مصر وفوق عرباتها الكارو وعلى سور الازبكية .. فقد كانت هناك حرب ورياضة وقراءة ..

وهذا هو التعادل والعدل .. والتوازن والانسجام بين اللعب والجد ـ مع أن اللعب هو الآخر جد فى جد . لأن له قواعد وأصولا وأعرافا وقضاة ثم إن محاكمات اللعب كلها علنية .. ونحن جميعا نحترم قانون اللعب وقدسية القضاء ونضرب دماغنا فى الحائط .. ولا نقترب من الحائط الوهمى المرسوم على الارض

بالطباشير .. لأن هذا الحائط الوهمى حقيقة مؤكدة .. حقيقة القانون وقوته واستقلاله ..

ولن نتقدم فى الرياضة مالم نحقق التوازن والانسجام بين اللعب والجد بين التنافس والتعاون والتسامح بين القدم والقلم ـ كما قال لنا توفيق الحكيم ..

ولابد أننا الآن نخجل من أنفسنا عندما ألقينا على كرة القدم كل اللوم فى هزيمتنا العسكرية .. ولكننا مع الأسف ما نزال نلعب بكرتين : كرة القدم وكرة الندم .

ولم نعد نحن بدعا فى ذلك ..

فالاتحاد السوفييتى الذى لعن ستالين وأحرقه أيام خروشوف ، أعاد نبش قبره بأصابع جورباتشوف ليبصق المواطنون (٢٧٠ مليونا) على رفاته .. أو ترابه ، لأنه كان مجرما ، ويجب أن يكون هذا القرار نهائيا . فلا أسف ولا ندم على ذلك .. ولا إدانه للملايين .. فهو المجرم وهم الضحايا . فلا يلوم أحد نفسه .. وانما اللوم على معاصرية الذين استسلموا والذين اركبوه عقولهم وقلوبهم وإرادتهم .. وعليه وحده !

لقد أوقف جورباتشوف كرة الندم ، ليتفرغ إلى كرة القدم فى أوربا وامريكا .

شباب بلا شيخوخة :
آمالنا المجنونة

فى سن الأربعين وأثناء معارك البوير فى جنوب افريقيا كتب ونستون تشرشل رسالة إلى زوجته تصلها فى حالة وفاته قال : حبيبتى .. الموت ليس الا حادثا عابرا .. ولكن قلبك علمنى كيف تستطيع المرأة ان تكون نبيلة . لن أنساك . واتطلع إلى لقائك .. انظرى إلى الامام . كونى أكثر حرية . اهتمى بالأطفال .. واذكرينى !

وعاش بعد ذلك ثلاثين عاما ليعلن نهاية الحرب العالمية الثانية ومات سنة ١٩٦٥ وعمره ٩١ عاما !

وقد اندهش العالم عندما قرأ مذكرات سيدة روسية . تقول : ذلك المجرم اغتصبنى فى الفراش . ثم تركنى وركب حصانه عشرين ميلا . وعاد ليحتفل بعيد ميلاده السبعين . وهددنى ان لم اطاوعه فسوف يتزوج فتاة صغيرة !

اما هذا المجرم فهو اديبنا العظيم تولستوى ! ..

وفى الثمانين كتب الفيلسوف الانجليزى العظيم برتراند رسل : عندما كنت شابا احببت الرياضيات ، فلما وجدتها صعبة اتجهت إلى الفلسفة ، فلما وجدتها صعبة ، اقبلت على السياسة !

وفى التاسعة والثمانين من عمره دخل السجن اسبوعا ، لانه كان يتقدم المظاهرات ضد الاسلحة النووية .. وكان قد تزوج للمرة الرابعة !

ومات فى الخامسة والتسعين ! .

اما المؤرخ الامريكى العظيم ول ديورانت فقد اكمل « قصة الحضارة » بصدور الجزء الحادى عشر الذى كتبه مع زوجته اريل ديورانت . كان هو فى السادسة والتسعين وكانت هى فى الثالثة والثمانين .. ماتت الزوجة وبعدها بأسبوعين مات الزوج !

والنبى موسى عليه السلام مات عمره ١٢٠ عاما . ولذلك فاليهود فى اعياد الميلاد يقولون : عقبال مائة وعشرين عاما . وعدد اعضاء الكنيست ١٢٠ ..

اما ابونا آدم فقد انجب أول ابنائه وعمره ١٣٠ عاما . ومات وعمره ٩٤٠ عاما ..

ونوح عليه السلام راح يبنى السفينة وعمره ٥٠٠ عام وكان قد انجب اولاده الثلاثة : سام وحام ويافث . ومات وعمره ٩٥٠ عاما !

اما متوشالح فهو أطول ابناء آدم عمرا . مات عن ٩٦٩ عاما !

وعند الشيعة ان الامام الغائب وهو الامام الثانى عشر لا يزال حيا ، فعمره الآن حوالى ١١٥٤ سنة ..

وتبقى حكمة الطبيب جالينوس (٣٠ ـ ١٠٢ م) هى الخيط الذهبى فى الحياة الانسانية كلها . قال : يعيش طويلا من لا يشعر بأنه تقدم فى السن .. يموت شابا كل من احس ان يده لا تطوعه وانه ثقيل على قدميه ، وان قلبه لم يعد يدق !

وقال جالينوس لامرأته : مادمت تفكرين فى الموت بهذه الصورة فسوف تموتين قبلى ـ وكانت أصغر منه بثلاثين عاما ، فعاش بعدها !

قال الفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) : أن الرومان كانوا أصح الناس جسما ، ولكنهم أقصر الناس عمرا .. وكان الاغريق أصح الناس عقلا وأطول الناس عمرا .. فحياة الجسم من حياة العقل .. فالعمر يطول ويقصر هنا فى دماغك !

قال الشاعر الألمانى نوفالس (١٧٧٢ ـ ١٨٠١) وقد مات دون الثلاثين : أعتقد أننى ولدت ميتا .. فأنا منذ طفولتى أتوقع أن أموت بين لحظة وأخرى .. فأنا ميت قبل أن أعيش ! ..

أى أن الموت قرار داخلى من كل أنسان .. كما أن الحياة أيضا ! ..

* * * *

* * * *

هذا هو النوع الأكبر فى حياة الانسان المعاصر : الخوف من الموت .. أو الخوف من شىء كأنه الموت !

أما الذى كأنه الموت فهو : الشيخوخة ! .

فقد عرف الناس فى هذا الزمان أشكالا وألوانا من الموت . وعرفوا أيضا كيف يصنعون المعادلات العلمية للموت .. وذلك بصناعة الأسلحة المضادة .. فكلما اخترع الأنسان سلاحا مميتا ، أخترع سلاحا مضادا .. تماما كما صنع الأنسان الغازات السامة واستخدمها فى الحبشة ، واخترع لها الكمامة .. واخترع الشظايا فى القنابل ، فأقام المخابىء والمدرعات .. وعندما ألقى

الأمريكان القنبلة الذرية على اليابان ، اخترع الروس قنابل ذرية والأنجليز والفرنسيون .. وفى مواجهة الأسلحة النووية ظهرت أسلحة مضادة .. وتحقق التعادل .. وفى ظل التعادل وبسببه ، أحس الناس أنه لاموت لاحد دون أحد .. فالموت للجميع . ولأن الجميع لايريدون أن يموتوا معا ، فقد عدلوا عن الحرب التى لاتبقى على عدو أو صديق .. ومادامت أسلحة الموت قد تعادلت ، فكان الموت قد صالح الموت ، واتفقا على الحياة فى ظلال الخوف والرعب .

ومادام أحد لاينفرد بكل الأسلحة ، فإنه لايستطيع أن يقتل الآخرين وينجو هو من الموت .. فالذرة هى الطوفان الذى لانوح ولا سفينة معه !

فكأننا عندما ألغينا الموت النووى ، استأنفنا أشكالا أخرى من الموت .. فى مقدمة هذه الأشكال : الشيخوخة . فالانسان فى حالة خوف شديد أن يشيخ .. واذا شاخ توقف . وإذا توقف عن العمل أو الابداع أو الانتاج فكأنه مات .. أو مطلوب منه أن يموت !

وفى القبائل البدائية يعزلون الشيوخ تمهيدا لشوائهم وأكلهم .. فأعمار الموتى تضاف إلى أعمار الذين يأكلونهم ؟ ! ..

والبدائيون قد اقتربوا من الحقيقة ولكن على طريقتهم . فالشيوخ لهم تجاوب فى الحياة وفى استطاعتهم أن يطيلوا أعمار الشباب عندما يقدمون لهم ماعرفوا وما جربوا . فهم لايأخذون من أعمارهم ولكن يضيفون إليها ..

وفى بعض القبائل البدائية فى نيوزيلندا يأكلون قلوب الموتى إذا كانوا شيوخا . ولنفس السبب ! .

ويخافون من لمس الشباب إذا ماتوا .. حتى لاتنتقل إليهم العدوى ، فيموتون شبانا هم أيضا ! ..

وكانت العالمة الأمريكية مرجريت ميد تقول انها عندما ذهبت لجزيرة ف ـ را ـ كى ـ نو فى المحيط الهادى استقبلتها الفتيات الصغيرات بالورود .. وحمل إليها الطعام عشرات الشبان . وظلوا يفعلون ذلك كل يوم وعندما ودعوها سار وراءها الشيوخ ... ويوم وداعها سار وراءها عدد كبير من الشيوخ والأطباء .. ولما سألت عرفت مشاعرهم النبيلة . فقد كانوا يأملون أن يموت أى واحد من الشيوخ ، فيسرع الأطباء باستخراج قلبه وتطهيره فى النبيذ ثم تقديمه للسيدة مرجريت ميد، أملا فى أن يطول عمرها !

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية انشغل الناس بالحياة والاستمتاع بها ..

وكيف يكونون أقدر على تذوقها . ولذلك تنوعت أشكال الطعام والشراب والعلاقات الانسانية .. وظهر عدد كبير من الكيمائيين والأطباء باختراعات جديدة لاعادة الشباب .. أو اطالة الشباب ..

ففى روسيا ظهر بوجو مولتس .. وهو صاحب نظرية الخلاصات المأخوذة من « الخلايا الضامة » عند الخيول ثم حقن الانسان بها ، أما نظريته فهى : أن الشباب عضلات ، والشيخوخة ترخى العضلات ، فمن اشتدت عضلاته سار أطول ، ومن تراخت سقط أسرع ! ..

وظهرت الخلاصات الحيوانية والنباتية .. وكلها من أجل أن يطول الشباب وأن تختفى الشيخوخة .. فإذا مات الانسان كان فى شبابه .. تماما كما يموت ! ..

ولما كانت الحياة هى الحب والجنس أيضا . فقد اتجه علماء الكيمياء إلى اختراع حبوب وأقراص الاثارة الجنسية الطويلة .. وارتفعت أسعارها .. وظهرت حبوب مزيفة ، ظهرت حبوب « توتو ـ فينا ـ أو مينا » اليابانية .. وقالوا عنها كلاما كالشعر أو هو شعر : انها فى الليالى القمرية وبأيدى الحسناوات يقطفن الزهور ويضعن وريقاتها بين النهود .. وتبيت هذه الأوراق ليلة هكذا .. وبعدها ينقلونها فى بخار الشمبانيا وعلى صدى الموسيقى الحالمة ليقوم الكميائيون باستخلاص عناصر الحياة منها .. شفاء وسعادة للناس فى كل مكان وكل سن ! ..

وفى كوريا اهتدوا إلى خلاصة الجنسنج وهو أوراق وسيقان وجذور .. وهى جميعا تضج بالحياة والحيوية .. وليس على أى انسان إلا أن يتعاطى خلاصة هذه الأوراق والجذور حتى يشفى من كل داء .. أما الدواء الذى منه فهو الشيخوخة .. ولكن أسطورة الجنسنج قادرة على ذلك .. وفى كوريا نفسها أكبر دليل . ففى ريفها وجبالها أناس نسيهم الموت فعاشوا مئات السنين .. ويقال انهم عندما ماتوا فقد أمتصتهم الأرض وخرجت من قلوبهم أشجار جنرنج !

وعندما ظهر فى جبال الأورال السوفيتية ١٩٤٦ رجل زاد على مائة وخمسين عاما سألوه : ما السر ؟

قال : الزبادى ؟

سألوه : كم مرة فى اليوم

قال : الزبادى وحده ؟

قال : بعسل النحل !
قالوا : فقط ؟
قال : والنوم مع الغروب واليقظة مع الشروق !
قالوا : فقط ؟
قال : لا خمر !
قالوا : فقط ؟
قال : ولا دخان !
سألوا : فقط ؟
قال : وزوجة واحدة !
سألوه : ولو ماتت ؟
قال : حتى لو ماتت ؟
سألوا : والأولاد ؟

قال : يسكنون معى فى نفس البيت . فضوضاء الاطفال تطيل العمر .. والنوم على الارض وفى العراء والسير على الاقدام والامتناع عن كل انواع اللحوم والسمك .. وعن الدهن والملح والسكر والابتعاد عن الطبيب والمستشفى فالله خلق الداء وهو خلق الدواء .. والداء هو الطعام والدواء هو الطعام أيضا ..

واشار بيده للصحفيين ان يبتعدوا عنه جميعا وفورا ، فقد غربت الشمس وحان موعد نومه .. وسقط على الارض كأنه طوبة .. أو كأنه مات . ووقفوا حوله يظنون انه ميت .. فهو هادىء النفس لا يتحرك .. وانما ينام على جانبه الايمن حتى الصباح . ولما جاءوا فى الصباح نهض وحياهم ثم اتجه الى حظيرة الماشية وراح يشرب اللبن من اثداء احدى الابقار !

وعكف الاطباء يدرسون ويحللون كل كلمة قالها الرجل ليعرفوا بالضبط ما هذا الذى يطيل العمر .. ويجعل الحياة شبابا دائما أو اذا كانت بها شيخوخة فهى اقرب الى الهدوء منها الى المرض .. أو الموت ! ..

وكأن سر الحياة اراد ان يظل سرا ، فقد ظهر معمرون كثيرون فى اماكن مختلفة من العالم . واحد فى ايسلاندا .. يقول انه اطول عمرا من النبى ايوب عليه السلام الذى مات عن ١٤٠ عاما .. سألوه قال : اتناول وجبة واحدة فى اليوم فى الصباح .. وانام بعدها ساعة . ثم اصحوا استأنف حياتى فى الليل .. فالحيتان تفعل ذلك ..

سألوه : ماذا تأكل فى الصباح ؟

أجاب : أسماك جافة وكوبا من الخمر ونصف كوب من عسل النحل . وحجم يدى من الزبدة !

سألوه : منذ كم سنة تفعل ذلك ؟

أجاب : مائة عام على الاقل ..

- وهل تدخن ؟

- سبعون سيجارة فى اليوم !

- والنساء ؟

- لم أتزوج !

- وتعيش وحيدا ؟

- ليس وحيدا من لم يتزوج .. بل الوحيد هو المتزوج .. فزوجته تعزله عن كل النساء .. وعنها هى أيضا !

- ومنذ متى لم تعرف أمرأة ؟

- لقد تزوجت فى العام الماضى !

- تزوجت ؟ تزوجت !!

- نعم .. أسألوها ..

سألوها قالت : لا اعرف ان انام الا على ذراعه .. وهو على ذراعى ايضا ..

سألوه : ما رأيك لماذا يعيش الانسان طويلا ؟

أجاب : لانه لايشكو من الصداع .. فأنا لم اعرف الصداع طول عمرى ..

سألوه : تفتكر ما هى الاسباب التى تجعل الانسان يصاب بصداع ؟

قال : الانفعال .. انا لا أنفعل .

- ابدا ؟!

- ابدا ..

- واذا لم تجد طعامك الا تنفعل ؟

- لم يحدث ذلك قط .

- نفرض ؟!

- لم يحدث !

- اذا ماتت زوجتك ؟

- لا أنفعل فسوف اموت ايضا .

- اذا انهدم البيت ؟
- سوف اجد بيتا آخر !
- اذا انكسرت ذراعك ؟
- سوف تبقى لى ذراع أخرى .
- واذا انكسرت .
- فعندى ساقان !
- واذا انكسرت الساقان ؟
- فعندى عينان !
- واذا اظلمت العينان ؟
- فالناس لها عيون واذرع وسيقان وسوف يعاونونى على أن اعيش بما تبقى فى جسمى !

* * * *

* * * *

ومن رأى العلماء أن هناك أملا فى أن تقصر الشيخوخة ويطول الشباب ..

بعض العلماء رأى أن الشيخوخة ظاهرة اجتماعية . وليست بيولوجية . أى ان الانسان هو الذى اخترع هذه الكلمة . وهو الذى حدد لها مدى من العمر .. الستين او السبعين وعند بلوغ هذه السن يجب ان يتنحى عن مقعده او عن مكانه من العمل أو الانتاج وعندما يجد الانسان نفسه قد « أحيل » الى المعاش او الاستيداع .. او طردوه من الكتب الى المقهى .. الى النادى .. الى الشارع .. الى بيت المسنين .. وهذا « الطرح » - مثل طرح البحر - هو الذى يجعله عاجزا عن العمل او عن التفكير ، رغم قدرته .. لأن هذه القدرة غير مطلوبة .. فالمجتمع قرر بالاجماع انه لاحق له فى ان يعمل او يعيش .. ولذلك يصاب الشيوخ فى صحة جيدة .. وانهم قد اكتسبوا هذه الصحة من الانضباط فى العمل والنوم والراحة .. وفجأة يجدون انفسهم بلا انضباط .. بلا داع لذلك .. تماما كما يتوقف الانسان مرة واحدة وهو يجرى .. او كما تتوقف سيارة مسرعة ، فيتخبط الناس فى داخلها وتنكسر السيارة نفسها . لماذا ؟ لقد برمجنا كل شىء فينا على ان يعمل وفجأة الغينا كل هذه البرامج .. كأننا القينا ماء مثلجا على وهج الحيوية والتألق ..المجتمع قد اتخذ هذا القرار لان هناك اعدادا هائلة من الناس يجب ان يعملوا .. ولذلك من الضرورى ان يتنحى بعض الناس بسبب

المرض او الموت او الشيخوخة او الاهمال .. فالزحف مستمر .. ولن يتوقف ..

وعلى الرغم من أن التاريخ قد اثبت عكس ذلك .. فكثير من النابهين فى كل مسارات الحياة قد بلغوا قمة الابداع فى الستين وبعدها ، فلا يزال المجتمع بقوته الغاشمة اقوى ..

فلا نهاية للذين ابدعوا وتفوقوا حول الستين .. ففى سنة ١٩٣٩ كان تشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا فى السبعين وفى هذه السن اعلن الحرب على المانيا ، وكان اكثر الناس حيوية ..

وفى السبعين ايضا اعلن تشرشل نهاية هذه الحرب سنة ١٩٤٥ ، وكان تشرشل هذا هو اقوى من جيوش بريطانيا والحلفاء .

وفى السبعين وقف سقراط العظيم (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق . م) يتحدى القضاة والقانون ويقول انه على حق . وانه الاقوى .. ويحكمون عليه بالموت سما . ويقبل الحكم . لانه يجب ان يكون قدوة .. وحاول القضاة اغراءه بان يهرب او يعتذر ولكنه اراد ان ينهى حياته وهو فى تمام الصحة والعافية .. وان يكون اعظم واشجع من كل الشباب حوله !

وكان الفيلسوف الشيوعى الالمانى انجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) فى السبعين يقرأ سبع صحف يوميا و ١٩ مجلة اسبوعية فى ثمانى لغات ، ويتناول ثلاث وجبات فى اليوم وينام بعمق ست ساعات ، ويكتب عشرين خطابا ..

وفى هذه السن كتب العالم النفسى العظيم كارل يونج (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) كتابه الشهير « ظاهريات الروح فى القصص الخرافية » ..

ونشر اديب ايطاليا البرتو مورافيا كتابه « الحياة الداخلية »

واصبحت مصممة الازياء كوكوشانيل نيل اشهر مصممة فى العالم ـ توفيت عن ٨٧ عاما !

أما الفيلسوف الألمانى الامريكى هربرت مركوزة (١٨٩٩ ـ ١٩٧٩) فأصبح فيلسوف الشاب فى العالم كله وهو فى الثمانين من عمره .

أما المايسترو ستوكوفسكى (١٨٨٢ ـ ١٩٧٧) فبعد ان وقع على الارض وانكسرت ساقه وهو فى الثمانين عندما كان يلاعب واحدا من احفاده ، استأنف قيادة اوركسترا نيويورك .

والممثل الكوميدى المؤلف الموسيقار المخرج شارلى شابلن (١٨٨٩ ـ ١٩٧٧) فقد حصل على الاوسكار عن فيلمه « أضواء المسرح » ـ وكانت امريكا

قد حرمته عشرين عاما . فكانت الاوسكار هدية ميلاده الثمانين ! ..

وعندما بلغ المهندس العالمى فرانك رايت (١٨٦٩ ـ ١٩٥٩) السابعة والثمانين انشغل بمشروع بناء عمارة ارتفاعها كيلو متر فى مدينة شيكاغو ..

والفنان العظيم مايكل انجلو مات سنة ١٥٦٤ عن ٨٧ عاما .. اما سنوات ابداعه فكانت فى الستين وما بعدها ..

وفى التاسعة والثمانين حاكمت فرنسا بطلها الماريشال بيتان بتهمة التعاون مع هتلر . ولم تعدمه . وانما اكتفت بحبسه انفراديا فى احدى الجزر ليموت بعد ذلك بعشر سنوات !

اما الاديب الساخر برنارد شو فقد مات سنة ١٩٥٠ عن ٩٤ عاما . قال شو : اعتقد ان سبب وفاتى هو ان الناس كلما رأونى اكتب كانوا يقولون : ولكنك كبرت يا مستر شو .. انهم وحدهم الذين جعلونى اشعر باننى كبرت .. مع اننى رأيت التخريف فى كل ما يقولون .. فليس فيهم واحد قادر على ان يقرأ أو يفهم ما كتبت .. فكيف اذا جلسوا للكتابة .. فاذا مت ، فليس لاننى عجزت عن الفكر والابداع ، ولكن لان الناس قتلونى !

ورأى برنارد شو معناه ان الشيخوخة مشكلة اجتماعية .. او مشكلة خلقها وعمقها المجتمع ..

فالشيخ ينظر اليه الناس إنه كان حيا ، فهذا مؤقت ، وان طالت به الشيخوخة ، فهو قد تجاوز عمره الافتراضى .. والناس يستكثرون على الشيخ أى شىء .. فإن كانوا قالوا : ما شاء الله ما يزال يمشى على قدميه ..

أى أن المشى على القدمين ليس من صفاته أو من حقه ..

وان حاول ان يجرى بدلا من المشى قالوا : يا الله حسن الختام .. زمانك وزمان غيرك .. رجلك والقبر .. رجل هنا ورجل هناك ..

أى أنهم يذكرونه بأنه انتهى أو يجب أن ينتهى .. فان كان قد نسى ذلك ، فانهم لاينسون .. كأنه يأخذ من أعمارهم ويضيف الى عمره ..

ولكن الأطباء يرون أن « الشيخوخة » حالة جسمية نفسية .. وان الطب سوف يعرف ما الذى يموت فى الانسان أو ما الذى يميت الانسان .. واذا عرف الطبيب اسباب الوفاة ، فانه سوف يحاول ان يعرف علاج هذه الاسباب .. ومن المؤكد ان نسبة الوفيات فى العالم قد نقصت . والسبب هو تطور صناعة

الادوية .. وتطور ادوات الفحص والعلاج ايضا ..

وبعض النظريات تقول ان القلب الانسانى او المخ الانسانى مثل بطاريات جافة لها عمر .. فاذا استهلكنا هذه البطاريات بسرعة ، مات صاحبها معها .. واذا ليس دقيقا ، لانه ما تفسير وفاة طفل ؟ وما تفسير وفاة شاب فى غاية الحيوية وبقاء انسان مريض عشرات السنين ؟ .

ان العلم الحديث اهتدى الى بعض اسرار الخلية ..

وعلى ضوء هذه الاكتشافات المتواضعة يحاول ان يواجه مالانهاية له من مشاكل الخلايا والدم والانسجة والعضلات والغدد الصماء .. واسرار اخرى لاتظهر تحت الميكروسكوب ..

قال اينشتين العالم الفزيائى العظيم : ان العلم الحديث يشبه عود كبريت على ضوئه الخافت وعمره القصير تحاول ان تحصى عدد الرمال على شاطىء المحيط ؟!

والذى نعرفه قليل جدا .. والذى لانعرفه ويحتاج الى ملايين السنين كثير جدا . ولكن طموح العلماء اعظم من قدراتهم . ونحن ندين لهم بالفضل العظيم وهم لم يعرفوا اليأس . ونحن لم نفقد الأمل ! ..

ويقول العلماء إنهم عند سنة ٢٠٠٠ ـ سيعرفون كيف يجعلون الانسان يعيش مائة عام ! ..

فليكن . فهل يا ترى اذا عاش الانسان مائة عام ، يكون قادرا على ان يعمل .. على ان ينتج .. على ان يضيف .. أم أنه حى والسلام .. فهو ليس ميتا .. وانما لا يزال فيه النفس .. ولكن لايهش ولاينش .. حى اسما ، ميت فعلا ؟ ! ..

يقول العلماء اذا استطعنا ان نجعل متوسط العمر مائة عام ، فقد انتقلنا بالحياة خطوة إلى الامام .. والخطوة التالية ان نجعل هذه الحياة مفيدة لصاحبها وللناس .. وهم يطالبوننا بان نصبر عليهم عشرين عاما اخرى .. وهم يذكروننا بما استطاعته المضادات الحيوية .. وكيف انها اطالت عمر الحياة على الارض لمئات ملايين الناس ، كانوا يموتون لمجرد ان جرحهم دبوس أو شوكة ؟

ثم يذكروننا بما فعلته ال . د . د . ت فى الحرب العالمية الثانية فقد انقذت الجنود من أمراض البراغيث والقمل ـ المسببة لمرض التيفوس .. ويذكروننا ايضا بالمبيدات الحشرية التى ابقت لنا كل حاصلات الحقل والحديقة .. ولولاها

لمات الانسان جوعا ، بعد ان انقذناه من البراغيث ومن السموم ! ..

ومع الثقة الشديدة بالعلم والعلماء وضعف الشعور الدينى ، لم يعد الناس يهتمون كثيرا بالحياة بعد الحياة .. فهم يريدون ان يعيشوا دنياهم .. اما الحياة بعد الموت التى هى تعويض اكرم ، فلم تعد تشغلهم كثيرا . « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ـ صدق الله العظيم ..

ولكن ماذا يحدث للانسان اذا لم يعد يخاف الموت ؟ لن يكون للمغامرة معنى المخاطرة ـ اى مواجهة الخطر وتحديه والامل فى التغلب عليه ، ولو كان هذا الشعور قد انعدم عند الانسان منذ وقت طويل ، ما تقدم العلم والاكتشاف .. لا برا ولا بحرا ولا جوا .. ولاختفت اهم معانى الشباب والحيوية والتضحية والبطولة .. فكل هذه المفردات تنطوى على ان هناك خوفا .. وان هناك خطرا .. وعلى ان فى داخل كل انسان قدرة فذة على الاستهانة بهذا الخطر ، والحياة من بعده .. وهذه الحياة هى البطولة ، والأبطال هم القوة المحركة للتاريخ .. فالبطولة هى توربينات تتولد منها الطاقة المضيئة .. ولا وجود لها اذا انعدم الخوف من الموت .. او السكوت المفاجىء .. والصمت الرهيب بعد ذلك ! ..

يقول الحكيم الصينى كونفوشيوس : عندما يشيخ البلبل يكون صوته شجيا ، وعندما يشيخ الانسان يكون صوته أكثر صدقا ..

* * * * *

يقول كونفوشيوس : ولكن الشيوخ عندما يصدقون وهم على فراش الموت ، فان الشباب يرون ان كلماتهم الصادقة ميته .. لا يسمعونها .. لا يأخذون بها .. فالشباب لا يسمعون الشيوخ .. وكذلك الشباب عندما تخرج منهم الحكمة وهم يلعبون ، فإن الشيوخ حولهم يرون الشباب يتلاعبون بالألفاظ فلا يأخذون بها ..

يقول كونفوشيوس : فالحكمة ضائعة .. لأننا ننظر إلى شفاة قائليها ولا نلتفت الى ضمائرهم !

فالانسان ينسى ..

عندما يكون شابا ينسى انه سوف يكون شيخا هادئا رزينا ..

وعندما يكون شيخا ينسى انه كان شابا قلقا مندفعا !

ان زماننا يرى ان الشباب هو الامل .. وان الشباب هو المثل الاعلى ولذلك فنحن مشغولون باطالة الشباب ، حتى لا تكون شيخوخة . فإذا جاءت كانت شبابا هادئا !

مجرمون وأبرياء

هذه السطور لم يكتبها أحد الأدباء « كان ذلك يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٠ .. كان ليلا هادئا . القمر فوق . ولن ينحدر الى الافق .. إلى ما تحت الافق الا بعد وقت طويل .. وفى ضوء القمر انفتحت طرقات بين الحقول والغابات .. وكانت الاشجار حراسا شهودا علينا جميعا .. ومن حين الى حين ينطلق عيار نارى من بعيد .. ولا يدل على يقظة الجنود .. وانما على ان جنديا واحدا يؤكد لمن حوله انه هو السهران وانه هو الذى يتولى الحماية .. أو كأنه اراد ان يطفىء القمر حتى تنسد فى وجوهنا كل الطرقات .. اما اوامرى فهى اطلاق المدافع حتى لا يتمكن العدو من بث الالغام بيننا .. وكانت اوامرى ان بعض دبابات الفيلق المدرع تتقدم بسرعة .. والدبابات الاخرى محمولة على اللوريات .. وكانت الدبابات على شكل طابور يمشى موازيا للاستحكامات .. اما البيوت التى ظهرت فى اوائل الطريق فقد اشتعلت فيها النيران .. وبين لحظة واخرى نسمع طلقات المدافع المضادة للدبابات والرشاشات ، ولكنها تنهمر بعيدا عنا .. وكانت اوامرى ان تتساقط امطار من النيران الكثيفة على القرى والطرق امام الفيلق المدرع . دخلنا الاستحكامات .. ٥٠٠ ياردة .. الف .. الفين .. ثلاثة آلاف .. وكان من المستحيل وسط هذا الهدير الحديدى ان نعرف ان كان العدو الفرنسى يطلق علينا نارا .. اما الناس فقد افزعتهم النيران والاصوات التى تعوى اصداؤها فى كل مكان .. اما وجوه القوات الفرنسية فقد تشوهت تماما من الذعر ..

وقد ترك المدنيون سياراتهم على جانبى الطريق .. اما الجنود فقد تفرقوا وراء الأشجار وفى الخنادق .. ولكن الشلل قد اصابهم تماما . وكنت انظر الى الخرائط امامى ، واعطى تعليماتى بسرعة عن الموقع وعن الحركة والاتجاه .. كل شى مضبوط تماما ومحكم . لقد اخترقنا خط ماجينيو . فالذى اراه ليس حلما . ولكنه الواقع . شيء عجيب حقا فمنذ ٢٢ عاما وقفنا امام هذه الاستحكامات اربع سنوات ونصفا وانتصرنا . ولكننا خسرنا الحرب .. والآن

اخترقنا الخط الشهير واتجهنا الى عمق ارض العدو . ليس حلما رائعا .. وانما هو الواقع ..

لقد تقدمت الفرقة المدرعة الالمانية من الحدود البلجيكية الفرنسية والتفت حول خط ماجينو .. ولم يكن الفرنسيون يملكون مدفعا واحدا مضادا للدبابات أو للطائرات .. أما كاتب هذا الوصف وصاحب هذه الأوامر وخطة الاختراق والتقدم الى اعماق فرنسا فهو ثعلب الصحراء : ارفين روميل (١٨٩١ - ١٩٤٤) .

يقول روميل لزوجته بعد ذلك : كأنني تلميذ صغير انجز واجبه على أكمل وجه !

وعلى مثل هذه العبارة اختلفت قضاة محكمة نورنبرج التى اقيمت لمحاكمة مجرمى الحرب الالمان . فهل روميل مجرم ؟

الجواب : لا ..

إذن الرجل الذى زحف وتقدم وهدم واحرق وقتل ، لم يكن مجرما . ولو وقف امام محكمة نورنبرج لصفق له القضاة ، كما صفق له اعداؤه الانجليز والفرنسيون على حدود مصر . ولكن المجرم رجل آخر !

وقد وضعت محكمة نورنبرج قاعدة صلدة . القاعدة تقول : إن الذى خطط لابادة فرنسا وبلجيكا هو المجرم . حتى اذا لم يطلق رصاصة واحدة . اما الذى نفذ هذه الخطة ، حتى لو قتل مليون جندى ومواطن ، فليس مجرما إنه نفذ التعليمات فقط ..

أى أن صانع الاستراتيجية مجرم ، وصاحب التكتيك برىء !

ووضعت محاكمات نورنبرج قاعدة أخرى : انه لابد من محاكمة الجنرالات فى اعقاب الحروب .. الدولة تحاكمهم او الشعب ، او يحاكم الجنرالات أنفسهم .. يعترفون أو نرغمهم على الاعتراف .. والشعوب التى لا تحاكم قادتها أو يعترف قادتها ، شعوب قررت أن تكون الضحية مرة أخري ..

ونحن فى مصر لم نحاكم احدا ولم يعترف أحد بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد انتصار ١٩٧٣ فلا احد قال للعسكريين : ثلث الثلاثة كم .. ولا نحن قلنا .. فسنوات الهزيمة والنصر « كالساعة المنسية » عند كل ام .. أى ساعة المخاض والولادة .. فإذا كانت هناك ساعات كثيرة للولادة والاجهاض العسكرى والتاريخى ، ونحن لا نذكر ذلك ولا نريد ، فمن هو الذى تحكم ببراءته وادانته

مُحكمة نورنبرج لو اقمناها عند الكليو ١٠١ بين القاهرة والاسماعيلية ؟
وقد اختارت محكمة نور نبرج اثنين من القادة الألمان ليكونا نموذجا لمعنى العسكرية الجرمانية . العسكرية المجرمة والعسكرية البريئة . وشاءت أن تجعل كلا منهما عبرة للأجيال القادمة فى المانيا وفى اوروبا ..

ففى ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٦ وقف الجنرال يودل (١٩٨٠ ـ ١٩٤٦) رئيس العمليات للقوات المسلحة الألمانية يدلى بشهادته أمام المحكمة قال : حضرات المستشارين انى مؤمن ايمانا مطلقا بأن التاريخ سوف يكون موضوعيا ومنصفا لقادة الحرب الالمان ومساعديهم وكل القوات المسلحة الالمانية .. لقد دخلوا جميعا حربا لا يريدونها تحت قيادة لم تثق بنا ولم نثق بها الا قليلا ، مستخدمين قوات من الجيش والبوليس لم يتمكنوا من السيطرة عليها ، ومخابرات كان بعضها يعمل لحساب العدو . وكنا على يقين تام من أنه لابد ان نحمى بلادنا . اما انا فايمانى ثابت تماما بأن احدا لم يفعل مثل الذى فعلت ، ولا اخلص كما اخلصت لبلادى . فقد كان هدفى الاسمى هو حماية ارض الوطن . فلم نكن جنود الشيطان ، ولا كنا جنود جهنم ، ولا عبيدا للمجرمين . فقد عملنا جميعا من أجل الشعب والوطن . لأن الدفاع عن الوطن هو جوهر تفكيرى وايمانى . وإذا وصفنى احد بأننى خائن للتقاليد الصحيحة للعسكرية الألمانية ، أو قال احد اننى احتفظت بموقعى لطموح شخصى ، فسوف أتهمه بأنه هو الخائن للحقيقة . ففى هذه الحرب مات مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال بعواصف من القنابل وبكل الأساليب التى وجدها المحاربون مناسبة للقضاء عليهم . وفى هذه الحرب ، فإن الإجراءات مهما كانت عنيفة وتحتاج إلى مساءلة أمام القانون الدولى ، فلا يمكن اعتبارها جرائم ضد الأخلاق والضمير .

انها الحرب . وأنا مؤمن تماما بأن واجبنا نحو وطننا وشعبنا هو الغاية التى يجب أن توضع فوق كل اعتبار .. فإن أقوم بالواجب هذا شرف . وهذا هو القانون الأسمى . ويشرفنى ياحضرات المستشارين ، أننى حققت كل ذلك . وأملى أن يحل محل هذا الواجب واجب أخر أعظم وأرفع وأسعد : الواجب نحو الأنسانية كلها ! .

ولم يجد هـذا الخطاب التـاريخى الأذان التـى كـانت يجب أن تصغـى إليـه ..

وأنما أخـذ القضاة يقلبـون فى أوراقهم ويقلبـون عيـونهم فى وجهه وفى بقيـة مجرمى

الحرب . أما هو فقد صدر الحكم بإعدامه .. انتهى .

وفى يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٩ بعث الجنرال يودل بآخر خطاب إلى أصدقائه يقول فيه :

أصدقائى وزملائى . لقد وقفت فى محكمة نورنبرج التى أستغرقت شهورا ، شاهدا أدافع عن ألمانيا وعن الجنود ومن أجل التاريخ . لقد تزاحمت أمامى وحولى صور الموتى والأحياء .. لقد حكمت المحكمة ضدى . ليست مفاجأة . أما الذى سمعته ورأيته منكم ياأصدقائى الأعزاء فهو شهادة لى . أنه أعظم تكريم . أما الأن فأنا فخور وفى غاية السعادة . أشكركم وسوف تشكركم ألمانيا لانكم لم تتخلوا عن أخلص أبنائها فى ساعة موته . ولكن مستقبلكم لن يتحقق بالحزن والكراهية . فكروا بكبرياء وأحترام ، تماما كما تفكرون فى كل الجنود الذين استشهدوا فى ميادين هذه الحرب القاسية التى كان يجب أن تخوضوها . فأن أرواحهم قد استشهدت لكى يجعلوا ألمانيا أقوى . بل يجب عليكم أن تؤمنوا بأنهم ماتوا لكى تصبح ألمانيا أفضل . تمسكوا بهذه العقيدة وأعملوا من أجل ألمانيا حتى الموت !

وفى ١٥ أكتوبر بعث بآخر خطاب إلى زوجته :

يجب أن تعيشى وأن تتغلبى على أحزانك . أنشرى الحب حولك ، وساعدى المحتاجين . ولا تبالغى فى أهميتى ودورى ، ولا تعطنى أكثر مما أستحق .. فقط ماأعطيه أنا لنفسى . حتى لاتتعاظم خسارتك وأسفك . يجب أن تعرفى وأن تجعلى الأخرين يؤمنون بأننا عملنا وحاربنا من أجل ألمانيا وليس من أجل قادتها السياسيين . آه .. أننى أستطيع أن أظل أكتب هكذا حتى الموت . ولكنى أستمع الأن إلى همسات أسرتنا وإلى موسيقاها وأغانيها . هل تسمعينها ياحبيبتى . أن الجنود يجب أن يعودوا فى النهاية إلى بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم وأغانيهم ..

وفى الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم أعدم شنقا ! .

انه نمساوى مثل هتلر ولم يكن المانيا بروسيا وكان هذا هو السبب الذى جعل هتلر يختاره الى جواره فى كل الظروف ، رئيسا للاركان الى نهاية الحرب ، ولكنه نموذج للتقاليد العسكرية « البروسية » ـ اى انه جندى فقط . عاش ومات جنديا .. ولو ردت له الحياة لاختار ان يحارب مرة اخرى .. بل الف مرة !

وقد وصفه اثناء محاكمات نورنبرج زميل له هو المهندس المعمارى الفرد

اشبير الذى بنى المانيا النازية فقال : انه الرجل الوحيد الذى استطاع ان يقف فوق الموقف !

لقد عمل الجنرال يودل ست سنوات ليلا ونهارا من اجل ان يموت الملايين ، ولقد طلب من هتلر اكثر من مرة ان يعفيه من منصبه ولكن هتلر رفض ، ويودل اطاع . فقد اقسم يودل على الطاعة لشخص الزعيم حتى الموت ، وهو قسم عسكرى لا يمكن ان يحنث فيه . فظل جنديا يحارب من اجل المانيا رئيسا للاركان قبل دخول الحرب ضد بولندا .

قال يودل لزوجته : يبدو أن الموقف اخطر كثيرا مما نتصور . ولكن هذه مشكلة رجال السياسة وليست مشكلة رجال الحرب ، كل الذى اعرفه اننى اذا ركبت هذا الزورق فلا نزول منه الا بالموت !

اما دين يودل ومذهبه وحياته وموته ففى كلمة واحدة الجندية ! وقد كتبت زوجة يودل قصة حياته .. وفى هذه القصة احداث وتحليلات .

ممتعة . فزوجته هذه كانت تعمل هى الاخرى فى هيئة الاركان . وكانت منضبطه تماما . وتؤمن بأن كل شىء يهون من اجل المانيا .. وان اعظم ما فى الدنيا هى ان يكون الانسان جنديا . والسيدة لويزة يودل مخلصة متفانية فى عملها . وقد ساعدت المحامين الذين دافعوا عنه .. قدمت لهم المعلومات والوثائق . وفى كتابها حاولت أن تقول وان تستخلص المعنى والعبرة . وقد نجحت فى ذلك . ولكن لو عادت له الحياة لدفعته الى الميدان ليموت من اجل المانيا .

ورأت زوجة يودل ان محكمة نورنبرج غير دستورية . وان الشعب الالمانى فقط هو الذى له الحق فى ان يحاكم رجاله وان يحكم عليه .. وان المحكمة انعقدت وانفضت ، ولكن الشعب الالمانى هو الذى ادان المحكمة ، وان لم يكن قادرا على تنفيذ الحكم ـ اما زوجها الذى ادين وسوف يستأنف التاريخ الحكم عليه .. وسوف يحكم ببراءته . لا شك فى ذلك . فقد عاش كما مات جنديا شريفا . وهى عاشت وسوف تموت حارسة لتراث زوجها .. وهى ايضا عاشت وسوف تموت مجندة للدفاع عن الذى دافع عن شرف المانيا ..

وقد حاولت الزوجة ان تقدم للمحكمة ما يدينها هى ايضا . لأنها شاركت وعرفت وسمعت ووافقت على اشياء كثيرة جدا . وانها لذلك تستحق الادانة ، شرف الادانة امام محكمة غير شرعية .. ولكن المحكمة لم تأخذ بأقوالها

ورفضت وقوفها وشهادتها لصالح زوجها وضد نفسها . وفى نهاية مذكراتها اصدرت حكمين : حكما بادانتها باسم محكمة نورنبرج ، وحكما ببراءتها باسم الشعب الالمانى !

(٣)

اما القائد الثانى الذى اختارته محكمة نورنبرج نموذجا للعسكرية الالمانية فهو : الجنرال هرمان بلاك . اعظم القواد على جانبى القتال فى الحرب العالمية الثانية . وكان يقود القوات البرية المحمولة التى اخترقت فرنسا سنة ١٩٤٠ . كما حارب فى الجبهة الشرقية . وكان مصدر القلق والارتباك فى خطوط الروس . فله قدرة فريدة على المفاجآت .. وكان يتفنن فى الحركة الغريبة والتكتيكات التى لا يتوقعها احد .. وهو المسئول وحده عن وقف تقدم القوات السوفيتية فى المجر ، حتى يتمكن هو من الانسحاب الى النمسا ، ثم يسلم نفسه وقواته الى الامريكان .

هذا الجنرال قد حارب كما لم يكن مسموحا للجنرال يودل ان يفعل . كان يحارب فى الصفوف الامامية مع الجنود . ولم يتهمه احد بانه مجرم حرب . وفى سنة ١٩٧٩ وعمره ٨٥ عاما أدلى باحاديث للصحفيين الامريكان . استهلها بقوله : اننى جندى « بروسى » مائة فى المائة . ولو عادت الحرب لاخترت موقعى وحاربت من جديد ، لاشك فى ذلك ودون أسف على أى شىء .

وقال : لكى تفهم معنى كلمة « بروسى » يجب ان تنظر الى موقع بروسيا على الخريطة . انها اقليم صغير جدا محاط بقوى عظمى ولذلك يجب ان تكون اكثر براعة وأسرع حركة من كل أعدائنا . وقد استهل ذلك الموقف الملك فريدريش الأكبر فى معركة بويتن حيث هزم قوة نمساوية تفوقه عددا وعدة . وبالاضافة الى ضرورة ان نكون اكثر مهارة ، يجب أن نكون أقدر على الحركة والمناورة من أعدائنا .

وفى عبوره سنة ١٩٤٠ لنهر الموز قال هرمان بلاك :

كان لابد من العبور . لقد تدربت على ذلك أنا وجنودى . وكانت عندى أفكار كثيرة أثناء تدريباتنا على عبور هذا المانع المائى . فكنت أقول لنفسى : كل مدفع لا نستخدمه على الأرض يجب أن نوجهه للدفاع الجوى .

قال : لقد تدربنا جميعا على عبور النهر فى زوارق من المطاط . فعندما وصلنا الى نهر الموز فى انتظار المهندسين ، لم يظهر منهم واحد .. لم يصلوا . بينما

كانت زوارق المطاط هناك فى انتظارنا ! . ماذا عساه أن يحدث لو لم أكن أنا الذى أصدرت أوامرى بالتدريب فى غياب المهندسين ؟ كارثة كانت من الممكن أن تقع خاصة أن هذه العملية قد تمت تحت نيران فرنسية مكثفة . ولذلك دفعت قواتى الى الأمام . لكى أعرف قدرة الفرنسيين على الصد والرد . أما الغرض من وجودى فى المقدمة ، فلكى أواجه المواقف الحرجة وأتخذ القرار السريع ، ومن غير وجودى فى المقدمة ، كان يستحيل على قواتى أن تحقق السلاسة والانسياب فى المعركة .

وفى معركة الدبابات الروسية سنة ١٩٤٢ كان يتقدم بالفرقة ١١ مدرعات عندما اتصلت به القيادة تقول ان الروس يحاولون الالتفاف حول جناحه الأيسر . وانه لابد من تطهير هذا الاختراق فورا . ولكنه فاجا الروس بعدد من التحركات التى اربكتها تماما . ونجح فى تطهير قواتهم التى اخترقت جناحه الايسر .

أما السبب فى نجاحه فهو انه يتقدم مع قواته وانه اسرع حركة . فالروس يحتاجون إلى ٢٤ ساعة لكى يحققوا ما يبلغه هو فى عشر ساعات .. وهو قد أصبح خبيرا فى التعامل مع الروس ، ولا يعرف كيف يكون رد الفعل الامريكى لو انه حاربهم . من المؤكد انهم اسرع من الروس ! .

ومما قاله الجنرال هرمان بلاك فى احاديثه التليفزيونية : بعض الناس يرى أن الهجوم يكلف قوات أكبر من الدفاع ، لا تصدق من يقول ذلك ، فالهجوم اقل تكلفة من الدفاع والمسألة نفسية . ففى الهجوم نجد ثلاثة أو أربعة أشخاص هم الذين يتقدمون وبقية الجيش يمشى وراءهم . ولكن فى الدفاع فعلى كل جندى أن يتمسك بموقعه وحده لا ينظر الى جاره . وانما فقط ينظر امامه . ان كان احد سوف يتقدم . وهو عادة لا يساوى المهمة التى يقوم بها . ولذلك فمن السهل اقتلاع اى مواقع . ولا شىء يكبدنا الخسائر الفادحة مثل دفاع فاشل ولذلك فعليك أن تهاجم ما استطعت .. والهجوم له عيب واحد : كل القوات والقيادات يجب ان تتحرك وأن تقفز . وهو مرهق تماما . أما فى حالة الدفاع ففى استطاعتك أن تدخل جحر ثعلب وأن تستغرق فى النوم!

ولما سئل عن أسلوب القيادة قال هرمان بلاك :

يجب ألا تكون للقائد خطة محددة . يجب أن يتخذ القائد من الخطط ما يناسب الدفاع الحى المتحرك أمامه . ولأن المواقع لا تتطابق عادة ، فعلى القائد

الا يتخذ الخطط التى استخدمها غيره من القادة أيا كانوا .

ولذلك يمكن أن يقال ان دراسة التاريخ العسكرى خطرة جدا .. لأنها تفرض على الدارس نظريات وخططا . هذه الخطط قد كانت مناسبة فى ظروف مضت ، ولا تصلح لظروف جديدة مختلفة . وهناك مبدأ فى العسكرية يقول : لا تعمل الشىء الواحد مرتين . حتى لو كان ذلك أسهل . فمن ادراك ربما عرف العدو هذا الشىء واستعد لاتخاذ موقف مضاد ! لابد ان تبتكر . لابد ان تعمل شيئا جديدا . فلا أحد يفكر فى أن يكون رساما عظيما اذا هو نقل لوحات كبار الرسامين .. فهذا تقليد اعمى .. ولكن الفنان الحقيقى هو الذى يبتكر هو الذى يكون له رأى خاص ومزاج خاص واسلوب خاص .. وكذلك القائد العسكرى .. فالقيادة فن جميل نمارسه بارادة حرة وخيال ، ولذلك فليس فى الدنيا فنانون عظماء كثيرون .. ولا قادة عظماء كثيرون أيضا ..

وعندما وقع الجنرال بلاك فى أيدى الامريكان رفض التعاون معهم . وكان جوهر عمله العسكرى هو ابتداع الحيل والخدع العسكرية لكى يوقع الارتباك فى صفوف العدو .. وفى صفوف البيروقراطية الالمانية .

وكان الجنرال بلاك يحارب لانه يحب العسكرية ولأنه موهوب . وهو كجندى محترف كان جادا فى عمله .

وكلاهما نموذج للجندى المحترف .

وكان يودل يترجم قرارات هتلر الى ورق وخطط .

اما بلاك فكان يقفز من مصيدة الى مصيدة حريصا على جنوده وعلى خفة دمه .

وكان يودل يرى أن هتلر هو القدر .. وانه قوة خارقة تتجاوز الصواب والخطأ . قوة يجب أن تطاع ..

ويوم اختلف يودل مع هتلر حول توسيع القتال فى جنوب جبال القوقاز باستخدام المظلات ، كان هذا الخلاف مصدر تعاسة حقيقية له .. ولكنه أطاع الاوامر .

وعندما قال بلاك لهتلر أن خللا وقع فى امداد الدبابات والعربات ، لم يأخذ هتلر برأيه . ولذلك لم يكن فشل هتلر مفاجأة له . وانما قال : هتلر لم يفلح فى السيطرة على الصناعة الألمانية .

بينما ظل يودل يحارب إلى آخر لحظة لأن أوامر هتلر هى أوامر السماء ..

بينما ظل بلاك يحارب أيضا ، لانه لايتقن أى عمل أخر .. كلا الرجلين نموذج ممتاز لقضية ملعونة !

كلاهما استخدم قدراته ومواهبه لخراب نصف أوروبا !

وكلاهما كان له أثر عميق على سنوات الانسحاب الطويلة . ولم يكن نتيجة لهذه الاطالة إلا مزيدا من عذاب الملايين !

ولم يتأثر كلاهما بما أحدثه من دمار وخراب فى القرى والمدن التى أحرقوها أثناء الانسحاب !

ولكن محاكمة نورمبرج ـ وهذا هو المهم ـ قد فرقت بين الرجلين .. سواء كانت هذه المحكمة دستورية أم لم تكن .. ولكن اقامة المحكمة تدل على ما الذى أراده الرأى العام فى ذلك الوقت . وقد أعدم يودل ، وأطلق سراح بلاك . لماذا ؟

أن أساس التفرقة هو : الاستراتيجية والتكتيك .

الجنرال بلاك كان بريئا فى حربه الشرسة على مستوى التكتيك ..

أما يودل فقد أعدم بسبب حربه الشرسة على مستوى الاستراتيجية ..

ومن وجهة نظر محكمة نورمبرج : يكون الفاعل مجرما عندما يخطط لاسقاط أو تدمير جيرانه المسالمين . ولكن ليست جريمة أن يقوم مقاتل آخر بتنفيذ ذلك حتى لو أدى ذلك بمنتهى التفوق والبراعة ..

ولايزال العالم ينظر باحترام إلى المقاتل الذى حارب ببراعة ، سواء كانت قضيته عادلة أو ظالمة ..

وهناك خلاف أخر بين هذين القائدين :

الجندية : دين ..

والجندية : حرفة ..

فالجنرال بلاك كان خفيف الدم ، لأنه يحارب ولم يكن متجهما . وكان ينتقل من معركة إلى معركة ، كما ينتقل الرسام من لوحة إلى لوحة . ولم يكن لذلك الانتقال أو الرسم أى مدلول دينى . وهو ينتصر فى معركة ببراعة فقط ، دون أن يقول أن هذا الذى عمله مقدس .. لقد كان الجنرال بلاك تاجرا بارعا !

أما الجنرال يودل فقد وضع القتال فوق الانسانية . وقد أقسم على أن يحارب وأن يقتل وأن ينتصر . المهم أن ينتصر . انتهى . ولذلك يجب أن يظل مخلصا لمثله الأعلى فى الجندية حتى لو أدى ذلك إلى انهيار ألمانيا . وأن يظل جنديا منضبطا أهم عنده من أن ينقذ ماتبقى من ألمانيا . فهو جندى مخلص

لزعيمه هتلر . ولذلك تأثر بجنون هتلر . فالجندية فكرة متسلطة عليه ولا علاقة لها بالعقل أو بالواقع . فهو يمشى وراء هتلر حانى الرأس .

ولا يسأل إلى أين . ولذلك فعندما أصيب هتلر بالجنون أصيب هو أيضا .

وكل دولة تضع العسكرية والجندية فى أعلى الدرجات ، لابد أن تصاب بالجنون فى النهاية .

(٤)

وشىء من هذا قد أصاب الأمريكان فى الحرب الأهلية وفى معاركهم فى الجنوب . وولايات الجنوب قد آمنت بالحرب دينا وأسلوبا للخلاص ! أسلوب أرادته السماء ، وليس على الجنود الا طاعة أولى الأمر من القادة العسكريين . ولذلك ليس غريبا أن يكون أعظم جنرالات أمريكا هم الذين قاتلوا فى الجنوب ، وأن يكون ألمع العقول الأمريكية قد حاربت واحترفت القتال فى الجنوب . فالجنرال « روبرت لى » (١٨٠٧ ـ ١٨٧٠) هو أعظم قائد وأعظم انسان أيضا .

وقد أدت براعته فى الحرب إلى عذاب مئات الألوف . وعندما عاد إلى بلده استقبلته الجماهير بحماس وبهجة لم يعرف لها مثيل . وهو قائد ممتاز وانسان نبيل . ولكن عبادة البطولة التى كانت حوله وأمامه وخلفه هى التى جعلت منه أنسانا غريبا .. غريبا عن الناس وهو الذى أفسد على أهل الجنوب نظرتهم .

إلى الدنيا .. فقد حبسهم فى الحرب .

وجعلهم يؤمنون بأنه لاشىء إلا الحرب وبالحرب ..

والجنرال لى أعظم من الجنرال بلاك وأطيب وأرق من الجنرال يودل .. ودوره فى التاريخ يشبه دورهما تماما .

والنتيجة : أن كل مجتمع يقدس القيادة ، من المؤكد أنه سوف يصاب بالجنون فى النهاية .. أما النتيجة فهى تعاسة الشعوب .

وهذا بالضبط ما أصابنا بعد الهزائم العسكرية فى سنة ١٩٦٧ وأصاب الأمة العربية كلها . ولا يزال .. ثم أن التعاسة هى التى يعيشها المجتمع الاسرائيلى العسكرى من قدمه إلى رأسه . وسوف يبقى طويلا ، مادام القلق وعدم الشعور بالأمان هو طعامه اليومى .

(٥)

أما الانجليز فهم أحسن حالا .. فقد عاش الانجليز مئات السنين ينظرون إلى

أميرال البحر على أنه هو البطل .. وهو القادر على أن يحل ويربط .. وعلى الحرب والنصر .. أما القادة فى البر والجو فهم دون ذلك . والنكت والقفشات والمواقف المضحكة فكانت من نصيب جنرالات البر والجو .. أما جنرالات البحر فهم أعظم وأروع .

وقد اعتقد الانجليز أن الاميرال جليكو (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥) القائد البحرى فى الحرب العالمية الأولى هو وحده القادر على أن ينهى الحرب العالمية ، إذا أراد ، فى أى يوم قبل تناول الشاى . يكفى انتصاره العظيم فى معركة يونلاند فى شمال الدنمرك . مع أن هذه معركة صغيرة ، وانتصاره فيها لم يكن باهرا . ولكنها كانت أفضل من معارك الكثير من الجنرالات فى الجبهة الغربية . لقد استطاع أن يحتفظ بأساطيله سالمة دون أن يخسر معركة واحدة .

ونظرة الانجليز إلى الجندية لايختلف عن نظرة الألمان . والفارق هو أن الجندية عند الانجليز هى (البحرية) ..

وهتلر مثل تشرشل تماما ـ كلاهما عاش بهذه المعانى . وكلاهما عاشق للحرب . وكلاهما يرى أن السبيل الوحيد لتحقيق أحلامه هى الحرب . وان كانت نتائج الايمان بالبطولة مختلفة فى البلدين .

فالمعارك البحرية محددة وموقعها ومعاركها وكذلك انتصاراتها فنلسون العظيم (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) لم يحطم ولاية أو دولة .. ولا ادت انتصاراته العسكرية الى ان تستسلم الدولة المعادية دون قيد أو شرط .

فالاسلحة فى الحروب هى التى تحتم شكل نهاية الحرب ، وادوات البحرية متواضعة اذا قيست باسلحة البر والجو . ولكن هذه الادوات المتواضعة لم تمنع القوات البحرية من بلوغ حدود الجنون وابادة البشر ..

واذا نحن نظرنا الى واشنطن القائد الامريكى العظيم ونابليون القائد الفرنسى الاعظم ، نجد انهما متشابهان ومختلفان ايضا .

فواشنطون كان له هدف محدد هو انشاء قواعد الحكم حتى تعيش امريكا فى امان ورخاء . والذى حققه واشنطون ظل مستمرا اكثر من مائتى عام .. اما نابليون فكانت حروبه لا نهاية لها ولا حدود . قواته ضخمة ، وجيوشه فخمه لم يشهد له احد مثيلا قبل ذلك . لقد اقام امبراطورية واسعة انهارت كلها قبل ان يموت .

فإذا نحن وضعنا صور هؤلاء القادة جميعا : يودل وبلاك ولى وواشنطون

ونابليون وهتلر وتشرشل فما المعنى .

ان الجنود المنحرفين لهم دور نبيل فى التاريخ . وضرورى ايضا . ولا تزال الشعوب تحترم جنودها . ومادام من حق كل بلد ان يدافع عن نفسه ، فمن حقه ايضا احترام هؤلاء الذين يدافعون عنه . والاحترام هو المشكلة هل هو احترام فقط او هو تقديس .. هل هو الاحترام مع حق التصرف أو هو التقديس والاستسلام .

ويجب الا نخلط بين التقديس وبين التمسك بالقيم الاخلاقية والدينية ومبادىء الانسانية ..

ويجب الا نعطى العسكريين قوة القدر ، قوة ما بعدها قوة .. فيكونوا انصاف آلهة أو آلهة .

ولحسن حظ الانجليز ان ابطالهم فى الحروب كانوا متواضعين . ولذلك أقاموا امبراطورية دون أن تصاب بالجنون . فهم يحترمون القائد البطل تماما كما يحترمون الملاكم البارع ـ لا أكثر ولا أقل !

أما الطاعة العمياء والايمان بضرورة الابادة الانسانية من أجل النصر ، فقد أدت بألمانيا الى الذل والهوان .

ومع الأسف فان القوات الجوية هى التى دفعت بريطانيا الى الايمان بضرورة التدمير الشامل . ففى سنة ١٩٢٠ استحدثت بريطانيا استراتيجية التدمير الجوى . وأنشأت بريطانيا اسطولا جويا لضرب الاهداف المدنية والاقتصادية فى المانيا . وسارت وراءها أمريكا وفى سنة ١٩٣٠ فتحت بريطانيا وأمريكا الطريق الى هيروشيما ونجازساكى حين استولى على جنرالات البلدين فذهب التحطيم الشامل للعدو . ولذلك كان قادة القوات هؤلاء الذين لديهم معلومات تكنولوجية جديدة .. تؤدى الى النصر على جثث مئات الالوف ..

وفى سنة ١٩٦٠ وعلى أيام خرتشوف احتل الخبراء كل المراكز العسكرية فالحرب تكنولوجية ، أى أنها حرب معلومات والمعلومات عند الخبراء .. لقد انتهى عصر الشجاعة الفردية والصبر والتضحية لأن أدوات الحرب أجهزة دقيقة معقدة تنطلق بعقول الكترونية .. تنطلق الى اصابة أهداف وجنود لانراها .. فكل شىء علم وتدريب وممارسة ، والحل هو الأسلحة النووية .. وأصبحت الذرة هى الاله الجديد الواجب التقديس .. وقد قدسه الجنرالات كما قدس الجنرال يودل الزعيم هتلر ..

وفى كل الحروب تسود نظريتان : نظرية العقل ورد الفعل السريع .. ونظرية الانبهار والدمار ..

والحرب العالمية الأولى كانت تطبيقا للانبهار والدمار .. ورواد هذه الحرب من مثل : فون سيكت فى المانيا وديجول فى فرنسا وفولر فى بريطانيا ، تعلموا كيف يقومون بالابادة الجماعية فى الجبهة الغربية وفرنسا مع الاسف ، لم تسمع الى ديجول واقامت خط ماجينو .. وبريطانيا لم تستمع الى فولر واقامت سلاحا للقاذفات الجوية .. أما المانيا فقد استمعت الى فون سيكت واقامت فرق المدرعات التى حققت كل ما طلبوه منها فكانت حرب عقول وحركة سريعة ورد فعل خاطف .. فحققت الانتصارات الانيقة التى قام بها الجنرال هرمان بلاك ..

وكانت الحرب الخاطفة لهتلر مذهلة .. وان لم تكن مدمرة مثل معارك الحرب العالمية الاولى .. أما الهزائم التى لحقت بالحرب الخاطفة فلأنها فشلت فى روسيا .. وفشلت بسبب وحشية البوليس الالمانى ، وبسبب الغارات الجوية المكثفة لطائرات الحلفاء وعلى الرغم من كل ذلك فان حرب المدرعات كانت هى الحرب .. فقد تمكنت جيوب صغيرة من كسب المعارك الكبرى مع القليل من الخسائر .

(٦)

ومن القصص الدينية أن الملك « طالوت » أراد أن يمتحن جنوده الذين أرهقهم السير .. فقال لهم انه سوف يمر على نهر الاردن .. وعليهم أن يرتشفوا القليل فقط .. أما الذين سيشربون حتى يرتوا فلن يحاربوا معه .. وكثيرون شربوا أما القليلون الذين بللوا ألسنتهم فهم الذين حارب بهم ..

ويقال إنه نهر الغرور .. ويقال إنه نهر الانتقام .. فالجنود الذين امتلأوا غرورا وتعطشا الى الانتقام هم الذين يرون أن الحرب حياة وأن الموت للعدو والدمار الشامل هو الهدف ..

أما الذين بللوا ريقهم ومضوا للقتال ، فالحرب قد أضطروا الى خوضها ثم هم يحاربون ويسالمون بعد ذلك ..

والقرآن الكريم يحكى لنا طرفا من ذلك « . . . قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم .. » .

وهذا النهر كأنه البطل أيضا أو عبادة البطل ويكون الثمن فادحا بعد ذلك ويصبح هذا الثمن فادحا جدا ، اذا لم نحاسب احدا من القادة على الذى فعله من اجل خراب ودمار البلاد والعباد !

تعالوا نرفع أيدينا عن شباب مصر !

المتصوفون هم أقرب الناس إلى الحقيقة .. ولكنهم لا يعرفون كيف يقنعوننا بذلك .. فالمتصوف يحنى رأسه ويقفل بابه ويسكت ساعة ويوما وشهرا ، كأنه مات . وفجأة تلمع عيناه ويشرق وجهه وتدب فيه الحياة ويقول : وجدته ..

أما الذى وجده فهو الله .. وجه الله . نور الله .. كيف ؟

لا أحد يعرف . ولا يحق لك أن تسأل صوفيا كيف حدث ذلك .. فهو لا يعرف ..

نقرأ ما قالته رابعة العدوية (٧١٣ ـ ٨٠٩م) ورابعة القيسية ورابعة الشامية ورابعة البغدادية وراهبة الموصلية .. وتجد كلاما جميلا ورموزا عميقة . عبارات كأنها حبات اللؤلؤ أو حجرات الماس . ولا نعرف ولا هى ، كيف تأتى لها ذلك .

وما كتبته القديسة تريزة الاسبانية (١٥١٥ ـ ١٥٨٢) عن العشق الالهى .. أو انكشاف الحقيقة والحق .. كل ذلك يحيرك يدوخك .. ولكن هذه هى الحقيقة .. ولا توجد وسيلة أخرى الى مطالعة وجه الله ، أو شعاع من نور الله . كيف ؟

أما رابعة العدوية فتتغنى فى حبيبها ومعشوقها : الله سبحانه وتعالى . انصرفت عن الدنيا إليه ، وأغمضت عينيها عن كل المخلوقات وفتحتهما على الله ..

تقول رابعة العدوية :

أنى جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

فما السبيل إلى ذلك ؟

الصوفيون هم أقدر على ذلك .. فالصوفى ينصرف عن الدنيا ورغباتها ، ويسد أذنيه عن الناس وعينيه .. ويسد نفسه أيضا .. وينفتح على ما قلبه . ويظل

هكذا ساكتا طويلا وعميقا .. وكما يحدث فى الليالى المظلمة أن يمرق فى السماء شهاب لامع أبيض طويل .. يضىء ويبهر ثم يختفى .. ولا يجىء هذا الشهاب الا بعد ليل طويل وصمت عميق وصفاء كامل .. والا بعد التذلل والاستسلام على أرض الله ، ولله .. هنا يهب الصوفى متحدثا واعيا شاعرا حكيما .. كذلك كانت رابعة العدوية وكانت القديسة تريزا تقول : اننى لا أجد حبيبى واقفا وراء الباب اننى أنا واقفة وراء الباب ، ولا يزال الباب يتراجع والطريق ينفتح واللون يتسع وفجأة اجد بصيصا من النور .. هذا هو حبيبى .. والقليل من الحبيب كثير . والحبيب هو الله !

ولولا ساعات وسنوات من العزلة المظلمة ، والصمت العميق ، والعشق المتفانى ، ما جاءت هذه اللحظات المضيئة .. الباهرة ..

والذى يفعله الصوفية عن عمد ، وبعد ذلك عن استسلام ، يصيب العلماء أيضا ..

فالعالم والفنان المبدع ، يكون غارقا مستغرقا ، ولا يعرف له طريقا أو هدفا .. وينطلق فى كل طريق وفى كل اتجاه .. عاما بعد عام ... وفجأة يجد النور فى اعماقه .. يجد الطريق قد اشرق ، والهدف قد اقترب ، والراحة الكبرى . ماذا حدث ؟ كيف حدث ! انه انفصل عن كل شىء ، وانعزل واعتزل ، وطال ذلك ، وتعمق واستولى عليه وفجأة جاءت لحظة النور والتنوير والجلاء البصرى والسمعى .. وفجأة وجد نفسه أمام الذى كان يريد ..

يقول العالم الفيزيائى الكبير اينشتين : انه ظل سبع سنوات مشغولا بنظريته النسبية العامة والخاصة .. يقلب رأسه فى الأرض وفى السماء ، ولا يعرف كيف يجد ما يريد .. فعنده شعور ما ، وعنده يقين ما ، ولكنه لا يعرف كيف يدلل عليه ، كيف ينقله الى الناس ، كيف يمسكه كيف يحصره فى كلمة ، كيف يحسبه فى معادلة رياضية .. لا يعرف ولا يدرى متى يكون ذلك .. ولكنه يتجمل بالصبر .. ويتوسل الى كل الذى يراه ويسمعه ويحس به أن يتريث قليلا .. أن يتوقف لعله يفهم .. لا شىء من كل ذلك .. وفجأة ، بعد سنوات من التخبط فى كل الظلمات .. انفتح نور .. هنا احس أنه ليس فى حاجة الا لوقت قصير لكى يسجل الذى رأى والذى سمع . واستغرقت كتابته للنظرية ثلاثة أسابيع !

أما هذه «الحالة» التى تسبق لحظة التنوير والانكشاف والمكاشفة

والانقشاع ، فهى ضرورية . فهذه الحالة نوع من الركود أو الجمود أو هى الحضانة أو التحضير أو التحضين ، ولذلك فمن الضرورى أن نستسلم لها ..

يقول الشاعر الالمانى ريلكة : أنها تشبه الصمت الحزين الكئيب الذى يعترى الانسان عندما يجد السماء ملبدة بغيوم سوداء .. هذه الغيوم جاءت من بلاد بعيدة لا نعرفها .. وفجأة يمزق السماء برق أو يزلزلها رعد .. وفجأة تسقط الأمطار .. ثم تتكشف السماء عن شمس تبعث نورها من بعيد ..

هذه هى « العتمة » التى تسبق النور .. هذا هو « الغبش » الذى يسبق الشروق والاشراق ..

وكما يهيم الفرد فى المجهول حتى يهتدى الى النور ، فكذلك الشعوب .. تظل راكدة نائمة ، كأنها نائمة ، أو ميته .. كأنها ميته .. ويكون هذا النوم أو الموت ، تحضيرا لما بعد ذلك .. مقدمة للتعديل والتطوير .. متى ؟ كيف ؟ لا نعرف .

ولكن . لابد .. كل التاريخ من أوله لآخره به فترات نوم .. أو موت أو ما يشبه الموت .. ثم الصحوة والنهضة واليقظة والثورة ..

والذى يرى الشعوب كأنها ماتت ، كالذى يرى بعض الحشرات والطيور فى « بياتها الشتوى » كأنها ماتت .. ولكنها لم تمت . أنها قد أغفت لكى تصحو بعد ذلك ..

« والبيات الشتوى » عند الحشرات والزواحف والطيور والثدييات ، هو استعداد لمواجهة الشتاء البارد .. فينام الحيوان فى الطين أو فى الجليد .. ويكون هذا النوم من أجل ادخار الطاقة فتنخفض حرارة الحيوان ويقل تنفسه وتتناقص دقات قلبه .. وتمضى شهور الشتاء القاتل ، والحيوان قد استعد لكل ذلك ويجىء الربيع وينهض معه الحيوان يستأنف حياته من جديد .. كيف ؟ فى داخل كل حيوان «ساعة» كيميائية هى وحدها التى تنظم له الاستعداد للنوم . كيف ؟ لا نعرف . هذه الساعة هى التى تنظم له التوافق مع البيئة . فهذا الحيوان لم يمت ، ولكن كأنه مات .. والحقيقة أنه أخفى كل قدراته وأنامها وترك طاقة ضئيلة تقوم بإدارة ما هو ضرورى من التنفس والافراز ليبقى حيا ، أو كأنه حى ..

* * *

ويحدث فى تاريخ الشعوب ايضا ان تجىء الانتفاضة والنهضة والثورة بعد

« موات » الشعوب ..

فالثورة الامريكية سنة ١٧٧٥ سارت على نفس القاعدة واسلمت قيادتها لجورج واشنطون ..

وكذلك الثورة الالمانية التى اسلمت الحكم لهتلر سنة ١٩٣٣

ولكن الامريكان قد احسنوا الاختيار عندما اسلموا قدرهم لجورج واشنطون . اما الألمان فقد اساءوا لانفسهم اساءة فادحة عندما استسلموا لهتلر ..

ولكن الاسباب التى دعت الشعبين لتسليم القيادة إلى واحد من زعمائهما هى هى . فعندما يشعر الشعب بان حالته تزداد سوءا يوما بعد يوم . وان هذا السوء قد شمل كل الناس .. هنا فقد يشعرون جميعا انه من الافضل ان يفعل الانسان شيئا .. أى شيء .. ويصدقون كل ما يعدهم بشيء لأنهم يريدون ذلك ويحلمون به .. يحلمون بالذى يخلصهم من الظلم والظلام .. يحلمون بالذى يعدهم بالقمر .. ويعدهم بالشمس ..

وكل الذى يعد الناس « بالتغيير » هو بالضبط من يختاره الناس زعيما عليهم ..

وفى سنة ١٩٣٩ قرر رئيس وزراء بريطانيا نيفيل تشمبرلن اعلان الحرب على هتلر . ففى ذلك الوقت احس الشعب الانجليزى بضرورة تغيير .. بضرورة ان يهتز الماء الراكد ، والنفس البليدة ، والعقل الجامد ، والخوف الشامل ، والانتظار الممل .. وبسرعة وذكاء استطاع تشمبرلن ان يعبىء الشعب الانجليزى للتغيير ووزع عليه اربعين مليون كمامة للوقاية من الغازات السامة . انه إذن التغيير القادم الذى ينتظره ويريده الجميع .. وكانت هذه « الكمامة » رمزا بليغا مقنعا !

أما الفرنسيون فى ذلك الوقت فقد أيقنوا أن حكومتهم ليست جادة فى محاربة النازى . لماذا ؟ لانها لم توزع عليهم كمامات ضد الغازات السامة !

ولكن هذه الرغبة فى التغيير بالغة الخطورة . لان الوسيلة الوحيدة للتغيير هى : الحرب . والحرب هى أسهل وسيلة تلجأ إليها الشعوب لكى تفلت من قبضة القانون والنظام من التقاليد والعادات . إن الحرب هى الرغبة العميقة فى أن تفلت الشعوب من الروتين اليومي فى حياتها .. من الملل .. من القرف .. من الضيق .. من الانتظار .. من التبلد .. من الركود .. من الإحباط ..

والرجل الذى يعد الشعب بالتغيير عن طريق الحرب ، هو الزعيم الذى اختاره الشعب !

وفى مايو سنة ١٩٨٢ اتجهت الأساطيل البريطانية الى جنوب المحيط الاطلنطى لتحارب الارجنتين دفاعا عن جزر فوكلاند .. انها الحرب !

وكان الرأى العام الانجليزى فى سنة ١٩٨٢ يشبه الرأى العام فى سبتمبر ١٩٣٩ .. عندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . ولما قررت مرجريت تاتشر محاربة الارجنتين ، لم يشعر الناس بان ٤٣ عاما قد مضت بين الحربين .. وإنما هو شعور مأسوى ممتد .. وإن كانت الحرب مع الارجنتين شيئا صغيرا لا يمكن مقارنته بالحرب العالمية الثانية ، ولكن الرغبة فى الحرب كانت قوية . وأدركت مرجريت تاتشر بذكائها وحسها التاريخى ، أنه لا إنقاذ للانجليز من الركود والجمود والخمود والقرف الذى اعتراهم ، الا هذه الحرب التى تنعش الناس وتفتح شهيتهم على الحياة ، وتجدد ثقتهم بها .. ولم يتوقع الناس أن يكون النصر رخيصا سهلا .. ولكنهم أرادوا الحرب ، ولم يفكروا كثيرا فى النصر أو فى الخسارة . المهم هو ان يطرأ تغيير قومى شامل ..

ونتائج الحرب ١٩٣٩ و١٩٨٢ كانت أقل فداحة مما توقع الناس ، ولكن الشعب كان على استعداد للمغامرة . المهم أن يفعل أى شىء . بدلا من هذا «الموات».. فكلا الحربين قد انتظرها الرأى العام واستعد لها وباركها وبذلك تمكن الشعب بهذه الوسيلة من القضاء على ما يعانيه من ملل واحباط .. ويحدث أن تمشى فى الشارع .. الشارع هادئ .. الحركة منتظمة .. رتيبة .. والناس لا ينظر أحدهم إلى أحد ولا يريد .. ويتصادم الناس أو يتفادون ذلك .. وفجأة تسمع صوت فرملة صارخة .. ويتجه الناس إلى مصدر الصوت ويجدون قتيلا ويلتفون حوله وقد تنفسوا بارتياح كأنهم يشعرون بالامتنان للقتيل ، لأنه أخرجهم من حالة الركود والبلادة .. وأنه استوقفهم ليهزهم .. ليثيرهم .. ويكون الناس أخف وزنا وأكثر ارتياحا بعد الحادث .. كأنهم كانوا ينتظرونه .. يتوقعونه .. فلما حدث، استراحوا . ؟ !

والناس فى هذه الحالة في غاية القسوة واللاإنسانية .. فلم تمتد الأيدى لانقاذ القتيل أو القاء القبض على القاتل ..

أما وقوفهم وبرودهم وبلادتهم يؤكد مرة أخرى أنهم فى حاجة إلى ما هو أكثر من حادث .. إلى ألوف القتلى .. إلى الحرب !.

والمؤرخ اليهودى يوسيفوس يصف لنا كيف سقطت القدس سنة ٧٠ م فى أيدى الرومان . وكيف أن اليهود عرفوا الجوع والعذاب والهوان وأكلوا الأعشاب .. وهاجموا الموتى يفتشون ملابسهم لعلهم يجدون طعاما .. ويحدثنا عن سيدة غنية أسمها مارية العازر حاصرتها الحرب . وجاعت . وكادت تموت . فلم تجد إلا طفلها الرضيع على صدرها .

قالت له : لن أتركك تعيش حتى يستعبدك الرومان بالجوع والذل ، وبعد ذلك يقتلونك .. أبدا .. أنا أخرجتك من بطنى ، أنا أعيدك إلى بطنى .. ثم قتلت طفلها ووضعته فى النار .. حتى أنضجته . وراحت تأكل منه ، وجاء الرومان وشموا رائحة الشواء فهددوها أن لم تعطهم مما عندها .. وكشفت الغطاء عن طفلها وقالت : لاتكونوا أجبن من أمرأة .. كلوا واشربوا!

يقول يوسيفوس : لقد طال الحصار وطال العذاب .. ففى هذه الحالة لايملك الانسان إلا أن يفعل أى شىء .. فيكون وحشا يفترس نفسه ، قبل أن تأكله الوحوش !

★ ★ ★

ولكن هناك أساليب أخرى لاخراج الشعوب من حالة الملل العام والقرف القومى .. هناك مشاريع للسلام ، مثل مشروع مارشال لانقاذ أوروبا من الانهيار الاقتصادى والضلال السياسى ..

كما حاول الرئيس كنيدى سنة ١٩٦١ أن يخرج بالشعب الأمريكى من القرف السياسى واليأس من الوصول إلى أى حل مع الاتحاد السوفيتى .. عن طريق الاتفاق أو الوفاق .. ولذلك قرر الرئيس كنيدى أن ينقل التنافس بين الأمريكان والروس إلى مستوى أعلى .. فكانت مشروعات الرئيس كنيدى للانطلاق إلى القمر .. وكان من رأيه ـ وهو على حق تماما ـ أن مثل هذا المشروع سوف يجذب الرأى العام الأمريكى ، ويرفع رأسه إلى أعلى ، وسوف يحشد كل الطاقات الابداعية فى هذه الحرب العلمية التى لم تنطلق فيها رصاصة واحدة .

ولكن هذه الفكرة الممتازة المريحة ، قد سقطت بسرعة عندما دخلت أمريكا الحرب فى فيتنام .

ومع ذلك يمكن استخدام الأساليب السلمية التى تستغرق الناس ، فى مشروعات ليس من الضرورى أن تكون بعيدا مثل القمر ..

وفى الصين عندما استقرت الأوضاع للحزب الشيوعى وحكم طويلا وعميقا . كان لابد من هز السطح الثقافى فى البلاد .. فكانت الثورة الثقافية » .. غير أن الناس أحسوا أنها استئناف للقتال ولكن بأساليب أخرى ، فأخمدوها واستغرقوا فى تطوير الصناعة والزراعة والبناء والانفتاح على الغرب وعلى اليابان وأمريكا .

ولم تسفر حرب الروس فى أفغانستان عن تحقيق الشعور بالراحة عند السوفيت .. فلم تكن لهذه الحرب أى أثر عام .. وانما هو أثر سياسى دبلوماسى فقط .. ولذلك كان لابد من تحريك الركود والجمود وليس بالحرب ولكن بالسلام .. وتقدم الرئيس جورباتشوف بمشروعه الاصلاحى الشامل : بريسترويكا .. أى أعادة بناء كل ماانهدم وفسد .. وأن تقوم الشعوب السوفيتية كلها بالتعبير عن غضبها .. « والتنفيس » عن مشاعرها الحبيسة .. وأن ينقدوا وأن يتظاهروا .. وبعد ذلك يتقدمون يصلحون أنفسهم .. سياسيا واقتصاديا وأجتماعيا .. وأن يطالبوا بازاحة الذين أوقفوا نمو الحياة فى روسيا ، فتخلفوا عن الغرب فى كل شىء إلا فى الجمباز ! .

ولذلك فالرئيس جورباتشوف هو ضمير الشعوب السوفيتية وهو تجسيد لأعماقها فى ضرورة التغير بغير حديد ونار ودم !

* * *

وكما حدث فى مصر بعد الهزيمة العسكرية فى يونيو سنة ١٩٦٧ ، حين انهار الناس وسقطوا على الارض والى ما تحت الارض . وتداعت كل القيم والمعانى والحسابات تدفن الناس .. لقد وعدنا الناس بجنات تجرى من تحتها الانهار ، او على الاقل قناة السويس ، ذهابا وايابا الى تل أبيب وكل العواصم العربية .. وفى ساعات تبدد كل ذلك .. جاءت سنوات ما بعد الهزيمة اكثر مرارة من الهزيمة .. وتحير الناس هل يتطلعون الى بطل القومية العربية جمال عبد الناصر الذى لم ينتصر فى اية حرب عسكرية .. والذى وعد وتوعد .. ولم يسمع الناس شيئا مما قاله دراويش الناصرية الأفاقون من ان هزيمة يونيو هى انتصار لارادة مصر .. لان هذه الهزيمة كان من المفروض ان تقضى على الروح المصرية والزعامة المصرية . ولكن صلابة الارادة والعزيمة هى التى أدت الى انحسار الهزيمة ؟ !

فلم تقض على الزعيم ولكن قضت على ملايين المصريين .. المهم دائما ان

يبقى الزعيم ليذهب الناس فى ستين داهية .. وذهب الزعيم وبقيت الداهية فى أحضان كل مواطن .. وتحولت مصر كلها إلى سيناء التى تاه فيها موسى عليه السلام وقومه .. أصبحت مصر هى بلاد التيه .. وتاه المصريون ولم يكن لهم موسى .. ولا نزلت عليهم الوصايا العشر .. ولا المن والسلوى .. واصاب المصريون ما أصاب اهل بابل عندما انهدم بهم برج بابل .. فتبلبلت الالسنة .. ولم يعد احد يفهم ما يقوله الآخرون .. ارتبك الناس ، اختلطت الألسنة واللغات .. فكل واحد يتكلم ولكن أحدا لا يسمعه .. وكل واحد يقول ويجول ويصول .. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .. وطالت السكرة وراحت الفكرة ، والعذاب عظيم ، والعار أليم .. واستقر حال الناس على هذا الحال .. وتساوت الرؤوس بالأقدام .. وارتفعت الأقدام إلى أعلى الرؤوس .. ولم يعد أحد يعرف ما هو الفرق بين أن يمشى على قدميه أو على رأسه أو يزحف على بطنه ..

وكانت حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ .. هى الحرب الشفاء .. هى التغير الذى هو دواء .. فالناس يطلبون ذلك ، وينتظرونه . ولم يستطع أنور السادات أن يعلن أنه يستعد للحرب ، فهو يعرف النتيجة مقدما .. يعرف ان اسرائيل أكثر استعدادا ، وأمريكا من ورائها .. ويعرف أيضا أن الناس لا يريدون الحرب ، فيكفى ما أصابهم فى سنة ١٩٦٧ . وقد عرف أنور السادات كل أنواع العذاب .

فالشعب لم يجربه لا فى حرب ولا فى سلام .. وهو لم يكسب ثقة الأمريكان واليهود ـ وهو سوف يحارب بنفس الجيش الذى انهزم .. وهو الذى طرد الروس من مصر ، فسوف يحارب بأسلحتهم وقد يحتاج الى قطع غيار منهم .. والأمريكان لن يساعدوه على ضرب اسرائيل وهزيمة السلاح الأمريكى .. وفى نفس الوقت بحمد الله أن أحدا لا يصدقه فى مصر .. فإذا قال سوف نحارب فسترتفع ملايين الأصوات تقول : فشر .. كذب ..

ولكن عدم تصديق المصريين للسادات هو الذى أكسبه جانبا كبيرا من خداع الرأى العالمى .. وخداع اسرائيل وأمريكا . وكان موقف السادات هو أبشع عزلة عرفها زعيم فى التاريخ .. وكان لابد أن يحارب وأن ينتصر .. المهم أن ينتصر وفى ذلك رد اعتبار للجيش المصرى والجيوش العربية ، واعتذار للشعب المصرى الذى استسلم لزعيمه ، فأغرقه فى الوحل .

ولم يخف الرئيس السادات أن هذه الحرب ليست حربا بالمعنى الحقيقى ،

انها تحريك للموقف .

أى المواقف الراكدة . أى الحال الجامد . الاحباط العظيم . الفشل القومى فالحرب : امتصاص لغضب الناس !

ولكن بسرعة دارت طواحين الهراء فى مصر وفى العالم العربى . يسلبون المصريين حقهم فى الراحة .. حقهم فى طلب التغيير ثم الحصول عليه ..

فقالوا : النصر صنعه نفس الرجل الذى صنع الهزيمة .. أى أن النصر من عند جمال عبد الناصر .. وأن هزيمته فى يونيو استراتيجية وانتصاره فى أكتوبر تاكتيك .

أى انه انهزم إلا قليلا ، وانتصر أيضا إلا قليلا ، أى أننا لا انهزمنا ولا انتصرنا . أى أن حالنا هو نوع من التوازن بين خيبة الأمل وبين الهوان العظيم ..

ودارت طواحين الهراء العربى . وقالوا : السادات خائن .. اتفق مع الأمريكان على قتل عشرات الألوف من اليهود .. واتفق مع الأمريكان على هزيمة الأسلحة الأمريكية التى تحارب بها اسرائيل .. وليست حرب أكتوبر إلا تمثيلية أعدها السادات وألفها عبد الناصر وأخرجها كيسنجر !

أما المعنى : فهو أن يظل الشعب المصرى فى حالة من الشك وسوء الظن .. وفى حالة من الاحباط العظيم .. لا يستطيع النصر ولا يتجرع الهزيمة .. ركود مهين لملايين المصريين .. وهذا الركود هو الذى سوف يدفع المصريين إلى التغيير العنيف .. الى الثورة على أنفسهم !

ولكن الجيش والشعب قد أيقنا بأن الذى حدث انتصار حقيقى .. وان هذه الأصوات المصرية مأجورة والأصوات العربية حاقدة .. فمصر قد انتزعت نفسها من الحضيض الى أعلى الدرجات ، شعب تخطى الهزيمة ويمشى فوق جثث اليأس ، فانتقل من أرضه فى وادى النيل الى أرضه فى سيناء . كل سيناء وطابا . وكان من آماله أن تفعل الدول الأخرى ما فعلته مصر . فأين هو وأين مصر ؟ .. تحررت مصر تماما بالحرب وبالسلام وبالعقل .. وبقيت الأرض العربية محتلة ، لأن عقولهم قد احتلها الحقد على مصر وملأت جيوبها بأموال دول الخليج .. فهى لا تريد حلا ولا خروجا من مستنقعات الاحباط التى جففتها مصر لتعيش شريفة على أرض مقدسة !

شىء عجيب جدا يحدث فى مصر وفى ليبيا .. حفلات « الزار الناصرى » لا

أعرف ما الذى تريد أن تقوله للناس .. وهؤلاء الناس قد تجاوزوا أعمارهم الافتراضية .. هل يريدون أن يقولوا : أن هزيمة يونيو انتصار عسكرى وسياسى .. هل يصدقهم العسكريون .. هل تصدقهم مئات الألوف من العائلات المصرية التى فقدت الزوج والابن والوالد ؟ هل يصدقهم العسكريون الذين فقدوا سيناء والجولان والضفة والقدس والقطاع وقناة السويس .. هل لأن الرئيس عبد الناصر لم يفعل ما فعله أبو الهول فى العصور القديمة عندما فضحوا أمره ، فألقى بنفسه فى الهاوية ، هل لأنه لم يفعل ذلك يظل على حق دائما .. والحق هو أن الهزيمة لم تكن إلا نصرا أخفاه عن الشعب فى يونيو ١٩٦٧ حتى يعلنه أنور السادات يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ؟

أما المعنى الحقيقى فهو أن دارويش الناصرية وخصوصا « كدية » الزار الناصرى ، يريد أن يعيش طويلا .. أو أطول مما يجب . ولذلك فهو ينعش قصة الهزيمة من حين الى حين .. ليؤكد للناس أن الذى أصاب مصر سنة ١٩٦٧ كان بسبب أنور السادات الذى حكمها سنة ١٩٧١ .. وان نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد حققه عبد الناصر الذى مات سنة ١٩٧٠ ..

وفى مواجهة الارتباك والغياب السياسى والتاريخى وردود الفعل التى دوخت الناس ، وازاغت أبصارهم ، لابد أن يضيق الناس بهذا القرف .. وان يكفر الناس بكل أنواع القيادة والزعامة والبطولة الوهمية والبطولة الحقيقية .

ولذلك جاءت الانتفاضات الشعبية والطلابية والدينية نوعا من استخراج التغيير من بطون الناس . نوعا من تحريك السطح الساكن .. من هز الساعة حتى تمتلىء وتتحرك .. نوعا من خض اللبن استخراجا للزبدة .. نوعا من هز الفنجان العربى ، كما يفعل السعوديون ، حتى لايعطينا الجرسون مزيدا من البن المر ..

وكان من الممكن ألا تحدث هذه « الهزات » لو أن مشاريع التنمية وتوزيع الأرض على الشباب ، تمشى سليما . ولكن هناك معوقات كثيرة فى مواجهة الشباب ليس سببها أن الدولة تريد هزة شعبية .. ولكن سببها أن القائمين على اصلاح الأراضى وتوزيعها وتشجيع الشباب ، لا يدركون تماما خطورة الذى يرتكبون .. هذه هى المشكلة الحقيقية .. وهذه هى المعوقات الخطيرة .. كأن هؤلاء المسئولين يعملون بوعى أو دون وعى ، على إثارة الشباب .. على تفجير الطاقات الحبيسة ..

والحل ممكن وسهل : أن تلتفت الدولة كلها الى ما يحقق راحة الشباب باعطائهم فرصا للعمل والكفاح واحترام تطورهم .. وفى هذه المشاريع ، تحتشد كل قوى الشعب وتتفرج على ابداع الشباب ، بدلا من أن يتفرجوا على الطوب فى أيديهم ودماء رجال الأمن .. أن مشروع كنيدى فى أمريكا قد حول العيون من الأرض الى السماء .. ومشروع مارشال فى أوروبا ، قد أضاء للملايين طريق البناء وزراعة الأرض والنفس بالحياة والأمل ..

وعندنا فى مصر كل ذلك .. ولكن عندنا أسوأ من كل شىء : وزراء جامدون ووكلاء وزارات أشد جمودا .. وسلبية ولامبالاة .. وخوف من اتخاذ القرار .. مع أن قرارا واحدا يكفى : ارفعوا أيديكم عن شباب مصر ، يرفع غضبه عنكم !

هناك أكثر من حمار دائماً !!

فى سنة ١٥١٦ زار الرحالة « جون ليو » شمال افريقيا واقام طويلا فى المغرب . ثم جاء إلى مصر . واصدر بعد ذلك كتابه الشهير « جغرافية شمال أفريقيا » وفى مصر أقام فى ضاحية باب اللوق التى تبعد عن أسوار القاهرة حوالى كيلو مترين . وفى هذه الضاحية كانت تسكن ثلاثة آلاف أسرة من التجار والصنايعية .. وفيها هؤلاء الناس الذين يدربون الكلاب والجمال والحمير على الرقص .. وقد زارهم وتاملهم وادهشه ما رأى . وفى أحد الأيام كان فى حى الأزبكية حيث القصر الكبير للمستشار يزبك وحيث البغايا والراقصات والحظ والفرفشة . ورأى أعجب حادث فى القاهرة : رجل يركب حمارا . ولا يكاد يرى مجتمعاً من الناس حتى يترجل عن حماره ويصرخ : أنت يا حمار .. ياحمار .. أنت !

ويشير إلى الحمار ، كأنه يريد أن يقول انه لا يقصد أحدا من الناس ! ويقول صارخا : أنت لا تعرف الأخبار « المنيلة » التى تنتظرك .. تعرف السلطان .. السلطان الذى كلامه فرمان .. تعرف معنى الفرمان .. الفرمان هو أى صوت يخرج من أنف السلطان .. إذا عطس وجب على كل الناس ان تعطس .. واذا سعل فالشعب كله يجب أن يسعل .. فرمان السلطان صدر ببناء قصر عظيم .. لكل الناس .. ومسموح للحمير بالدخول .. ليس كل الحمير .. ولكن الحمير التى ساهمت بمجهودها فى بناء القصر .. اسمعنى لا تسمع لكلام الناس .. انظر ناحيتى لا تنظر للناس .. فأنت أهم من الناس .. الفرمان ينص على ما يلى : على كل الحمير ان تتجه إلى قصر السلطان .. وهناك سوف تتلقى الأوامر بأن تحمل على ظهرها الطوب والحجارة اللازمة لقصر السلطان !

وفجأة سقط الحمار على الأرض . ارجله إلى أعلى ونفخ بطنه . واطبق عينيه .. كأنه مات !

ويشتمه صاحب الحمار ويقول : تتظاهر بانك مريض . حتى لو مت يا حمار يا ابن الحمار ، سوف يضعون الحجارة فوق ظهرك وصدرك وسوف يجرونك إلى قصر السلطان .. انهض ياكذاب . انهض يا جبان .. انهض يا خائن العيش

والملح .. كيف تأكل عيش السلطان ولا تشكره على ذلك !

ثم يقترب من الحمار . ويضع اذنه على صدره . ويصرخ : مات .. الحم
مات .. كارثة اصابتنى أنا وأولادى وزوجتى وأمى المريضة وجدتى المكسحة
كان هذا الحمار هو الذى ينفق علينا .. مات عائلنا مات كبير عائلتنا .. مات و
النعمة ! يا نهار أسود ومنيل ! ساعدونى يا ناس ..

ويتقدم الناس متاثرين لما حدث . ويعطون الرجل بعض المال . وبعض
يبكى فعلا لهذا المشهد الأليم .

ويعود صاحب الحمار ويقول : اسمع كلامى . سوف تندم يا حمار .. انت
تسمع كلامى حتى اخره . لقد اصدر السلطان فرمانا آخر .. هو دعوة
الناس الاكابر والسيدات الجميلات لحفلة كبرى . ولذلك قرر دعوة كل الحم
لنقل هؤلاء الناس الابهة لهذا الحفل ..

وتحرك الحمار .. وفتح عينيه .. ثم عاد الرجل يقول : أهم من كل ذلك ..
السلطان امر بأن تأكل الحمير احسن برسيم وتشرب انظف ماء .. واهم من
ذلك ان الرجال يمشون وراء الحمير .. اما الجميلات فهن وحدهن سيركب
الحمير !

وقفز الحمار سعيدا بذلك . وراح يرفع رجليه فى الهواء . ويدور بين النا
ويشمشم فى ملابسهم !

وعاد الرجل يقول للحمار : لا تستعجل ، اصبر قليلا .. فعندى اخ
اخرى .. ان حارس القصر الملكى قد طلبك منى .. لتركبك زوجته العج
المكسحة ..

وهناك سقط الحمار على الارض ونام على ظهره ورفع ارجله الى فوق ون
بطنه واطبق عينيه ! وعاد الرجل يقول للحمار : يا أخى انت مستعجل .. انت
الاخبار حتى نهايتها .. فهذه العجوز قد ماتت صباح اليوم !

وفتح الحمار عينيه . ولم يغير وضعه . ولم ينهض .. وقال الرجل : ولكنك
« سيد جاد » سوف تكون من نصيب ابنته الجميلة !

ونهض الحمار بسرعة .. واخذ يرقص ويرفع ارجله الى اعلى !

اما الرجل فقد اتجه الى الحمار وقال له : أنت بتفهم كل شىء فلماذا قا
عنك انك حمار ؟ . وهل انت تفهم الفرق بين المرأة الجميلة والمرأة القبيحة
فهز الحمار رأسه بما معناه إنه يفهم . ثم طلب منه ان يختار اجمل واح

بين المتفرجين . واتجه الحمار الى سيدة جميلة وراح يشمشم ملابسها . وصفق الناس .

ثم قال له : قل لى يا سيد جاد .. هل تحب ان تكون سلطانا ؟

فهز الحمار رأسه انه لا يوافق .. فعاد الرجل يقول : افرض ، لا قدر الله ، انه طلع عليك النهار فوجدت نفسك سلطانا .. افرض ان السلطان طلب اليك ان تحكم بدلا منه .

فاتجه اليه الحمار ورفسه .

فعاد الرجل يقول : اننى اقول افرض .. افرض مجرد فرض ما الذى تعمله فى زملائك من الحمير .. خذ بالك هناك حمير كثيرة جدا فى القصر .. ولكن السلطان يثق بك انت بالذات ؟ !

وانطلق الحمار هاربا .. فقال الرجل : موجها كلامه للجمهور : انه سوف يعطى لكل الحمير اجازة !

وركب الرجل حماره واتجه الى مكان آخر !

هذا الرجل هو مؤلف ومخرج وملقن هذه التمثيلية على الرصيف .. وهى تنتقد الاوضاع فى بلاده . بما فى ذلك السلطان والشعب والحاشية التى امتلأت بالحمير .. حتى الحمار يرفض ان يكون سلطانا . واذا وافق فلكي يطلق سراح الحمير من ظلم بنى آدم !

ولأمير الشعراء احمد شوقى قصيدة شهيرة عن الأسد الذى مات وزيره فاختار حمارا ليكون مستشاره فخرب الدنيا وثارت الحيوانات ..

يقول شوقى :

الليث ملك القفار
وما تضم من الصحارى
سعت اليه الرعايا
يوما بكل انكسار
قالت : تعيش وتبقى
يا دامي الأظفار
مات الوزير فمن ذا
يسوس امر الضوارى
قال : الحمار وزيرى

قضى بهذا اختيارى
فاستضحكت ثم قالت :
ماذا رأى فى الحمار ؟
وخلفته وطارت
بمضحك الاخبار
حتى اذا الشهر ولى
كليله او نهار
لم يشعر الليث الا
وملكه فى دمار
القرد عند اليمين
والكلب عند اليسار
والقط بين يديه
يلهو بعظمة فار
فقال : من فى جدودى
مثلى عظيم الوقار ؟
اين اقتدارى وبطشى
وهيبتى واعتبارى
فجاءه القرد سرا
وقال بعد اعتذار :
يا عالى الجاه فينا
كن عالى الانظار
رأى الرعية فيكم
من رأيكم فى الحمار !

ولكن السيد جاد ـ ذلك الحمار القاهرى ـ اعظم من كل هذه الحيوانات . وان لم يقل كلمة واحدة .. ولكن الذى فعله دون كلام ابلغ من كل كلام . فليس صحيحا ان الحمار « حمار » بمعنى لا يفهم .. ولكنه ذكى يتكلم بلسان الانسان ، وهو فى نفس الوقت يحتمى فى انه حمار لا يفهم ـ او مفروض ذلك !

والتقط توفيق الحكيم هذا الحمار من حوارى القاهرة وجعله رفيقا له .. والحوار بينهما لا ينتهى .. فالقول ما قال الحمار .. وكثيرا ما قال الحمار كلاما

اعمق واجمل مما يقوله الناس .

ويكون المعنى : انه حتى الحمار يرفض هذا ، حتى الحمار يرى كذا وكذا فى السياسة والادب والفن وعن معنى الحياة ومعنى الموت ..

والحكيم له مقالات طويلة وكتب موضوعها : حمارى قال لى .. انا وحمارى .. حمار الحكيم - اى الحمار الذى يملكه توفيق الحكيم .. أو توفيق الحكيم حمارا .. فهذا الحمار هو من صنع ومن صوت توفيق الحكيم .. ولا فرق بينهما . فحمار الحكيم ، حكيم الحمير ..

ومن ثلاثين عاما قرر توفيق الحكيم ان يشترى حمارا . وان يضعه فى حديقة المجلس الأعلى للفنون فى الزمالك .. وسار الحكيم على قدميه حتى امبابة .. وذهب الى سوق الحمير .. وانتقى جحشا صغيرا . وطلب الى التاجر ان يأتى به الى مجلس الفنون .. وجاء الحمار الى حديقة المجلس . والتقطت الصور لهما .

وكان من رأى الحكيم ان يتأمل الناس صورة هذا الحيوان الطيب الصبور الجميل ايضا . فاذا نظر اليه الناس طويلا قرروا ان يحتفظوا بصفاته فقط .. اما الباقى فهو الذى تحتمه الانسانية .. مثل طلب العلم والتطوير والتغيير وعدم الرضا بالقليل .. وان يقولوا : لا .. اكثر مما يقولون : نعم .. الحمار نفسه لا يقول : نعم طول الوقت .. احيانا يهز رأسه ويهز ذيله .. والمعنى : لا .. واحيانا يرفس .. ومعناها .. لا بمنتهى العنف !

كان من رأى الحكيم : ان كل فنان او مفكر له حيوان مفضل .. هذا الحيوان يطل عليه من الصفحات .. فهو يتصوره ويبعث فيه الحياة ويراه امامه على الورق .. فأدباء يرون الافاعى .. واخرون يرون الذئاب .. وفلاسفة يتخيلون الحيتان .. وبعضهم النمل والنحل .. والكلاب والاسود والابل والخيول .. ولو استطاع الحكيم ان يجعل حماره يظهر على المسرح لجعله البطل الدائم لكل مسرحياته ورواياته وافلامه !

ويجب ان يكون الحمار واحدا فقط على المسرح وواحدا بين المتفرجين .. اما ملء المسرح بالحمير ومقاعد المتفرجين ، فليس فنا ولا فكرا .. وانما هو تجريد الفن من الحكمة ، والمتفرجين من اليقظة ..

ولذلك فمسرح العبث الذى انتشر فى الخمسينات فى اوروبا والستينات فى مصر ، هو : افتراض ان الممثل ليس من الضرورى ان يقول كلاما له معنى .. ولا من الضرورى ان يفهم المتفرج .. لأنه لا معنى ولا ضرورة للكلام .. اى لا

دور للأدب ، ولا وظيفة للمسرح !
أى لا امل فى شىء او احد !
وهناك نوعان من العبث :
العبث ـ الحزين اى فقدان المعنى ـ الذى عرفته المسارح الاوروبية وكذلك الفلسفة الوجودية ، بعد الحرب العالمية الثانية .. وهو عبث كئيب اسود .. تحولت فيه المسارح الى « أحواش قرافة » .. فكل شىء ميت .. المعنى والهدف والأمل .. المؤلف والممثل والمتفرج . كله مات . وليست هذه الاعمال المسرحية الا تأبينا للانسان ضحية الانسان ، امس واليوم وغدا ـ ان كان سيأتى غد وبعد غد ؟ !
ثم هذا « العبث الضاحك » .. اى الذى على مسارحنا الآن .. فالكل يضحك من الكل يأسا من الكل !
فالمسارح كلها اطلقت الحمير فى كل مكان..
فالمسارح كلها تسخر من « السلطة » .. من قوة السلطة الغاشمة الجاهلة ..
ومن التليفزيون والصحافة لأنهما سلطة أروع ـ أى رائعة ـ ومروعة أيضا ..
وتتبارى المسارح كلها فى البحث عن فتحات أكبر فى حائط الممنوع دخولا إلى الحاكم فى ملابس نومه أو بغير ملابس .. وكل المسارح حريصة على توسيع هذه الفتحة . وكل المسارح تلف وتدور حول الحاكم حول اسمه ورسمه وجسمه .
ثم ان هذه المسارح تتابع الأحداث يوما بيوم ، وتعلق على الأخبار .. ولذلك فالمسارح تلاحق الصحف وتهاجمها ، وتلاحق التليفزيون وتسخر منه .. ولذلك يمكن مشاهدة المسرحية الواحدة أكثر من مرة .. لأنها دائمة التغير .. تمشيا مع الأحداث اليومية المحلية والعالمية ..
و « الصعايده » يقومون بدور الهنود الحمر ورعاة البقر .. فهم نموذج للسذاجة والخشونة والشجاعة والدم .. فالصعيدى انسان طيب ولكنه غليظ الكلام والملبس والسلوك . كما أنه انسان عنيد شجاع . لايسكت على الظلم ويموت من أجل الثار ـ تماما كرعاة البقر الامريكان الذين يعيشون على ظهور الخيل ويجرون العربات ، كأنه لاتوجد سيارات أو طائرات ويطلقون النار فى كل الاتجاهات ويتركون قتلاهم كأنه لاحكومة ولا دولة ..
وزوجاتهم أيضا ـ مثل زوجات الصعايدة ـ فيهن شجاعة وعندهن رأى وقرار ـ وقدرة واقتدار على مسار الأحداث ! ..

ولاشك أننا نحسد الصعايدة .. تماما كما يتمنى الامريكان والاوروبيون : بساطة رعاة البقر .. والصعايدة هم عمال البناء ورصف الطرق وشحن السفن وتفريغها وتجار الفاكهة والروبابكيا .. وهم البوابون والسفرجية وهم العقاد وطه حسين وهم أكثر المصريين حرصا على اللهجة والتقاليد .. يسافرون إلى الخارج ويعودون وقد تنورت عقولهم ، ولكن ألسنتهم لم تتغير ..

ونحن طلبة كنا نجد متعة فى الاستماع إلى محاضرات العالم الكبير د . أحمد بدوى فالرجل تخصص فى التاريخ الفرعونى وتعلم فى ألمانيا .. ولكنه يجول ويجول - أى يقول ويقول - بجه لما أجول لك - أى بقى لما أقول لك ..

وأمتع ماكنا نحرص عليه فى ذلك الوقت عندما يناقش د . أحمد بدوى رسائل الماجستير والدكتوراة .. كنا نضحك ونندهش . فهو يقول مثلا : جابلنى بجه على صفحة كذا .. جابلنى بجه على الصفحة .. أدلى بجه فى الهامش .. وترجمة هذه الكلمات : قابلنى بقه على صفحة كذا .. قابلنى على الصفحة .. انزل بقى فى الهامش ! ..

وكذلك د . فؤاد حسنين أستاذ أساتذة اللغات الشرقية - كان يعرف ١٩ لغة قديمة وحديثة .. وفى يوم هاجم اللصوص الفيلا التى يسكنها بالمعادى .. واستطاع أن يمسك بأحد اللصوص .. ودخل به القسم ورأى مأمور القسم رجلا حافيا بجلباب أبيض وطاقية وفى يده عصا غليظة .. وشابا أنيقا .. فنظر المأمور إلى الشاب يسأله : وأين وجدت هذا اللص !

فغضب د . فؤاد حسنين وهو يقول : بجه هو اللص وأنا اللى معايا رجله .. وترجمتها : بقى هو اللص وأنا اللى معايا عصا !

واعتذر المأمور فقد اختلط عليه الأمر .. فقد ظن أن د . فؤاد حسنين هو اللص الصعيدى !

وعلى الرغم من انتشار الصعايدة فى كل مكان ، فإننا لم نستطع أن نتقن اللهجة الصعيدية .. لاعندنا وقت ، ولا يهمنا ذلك .. وانما المهم أن يضحك الناس والسلام !

فما الذى نراه فى مسارحنا .. وما الذى تراه مسارحنا فينا .. وأين الحمار .. وهل هو حمار واحد أو أكثر من حمار ؟

ولا اعتراض على الضحك .. لأن الضحك هدف .. والفن قضية فى داخل المسرح .. أو فى داخل الكتاب . الفنان لايستطيع أن يكون طبيبا يعالج

الأمراض .. ولا أن يكون مهندسا يقيم البيوت والجسور . وانما معركة الفنان فى داخل الفن .. فى داخل العمل الفنى .. فى الكتاب .. فى المسرح .. فى اللوحة .. فى التمثال ..

ويجب أن نفرق بسرعة بين ما يقال : الفن للفن .. والفن للناس ..

فنحن نقول الفن للفن .. مثل التفكير للتفكير .. الكلام للكلام .. فقط أن نتناقش .. وأن نتكلم .. وأن نستغرق فى كل هذا .. ولا نذهب إلى أبعد من ذلك .

وفى القرن الثامن عشر فى روسيا ترددت العبارة الشهيرة للناقد الروسى بلنسكى .. ولكننا لم نثبت بعد أن كان الله موجودا ، فكيف ننهض إلى الطعام !!

كان من الممكن اثبات أو نفى ذلك فى الدقائق السابقة على الطعام ـ فالكلام للكلام أهم من الطعام !

والفن للفن هو شريعة الهواة ..

ولكن الفن للناس .. أى لراحة الناس .. واصلاح الناس .. وتغيير مسار الحياة .. أو مساعدة الناس على اصلاح حالهم ، وعدم الرضا عنها . والسخط والثورة على كل شىء بما فى ذلك الفن الذى فتح عيونهم على السخط ـ أى أن يثور الفن على نفسه وعلى الذين ساعدوه على تغيير الأوضاع وعلى أشعال الثورة ..

والثورة الفرنسية قد قامت على أفكار الفلاسفة مثل فولتير وروسو . فقد دعوا للحرية الفردية وأصالة الانسان وكرامة الانسان ..

ولو عاد هؤلاء الفلاسفة إلى آرائهم ونشروها بعد الثورة ، لاعدمتهم الثورة بتهمة الخروج عليها !

وقد ظهر فى سنوات الثورة الفرنسية أكثر من ألفى مسرحية .. وكلها لاقيمة لها .. فقد فرضت عليها الثورة رقابتها الحديدية ..

ثم تنكرت الثورة لكل المبادىء التى قامت عليها ومن أجلها !

وقد أعترف ثوار يوليو ١٩٥٢ بأنهم تأثروا برواية توفيق الحكيم « عودة الروح » كلهم ادعوا ذلك ؟ !!

ولكن عندما أعاد توفيق الحكيم نشر بعض ماجاء فى « عودة الروح » . وجعل له عنوانا « عودة الوعى » غضبت عليه الثورة .. مع أنه لم يأت بجديد .. وأنما فقط ردد ماكان قد قاله .. قبل الثورة ! .

وفى رواية « الأخوة كرامازوف » للأديب العظيم دستويفسكى تلك الحادثة العظيمة الدلالة : أن المسيح عليه السلام ظهر فى مدينة أشبيلية فجأة .

فانصرف الناس عن الصلاة فى الكنائس وساروا وراءه .. فجاءه الكاردينال يطلب إليه أن يخرج وإلا سجنه بتهمة الخروج على المسيحية .. فقد كان الكاردينال يرتدى ملابسه القرمزية الحريرية الذهبية الضخمة ..وله كرش عظيمة .. بينما المسيح يمشى حافيا عارى الصدر ..

وقال له الكاردينال : لقد تعذبنا كثيرا من أجل نشر دينك والدفاع عنه .. وتجىء أنت اليوم وتقول لنا : لن يدخل الجنة غنى إلا إذا دخل الجمل فى عين الابرة .. ان الأغنياء ياسيدى هم الذى أقاموا الكنيسة ودفعوا مرتباتنا وجهزوا الجيوش الصليبية للدفاع عن دينك .. أخرج الأن فورا والا أعدت صلبك بتهمة الكفر بالمسيحية !!

* * *

* * *

وهذا الضحك الذى هو عبث معناه : أن لاهدف من وراء الفن الجارح ليلا ونهارا . لاشىء إلا هذه التعرية .. لا أكثر ولا أقل وان كانت المسارح كلها توهم المتفرج أن لها هدفا آخر وراء هذا الضحك .. والحقيقة أنه لاشىء غير ذلك !

ففى نفس الوقت لانجد احدا يتردد على المسارح الجادة أى مسارح الدولة أى المسارح الملتزمة بسياسة الدولة ..

وان كانت الصحف الملتزمة بسياسة الدولة تعارض الدولة وتنقدها أيضا . لأن النقد مباح . ولان حرية الرأى مكفولة للمؤيد والمعارض .. ولأن صحف المعارضة تلقى اقبالا فصحف الدولة تنافسها فى نقد الدولة ..

فنحن ـ اذن ـ أمام معارضة للدولة من كل الصحف وكل المسارح ..

وكانت المعارضة فى الخمسينات والستينات خارج مصر .. فى الصحف العربية والقصائد العربية والاذاعات الأجنبية .. فالذى يريد أن يعرف الحقيقة ، عليه أن يقرأ ويسمع مايقال حول مصر وليس فى مصر .. حتى المصريون الذين اختاروا البلاد العربية كان لابد أن يهاجموا مصر . لأن هذا هو الطعام المطلوب والشراب اللذيذ ..

ولكن عندما أطلقت كل الحريات فى مصر فى عهد السادات ومبارك استقرت المعارضة فى صحف ومسارح مصر .. وعاد الكتاب الذين كانوا يقومون بدور « الفاكهة المحرمة » .. وأصبحوا فجلا وجرجيرا فى مصر .. كانوا أبطالا هناك فأصبحوا كومبارسا هنا ..

والقناة الثالثة فى التليفزيون المصرى هى المعارضة الملونة فى داخل النظام .. ففى القناة الثالثة ترى وتسمع ما لاتجد فى أكثر الصحافة نقدا للدولة . ولكن القناة الثالثة تعرض وتناقش وتستدعى .. والهدف : النقد والاصلاح .. حرية النقد والدعوة إلى الاصلاح فى داخل النظام ومن أجله ..

والمسارح المضحكة قطاع خاص .. ونجاحها دليل على قوة القطاع الخاص لان الفنان فردى بتكوينه .. انه يختلف عن المهندس والطبيب .. فالمهندس يكون فرديا عندما يتخصص . ولكن الفنان فردى الرأى والرؤية وكذلك الممثل والمخرج . فالمسرح قطاع خاص خاص ونجاحه لهذا السبب .

ولذلك فالمسرح الخاص لايمكن اذاعته من التليفزيون لانه مسرح عريان ولانه يلعن التليفزيون الذى من الممكن ان يذيعه .. وكما أن الرقص العريان المثير ممنوع فى التليفزيون ، فكذلك الاغنيات العارية : للمطرب أحمد عدوية وغيره .. ومعظم هذه المسرحيات الهزلية مكشوفة بلا سوتيان ولابنطلون ..

ومن ثلاثين عاما عرفنا « بدلة يحيى حقى » .. فعندما كان الاستاذ يحيى حقى مديرا للفنون اصدر قرارا بان تتغطى الراقصات .. فارتدت الراقصات بدلة شرعية .. غطت بطنها ومعظم ساقيها .. ورقصت .. فاذا نسيت ذلك هاجمها رجال الامن ..

ولكن كيف يضع الممثل والمؤلف بدلة يحيى حقى على لسانه ؟ ! وقد هاجمت جميع راقصات مصر الاستاذ الكبير يحيى حقى .. لانه توسع كثيرا جدا فى وضع اوراق التوت على اجساد الراقصات ..

ووجدت الراقصات اسلوبا للهرب .. فارتدين البدلة الشرعية وخرجن من البدلة بحركات جنسية غير شرعية .. واصبح من الصعب وضع قوالب من الحديد على اجساد الراقصات حتى لاتتلوى وتتأوه والمتفرجون ايضا ـ انها نفس الصعوبة التى تواجه كل من يفكر فى تغطية المسرحيات العارية لاذاعتها من التليفزيون !

هذا ـ اذن ـ هو العبث فى صورة اخرى فى صورة هزلية تمتهن المتفرج والممثل والمؤلف معا . وتؤكد له انه لا امل فى اصلاح او علاج .. وانه لامعنى للعلاج او مجرد التفكير فى ذلك . فهذه المسارح كلها لاتدل على التفاؤل وانما على قمة والشارع القديم يقول : شر البلية مايضحك .

ويقول : ولكنه ضحك كالبكا ! فالذى يضحك من عيوبنا ومنا ومن

مستقبلنا .. كالذى يبكى على عيوبنا التي توارثناها والتى سوف نورثها لاجيالنا القادمة .

فالضحك يشيع فيك السلبية . والبكاء يشيع فيك السلبية ايضا . ولاشىء يدل على اننا مصريون الا هذه المسارح الهزلية وشوارع المدن الجديدة .. فالمسارح اختارت موضوعا واحدا تتناوله باشكال والوان واصوات واجساد مختلفة هو هو ..

انه مجرى ضيق بين الممثل والمتفرج .. فلا يكاد يظهر فيلم عن الحشيش حتى يظهر ثان وثالث ، حتى يضيق به الناس .. ويشعر الناس انها نكتة مكررة بايخة ..

وكذلك المجتمعات الجديدة تتشابه جميعا فى شىء واحد .. اذهب وتفرج على شاطىء زهراء العجمى .. وعلى كل المدن الجديدة .. كلها فى الصحراء ولكن الشوارع ضيقة كأنها اقيمت فى احدى الجزر الصغيرة .

فالمسرحيات كلها تنساب فى مجرى ضيق .. وكذلك سكان المدن الجديدة يتحركون فى « حوار » ضيقة . لماذا ؟

انه المزاج المصرى الذى يحب ان ينحشر فى البيت وفى الشارع .. ثم يلعن البيت والشارع .. كان الضيق بكل شىء هو الهدف من اى شىء .. فنحن حريصون على ان نظل فى ضيق .. فى ضيق .. فى المسرح ومن المسرح ، وفى المدن والمجتمعات الجديدة !

وكما ان نقد الافلام المتكررة والمسرحيات المتكررة لايمنع من تكرارها مرات ومرات .. تماما مثل نقد الشوارع الضيقة فى المدن الجديدة التى تقام فى الصحارى ، لم يمنع تكرارها .. كان احدا لايأخذ النقد ماخذا جادا . بل لاتأخذه بجدية . فلا المسارح جادة . ولا النقد جاد . ولا المؤلف ولا الممثل .. ولا المشاهد وهذه هى قمة العبث .. وقاع اليأس ! فعلا - نحن غارقون فى الضحك - أى أننا ضحكنا ونضحك حتى غرقنا فى أنفسنا وبأنفسنا !

كان الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور يضيق بالذين يتهمون فلسفته بالغموض وكان يقول : هل فى كل مرة يمسك أحد كتابا من كتبى ثم يسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا هو صوت المؤلف دائما ؟ !

معك حق .. انه ليس صوت المؤلف دائما . وانما صوت المتفرج والممثل والمخرج والناقد !

ولو تكلم المسرح لما وجد فى وصف نفسه كلاما افضل من الذى قاله الشاعر الحطيئة . قال فى وصف نفسه :

ابت شفتاى اليوم الا تكلما . بشر ، فما ادرى لمن انا قائلة ..
ارى لى وجها شوه الله خلقه . فقبح من وجه وقبح حامله !!

واحدة من تلك الليالي

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٣ مدينة بورتو فينو ـ على ساحل الريفيرا الايطالية ـ فندق بلافستا الغرفة رقم ٣٤٥ ـ السرير الذى على يمينك .. وهذا الكوم من البطاطين يتحرك تحته فى قلق شديد يرتعش من البرد : أنا .. وفى جيبى ورقة مطبوعة عن مواليد برج الأسد .. البرج يقول : هذا العام بداية قوية سريعة دافئة سعيدة يابختك !

كنا سبعة تفرقنا ليلة رأس السنة .. طبعا .. ولم نتناقش فى أسباب ذلك . ولكن الأسباب معروفة لدينا .. واسعدنى أن نفترق . فقد عشنا طويلا معا . لم يعد لدينا جديد نراه ونقوله ..

ماذا قال الفيلسوف نيتشه ؟ قال : ان العباقرة هم الذين يعيشون فى القمم الباردة .. كل واحد قمة .. والمسافات بيننا تتسع بمرور الوقت .. والبرودة مع العزلة والحرية اشرف من دفء الخنادق والزنازين والتصاق الاجسام مع رائحة العرق !

اذن لتكن هذه الليلة هى بداية القمم الباردة .. فكل ما فى الدنيا كذب فى كذب .. أنا الحقيقة الوحيدة .. أنا حقيقتى المؤكدة .. فلتكن سهرتى مع كل ما هو يقين وما هو مؤكد ـ قالها الفيلسوف نيتشه أيضا ! .

اذن لابد أن أجد عذرا اهرب به من الصديق الوحيد الذى لن يجىء ولكنه سوف يرسل لى سيارته ، ليكون عامنا الجديد سعيدا مع عدد من طلبة جامعة روما .. طلبة قسم الفلسفة .. كلهم فلاسفة .. لغتنا واحدة .. قضايانا واحدة .. ومشاكلنا .. ولسنا فى حاجة الى كلام كثير ليفهم كل منا الأخر .. ولكنى لا أريد لا فلاسفة ولا طلبة .. ولا أحب أن التقى ، فى هذه الليلة ، بهذا الطراز من الناس . انهم يجعلوننى أحس كأننى أرى نفسى فى المرآة .. ان لم يكونوا مثلى تماما .. فهم مثلى تقريبا . وأنا لا أريد ان أكون حتى مع نفسى .. أريد أحدا يسلبنى من نفسى .. يسرقنى .. يخطفنى .. يضيعنى فلا اعرف من هو ولا من أنا .. ولا أين ولا متى .. لقد تعبنا من تقليب أنفسنا .. ولا نريد أن نجد أنفسنا .. نريدها ان نضيع ونحن معها .. وان يولد عام جديد ، دون أن ندرى ،

وان نولد من جديد ..

المهم ان اهرب من هذا الصديق .. انه انسان طيب . ولكنى مللت الطيبة والصداقة والزمالة .. واللغة الواحدة .. واحساسى بأننى طفل يستحق عناية الجميع ..

ماذا قال الفيلسوف شوبنهور ؟ قال : ولا حتى اعز الناس اليك يساوى ان تضحى من أجله .. امك مثلا ؟ انها ليست احسن الناس ولا أصدق الناس .. وإذا كانت حين رأتك دمعت عيناها .. فالكلاب تفعل ذلك والقطط والتماسيح .. انها غريزة الأمومة الحيوانية .. ولكن الأمهات تلد وتموت أبناؤها وهى لا تموت .. وتلد من جديد .. كأنها ما ولدت ولا تعذبت .. والمولود القديم .. وكل امرأة تحاول أن تؤكد لك انها أمك .. أحب الناس اليك .. وفى اللحظة التى تحس انك طفلها تنقلب الى افعى تلتف حولك .. وتنفث سمها .. لتصبح ضحيتها .. فلتكن على مسافة واحترس .. فكل أم كانت زوجة .. وكانت محبوبة .. وكانت عاشقة قبل ذلك .. وفى الوقت المناسب تظهر العاشقة والخائنة ! ! .

اذن سوف اجلس بعيدا اتفرج واراجع تطبيق نظرية شوبنهور على هذا العدد الهائل من الجميلات .. جميلات فعلا .. حيوية وشباب ودلال .. ما هذا الذى فى العيون .. فى الصدور .. ما هذا الذى عندما تغطيه المرأة تكشفه ، لانها تريدك ان ترى .. فاذا ضبطتك وانت ترى .. احمر وجهها .. مع انها تقصد ان تلفت العين وتستدرج الايدى ..

وماذا قال عالم النفس فرويد قال : كل شىء له معنى جنسى . كل شىء . اعطنى اية كلمة .. اى تعبير .. اى شىء يتناوله الانسان كطعامه او شرابه .. وانا اجد له المعنى الجنسى الحقيقى والذى نحن نتستر عليه .. لكى نقنع انفسنا وغيرنا اننا اناس مهذبون . مع ان التهذيب معناه : ان نضع على الحقيقة الفاضحة منديلا ورديا رقيقا .. نغطيها ولا نخفيها .. بل نغطيها لنلفت اليها العيون اكثر : وهكذا الفستان والسوتيان والمايوه ..

وقد سأله احد تلامذته : تقصد سيادتك كل شىء له معنى جنسى ؟

قال : نعم كل شىء .. عاد الطالب يسأله : كل شىء .. قال فرويد : اى شىء وكل شىء حتى هذا السؤال .. حتى سؤالك هذا له معنى جنسى .. لانك تريد ان تسألنى ان كانت ملابس الراهبات لها دلالة جنسية .. نعم لها دلالة .. فالاسود

يرمز الى « التعتيم » التام على كل جسمها .. والابيض حول رأسها يرمز الى النور والفضيلة والتوبة والسلام الذى تعيش فيه .. والذى تدعو كل الناس اليه .. ولكن من الذى عرفها بكل ذلك ان لم تكن هى رأته أو مارسته .. ان الراهبات مثلنا تماما ، يعرفن ويسكتن ونحن ايضا نعرف ونسكت .. وانت بالذات لان لك اختا راهبة .. وأنت كنت تحبها .. وانك لا تزال تحبها ، وهى التى تشغلك ليلا ونهارا .. اليس هذا هو شعورك ؟

وهز الطالب رأسه بان هذا شعوره بالضبط .. وانه لا يعرف كيف يتخلص من هذه المشاكل .

قال الاستاذ فرويد : ولماذا تتخلص من كل ذلك .. فالطعام له مشاكل .. والماء والنوم والسهر كل شىء له مشكلة .. ولكن لابد من كل شىء ..

« يخص » عليك يا استاذ فرويد لقد افسدت كل هذه الابتسامات الساحرة .. افسدت هذا الجمال .. هذه اللوحات البديعة .. هذه التماثيل .. كم ساعة جلست كل واحدة امام المرآة وعند الحلاق وعند الخياط .. ووحدها تحت الدش وفى البانيو .. ونظرت الى نفسها عارية .. الى هنا والى هناك .. وخصوصا الى هناك ثم الى هنا .. وتخيلت عيون الرجال .. وعين حبيبها بالذات ..

ولكنى لست واحدا من كل هؤلاء الرجال .. فانا بصعوبة وجدت منضدة فى أحد الأركان .. منضدة صغيرة . موقع يرى كل الداخلين والخارجين .. وان كان الجميع يدخلون ويفسح بعضهم لبعض المكان والطريق .. والوجوه مثل المصابيح كلها مضاءة .. وكلها وردية .. حتى الزجاجات من كل حجم ولون .. مثل العيون والخدود والماس على الصدور وفى الأصابع .. والأذرع والسيقان .. فى نعومة الأكواب والكاسات وفى لمعان الشوك والسكاكين .. وانا هناك بعيدا كاننى احسب ما يأكل وما يشرب الناس .. او كأننى ضمير طردوه بعيدا .. فهذه الليلة يجب ان ينام فيها الضمير .. ويصحو على مهل غدا .. او كأننى حسود عزول احترم نفسه فتزحزح وانسحب متخفيا فى آخر فندق .. أو كأننى لست هناك .. لا وجود لى ..

فماذا قال فيلسوف الوجودية سارتر : نعمة كبرى .. ان تكون والا تكون .. فاقصى درجات الحرية الا تكون ملفتا للعين او للأذن .. تقول ما يعجبك ولا يحاسبك احد .. كأنك وحدك فى هذه الدنيا .. او كأنك صنعت الدنيا على مزاجك .. جعلت كل الناس خدامين السيادة ونزعت لسان كل واحد منهم ..

وفقأت عينه وسددت اذني ..

ثم قلت وفعلت ما بدالك .. فلا احد يحاسبك على شيء ..

ووجدت نفسي في الركن تماما كما قال الفيلسوف سارتر .. ورحت اجرب هذه الحرية فقلت بصوت مرتفع : ياللى كان يشجيك انينى ..

ونظر بعض الناس بالقرب منى ولم يفهموا .. وعدت اقول : الاولة في الغرام .. والثانية والثالثة من غير ميعاد راحو وفاتونى !.

وتعالت الأصوات ولم يعد احد يسمعنى . فوقفت فوق المقعد ثم فوق الترابيزة .. ونظر بعض الناس ولم يعرفوا ما الذى اريده بالضبط .. وكان في نيتي أن أقول نكتة بالعربية ولكن شعرت بانني تجاوزت حدود السخافة والعبث الوجودى .. فانا اعرف مقدما ان احدا لا يفهم . ولكن ما هو شعورى أمام نفسى وانا ارتكب هذه العباطات باسم الفلسفة الوجودية .. واجعل من نفسى واحدا من فئران وقطط وكلاب المعامل فكل ذلك استطيع ان اعمله دون ان ابهدل نفسى هكذا ..

يقول الفيلسوف الوجودى البير كامى : ليس قبل ان يتأكد لديك انك سخيف ، تستطيع ان تتحدث عن حريتك في ان يكون لك معنى ولك دور في هذه الحياة .!

ياسيدى احسست فعلا اننى سخيف .. ولكن لا اعرف ماهو دورى كل الذى اعرفه هو انه من الممكن ان اشارك في سهرة جميلة بديعة .. وان اغنى وان أرقص وان أكون لحنا وآلة موسيقية وان وان .. ولكن حاولت ان اتفلسف فازداد احساسى بانه ليس اسخف من الفلاسفة في مثل هذه الليلة . ان سارتر نصف اعمى وكامى نصف اطرش .. وشوبنهور نصف اعرج .. ونيتشه نصف مجنون .. فاية قدرة لدى هؤلاء العظماء على ان يجدوا المتعة بين هؤلاء الناس العقلاء الاسوياء ؟!

اذن .. ملعونة الفلسفة والفلاسفة فهؤلاء الناس الذين امامى سعداء .. دون تفكير في أية نظرية يطبقونها .. سعداء لان السعادة ارادة .. كما ان التعاسة ارادة .. خرجوا من بيوتهم وفى نيتهم ان يضحكوا .. بل انهم قرروا المرح والمتعة منذ ايام .. استعدوا جميعا لذلك .. وهذا الذى امامهم هو ادوات السعادة .. وفى هذه الليلة لست في حاجة الى نكتة لكى تضحك .. ولا الى روشتة طبيب لكى تتبخر همومك .. وتتخلص منها وتعرفها .. ولست في حاجة الى كشف

حساب يقول لك : ان لك ملايين فى البنك ومثلها تحت البلاطة .. ولا فى حاجة الى قارىء كف او قارئة فنجان او ضاربة ودع لكى تقول لك : غدا اسعد يوم فى حياتك ..

واحسست بالبرد الشديد .. فالمطر غزير .. والرياح عاصفة .. وركن القاعة الجميلة بارد جدا .. ثم اننى احرق نفسى وابدد طاقتى .. ولذلك قررت ان انسحب نهائيا .. واستقبل العام الجديد نائما .. او وانا احلم بكل هذا الذى رأيت .. وهذه الاحلام هى وحدها التى تجعلنى انام بعمق ..

فماذا قال فرويد ؟ قال : ان كل انسان يحلم .. كل يوم .. ولكنه عندما يصحو فانه ينسى احلامه .. والاحلام هى تعويض يومى عن الذى فقده الانسان فى اليقظة .. فالاحلام تعوضنا عن خسائرنا ومتاعبنا وبهذا التعويض نسعد وننام ! ..

المشكلة الأولى : الغرفة بغير النزيف اليومى .. لم ألاحظ ذلك من قبل !

المشكلة الثانية : بها بطانية واحدة .. وانا لا يكفينى فى مثل هذا الجو البارد اقل من خمس بطاطين او عشر فانا لا اضيق ابدا بالاغطية مهما كانت كثيفة او ثقيلة ..

المشكلة الثالثة : اننى لو فكرت فى أن اطلب من أى انسان ان يعطينى بطانية فان احدا لن يفعل .. وسوف يظن اننى سكران على الآخر .. واننى سوف اتغطى بالبطانية فى المطبخ .. او سوف الفها حول احدى الجميلات واخطفها او اخنقها .. او اننى سوف اخلع ملابسى كلها واتغطى بالبطانية .. ولو تسللت الى احدى الغرف المجاورة اجمع البطاطين فمن يدرى ماذا يقال وماذا يحدث .. وكيف تمضى تلك الليلة ..

المشكلة الرابعة : المكان الوحيد الذى يمكن ان أنام فيه يقع الى جوار باب الفندق .. فالى جوار الباب توجد غرفة صغيرة يتركون فيها البلاطى وفراء السيدات بالمئات .. آه .. لو القوا كل هذه الملابس الدافئة وتركونى أنام حتى الصباح .. ادفأ وانعم وارقى وارق ليلة .. ولكن كيف ؟ .

المشكلة الخامسة : كيف اتمارض لينقلونى الى احد المستشفيات .. فأنام فى غرفة دافئة حتى الصباح .. ولكن نفرض اننى تمارضت .. فما هو نو المرض .. معدة .. قلب .. مخ .. امعاء .. ومن الذى ينقلنى الى المستشفى واذا نقلونى فسوف يتركونى حتى الصباح لأن الاطباء سهرانون جميع

وماذا يحدث لو وقعت فى يدى طبيب شاب وجدنى « لقطة » وراح يتسلى بى .. ولابد أن يكون فى غاية الضيق لان الدنيا كلها تأكل وتشرب وترقص وهو ، لأنه ما يزال صغيرا ، تركوه فى المستشفى .. وسوف اكون احد ضحاياه ..

ودون حسم لكل هذه المشاكل اندفعت الى الدور الارضى .. الى القاعة الكبرى .. حيث الناس قد تحولوا الى اناس اخرين .. ارق .. الطف .. اقل قدرة على تمييز بعضهم البعض .. فوجدت من يدعونى الى ان اجلس معه .. جلست .. اقترب منى ليقول لى : معك زوجتك ؟

قلت : لا ..

قال : عاقل !

قلت : وانت ؟

قال : مغفل !

قلت : لماذا ؟

قال : لان زوجتى جاءت مع عشيقها وأشار والكاس فى يده الى سيدة جميلة تعانق رجلا تريد أن تنفذ من قفصه الصدرى ..

قلت : ولماذا لا تقوم وتضربها قلمين ؟

قال : ابوس ايدك .. اضربها نيابة عنى ! انها تحب الرجل الذى يضربها بالجزمة .. صدقنى ..اقسم على ما اقوله .. جرب .. لا تخف ..

فنهضت لا اعرف كيف .. واقتربت منها .. وابعدتها عن الرجل الآخر .. واندهشت هى .. وفزع الرجل الذى كان مخمورا جدا .. وقلت لها : عندى رسالة اريد ان ابلغها لك !! (وصفعتها على خدها .. وكأننى اصفع الدنيا كلها) ..

ونهض الزوج وقد انحنى ورفع كأس الشمبانيا : فى صحة اشجع رجل فى العالم !

بمنتهى الصراحة احسست اننى انما صفعت نفسى بكل قوتى .. فانا دايخ وقلت : للرجل : اسم سيادتك ايه .. شوبنهور .. نيتشه .. سارتر .. افلاطون .. شمشون الجبار ..

قال : بل انت شمشمون .. ولحسن حظك .. انك شمشمون بلا دليلة .. ولكن سوف تكون لك دليلة .. فالله عندما خلق شمشمون خلق له دليلة لكى تهدمه ..

ونظرت الى زوجته التى ما تزال ترقص .. ثم لاحظت انها تحنى رأسها لى ..

وكأنها سعيدة بما حدث .. فهل اقوم واضربها قلما اخر لاضاعف سعادتها وسعادة زوجها ..

قال الاديب الفرنسي استندال : لا تضرب المرأة بوردة .. اضربها بشجرة ورد !

وقال استندال : القبلة ليست الا ما تبقى من عملية قديمة .. كان الرجل يأكل شفتي المرأة .. لكي يميزها عن النساء الأخريات .. ولكن الرجل عندما عجز عن اقتناء عشرات النساء لم يعد فى حاجة الى ان يترك اثرا فى شفتيها أو أى مكان اخر من جسمها .. فالقبلة هى الرمز الباقى !

قال زوجها : الآن تستطيع ان تفعل ما عجزت عن فعله من عشر سنين .. اذهب اليها وعانقها اجعل الدم ينزف من شفتيها !

★★★

الان استطيع ان اذهب الى المستشفى ، فقد احسست بالقرف والمغص المفاجىء وضيق النفس والعرق .. فقلت للرجل : ارجوك ان تساعدنى لكى اذهب الى غرفتى ؟

قال : غرفتك انت .. ولماذا ؟ وبشجاعة لا اعرف من اين جاءتنى سددت فمه بالفوطة !

★★★

★★★

كيف مضى الوقت بهذه السرعة .. كيف وجدت الطريق الى غرفتى مفروشا بالبطاطين .. لسبب لا اعرفه لاحظت ان كل من يدخل غرفة ، يلقى بالبطانية امام الباب .. ثم يغلق الباب .. شىء غريب .. وجمعت عددا من البطاطين واسعدنى ذلك ..

ووضعت احدى البطاطين تحت « عقب » الباب .. وعلى السرير بطانية .. وعلى المخدة .. وعلى الأرض أمام السرير .. آه لو استطيع ان اغطى الجدران والسقف .. وبملابسى كاملة القيت بنفسى فوق السرير .. وفوقى بقية البطاطين .. وخلعت حذائى .. والكرافته .. ووضعت جواز السفر تحت المخدة .. واكتشفت اننى نزلت القاعة الكبرى ونسيت فلوسى .. وكان الدفء جميلا .. ولكن النوم لا يجىء .. فالموسيقى عاوية والصرخات .. والضوضاء فى الغرف المجاروة .. طبعا انهم لا يتشاجرون على بقاء البطانية .. وانما على

اخراجها من الغرفة فهى : خشنة .. وهى باردة .. وهى كئيبة اللون والرائحة والملمس .. ثم انها صغيرة اذا تغطى بها القدمان تعرى الصدر والرأس .. واذا غطيت الرأس بردت القدمان ..

ودق جرس التليفون : سنيور منصور ؟

قلت : نعم ..

قال : سيارة تنتظرك ..

قلت سيارة من ؟

قال : هنا السائق سوف يتحدث اليك ..

وحدثنى السائق .. إن صديقى قد ارسل السيارة ولابد ان اذهب .. وان السائق قد اخطأ فى البحث عنى .. فذهب الى فندق اخر .. ثم جاء الى هذا الفندق وراح يبحث عنى فى كل مكان .. ولم يتصور ان احدا فى ليلة رأس السنة ينام فى الساعة الحادية عشرة .. دون ان يتناول عشاءه .. فقال انه يحمل عشاء ساخنا .. اذن هناك اصدقاء توقعوا ان اموت جوعا .. وسويت ملابسى .. وتمنيت لو أخذت هذه البطاطين معى .. فانا لا اعرف حجم السيارة .. ولا اعرف كم طول الطريق ..

وكانت الأمطار غزيرة .. والهواء باردا .. ولا أحد يمشى فى الشارع .. ولكن الموسيقى تجىء من كل مكان .. واعتذرت للسائق اننى افسدت عليه السهرة .. واننى نسيت تماما ان احدا سوف يذكرنى فى تلك الليلة .. ولكن صداقة العمر الطويل هى التى جمعت بينى وبين صديق ايطالى من اصل نمساوى اجداده اقاموا فى مدينة المنصورة طويلا .. وكنا زملاء الدراسة .. وكان من امانينا ان ندخل الازهر الشريف .. وان نكون من علماء الدين .. هو كان يريد ان يعقد مقارنة بين الاديان كلها .. ليقول فى النهاية ان كل شىء موجود فى الاسلام .. وانه لذلك قرر ان يختار الاسلام دينا عن اقتناع ، لا لان والده مسلم .. واما انا فلم يكن واضحا بالضبط لماذا ادخل الازهر .. هل لان عمى من رجال الدين .. هل لان والدى كان شاعرا متصوفا .. هل لاننى حفظت القرآن الكريم صغيرا جدا .. وان النور والايمان وجميل الكلام قد دخل قلبى وعقلى فى سن مبكرة .. فانا عندما اتجهت الى دراسة الفلسفة كان الامل هو ان اصل الى الايمان عن طريق العقل ، وليس فقط عن طريق القلب ..

وكانت السيارة كاديلاك .. الكرسى الخلفى نصف سرير .. اللمس حرير ..

والسوست رفيقة .. ومددت يدى الى السندوتشات .. ساخنة .. والى ترموس به شوربة والموسيقى جاءت من الراديو .. وتمددت فى المقعد الخلفى ونمت .. ورأيت فيما يرى النائم .. اننى واننى .. كلامك مضبوط يااستاذ فرويد .. واحسست كأننى عدت الى بطن امى .. فهذا الدفء .. وهذا الظلام .. وهذه الراحة .. كاننى مازال جنينا .. تمام كلامك يااستاذ فرويد .. ولا اريد ان اصحو .. ولا ان اخرج .. ولا ان اسمع .. ولا ان اذهب الى أبعد من السيارة .. اذن لقد كانت النبوءة صحيحة : بداية قوية سريعة دافئة .. السيارة قوية وسريعة ودافئة ..

وعندما اشار لى السائق ان انزل .. تمنيت الا يصر على ذلك .. ولكنه قال : لم يعد فى السيارة بنزين .. ولابد ان ابحث عن سيارة اخرى .. فنحن عند اطراف المدينة ..

فقلت : ابدا .. والله لن اخرج .. سوف ابيت هنا .. انا سعيد جدا اذهب انت ..

وصحوت بسبب دقات على زجاج السيارة .. انه رجل البوليس يتأكد ان كنت حيا او انها جريمة قتل فقلت له من فتحة النافذة : كل سنة وانت طيب .. السائق ذهب يحضر سيارة اخرى !

فضحك رجل البوليس : سائق .. أو سائقة هاها .. موسيقى .. ونبيذ وقبلات .. كل سنة وانت طيب !

ومددت يدى افتح الراديو .. يقول : وفى آخر لحظة ترك العاملون بالفندق كل مافى ايديهم وراحوا يخمدون الحريق .. وقد سألنا السيدة فرانشيسكا جورا سكى فقالت إن الخسائر تبلغ حوالى مليون ليرة .. وسوف نوافيكم بآخر أخبار فندق بلافستا ! ..

اذن الفندق احترق .. وقد نجوت .. فهذه السيارة ليست الا سفينة نوح الدافئة التى توقفت عند مدخل المدينة ..

فعلا .. لقد كانت السنة الجديدة قوية وسريعة ودافئة .. ويابختى .. فقد نجوت من الحريق ومن الطريق .. وانكتب لى عمر جديد مع العام الجديد ..

والحمد لله اننى مازلت حيا ، وانك .. واننا !

يعيش الخضر
يسقط الحزب

هذه النكتة يرويها ابن خلدون . قال انه حدث ان كان احد اباطرة الفرس فى اجتماع له ، ان اقتحمت بومة قاعة الاجتماع ووقفت على رأس المستشار .. ثم جاءت بومة أخرى ووقفت الى جوارها .. تعانقا اول الأمر ، وتشاجرتا ثم تعانقتا ، ثم وقفتا ظهرا لظهر . فسأل الامبراطور مستشاره وكان يعرف لغة الطير : مامعنى هذا ؟ قال المستشار : يامولاى انهما عاشقان كانا قد اتفقا على الزواج ، فعندما طلب منها ان تتزوجه عانقته ، وعندما ذكر لها المهر تشاجرت معه .. قال الامبراطور : لاافهم ..

قال المستشار : كان وعدها بمهر عبارة عن عشرين « خرابة » فغضبت .. فقال لها ان عاش هذا الامبراطور فسوف أجعل المهر الف خرابة ؟ ! هنا أدرك الامبراطور المعنى المقصود . وكان امبراطورا ظالما فاسدا .. فوعد بأن يستقيم وان يحكم الشعب بالشعب ..

هذا ماوعد به الامبراطور الفارسى .. أما امبراطورنا الذى يحكمنا والذى سوف يخرجها ويقعد على كومها فهو : التكنولوجيا الحديثة .. التى صنعت الطائرات والسيارات وسفن الفضاء فلوثت الماء والهواء والتربة والطعام !

ومن أجل هذا الطاغية قامت جماعات وجمعيات حماية البيئة فى العالم كله .. تحاول أن تنقذ ما تستطيع من براثن المصانع والورش وعادم السيارات والطيارات ..

هل تعلم اننا نستخدم مائة وخمسين ألف مليون طن من المواد سنويا لادارة مصانعنا ، وان هذه المواد تترك سموما فى الأرض والسماء والماء والدماء .. هل تعلم ان ما تستهلكه سيارة واحدة من الهواء يكفى لاعاشة مائة شخص .. هل تعلم ان فى العالم ٣٥٠ مليون سيارة ؟ !

واهتمامنا ـ فى مصر ـ بزراعة الأشجار يرجع الى أيام الرئيس محمد نجيب ، الذى زرع شجرة فى كوم أوشيم ، هذه الشجرة ماتت قبل ان يموت ـ كانت بداية ..

تماما كما أن الأستاذ توفيق الحكيم قد امسك مقشة وكنس جانبا من أحد

شوارع القاهرة .. فعاد التراب الى مكانه قبل ان يضع الحكيم مقشته على الأرض كانت بداية ـ دعوة الى النظافة .. نظافة الأرض واليد والضمير ..

ويوم دعونا الى تشجير المقطم ، اختلفنا على نوع الأشجار وعلى الجانب الذى يجب ان نبدأ بزراعته .. واختلفنا على وسائل المواصلات السلكية ـ أى الترام المعلق .. ولم نفعل شيئا ـ فقد كانت دعوة الى شىء .. فبدأنا بالكلام وتوقفنا بالكلام عند حدود الكلام !

ويوم اقتلعت كلية زراعة القاهرة نخيلها الذهبى ، كان تتويجا للاهمال والاستخفاف العلمى على أرفع المستويات .. فإن لم تكن دعوة علمية للقضاء على بقية النخل والأشجار فى مصر ، فهى اقصى ما يمكن ان يبلغه بلد من احتقار الناس والعلم والعلماء لجماعات وأحزاب البيئة فى كل مكان ..

أما التصحيح الوحيد فهو ما فعله محافظ القاهرة يوسف ابو طالب حين اقام الحديقة الدولية ـ انها أيضا بداية تستحق عظيم الاحترام . ولكن تمشيا مع التقاليد المصرية العريقة ، اخشى أن تكون هى البداية والنهاية ..

ولكن انشغال المصريين بالأشجار والعدول عن تجريف التربة واستنكار اقامة البيوت عن الأرض المزروعة ـ أرضنا المزروعة لم تزد كثيرا عما كانت عليه أيام الخديو اسماعيل : خمسة ملايين فدان ؟ هذا الانشغال يدعو الى الاهتمام . والى التفاؤل أيضا . ولكن عيب الاهتمام المصرى انه أيضا يستند الى أسوأ ما لدينا من التقاليد وهى الدعوة الى تشكيل لجنة .

جماعة . جمعية .. حزب .. لأن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا بمفرده . ولكن نعجز تماما ، فلابد من تشكيل لجنة . فكأننا عندما تولدت لدينا الفكرة ، دبرنا وأدها فورا ـ مع الأسف !

من يدرى ، لعلنا نصدق هذه المرة مع أنفسنا ، فاهمين لقدراتنا ، مكسوفين من عجزنا ـ لعل وعسى ! ويطالب بعض المثقفين بانشاء « حزب الخضر » diegrunen كالحزب الذى أنشىء فى ألمانيا .. ووجد صدى شعبيا ودخل البرلمان وله ثمانية وعشرون مقعدا ووزراء للبيئة فى بعض الولايات الألمانية .. ولكن هذا الحزب يتضمن كل العناصر التى سوف تنسفه من داخله .. فالحزب الذى كان مفاجأة حتى للشعب الألمانى ، مفكك الأجنحة .. غريب الأطوار .. فهو يبعث بأربعين شخصا يسهرون ليلا ونهارا الى جوار شجرة عمرها مائة وخمسين عاما قررت الدولة اقتلاعها لاقامة أحد الفنادق .. وتبقى الشجرة .. وهو نفس الحزب

الذى ينادى بحرية الشذوذ الجنسى .. وهو الحزب الذى يدخل أعضاؤه البرلمان بالزنوبة والجينز وفى يد كل واحد وردة .. وحاول أحد الأعضاء ان يضع على رأسه زوجا من الحمام ، وحاول آخر ان يربط بقرة عند باب البرلمان اشارة الى ضرورة شرب اللبن الطبيعى وليس اللبن المشع ..

* * *

ولنبدأ من البداية ..

عرف العالم كله ثورة الشباب فى الأعوام الثلاثين الماضية . وكان شيئا جديدا . فالغاضبون الساخطون أكثرهم من الطلبة . انهم متمردون على الدولة ومؤسساتها وعلى سيطرة الأساتذة ..

واتخذ الغضب فى بريطانيا ضيقا بالتعاليم الجامعية .. ثم كفرا بالمسرح الرسمى الوقور ..

فكانت المسرحية العارية والشاذة التى تصطدم بالمتفرج وتهزم الوقار التقليدى عند المؤسسات المسرحية والفكرية فى بريطانيا ..

ثم ظهرت « الخنافس » - مجموعة من الشبان الفلاحين موهوبين فى الغناء والأداء والتأليف والتلحين . أطالوا شعورهم - مع أن الخنافس ليس بها شعرة واحدة . ولكن أخطأت الزميلة مى شاهين فى ترجمة الكلمة الانجليزية .. ولما حاولنا تصحيحها ، لم تفلح فقد انتشرت الكلمة التى هى تلاعب بكلمتين انجليزيتين معا : الخنافس والصخب : ، beetie , beat ..

وانتشرت الخنافس واستحقوا أرفع النياشين .. فقد كسروا احتكار الأمريكان للأغنية الراقصة .. ويوم افتتحوا محلا لهم ، ذهب زعيم العمال هارولد ويلسون رئيس الوزراء وزوجته ورقصا حتى الصباح - فهما من أبناء الطبقة العاملة !

واكتسحت موسيقاهم وأزياؤهم وشعورهم الطويلة أوروبا وأمريكا - وكسبت بريطانيا مئات الملايين ..

وفى نفس الوقت ابتدعت « مار كوانت » موضة المينى جيب .. والميكرو جيب .. وظهرت السيقان الجميلة فى بريطانيا وأوروبا وامريكا . وجاء السياح يتفرجون على أجرأ ما صممت بريطانيا وابدع ما عرضت .. وكسبت مئات الملايين .. ألوف الملايين .. واستحقت مارى كوانت أرفع أوسمة الدولة ..

فكان ذلك كسرا لاحتكار فرنسا للموضة !

وظهرت المسرحيات الحديثة ، وكان ذلك كسرا لاحتكار امريكا وفرنسا للريادة المسرحية ..

وفى فرنسا ثار الطلبة على برامج التعليم .. وعلى تحكم الأساتذة .. واستخدموا القنابل والمسدسات ..

وفى سنة ١٩٧٠ اتخذ الغضب شكلا ارهابيا ولم يكن سياسيا كله .. كان العداء للرأسمالية واضحا . فظهرت عناصر يسارية متطرفة .. وكان هدف الشباب : حماية البيئة والسلام العالمى والحرية الاجتماعية .. ومع ظهور الدعوة لانشاء « حزب الخضر » انتعشت جماعات الخنافس . والهيبز والبانك . وكلهم من ابناء الطبقة الوسطى . وليسوا من أبناء العمال .

وفى سنة ١٩٦٨ تركزت المظاهرات فى جامعة السربون فى باريس .

وفى نفس الوقت ظهرت « الألوية الحمراء » فى ايطاليا ..

ولكن ألمانيا اتخذت شكلا مختلفا وأسلوبا مغايرا أول الأمر .. فظهرت الجماعات الخضراء .. ثم جماعة الخضر .. وكانت أفكارها أبسط ، ولذلك كانت أسرع انتشارا ، وأكثر عنفا فى الهجوم على النظم القديمة وعلى كل الأجيال السابقة ، التى كانت سببا فى خراب ألمانيا .

وقد أكدت ثورة الخضر وجود فجوة سحيقة بين الأجيال ـ أجيال مضت وتوشك أن تختفى ، وأجيال ظهرت وتوشك أن تتسلط ..

وفى سنة ١٩٨١ أجرى استفتاء بين الشباب الأوروبى حول موضوع واحد هو : هل توافق على القيم الأخلاقية التى تعلمتها من والديك ؟

٣٨ ٪ من الألمان قالوا : نعم .

٥٠ ٪ من الفرنسيين قالوا : نعم .

٧٧ ٪ من الأمريكان قالوا : نعم .

فالخلاف واضح فى ألمانيا بين الجيلين .. لأن الألمان بتكوينهم متطرفون . مزاجهم لا يطيق الحلول الوسطى .. والرقص على السلم .. ثم ان الأجيال الألمانية الجديدة ترفض الانضباط والطاعة ـ كما فعلوا أيام النازية . فقد عانى الألمان كثيرا من هذه الطاعة العمياء والاستسلام للطاغية .

والشباب الألمانى يستمتع بألمانيا الحديثة ، ألمانيا ما بعد الحرب ، التى نهضت بسرعة : صروحا ومصانع ورخاء وتقدما علميا رهيبا . وهم لاشك معجبون جدا بآبائهم وأجدادهم الذين أخرجوا ألمانيا من الانقاض الى الأبهة

العصرية . ولكنهم ضد هذه « المادية » ـ أى ضد البناء والتعمير الذى أدى الى تلوث البيئة وشق الشوارع فوق الغابات ، وبناء المطارات على الأرض المزروعة . والشبان الألمان مختلفون عن آبائهم الذين كان شعارهم : دعونا نقيم مدنا ونرصف شوارع ، وبعد ذلك نفكر فى اسم المدينة وأسماء الشوارع وأسماء الأحزاب والجمعيات التى تبنى كل ذلك .. ولكن الشبان يريدون تسمية المدينة والشوارع والأحزاب من أجل وقف العقلية المادية البحتة التى لا يهمها عاشت الأشجار أو ماتت .. عاشت الأطفال أو ماتت .. استعدت الشعوب حولها للقتال أو لم تفعل !

والشباب يرون أن المدنية الحديثة ليست لها روح . ليس لها طعم . باردة جامدة .

ومع الثورة على المادية العلمية تتولد أفكار أخرى خطيرة : وهى الدعوة الى المثالية وعبادة البطولة واستعادة كل ما هو جرمانى . وعدم الاعتذار عن الذى حدث أيام هتلر ، فقد كان ذلك أيام هتلر ، وهتلر لم يعد موجودا .. ولا ألمانيا النازية ، فلماذا تعميق الشعور بالذنب عند الشباب .. اذا كان أجدادهم أجرموا ، فلماذا نعاقبهم هم ؟!

ان جماعة الخضر وضعت المواطن الألمانى الشاب أمام خيارات عديدة : أما أن نرضى بما هو كائن وهو رائع عظيم ، وأما أن يستعيد ما قد كان أيام النازية ، وأما أن يدعو بانقاذ المانيا من الألمان ، ويطلب السلام والحياة للجيل الجديد ..

فهل يا ترى هذا الاتجاه منتشر عند كل الشبان دون الخامسة والعشرين ؟

عند الشباب كل انواع الاتجاهات : الرجعية والثورية والفوضوية . ولم يعد أحد الآن يسأل : كم عدد الخضر من الألمان ، وانما السؤال هو : الى اى حد اصبح الألمان خضرا ؟

فبعد الحرب العالمية الثانية ، انكسر الألمان وراحوا يمشون الى جوار الحوائط المهدمة ، يحلمون ببنائها . وأعادت معاهد التدريب المهنى استخدام العصا لضرب العمال حتى لا يقلدوا الأمريكان فى الرخاوة والطراوة ومضغ اللبان ووضع الأيدى فى الجيوب عندما يتحدثون الى الأب أو الرئيس .. وقامت ألمانيا الحديثة .

ثم جاءت ثورة الشباب ، الأولى من نوعها فى أوروبا . واهتزت القيم وتمزقت البنطلونات وخرج الدخان من الأنوف وامتلأت الأفواه باللبان ، ولم تعد طاعة

الأب واحترام الأم ، وتقديس النظام ، مما يباهى به الألمان .

وكان لهذه الثورة صداها فى فرنسا .. فقامت ثورة الطلبة ضد الجامعات العتيقة وسيطرة الاساتذة والآباء . ولكن طلبة فرنسا تقدموا باقتراحات للاصلاح . وهى معقولة ومقبولة . ولكن بسرعة ركبها المتطرفون السياسيون ..

ثم اتخذ المتطرفون مدينة برلين مركزا ومنطلقا ، وفى جامعة برلين القى الفيلسوف الألمانى هربرت مركوزة محاضراته الملتهبة .. دعا الشباب الى ان يظل شبابا . لأن آباءهم لم يعرفوا الشباب ، فقد ولدوا رجالا محرومين من نعمة الاعتراض والتمرد اما اجدادهم فقد ولدوا عبيدا ساقهم هتلر بالملايين الى الموت ومن ورائهم خراب ألمانيا واقبولة . ولكن بسرعة ركبها المتطرفون السياسيون ..

ثم اتخذ المتطرفون مدينة برلين مركزا ومنطلقا ، وفى جامعة برلين القى الفيلسوف الألمانى هربرت مركوزة محاضراته الملتهبة .. دعا الشباب الى ان يظل شبابا . لأن آباءهم لم يعرفوا الشباب ، فقد ولدوا رجالا محرومين من نعمة الاعتراض والتمرد اما اجدادهم فقد ولدوا عبيدا ساقهم هتلر بالملايين الى الموت ومن ورائهم خراب ألمانيا واعدام الضمير الوطنى والاخلاقى .. قال مركوزة : أيها الشباب كونوا شبابا . ليس عندكم ما تعتذرون عنه . شىء واحد اذا اعتذرتم عنه فعذركم غير مقبول : انكم شباب !

وتحولت الكلمات الى مسدسات وقنابل وحاصروا اكبر دار للصحافة والنشر فى برلين دار اشبرنجر التى تصدر عنها مجلة « درشبيجل » الشهيرة ..

وفى سنة ١٩٦٨ ظهر للشباب زعيم اسمه دوتشكه . اصابه رصاص البوليس .. فمات مشلولا سنة ١٩٧٩ فى التاسعة والثلاثين من عمره !

وانتشرت الدعوة الى الاصلاح فى الجامعات والمدارس والمستشفيات والشركات ـ بين التلاميذ والطلبة والباحثين والمرضين . لقد هيأوا الأذهان كلها للاعتراض والمناقشة والمساومة .

وظهرت بين الشباب الألمانى « الخلايا الحمراء » للمتطرفين الشيوعيين ، وكانت عنيفة جدا يتزعمها شباب تمرس على التنظيم والتنظير ـ وهم الآن فى الأربعين من العمر . وانتهى دورهم العنيف بعد ان اعتدلت جماعة الخضر ..

ثم ظهرت جماعة « الفاشية الألمانية اليسارية » ـ وهو الوجه القبيح لجماعة الخضر . فقد كانوا يعترضون الأساتذة وهم يحاضرون . ويصرخون ويطلقون اصواتا قبيحة فى المدرجات والمعامل .. وفشلوا لأنهم اصطدموا بالاحترام

العميق عند الألمان للعلم وقاعات المحاضرات والمعامل .. وكان الخضر يرفضون اعتراض الاساتذة فى المدرجات .. فقط عندما يخرجون . تماما كما لا يعترض احد منهم ، مهما كان ملحدا ، رجال الدين فى الكنيسة ـ امامها فقط .

وفى جماعة الخضر ظهرت الفتيات يتزعمن الفكر والتطبيق العنيف ـ اكثر الخضر من الفتيات حتى اليوم .

ظهرت جودرون اسلين وهى ابنة قسيس . والصحفية أولريكه مينهوف ـ وكانت محررة لامعة جريئة وأما لطفلين . مقاتلة مكافحة لاتلين دفاعا عن المساواة والسلام الاجتماعى .

وانضم اليها عشيقها اندرياس بادر وهو ابن لاستاذ جامعى .

وفى سنة ١٩٧٢ بدأت الاعتداءات على البنوك بالقاء القنابل . واعتقل هؤلاء الثلاثة . وكان الحكم عليهم بالسجن المؤبد . ولم يؤد ذلك الى اسكاتهم فى السجن أو خارجه . بل تناثر العنف فى أماكن اخرى .

وفى سنة ١٩٧٣ ظهر « الجيش الأحمر » واغتال ٢٩ شخصية وجرحوا ٩٣ وخطفوا ١٦٢ واستولوا على خمسة ملايين مارك من ٢٥ بنكا . وفى ابريل سنة ١٩٧٧ بعد انتحار الصحفية اولريكة مينهوف ، اغتالوا النائب العام سجفريد بوباك .. ثم اغتالوا رئيس مجلس ادارة بنك درسون : يورجين بونيو ـ اغتالته الارهابية المعروفة سوزانا البرشت ، ابنة أحد اصدقائه ـ عمرها ١٩ عاما .

ولما سئلت عن السبب قالت : كرهت الذين يأكلون الكافيار .

وانتشر الفزع فى ألمانيا كلها . وتكدس السلاح فى البيوت . وقام الأغنياء بعمل حراسة خاصة بهم .. وكذلك البنوك والشركات .

وقد صور الأديب الالمانى هينريش بيل الحائز على جائزة نوبل حال المانيا فى ظل الارهاب فى روايته « شبكة الامان » : أن الأغنياء الالمان والحكام الالمان اصبحوا سجناء فى بيوتهم ـ أما السجانون فهم حراسهم !

وهو أول من نبه الشعب الألمانى إلى خطورة الارهاب . لأنه سوف يؤدى إلى أن يصبح « قوانين الطوارىء » هو القانون العادى .. امرا واقعا .. ومن خلال الطوارىء سوف يعود الالمان دون أن يشعروا الى ما هو اسوأ من النازية ! وهكذا يساهم الشباب فى تضييق حرية الفرد ، بينما هم يسعون الى توسيعها وتقديسها !

وفى سنة ١٩٧٧ اختطفوا اشلاير رئيس شركة مرسيدس ، التى هى نموذج

لكل ما يكرهون فى المانيا : القوة والعظمة والتضخم الحديدى والنظام والانضباط والرأسمالية التى لا تهزمها الحرب . ثم طالبوا مقابل الافراج عنه اطلاق عشرين سجينا . ولكن المستشار الالماني هلموت شميث رفض المقايضة ، ورفض الحوار ! ثم خطفوا طائرة المانية مسافرة من جزيرة ميوركة الاسبانية وارغموها على الهبوط فى روما .. ثم مقديشيو عاصمة الصومال .. وهددوا بقتل جميع ركابها . ولكن فريقا من ألمانيا تدرب على مكافحة الارهاب مستخدما اسلحة غير معروفة ، انقذوا الركاب بعد ان قتلوا ثلاثة من مختطفيها . فانتحر الارهابيان بادر واسلين فى السجن .. ثم ان الأرهابيين قتلوا رئيس شركة مرسيدس وتركوه فى احدى السيارات !

وقد أدى هذا العنف الى انصراف الشبان عنهم واحتقارهم لهذا الاسلوب فى فرض الرأى والحوار الدموى .

وفى سنة ١٩٨٠ قرر زعماء « الجيش الأحمر » ان يوضحوا برنامجهم السياسى دون عنف . فارتبطوا بجماعات أخرى اوروبية . وكانت سياستهم مقاومة حلف شمال الاطلنطى وقواعده ومؤسساته فى المانيا واوربا كلها ، وكذلك قادته العسكريون . ولكن هذا الحزب محدود وعاجز . وفى اقسام البوليس الالمانى صور قبيحة لشبان مطلوبين للمحاكمة ـ أكثرهم من ذوى اللحى والغضب والمرارة والحقد ـ انهم حقا احفاد هتلر !

فيكف واجه البوليس هذه التيارات الغريبة عن المجتمع الالمانى ، وعن العقلية الالمانية .. صحيح ان كارل ماركس المانى ، ولكنه فيلسوف ـ اخر الفلاسفة الكبار . أنه شخصيا لم يضرب احدا بطوبة ، ولكن باسمه ارتكبت أبشع الجرائم فى العالم .

لقد كان البوليس الالمانى من أيام المستشار بسمارك فى اواخر القرن الماضى سلاحا قويا قاسيا . فكيف يكون سلوك البوليس فى بلد ديموقراطى ؟ .

يجب أن يكون الطف وأكثر مرونة ـ وهذا ما لم يجربه البوليس الالمانى . ولذلك كانت حيرته عظيمة فى مواجهة الشبان الصغار ذوى الأفكار الكبيرة والامال الذهبية . كان البوليس فى ازمة . وكان أول امتحان له عند زيارة شاه ايران لبرلين . تظاهر الطلبة . واصيب احدهم برصاص البوليس ، مما اشعل الغضب على البوليس من كل الشعب الالمانى . ثم ما الذى يفعله البوليس فى مواجهة المظاهرات ضد النشاط الذرى . أنها أحداث جديدة لم يستعد لها . ولم

يتدرب على مقاومتها .. أما أكبر المظاهرات التى شهدتها المانيا كلها فكانت احتجاجا على عمل ممرات لمطار فرانكفورت أكبر المطارات الدولية فى المانيا . وكانت المظاهرات ضد قطع الأشجار وازعاج الناس وتهديد أمنهم وصحتهم .

ثم أن هذا المطار سوف يكون أكثر استعداد لاستقبال الطائرات الحربية الامريكية . وانضم الى « الخضر » اليساريون والفوضويون . ولم يفلح البوليس فى حفظ الأمن . فالاعداد كثيرة ، معظمها من الأطفال والشباب . وطاش الرصاص واصاب كثيرا من الابرياء واخطأ البوليس . فاقتحم شقة القنصل البريطانى وقتله خطأ سنة ١٩٧٦ . وقتل شابا كان يتسلق أحد البارات ، فقد ظنوه هاربا .

وأخيرا تقرر أن يحمل البوليس سلاحا ، دون عنف .. وفى سنة ١٩٧٤ عندما قرر ثلاثة من الشبان ان يرتادوا حمامات السباحة عراة ، جاء البوليس يحمل المدافع الرشاشة ولم يلق تدخلا من الجماهير ، واقتاد الثلاثة الى السجن .. واعتاد الناس على رؤية المدافع الرشاشة فى ايدى البوليس ، ولكنه منظر أقل قبحا من جرائم الارهابيين وقتل الابرياء !

والبوليس الالمانى لا يرقى إلى مستوى البوليس الانجليزى الذى تربطه صداقة حميمة بالشعب ـ والذى عاش وسوف يعيش على احترام عميق متبادل .

* * *

* * *

وفى أثناء كل ذلك كانت جماعة « الخضر » تنظم صفوفها وتوضح فلسفتها وتنشق وتنسق أجنحتها المختلفة حتى صارت حزبا ـ وان كانت هى ضد « التخرب » ضد القيود الذهبية الصارخة .

و « حزب الخضر » يستهوى الشباب لأنه صوت احتجاج على الجامد البارد اللا إنسانى .. وأصبحت « جماعة الخضر جزءا » من حزب الخضر الذى ضم كل انواع الغاضبين والساخطين من المهتمين بالسياسية والاقتصاد والدين والحرية الجنسية وحماية البيئة الهوائية والمائية والترابية والحيوانية والانسانية .

فحزب الخضر يطالب بترشيد استهلاك عناصر البيئة . وهو سىء الظن بالتكنولوجيا الحديثة والطاقة النووية . وهو يدعو الى ذلك بهدوء واعتدال . وبعض الأجنحة تذهب فى دعواها إلى الحياة البدائية وكراهية العلوم الحديثة

وعشق الحقول والغابات والى تبسيط الحياة الاجتماعية .

وهم ضد الحرب والحشود العسكرية والقواعد والاحلاف .

وبعضهم يريد السلام المسيحى بالضبط كما نادى به السيد المسيح فى « موعظة الجبل » الشهيرة التى جاء فيها : طوبى لانقياء القلب . طوبى لصانعى السلام . طوبى للمطرودين من أجل البر . طوبى لكم اذا طردوكم !

وقد انضم إليهم الشواذ جنسيا وساروا فى مظاهرات يطالبون زواج الرجل من الرجل والمرأة من المرأة .

وتعالت أصوات الشيوعيين والفوضويين والعنصريين الذين يؤمنون بتفوق الجنس الارى الجرمانى على كل الاجناس ـ انها النازية الجديدة ؟! .

وعلى الرغم من أن لها جماعات مشابهة فى اوروبا ، فإن الخضر الالمان أقوى وأعمق . لأسباب : فالدعوة للسلام عند الالمان أقوى . فقد تعذبوا بويلات الحرب .

كما أن كل مؤسسات حلف الاطلنطى وقواعده موجودة عندهم . ثم ان لدى الالمان هذا الشعور العميق بأنهم مصدر القلق فى اوروبا كلها .. ورغبتهم فى انهاء اللوم والاذلال الامريكى للشعب الالمانى ، فى السينما والاذاعة والتليفزيون .

كما أن ألمانيا دولة مكدسة بالسكان وعندهم غابات شاسعة فتناقصت وأرضها تلوثت وسماؤها تسممت . لكثرة المصانع الضخمة وهم يكرهون الأرض العارية من الأشجار .. عندهم جنون الخوف من الفراغ . وهم يفضلون الغابات على الحدائق . ويفضلون البيوت القديمة الدافئة على البيوت الحديثة ذات التدفئة الصناعية ، ويحنون إلى التماسك العائلى الذى سبق ظهور النازية . ويعشقون أخلاق الريف .

وفى انتخابات احدى الولايات الالمانية سنة ١٩٧٩ ، دخلوا البرلمان بعد ان حصلوا على النصاب القانوني وهو ٥٪ من أصوات الناخبين . وفى ولايات اخرى حصلوا على اكثر من النصاب ـ انتصار عظيم لهذه الجماعة الجادة المعتدلة .

وفى سنة ١٩٨٣ دخلوا البرلمان الاتحادى « بوندستاج » بثمانية وعشرين عضوا .. بالبنطلون المكرمش والقمصان بلا اكمام والاحذية الكاوتش وغصون الاشجار فى ايديهم ..

وفى أول جلسة أعلنت زعيمة الحزب بتراكيلى : نحن حزب ضد الأحزاب ! وكان مظهرهم سيئا فى داخل البرلمان ، حتى ندم الذين انتخبوهم . فليس عندهم وعى سياسى ولا تجارب فى المناورات الحزبية .. ثم انهم يختلفون معا امام الأحزاب الأخرى ويتبادلون الألفاظ والحركات النابية ..

وفى داخل الحزب قد اتخذوا قرارا ان تتغير هذه الوجوه البرلمانية كل انتخاب فلا يبقى فى موقعه احد .. وهكذا عليهم أن يجربوا دائما ، دون ان يكون عندهم رصيد من التاريخ .. وطلبوا من زعيمة الحزب بتراكيلى ان تنسحب . انتهى دورها . ولابد من أخريات يظهرن مكانها ..

بترا زعيمة الحزب ولدت سنة ١٩٤٧ .. امها المانية وابوها بولندى . ثم هاجرت الى امريكا فى الثالثة عشرة تزوجت امها ضابطا امريكيا ايرلنديا اسمه : كيلى .

واتخذت بترا اسم زوج امها . اما نشاطها لمناصرة حقوق المرأة والملونين فى امريكا فقد بدأ مبكرا . وكانت ممن يقدسون القس مارتن لوثر كنج . وعملت بعد ذلك فى بلجيكا . ثم عادت إلى المانيا . فى غاية الحيوية . تنام اربع ساعات من أى يوم . عصبية تتكلم بسرعة . ولكنها لطيفة ذكية . عندما قابلتها من سنوات وجدت على مكتبها خطابا من السفير الأمريكى يقول لها : صحتك .. اهتمى بصحتك لتصبحى قادرة على حماية صحة الآخرين !

ونظرت الى وجهها .. انه شاحب . والعينان غائرتان . وتمد يدها دائما تسوى شعرها ، مع أنه قصير لا ينزل على جبهتها .. اما التدخين فهى تشعل واحدة من واحدة .. وتشم رائحة اظافرها لاقتراب نهاية السجائر منها ! والبن يجرى فى عروقها - فهى لا تشرب غير القهوة .

وحزب الخضر ممزق :

بعضهم يرى ضرورة الجلوس فى مقاعد السلطة والمشاركة فى الحكم ..

وبعضهم يرى ان يكونوا جماعات ضغط فى الشوارع - أكثر حرية وأكثر جماهيرية .. ومطمع كل الاحزاب السياسية .

وفى سنة ١٩٨٥ اختارت احدى الولايات وزيرة للبيئة من حزب الخضر ..

وفى مدينة تيبنجتن الجميلة قامت المظاهرات .

والمدينة جامعية - اى قامت من اجل الجامعة . ولا توجد بها مواصلات من أى نوع - منعا للضوضاء .. وهى المدينة التى ولد فيها اعظم الشعراء الالمان :

هيجل وامير الشعراء الالمان : هيلدرلن . وفيها « حديقة التأوهات » . اى ملتقى العشاق من طلبة الجامعة . وقد حاولت الدولة ان تفتح فيها الشوارع فثار الخضر . واصروا على ان يكون الشارع دائريا خارج المدينة دون اقتلاع لشجرة واحدة !

وفى المدارس نصح المدرسون تلامذتهم بالا يسرفوا فى استخدام الورق .. فكل ورقة جاءت من شجرة قطعوها .

وكثير من المواطنين يشربون اللبن فى الزجاجة ، لا فى العلب الورق . ويسافرون الى الريف ليشربوا اللبن الطبيعى لا اللبن الصناعى الذى دخل المصانع فاطلقت العادم يلوث الهواء .

ويستخدمون الطاقة الشمسية بدلا من الكهرباء والغاز .

وبعضهم يمشى على رجليه . ولا يستخدم السيارة .

وفجأة نشرت الصحف ان جناحا من حزب الخضر يطالب بالغاء الزواج .. ويطالب باباحة العلاقة الجنسية بين الأطفال والشبان - وقد خسر حزب الخضر كثيرا بسبب هذه الدعوات الشاذة الشائنة !

كما أنهم استباحوا ممتلكات الأخرين . فكلما وجدوا شقة خالية ، اقتحموها . واقاموا فيها - فافزعوا الناس !

ثم ظهرت كل أنواع الغضب والسخط ، الذين اطالوا شعورهم ، والذين حلقوها . والذين اسرفوا فى مظاهر الرجولة وفى مظاهر الانوثة .. وزادت حالة الانتحار الجماعى .

إن هؤلاء الشبان يعبرون عن المانيا .. بلد حاصرتها الجغرافيا وخنقها التاريخ !

* * *

ولكن شيئا جديدا بدا بوضوح وفى هدوء أيضا . فقد ظهر جيل جديد مختلف . وفى داخل حزب الخضر .. انهم أكثر هدوءا . أكثر اناقة . وحفاوة بمظهرهم . يفخرون بانهم المان . وانهم كانوا اعظم دولة ، واليوم ، وغدا سوف يكونون كذلك . وانهم ينتظرون وراءهم فى غير ندم ، وحولهم فى غير خوف ، وأمامهم فى غير قلق . وانهم يعجبون بالابطال .

وقد أدى ظهور لاعب التنس بوريس بيكر الى اشتعال الروح الوطنية فى بلاده . ايقظ الايمان بالبطل . وابرز تعطشهم الى عباقرة فى الفن والأدب

والموسيقى والسياسة والعلوم . ان بوريس بيكر لم يخطر على بال احد أن يكون هكذا صغيرا وان يكون بطلا عالميا . أن المانيا هى أم الابطال فى كل التاريخ وليس بوريس بيكر الا باكورة البطولة .. كأن المانيا تذكرهم بأنها قادرة على أن تلد ابطالا حيث لا يتوقعون منها ذلك !

وبسرعة شديدة بدأ حزب الخضر فى المانيا يقتلع اشجاره السياسية والفكرية من قلب الشعب الالمانى .

ولكن هذا الحزب هو الذى شاء الا يكون حزبا ، وأن يكون امشاجا من كل شىء .. فهو كل شىء ، وليس شيئا . وهو يقاوم اعمق اعماق الالمان : النظام والانضباط واحترام العلم وتقديس البناء !

إن الذى اضافوه الى اعمار الاشجار ، خصموه من اعمارهم . ولذلك سوف تبقى جماعات وجمعيات حب الحياة الخضراء .. اما الحزب ، فقد عرفت ماذا اصابه ..

فهل يعيش حزب الخضر فى المانيا بعد أن فشل فى أن يكون حزبا فى أية دولة اخرى ؟!

دماء بلا جروح !

وأنت فى الطائرة مثل المقعد الذى تجلس عليه أو تتمدد فوقه .. فى حالة استسلام . تحاول أن تنام .. أو تنام . ويكون النوم اختصارا للوقت وغيابا عن الطائرة حتى لا تفكر فى هذا الموقف الخطير . وكل شىء عندك : يجوز .. أن تصل الطائرة ويجوز الا تصل .. فالخوف يرفرف حولك .. فراشات صغيرة ، أو غربانا .. ولكن الخوف يخرج من أعماقك ويدور حولك .. ولكنه فى الطائرة إذا اهتزت فأنت تربط الحزام وتتجمد على مقعدك ، فأنت ـ اذن ـ تهرب من الطائرة إليها .. تهرب منها وتلوذ بها .. تماما كما تضرب طفلك فإذا هو يختفى فى ملابسك ، يهرب منك ويأوى إليك .. وتحاول أن تنشغل عن الطائرة وأنت فيها .. بالأكل .. بالقراءة .. بالانسلاخ عنها .. أى بابعاد فكرة أنك فى الهواء بين السماء والأرض .. وأنك تحاول أن تجعل للهواء قوة الأرض .. فترفض الخوف وترفض الخطر .. وتمد نفسك باليقين والثبات والشجاعة .. ويحدث ذلك فى كل مرة تسافر فيها ، ولو سافرت ألف مرة .

ويقترب المضيف منى ويعطينى خطابا لكى أقرا . وقرأت واندهشت . ومددت يدى الى داخل المظروف فوجدت قطعة من القطن .. ولم يكن ذلك جديدا .. وعاد المضيف المصرى ، ونحن فى طريقنا الى المانيا . وقلت له : أعرف هذا الشخص .. واعرف صاحب القصر وقد تغديت عنده فى باريس فى العام الماضى ! .

وانشغلت بالتفكير فى هذا الموضوع الذى جاءنى مثل « طوق نجاة » لينقذنى من الاستسلام والسلبية المملة فى الرحلات الجوية .. وفجأة جاءت مضيفة مصرية أيضا ومعها زميل يقول : لقد حدث شىء عجيب جدا .. فأنا لم أكد أمسك هذه القطنة التى رأيتها سيادتك حتى غرقت كفى بالزيت .. مع أن القطنة ليست بها زيت .. وليس فى الطائرة طعام به زيت .. وزميلى قد رأى ذلك .. وفجأة اختفى الزيت !

وامسكت القطنة بيدى وضغطت عليها بباطن الكف .. هذه الكف وتلك الأخرى .. ونظرت أرى أى أثر للزيت . فلم أجده . وأقسمت المضيفة أن هذا

حدث الآن ، مع أنها لاتصدق مثل هذه الخرافات . كيف حدث ؟ هل معقول ؟
شكرا . لقد وجدت الموضوع الذى سوف يشغلنى طول هذه الرحلة ذهابا وإيابا . والآن يمكنهم أن يتركونى وحدى . وتركونى . وجعلت أدير هذا الحادث وكثيرا غيره ..

ما هذا الذى يحدث لتماثيل بعض القديسين والقديسات .. تدمع عيناه .. أو يرشح زيتا أو سوائل ملونة .. أو دما ؟ ثم يحدث أيضا لبعض الناس ؟

أكثر من ذلك كيف يصاب بعض المسيحيين بما أصاب السيد المسيح عليه السلام ، فتظهر أثر المسامير التى دقت فى جسده الشريف ، فى أجسادهم هم .. فى أيديهم .. فى ظاهر الكف وفى باطنها وأحيانا فى صدورهم وفى أقدامهم .. وأحيانا يسيل الدم من خدودهم وجباههم ؟ كيف ؟ أى نوع من الناس هؤلاء ؟ وفى أية ظروف نفسية أو صحية ؟ وكيف أن قطعة من القطن مسحوا بها كفا افرزت زيتا تنال هذا الزيت إلى أجسام أخرى رغم جفافها تماما وخلوها من رائحة الزيت ؟ .

فى التاريخ أكثر من ٧٠٠ حالة معروفة ومرصودة ومسجلة . وكلها ذات معنى واحد : هو أن أحد المؤمنين وهو يصلى أمام الصليب ، أو وهو مريض يتوجه بصلاته وقلبه وكل مشاعره إلى المسيح ، فجأة تظهر على جسمه فى أماكن مختلفة كل أثار عذاب المسيح المصلوب والذى دقوا المسامير فى أماكن مختلفة من جسمه وراح الدم ينزف منه .. وتظهر فى أجساد هؤلاء الناس بقع فى ظاهر الكف أو باطنها أو باطن القدمين أوظاهرهما أو أحد جوانبها .. كيف يستطيع أنسان أن يستشعر عذاب المسيح ، فيصاب بوخز الأبر والمسامير ويتوجع ؟ ماهذا العقل الانسانى الذى يستطيع أن يستحضر العذاب وأن يصاب به ؟ كيف ينقل العقل إلى الجسم صورة تاريخية فتنطبع على الجسم ؟ لاأحد يعرف .. ولا أحد يعرف ما هو الفرق بين العقل والنفس والمخ والوجدان والتفكير ولا ماهى وسائل انتقال الأفكار أو الخيال أو الصور .. ولا أحد يعرف بالضبط ماهذه القدرة الخارقة التى لدى الانسان ، على نفسه وعلى قلبه وعلى جسده ؟ ولكننا نرى أثر كل ذلك ، وليس لدينا تفسير علمى مقنع لكل هذا ..

أن « ثوب تورينو » أى الثوب الموجود الآن فى مدينة تورينو الايطالية قد ظهرت عليه صورة للمسيح ، كما ظهرت جروحه . هذا الثوب قديم . وقد اثبت التحليل الذرى أخيرا ، أن الثوب قديم ، ولكن ليس من أيام السيد المسيح ..

أى ليس هو الثوب الذى التف به جسده الشريف ـ اقرأ العدد الأخير من مجلة « تايم » الأمريكية .

الصورة التى أرتسمت على القماش هى وجه لانسان . وعليه أثار الألم والعذاب ، كيف انتقلت هذه الصورة .. من الذى استطاع أن ينقلها بالنظر إليها ، أو عندما مسح بها وجهه .. كيف تنقل صورة العذاب من وجه إلى قماش ـ هذا هو اللغز الذى لم يعرف له أحد حلا !

وأحدث ما قرأنا هو عن فتاة فلسطينية ظهرت عليها « سمات » السيد المسيح .. أثار المسامير والدم ينزف ..

وقبل ذلك فى سنة ١٩٨٥ نشرت الصحف البريطانية عن زوجة سائق كانت تصلى فى احدى الكنائس عندما راحت تصرخ وتئن وتنهار . ونقلوها إلى بيتها ، ليروا بوضوح أثر المسامير فى كفيها وقدميها . كيف ؟ !

ولما سألوها قالت : انها أحست بوخز الأبر .. ألوف الأبر .. والمسامير ألوف المسامير .. وفجأة ظهرت بقع زرقاء وسوداء فى يديها وقدميها . كيف ؟ وقد لاحظ بعض الآثريين أن الحمار الذى كان يركبه السيد المسيح قد برز على ظهره صليب .. ثم ظهر هذا الصليب على ظهور حمير كثيرة من سلالة هذا الحمار ؟ !

★ ★ ★

★ ★ ★

ولكن أول حادث شهير فى التاريخ المسيحى كله هو الذى أصاب القديس الأيطالى فرانشسكو الأسيزى وهو ابن تاجر قماش غنى . وفى أحد الأيام وقع فى أيدى خصوم والده . حبسوه وضربوه وعذبوه . وجاءت تجربة السجن والعذاب نقطة تحول فى حياته . فقد خرج من السجن انسانا آخر رقيقا شديد الحساسية وعميق الايمان .. وقرر أن يهجر الدنيا ويعيش للدين . وارتدى ملابس الفقراء . وراح يتسول ليستغنى عن فلوس والده .. وقالوا : مجنون .. ولكنه مضى مع الفقراء يساعدهم ويشجعهم على الفقر وعلى مد أيديهم . وعندما علم بأن احدى الكنائس فى حاجة إلى فلوس استولى على الأقمشة فى دكان أبيه وباعها ودفع فلوسها للكنيسة . وذهب الأب يشكو للقضاء . ثم طلبت المحكمة من الابن أن يعيد أموال أبيه .. وفى المحكمة قدم للقاضى حقيبة امتلأت بالذهب . ثم القماش الذى أخذه من دكان أبيه . وأعلن فى المحكمة : أن أبى فقط هو الذى فى السماء ، فليس لى أب على الأرض !

وجاء القديس فرانشسكو إلى مصر يبشر بالمسيحية والزهد فى الدنيا .. وعاد من مصر مصابا برمد صديدى . لم يبرأ منه . وان كان أطباء ذلك العصر قد كووه بالنار فوق عينيه . ولكن ظلت عيناه مريضتين .

وفى أحدى المرات كان يصلى أمام الصليب عندما ظهرت عليه « سمات » السيد المسيح : مسامير فى باطن الكفين والقدمين .. وأعجب من ذلك أن القديس فرانشسكو لم يشعر فقط بأثر المسامير ، بل أن الجلد نفسه قد تحول إلى مسامير مشدودة بارزة . هذه المسامير الجلدية قد برزت من باطن الكفين ..

والشىء الغريب حقا هو أننا لانعرف بالضبط أين كانت المسامير التى دقها الرومان فى جسد المسيح .. هل فى كتفيه .. فى كفيه .. فى قدميه .. فى جنبيه .. نحن لسنا على يقين من مواضعها .. وانما الفنانون هم الذين صوروا لنا كل ذلك .. ولانعرف حجم المسامير ولا عددها .. هل هى خمسة أو ستة أو عشرة .. وهل هى فى باطن أو ظاهر الكفين .. أو الرسغين ، كما جاء فى ثوب تورينو ..

والأعجب من كل ذلك أن الدم ينزف بغير جروح .. فلا توجد جروح وأنما نحن أمام ظاهرة دم يرشح .. ينز .. دون أن يكون هناك أية جروح سطحية أو عميقة . فاذا نحن مسحنا الدم بقطعة من القماش ، وجدنا الجلد تحته سليما تماما .. ويختفى الدم ثم لايلبث أن يسيل من جديد .. كيف ؟

★ ★ ★

★ ★ ★

هناك بعض الناس لديهم القدرة الفذة على أن ينقل أية صورة منه إليك مثلا هناك رجل روسى يقول ، لك : هل رأيت قصر عابدين ؟

فتقول : لا رأيته ولا رأيت صورة له ..

فيطلب اليك أن تنظر الى عينيه .. فاذا بك ترى فى عينيه صورة لقصر عابدين .. الأبواب والبلكونة والميدان ..

وفى الريف المصرى يفتحون المندل ..

وذلك بأن يأتوا بفنجان به نقطة من الزيت .. ثم يقلبون الزيت فى الفنجان .. ويطلبون اليك أن تنظر فى الفنجان .. وأن تركز على قاع الفنجان . ويقال لك : الوجه الذى أمامك هو الرجل الذى سرق جاموستك .. انظر اليه جيدا .. انه يمشى .. امش وراءه .. المكان الذى يقف عنده ، ستجد فيه جاموستك .. انظر بعناية .. انظر !

ويكون صاحب الوجه هو اللص ، ويكون البيت الذى تراه هو الذى اخفى فيه الجاموسة .. وتذهب لتجد جاموستك ؟

كيف نقل اليك الصورة .. أو كيف نقلها بعينه الى الفنجان .. أو كيف نقلها الى عينيك .. وكيف نقلتها أنت الى الفنجان !

هناك رجل روسى جاء اسمه فى كل الكتب التى درست ظاهرة « الادراك خارج الحس » .. هذا الرجل يطلبون منه : نريدك ان تتخيل السد العالى .. هل تراه الآن بوضوح ؟

فيقول : نعم ..

ثم يقولون له : انظر الى عدسة الكاميرا .. هذه الكاميرا .. انظر .. حاول ان تركز تماما ! ويلتقطون له صورة .. وعند طبع الصورة يجدون عينى الرجل وقد ارتسمت فى كل منهما صورة السد العالى .. كيف ؟ حدث ! ولكن كيف نقل صورة السد العالى الى عينيه ومن عينيه الى الفيلم ؟

بعض الناس لديهم هذه القدرة الفريدة على نقل الصورة الى أجسادهم والى الأشياء الخارجية ايضا .. ولا يوجد اى تفسير علمى لهذه الظاهرة !

وهناك حادثة السيدة الالمانية هلينا كرانتس .. هذه السيدة لديها قدرة غريبة على ان تقرأ الصحف بقدمها .. يأتون لها بصحفية بعد ان يعصبوا عينيها .. ثم يضعون الصحف تحت قدميها .. وتقرأ العناوين فتقول العنوان الرئيسى باللون الأحمر .. والصورة التى على اليسار للرئيس الامريكى .. والعنوان الذى يليه .. والذى يليه ..

وهى تقرأ بقدمها اليمنى فقط .. وليس بكل القدم .. وانما باصبعها الأكبر ..

واعجب من ذلك انها تنقل هذه العناوين الى الكاميرا اى ان العناوين تنقل من قدمها الى عينيها فاذا نظرت الى الكاميرا انطبعت الصورة على الفيلم .. فاذا طبعوا الفيلم وجدوا العناوين مطبوعة على القدم .. كيف ؟ لا تفسير علميا حتى الآن ..

وكانت السيدة اذا ذهبت الى المطاعم خلعت نعليها ووضعت قائمة الطعام تحت قدميها .. ومن الغريب انها لا تقرأ الا بقدم واحدة ، ولكن لابد من وجود القدم الأخرى الى جوارها فوق الورق ولا تقرأ الا فى النور نور النهار .. أو المصابيح .. والا بعد ان تكون قد اغمضت عينيها تماما .. ؟ !!

★★★★

وكما ان لبعض الناس القدرة الغريبة على اجسادهم ، فان هناك اناسا اخرين لهم قدرة يمكنها السيطرة على اجساد الاخرين ـ وذلك عن طريق العلاج الروحى .. والامثلة كثيرة جدا .. ولكن من أشهر هذه الحوادث ما وقع فى القصر الامبراطورى فى موسكو ..

ومن المعروف ان عددا كبيرا من نسل الملكة فيكتوريا مصابون بسيولة الدم .. اى أن الدماء تنزف منهم ولا تتوقف حتى الموت .. ولذلك يعيشون على دماء الآخرين . التى ينقلونها اليهم .. ولكن لا فائدة .. ومن بين احفاد الملكة فكتوريا الاميرة اليكس التى تزوجت القيصر نيقولا الثانى ، فانجبت له اربع بنات وولدا .. اما الولد فهو الذى اصيب بمرض سيولة الدم ، اى الانسكاب الدائم وعدم التخثر .. واقسم افراد الاسرة المالكة فى روسيا الا يبيحوا بسر هذا الامير المسكين الذى سوف يرث الامبراطورية ..

وفى ذلك الوقت كان يرتاد الريف فى صحارى سيبيريا رجل غريب عجيب .. ضخم طويل عريض خارق العينين شهوانى متوحش .. وهو من رجال الدين ولا علاقة له بالدين .. ولكنه اتخذ الدين طريقا لاشباع جوع وعطش جنسى دائم .. وكانت لهذا الرجل قدرة فائقة على علاج المرضى الذين يحار الطب فى علاجهم .. بالنظر واللمس .. وانتشر اسمه فى كل مكان .. وتسامع به اهل موسكو وبحثت الملكة عنه واستدعته وعرضت عليه ابنها الكسندر .. ـ ولم يكد الامير يرى هذا الفلاح راسبوتين حتى جعل يضحك من شكله ومن ملابسه ومن لهجته الريفية وكان راسبوتين يضحك ايضا لعلاجه الامير وطلب اليه راسبوتين ان ينزع ملابسه .. واستاء الامير من هذا الامر الخشن .. ولكن لم يكد راسبوتين ينظر اليه حتى خلع الامير ملابسه كلها .. مع ان راسبوتين كان يريده أن يخلع قميصه فقط .. ورأى راسبوتين الجرح الذى يسيل دما دون توقف ووضع راسبوتين اصبعه على مكان الدم فتجلط وتخثر ووقف فورا .. كيف ؟

وتقدمت احدى الوصيفات من راسبوتين تشكو من ان ذراعها اليمنى ملتوية وانها لا تستطيع ان تفردها .. وانها ولدت هكذا من خمسة وعشرين عاما .. فما كان من راسبوتين الا ان مس ذراعها وملأ عينيه من عينيها واعتدلت الذراع لاول مرة !

اما الامبراطورة فعندها انزلاق غضروفى واوجاع مزمنة فى الفقرات الاولى

من عمـودها الفقرى وبمرور اصـابع راسبوتين على العمـود الفقرى ذهابا وايابا اختفى الألم تماما !

وجاءه احد الفرسان يسخر منه وقال : وانا عندى انزلاق غضروفى ..

فقال له راسبوتين : احذرك اذا كنت تدعى هذه الاصابة فاذا مررت بيدى على ظهرك ، فسوف يوجعك حتى الموت لانك تكذب وتسخر منى احذرك !

فقال له الفارس : اننى مصاب على اثر سقوطى من فوق حصانى من خمس سنوات ..

وعاد راسبوتين فحذره مرة اخرى ولكن الفارس اصر على اقواله .

ومرت يد راسبوتين على ظهر الفارس الذى راح يصرخ ويسقط على الارض ويتقلب ولم يستطع راسبوتين ان يزيل عنه الالم ..

وهناك حادثة مشهورة لراسبوتين ايضا .. فقد جاءته احدى الاميرات الجميلات .. وصارت عشيقة له بعد ذلك فقد آمنت به ولما عرفته آمنت به اكثر .. وفى يوم فكرت فى القضاء عليه .. فقد غارت من نساء كثيرات كن عشيقات له ايضا .. وقد ادرك ذلك بقدراته الهائلة على معرفة افكار الناس وقال لها : سوف اعاقبك يوما واحدا .. وبعد ذلك فلن اراك مادمت تفكرين فى قتلى ..

ومد يده الى عينها اليمنى فنزلت دموعها دما .. وعينها اليسرى فنزلت دموعها بلا توقف !

واوقف دموعها فى اليوم التالى .. فما هذا كله ؟

انها قدرة بعض الناس على التأثير فى اجسام الاخرين وقدرة بعض الناس على التأثير بعقولهم فى اجسامهم .

★★★★

وليست هذه القدرة قد انفرد بها الانسان بل الحيوانات ايضا .. فالحيوانات التى تتكيف مع البيئة فتغير مظهرها لكى تختفى بين الاشجار وبين الزهور .. والتى تغير لونها هى ايضا قد اكتسبت هذه الصفات بمرور الوف السنين .. اى ان هذه الحيوانات لديها القدرة العجيبة على ان تقاوم وان تتلون وان تتكيف بمرور الوقت ، حتى لا تموت . مثلا هناك نوع من الفراش قد ظهر على اجنحته عيون كبيرة تخيف اعداءه .. كيف استطاع هذا الحيوان الصغير جدا ان يكتسب هذه الوقاية من الخطر .. لابد انه فعل ذلك بنفسه فى ملايين السنين .. وان هذا التكيف قد ادى الى تغيرات عضوية وكيمائية ايضا . فارادة الحماية

والبقاء عند الحيوان والحشرات قد جعلته يغير من مظهره ومن وظائفه من اجل ان يعيش .. وكما ان الانسان ايضا عنده ارادة الحياة والبقاء والتفوق فعنده ايضا ارادة الموت .. كان يرفض الشفاء .. أو كان ينتظر الموت ويعمل له .. وان يريد الجروح .. وان يريد النزيف .. وان يريد ان يكون له صورة من السيد المسيح ومن عذابه على الصليب ..

ولذلك وجدنا عددا كبيرا من الذين ظهرت عليهم « سمات » المسيح يصابون بها يوم الجمعة .. لأن الرومان وضعوا المسيح على الصليب يوم جمعة .

وان يكون جروحهم فى اعياد الصليب او اعياد القيامة او اعياد بعض القديسين .. ثم ان كثيرين ماتوا فى الثالثة والثلاثين - أى فى سن السيد المسيح .. فهم قد ارادوا العذاب مثله .. فكان لهم العذاب وارادوا الموت فى يوم عذابه .. وارادوا الموت فى مثل سنه .. فكان لهم ذلك ؟

كان هذه الارادة قد وضعت فى اعماق كل واحد منهم « ساعة سحرية » تدق وتدق ثم تتوقف فى الوقت الذى تحدد لها .. او كان كل واحد منهم بأرادته وقدرته على نفسه قد اخفى فى اعماقه « برنامجا » كالذى يوضع فى العقول الالكترونية .. وقام العقل والجسم وبقية الوظائف بتطبيق البرنامج حرفيا دون تدخل من صاحب البرنامج لانه قد وضع البرنامج وتركه وقام العقل والجسم بكل العمل .

وعندما هبطت الطائرة المصرية فى مطار فرانكفورت بالمانيا سألت عن اقرب المكتبات الدينية .. واشارت البائعة بيديها ذهابا وايابا الى اكثر من الفى كتاب .. كلها من هذا الموضوع قلت : اريد احدثها ..

قالت : ليس احسنها ولكن اقربها الى العقل الحديث انه هذا الكتاب .. !

وعنوان الكتاب « الايحاء الذاتى - تفسير لظواهر سمات المسيح على اجسام المؤمنين وتفسير حالاتهم المرضية النفسية والجسمية مع اهتمام خاص بحالة السيدة هيلنا كرانتس » ..

ومن رأى المؤلف الالمانى ادورد جولدتسفيك ان الانسان يوحى الى نفسه باشياء كثيرة وان الذين يمارسون اليوجا فى الشرق والغرب يعرفون هذه القدرة عند الانسان فهو يوحى الى نفسه بانه سليم وبانه مريض وبانه شبعان وبأنه عطشان وبأنه شاب .. وبأن الأوجاع التى فى قدمه لا وجود لها .. وانه لذلك يستطيع ان يمشى دون تعب ودون خوف .. وان التدريب المستمر عند اليوجا

يتوج الانسان ملكا على عرشه الجسدى .. وان بعض اليوجا استطاع ان يتوقف عن النفس دقائق .. وان بعضهم بلغ مرحلة رفيعة جدا من التدريب ومن التحكم فى الجسم حتى اوقف قلبه .. ثم جعله يدق بعد ذلك .. الى هذه الدرجة يمكن للانسان ان يحكم ويتحكم .. انه فى حاجة الى ممارسة والى صبر والى شجاعة وإلى ارادة فجسمك خاتم فى اصبعك ـ لو اردت او احسنت الارادة ..

وكثير من الذين ظهرت عليهم سمات السيد المسيح مرضى .. ولكن مرضهم هذا لا يدل على انهم عاجزون عقليا وان ارادتهم مريضة كأجسامهم فبعضهم كان يقضى الشهور على الماء وفتافيت الخبز .. منتهى القوة والسيطرة على رغباتهم الجسمية ..

فهؤلاء الناس لديهم قدرة هائلة على الايحاء الذاتى بانهم مرضى فى حب المسيح ومرضى يريدون ان يحملوا عنه العذاب .. بعض عذابه .. ويريدون منه ايصالا باستلام هذا الامل .. ويكون وصل الاستلام اثارا على ايديهم واقدامهم كانها توقيع السيد المسيح بعلم الوصول والموافقة ايضا ..

أما اختلاف اشكال الجروح ومواقعها فتفسيرها : ان هؤلاء المؤمنين هم الذين يتصورون هذه المواقع للجروح وحجمها وشكلها ..

ويقول المؤلف د . جولد تسفيك ان بعض هؤلاء الناس يرفض ان يكون صورة اخرى للمسيح وان يكون عذابه قد انتقل اليه تماما .. فهو لا يحب ان يكون مثله .. لان فى ذلك تجاوزا لمكانه كانسان .. وفى نفس الوقت لا يستطيع ان يتحمل نفس العذاب .. ولو اصابه نفس العذاب لمات فورا .. ولذلك فهو يطمع فى ان يطول عذابه فى حب المسيح .. فهو ـ اذن ـ الذى يفرض على جسمه صورة الالم كما يتخيله هو ..

ولعل هذا يفسر ما قاله القديس بولس الرسول فى رسائله الى اهل غلاطية .. قال فى الاصحاح السادس : لا أريد متاعب ولا مشاكل فاننى حامل فى جسدى سمات الرب يسوع ..

أى ان كل انسان يحمل هذه القدرة على نقل صورة العذاب وصورة صاحب العذاب .. وان بعض الناس لديهم هذه القدرة على ان يوحوا لانفسهم بها كلها .. او بعضها ـ والله اعلم !!

هو عبقرى وهى عبقرية

العبقرية هى الموهبة الفذة على العطاء !

من علامات العبقرية ان يقف الناس جميعا ضدها !

الانسان يولد عبقريا ، ولكنه يصير موهوبا !

العبقرية هى تلك القدرة الهائلة على ان تجمع وتربط وتحلل .. وتحرك الدنيا بعد ذلك !

كما ان الماس يقطع الماس ، فالعقل يجلو العقل .. والنتيجة هى هذا الذى نسميه بالعبقرية !

العبقرية تحتاج الى صبر شخص واحد ، وصبر الشعب بأكمله ايضا !

التقاليد هى قاتلة العبقرية !

العبقرية هى ان تكون عاشقا للألم !

الذكاء ينمو وتظهر أزهاره وثماره بسرعة ، العبقرية تنمو ببطء وتظهر أزهارها وثمارها كل الف سنة !

العبقرية لها صفات ثلاث : انها فردية .. فردية .. فردية !

العبقرية هو الشخص الذى يحقق انجازات عظمى .. ويصعد ويصعد ثم يسحب السلم وراءه !

المواهب تنبتها الأرض ، العبقرية تمطرها السماء !

الموهبة تجعل الصعب سهلا ، العبقرية هى التى تجعل المستحيل ممكنا !

العبقرية مثل النسور تعيش على ما تصيده ، المواهب كالغربان تعيش على ما يقتله الآخرون !

الطبيعة ام الموهبة ، العبقرية ام الطبيعة !

العبقرية ١٪ أرق و٩٩ عرق !

والسؤال : لماذا العباقرة رجال وليس بينهم امرأة واحدة ؟!

ولماذا ترهق المرأة نفسها بحثا عن الأسباب التى جعلت عددا كبيرا من الرجال مواهب فذة ، ولم تجعل مثل هذا العدد ، أولم تجعل اطلاقا واحدة من النساء كذلك ؟

وأهم من ذلك : ولماذا هذا السؤال ؟ ولماذا هذه القضية .. وما المعنى ؟.

انها المشكلة القديمة التى تتجدد من حين الى حين . مشكلة الفوارق بين الرجل والمرأة . وهل هناك مساواة تامة .. أو بعض المساواة الاجتماعية والسياسية .. أو المساواة الكاملة فى وظائف الاعضاء .. او المساواة التشريحية ..

هذا السؤال يدل على قلق المرأة .. وعلى عدم شعورها بالأمان .. وانما شعورها وقع عليها ، ولا يزال . والظالم دائما الرجل ، فهو القوى القادر على فك السلاسل من يديها الى رجلها الى لسانها . فاذا كان العبيد قد تحرروا ، فان المرأة هى آخر العبيد .

ومن الطبيعى مادام الرجل هو الحرية .. فتاريخه فى ممارسة الحرية قديم جدا . ومن ثمرات الحرية : القدرة .. وفتح المواهب من كل لون وحجم .. بينما الضغط والكبت والقهر يقتل مواهب المرأة فى كل مكان وزمن .

فاذا كان هناك مليون رجل حر ، فان عشرات من النساء الاحرار .. ومن المليون حر ان يظهر عدد اكبر من الرجال وبعض العبقريات .. ومن ثمرات القليل من احرار النساء لا تتولد الموهبة تظهر العبقرية ..

ولا شىء يدل على قلق المرأة وأرقها وحيرتها الا الموضة .. فالموضة هى الطالعة النازلة ، الواسعة والخانقة . طالت الاكمام ارتفع الذيل .. واذا ارتفع هبطت فتحة العنق .. واذا قصر شعر تدلت اقراطها والسلاسل المعدنية من رقبة واذا برز صدرها توارت اردافها ،.. والالوان حائرة الملابس والشعر والعيون .. كل شىء فى مكانة حائر بين الرقبة والذيل والاكمام وتضخمت النظارات السوداء وسقطت ، على الأنف وانحنى العنق بما يعطى انطباعاً بان المرأة ضعيفة النظر .. وبانها لا تقوى على حمل النظارة السوداء .. والمرأة تحب ان تكون ضعيفة .. واهية .. منكسرة .. رقيقة والحقيقة انها ليست كذلك ـ انها تبدو فقط .

يقول الاستاذ العقاد ، أعدى اعداء المرأة الفكر العربى الحديث : ان حياة المرأة هى تتجمل وتتعرض وتنتظر ..

اى تضع كل زينتها ، اى كل اسلحتها وذخيرتها الحية ، وتعرض نفسها على الرجال ، وتتربص وتنتظر ماذا يقولون وماذا يفضل بعد ذلك ..

والمرأة تمضى وقتا طويلا جدا من أجل ان تبدو أجمل ، فاذا عرضت كل ذلك

على الرجال ، فهى تتيح لهم فرصة ان يعبروا عن الذى رأوا ، وعن الذى يريدون ويقررون .. وهى تتيح لنفسها فرصة ان تختار .. فما الذى تختاره ؟

انها تختار انسب الرجال لان يكون أنسب الآباء لطفلها .. فكل هذا الجمال والتجميل من اجل اقوى الرجال وأغناهم .. أقواهم جسميا واجتماعيا وأقدرهم على اقامة العش وحماية الصغار فيه .. الطيور تفعل ذلك .. فالانثى تدور حول العش ..

أو بالقرب منه .. ويظهر الذكور واحدا بعد واحد .. كل واحد ينفخ ريشه ويبرز منقاره ويلفظ صوته .. ويستعرض قدرته فى منازلة الذكور الاخرى .. فاذا استطاع كل ذلك ارتضته الانثى .. وملكة النحل تخرج من الخلية ومن ورائها كل الذكور .. وتطير عاليا وبعيدا ويتهالك الذكور من الأرهاق .. فلا يبقى الا ذكر واحد هو اقواها .. هذا الذكر تختاره لها .. وترى ذكور النعام تروح وتجىء وتهدد بعضها البعض وتتضارب وتنزف دما .. فلا يبقى الا القادر على حماية المنطقة والانثى وتبادل النوم على بيضها بعد ذلك ..

ففى الوقت الذى تنام فيه الاناث على البيض .. أو تحمى الصغار ، يكون الذكور فى اماكن اخرى تقاتل وتجمع الطعام ثم تعود لحماية الأم وصغارها .. وفى رحلات الذكور بعيدا بحثا عن الطعام ومقاومة لقوى الطبيعة ومنازلة للاعداء والمتعصبين .. استطاعت الذكور ان تكتسب قدرات جديدة متنوعة .. واستطاع الذكور من الانسان ابتداع اساليب جديدة فى الحصول على الطعام وتقطيع الاشجار واختراع أسلحة القتال .. أسلحة الحرب والسلام ..

فالمرأة هى صانعة الحياة ..

ولكن الرجل هو الذى يطور الحياة ..

فالمرأة هى الأم . ومن أجل ان تكون أما ، فانها تختار اقوى الرجال . ومن أجل ان تبقى الابوة طويلة ، يجب ان تدفع الرجل فى حبها .. فى الارتباط بها والحرص عليها والدفاع عنها والتضحية من أجلها ..

ولأن المرأة شديدة القلق ، لا تعرف الامان .. لانها ضعيفة .. ولان فترات مرضها طويلة ، فلابد ان يكون فى حمايتها وصغارها ، من هو قوى قادر على العطاء وعلى ان يجدد عطاءه من أجلها وصغارها ايضا .. وكان لابد ايضا من أن تتأكد لها هذه العلاقة الضرورية .. فكانت قوانين الزواج التى تضعها الدولة والمجتمع والدين ..

هل الامومة قد عوقت المرأة ؟

نعم . ولكن الامومة هى مالا نهاية له من العطاء والحماية والحضانة والتربية من أجل استمرار الحياة .. حياة المرأة وحياة الرجل والمجتمع وبناء الحضارة ..

فالمرأة تنفرد بالأمومة .. اعظم وأروع شكل من أشكال الابداع .. انها الموهبة الفريدة التى تقدر عليها المرأة ولا يستطيعها الرجل ، انه أروع واعظم فارق بين الاثنين ..

ولكن التساؤل من حين الى حين عن : أيهما اعظم .. ايهما اقدر .. ايهما اكثر عطاء .. ايهما اعمق تضحية : المرأة أو الرجل ، هذا السؤال معناه ان المرأة لا تزال تحب ان تلعب دور « التضحية » وان الرجل هو المعتدى .. هو القاتل !

ولكن يجب ألا ننخدع بهذا الدور .. فالمرأة لا تكره أن تلعب هذا الدور .. وانما هى تحب ان تبدو الضحية .. الضعيفة .. المغلوبة على أمرها .. المثيرة للشفقة .. فإن حدث فإن المرأة تحب أن تنظر من وراء الدموع .. فالدموع لا تدل على انها بالغة الألم شديدة الحزن .. وإنما الدموع هى نشاط زائد فى غددها الدمعية .. غسيل لعينيها لترى أوضح وتنفذ أعمق .. فالمرأة تكون فى تمام قدرتها على الملاحظة وهى تبكى ..

ولكن الرجل اذا بكى انسدت الدنيا امامه .. قامت الدموع بدور الطوفان يقطع المواصلات ويهدم البيوت ويعطل الحياة كلها .. ولا كذلك دموع المرأة ..

والمرأة تحب أن تكون الضحية لمن يفترسها من الرجال الذين تحبهم .. ففى شعورها بالضعف أعظم متعة لها .. وفى شعور الرجل بأنه القوى الجبار الوحش الكاسر ـ أو الذى يقوم بهذا الدور ما يضاعف سعادتها ايضا ..

فهذا الظهور بالضعف أو التظاهر ، يقوى قدرتها التفاوضية ..

والرجال يضيقون بدموع المرأة .. لانهم لا يعرفون أن الدموع لا تعنى شيئا خطيرا . بل أن الدموع تؤكد لنا خطأ تربويا هاما . فنحن عندما كنا صغارا قيل لنا : الدموع للمرأة . والرجل لا يبكى !

وهو خطأ تربوى . فالمرأة لانها تبكى فإنها تفرج عن نفسها ، تخفف من توترها فالدموع صحة . والرجل لأنه لا يصح أن يبكى ، فإنه يضغط على نفسه ويكبت ويكتم .. وهذا الضغط يؤدى الى احتباس رغباته وغضبه وإضطرابه

وقلقه .. ولذلك إذا بكت المرأة استراحت ، وإذا بكى الرجل مات .. وكثيرا ما رأينا الام التى تقول انه لا حياة لها بعد موت عزيز عليها .. تبكى وتصرخ وتلطم وتمزق ملابسها وتضع الطين على رأسها وتتمرغ فى الارض .. ثم لا شىء بعد ذلك . فكل هذا الذى فعلته ، هو تنويع لاشكال من التخفيف من الألم والتوتر النفسى والعضلى .. بينما الرجل يبكى جالسا ، ثم يسقط ميتا !

فالحزن يقتل الرجل ، ولكنه لا يقتل المرأة .. والعش والبيت من صنع الرجل للمرأة وأولادها ..

ولكن زراعة الارض من صنع المرأة .. فعندما أقامت فى البيت ، وغاب عنها الرجل فى الغابات ، راحت تقلم الاشجار .. ولما تعرضت الارض لاشعة الشمس ، قامت الشمس بتشقيق التربة ، ثم دفع الهواء بذور الاشجار الى الشقوق ، فكانت الزراعة التى طورها الرجل .

والرجل هو الذى اقام الاسوار واخترع الابواب والنوافذ والمفاتيح والاقفال والاسلاك الشائكة والاسلحة .. ثم من أجل بقاء البيت والام والاولاد ، كان الاتفاق على عدم الاعتداء والتعايش السلمى والسلام ..

★★★

وأساس هذه التساؤلات ذات المعنى الواحد ، وفى مناسبات متعددة : ان المرأة تشكو من ظلم الرجل . ولو أعطاها المساواة ، لكانت فى مثل قوته وعظمته .. ولكنه لم يفعل ..

ومعنى ذلك ايضا : ان المرأة غير راضية عن انوثتها .. وانها كانت تتمنى ان تكون رجلا ..

ولذلك ظهرت فى التاريخ « بنات الأمازون » وهن نساء قطعن أثداءهن حتى لا يرضعن طفلا ، واقمن فى جزيرة نائية بعيدا عن الرجال حتى لا يحملن .. أى حتى لا يضعفن ويلزمن البيت فى فترات الحمل والولادة والحضانة واشتغلن بالزراعة والصناعة والقتال ـ دون حاجة إلى ذل الرجل .. ودون استسلام لضعف الانثى !

ولم تستطع المرأة أن تقاوم طبيعتها طويلا .. فاستسلمت للرجل .. أو أن الرجل هو الذى أبطل عزلتها ، وأنهى مقاطعتها الشاذة لطبيعة الانسان ..

وفى كل مرة تستشعر المرأة الظلم الواقع عليها يتأكد عندها أن الرجل قوى يزداد قوة ، وان المرأة ضعيفة تزداد ضعفا . ويوم سارت النساء فى نيويورك

عاريات الصدور تماما كان ذلك احتجاجا على انوثتها .. فإن كان الرجل يريد ان يرى ثدييها .. فهى تعرض النهدين ولا تشعر بأدنى حرج لانه هو الذى طلب اليها بإسم الاخلاق والدين والغيرة على ملكيته الخاصة ، أن تخفى المرأة صدرها وأن تشده بالسوتيان ليبدو رجراجا مستديرا .. فإذا كان هذا هو الذى يريد والذى يعجبه ، فالمرأة قد مزقت السوتيان وكشفت الصدر استخفافا بكل قيود الرجل ..

وبعض النساء سرن عاريات تماما .. أى أن المرأة لا يهمها ان تطيع الرجل وأن تخفى ما يريدها ان تخفيه ..

فهى فى حالة غضب وسخط وتمرد على أنوثتها ، وعلى مفهوم الانوثة الذى ابتدعه الرجل . وهى ثائرة على استسلامها التام لكل ما جاء فى قاموس الرجل ، قيدا حديديا وذهبا على سلوك المرأة !

يقول المؤرخ الكبير توينبى أن أعظم حدث فى تاريخ المرأة فى كل العصور هو يوم قررت من ثلاثين عاما أن ترفض اى أجر إضافى لكى تعمل فى يوم اجازتها - انها رفضت أى مبلغ من المال ، ثمنا لحريتها.. حريتها فى الا تذهب إلى المكتب أو المصنع .. وان تقول للرجل المدير وصاحب الشركة : لا .. للرجل وللفلوس التى يدفعها ثمنا لاستعبادها .. ثمنا لحريتها فى أن تتساوى بكل الرجال فى كل وقت ..

ويقول توينبى : وأعظم ما فى هذا القرار ايضا انها رفضت ان تذهب فى يوم اجازتها إلى أحضان رجل .. اى رجل .. انها تريد أن تكون حرة تماما من سلطة الرجل المدير والرجل الزوج والعاشق !

ولا تزال المرأة ترى ان حريتها فى أن تقول للرجل : لا .. حتى لو لم يكن لهذا الرفض أية نتيجة !

فهى قد قالت : نعم كثيرا وطويلا ، وجاء دورها فى أن تقول : لا ..

ولكن لا تستطيع ان تقول : لا .. دائما ، فالمجتمع من صنع الرجل . والقانون من صنع الرجل . والمثقفون من الرجال أكثر ويزدادون عددا وعتادا ..

ولذلك فالمرأة لابد أن تساير الرجل وأن تهادنه وأن تسير إلى جواره وان ترضى بأن يتفضل عليها بأن يدفعها امامه أو يجلسها بدلا منه .. ولذلك فالمرأة التى تعمل تستعير أساليب الرجل فى الحياة معه .. فهى تقصر شعرها وتتكلم بصوت عال وترتدى البنطلون والقميص .. وتجلس على طرف المقعد والمكتب ..

وتدخن .. وإذا تحدثت إلى الرجل فإنها تقترب منه ، بما يدل على أنها مثله تماما .. وانها لا تخاف منه إذا اقتربت أكثر .. ومن الممكن أن تشتبك معه .. فى الكلام وبالأيدى ايضا ـ لا خوف عندها . فهى تدخل عالم الرجال بشروط الرجال . وهذا الدخول والخروج جعل المرأة أقل قلقا وتوترا وخوفا .. ولكن هذا الاقتراب من الرجل لا يعطيها قدرته على الابداع والمغامرة والاقتحام فى كل المجالات ..

ولكن إذا كانت المرأة لم تتفوق على الرجل فى مجالات كثيرة ، فإن قدرتها على الصبر تضرب أرقاما قياسية .. فآلام الحمل والولادة لا يقوى عليها الرجل .. وفنون التمريض فى المستشفيات لا يقوى عليها الكثير من الرجال ايضا .

والمرأة اعتادت فى كل تاريخها ان تستند إلى أحد .. ان تعتمد عليه .. ان تتحايل على كتفى الرجل .. على أن يبنى العش وأن يحميه .. وهذا الاعتماد على الرجل يسعدها ويسعد الرجل أن يكون هذا قويا مسيطرا متسلطا سيدا ..

ولذلك فالرجل هو الذى تفوق فى كل فنون المرأة . أى فى كل الأعمال التى تقوم بها المرأة .. فهو أحسن الطهاة .. وأحسن مصممى الأزياء ومصففى الشعر وأحسن أطباء الولادة ..

يقول الاستاذ العقاد أيضا : ان المرأة تبكى طوال حياتها ألما وحزنا على فقيدها ، ولكن ليست من الأديبات والشاعرات من استطاعت ان تبلغ عظمة الرجال فى بكائهم وحزنهم .. رغم أن البكاء من أخص خصائصها .. فإذا ذكرنا ـ مثلا ـ الخنساء وهى ترثى أخاها ، لوجدنا ان المتنبى وابن الرومى والاعشى والبحترى قالوا ما هو أعظم وأعمق وأروع ..

ولو قرأنا كتاب « اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام » للمؤرخ السورى عمر رضا كحالة لوجدنا أكثر من ثلاثة آلاف شاعرة .. ولكن ليس بينهن « الشاعرة » التى تستوقفك وتجعلك تحاول حفظ بيت واحد مما قالت .. ولا واحدة .. بل لو حاولت ان تتذكر من شاعرات العرب خمسا فقط ، ما استطعت . لانهن « ناظمات » أية شاعرات متواضعات القيمة الفنية والجمالية والفلسفية !

أما الفيلسوف الألمانى شوبنهور وهو أستاذ العقاد فى كراهية المرأة واحتقار قدراتها ودورها فى التاريخ فهو يرى ان المرأة ليست هى أنثى الرجل .. وإنما أنثى الرجل قد انقرضت لاسباب غير واضحة لدينا .. وأن المرأة هى من سلالة حيوان قريب الشبه بالانسان .. وقد قفزت الى فراشه فى غياب نصفه الآخر ! ..

وبسرعة توافقت معه وتأقلمت وتكيفت .. ومن حين إلى حين تظهر المرأة على حقيقتها ، فإذا هى مختلفة عن الرجل فى كل شىء ـ فهى ليست أنثى الرجل ، وإنما هى تذكرنا بالانثى المفقودة .

ويرى شوبنهور ايضا . ان مشكلة المرأة هى انها تحاول اقناعنا بأنها النصف المفقود .. وهذه المحاولة هى مصدر تعاستها وشقاء الرجل أيضا .. تحاول ان تقنعنا بشتى الحيل والبدع والاكاذيب والمؤامرات ، انها النصف الضائع ، ونحاول ان ننسى ذلك ، ولكن لاننا لم نفلح فى العثور على نصفنا الضائع فإننا نرتضى « بدل الفاقد » ! !

ويقول شوبنهور أيضا : لولا هذه المعارك الداخلية التى عوقت مسيرة الرجل وآخر تطور المرأة فى اللحاق بالرجل ، لكانت الانسانية تقدمت اعظم وأعمق وأروع ولكنها المرأة البديلة لا تكف عن اقامة المعارض فى كل بيت . من أجل الاعتراف بها . فإن اعترف الرجل طالبته بأن يتعاقد معها ، واى تعاقد معها أن يشهد كل الناس على ذلك .. انها « تورط » الرجل بالحب .. والاولاد .. وإنها وحدها الضحية !

أى أن أعظم إنجازات الرجل هو التخلص من قيود المرأة ومشاكلها .. وهذا يؤكد حرية الرجل مرتين : مرة لانه استطاع ان يتخلص من كل مشاكل وعقبات المرأة البديلة ، ثم عندما يخلص من بعض ذلك ، حقق كل انجازات الحضارات الانسانية ؟ !

للكاتب الامريكى إيزال دينسن قصة جميلة موضوعها : أن راهبات فى أحد أديرة البرتغال يضعن ملاءات السرير البيضاء لأميرات الأسرة المالكة . يجب أن تكون الملاءة ناصعة البياض . فإذا سقطت عليها دماء العذرية ، ظهرت البقعة الدموية واضحة لكل عين . ففى « الصباحية » العروسين يعلقون الملاءات البيضاء من الشرفات ويجىء الاسقف الاكبر ويقول باللغة اللاتينية : Virginem. eam.. tenem ومعناها : أقرر أنها كانت عذراء ! ثم تعاد الملاءة الناصعة البيضاء الصارخة الدماء إلى المتحف لتكتب عليها الراهبات بالذهب اسم الاميرة دليلا على طهارة الأميرة وفضلها .. وتكون هذه الملاءة من مفاخر الأسرة المالكة ..

وعندما ذهبت الاميرات لمقابلة الراهبات للفرجة على هذه الصناعة وأهدافها النبيلة .. مادمت الراهبات تعرضن على الأميرات ملاءات جديدة البياض ـ دون

ان تكون عليها بقع ولا مواد مشغولة بخيوط الذهب .. وبلا أسماء .. !

ونظرت الأميرات بعضهن إلى بعض فى حسرة .

اما حسرة على الاميرات اللائى لم يكن عذارى . وأما الحسرة على أنه كان فى استطاعتهن الا يتعذبن بالفضيلة وقيود الفضيلة !

أما معانى القصة فهى : ان الرجل فرض على الفتاة ان تكون عذراء إلى ليلة الدخلة .. وفرض على الراهبات ان يكن عذارى حتى الموت ..

الفتاة تحرص على عذريتها ، ولكن الرجل لا يحرص على طهارته .. أى أن الرجل يريد للفتاة التى سوف تكون زوجته ان تظل عذراء ، بينما يعتدى على فتيات آخريات .. على عذرية فتيات اخريات !

وهو الذى يفرض على الراهبة ان تظل دائما عذراء ..

فلا توجد قاعدة واحدة للفضيلة .. ولا توجد شروط واحدة للعذرية .. الرجل هو الذى يضع القواعد المتضاربة وهو الذى يفرضها بقوته ، ولا يهمه ما يصيب المرأة من قلق وحيرة وخوف . أنه اراد ، ولا اعتراض على إرادته .. فالمرأة مواطنة فى دولة المتناقضات التى إخترعها الرجل وأملاها بالقوة على المرأة !

★ ★ ★

تقول الأديبة الوجودية سيمون ديبوفوار فى كتابها « الجنس الثانى » انهم فى جنوب فرنسا يبعثون بقطعة من القماش عليها بقعة دم إلى أقاربهم فى أمريكا اللاتينية - يؤكدون أن ابنتهم ليلة دخلتها كانت عذراء - شرف ريفى ما بعده شرف .

وأن قطعة القماش هذه ليست إلا رسالة من رجال فرنسا إلى رجال أمريكا اللاتينية بأنهم لا يزالون يتمسكون بالفضيلة . وأن الفضيلة هى كمال المرأة ، وعظمة الرجل ..

وترى سيمون ديبوفوار ان هذه أعظم أكذوبة فى العلاقات بين رجل وأمرأة .. الرجل فرض الفضيلة على المرأة ، ولكنه لم يفرضها على نفسه .. أن المرأة تحب أن تعيش كريمة شريفة .. يسعدها أن تكون للرجل الذى تحبه وتختاره أبا لأولادها حارسا سيدا لها بشرط أن يكون هو الآخر ملتزما بنفس القيود التى وضعها على حياة المرأة وأفكارها ..

ولكن الرجل لأنه الأقوى الأغنى الأكثر حرية ، يستخدم معيارين : أخلاقيات المرأة .. وأخلاقيات الرجل .. أخلاق العبيد وأخلاق السادة ..

ولذلك فالرجل هو الذى فرض الحرب على المرأة .. وهو الذى اختار للحرب ميدانها فى البيت .. فى جسم المرأة .. هو الذى اختار الحرب ونوع السلاح

أما الفيلسوفة الألمانية الوجودية « حنا أرنت » فتقول : إن الاكاذيب متبادلة .. هو يكذب على المرأة ، وهى تكذب عليه أيضا ..

هو يقول : انها الجنس اللطيف ، وهى تقول : إنه الجنس العنيف .. هو يريد شعرها الحرير وهى تريد شعر شمشون المجعد .

فلا هى ضعيفة لطيفة ، ولا هو عنيف جبار .. ولكن يرضى المرأة ان تجعله يحب ضعفها .. فتعطيه المزيد مما يحب .. ويرضى غرور الرجل ان يقال له إنه قوى جبار فيزداد قوة أو يتظاهر بالعنف والقسوة والغيرة والموت فى سبيلها ..

وتقول السيدة حنا أرنت : تراشق الاكاذيب بين الجنسين هو الذى جعل الحرب سجالا بينهما .. ولولا هذه الحرب الضيقة النطاق ، ما كان للحياة معنى أو طعم .. ومن الحرب إلى وقف اطلاق النار ، إلى إطلاق النار ثم وقف القتال والمفاوضات والوساطات .. ووضع الأطفال فى المناطق المنزوعة السلاح والألغام بين الرجل والمرأة ، هى التى جعلت المرأة تستخدم أقوى اسلحتها لاستدراج الرجل إلى العش . وإستعانة الرجل بأقوى اسلحته هى التى جعلت المرأة تطارد الرجل .. فالشد والجذب هو الحياة فالحياة هى هذه الاكاذيب واختراع حقائق جديدة تتحول إلى أكاذيب تتحول إلى حقائق .. إلى غير نهاية !

★★★

ومن قال ان المرأة ليست عبقرية .. إنها كذلك .

لقد استطاعت ان تجعل وحشا كاسرا هو الرجل يقيم لنفسه مصنعا للقيود الذهبية والأقفاص الفضية .. ثم ادخلته هذا القفص الذى هو من صنعه واقنعته المرأة بأن هذا القفص هو أعظم قصور الملوك فى العالم .. وإنه صاحب التاج وإنه الملك .. ثم إنها استولت على كل أمواله .. فالمرأة هى أكبر قوة استهلاكية فى الدنيا ..

ثم من الذى أوهم الرجل واقنعه بأن المرأة التى تقف على باب القصر تتسول فضله وكرمه هى الضحية فى أوسع قفص .. إنه فى القفص .. يغوص فى أعماق المحيط ويعود مجنونا بالعزلة فى القفص .. ورغم حريتها فهى تفضل ان تكون سجينة على بابه .. ولكن غرور الرجل هو ان يكون وحده بعيدا عنها .. فى السجن .. فى القمة .. هذه الخدعة من صنع المرأة ايضا فأى عبقرية للرجل ؟ !

ميكى ماوس
والسلام العالمى !

يحتفل العالم بمرور ٦٥ عاما على ميلاد شخصية « ميكى ماوس » الذى اخترعه المنتج السينمائى الأمريكى والت ديزنى (١٩٠١ ـ ١٩٦٦) فأسعد به ألوف ملايين الأطفال .. فشخصية الفأر ميكى قد الهم الأطفال والآباء والمدرسين : ان الذكاء يغلب القوة .. وان القط مهما كان طويلا عريضا قادرا على ان يسحق الفأر الصغير بيديه .. فإن هذا الفأر بذكائه قد افلح دائما فى ان ينتصر على القط .. ألوف المرات والوف الحكايات .. وظهرت شخصيات كاريكاتورية كثيرة تصور هذا الصراع بين القوة الغاشمة وبين الذكاء والخيال والحيلة .. وانتصر الذكاء دائما !

وفى نفس الوقت تعمقت كراهية الأطفال للقوة .. وكراهية الانسان لكل من هو باطش لا يعرف الرحمة .. أو لأنه قوى فإنه يحتقر الضعيف والصغير .. و « ميكى ماوس » هو المواطن العالمى .. لأن ميكى ماوس يرضى غرور ملايين الناس الذى هم ضعفاء .. ويسعدهم ان يكون النصر حليفهم فى النهاية .. وان الانسان من الممكن أن يكون قويا جاهلا وان يكون قويا مضحكا .. وان قوته الحيوانية كارثة عليه .. وفى نفس الوقت من الممكن ان يصل الانسان بذكائه وصبره وايمانه بنفسه الى ما لم يبلغه الأقوياء .. أقوياء العضلات وأقوياء المال والمركز ..

ونحن نعيش فى عصر « الانسان الصغير » .. أى فى عصر الجماهير .. رجل الشارع .. الناس الضعفاء إذا وقفوا فرادى ، والأقوياء إذا وقفوا معا .. ولذلك فمئات الملايين من « ميكى ماوس » قادرون على كتابة التاريخ وتسييره حسب هواهم ..

★ ★ ★

ولذلك فميكى ماوس كان تعبيرا صادقا عن قوة العقل التى هى أعظم من صلابة العضلات !

وهذه القصة لها اصل تاريخى دينى قديم ..

ففى « التوراة » وفى « القرآن الكريم » أيضا قصة انتصار الفتى داود النبى

والملك على والعملاق الجبار جليات .. والمعركة التاريخية التى كانت بينهما .. والتى انتهت لصالح الفتى الصغير الذكى ، وانهزم العملاق المدرع بالحديد والنحاس ..

ففى سفر صموئيل الأول الاصحاح ١٧ : « .. فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات .. طوله ست اذرع وشبر . وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابسا درعا حرشفيا .. فوقف ونادى صفوف اسرائيل لهم : لماذا لا تخرجون لتصطفوا للحرب .. اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل الى . فإن قدر ان يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا . وان قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون انتم لنا عبيدا وتخدموننا ..

« فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب الى هذا الفلسطينى لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب » .

« فقال داود : كان عبدك يرعى غنما فجاء اسد ودب وأخذ شاة من القطيع . فخرجت وراءه وقتلته .. وانقذتها من فمه . ولما قام على امسكته وضربته فقتلته .. الرب الذى انقذنى من الأسد والدب ينقذنى من هذا الفلسطينى .

« فقال شاول : اذهب فليكن الرب معك » .

« وألبس شاول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه والبسه درعا . وتقلد داود سيفه فوق ثيابه وعزم ان يمشى لانه لم يكن قد جرب ..

« فقال داود : لا اقدر ان امشى بهذه لانى لم اجربها .

« ونزعها داود عنه .. واخذ عصاه بيده وخمسة حجارة من الوادى ومقلاعا فى يده وتقدم نحو الفلسطينى .. ولما رأى الفلسطينى داود استحقره لانه كان غلاما » .

« قال الفلسطينى لدواد : وهل انا كلب حتى انك تأتى إلى بعصا »

« ولعن الفلسطينى دواد وآلهته .. وقال لداود : الى فأعطنى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية » .

« قال داود : انت تأتى الى بالسيف ودرع وترس . وانا أتى اليك باسم رب الجنود اله صفوف اسرائيل .. هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك واقطع رأسك . واعطى جثث جيش الفلسطينيين لطيور السماء وحيوانات الأرض .

« ومد يده واخذ حجرا وضعه فى المقلاع وضرب الفلسطينى فى جبهته فسقط على وجهه على الأرض . وضرب الفلسطينى وقتله وقطع رأسه . فلما رأى

الفلسطينيون ان جبارهم قد مات ، هربوا .

الصورة التى امامنا : ان جليات كان قد تذرع بالحديد والنحاس .. طويل .. عريض .. مخيف .. فخرج اليه شاب صغير .. نظر اليه فوجد جبهته عارية .. فأطلق حجرا على رأسه فسقط القوى الجبار .. وداود هو الملك النبى عليه السلام .

وفى التراث اليهودى ان داود هذا كان راعيا للأغنام .. وان اباه كان يراه اقل جمالا ووسامة من اخوته ..

وفى التراث اليهودى ان داود عندما راح يجمع الاحجار من الوادى ، كانت الاحجار هى التى تقفز الى يده .. كأنها تعرف الهدف من اختيارها .. أو انها تتسابق لتنال شرف القضاء على الجبروت والقوة العمياء .

وكان داود عاقلا حكيما وكان محبا للحياة أيضا . وكان شاعرا يرتل المزامير .. سفر « المزامير » فى التوراة هو من تأليف نبى الله داود ..

فهو قد جمع كل ما فى الدنيا : الملك والنبوة وحب الحياة والخوف من الآخرة .. السيف والقلم والفصاحة والبلاغة وجمال الصوت ..

« واذكر عبدنا داود ، ذا الايد ، انه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق . والطير محشورة ، كل له أوّاب وشددنا ملكه واتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين .. »

« وعلمناه صنعة لبوس لكم ، لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون » .

« وأتينا داود منا فضلا : يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . »

القرآن الكريم يصوره هكذا قويا والجبال والطيور كلها تصلى معه لله .. وكانت له صناعة .. وكانت له قدرة على ان يجعل الحديد يلين يصنع منه الدروع ..

المؤرخ الاسلامى أبو جعفر الطبرى قال لنا : ان داود إذا رتل المزامير فان الطيور والحيوانات تتساقط من النشوة فى الكلام . وكانت الطيور والوحوش فى الغناء وراءه حتى تموت جوعا .

وقال ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسمع ابا موسى الاشعرى يرتل القرآن لقد أوتى ابو موسى مزامير داود .. يحكى لنا القرآن الكريم قصة داود وجالوت ـ القرآن الكريم يسميه جالوت : ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا

افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .
فهزموهم بإذن الله وقتل دادو جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء .. »

ان من عادة داود الملك ان يتعبد يوما ويمكث بين الناس يوما وان يجلس لنسائه قال ان داود طلب من الله سبحانه ان يعطيه ما اعطى الانبياء قبله . فقال له ان الله ابتلاهم جميعا . ابتلى ابراهيم بذبح ابنه ، وابتلى اسحق ، وابتلى يعقوب بالحزن على ابنه ، وابتلى ايوب بالمرض والفقر . وطلب داود ان يبتليه الله وأن يعطيه قوة .. فقيل له : ولكنك مبتلى !
اما بلاء داود فحب الجمال .. جمال الانسان وجمال الكلام والغناء ..
وفى يوم رأى داود حمامة من ذهب فمد يده اليها فهربت منه .. فسار يطاردها حتى وقفت على سطح بيت .. وكانت على السطح امرأة جميلة . نفذت الى قلبه وعرف ان زوجها واحد من جنوده فأرسله بعيدا بعيدا حتى مات .. وتزوجها وكانت أم الملك النبى سليمان عليه السلام . وكانت لداود تسع وتسعون زوجة .
وفى يوم عبادته وصلاته فوجىء برجلين دخلا عليه . وادهشه ذلك ففى مثل ذلك اليوم لا يلقى احدا . وقالا له انهما جاءا يحتكمان فى امر خطير .
احدهما قال : اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة وهو يريد ان يستولى على نعجتى لتكون له مائة نعجة .
فسأله داود : يريدها دون رغبتك ؟
قال : نعم .
قال داود : اذن هذا ظلم وسوف أضربه حتى أحطم عنقه .
قال له : ولكنك لا تستطيع لانك يجب ان تضرب عنقك اولا .. فأنت اخذت زوجة رجل أنت قتلته ؟
وعرف داود هذا البلاء .. وسقط ساجدا يطلب المغفرة من الله .. ومن يومها حتى مات ، لم يرفع رأسه الى السماء ، خجلا من الله !
والقرآن الكريم يقول : « وهل اتاك نبأ الخصم اذا تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . ان هذا أخى له تسع

وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة . فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . فغفرنا له ذلك . وان له عندنا لزلفى وحسن مآب يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . » .

ويقال فى التراث اليهودى فى كتاب « الاجادا » ان الحجرة التى صوبها داود الى جبهة جالوت قد سددتها الملائكة .. فهى حجرة موجهة !

يقول الله تعالى فى هذا المعنى « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » .

أما أروع ما فى هذه القصة ان داود استخدم « المقلاع » والمقلاع هو بالضبط ما نعرفه اليوم باسم الصواريخ التى تحمل الاقمار الصناعية الى ما حول الارض .. فالصواريخ حاملة الاقمار .. تندفع وتدور بقوة حول الارض ليكتسب القمر قوة فى اندفاعة اكبر واكبر وبعد ذلك يوجهونه الى الكواكب الاخرى ..

و « المقلاع » هو ذلك الحبل الذى نضع فيه حجرا . ونلفه حولنا مرة بعد مرة ، فيكتسب المزيد من القوة حتى اذا اطلقنا سراح الحجر اندفع الى هدفه بعنف ..

الصراع بين داود وجالوت هو جوهر الصراع فى العالم كله : القوة الغاشمة التى نريد ان نطوعها ان نرشدها .. ان نعقلها .. ان نربطها .. ان نتقى شرها ..

فكلما اخترع الانسان سلاحا ، اخترع سلاحا مضادا له .. فكلما ظهر جالوت حاولنا ان نجد سلاحا اخر يقوم بدور داود ..

فالاسلحة الهجومية : جالوت .. والاسلحة الدفاعية : داود ..

فلنفرض مثلا أن صاروخا عابرا للقارات انطلق نحونا وفى مقدمته رأس نووى .. واتجه إلينا . وهذا الصاروخ لأنه قادم من مكان بعيد لابد أن يكون كبيرا قويا قادرا على أن يجتاز المسافات الطويلة ويقاوم جاذبية الأرض واحتكاك الهواء ..

وبسرعة نطلق عليه نحن قذيفة صغيرة لها رأس نووى .. هذه القذيفة بها

تلسكوب وبها عقول الكترونية .. التلسكوب يرصد الصاروخ .. والعقول الالكترونية تحسب سرعته واتجاهه وموقعه .. وبسرعة جدا يتحدد مسار القذيفة الصغيرة لترتطم به وتنفجر ويتحول الاثنان الى تراب ذرى !

وإذا حدث فهو كارثة على الجميع . وهى نقطة تحول فى صناعة الاسلحة . لأن جوليات عابر القارات قد تصدى له داود الصغير وفتك به ! والمعنى أن داود الصغير قد انتصر على جالوت الكبير ..

ولكن من الممكن أن ينتصر جالوت أيضا ، إذا هو استخدم الأجهزة المضادة للعقول الالكترونية وقرون الاستشعار التى استخدمها داود !

بل ومن الممكن أن يكون داود نفسه عبئا على الدول التى تنتجه واذا اضافت إليه الكثير من العقول الالكترونية وغيرها من أجهزة الانذار والرصد المعقد .. فيكون فادح الثمن ويكون أكبر حجما . فى هذه الحالة تكون خسارة داود مخيفة . ويكون ثقيلا على ميزانية الدول الغنية القوية ..

فقط إذا كان داود رخيصا ، هنا تكون مصيبة جالوت لاحد لها !

ومن الممكن أن تنتقل المعركة بين داود وجالوت إلى البحر .. فيكون جالوت سفينة حربية ضخمة أو حاملة طائرات جبارة . ويكون داود غواصة ذرية . والامريكان والروس يتنافسون اليوم فى بقاء الغواصة أطول مدة ممكنة تحت الماء .. بعيدة عن العيون الالكترونية وكاميرات اقمار التجسس .. والغواصة الواحدة من هذا النوع تتكلف ألف مليون دولار . بسبب الأجهزة الهائلة المعقد التى تحملها والتى تجعلها قادرة على البقاء تحت الماء شهورا طويلة ..

فما الذى يمكن أن يفعله داود فى مواجهة هذا الجالوت الذرى .. إنه فى حاج إلى جهاز صغير . هذا الجهاز يجب أن يلتصق بالغواصة المعادية . ومن جس الغواصة يذيع المعلومات الخطيرة عن قوة محركاتها وحجمها ومكانها ع الارض وفى الماء ثم يحدد للغواصات أو الطائرات الطريق إلى ضربها

وهذه الحيلة عمرها ثلاثة آلاف سنة استخدمها السكان الاصليو لاستراليا . فقد كانوا يصيدون السلحفاة المائية عن طريق نوع من السم أسمه « السمك المصاص » يطلقونها على السلاحف فتلتصق ببطنها وتظل تمتد دمها .. وتتركها تنزف حتى تموت .. وحينئذ ينتزعون السمك المصاص ويطلقو على سلحفاة أخرى وهكذا .. ويطلقون السمك المصاص أيضا على سـ القرش .. والنتيجة فى كل الأحوال مهلكة .. فسمك القرش لا يكاد يشم رائـ

الدم حتى ينطلق إلى السلاحف . وهنا يهجم عليه السمك المصاص .

ولكن استخدام داود لمثل هذه الاسماك الالكترونية التى تلتصق بغواصات جالوت الذرية أمر صعب .. بل مستحيل .. فلو اكتشف الروس أن الامريكان قد الصقوا مثل هذه الأجهزة بغواصاتهم ، كان ذلك عملا عدوانيا مباشرا .. ربما أدى إلى الحرب !

★★★

ولقد رأينا فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ما فعله داود المصرى والسورى ضد جالوت الاسرائيلى . اسرائيل عندها دبابات امريكية حديثة . والمصريون والسوريون عندهم صواريخ موجهة . هذه الصواريخ كانت تفتك بالدبابات . لأن الصواريخ دقيقة التوجيه . وقد أدى استخدام هذه الصواريخ الى انقلاب فى موازين القوى .. فلم يعد ممكنا منذ حرب أكتوبر الاعتماد على الدبابات فى كسب المعارك ـ كما فعل روبيل فى الحرب العالمية الثانية !

فهذه الصواريخ التى استخدمها المصريون والسوريون قد أهلكت الدبابات .. وهذه الصواريخ تحتاج فقط الى شجاعة الجنود ..

وإذا كانت هذه الدبابات تستطيع أن تواجه مثل هذه الصواريخ اذا رافقتها صواريخ موجهة .. واذا ساندتها قوات برية بارعة التدريب !

وهذه الصواريخ صغيرة ورخيصة بينما الدبابات غالية الثمن ..

والصاروخ هنا : داود ..

الدبابات : جالوت ..

ولأن هذه الصواريخ لم تظهر فى الحرب العالمية الثانية استطاعت الدبابات الالمانية وقوات صغيرة سنة ١٩٤٠ ، ان تسحق القوات الفرنسية الأكثر عددا !

★★★

واستخدام العقول الالكترونية وقرون الاستشعار والليزر ، جعل الحرب معركة معلومات .. فهذه العقول الالكترونية تعرف مكان وسرعة وحجم القوات المعادية ..

وبسرعة تطلق عليها القذائف الموجهة بمنتهى الدقة ..

والذى يستطيع ان يحصل على المعلومات أسرع وأصدق ، هو القادر على دقة التصويب والاصابة والدمار ، والانتصار فى النهاية ..

فالحرب لم تعد حرب قوة ، وانما هى حرب معلومات ..

لم يعد جالوت صاحب المدرعات قادرا على النصر ، وانما داود صاحب العقل الالكترونى ..

ولذلك رأينا السفن الحربية الضخمة تغرقها زوارق الطوربيد حاملة الصواريخ الموجهة الكترونيا !

وهكذا صارت الطائرات والدبابات ضحية سهلة للصواريخ الموجهة ..

إنها قوة المعلومات وليست قوة النيران ..

والذى يدافع أحسن حالا من الذى يهاجم .. فالمدافع واقف على أرضه وحوله كل العقول وقرون الاستشعار والتصنت ، بينما المهاجم قد عرض نفسه واسلحته للعقول التى ترصده وتحدد مساره وهدفه وقدرته .

وبريطانيا فى الحرب العالمية الثانية افلتت من قنابل وصواريخ هتلر بسبب محطات الرادار على كل شواطئها .. فالانجليز اخترعوا الرادار فى ذلك الوقت .. وكان بدائيا ولكن هذه الأجهزة الرادارية كانت تنقل إليهم معلومات سريعة عن الغارات الالمانية ، هى التى أعدتهم وحشدتهم لمقابلتها ..

الرادار هو داود ..

والصواريخ الالمانية هى : جالوت .. واستطاعت الارجنتين فى حرب جزر فوكلاند سنة ١٩٨٢ توجيه الاساطيل البريطانية وان تغرق عددا كبيرا من السفن .. فقد كان لدى الارجنتين سلاح طيران صغير ولكن فى غاية الكفاءة .. ثم أن الأرجنتين استخدمت الصواريخ الفرنسية « اكزوسيه » المهلكة .. هذه الصواريخ كانت تنطلق على سطح الماء .. وكان الماء تحتها يكسبها سرعة وتصويبا أدق .. ولم يحدث ان طاش صاروخ واحد بسبب العقول الالكترونية والكاميرات فى مقدمته ..

والطيران والصواريخ الارجنتنية هى : داود .

واساطيل بريطانيا القوية الجبارة هى : جالوت ..

فكأننا قد عدنا الى ما كان عليه العالم فى القرن الثامن عشر .. عندما كانت الجيوش الصغيرة المحترفة المدربة تستطيع ان تواجه الجيوش الكبرى .. وفى كثير من الاحيان ، كان الصغير المدرب تدريبا جيدا ، ينتصر على القوى الغاشمة .. حدث عندنا أيام عرابى بقواته التى أمضت الليل كله فى الذكر والدعاء على الانجليز ، حتى سقطوا من الاعياء فلما كان الصباح داهمتهم القوات البريطانية المدربة الواعية !

عندنا مشكلة الآن :
فجالوت الغاشم القوى ، لم يعد له وجود الآن ..
وداود العاقل الذكى لم يعد له وجود أيضا .. فكل الدول تحاول أن تجعل من جالوت وداود شخصا واحداً : قوة واعية .. صواريخ واعية .. وغواصات عاقلة ..
وكلما اخترع الروس قنبلة أخترع الامريكان واحدة أقوى .. وكلما اهتدى الامريكان الى عقل يمشى تحت الماء ، اطلق الروس عقلا يدور حول الأرض .. فاخترع الامريكان عقولا تدور حول الأرض وحول الكواكب .
وهذا هو الذى يسمى : تعادل قوى الرعب ..
أى أن يتعادل الامريكان والروس فى قدراتهم على الحرب وعلى صد الحرب وعلى ردع المعتدى .. وفى ظل التعادل فى قوى الرعب لا يفكر أحد من الطرفين فى أن يبدأ حربا .. فكل المعلومات متاحة عند الجميع وضد الجميع .. وإذا بدأ واحد حربا فالنهاية معروفة : الدمار شامل للذين حاربوا والذين لم يحاربوا ..
فما الذى يمنع الدمار الشامل ؟ ما الذى يحول بيننا وبين الخراب النهائى للعقل الانسانى ولكل ما ابدعه العقل !
ان داود كان ذكيا قويا ، ولكنه كان نبيا أيضا .. أى أن قوته واعية . مربوطة ومحدودة بمبادىء الخير والحب والسلام من الناس . فكأن هذا الملك العظيم والقوة الهائلة اذا انطلقت دون رابط ، خربت دنيا .. ولذلك عززها الله وانار لها النبوة ..
ولم يعد فى زماننا انبياء ..
ولذلك فنحن نحلم بأن يكون القوى ـ جالوت ـ على خلق وعلى دين .. أو محب حياة والسلام ..
فالقوة بغير حب : متوحشة ..
والحب بغير قوة : هوان ..
ومن مئات السنين والملوك يحلمون بأن يكونوا فلاسفة ..
والفلاسفة يحلمون بأن بكونوا ملوكا ..
وبذلك يلتقى العقل والقوة ..
فالقوة بغير عقل : غاشمة ..
والعقل بغير قوة : ذليل ..

ويوم كان الاسكندر يفتح الأرض كان الى جواره استاذه الفيلسوف ارسطو .. والفيلسوف افلاطون حاول أن يطبق فلسفته عن العدل والحرية والمساواة فى احدى الجزر فلم يستطع .. فهو الفيلسوف الذى لم يقدر أن يكون ملكا ..

وما أكثر الملوك الذين ادعوا الفلسفة أو عجزوا عنها !

★★

★★

ولكن شيئا واحدا ينقذنا الآن بعد ان صار كل جالوت داود ، وكل داود جالوت أيضا ..

أنه الأمل .. الأمل فى أن يتلفت الانسان وراءه الى تاريخه فيرى العنف والقهر واذلال الانسان للانسان .. وان يتطلع امامه فيرى داود وجالوت رأسين فى جسد واحد .. يد تحمل قنبلة واليد الأخرى تحمل كتابا .. وليس حلا لمشكلة الانسان ان نتبادل اليدان القنبلة والكتاب .. ولكن الحل هو : ان ننزع القنبلة وان نفتح الكتاب ..

ولا توجد إلا قوة واحدة قادرة على ذلك : الدين .. أن يتطلع الناس إلى قلوبهم . وإلى ربهم .. وإلى أنهم جاءوا ليعيشوا وان تكون عيشتهم شريفة نبيلة . وان يعيشوا فى سلام مع النفس والناس ومع الله .. وان نؤكد لأنفسنا كل يوم أن القنابل لا يخرج منها صوت المؤذن ، وان كتاب الله لا يتطاير منه الشظايا ..

وإن لم يستطع هذا الجيل ، فنرجو من الله ان ينجح الجيل القادم .. واجيال من بعدهم . ومادامت هناك حياة ، هناك أمل .. ومادام هناك أمل نزع جالوت درعه وركع على ركبتيه ليكون فى مستوى داود .. يراه فى عينيه .. ويبتسم .. ويلقى داود بأحجاره .. ويتعانق الاثنان فداء لجيوش وراءهما استعدت للموت .. بلا قضية !

ولم يظهر بيننا
ذلك الشاب الأخضر

اللهم احمنا من هذا الجيل ، أما الذى يليه ، فلن يهمه كثيرا كل ما قلناه عن اجدادنا وأولادنا وعنهم !

لن يغفر لنا التاريخ أن الأحداث الكبرى مرت بنا واكتسحتنا ولم نقل شيئا مفيدا . فلا استوقفتنا الأحداث . ولا سجلناها ولا درسناها ولا حللناها .. ولا خرجنا منها بالموعظة الحسنة . ولا أشرنا الى من الذى ارتكبها . لا شىء من كل ذلك !

ما الذى قلناه عن الهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ؟ ما الذى قلناه عن هزيمة اليمن ؟

ما الذى سجلناه عن الوحدة وعن النضال كيف كان هذا وكيف تأتى ذلك .. وأين الناس من هذا القرار والفرار من القرار ؟ ! وماذا كان النصر العسكرى .. كيف ولماذا ؟ وأى أثر تركه فى الناس .. وهل استطاع النصر ان يمحو أثر الهزيمة .. أو هل بقيت الهزيمة مثل ذراع مقطوعة فى جسد صحيح .. هل بقيت الهزيمة قلبا موجوعا فى جسد منهار .. هل أدى النصر الى استقامة الظهر وانكسار القلب .. وفتح القناة مرة أخرى .. والانفتاح الاقتصادى والسياسى والنفسى .. والانغلاق العربى .. أى فتح الأبواب لكل الناس إلا فى وجه العرب .. ثم اعادة فتح الأبواب والنوافذ والسراديب المظلمة والميادين المضيئة والفنادق والمطاعم لكل العرب .. كأن شيئا من الخلاف لم يكن ، وكأن قطيعة لم تفصل بين الأشقاء .. كيف قاطعونا كيف عادوا ؟ هل الحكومات هى التى قطعت ، والشعوب لم تفعل . هل الشعوب عادت والحكومات لم تعد .. هل هو ضغط شعبى ؟ هل هو ضغط رسمى ؟

أن أحدا لا يدرى بالضبط ما الذى جرى ، وما الذى لم يجر بين العواصم ؟ . أو هل نحن العرب كذلك .. بغير سبب نذهب ، ولغير سبب نعود .. ؟ اذن فمن المنتظر ان تنسحب الأيدى التى امتدت ، وان ينكمش الناس الذين جاءوا وان تعود الى الهمس ومنع اللمس .. ممكن ؟ نعم ممكن وقد امكن كثيرا .

وشىء غير ذلك حدث فى امريكا بعد هزيمتهم فى فيتنام .. وقبل ذلك بعد هزيمة امريكا فى معركة بيرل هاربور عندما سحق اليابانيون اسطولهم البحرى .. وبعد سحقهم لليابان بالقنابل الذرية فى هيروشيما ونجاساكى ـ فعلى الرغم من أن امريكا هى التى انتصرت فقد شعر الأمريكان بالفزع والرعب . لأنهم ارتكبوا جريمة كبرى حطمت مثلهم العليا التى هاجر أجدادهم من أجلها . فقد هاجر الأوروبيون الى أمريكا : بلد التسامح والرحمة والثراء والحرية والامان .. هكذا تقول القصيدة التى نظمتها الشاعرة اليهودية أما لازاروس على قاعدة تمثال الحرية فى ميناء نيويورك فأين الرحمة والحرية بعد الذى حدث فى هيروشيما ؟ !

كانت صدمة مخيفة للشعب الأمريكى .. كأن اليابانيين هم الذين القوا القنابل على أمريكا .. كأن انقلابا عسكريا مدنيا أخلاقيا نفسيا قد حدث فى امريكا فإذا الشعب غير الشعب .. وإذا تمثال الحرية قد اخرج لسانه .. الف لسان .. لكل الشعوب المضطهدة والتى لجأت الى امريكا تقول لهم : لقد ضحكنا عليكم .. فأنتم اليوم رهائن حرب !

والمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانت اسبق الشعوب الأوروبية لمحاسبة نفسها عن الذى حدث .. لقد أيقن الألمان ان هتلر وجيوشه وطموحه قد كلفها الكثير جدا .. عشرة ملايين قتيل وعشرة ملايين مشوه وملايين البيوت والمصانع والمعامل التى سويت بالأرض .. فقد انقضت عليها القنابل من روسيا وامريكا وبريطانيا وفرنسا .. وأصبح الشعب الألمانى كله أسيرا ذليلا . وانفتحت على المانيا السينما الأمريكية والتليفزيون تصور المواطن الألمانى العادى عل أنه مجرم بطبعه .. وحش .. مصاص دماء . ضعيف مجنون بالعظمة وفى استطاعة أى قائد أن يضربه ويعذبه ويحتقره ان يفعل به ما يشاء بشرط ان يكون كل شىء منظما . فالقتل يجب ان يكون منظما والموت ابديا . والاغتيال جغرافيا .. فكل زعيم يطلب من الألمان ان يقفوا طوابير . هذا الزعيم هو وحده الذى يقدر على ابادتهم وابادة الدنيا كلها بأيديهم !

ولكن بسرعة انتظمت المانيا . ظهرت المصانع من تحت الأرض وبسرعة انبتت أرض العبقريات مئات العباقرة فى كل علم وفن . وبسرعة فائقة وقف الألمان يبنون بنظام كل ما انهدم بلا نظام !

زرت المانيا سنة ١٩٥٠ ورأيت الخراب والدمار والجوع والدعارة والبطالة ..

كنت اقف فى شارع الملك فى مدينة دوسلدورف فأرى أوله وآخره .. وكنت إذا اخرجت علبة السجائر خرجت من تحت الانقاض شقراوات لهن عيون جميلة تتسول .. وإذا اخرجت الشيكولاته امتدت لها أيدى الأطفال ، ولم تكن أم واحدة تنهر الا يفعل .. وإذا دخلت أحد المطاعم وجدت الألمان يجمعون بقاياهم فى ورقة ليأكلوها فى بيوتهم ..

وعندما وقفت خطيبا فى اتحاد مستوردى الأرز فى مدينة هامبورج . وقلت انني تخصصت فى الفلسفة الألمانية وامضيت عمرى كله اتمرغ فى كتب الفلاسفة الألمان والشعراء والموسيقيين .. وان دماء المانية فرنسية تجرى فى عروقى عن طريق أمى .. ثم ختمت كلمتى بقولى : ان الذى أراه فى ألمانيا هو معجزة لا يقدر عليها إلا شعب عظيم . والألمان شعب عظيم !

وفتحت أذنى للتصفيق أو كلمة شكر من أى أحد .. ولكن رجلا ضخما دق المنضدة بيده غاضبا ثائرا يقول : ان السيد القادم من مصر اهان الشعب الألمانى كله وهذا مالم يفعله أعدى اعداء المانيا ثم يقول لنا انه المانى العقل والقلب والدم .. يا سيدى لم تكن هناك معجزة .. المعجزة معناها ان السماء ساعدتنا .. السماء اسقطت علينا ملايين .. الموت جاءنا من السماء .. اننا نحن حققنا المعجزة .. بعقولنا وايدينا .. ليكن معلوما لديك .. أننى حملت أمى على ظهرى مائة كيلو متر .. وان المنديل الذى امسح به دموع أمى وعرقى هو نفس المنديل الذى كنت امسح فيه انفى .. هذه هى الحقيقة !

إذن لابد ان اعتذر عن استخدامك لكلمة المعجزة .. فانما قصدت ان الذى حدث كأنه معجزة .. شىء خارق .. أى لطبيعة الانسان الذى دمرته الحرب ، وحطمت كبرياءه وبددت خياله .. وفتحت له الأرض مقابر ومخابىء هذا الانسان ولكنه - هذا الانسان - أصر ان يفجر الحياة من كل أرض وان يملأ بالزهور كل شجرة ، وان يضىء بالعبقرية كل مصنع ومعمل .

وبسرعة نهض الرجل الألمانى يقول : ان كان هذا هو قصدك فأسف على الذى قلت !

وسمعت منه انهم ادخلوا العصا فى المدارس ومعاهد التدريب الملحقة بالمصانع ، فقد لاحظ الألمان ان الجيل الجديد معجب بالأمريكان معجب بالمنتصر الذى مسح بهم الأرض .. يتكلمون بصوت مرتفع وهم يرتدون الجينز

وهم يمضغون اللبان .. وهم يرقصون فى صمت ، وهم يدخنون .. وهم يحطمون الزجاجات عند الشراب .. وهم يعيشون على الاحلام الأمريكية ويعلقون صور جيمس دين ـ ذلك النموذج للشباب الصغير الضعيف المغلوب على امره والذى يثير عطف البنات والأمهات !

وظلت هذه حال الشباب الألمانى فى الخمسينات والستينات .

وبسبب النقد للألمان والاذلال الأمريكى لهم ، ظهرت المقاومة الشابة فى ألمانيا .. المقاومة للأمريكان .. وللقوات الأمريكية والقواعد العسكرية ، والمفاعلات النووية .. وتحطيم الأمريكان للغابات والأشجار .. واقامة المطارات ورصف الشوارع .. ومهاجمة ألمانيا نفسها التى عادت دولة صناعية رأسمالية كبرى .. فقد وجهت المانيا كل جهودها وملايين ملايينها الى الصناعة والاستهلاك حتى أصبحت اقوى وأغنى دولة صناعية فى العالم كله .. وأعفتها أمريكا من ان يكون لها جيش .. فلا شىء يبدد ثروات الشعوب مثل الجيوش فالأسلحة مثل فساتين السيدات لها موضات تتغير من عام الى عام . فكلما ظهر له سلاح مضاد وسلاح مضاد للمضاد .. وهكذا الى آخر مليون فى ميزانية الأمن الغذائى ..

وظهرت مسيرات السلام المعادية للأسلحة النووية وللوجود الأمريكى . ظهرت جماعات « الخضر » الذين ينادون بحماية البيئة بالتوقف عن تبوير الأرض وتجريف التربة .. واقامة المصانع بأبخرتها وأدخنتها السامة فى كل الضواحى .. وابخرة وأدخنة المصانع الألمانية تذهب مع الريح فتنزل امطارا حامضية فى السويد والنرويج وبريطانيا وفى كندا أيضا فتهلك الغابات والحقول والحدائق .

أما عادم ملايين السيارات فهو المسئول عن التهابات الرئة وضعف النظر وتسميم الخضراوات والألبان واللحوم والقضاء على الأسماك والطيور اصدقاء الفلاح ..

وفى كثير من الدول الأوروبية ظهرت جماعات شابة : الشاب الغاضب فى بريطانيا والشاب الساخط فى امريكا .. وظهر الهيبيون والأحجار المتحركة .. وكل هذه الجماعات تؤكد اعتراضها على النظام القائم .. على الادارة على الوقوف فى الطابور .. على الترتيب الطبقى والمهنى للناس وعلى التقاليد واخلاقيات القرن الماضى والقرون السابقة ..

ولم يعد الشباب يحب ان يقف طابورا ، واحدا وراء واحد .. فهم جميعا سواء وكل واحد منهم طليعة ولذلك وقفوا صفا واحدا لا بالطول ولكن بالعرض .. فهم جميعا متساوون فى الأهمية والمسئولية والخطورة وكلهم حريص على ان يكون ظاهره بارزا ولذلك احبوا اللون الأبيض والجدران البيضاء والليالى البيضاء .. انتهى عصر سحب الدخان الأزرق ومن كل لون .. وكان لابد من الظهور على المسارح بالقاء القصص والقصائد .. فليس عند الشباب ما يخيفه ولا ما يخفيه ولذلك فعليهم جميعا ان يظهروا ويتظاهروا .

انتهى عصر الرثاء والبكاء عليها .. فلم نعد نقرأ فى السبعينات عبارة « الجيل الضائع » أى هذا الجيل الذى اضاعه الجيل السابق أى الذى اضعناه نحن .

وبدأوا يرددون انهم الجيل الذى ضاع بعض الوقت ليجد نفسه .. اضعناه ليهتدى الى نفسه وبذلك يعرف فداحة الجريمة التى ارتكبناها نحن .. وهو الجيل الضحية ولكن من المدهش ان هذه الضحية لا تبكى على ما أصابها ولا تطلب العفو من القاتل ولا تطلب الانتقام منه : غلطة جيل فى حق جيل دفاعا عن جيل مضحيا بجيل ولكن جيلنا لم يستطع ان يقضى تماما على هذا الجيل ولا ان يسويه بالأرض طريقا لنا واطالة فى أعمارنا ، حتى تجاوزنا أعمارنا الافتراضية .. لا شىء من ذلك فلا وقت للبكاء على الماضى ولا رفض للحاضر ولكن استئناف للحياة بأسلوب آخر ..

وكانت البداية الصحيحة فى المانيا أيضا فالجيل الجديد وجد له نظرية : تفسير منطقى واضح ومقنع لكل ما جرى وسوف يجرى فى المستقبل والنظرية تتمشى تماما مع طبيعة الجيل الجديد .. الوضوح والانتظام والتعبئة وارادة الحياة .

وكان من نتيجة ذلك ان اعتدلت العلاقات العائلية فالشاب الألمانى لم يعد يرفض الأسرة ولا قيودها . وانما أصبح يريد ان يعيش متوازنا ، على وفاق مع والديه والأب سعيد والأم بذلك ـ هكذا تقول كل احصائيات الرأى العام فى المانيا واليابان .

★ ★ ★ ★

وفى احدى مسرحيات الكاتب الألمانى فيسبندر يجرى هذا الحوار بين اثنين من الشبان :

الأول : اذن أنت قررت ان تبقى مع والديك .

الثانى : فى فندق ماما .. هى سعيدة بوجودى ، وأنا سعيد بغرفتى المستقلة وطعامى وملابسى ومصروفى اليومى وحريتى .

الاول : انك قد تنكرت لكل مبادئنا !

الثانى : انا ؟ وهل مبادئنا تتنافى مع الحياة فى احدى المصحات .. وهل المصحة تمنعنا من فترة النقاهة .. واذا كنت قررت ان اعيش شريفا واتيحت لى فرصة الا اسرق الا أخطف والا اعتدى على القانون والا اكون ابنا عاقا .. والا أهدم الاسرة التى ولدتنى ، حتى اتمكن من ان اقيم اسرة افضل فأى مبادئنا تمنعنى من ذلك ؟

الاول : نحن اتفقنا على الحرية الكاملة .. اتفقنا على الا نخضع للقديم لكل ما هو تقليدى .. الاب والام نموذجان للسلطة .. وكل تدخل سلطوى هو اهانة للانسان .. احتلال امريكا لالمانية وشعبها وتاريخها وافكارها وكرامتها ! ابوك هو ايزنهاور وامك هى مارلين مونرو .. وبيتك هو البنتاجون .. ومدرستك هى محاكمات نورنبرج لكل زعماء المانيا .

الثانى : ولكنى حر تماما لا سلطان لابى أو لامى .. فانا افعل ما أريد واقرأ ما أشاء ويعلم والذى اننى احترمه .. وامى احترمها لاننى اريد من اولادى ان يحترمونى .. فأنا افعل بالضبط ما أتمناه من أولادى ولاولادى وانا ابنى ولا أهدم .. وانا أنظر الى الحاضر نظرة والى المستقبل الف نظرة ..

★★★★

ومن احلام اليقظة عند الشعوب انها تتخيل اى صاحب موهبة هو العبقرى الذى سوف يخلصها من ويلات الحاضر .. فلا يكاد يظهر اديب أو فيلسوف أو موسيقى حتى يلتفوا حوله ويحلموا .. وتكون المفاجأة ان هذا العبقرى يرفض الاعباء التى يلقيها الجيل الجديد عليه .. يرفض تحويله الى بطل يتقدم الناس ويحمل سلاحه وينقذهم ، ليلعنوه بعد ذلك ان لم ينجح .. أدباء وشعراء ورسامون وموسيقيون فعلوا ذلك . وليس غريبا ان يفعلوا فهم ايضا ابناء هذا الجيل الرافض لكل عبادة الانسان .. فقد تعذبت المانيا كثيرا بعبادتها لهتلر وبطانته ..

حتى ظهر لاعب التنس « بوريس بيكر » .. هنا اصيب الشعب الالمانى بالجنون .. فبيكر هذا شاب صغير يلعب ولا يتكلم .. وبراعته فردية وتفوقه فردى .. وقد تفوق بوريس بيكر على الشعوب الاوروبية فى التنس وفاز بأعلى

الكؤوس ورأى الشعب الالمانى فى هذا البطل الصغير ، دليلا على ان المانيا لم تمت .. أنها فتاة تلد كل يوم عبقريا .. وقد ولدت قبل ذلك مئات العباقرة فى العلوم والموسيقى والادب . والمانيا هى القوة الضاربة فى تاريخ الحضارة الغربية .

وظهرت فتاة المانية تتفوق فى التنس ايضا هى شتيفانى جراف .. فارتفعت معنويات الشعب الالمانى بظهور ابطال لا خلاف عليهم فى الدنيا كلها .. ولا خوف ولا خطر .. ولا نظرية ولا فلسفة ولا خطة لطرد الامريكان والقاء القنبلة الذرية .. وانما هى عينات من زلازل وبراكين الارض الالمانية تدل على وجود النار المقدسة فى هذه البلاد .. والبقية تأتى ـ يقولها الالمان وعيونهم مفتوحة وعقولهم أيضا !

وكلما اشتدت الازمات فى شعب من الشعوب تطلع الى المعجزة من الارض أو من السماء أو من انفسهم . تنتشلهم من الهوان والفقر والتخلف .

وقد عرفت انجلترا فى حربها الاهلية فى القرن الثانى عشر : (الانسان الاخضر) .. الانسان العجيب الغريب .. ففى عصر الملك ستيفن (١١٠٠ ـ ١١٥٤) اضطربت الحياة الاجتماعية والسياسية .. حتى هذا الملك استطاعت الاميرة ماتيلدا التى نافسها على العرش ان تلقى القبض عليه وان تودعه السجن .. واستمرت الاضطرابات اعنف واشد . فى ذلك الوقت فوجىء الناس بأخ واخت ـ الاخت اكبر سنا وطولا وعرضا اما اللون فأخضر : اليدان والذراعان والوجه والعينان خضراوان والشعر اخضر . مفاجأة . لا أحد يعرف من اين جاء الاثنان .. ولا احد يعرف لغتهما . ولا ما الذى يأكلان ويشربان . وظل الاخوان لا يأكلان حتى اشرفا على الموت . وقدم لهما الناس طعاما .. وامتدت ايديهما الى ذلك وترددا ثم اكلا . وشربا وتعلما اللغة الانجليزية والديانة المسيحية وتحول لونهما الاخضر الى اللون الاحمر الاشقر مثل كل الناس . وسألوهما : من اى البلاد ؟ قالا : من بلاد لا تشرق ولا تغرب عليها الشمس .. فبلادنا فى شفق الشروق وغسق الغروب دائما . ولا نعرف مصدر الاشعة . فلم نر شمسا ولا قمرا ..

وسئلا : واين بلادكما هذه ؟

قالا : نحن لا نعرف كيف جئنا الى هذه البلاد . هل حملنا الطير اليكم .. هل قذفنا الموج ، هل انشقت الارض عنا .. نحن لا نعرف ..

سئلا : هل تزرعون الارض ؟

قالا : نعم ولكن افضل من طريقتكم .

سئلا : وهل تربون الماشية .. وهل تصنعون الملابس .. وهل عندكم ادوية . وجيوش وملوك .. وحروب ..

قالا : عندنا اساليب افضل من كل ما عندكم .. ولا جيوش .. وملوكنا طيبون من عامة الناس .. واطباؤنا لا يعملون فلا امراض عندنا .. الحب هو دواء لكل داء ..

سئلا : وهل تحملان رسالة لنا ؟

قالا : لا نعرف .. ولكن نشعر بأن الرسالة هى ان هناك املا .. وان هذا الامل معناه اذا طابت لنا الحياة هنا .. فسوف يجىء اخرون غيرنا .. ولكن بطريقة اخرى .. سوف يولدون من نسائكم .. سوف تكونون انتم خضرا انتم معجزة المستقبل وقد اهداها للحاكم ليخلصكم من الماضى !

★★★★

فليس بوريس بيكر وغيره من النابهين الانسان الاخضر يؤكد ان هناك املا .. و الامل يتولد من الناس لانقاذ الناس .. فالتفاؤل هو اعظم سياسة بعد ان فشلت سياسة اليأس وعقيدة التشاؤم .. وان اليوم هو نهار الأيام .. وان الماضى هو النصر الوهمى لكل الشعوب اى لا مستقبل لها ، ولا حاضر ويجب الا يكون !

★★★★

ومن سذاجة الشعوب فى ايام الازمات ! تتصور ان الذى جرى لها هو انتقام السماء منها : لانها غرقت فى الخطايا ولذلك يجب ان تنهار كلها كما انهارت مدينتا سودوم وعمورة عندما احرقها الله .. واباد اهلها برا وبحرا وشجرا وناسا وحيوانا ..

وان كان التفسير الفضائى للتاريخ يؤكد ان الذى اصاب مدينتى سودوم وعمورة ليس الا انفجارا نوويا قديما ..

ويقال ايضا ان البحر الميت الذى تقع عليه هاتان المدينتان ، ليس الا تجويفا لسفينة فضاء جبارة ارتطمت بالأرض .. فالتحليل الكيميائى لصخور البحر الميت تؤكد ان هناك اثرا باقيا لانفجار نووى .

ولكن الكتب المقدسة تقول ان الذى اصاب هاتين المدينتين وغيرهما بسبب

غضب السماء على كفر الناس وانحلالهم .. مع ان الخير من الله ، والشر من انفسنا .

وفى سنة ١٣٤٨ عندما انتشر الطاعون الاسود فى الهند وقتل منهم الملايين ، ايقن اهل الهند انه غضب السماء عليهم لانهم لا يؤمنون بالمسيحية . فقرر ملوك الهند ان يذهبوا للقاء البابا فى مدينة افنيون .. وان يعتنقوا المسيحية . ولكنهم فى الطريق علموا ان الطاعون قد اهلك المسيحيين ايضا .. اهلك ٢٥ مليونا هم بالضبط ربع سكان اوروبا . فعاد الملك والامراء والنبلاء الى بلادهم . لان الغضب عام قد شمل البوذى والمسيحى ..

وعندما انتقل الطاعون الى انجلترا ، شعر الاسكتلنديون بالسعادة فالطاعون عقاب يستحقه الانجليز . وفكروا فى غزو انجلترا ولكن الطاعون اصابهم ايضا . وفكر الانجليز فى غزو اسكتلندا ..

وفى ذلك الوقت اصدر البابا مرسوما بأن يذهب الناس الى الكنائس ليعترفوا قبل ان يموتوا . فاذا اعترفوا فالبابا قد غفر لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر .. فاذا ماتوا فالجنة مثواهم . فقد منحهم البابا صك الغفران ..

وماتت الحيوانات وبارت الارض الزراعية . ولم يجد الناس احدا يعمل فى الحقول . فارتفعت اجور العمال . ولكن الملوك رفضوا رفع الاجور . وفرضوا على العمال ان يعودوا الى الحقول بنفس الاجر .. ورفض العمال وهربوا الى الغابات وفضلوا السجون .. فقد هان امر الملوك على الشعوب .. فليسوا مقدسين فقد ساوى الطاعون بينهم جميعا . واحس العمال ان النبلاء اصحاب الاقطاع اسوأ من الطاعون . فالطاعون بضربة واحدة يميت الناس اما هؤلاء فيضربون ويعذبون كل يوم .. ثم انهم لم يتعظوا بما حدث لملايين الناس الابرياء الاغنياء والفقراء والحيوانات والنباتات !

ولان هذا الجيل فى حيرة من امرنا .. تعب من الذى قلناه ومن الذى هدمناه واقمناه .. ومن الهتافات : بالروح بالدم نفديك .. ياجمال ياسادات يامبارك .. ثم نهتف بسقوط جمال ونغتال السادات ومن يسقط ويعيش . والذى نطالب بأن يعيش نهتف بسقوطه والذى نطالب بسقوطه ندعو له ان يعيش ..

فلم يعرف هذا الجيل الجديد : من هو البطل .. ولا ماهو المثل الاعلى .. ولا من الذى نفع ومن الذى اضر .. من الذى انتصر ومن الذى انكسر من الذى

خربها ومشى .. ومن الذى بناها .. ما الصحيح ما الخطأ .. ما الحلال والحرام .. ما الدين ومن الامير بلا جماعة .. وما الجماعة بلا امير ؟ .. اين القبلة ؟ الى اين يتجه الشباب ؟ .. من الذين نتحدث اليهم ؟ من نستمع اليه ؟ من الذين وجدنا لهم عذرا ؟ كيف نحاسبهم وهم لم يعرفوا ؟ لم يفهموا .. لم يقتنعوا .. لم نوضح لهم .. لم نناقشهم .. لم نقنعهم .. ان الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » اى ان الله لايعذب اناسا لانهم لم يسلموا ، مادام الرسول والقرآن لم يبلغهم .. فكيف نعذب من لايعرف .. فكيف نحاسب الشباب ونحن لم نقدم له فهما ولانظرية ولا رأيا ولا رؤية .. كيف نحاسبهم ونحن لم نبلغهم .. لم نصلهم . كيف نغضب من غضبهم ؟ كيف نثور على ثورتهم ؟ كيف نطالبهم بالبنوة ونحن انكرنا الابوة ؟ !

ربما كان الجيل القادم احسن حالا . فسوف يقررون فورا كما فعل الالمان اليوم : انهم ليسوا طرفا فى كل الذى حدث .. لا رأوه رجالا ولا عايشوه صغارا .. انه الماضى الذى صنعه الذين مضوا .. فهو ماضيهم وحدهم . مات بهم ومعهم وماتوا معه .. اما هم فسوف يكون لهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .. وسوف يضبطون آذانهم على موجاتهم الخاصة .. وعدساتهم على منظورهم .. واحلامهم على أوهامهم .. وشعارهم : لك ماضيك ولى ماض .. لك حاضرك ولى حاضر .. لك مصر ولى مصر .. لك عرب ولى عرب .. فلا انا احمل أوزارك ، ولا انت تحملها ايضا . فالذى كان كان ، ويجب ان يبقى هناك . فلا زحف على الحاضر ولاسطو على المستقبل يجب ان يقف الزمن حتى يتمكن هذا الجيل من تأكيد ذاته وسيطرته على نفسه وعلى زمانه ومكانه ..

واذا كانت الشمس قد وقفت فى السماء مرة لكى تتمكن جيوش القائد « هوشع » من الانتصار .. فان وقوف الشمس ممكن ايضا .. ففى استطاعة الشباب ان يوقف الشمس فتغرب على الماضى لتظهر شمس جديدة هى : امال الشباب وارادته وقدرته على الابداع والتطور .. هذه الشمس ليست هى التى اشرقت وغربت على الجيل الاسبق .. وانما هى جديدة على دنيا جديدة .. على جيل جديد .. هو اكثر الاجيال تسامحا واكثرها قدرة على أن يعطى نفسه لنفسه ولاجيال من بعده ..

فاللهم ارحمنا من هذا الجيل الذى لن يعفو ولن يرحم ـ ومعه حق ـ اما الجيل الذى يليه فهو اكثر رحمة ، لانه اكثر نسيانا ، واشد انشغالا بنفسه وغده !

الجوزة والقنبلة

سأروى لك مجموعة من الحكايات الغريبة التى تبدو كأنها متباعدة غير مترابطة . والحقيقة ان لها معنى واحدا هذا المعنى هو المقدمة الضرورية للغرض من هذا المقال انتظرنى دقائق .

١ ـ سألت أحد أصدقائى ما الذى جعله يكف عن تعاطى الحشيش . فقال انه كان من عادته ان يذهب إلى احدى « الغرز » فى شارع الصحافة . وفى يوم من الأيام سأل صاحبة الغرزة عن معنى الاسد المرسوم على الحائط وقد امسك فى يده سيفا . واندهشت لهذا السؤال الذى جاء متأخرا عدة سنوات ـ هى فترة تردده عليها مع عدد كبير من الاصدقاء فقالت : يظهر انك نسيت .. فانا اهددك كل يوم بانك اذا لم تدفع فسوف اطلق عليك هذا الاسد يأكلك !

وضحكت هى . وشعر صديقى بالهوان .. وقال : لم أكن أعرف اننى صغير وضئيل وتافه والعوبة إلى هذه الدرجة. واقسمت الا احشش . ووفيت بما وعدت وتعهدت .

٢ ـ وانا طالب فى الجامعة كنت اتردد على مستشفى الامراض العقلية لدراسة بعض الحالات المرضية . وفى احدى المرات وقفت امام مريض . لم يشعر بوجودنا ولكنه لا ينظر الينا . وقال الطبيب : انه آلة .. قطعة من العجين .. لا حول ولا قوة له .. انظر .. واقترب من المريض وقال له .. ياجاك .. انا اريدك ان تلحس جزمتك اليسرى ..

فاذا بالمريض يخلع جزمته اليسرى ويلعق الطين من فوقها .. وطلب اليه ان يقتلع المسامير بأسنانه من المقعد .. وانهال المريض على المقعد يخلع المسامير والدم ينزف من شفتيه .. وتضايقت جدا . ولكن الطبيب قال : ان العقاقير التى اعطيتها له تجعله هكذا .. لا شىء .. واحسست بشىء من المغص !

٣ ـ كنت فى جزيرة مندناو بالفلبين وهى الجزيرة الاسلامية الوحيدة فى هذه الدولة الكاثوليكية . وجلست اتناول طعامى فى شرفة فندق يطل على المحيط عندما ظهر من تحت الماء طفل فى السابعة من عمره يحمل طفلا رضيعا .. لم افهم .

سألت مرافقى : ما هذا ؟

وعرفت ان هذا الطفل الذى يحمل طفلا يطلب حسنة بشرط ان تلقى بها تحت الماء ويغطس والرضيع معه ويلتقط الفلوس من قاع المحيط . واذا اراد السائح ان يستمتع اكثر فانه يلقى بالفلوس فى اماكن مختلفة وسوف يأتى بها الطفل الذى يحمل طفلا . شىء فظيع ! منتهى القسوة ! ولم استطع ان اكمل طعامى . شىء مؤلم ان يتحول . انسان باسم الفقر الى حيوان . وان يجعل طفلا رضيعا يتدرب على ذلك ليكون شحاذا محترفا طويل النفس تحت الماء - وان يفعل السياح ذلك معناه انهم يشاركون ويشجعون على تجريد انسان من انسانيته من اجل بضعة ملاليم - اعوذ بالله !

٤ - مشهد مألوف لمن يجلس على المقاهى الفرنسية فى شارع « الشانزليزية » ان يجد شحاذا فرنسيا يتحول فجأة إلى انسان آلى يتحرك بخطوات منتظمة خشنة . وان يدير رأسه بحدة . وان يقلب عينيه بلا معنى . اما الشعور الذى تجده فى نفسك فهو : الابتسام أول الأمر ثم القرف بعد ذلك . اما القرف فهو الكراهية ممزوجة بالاحتقار .. ان تكره ان يكون انسان آلة صماء عمياء . وتكره ان يكون اى انسان هكذا . وان تحتقر الانسان الذى يقبل هذا الهوان لاى سبب !

٥ - كنت أجلس فى « هايد بارك » فى لندن عندما جاءت فتاة جميلة وجلست الى جوارى . ثم تزحزحت قليلا ولمست ملابسها ملابسى - بمنتهى الصراحة اسعدنى ذلك . واحسست كاننى صياد لم يكد ينشر شبكته فى البحر حتى قفزت اليه سمكة دون مجهود هل توهمت اننى شاب . واننى مازلت ذئبا مدربا . لا اظن ذلك . ولكن ادهشنى ما رأيت .. ولاحظت ان يدها الناعمة الحلوة قد امتدت الى بنطلونى والتقطت فتفوته بطاطس علقت بملابسى .. ووضعتها فى فمها . فنظرت اليها . لا معنى على وجهها .. نظرتها محايدة . إلى الامام . إلى لا شىء . تمثال من الشمع الابيض خلطوه بقليل من النبيذ الأحمر . ثم غطوه بطبقة من الجليد - مسطولة تماما . واحزننى ان ارى الشباب والجمال يموت جالسا . تضايقت . قرفت . وكان قرفى خليطا من الحزن والاحتقار . الاحتقار لها وللذى فعلته بنفسها والحزن على شبابها .. وجيلها من اوله لآخره !

٦ - اخيرا .. للفيلسوف الفرنسى برجسون دراسة عن « معنى الضحك » يقول : اننا نضحك من الآلية ومعنى ذلك انك اذا كنت تمشى مع صديق لك . وفجأة

وجدته تعثر فى طوبة ووقع « على الارض . فانك على الرغم منك تضحك ما الذى اضحك ؟ اضحك ان صديقك فجاة تحول الى « لوح » خشبى .. وقع على الارض دون ان يقاوم .. وبسرعة تطفىء ضحكتك لان الموقف لا يشجع على الاستمرار فى الضحك ، واذا حدث ان سقط صديقك مرة اخرى وثالثة وبنفس الطريقة .. فقد تحول الى « لوح » الى طوبة .. الى شىء لا ارادة له ولا قوة ولا عقل !

فما المعنى ؟

هذه صور لحالات يتحول فيها الانسان دون أن يدرى أوهو يدرى ، إلى العوبة .. دمية .. إلى إنسان قد تجرد من الانسانية .. فأصبح كأنه آله .. فلا هو حديد خالص ، ولا هو انسان سليم .. وانما فيه صفات الحديد الذى لا ارادة له ، وصفات الانسان الذى يعرف انه كذلك !

وادمان المخدرات يفعل ذلك بالانسان .. فالانسان بكامل قواة العقلية ، يفقد قواه العقلية ، وهو بكامل ارادته ، يفقد ارادته وهو بانسانيته يتجرد منها .. ويترك امره وحياته ومسار حياته لغيره .. وهذا الغير هو المخدرات أو هو الشخص الذى يملك المخدرات ..

ومن اشهر متعاطى المخدرات فى التاريخ القديم : جماعة الحشاشين عاشوا فى ايران وسوريا ومصر ايام الحروب الصليبية .

هل الحروب هى التى دفعت الناس الى ان يغيبوا عنها ، كما حدث للامريكان ايام حرب فيتنام وللمصريين أيام الحروب العربية الاسرائيلية ..

هل هى التى دفعت الشباب الامريكى الى الهروب من الديسكو ـ الرقص الغنائى العنيف ـ الى الغيبوبة فى حظائر البهائم وغابات الامازون . ثم الى القتل دون ان يدركوا ..

ولكن هؤلاء الحشاشين هم جماعة أمنوا بالزعيم الشيعى الحسن بن على الصباح الحميرى . يقول عن نفسه أنه ابن الملوك . والتاريخ يقول بل اباؤه واجداده من الفلاحين . ولكن عنده طموح واحلام وأوهام كبرى ان يكون أماما وملكا وشاعرا . ولذلك ادعى هذا الزعيم ان دماءه ملكية وادعى الصداقة الحميمة مع الشاعر العظيم عمر الخيام .

جاء إلى مصر سنة ١٠٧٠م ووجد خلافا حول الخلافة ـ فكل المصائب سببها من الذى يخلف المستنصر ؟! فالخليفة المستنصر تقدمت به السن واقعده المرض

عن اتخاذ القرار . وكان الخلاف بين اثنين من ابنائه . ولسبب ما وقف الحسن الصباح الى جانب الامير نزار ابن الخليفة . ولكن الفاطميين فى مصر لم يختاروا الامير نزار وانما فضلوا اخاه الذى جعلوه اماما واختاروا له اسم المستعلى . ولكن الأمير نزار انفق اموالا كثيرة . واعطى حسن الصباح جوالات من الذهب .. ويقال انها تعادل ما يحمله عشرون حمارا . ولذلك تحول حسن الصباح الى داعية ضد الخليفة الجديد . وقد اطلق على نفسه النزارى .. واتباعه النزاريين - أى الذين يشايعون الامير نزار . واغتيل هذا الامير وبعد وفاة حسن الصباح جاء واحد يخلفه وادعى انه ابن الامير نزار وطالب بتحريم الايمان بالاسلام والشريعة الاسلامية .. وسايره اتباعه ؟

وبدأت عظمة حسن الصباح وقداسته وعصمته عن الخطأ عندما استولى على قلعة اسمها « الموت » وعندما استولى أتباعه على قلاع وحصون أخرى - لابد من القلاع .. أى لابد أن يكونوا فوق الناس بين السماء والأرض . لأن الوحى يهبط عليه فوق !! وكما كان للرسول عليه السلام غار حراء فالامام حسن الصباح له هذه القلعة أما أسلوبه فى السطو والسطوة فهو : الاغتيال ويكون الاغتيال شنقا ..

وأسلوبه فى اقناع الناس بالقتل هو : الحشيش . يدعوهم إلى ليلة حشيش . يدخنون ويأتى لهم بالفتيات الجميلات . وقبل أن يفيقوا يلقى بهم أمام القلعة أو عند السفح ويسألهم فى الصباح : ماذا رأوا ؟ فيحدثونه عن الجنة وعن الحور العين والولدان المخلدين وأنهار من عسل ولبن وخمر ويقول لهم حسن الصباح اننى رضوان على باب الجنة . من أطاعنى أدخلته . ومن عصانى قتلته . ماقولكم ؟ !

ويقولون : بل الاستسلام التام لقداسة الامام .. اذن فليقتلوا فلانا ليدخلوا الجنة .. ويتسابقوا فى الأغتيال يمينا وشمالا .. يقتلون الوزراء والأمراء ويدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار كل ليلة ويطردهم من جنته كل ليلة ! .

واجتاحت قوات المغول الشرق الأوسط : وقضوا على الحشاشين واستولوا على قلاعهم وأحرقوا كتبهم .

وفى ذلك الوقت انتشرت نظرية « التقية » عند الشيعة والتقية معناها : مسايرة الناس .. مدارة الناس .. كان يسألك أحد هل أنت مسلم فتقول .. أبدا بل كافر ملحد .. أنظر .. وتخرج زجاجة خمر من جيبك وتشرب .

ونظرية « التقية » ترى أن المسلم الخائف من حقه أن يكذب وأن يسكر وأن يزنى .. لأنه يخشى لو أعترف بدينه أن يقتلوه .

فلا ذنب عليه أن ارتكب كل هذه المعاصى .. وكذلك الحشاشون كانوا يحلفون على المصحف أنهم لايقتلون ولا يغتالون .. وأنهم ليسوا من الشيعة وأنما من السنة ـ وهم كذابون !

فهل كان الحشيش جديدا على الشيعة ؟ لم يكن جديدا . فقد كان الصوفية يتعاطون الحشيش لأنه يجعلهم فى حالة من « الوجد » و « النشوة » و « التجلى » ..فالحشيش يساعدهم على أن يرتفعوا إلى هذه المقامات الوجدانية التى تنأى بهم عن الواقع وتعوضهم عن الملل اليومى ..

كما كان « الشاذلية » يتعاطون القهوة وكانت القهوة تخلق نوعا من الصفاء .. والرواء .. والبهاء ..

ولاتزال قارئة الفنجان حتى اليوم قبل أن تحدثك عن حظك تقلب الفنجان وهى تقول : ياقهوة ياشاذلية دلينى على اللى فى النية !

وأول من أتى بالقهوة الى مصر وفى أروقة الأزهر : السودانيون ..

وأول من أدخل الشاى فى الأزهر الطلبة المغاربة ولم يكن المصريون ينظرون بارتياح إلى هذا « الكيف » الغريب !

وقد أطلق المؤرخون على هؤلاء الحشاشين من أتباع حسن الصباح : « الفدائيون » ..

والمؤرخ ابن خلكان يسميهم : الفداوية .. ولم يكن حسن الصباح أول من استخدم الحشيش وسيلة إلى الاغتيال . فقد سبقه إلى ذلك أبو منصور الأجلى ومغيرة بن سعيد . أما أتباعهما فكانوا يسمون : الخناقين ..

والسلطان بيبرس هو الذى قضى على آخر جيوب الحشاشين فى مصر سنة ١٢٧٢م .. ويقال انهم ضبطوا أحد الحشاشين يصلى وهو يرقص فحملوه إلى السلطان . وسأله عن السبب فقال : أنما طلب منى الامام أن أفعل ذلك ؟ !

فسئل أى إمام ؟

قال : الامام حسن الصباح ..

فقيل له : لقد مات من ستين عاما !

قال ولكنى لم أسمع بهذا الخبر !

فسألوه : هل تعرف أن صديقك الشيخ سعيد قد قتل .

تلك الطائرات الانتحارية ..

وكلمة « كاميكاز » معناها « الاعصار المقدس » .. ففى سنة ١٢٨١ م عندما هاجمت قوات المغول جزر اليابان هب اعصار أغرق اساطيل الغزاة . وانقذ اليابان . وهذه الطائرات هى الاعصار الجديد .

وفى سنة ١٩٤٤ استطاع اليابانيون فى موقعة اوكيناوا البحرية ان يدفنوا الاسطول الامريكي وان يقتلوا منه خمسة آلاف جندى فى يوم واحد . كيف ؟

انهم يركبون الطائرات الانتحارية ويرتفعون بعد اسكات المحركات .. فاذا اقتربوا من الهدف اداروا المحركات الثلاثة باقصى سرعتها واتجهوا مباشرة الى الهدف .. فتنفجر الطائرة والهدف والطيار معا .. كيف !

لقد عرف اليابانيون نوعين من المخدرات : الايمان المطلق بقداسة الشعب اليابانى وارض اليابان وان كل عدوان عليها هو عدوان على قدس الاقداس ثم انهم كانوا يعطون الطيارين شرابا مخدرا يشعل فيهم النار والحماس والجنون والرغبة فى الانتقام .. فيندفعون الى الدمار والموت !

وهكذا يكون الطيار اليابانى صاروخا يقود طائرة .. أو كأنها طائرة بلا طيار . لان الطيار قد اصبح قطعة من الطائرة !

★★★

وفى القرن التاسع عشر صدرت رواية لمارى شيلى زوجة الشاعر شيلى . الرواية اسمها « فرانكنشتين ـ او بروميثيوس الجديد » ـ اما بروميثيوس فهو البطل الاغريقى الذى سرق النار من موكب الشمس واعطاها للانسان ، فكانت النار مصدر حضارته وقدرته وتمرده على الالهة .. فاستحق بروميثيوس العقاب . وكان عقابه ان ربطوه بالسلاسل واتوا بنسر يأكل قلبه . وكلما اكله نما من جديد ليأكله ثانيا .. إلى الابد !

وقصة فرانكنشتين موضوعها ان باحثا عرف سر الحياة . وراح يجمع اشلاء الحيوانات من دكاكين الجزارة فى سويسرا واشلاء الانسان من قاعات الجراحة فى المستشفيات . ونجح فى ان يصنع وحشا بشريا واسم هذا العالم فيكتور فرانكنشتين وفى يوم فوجىء العالم السويسرى بأن اخاه وجدوه مشنوقا فى احدى الحدائق واتهموا الخادمة التى أدينت وأعدمت . ومرة أخرى وجدوا صديقه قتيلا وعروسه ايضا .. واتهموا العالم فرانكنشتين بأنه القاتل . واطلقوا سراحه لعدم توافر الادلة .. وضاق العالم بهذا الذى حدث . وفوجئ

بالوحش . يهدده : ان لم تخلق لى أنثى اعيش معها .. واعرف الحب والصداقة فسوف اقتلك .. واقتل كل الذين حولك ..

وجلس العالم يخلق له انثى . وفجأة تنبه ضميره وخاف ان هو خلق انثى ان يتولد من هذين الوحشين جيل من الوحوش .. فعدل عن اكمال « تخليق » وحش انثى . وكان الوحش يرقبه من النافذة فغضب لذلك . وهدد بأنه سوف ينتقم منه ..

وييئس العالم من هذه الحياة ومن ضميره الذى لايتوقف عن وخزه ليلا ونهارا .. فقرر ان يعيش بعيدا عن القطب الشمالى .. وهناك رأى الوحش . وهرب منه .. اما البرد والجوع والعطش فقد قضى على الباحث وزوجته دون ان ينتقم لضحايا الوحش .. ولكن الوحش وقف على جثمان هؤلاء الموتى يقول هذه الحكمة .. بل المجرم الحقيقى هو فرانكنشتين الذى خلقنى بلا قلب ولا عقل ولا حب للانسان .. انه هو القاتل الحقيقى اما الضحية فهى انا !

فالحشاشون قتله .. وفى نفس الوقت ضحايا لقاتل آخر .. يعطى الحشيش ويعطى الفلوس ويعدهم بجنات كاذبة تجرى من تحتها انهار الدم .. ولكن الحشيش يزيفها لهم .. انهارا من لبن وعسل مصفى لذة للشاربين !

لماذا يتكلمون ويفهمون ويأكلون؟!

اعط اذنك للاذاعة أو التليفزيون واستمع كيف يتكلم بعض الشبان . انهم ينطقون بسرعة . والسرعة تأكل الحروف وتطيح بنهاية الكلمات .. اما المعنى فهو الغراب الاسود فى الليلة السوداء تحاول ان تمسكه فلا تستطيع . لماذا ؟

ويدهشك اكثر ان تجد بعض الشباب لا يعرفون تركيب الجمل تركيبا صحيحا . ومعنى ذلك ان شكل الكلام لايهم . المضمون هو الذى يهم . ولكى يكون المضمون واضحا فانهم يستعينون على ذلك بالحركات : حركات اليد أو الوجه أو بالضحك .. والضحك معناه ان الذى يقوله اقرب الى النكت ، أو ان الضحك يدارى خجله من انه لايعرف ماذا يقول ولاكيف يقول . وان السؤال كان مفاجأة له . ولذلك فهو يريد ان يتخلص من هذا الموقف بسرعة . فلماذا ؟

ثم ان هؤلاء الشبان لديهم قدرة فريدة على ابتكار الفاظ وتراكيب جديدة .. هذه الالفاظ تقوم بدور الرموز أو الكلمات الشفرية التى لايعرفها احد سواهم .. فكأن الشبان قد اختاروا لأنفسهم هذا الاسلوب فى التعبير حتى لايعرفهم سواهم . فلما سألناهم نحن ، اى لما اقتحمنا عليهم حياتهم الخاصة ، اخجلتهم المفاجأة ولكنها لم تجعلهم يغيرون اسلوبهم فى التعبير الرمزى - اى التعبير الخاص بهم .. التليفزيون وهو يقرأ الكتب التى ليست مقررة .. كم الف كلمة تمر عليها عيناه يوميا ، كم الف كلمة تدخل اذنيه .. كم الف كلمة وصورة وحركة اعلانية .. والاعلانات لاتزال اقوى اثرا على السلوك العام لحياة الناس . فالاعلان عن سلعة غالى الثمن . ولذلك فصاحب الاعلان حريص على ان يقول كلاما كثيرا سريعا فى اقل وقت . لان الثوانى من ذهب . فالاعلان يغنى ويرقص ويقول شعراً فى اجمل اطار . ولذلك يجب ان تكون العبارة مكثفة سريعة انيقة جميلة . ويجىء اعلان ثان وثالث .. مئات الاعلانات الغنائية الراقصة . وكذلك نشرات الاخبار . ولاتزال نشرة الاخبار العربية هى ابطأ المواد الاعلامية .. بينما نشرة الاخبار الفرنسية اسرع من الانجليزية التى هى اسرع من العربية ..

اكثر الناس يقرأون وهم يأكلون وهم نائمون على السرير وهم يتفرجون على

التليفزيون .. اى ان مثل هذا القارىء لا يتفرغ تماما لهذا الذى يقرؤه .. وانما يكون منهم الذين اخترعوا كلمات : يطنش .. طناش .. واللى هو .. واللى هى .. والزمبة ـ وهى كلمة تركية بمعنى المسمار .. ويفلسع .. ويسوسن اى يكون مثل السوسة .. وغيرها من الكلمات التى تعبر عن اكثر من معنى فى كلمة واحدة ـ فلأى سبب يفضلون ذلك ؟

لهم العذر . فالعصر كله سرعة . والمثل الاعلى عندنا هو كيف تصل اسرع واخف وأرخص . ولك ادوات الانتقال ـ واللغة اداة ـ يجب ان تنطلق بلا مقاومة .. انظر الى خطوط الطائرات الانسيابية .. وانظر الى رموز الطائرات : انها النسور والصقور .. أى أكثر الطيور قدرة على الطيران والانطلاق بلا صوت ولا مقاومة من الهواء .. فوزنها خفيف وريشها ممدود ناعم .. ونحن فى عصر الصواريخ التى تنطلق من الأرض وحولها والى الفضاء الخارجى بسرعة ثلاثين الف كيلو متر فى الساعة .. وسوف تزيد سرعتها عاما بعد عام ، كلما اهتدى الانسان الى انواع افضل من الوقود ومعادن اكثر صلابة واخف وزنا واقل تكلفة ..

اجلس الى جوار اى شاب وهو يقرأ الصحف والمجلات ثم يجلس بعد ذلك الى القراءة ضمن اشياء كثيرة . الاكل والشرب والموسيقى والتليفزيون أو فى الاتوبيس .. ولذلك فالكتاب يجب ان يكون سهل الحمل ، فى جيب الجاكتة أو فى يده .. ولابد ان تكون مادته خفيفة .. وان تكون سريعة البداية والنهاية .. اقرب الى الحواديت .. او الى النكت .. أو القصص البوليسية القصيرة .. اى انه من الممكن ان يقرأ وان يشترك فى الأحاديث التى تدور وتلف حوله .. فالحديث لا يعطله عن القراءة ، والقراءة لا تستغرقه .. وانما يأخذ من كل شىء بطرف .. ويكون هو نفسه طرفا .. اى ان القراءة لا تعزله تماما .. انه مثل راكب اتوبيس يضربه هذا ويدوسه ذاك .. ثم انه يحب ان يكون فى حالة استعداد لان ينزل فى اقرب محطة ، لان السائق عادة لا يتوقف طويلا .. فهو يقرأ لكى يتوقف بسرعة . وهو جالس لكى ينهض فى أى وقت .. وهو واقف لكى يقفز بسرعة الى الباب ، ومن الباب الى الشارع متفاديا السقوط والسيارات الاخرى ..

ولذلك انتشرت روايات وكتب الجيب .. وظل الجيب يصغر والكتب تصغر .. وظهرت كتب « الملخصات » التى تتحدث عن الروايات العالمية والكتب الحضارية فى صفحات ، فكان المطلوب هو عبور هذه الكتب الكبرى لكى تكون

لدينا معلومات « عنها » .. ولا يهم ان نعلم بها .. فلا وقت عند احد ليقرأ مئات الصفحات . وانما يكفى ان يأخذ « بها » خبرا .. وهذه هى الثقافة العامة ـ لان الثقافة عندنا هى : ان تعرف شيئا عن كل شىء !

وكما اختفت المائدة من البيوت وظهرت الترابيزة الصغيرة .. وظهرت السندوتشات ، فكذلك الكتب : سندوتشات .. والموسيقى ، مختارات وكما نضع الكتاب فى جيوبنا ، فاننا نعلق الكاسيت فى اعناقنا .. فالكاسيتات كتب ناطقة ، والكتب كاسيتات صامتة .. والكتب والكاسيتات هى المعلبات : اى الأطعمة المحفوظة .. وكذلك الأدوية تحولت الى حبوب واقراص .. والفواكه والخضروات والسكريات والمقومات .. كلها كبسولات .

ولا فرق بين دكان الكاسيتات والمكتبات والصيدليات والسوبر ماركت . كلها تبيع سلعة واحدة : المعلبات .. أى الأطعمة المحفوظة فى الورق أو السيلولوز !

حتى المطاعم حيث تجلس الى تربيزة ويجىء الجرسون يقدم لك الطعام أو يسألك ما الذى تحب .. هذه المطاعم اختفت وسوف تختفى لتظهر الكافتيريا .. وهى كلمة مكونة من كلمتين : كافية ـ وتية ـ أى قهوة وشاى . وكنت قد ترجمته بكلمة أخرى هى : القهوشية ، وكنت قد ترجمت مكان شرب الشاى بكلمة : المشهى .. على وزن المقهى التى هى مكان شرب القهوة ..

واكثر المجلات انتشارا فى العالم الآن : هى مجلات السندوتش .. لأن هذه المجلات تنطبق عليها كل المواصفات المطلوبة : السرعة .. السرعة فى الاعداد .. السرعة فى التناول .. السرعة فى الدفع .. ثم انك تأكل وانت تقرأ .. وكما يتساقط الطعام فى فمك ، تتساقط حروف الكلمات وتغيب المعانى .. ولكن أكلة السندوتش يعرفون ذلك مقدما .. فهم لا يستوقفون بعضهم البعض لكى يفهموا ما يقولون .. فالكلام مفهوم . والهدف معروف . وليس مطلوبا من أحد اكثر من « الصحبة ».. من الوقوف معا .. والأكل معا .. والانصراف معا .. وليس من أهداف أحد ان (يستطعم) الذى يتناوله .. ولا أن يمضغه .. فالمعدة شابة قادرة على الهضم !

★ ★ ★

فهذه « القهوشية » هى المكان الذى يلتقى فيه الشباب على عجل ليأكل واقفا ويشرب خارجا ويدفع منطلقا .. فلا مكان لان تجلس ولا داعى لذلك .. والسندوتش هو المثل الأعلى لكل أنواع التغذية .. فهو ذلك الرغيف الذى

تضع فيه اللحم المصنوع من الفول مع البطاطس والصلصة والخس .. وهو رغيف منفوخ عادة .. يعطيك انطباعا انه كثير وهو فى الحقيقة قليل .. تماما كأنه كتاب ضخم ولكن فى كل صفحة سطرا أو سطرين .. أو كأنه نوع من العقاقير الفوارة .. تبدو كبيرة الحجم ولكن بعد أن نضعها فى الماء تجدها واحدة على الأرض . ودون أن يسقط الكوب من يدك والقلم من فمك ـ لاحظ أن القلم يكون دائما فى جانب من الفم فى معظم الأفلام الامريكية .

ومن سبع سنوات وقعت فى امريكا أزمة كبرى ، هذه الأزمة جاءت فى تقرير الى الرئيس الأمريكى . التقرير عنوانه « أمة فى خطر » أما هذا الخطر فقد استشعرته امريكا عندما وجدت إنها تخلفت عن اليابان .. وقبل ذلك فى الخمسينات وجدت نفسها تخلفت عن الاتحاد السوفيتى الذى اطلق أول قمر صناعى ليدور حول الأرض .

هنا أحست امريكا أنها اهينت فى الأرض والسماء . وان القمر الصناعى الروسى ليس الا فضيحة لامريكا . تدور حول الأرض .. وأن الرأسمالية والحرية والديمقراطية فى الأرض ،والشيوعية الماركسية المادية الجدابة فى السماء . وكان لابد من بعث الأسباب التى أدت إلى التخلف فى علوم الفضاء !

وبسرعة قفزت امريكا الى الفضاء وتقدمت روسيا ولا تزال اسبق واروع . إذن لقد كانت عندها كل النظريات والتطبيقات ولكنها المشاكل البيروقراطية وحقد العلماء الامريكان على العلماء الالمان الذين اسروهم فى الحرب العالمية الثانية ونقلوهم الى امريكا . وفى مقدمتهم د . فون براون ابو الصواريخ الالمانية « فت٢ » .

وكان الروس قد نقلوا معهم من ألمانيا عددا من العلماء الالمان أيضا . والنكتة تقول انه لما التقى القمران الروسى والامريكى فى السماء ودار بينهما حوار لم يفهم احدهما الآخر.. فقد كان احدهما يتكلم الروسية المكسرة والثانى الانجليزية المكسرة. فقال احدهما للآخر: لنتكلم الالمانية!

ومما اهتدى اليه الامريكان ان سبب التخلف هو ان الروس يدرسون الهندسة وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل فى سن مبكرة جدا . وانهم لذلك افضل من الامريكان .

وبسرعة غيرت امريكا برامجها التعليمية وسايرت العصر وتقدمت كل المعاصرين !

أما اليابان التى ضربتها امريكا بالقنبلة الذرية ، وحطمت آلة الحرب وكسرت ظهر الشعب واذلته ومسحت به الارض ، فلم يستسلم للهزيمة .. ولا استسلم الالمان الذين تقدموا على كل الدول التى ضربتهم واحتلتهم واذلتهم .

فما الذى وجده الامريكان ؟

وجد الامريكان ان البداية هى : التعليم لا علاج لمرض بغير تعليم . لا تقدم بغير تعليم . لا دين بغير تعليم .. ولا تعليم بغير مدرس ، ولا تدريس بغير مؤهل ولا مدرس بغير طالب ، فالتفتت امريكا الى الطلبة ، فماذا وجدت .

وجدت أن الطلبة يتركون الفصول والمدرجات والمعامل ويجلسون معظم الوقت فى الكافتيريا : يأكلون خطفا ، ويتكلمون لهوا ، ويدخنون حشيشا . ووجدت شيئا أخر : أن الطلبة حريصون فى الدرجة الأولى على الصحة الجسمية : لعب الكرة بكل أنواعها .. والبقاء طويلا فى حمامات السباحة وعلى الشواطىء ، والقفز بالمظلات ... تطبيقا لروشتة الحكيم بقراط : العقل السليم فى الجسم السليم . ولكن الذى حدث هو معكوس هذه الحكمة : الاجسام سليمة ، والعقول ليست كذلك ..

فكيف يكون العقل سليما أولا ، ويكون الجسم قادرا على الوفاء بمتطلبات العقل : هذه هى القضية !

جاء فى التقرير الامريكى ان هذا هو جيل الكافتريا .. جيل الساندوتش .. جيل الكبسولة .. الكاسيت و (الريد رزدايجست) أى ما يسهل هضمه من المعلومات الخاطفة والسطور المخطوفة !

اخطر من ذلك أن ظهرت فى امريكا مدارس تعلم الناس كيف يقرأون بسرعة .. وكيف يجمعون المعلومات بسرعة . فلا وقت عند احد لكى يقرأ . لا يهم كثيرا ان تستوعب .. المهم أن « تأخذا خبرا » بكل شىء .. وهذه المدارس أيضا تعلم الشباب ورجال الأعمال كيف يقرأون ويأكلون ويشربون ويستمعون الى الموسيقى والتليفزيون .. كل ذلك دون ان تسقط فتفوته واحدة على الأرض)

وفى أحد الأفلام الأمريكية سألوا طفلة صغيرة : ماهى آخر مرة رأيت دجاجة على المائدة .

قالت : عندما هربت من احدى المزارع المجاورة .
فقيل لها : دجاجة مطبوخة ..

فصرخت الطفلة وراحت تبكى وهى تقول : ياماما .. الحقينى .. انهم يريدون ان يقتلوا دجاجة .. ياماما .. الوحوش المجرمون !

اما المعنى فان احدا لم ير دجاجة مذبوحة او مطبوخة فلا حاجة الى ذلك .. فاللحوم فى العلب ، واللحوم فى السندوتشات !

فاصلاح التعليم فى امريكا من أجل أن نعود الى السباق والى الفوز به فى البداية والنهاية يبدأ من جو الكافيتريا وفلسفة السندوتش ..

أو يبدأ من دراسة الحياة الدراسية وحياة العمال والمخترعين فى اليابان ..

فاتجهت امريكا الى اليابان تقلب فى سلوك كل الناس . لتعرف اين تكمن هذه العبقرية . ولم تهتد الدراسات الى شىء يقنع المواطن الامريكى . فالشعب اليابانى يجلس ويتمدد فوق عاداته القديمة التى يستحيل على شعب آخر ان يمشى عليها .. فاليابانى فى بيته مواطن تقليدى جدا . هو السيد .. سى السيد .. يأكل اولا ومن بعده الاولاد .. واخيرا الأم . فهل هذه هى اسرار العبقرية ؟ والرجل اليابانى ينام على الارض وينتقل من غرفة الى غرفة بالقبقاب فهل هذه هى اسرار العبقرية . وهو يأكل انواعا من الاطعمة لا تطيق رائحتها وكلها من مشتقات السمك منقوعا فى البصل .. وهو لا يكف عن الانحناء تحية لكل الناس اذا مشى فى الشارع واذا جلس يشرب وإذا جلس يأكل .. فمثلا : اذا كنت مدعوا عنده ومددت يدك الى الطعام والطعام وقف فى حلقك .. فكدت تموت .. فأنه هو وزوجته واولاده ينهضون وينحنون استعدادا لتقديم اية خدمة .. ولكن الادب يمنعك ان تقول الحقيقية فتكذب وتقول شيئا آخر : ابدا ولا حاجة .. وانما هى معدتى تستعجل الطعام اللذيذ فقفزت إلى حلقى !

وتعليقا على هذه العبارة الساخرة التى لم يفهموها يظل جميع الافراد فى حالة انحناء لك ، امتنانا واعجابا بأنفسهم ـ فهل هذه هى مصدر العبقرية ؟

وظهرت البدل التى كان يرتديها الجنود فى الحرب ، لتكون فى متناول كل الناس .. وهى البدل التى بها جيوب فى الساقين والذراعين وعلى الصدر .. وعلى الظهر .. وفى هذه الجيوب يمكن وضع الكتب والقلم والدواء والسندوتشات والراديو .. فالشاب لايأكل السندوتش فقط ، وإنما هو أيضا سندوتش .. هو سوبر ماركت !

وفى المعرض الدولى للطيران فى باريس ظهرت بدل رواد الفضاء الامريكان .. هذه البدل بها كل هذه الجيوب وقد أضيفت إليها أجهزة التكييف والضغط وظهرت بها أجهزة الكترونية شديدة التعقيد .. وظهرت أجهزة لاحداث الذبذبة لكى ينام رائد الفضاء ، وأجهزة أخرى لكى توقظه .. وأجهزة الاتصال بمحطات المتابعة الأرضية .. أو سفن الفضاء الأخرى .. فرائد الفضاء قد حمل معه المطعم وغرفة النوم وغرفة العمليات والاتصالات .. كل ذلك فى بدلة واحدة ـ وهذا هو المثل الأعلى للشباب فى السنوات القادمة !

وفى الفيلم المعروف باسم « أطراف المدينة نجد منظرا مضحكا . لم يقصد به المؤلف أن يثير سخرية المشاهدين وانما اشفاقهم . فقد أتفق اثنان من المحبين بعد جهود مضنية على أن يكون بينهما لقاء .. أنه اللقاء المرتقب . والتقيا على ظهر احدى السفن العابرة للمحيط . الهواء عاصف والموج هادر ، والناس يصرخون ذهابا وإيابا .. والعاشقان ليس عندهما وقت لأن يقولا شيئا ، ولا عندهما مكان ، ولا أحد يسمح لهما بذلك .. بل أن وجودهما تعطيل لحركة المرور على ظهر السفينة ـ وهما ـ بلغة المرور ـ مزاحمان فى الطريق العام .. فإذا قال لها : أحبك .. فإنه لايستطيع أن يكمل هذه الجملة دون أن يجىء كرباج من الماء يصعقهما معا .. ودون أن يعترضهما البحارة وهم يضعون السلاسل والحبال .. وضاع الحب .. ضاع . !

أى لاوقت للحب . فالحب بطىء . أو ظاهرة متلكئة .. أو ظاهرة يؤدى وجودها إلى استنكار الأغلبية السريعة القول والعمل ، وبعد ذلك يجىء الزواج بغير حب .. والحب بغير حب . ! .

وتحاول شركات السينما وعدد هائل من المؤلفين أن يعودوا بنا إلى عصر :(ذهب مع الريح : و (قصة حب) و (مرارة الارز) .. ولاتزال المحاولة مستمرة ..

ثم اتجه الامريكان الى انفسهم يكشفون عيوبهم ، ويكاشفون انفسهم . وكانت البداية : هى السندوتش وهى القهوشية ..

فما لم يقرأ الطالب على مهل ويأكل على مهل ويتكلم على مهل ويفكر على مهل ، ويتأمل فإنه لن يبدع ..

ولابد ان يبدع لانه لا مجال للأفكار المتكررة والمعانى الممضوغة التى تجعل العقول فى دوائر مفرغة ، تماما كما تمضغ لبانا طول الوقت .. فلا اللبان طعام

يمضغونه ثم يبتلعونه ، ولا هم ضاقوا به .. فيلقون به على الأرض .. وانما هو شيء يلوكونه فى الفم وينقلونه من جانب الى جانب .. كنوع من التفريج العصبى .. ولا ابداع عند الذين هم عصبيون ، ولا عند الذين يتخلصون من المعانى والافكار بشحنها فى الفاظ مكسرة .. فى علب مدشدشة .. كاسيتات ممسوحة .. واوراق ممزقة .. وكلمات متآكلة الحروف .. مطموسة المعانى !

وبعد ذلك قامت حملات توعية فى امريكا من رجال التربية وعلماء النفس والاقتصاد يا امريكان على مهلكم .. كلوا هنيئا ، واشربوا مريئا ، وناموا طويلا ، وتأملوا كثيرا ، واتركوا كتب الملخصات ، ومدوا ايديكم الى الروايات الطويلة : ففيها الخيال والعبارة الجميلة وفيها الصمت الطويل .. ولكى يتحقق لكم الصمت الجميل ، يجب ان تركنوا الى مكان هادىء جميل .. ويجب ان يكون الطعام فى مواعيد منتظمة .. وان يكون الطعام فى أطباق ، وان تمسكوا الشوك والسكاكين .. اتركوا طعام الورقة وطعام العلب وشراب العلب ، والكتب التى هى كاسيتات ، والكاسيتات التى هى معلبات .. ولا داعى للسرعة .. ان الشباب الذين يركبون السيارات وينطلقون بسرعة مجنونة ، ماذا يفعلون بالوقت الذى اختصروه .. يبددونه فى الكافيتريات والحانات او التسكع فى الشوارع .. او اللطعة على المقاهى .. انهم يهدرونه مرة اخرى .. فكأنهم بكامل الوعى ، يذهبون ليفقدوا الوعى ، وبكامل الصحة والعافية ، يتنازلون عن الصحة والعافية . فماذا فعلوا ؟ وماذا انجزوا ؟ اى شيء اضافوا ؟ الجواب عن كل ذلك : لا شيء ..

وهم ايضا لا شيء .. اى انهم حذفوا أنفسهم بأنفسهم .. اختصروا أنفسهم من قوائم الأحياء .. فلا هم احياء ولا هم أموات .. انهم مثل الذى يأكلونه ويشربونه ويقرأونه : طعام ولكنه ليس كالطعام ، وكتب وليست كالكتب .. انهم مرة اخرى مثل « اللبان » لا يبرح الفم .. ولكنه لا يغنى عن الطعام ولا يغنى عن الشراب .. ولكن الاقبال عليه شديد كأنه طعام وشراب .. وكذلك ما يسمعون من الموسيقى ومن الاعلانات وما يقرأون : لبان ليضاف إليه لبان !

★★★

هناك نظرية تقول : ان العضو يموت بموت الوظيفة !

أى أن العضو الذى لا يقوم بوظيفته فإنه يفقد الوظيفة . ومادام بلا وظيفة

فإن هذا العضو يموت ايضا . فنحن لم نعد نستخدم الاسنان فى قطع الاشجار وتمزيق اللحوم .. إننا نستخدم السكين والشوكة .. وبمرور الوقت ضعفت أسنان الانسان ولم تعد قاطعة قوية كأسنان الحيوانات .. أو كما كانت أسنان الانسان من ألوف السنين ..

ولم تعد عند الانسان قدرة على الشم كالتى عند الحيوانات .. فالانسان كان يستخدم أنفه لمعرفة مكان الطعام ، ومعرفة الحيوانات المتوحشة التى تتربص به .. أما الآن فلم تعد لنا حاجة إلى حاسة شم قوية .. فضعفت حاسة الشم عند الانسان .. وهى فى طريقها إلى الا تكون ..

والانسان لم يعد يمشى على قدميه ويجرى من بلد إلى بلد ، فقد اخترع السيارة والطيارة تقوم بكل العمل .. ولم يعد الانسان فى حاجة إلى ان يصرخ على زملائه فى الغابات والكهوف ولا أن يصرخ اذا ما رأى الوحوش .. فالانسان قد اخترع التليفون والميكروفون والتلغراف ، كلها بدلا من استخدام احباله الصوتية ..

والاسماك فى الأعماق المظلمة للمحيط لها عيون لا ترى .. عيون مرسومة .. ولكن لان هذه العيون لم تعد تستخدم فى الأسماك ، فقد ماتت وظيفتها .. وسوف تنقرض هذه العيون لانها بلا وظيفة ..

والتكنولوجيا ماهى : انها علم تطوير الأطراف الصناعية للانسان .. بدلا من يديه وساقيه وعينيه وأذنيه .. وعقله أيضا .. وسوف تؤدى التكنولوجيا هذه إلى ضمور كل الأطراف الانسانية .. لأن وظيفة الأطراف الانسانية لم تعد ضرورية .. فنحن نستخدم التكنولوجيا أى علم تطوير أدوات الحياة للانسان لنستغنى عن استخدام الأيدى والاذرع والسيقان والعيون والاذان .. وعلى ذلك فسوف تضعف وتضمر كل هذه الأطراف . أما العقل الانسانى فسوف يبقى ، لأنه وحده الذى يخترع ويبتدع . وهو وحده الذى يجعلنا لانعتمد على أطراف الانسان .. أى إننا أمام مؤامرة من الانسان على الانسان .. فالعقل يعمل بعبقرية ضد بقية الأعضاء فى الجسم ..

ولذلك قال الأديب برنارد شو فى مسرحية « العودة إلى متوشالح » ومتوشالح هو أطول الناس عمراً ، فقد عاش ٩٦٩ سنة قبل طوفان نوح .. ـ أن العقل الانسانى سوف يتطور ويتطور حتى يصبح دماغ الأنسان فى حجم بطنه ، أما بقية الأطراف فسوف تكون مثل قرون الاستشعار عند الحشرات ـ لقد

انقرضت .. فلم تعد لها ضرورة عند الانسان !

ويرى كاتب الفضاء الأمريكى كارل ساجان : إن هذه النظرية صحيحة مع تعديل طفيف .. وهو إن كل الأعضاء سوف تضمر وتنكمش وتتقلص وتنقرض .. إلا عقل الانسان ولسانه .. فاللسان هو وسيلة الاتصال بين كل العقول ... فإذا كان اللسان أقوى من الأذنين وأسرع من العينين ، فلانه قد استولى على قدرتها جميعا فى الادراك والتعبير .. فهو الذى انفرد بالقدرة على الاتصال بالأخرين !

وهذا هو التفسير المعقول لهذه السرعة الهائلة فى النطق وطرطشة الكلام وبعثرة المعانى عند أكثر الناس .. لأن اللسان هو الحاكم القوى والحاكم المتسلط على بقية الأعضاء !

★ ★ ★

ولكنى أرى أن هناك علاجا .. والعلاج سهل . وهو أيضا يبدأ فى البيت وفى المدرسة . وذلك بأن نعلم الطفل أن يتكلم على مهل . وأن يمضغ على مهل . وأن يأكل جالسا وأن يقرأ أيضا . فليس فى سباق مع أحد . وإنه ليس صحيحا إنه لم يعد هناك وقت . بل الوقت موجود . ويجب أن تجد وقتا لكل شىء .

وفى المدرسة أيضا يجب أن يتعلم الطفل والشاب كيف ينطق صحيحا ، وأن يفكر بطيئا .. تماما كما يأكل وكما يمضغ ، حتى تتمكن معدته من الهضم .. وأن السرعة والتسرع والاضطراب والعصبية والاستعجال تربك بقية الوظائف الجسمية .. وتلخبط العقل أيضا .

وكان عالمنا الكبير د . أحمد زكى قد جعل له شعارا يقول : غن ترقص معدتك أى من أجل أن ترقص معدتك يجب أن تغنى ..

والمعدة لاترقص إلا وهى تهضم ، وهى لا تهضم إلا ماتمضغه ونحن سعداء بذلك .. ونحن نستمتع بما نأكل .. هذه المتعة بين الأسنان .. هذه المتعة هى التى تجعل المعدة ترقص طربا !

وبالمرة نعلم الجميع خبر كان وإسم أن .. حتى إذا أصبحوا وزراء لم يخطئوا .. وحتى لا يكون هناك خطأ آخر أفدح وأقبح وهو أن يكون من آمال كل إنسان أن يكون وزيرا فإذا أصبح وزيرا جاء ذلك دليلا على عدم جدوى علوم النحو والصرف والبلاغة وفن النطق وفن الالقاء .. فأكثر الوزراء لايعرفون شيئا من كل ذلك ولا يجدونه ضروريا ! .

والناس ينظرون إلى التليفزيون ويتجهون إلى الاذاعة ويتوقفون عند الصحف يبحثون عن القدوة الحسنة .. عن « الموديل » عن المانيكان التى تحسن عرض الكلام والافكار فى إيقاع رشيق أنيق .. فإذا لم يجدوا إلا هذه النماذج الشابة السيئة والقدوة الأسوأ ، والمانيكان المبهدلة .. فإنهم لايملكون إلا تقليدهم ، ظنا منهم أن هذا هو ماتريده الدولة بكل قوتها وأجهزتها وفلسفتها !

فمصر فى خطر من تحتها ومن فوقها وفى عقلها وقلبها .. وعلى السنة أعز الناس عليها : شبابها !

التعبوية الغنائية

ما الذى فى أيام زمان وليس فى هذه الايام ؟

اخطف رجلك الى مكان بعيد عن المدينة .. وامسك ورقة وقلما واكتب ماذا يقوله الناس الاكبر سنا عن ايامهم .. التى هى العصور الذهبية للحياة فى مصر وفى العالم .

وسوف تجد ان الفرق بينك وبينهم انهم يرون ان العصر الذهبى كان ، وانك ترى ان العصر الذهبى سوف يكون .. ان الماضى ذهب ومعه كل شىء ، وانت ترى ان المستقبل سوف يدخر لك كل شىء ..

فهم ينظرون وراءهم فى حزن ، وانت تنظر امامك فى امل ..

كان زمان الدنيا غير الدنيا : الناس لهم قيمة .. والناس لهم قيم ومبادىء الواحد يملأ هدومه . وهدومه نظيفة انيقة . البدلة والكرافتة والسلسلة الذهبية تمسك الكرافتة والسلسلة الذهبية تمسك الساعة فى جيب الصديرى والكرافته كبيرة . لابد منها . الأب هو سيد البيت . والكلمة كلمته . الشخط والنطر . يدخل البيت فيموت كل من فى البيت . لقد جاء .. فكل شىء يجب ان يتوقف او يقف ليضرب تعظيم سلام لسيد البيت . واذا كان لابد من الكلام ، فالكلام همس ، والحركة لمس ..

والام ايضا ست البيت . ولاصوت يعلو على صوتها . ولا راد لقضائها انها الام « والجنة تحت اقدام الامهات » حديث نبوى شريف .

فما الذى يقوله الاب للاولاد .. يقول ان الشرف هو اعظم مايتصف به الانسان . والكرامة هى العنق وهى الراس . والانسان يجب ان يرعى كرامته . حتى لو جاع ، حتى لو مات . فالفقر مع الكرامة اعظم من الهوان مع الثراء . واداء الواجب على رقاب العباد . فكل انسان يجب ان يؤدى واجبه . أن يعمل . ان يذاكر . وان يتجه الى النجاح بالشرف والامانة . ومن الواجب ومن الامانة ان يصبر وان يضحى . فمن لايعرف الصبر ، لم يعرف لذة الحياة والنجاح .. ومن لم يتعب فلن يذوق طعم الراحة .. والرجل يجب ان يكون رجلا . والمرأة يجب ان تظل انثى ..

الرجل طول وعرض وقوام واستقامه وصلابة وشارب يقف عليه الصقر .. والمرأة يجب ان تكون انثى لطيفة رقيقة لاهى عظام بلا لحم ، ولا هى لحم بلا عظام ، وانما هى مثل « العرسة » .. رشيقة خفيفة ولكن يتغطى عظمها باللحم ..

وكل انسان فى مكانه فى موقعه .. الرجل فى موقع الرجولة .. المرأة فى مكان الانوثة .. هذا فى المكتب وهذه فى البيت .. العامل يرتدى البدلة الزرقاء .. الموظف البدلة والقميص الابيض والياقة المنشية .. والاحترام هو كل ما يربط الناس بعضها ببعض ..

والبيت من الداخل زى الفل ..

الشوارع كانوا يغسلونها بالماء والصابون .. لا توجد ورقة على الارض .. الناس لايلقون الورق واذا القاها احد جاء الكناس وحملها بسرعة .. وواجهات المحلات التجارية اعمال فنية .. شارع قصر النيل كأنه فى باريس وشارع سليمان باشا كأنه فى روما .. والقاهرة تجد صورها فى المجلات كأنها احدى العواصم الاوربية ..

أما وجوه الناس فكانت تضحك فى أدب ورقة .. صحة وعافية وأمل وسعادة ..

ان الواحد ينظر الى والده فيجده كأنه شاب صغير .. وينظر الى جده وجدته ، كأنهما فى منتصف العمر ..

وكان محمد عبد الوهاب وأم كلثوم والعقاد وطه حسين وشوقى ويوسف وهبى وعبود باشا والخواجات والأسرة المالكة فى غاية الاناقة والشياكة والجمال .. وكان الناس يقلدون الباشوات والبكوات ..

كانت دنيا وكانت لنا أيام ..

هيه .. هيه .. أيام .

يقولها كل من هو أكبر سنا وصدره يعلو ويهبط .. يعلو حسرة ويهبط حزنا على ما فات وعلى ما هو ات .. ويرى ان أولاده ليسوا هم الذين كان يحلم بهم ويحزن على مستقبل مصر على أيدى هؤلاء العيال .. التافهين الهايفين .. الذين لا يعرفون لهم رجلين لأنهم فقدوا الرأس وضلوا وراء العقل ودخلوا مع القلب . ولا فرق عندهم بين الرأس والقلب .. ولا بين اليوم والغد .. ومطربهم عبد الحليم حافظ يقول : ولا أعرف بكرة من أمبارح ولا دقة قلبك من قلبى !

ماذا جرى بعد ذلك ..

هبت اعاصير من وعلى أوروبا ، وعواصف على ومن امريكا اطاحت بالعقل وحطمت القلب وهلهلت العلاقات العائلية ، والروابط الاجتماعية وظهر الشباب فى نصف هدومهم أو بغير هدومهم .. ورأوا ان جلودهم المنقوشة بالأحمر والأبيض هى ملابسهم الجديدة .. ملابسهم التى لا تبلى .. وانما هى الملابس التى يرسمونها على اللحم كل يوم ..

وعرفنا نحن ـ فى مصر ـ فى الستينيات مقدمات الحرب والحرب والهزيمة .. عرفنا « التعبئة » أسلوبا فى الحياة وفى العمل .. فكل شىء معبأ للحرب والكراهية .. كل شىء معبأ للنصر .. كل شىء معبأ للزهور والغرور فلما جاءت الحرب وقعت الهزيمة العسكرية والانهيار النفسى والانحطاط الاجتماعى والفوضى السلوكية ..

فبدأنا نعبىء أنفسنا لابتلاع الهزيمة ، وأفكارها .. ونعبىء الكراهية ضد الغرب الذى ساعد على هزيمتنا .. ودقت طبول الانتقام والحقد والمرارة .. من أجل ان نتخطى الهزيمة وان نقوم بدور الضحية والشهيد . فالذين حاربوا ضحايا ، والذين لم يحاربوا شهداء ..

فمصر مقبرة الغزاة .. ومقبرة المواطنين أيضا ! لقد تحولت مصر الى مدينة الموتى ـ كل من فيها أما حانوتى أو ميت أو سائر فى جنازة .. فكل بيت مقبرة وكل سرير تابوت .. وعبأنا أنفسنا نغنى ونطبل ونزمر للهزيمة ..

فالمطرب والمؤلف والملحن « مداح » للسلطان ومداح للنبى عليه السلام ..

وكل مناسباتنا رقص على رماد الهزيمة ، وطبل فى مؤخرة المواكب التى ظاهرها النصر وباطنها العار ..

ولذلك كان غضب الشباب على هذه الفنون « التعبوية ».. اى تجنيد الناس واستنفارهم من اجل المعارك الوهمية للبطولة والنصر على الأعداء دون اى استعداد حقيقى لذلك .. لكن المهم هو « الطابور » والسير فيه .. وان ينكتم الناس فلا ينطقون بآهة واحدة . لان المعركة هى الصوت والسوط ، ولا صوت ولا سوط يعلو على المعركة !

ولذلك كان الغضب الشباب وتمردهم وسخطهم وكفرهم بكل الفنون التعبوية فى التأليف الغنائى والمسرحى والتلحين ..

وفى الوقت نفسه كانت مظاهرات الشباب فى أوروبا وامريكا .. فهم ثائرون

على ايام زمان ـ ايام هتلر وموسولينى وستالين وعبد الناصر . ايام الرجل الواحد القاهر الجبار .. ايام التعبئة والحشود والموت بالجملة من اجل عظمة الرجل الواحد ..

واذا كان الاكبر سنا يرتدون البدلة الكاملة ، فعند الشبان يكفى البنطلون والقميص .. أو لا داعى للقميص .. والفتاة تكفيها الجوب من اى حجم ومن اى لون .. والبلوزة على اللحم .. والشعر منكوش .. والذى فى ذراعها ليس اباها ولا اخاها وانما زميل ليس من الضرورى ان يكون خطيبها .. فالخطيبة والزوجة والوقوف امام المأذون تقول : وكلت ابى أو أخى .. ويقول العريس : وانا قبلت نكاحها على مذهب ابى حنيفة .. أو يقف امام القس ويقول : قبلتها زوجة على الحلوة والمرة .. وهى تقول كذلك ، ويقول القس : اعلن انكما زوجان .. أمين .. مبروك ـ فقد كفر الشباب بالطقوس التى ضاعفت هوان الشاب المتعلم الفقير !

ولا أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا سيد درويش تدخل الدماغ وانما موسيقى من اى بلد .. ولابد ان تكون راقصة .. فلم يعد الجلوس مضموم الساقين هو الأدب .. وانما الحركة والرقص والخروج من البيت والخروج على البيت .. والخروج من المدرسة والخروج على الجامعة .. هذا هو الاسلوب . وهذه هى الحياة .. ولم يعد الأدب هو ان يطبق الانسان شفتيه مادام لا يجد ما يقوله . وانما امتلأت الافواه باللبان الامريكى .. والكلام نوع من اللبان ايضا .. والالفاظ لبان نمضغه ونديره يمينا وشمالا .. وليس من الضرورى ان يكمل الانسان جملة يقولها .. ولا ان تجىء الكلمات كاملة الحروف .. ولذلك كان الكلام بسرعة . والسرعة تؤدى الى تساقط الحروف وتأكل الكلمات .. والكبار لا يفهمون ما يقوله الشباب .. والكبار ليس من الضرورى ان يفهموا .. فالشباب يفهم . وانتهى عصر العبارات المضبوطة والكلمات الواضحة . فالشباب لهم لغة .. واللغة لها مفردات من حقهم هم . هذه حياتهم . وهذه لغتهم . وهذا اسلوبهم فى الحديث .. وهم أحرار فى الذى يصنعونه بحياتهم وكلماتهم وعلاقاتهم .. فكما ان الاب ليس هو المثل الاعلى والأم ليست كذلك ، فالبيت ليس هو المقر الرسمى للشباب . ان البيت هو احدى المحطات على طريق الحياة الحرة فى الشارع أو فى الاكواخ أو الحانات والمواخير أو الغابات ..

وماداموا ليسوا فى بيوت فليس لهم جيران . ولا احترام للجار ولا حرمة للبيوت . ولذلك فموسيقاهم صاخبة وأغانيهم عاوية . وهم يدبدبون على الأرض

ليلا ونهارا .. وهم لم يخرقوا الارض ولم يتطاولوا على الجبال . وانما هم ارهقوا اجسادهم وأهلكوا اقدامهم وسيقانهم . فتساقطوا مرهقين ينامون حيث يصلون وحيث يرقصون ويسكرون ويحششون ..

وإذا كان اباؤهم يطلبون منهم غسل ايديهم قبل الاكل وبعده ، فلن يفعلوا . لقد تعبوا من نصائح الوالدين . وضاقوا بحكاية الحياة زمان والاخلاق زمان .. فهذا زمانهم وهذه حياتهم . يفعلون بها ما يشاءون . انتهى الوقت الذى كان الابن يبوس القدم من اجل ان يحصل على مصروف يشترى به كتبا ، او يشترى به ملابس .. فالأب يعطى ابنه او ابنته المصروف الذى يطلبه . ولا شأن له بنوع السجائر الذى يشتريه ، ولا نوع الخيام التى سوف يقضى فيها الاجازة الصيفية .. ولا ان كانت الفتاة النائمة التى جواره فى مثل سنه أو أصغر عشر سنوات .. ولا ان كان ابنهما الرضيع ابنا شرعيا أو جاء هكذا دون عقد قانونى .. فالعقد القانونى هو انه يحبها ، وهى ايضا . انتهى ..

ففى الستينات والسبعينات فى اوروبا وأمريكا ومصر ايضا هز الشباب كتفيه للقانون وقواعد الحياة العائلية والاصول الاجتماعية .. ثم انه ضد الدولة بسلطانها ومؤسساتها ..

والشباب فى العالم كله هارب من مواجهة الدولة بقوتها وجبروتها الى الجماعات الفقيرة .. جماعات الشيوعيين والاخوان المسلمين وعصابات السطو والخطف والتزوير .. وغرز الحشيش .. والشاب ليس عنده برنامج ولا خطة عمل .. انه فقط هربان .. ويريد ان يظل هاربا .. فالجرائم التى ارتكبها أبوه ومن قبله جده ، لا شأن له بها .. انه لم يساعد على ان صار الملك فاروق فاسدا هو والحاشية .. ولم يتدخل فى الثورة على الملك فاروق .. ولا شارك فى ثورة يوليو التى اسقطت ملكا وعينت عشرين ملكا والتى اطاحت بقواعد المجتمع ، وشوهت تاريخه ، وفرضت عليه تاريخا مزيفا .. ودخلت حروبا انهزمت فيها جميعا .. لقد كان الفاسد هو جيل الاجداد والثوار جيل الآباء .. وهم ايضا الفاسدون المحترفون .. ثم انهم يعاقبون انفسهم على ما كل منهم .. وعلى ما كان من غيرهم .. فما ذنب الشباب ان يرتدى الحداد ، وان يمشى فى جنازات لا اول لها ولا آخر .. وان يلطم خديه بكاذب الكلام ، وسخيف الاغانى ، ومقرف الالحان .. ما ذنبه .. ما دخله .. ولماذا نعاقبه او يعاقب نفسه على كل ذلك ؟!

فكان الهروب هو العلاج !

ومن السخط عند الشباب تهتز عواصف فى كل الاتجاهات .. شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .. اتجاهات مضادة . فالشباب لا يهمه الاتجاه . وانما يهمه فقط ان يخرج وان يصرخ وان يثور وان يلعن وان يهدم وهو ينطلق .

فأهم مواصفات حركات الشباب فى العالم هو : الخروج والانطلاق .. فظهرت موجات اللامبالين ..

اى الذين لا يهمهم ما كان ولا ماهو كائن .. فالذى كان ، هم على يقين منه انه مايزال موجودا .. والذى هو كائن ، فالشباب على يقين من انه غامض ..

ثم انهم كرهوا ان يقفوا فى الصف . وكرهوا ان يعارضوا وان يهتفوا .. وضاقوا بان يكون لهم اسم ورسم وعلاقة وشعار ..

انهم فقط عندنا وفى العالم كله لا يبالون بأى شىء .. ان ظهورهم للحائط وعيونهم الى السماء .. ويمدون ايديهم يتناولون ما يجدون .. فإن لم يجدوا مدوا ايديهم الى الناس .. أو سرقوا من بيوتهم .. أو خطفوا .. وهم لا يرفعون سكينا ولا يعمرون بندقية .. فقط يريدون ان يموتوا فى سلام .. اما الحياة فليست ما يريدون .. فقط ان يتفرجوا على الذين يسابقون الاتوبيس ويتشعبطون فى الترام .. وعندهم وقت لكى يضحكوا على ذلك .. ويسخروا من انفسهم .. ثم انهم لا يحملون حقدا لأحد غيرهم ..

اما هذه الكتب وهذه الكاستات وماذا تنشر الصحف وما يقال فى الجامعات ، فذلك لا معنى له .. فلا تهمهم الحضارة الانسانية .. ما قال الانسان وما عمل .. وما اضاف .. وما اقام من الناطحات .. وأبدع من الطائرات .. وما كدس من القنابل النووية .. لا شأن لهم بكل ذلك . انها ليست حضارة .. لان الحضارة هى التى توفر للانسان ماهو ضرورى دون جهد يبذله .. فمادام كل ذلك لا يقدم له الطعام والخمر والجنس مجانا ، فلا حضارة هناك ..

واذا كان الشباب الاخرون يفضلون النوم والأكل والشرب والجنس فى الظلام ، فى المواخير والزرايب فقد ظهرت موجة جديدة من الشباب يفضلون الوضوح .. المطاعم الصاعقة الألوان ، والحانات الباهرة الألوان .. التى تكشفهم عراة امام انفسهم .. وامام الاخرين .. وأصبحت النظارات السوداء موضة .. يواجهون بها الأنوار .. واصبح احمرار العينين والرمد دليلا على هذه الموجة الغاضبة على الظلام .. تماما كما كانوا فى عصر الرومانسية الاوروبية يتباهون بالاصابة بالالتهاب الرئوى والسل ، وذلك من شدة الحساسية فكان

مألوفا ان نجد الفتيات الجميلات يبصقن دما فى الشوارع .. وذلك دليل على منتهى الرقة ..

والشاعر العربى القديم الذى وصف المحبوب بأن لمس الحرير يدمى بنانه .. معناه انه حساس لدرجة ان مرور الحرير على بشرته يجعله ينزف دما . والشاعر العربى القديم قد تنبأ بما سوف يحدث بعد ذلك فى القرن العشرين .. فبعض النساء عندهن حساسية شديدة للخيوط الصناعية مثل النايلون .. هذه الخيوط بما فيها من مواد كيماوية تصيب البشرة بالتهاب يدعو الى الهرش الدامى !

وهؤلاء الشبان قد جعلوا كل شىء ابيض فى حياتهم .. الجدران والادوات والملابس ولذلك يفضلون الماء على غيره من المشروبات الملونة !

وظهرت موجة جديدة تدعو الى الاعتدال وخاصة فى الدول الاوروبية .. فاصبح المثل الاعلى هو الاتزان والتوافق .. والمظهر الانيق المحترم .. والانضباط فى الدراسة وفى العمل .. والتوازى بين اللعب والجد .. بين السهر والنوم .. بين البقاء فى بيت الاسرة حتى العشرين والاستقلال بعد ذلك .. فظهرت الصحة على الوجوه والاناقة فى الملابس .. والرفق بالآباء والعطف على الاجداد ، والاهتمام البالغ بالاطفال والمستقبل ..

ولذلك اصبح العمل ضرورة . والكسب وسيلة الحياة الافضل .. وتعلقت صور ابطال الرياضة وكبار العلماء والادباء ونجوم السينما على الجدران ..

ومعنى ذلك ان الشباب يعترف بالحاضر . ويرى ان المشاركة ممكنة . وان استمراره على ايديهم ممكن . وانهم جزء من الحاضر ومن المستقبل . فهم لم يلعنوا الماضى من اجل المستقبل الموهوم .. فلاهم يؤمنون بان الجنة كانت ولن تعود .. ولا بأنها بعيدة المنال فى المستقبل .. ولكن يرون ان الحاضر هو عتبة العصر الذهبى الممكن بالعلم والعمل ..

ففى المانيا مثلا اسس الاديب هانس ريشتر مجموعة من الآدباء والفنانين الشباب الذين عادوا من المنفى ومن المعتقلات الامريكية والبريطانية والفرنسية والروسية . هؤلاء الشبان قرروا ان ينهضوا ببلادهم .. اجتمعوا . احتشدوا لم يجدوا مكانا فوقفوا على النواصى يقرأون قصصهم وقصائدهم .. لم يجدوا القاعات يعرضون فيها لوحاتهم .. ثم انهم اصغر من ان يقدروا على شراء القماش يرسمون عليه ، فراحوا يرسمون على الأرض .. فالشوارع هى معارضهم والمشاة جميعا مدعوون للفرجة عليهم .

وظلت هذه المجموعة تلتقى وتقرأ وتسمع وترسم والناس يتفرجون ، حتى ظهر منهم اديب عظيم هو هينيريش بيل الذى فاز بجائزة نوبل فى الادب .. والروائى الكبير جنتر جراس .. وعلماء اخرون فازوا بجوائز نوبل فى الفيزياء والكيمياء والطب ..

وكان من الممكن ان تظهر عندنا فى مصر « مجموعة ١٩٦٧ » تحاول ان تدرس ما حدث وما اصابنا .. وترسم لها طريقا للخروج من الهوان العسكرى والقهر النفسى .. ولكن لم يحدث . وكان معنى ذلك اننا اردنا ان نعذب انفسنا اكثر واكبر واعمق .. وان نعاقب انفسنا على اننا صدقنا ما قيل لنا ، وآمنا بما زوروه علينا .. فكان تعذيب النفس سبيلا الى تطهيرها وتخليصها من العفاريت التاريخية التى تلبست اجسادنا ولم تخرج . بل اننا ذهبنا الى ابعد من ذلك فاتجهنا الى فرنسا ننقل مسارحها الى مسارحنا .. ننقل كل مسرحيات « العبث » من تأليف يونسكو واداموف وارابال وبيكت وغيرهم . تأكيدا لمعنى ان « العبث » هو حياتنا وحاضرنا ومستقبلنا .

والعبث معناه : لا فائدة من شىء ولا امل فى شىء ولا خلاص ولا نهضة .. فان لم يكن هذا هو الموت ، فهى رغبتنا العميقة فى ذلك ..

وفى الستينات كان العبث حزينا كئيبا .. وفى السبعينات والثمانينات اصبح العبث ضاحكا سعيدا باننا انتقلنا من جنازة نحمل فيها نعش حاضرنا .. الى زفة عروسين .. نزف فيها حاضرنا الى مستقبلنا وننسى ان ننظر الى وجه العروسين .. انهما صورتان وليسا جسدين .. انهما شاهدان على قبر ، وليسا لحما ودما .. فنحن مرة اخرى سعداء بقدرتنا الفذة على خداع انفسنا بانفسنا وتصديقنا لكل ما نهذى به . فكأننا لم نخرج من ضباب العبث كل ما حدث اننا أحرقتنا السجائر فى اصابعنا .. فى الستينات كنا نلف اوراق الصحف على شكل سجائر وندخنها .. والآن ندخن الحشيش ونحن نستمع الى صوت الشيخ محمد رفعت .. ونضحك ونضحك !

وهناك محاولتان لاقتلاع الماضى من اعماقنا .. واحدة يقوم بها الشباب المتدين .. وواحدة يقوم الشباب الذى يغنى لنفسه ولا يغنى من الاذاعة والتليفزيون لاحد .. فهؤلاء الشباب ليسوا مضطرين ان يكونوا « مداحين » للسلطان .. ولا حتى الهرم وابو الهول والنيل .. فقط للقمر وللمحبوبة ، وكلاهما

قمر فى ليالى العشاق الصغار .. ثم اهم من كل ذلك انهم يدعونك الى الرقص ..

اما الشباب المتدين فهو الذى يقف على اعظم القواعد واقواها واثبتها .. على قاعدة : لا اله الا الله محمد رسول الله ـ انعم واكرم !

ولكنهم ليسوا هكذا متدينين مؤمنين يريدون وجه الله .. وانما هم ايضا غاضبون ساخطون وهاربون .. يشعرون بالعزلة ، يكلمون انفسهم . ولا يجدون احدا يقولون له ، ولا احد يقول لهم .

فالتقوا وداروا حول انفسهم يقولون ويرددون .. ويتفرجون على الدنيا حولهم ، انها لا تعجبهم . ولا هى منهم ، ولا هم منها .. هم يرفضونها وهى تنبذهم . هى الاقوى وهم الاضعف بسلاحهم ، ولكنهم الاقوى بربهم . هى تقول : إما أنا وإما أنتم .. وهم يقولون : إما نحن وإما أنت ..

والأمل ان نقول معا : نحن معا ..

ولكى نكون معا لابد ان نتفاهم . ان نتفق ، ما هى غلطتنا ، ما هى جريمتنا ، ومن الذى يحكم بالعدل بيننا ؟ انه كتاب الله ..

والتهمة المتبادلة . ان الشباب له فهم والسلطة لها فهم .. السلطة تقول : شباب طائش جاهل أحمق .. اصابعه من الديناميت يخيف الناس حتى لا يقرب منه احد .

بينما هم يريدوننا ان نقترب وان نتقارب وان نكون من ذوى القربى ، ولكن كيف ؟!

والشباب يقول : السلطة قوة غاشمة .. بالاضافة الى سلطة ملايين الآباء الرافضين لأولادهم .. تريد ان تحتضن الشبان .. ولكن كيف تحتضن وقد ارتدت جلد القنفد كيف تتحدث الى من كلماته نار .. ووعيده زنازين وافكاره كرابيج .. كيف يفرضون الغرابة والغربة علينا ، ثم يتشدقون بالقرب والحب والأمن والامان ؟!

انها مشكلة لم تحل .. ولن تحل الا باقامة الجسور فى الصحف والتليفزيون والشاشة والمدرجات ، لابد من المواجهة .. لا خوف . ان الشباب فى اوروبا وامريكا كان اعنف واعمق . ولكن كل شىء قد هدأ .. لان المواجهة والحوار والامان قد كان الهواء يتنفسه الجميع ، والطعام يتبادله الآباء والابناء والمدرسون ورجال الدين .. ان كان الشباب مريضا فكيف نواجه المرض ؟ ان كان طاعونا ، فكيف نواجهه ؟

اذن فأمامنا مشوار طويل حتى نصل الى التفاهم والصلح .. انه ليس صلحا مع قوة اجنبية .. انه صلح مع اعز الناس علينا .. انه صلح عائلى .. اننا نصالح انفسنا على انفسنا حاضرنا على مستقبلنا على جثة ماضينا !

اما هؤلاء الساخطون الغاضبون الرافضون الشبان الذين لا يجمعهم اى فكر او أية نظرية فهم الذين طلعوا علينا باسلوب جديد فى الغناء واللحن .. انهم سامى الحفناوى وناصر المزداوى (ليبى) وابراهيم فهمى (ليبى) وحميد الشاعرى (نصف ليبى) وفارس (نصف ليبى) وابراهيم عبد القادر وعلى حميدة من مرسى مطروح على الحدود الليبية واسلام وحنان وهالة وانوشكا (آرمنية) وسيمون .. اسماء يعرفها الشباب أو يسمعونها ولا يعرفونها . المهم انهم يسمعونها ويدمنونها !! فجأة ظهرت كاستات هؤلاء الشباب فى الاسواق تباع بالألوف وبعد ذلك بالملايين .. اى الناس هم الذين اكتشفوا هذه الاغانى واصوات اصحابها .. ثم الملحنون . فمن أين جاءوا ؟ وكيف ظهروا ؟ وما الذى جمع بينهم ؟ واى شىء يمثلونه .. ولماذا الاقبال عليهم .. وليس من بينهم الا ثلاثة اصوات قد وافقت عليها لجنة الاستماع فى الاذاعة على حميدة وفارس وابراهيم عبد القادر ..

اما اغنياتهم فهى سريعة راقصة وكلماتها بسيطة رقيقة .. والأغنية دقيقتان او ثلاث .. مئات الاغانى تظهر فى وقت واحد .. واذا وقفت بالسيارة فى اشارة المرور جاءتك هذه الاغانى عالية من كل السيارات .. وفى كل البيوت وعلى الشواطىء ..

وهؤلاء الشبان يغنون مجانا فى المدارس والجامعات .. ويجدون فى « التوطين » النفسى بين شبان مثلهم نوعا من الاكتفاء الذاتى .. واستفتاء حرا بقبولهم مطربين ممثلين للشعب الشاب فى مصر .. ويكون هذا الاستفتاء موجها ضد السلطة .. اى ضد الاذاعة والتليفزيون .. وضد الفنون « التعبوية » ـ اى التى تخرج فى المناسبات السياسية والدينية ..

ويكون هذا النوع من « المدح » هو تأشيرة للدخول للإذاعة على الملايين .. ولذلك هؤلاء الشبان لايجمعهم ناد واحد .. أو حوش واحد .. ولا شخص يلتفون حوله .. ولاعندهم نظرية .. وإنما هم يغنون ويرقصون .. ويكون رواجهم بين الشبان ، إجماعا يدعو إلى استمرارهم .. وحرصهم على الاستمرار هو الذى شغلهم عن أن ينظروا إلى أنفسهم أو حتى يستمعوا إلى أنفسهم ليكتشفوا ان

ألحانهم متشابهة ورقصاتهم متطابقة .. ولذلك يجب أن يتداركو هذه الغلطة وأن يغيروا ويتغيروا قبل أن يملهم الشباب .. وأن يلتف إلى غيرهم من بعدهم أو إلى غيرهم من قبلهم .. إلى أم كلثوم وعبدالوهاب وسيد درويش وان كان الغناء القديم مايزال على عرش الطرب قويا فخما وعظيم الاحترام بين كل الناس .. وبين الشباب أيضا .

إن ليبيا لم تنتقل إلى مصر .. كانت لها مسيرات مرفوضة .. فوضوية .. رفضناها .. فكل الذى يربطنا بها الآن هو استنكارنا للإرهاب السياسى والعنف الدعائى .. كالتى عرفناها فى الستينات وبعد الهزيمة العسكرية .. إن ليبيا صورة باقية لكل الذى كرهناه فى ماضينا إنها تكرار ممل .. وإحياء لما نريده أن يموت .. ولكن الفن الليبى دخل بالذوق وبالضرورة النفسية إلى حياتنا ..

وقد سمعت من المطرب المغربى الكبير عبدالوهاب الدكالى إن فى الجزائر موجة غنائية احتجاجية أيضا .. وإن المطربين الجزائريين يغنون فى نوادى الليل فى باريس .. وإنهم أكثر تجمعا وأصدق تمثيلا للشعور العام فى الجزائر .. بل الأغانى الجزائرية هى المتنفس الوحيد للشعب الجزائرى ، فلا عنده أدب ساخط ، ولامسرح غاضب ، لكن مطربون وملحنون مغتربون ..

أى رافضون للفنون « التعبوية » .. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهبت الأغانى المصرية .. إنهم أقرب إلى المسرح المصرى .. إلى العبث المسرحى فى مصر .. فالأغانى موزونة ولكن لامعنى لكلماتها .. كأن الفنان الجزائرى اكتفى بأن يجعل الأغنيات كلمات موزونة .. فهى موسيقية بلا معنى .. فالمطرب الجزائرى ليس إلا أداة موسيقية تواجه الناس وهى ترقص ولاتقول شيئا ، لماذا ؟ لأنه لايريد أن يقول .. لايريد أن يقول لأنه لامعنى للكلام ولا جدوى ولا فائدة : قمة العبث !

وهو غضب وسخط واحتجاج على الواقع الذى جعل الشبان غرباء فى بلادهم .. فى لغتهم .. رافضون أن يكون بينهم وبين المستمعين أى حوار .. فكل منهم رافض للآخر .. ولذلك يواجهون المجتمع الجزائرى فى باريس وليس فى الجزائر ..

والمطربون المصريون رافضون .. غاضبون .. ولكن الغضب لم يمنعهم من الغناء .. إنهم « طيور النار » التى تهاجر كل سنة إلى مملكة آسام فى آسيا .. ثم ترمى بنفسها فى النار .. تماما كما كان يفعل الكاميكاز اليابانى .. الذى وضعوه

فى الطوربيد ليوجهه نحو الهدف لينفجرا معا .. لايهم إنه مات .. المهم إنه أمات عدوه ..

إنهم مثل « طيور الشوك » .. تلك الطيور الاسترالية التى تسافر طويلا لتجد شجرة شائكة .. ثم تنتقى أطول شوكة وتغرسها فى جسدها .. وتستخدم كل قوتها وقدرتها لتجعل الشوكة تدخل قلبها .. وتنزف دما .. وتطلق أروع صيحاتها .. مع كل قطرة دم من حياتها .. إنها تقتل نفسها غناء ورقصا .. إنها تضحى بحياتها .. ولكن من أجل اللحن الجميل والرقص البديع تهون الحياة فهى لم تجد وسيلة لأجمل الأغانى إلا بالموت على مرأى من الأحياء واحتجاجا عليهم ..

ويموت الفنان ويبقى الفن .. ويختفى شكل الغضب وتبقى صورته .. يذهب الصوت الذبيح ويبقى صداه والأسف النبيل على كل ذلك . !

إنها مثل « انتفاضة » الفلسطينيين فى بلادهم .. إنهم لايستخدمون الحديد والنار .. فقط يمدون أيديهم إلى الأرض ويقطعون الأحجار ويرمونها على المصفحات والمدرعات .. ولن تنتهى الحجارة مادامت هناك جبال وهضاب .. وحتى إذا اختفت الهضاب سوف يجمعون عضامهم ويجعلونها طوبا حتى تكون لهم الأرض التى هى العرض .. !

وقديما حدثت التوراة عن الصراع بين الفتى اليهودى داود والعملاق الفلسطينى جوليات .. كان جوليات مدرعا بالحديد مخيفا لكل الناس .. ولكن الفتى الذكى داود عرف نقطة ضعف العملاق فضربه بطوبة أصابته فى جبهته فسقط مغشيا عليه .

. انقلبت الآية الآن : فالفلسطينى هو الذى يلقى الطوب على داود المدرع بالحديد والنار .. وهو لم يصرعه قتيلا ولكن اصابه بالجنون .. فالذين يمسكون الطوب يثبتون أنهم منزوعو السلاح ، ولكنهم ليسوا منزوعى الارادة ، ليسوا مجردين من الغضب والسخط والاحتقار ..

وكذلك هؤلاء الشبان الصغار يلقون الكاسيتات على الإذاعة والتليفزيون والصحف .. إنها « الإنتفاضة الغنائية ضد النظرية التعبوية المدرعة بالميكروفون والشاشة والصحف » .

وسوف ينتصر الشباب بالشباب .. وسوف يبقى كل مايريد الناس ، تعبيرا عن حريتهم وعن إرادتهم وعن انتفاضتهم النبيلة ليعيشوا صوتا مفرحا وصورة

كريمة لهم .. أى لهذا الجيل ، لهذا المستقبل !

★ ★ ★

كل الشباب يكرهون أن يكونوا « قراطيس » تملؤها المؤسسات والهيئات أو التراب .. يكرهون أن يكونوا زجاجات تملؤها الدول بماء الورد أو بماء النار .. أن يكونوا قوالب طوب لبناء جسر أو بناء ضريح .. يكرهون أنفسهم ويحتقرونها إذا لم يكن لهم رأى فى هذه « التعبئة » العنيفة لقدراتهم وملكاتهم وخريطة مستقبلهم .. أو التعبئة الإعلامية والسياسية والدينية ضدهم .. !

علشانك
ياقمر .

من ستين عاما كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يغنى من تأليف أمير الشعراء :

والبان فى عوده سيد القمر فى سماه . بينى وبين القمر فى كل ليلة ميعاد .. وأم كلثوم تغنى : هلت ليالى القمر .. ومحمد فوزى : علشانك ياقمر .. والمطرب الصاعد إبراهيم عبد القادر : القمر قمرنا .. والسهر سهرنا ..

وسوف يتغنى كل فنان وعاشق بجمال هذا الحجر الدائر فى فلك الأرض التى تدور فى فلك الشمس .. قال تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ..

وقديما قال الشاعر البحترى يصف محبوبته :

« اضيرت بضوء البدر والبدر طالع
وقامت مقام البدر لما تغيبا »

وقال ابن الرومى فى وصف المحبوبة :

« إن أقبلت فالبدر لاح ، وأن مشت
فالمسك فاح ، وأن رنت فالريم » .. أى وإذا تلفتت فهى غزال ..

وقال ابن المعتز ينصح المحبين أن يلتقوا ليلا ، لأن الشمس تفضح ولكن القمر يقودك إلى المحبوب :

لاتلق إلا بليل من تواصله
فالشمس نمامة والليل قواد
كم عاشق وظلام الليل يستره
لاقى أحبته والناس رقاد

وقال المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وقد اعتبر النقاد هذا البيت أروع ماقال المتنبى وأروع ما قال العرب .. وأن هذا البيت هو « أمير » الشعر كله !

وقال أمير الشعراء أحمد شوقى يصف القمر وراء الجبال فى ليلة المولد النبوى :

فديناك من زائر مرتقب
بدا للوجود بمرأى عجب
تهز الجبال تباشيره
كما هز عطف الطروف الطرب
ويجلى البحار بلآلئه
فمنا الكئوس ومنه الحبب
أتانا من البحر فى زورق
لجينا مجاديفه من ذهب
فلا هو خاف ولا هو ظاهر
ولا سافر ولا منتقب
وليس بثاو ولا راحل
ولا بالبعيد ، ولا المقترب
توارى بنصف خلال السحب
ونصف على جبل لم يغب
يجددها آية قد خلت
ويذكر ميلاد خير العرب

وقال شاعرنا الرومانسى على محمود طه يصف القمر العاشق الذى يتسلل من النافذة إلى المحبوبة وقد نامت فى فستانها الرقيق ، فيغار الشاعر من القمر ويطلب إليها أن تغلق النافذة :

إذا ماطاف بالشرفة ضوء القمر المضنى
ورف عليك مثل الحلم أو اشراقه المعنى
وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى
فضمى جسمك العارى
وصونى ذلك الحسنا

★ ★ ★

أغار عليك من حاب
كأن لضوئه لحنا

تدق له قلوب الحور أشواقا اذا غنى
رقيق اللمس عربيد
بكل مليحة يضنى
جرىء أن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

* * *

أغار أغار إن قبل هذا الثغر أو ثنى
ولف النهد فى لين
وضم الجسد اللدنا
فإن لضوئه قلبا
وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذراء
من أغوارها وهنا

* * *

فردى الشرفة الحمراء
دون المخدع الأسنى
وصونى الحسن من ثورة
هذا العاشق المضنى
مخافة أن يظن الناس فى مخدعك الظنا
فكم أقلقت من ليل !
وكم من قمر جنا !

ومن أروع مانظم على محمود طه قصيدته فى وصف « الخيال » الذى يعبده الشعراء حتى الجنون :

عشقنا الدمى وعبدنا الصور
وهمنا لكل خيال عبر
وصغنا لك الشعر ، حب الصبا
وشدو الأمانى وشجو الذكر
تغنت به القبل الخالدات
وغنى بإيقاعها المبتكر
وجئنا اليك بملك الهوى

وعرش القلوب وحكم القدر
وأنت بأفقك ساجى اللحاظ
تطل على سبحات الذكر
دنوت فقلنا : رؤى الحالمين
فلما بعدت أتهمنا النظر
وحامت عليك بأضوائها
مصابيح مثل عيون الزهر
تتبعن خطوك عبر الطريق
كما يتحرى الدليل الأثر
يقبلن من قدميك الخطى
كما قبل الوثنى الحجر
مشى الحسن حولك فى موكب
يرف عليه لواء الظفر
تمثل صدرك سلطانه
كجبار واد تحدى الخطر
بنهدين يستقبلان السماء
كأنهما يرضعان القمر !

وقال مصطفى صادق الرافعى :

يامن على البعد ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوما وننساكا
أن الظلام الذى يجلوك ياقمر
له صباح متى تدركه أخفاكا

ولا نهاية ولا بداية لما قيل وسوف يقال عن القمر ..وسحر ضيائه وما يهمس به للشاعر والعاشق .. ولكل عين وكل قلب وكل خيال .. ففى ليالى القمر يولد الحب ويعيش ..

وقد عبد الانسان القمر .. كما عبد الشمس والبحر والأرض .. عبد الانسان كل القوى التى يخاف منها ، وكل القوى التى يعيش عليها ..

ولكن جاء العلم الحديث يهدم كل المعبودات واحدا واحدا .. ابتداء بالشمس والقمر .. وانهاها بالانسان نفسه .. فلم يعد الانسان يعبد الملوك والكهنة .

هل كان الأنسان أسعد حالا يوم أقام لنفسه الأصنام فى كل مكان يصنع الأصنام ثم يخر لها ساجدا ؟

هل كان الانسان أسعد عندما كانت حرفته وديانته هى صناعة الألهة ؟ هل أصبح الأنسان أتعس عندما حطم الألهة وانتصب واقفا يقول : لا آلهة .. لا أصنام أى عندما بصق على السماء ، فارتد إليه ما فعل ؟

ـ ٢ ـ

لقد آمن الانسان ألوف السنين بأن القمر يصيبه بالجنون .. ولذلك نجد فى اللغات الأوروبية أن الجنون مشتق من كلمة « القمر » .. فقد لاحظ العلماء أن القمر عندما يكتمل شكله ويصبح بدرا ، فإن هذا البدر يصيب الناس بالجنون.. المرأة خصوصا .. وأن الذئاب تعوى والكلاب .. وفى أساطير القدماء أن الذئب يعوى ويتطاول حتى يكون على مستوى النخيل ويهدد الناس بالموت والخراب .. ولا يزال الناس يتشاءمون إذا رأوا الكلاب تلوى أعناقها وتعوى . وفى الريف نقول :أن الكلب رأى عفريتا .. أو أنه رأى روحا تخرج من جسد أحد وتعود إليه .. أو أنه سمع وقع خطوات الموت .. وأن الموت ينزل من القمر متعلقا بخيوطه الفضية الشاحبة ..

وفى الأساطير الأسيوية أن الفتيات ينمن عاريات فى ضوء القمر ، لكى تكبر نهودهن ويكون شعرهن حريرا ..

وقد ذكرت الباحثة مرجريت ميد أن العذراء فى جزر المحيط الهادى تنزل البحر فى ضوء البدر .. فالبدر وحده هو قادر على أن يلف العود والنهدين والردفين .. ثم تتمدد على الشاطىء ليكون البدر أول من يدخل بها !

وفى كوريا يقدسون نبات « الجنزينج » .. ويرون أن هذا النبات قادر على كل شىء . فهذا النبات يزرعونه فى ضوء القمر .. ويقطفون زهراته فى ضوء البدر .. فهو ابن القمر وخليفته على الأرض وفى كل جسم وكل قلب ..

ويرى أبناء أندونيسيا أن البقرة التى تحمل فى ضوء القمر تلد أجمل الأبقار .. وكذلك المرأة فإنها تلد الذكور .. أو التوائم ..

وقد عرف السحرة الهنود أن « العملات » بفتح الميم إذا وضعوها فى ليالى البدر كان مفعولا أكيدا ، بشرط أن تكون من أجل مزيد من الحب ، أو من أجل الكيد للمحبين .. فالقمر هو رسول الحب ومبعوث الحقد أيضا .

وظل القمر فى كل الأساطير القديمة ذلك الأمير الجميل الذى يرضى عن الناس

معظم الوقت ومن النادر أن يغضب .. فهو يمس القلوب ، وهو الذى يمس العقول والأجسام أيضا .. فإذا كل شىء قد اختل توازنه .. ان النهار مملكة الشمس ، أما الليل فهو امبراطورية القمر .. أما ليلة البدر فهى الليلة التى اختارها الليل ليفعل برعاياه ما يشاء ..

ـ ٣ ـ

ويوم أمسك العالم الفلكى الأيطالى جاليليو جهازه المقرب ونظر إلى القمر ، كان ذلك هو اليوم الذى سقط فيه عرش القمر .. فقد رأى بعينه أن وجه القمر ملىء بالحفر والمطبات .. وأنه مثل الأراضى الصحراوية .. وأن هذا الذى أصاب وجهه الجميل ليس الا حجارة سقطت من السماء فحطمت وجهه .. وأن هذه الفتحات ليست الا براكين قد اشتعلت من ملايين السنين وخمدت .. فالقمر ليس إلا أرضا صغيرة تدور حول الأرض .. وأن الضوء الذى يشع منه ، ليس إلا ضوء الشمس قد فاض عليه فانكسر علينا ..

يومها سمحت الكنيسة لكل الناس بأن ينظروا بتلسكوب جاليليو .. ويروا أن القمر ليس حجرا سماويا .. وأنه لاإله إلا الله .. فلا القمر آله ولا الشمس .. ويومها أحس الناس أن جاليليو هذا العالم الفلكى قد أرسلته العناية الألهية لتدعيم عرش السماء .. عرش الله !

وفجأة انقلبت الكنيسة والناس على هذا العالم الفلكى لأنه هدم ركنا من أركان الجمال المقدس .. لأنه جعلهم يبصرون إلى السماء باستخفاف .. جعلهم يناطحون السماء .. ولا يستبعدون أن يتحطم القمر وينزل على رؤوسهم مليون قطعة .. بل حدث فى أيام جاليليو أن قامت راهبة تصرخ من عز النوم وتقول : إن القمر قد تسلل من النافذة واغتصبها ثم ترك هذا الدليل !

أما الدليل على ذلك فكانت آثار أسنان قد انغرست فى كتفيها ! وواحدة أخرى انهارت تهذى وتقول : أنها رأت القمر قد انطبق على الأرض فاظلمت الدنيا وارتفعت الأمواج ، حتى جاءتها موجة اسقطت سريرها وبللت ملابسها ! وغيرها من الحوادث التى تؤكد للناس أن القمر ذلك الأمير الجميل قد يسقط .. ويجب أن يسقط عن عرشه !

ـ ٤ ـ

ولاحظ علماء الفيزياء أن القمر هو المسئول عن اضطراب أمواج البحر .. فإذا ارتفع القمر فى السماء ، سحب معه مياه البحر .. فكان المد ، وإذا غاب

انحسر الماء .. والسبب هو أن جاذبية القمر تسحب المسطحات المائية ناحيته ..
وقد لاحظ الناس من أقدم العصور أن شيئا ما يحدث إذا مارتفع القمر .. إذا أضاء وبعد ذلك أظلم .

ومن أساطير الشعوب القديمة أن برج بابل قد أسقطه القمر .. والأسطورة تقول ان الناس كانوا يعيشون جميعا فى قرية واحدة .. وفجأة قرروا أن يقيموا لهم برجا عاليا من عدة طبقات . وفى كل طبقة تعيش عائلة . تأكل وتشرب وتفكر فى اقتسام العالم فيما بينها . فالقرية لم تعد تتسع لهم جميعا ، وفى إحدى الليالى اتفق الجميع على رأى واحد هو أن يجعلوا القمر يثبت فى مكانه فى السماء .. فهم يتضايقون من الأشكال التى يتخذها . فمرة هلالا ومرة نصف هلال ومرة بدرا ثم بعد ذلك محاقا .. ثم يدخل القمر أحضان الشمس فيكون لقاء العاشقين .. ولذلك تظلم الدنيا مرة كل سنة !

ويقال أن القمر سمع ماتقوله هذه العائلات فى برج بابل ، فهدم عليهم هذا البرج ..وتفرقوا فى كل مكان .. ومن هنا كانت « البلبلة » ـ أى اختلاف اللغات والعادات والألوان !

ويقول المفكر العربى الكبير أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الأمتاع والمؤانسة » ـ الليلة الثالثة عشرة :

« .. فصار الاستنباط والغوص والتنقير والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر لليونان .. والوهم والحدس والظن والحيلة والتحيل والشعوذة للهند .. والحصافة واللفظ والاستعارة والايجاز والاتساع والتصريف والسحر باللغة للعرب .. أما الروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسم والعبودية للفرس .. أما الترك فلهم الشجاعة .. »

ويوم أقسم روميو أنه سوف يظل مخلصا لجوليت قال : اقسم بالقمر الجميل مثلك ، أن أظل وافيا لك ولحبنا ! وكانت جوليت أكثر واقعية فقالت له : ولماذا لا تقسم بشيء لايتغير ويتقلب ويتخذ كل ليلة لونا وشكلا وحجما ؟

فقال : إذن أقسم لك بالشمس !

ولم يكن الشكل واللون كل شهر هو الذى يصيب القمر ويقلل من قيمته عند العشاق ، وانما عندما نظرت علوم الفضاء إلى القمر على أنه أول محطة أتوبيس فى الطريق إلى الفضاء الخارجى .. وأن القمر ليس شيئا هاما ولا خطرا صعبا فقد صورته المراصد وعرفت طوله ووزنه ودرجة حرارته .. واقتربت منه سفن

الفضاء ودارت حوله .. ونزل عليه الانسان .. ورأينا الانسان يترك أعلاما .. ثم أجهزة ترصد درجات حرارته وجاذبيته وكمية الأشعة المنعكسة عليه .. وكم من هذه الأشعة يمتصها سطح القمر .. وكم الذى يتبدد فى المسافة التى بيننا وبين القمر .. وكم يصل إلى الأرض .. ولماذا هذه الأشعة مسئولة عن ضيق التنفس وأحيانا عن الأصابة بأمراض خطيرة .. وكم من هذه الأشعة مسئولة عن انتعاش الانسان وعن حيويته وعن ميلاد الحب فى قلبه .. ولماذا تواجه الكلاب والذئاب أشعة القمر بالنباح والعواء ؟

ان الانسان قد دفع ألوف ملايين الدولارات من أجل بعض ذرات من تراب القمر قد علقت بجزمة رواد الفضاء .. فقد كان العلماء يؤمنون بأن القمر ليس له تراب .. لأن التراب معناه أن درجات الحرارة تتفاوت بين الليل والنهار .. وأن هذا التفاوت يؤدى إلى التقلص والتمدد وتفتيت صخور القمر .. واليوم يفكر العلماء فى أن الحياة لابد أن تكون تحت سطح القمر .. لأن السطح يحمى الانسان من حرارة الشمس نهارا ، ومن برودة القمر ليلا .. فالانسان سوف يعود إلى حياة الكهوف ، ولكن على هذا المستوى الرفيع .. ولذلك قامت تجارب العلماء على حياة الانسان فى كهوف تحت الأرض .. وفى هذه الكهوف علموا الأنسان كيف يحول فضلاته إلى طعام ـ كل فضلاته ـ وذلك بالمعالجات الكيماوية .. وهكذا يستغل الانسان كل شىء من أجل أن يبقى أطول مدة ممكنة فى كهوف القمر .

شىء آخر يحدثه القمر فى جو الأرض .. أن أشعة القمر تساعد على ظاهرة « التاين » .. أى انطلاق الأيونات من الهواء .. وهى جسيمات صغيرة .. بعضها سالب وبعضها موجب .. والأيونات الموجبة مؤذية للانسان .. والأيونات السالبة مريحة ولذيذة ممتعة ..

وهذه الأيونات الموجبة تجىء من الاحتكاكات فى كتل الهواء .. فى الرياح والعواصف والأعاصير ، والزلازل أيضا . ونحن نعرف رياح « الخماسين » التى تدفع الرمال الصفراء من الصحراء الغربية إلى كل المدن المصرية .. وفى اسرائيل يسمونها : شاراف .. وتنتقل هذه العواصف الرملية إلى إيطاليا ويسمونها « سيروكو » .. ويسمونها فى جنوب فرنسا « مسترال » ويسمونها فى ولاية فلوريدا بأمريكا : سانتا أنا .. وهى التى تخنق أهل العاصمة الألمانية بون والعاصمة السويسرية برن ويسمونها : فين .. وفى كل المستشفيات الأوروبية

الكبرى يوقفون اجراء العمليات الجراحية كل أيام هذه العواصف .. وقبلها وبعدها بأيام أيضا .. لأن الأطباء والمرضى يكونون فى حالة من الأعياء ! .

هذه التغيرات الجوية سببها : القمر .. فهو مصدر هذه الأيونات الموجبة المرهقة والتى تهد الجسم وتشرد العقل وتغشى على العين وتعوق الأذن .. كأنها قد عصفت بكل الجهاز العصبى للأنسان ! .

ومن المعروف علميا أن الطيور والحيوانات تتنبأ بقدوم العواصف والزلازل .

أما السبب فهو زيادة الأيونات الموجبة بسبب الأحتكاكات القوية بين الكتل الهوائية أو بينها وبين الأرض ..

ففى مايو سنة ١٩٧٦ هربت القطط والكلاب والطيور من قرية فريولى الايطالية .. واندهش الناس لذلك .. ولاحظ موظفو حديقة الحيوان أن النمور الصغيرة قد أنزوت فى أقفاصها فى حالة من الخوف والفزع والاضراب عن الطعام .. وبعد ساعات وقع الزلزال المعروف ..

وفى سنة ١٩٧٩ فى سان فرانسسكو وقع أسوا زلزال .. ولم يكد علماء الأرصاد الجوية يرون الطيور قد اتجهت كلها بعيدا فى فزع .. وكذلك الفئران والقطط والكلاب حتى أيقنوا : أن زلزالا سوف يقع . ووقع .

أما التفسير العلمى المؤكد فهو أن هذه الحيوانات لديها القدرة الفذة على الاحساس بالزيادة المفاجئة للأيونات الموجبة فى الجو . وأن هذه الأيونات كان سببها القمر وهزات فى الأرض أدت إلى احتكاك كثيف مفاجىء مع جو الأرض !

\- ٥ -

فإذا كان القمر قد سقط ، ولم يعد الها معبودا .. ولا عاشقا ومعشوقا ، فإنه لا يزال ذلك الهادىء الجميل الصورة ، البديع الألوان ، فى وحدة ساحرة ..

أما الذى يفعله العلماء فهو أسقاط كل الالهة عن عروشها .. فليكن لهم مايريدون . ولكن لافن بغير قمر ، ولا حب بغير قمر .. أن الفن قد أسكن القمر فى القلب وفى الخيال .. وكما أن القمر يضىء لنا من بعيد .. فإن المحبين يعيشون بأحلامهم وهمومهم بعيدين أيضا وما الشعر والفن إلا أضواؤهم علينا ..

القمر حجر .. فليكن .. ولكنه بدر .. والقمر بارد ، فليكن .. ولكنه مصدر الدفء واللوعة والشوق والهجر والغيرة فى كل قلب ..

فإذا كان العلماء قد أسقطوه من عرش السماء ، فإن المحبين قد توجوه فى استفتاء شعبى حر ملكا على القلوب الى الأبد ..

العلماء يهتفون : يسقط الحجر !
والعشاق يغنون : يحيا القمر !
لقد علا أبديا شأنك ياقمر ، فى كل قلب وكل حب ..
أما هؤلاء الذين ينظرون إليك بالعيون الزجاجية ، ويرسلون سفنا حديدية تدور حولك وتقيسك بالدرجة والمتر ، فهم حيوانات لها عقول ولا قلوب لها ..
فأرجو ياقمر أن تقبلنى من رعاياك .. أنظر إليك ولا أراك .. أراك وأفتح قلبى .. وأتقدم راضيا بهذه الضحية التافهة عند قدميك .. فهى لم تسعدنى ولا أسعدت أحدا غيرى!
شكرا لك ياقمر !

قلب الإنسان لم ولن يتغير

لم يتغير الانسان كثيرا فى المائة الف عام الماضية : ياكل ويشرب وينام ويحب ويقتل وينتقم ويدوس قلبه من اجل عقله ، ويدوس عقله من اجل الكرسى والسرير ..

مارك انطونيو عندما جاء غازيا الى مصر كان يعلق فى رقبته « خمسة وخميسة » ..

وأول انسان نزل على القمر كان يلف حول عنقه تحت بدلة الفضاء « ايشاربا » باركته زوجته فى تسع كنائس ..

والملك قمبيز عندما جاء الى مصر سأل العراف وضارب الودع ان كانت مصر سوف تركع على ركبتيها ..

وزوجة الرئيس ريجان تذهب لقارئة الفنجان تسألها عن نتائج قرارات الرئيس والمشروعات المعروضة على الكونجرس الامريكى ..

والتطور الذى حققه الانسان هو فى الحصول على أدوات افضل واجمل وارخص واقوى .. فبدلا من ان يأكل بأصابعه ، راح يأكل بالشوكة والسكينة والملعقة .. وبدلا من ان يمشى على رجليه ، صنع السيارة والطيارة ، وبدلا من ان يزعق بكل صوته ، اخترع التليفون واللاسلكى .. وبدلا من ان يضرب الناس بالطوب صنع القنابل والصواريخ ..

ولكن الانسان سواء بقى فى الارض أو فوقها أو تحتها أو انتقل الى الكواكب الأخرى ، فهو هو .. وقبل ان نعيش على الكواكب الاخرى بدأت المعارك بين الاقوياء .. حرب الكواكب وسوف تكون الحياة على الكواكب وبينها ، كالتى بين القارات وبين البحر والبر والجو .. هى هى .. ولكن بأساليب اخرى .. أى بأدوات أخرى ..

فالذى هو انسانى نبيل وانتهازى حقير .. هو هو .. لم يتغير من مئات ألوف السنين .. وسوف نبقى كذلك مئات ألوف السنين ايضا !!

(١)

فى الكتاب المقدس سفر اسمه « نشيد الانشاد » وهو من اجمل ما جاء فى هذا

الكتاب . فالعبارات شاعرية رقيقة . مثيرة . انها قصة حب . لفتاة راعية غنم اسمها شولاميت .. كانت تحب راعيا مثلها .. ولكن جنود الملك سليمان اخذوها بالقوة الى قصره .

ورغم الجمال والابهة فى القصر فـانها ظلت تحن إلى حبيبها راعـى الغنم .. انها اروع قصة فى التاريخ القديم .. الملك الذى ضم الى حريمه راعية غنم .. وراعية الغنم التى لم يبهرها الملك والقوة والعرش والابهة .. فكانت أول فتاة تتمرد على السلطة .. أول فتاة لا تؤمن إلا بالقلب .. إلا بالحب .. اول شابة رافضة فى التاريخ ..

ويدور الحوار بينها وبين حبيبها وبين بنات أورشليم عن حبها وحبيبها ..

وقد وقع اكثر الشعراء فى غرام « نشيد الانشاد » وترجموه الى لغتهم .. الشاعر الالمانى جوته والشاعر الفرنسى فيكتور هيجو والشاعر الروسى كوبرين .

تقول شولاميت فى « نشيد الانشاد » : أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم . لوحتنى الشمس .

« هو : لقد شبهتك يا حبيبتى بفرس فى مركبات فرعون . ما أجمل خديك . وعنقك وقلائدك .. أنت جميلة يا حبيبتى عيناك حمامتان ..

« هى : وانت جميل يا حبيبى سريرنا اخضر . أنا نرجسة .. سوسنة الاودية ..

« هو : كالسوسنة بين الشوك . كذلك حبيبتى بين البنات .

« هى : كالتفاح بين الشوك كذلك حبيبى بين البنين . اسندونى بأقراص الزبيب . انعشونى بالتفاح . فأنى مريضة حبا .. شمال حبيبى تحت رأسى ، ويمينه تعانقنى .. احلفكن يا بنات أورشليم الا تيقظن حبيبى وألا تنبهنه حتى يشاء ! فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى .. طلبته فما وجدته . اقوم . واطوف فى المدينة فى الاسواق فى الشوارع . اطلب من تحبه نفسى . وجدت من تحبه نفسى .. امسكته . ادخلته بيت أمى . احلفكن يا بنات أورشليم الظباء والايائل ألا توقظن وألا تنبهن الحبيب حتى يشاء .. هذا موكب سليمان حوله ستون جبارا . كل رجل سيفه على فخذه . الملك سليمان عمل لنفسه تختا من خشب لبنان . اعمدته فضية . وروافده ذهب . ومقعده ارجوان . انظرن يا بنات صهيون الملك سليمان بالتاج الذى توجته به أمه فى يوم عرسه وفرح قلبه .

« هو : ها أنت جميلة يا حبيبتى . عيناك حمامتان تحت نقابك . شعرك قطيع

ماعز . فمك حلو . خدك فلقة رمانة . عنقك برج داود . كلك جميلة يا حبيبتى . ليس فيك عيب . شفتاك تقطران شهدا . تحت لسانك عسل ولبن . ورائحة ثيابك كرائحة لبنان .

« هى : ولكن حبيبى تحول وعبر . نفسى خرجت عندما ادبر . طلبته فما وجدته . دعوته فما اجابنى . وجدنى الحرس الطائف فى المدينة . ضربونى . جرحونى . رفعوا ازارى عنى . احلفكن يا بنات أورشليم ان وجدتن حبيبى أن تخبرنه بأننى مريضة حبا .. حبيبى ابيض أحمر . رأسه ذهب . شعره مسترسل حالك كالغراب . عيناه مغسولتان باللبن . خداه خميلة . يداه حلقتان من ذهب مرصع بالزبرجد . ساقاه عمودا رخام على قاعدة من ابريز . حبيبى كله مشتهيات ..

« هو : ما أجمل رجليك بالنعلين . دوائر فخذيك مثل الحلى لصانع ماهر . سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج . بطنك كيس حنطة بالسوسن . عنقك برج من عاج . انفك برج لبنان . قامتك نخلة . ثدياك عناقيد ..

« هى : اهرب يا حبيبى وكن الظبى على الجبال ! » .

وبعدها بمئات السنين تزوج الخليفة معاوية بن ابى سفيان بواحدة من الشاعرات ونقلها من البادية الى حياة القصور فى دمشق . فكانت لا تكف عن الحنين الى حياة البادية .. رمالها وطعامها وكلابها وصحاريها والحب الغائب .. ففى أحد الايام سمعها تقول :

للبس عباءة وتقرعينى
أحب الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الارياح فيه
احب الى من قصر منيف
وبكر يتبع الاظعان صعب
احب الى من بغل زفوف
وكلب ينبح الأطياف دونى
احب الى من هز الدفوف
وأكل كسيرة فى عقر بيتى
احب الى من اكل الرغيف !

وكانت صدمة للخليفة معاوية .. فقد ظن انه قد استولى على قلبها .. ولكنه

احس بفشله وان ملكه لا يساوى عندها لقمة عيش فى خيمة .. فسألها : ان كانت تريد ان تعود الى اهلها ؟

فقالت : ولك الشكر !

وعادت سعيدة ، وكانت حسرة معاوية لا قرار لها !

أما الشاعرة هذه فاسمها : ميسون بنت حميد بن بجدل الكلبية !!

(٢)

ونبى الله ايوب قد امتحنه الله فى جسمه وفى نفسه وفى اهله وأولاده وأرضه .. ابتلاه بلاء عظيما ..

يقول تعالى : « وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين ، فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر ، وأتيناه اهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعالمين » ..

وقال تعالى : « واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه ان مسنى الشيطان بنصب وعذاب .

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له اهله ومثلهم معه رحمة منا وذكرى لأولى الألباب » .

ثم تولاه الله برحمته . واوحى اليه ان يضرب الارض برجله فأخرجت عيونا اغتسل فيها ، فعادت له عافيته وشبابه . وأولاده ..

وكانت الامراض والديدان قد اكلت جسم ايوب حتى كانت له رائحة تخيف اقرب الناس اليه .. ولم تجد زوجته واسمها « رحمة » مفرا من ان تعمل فى البيوت دون ان تذكر لأحد انها زوجة ايوب حتى لا يخاف الناس من العدوى ..

وفى يوم عادت ومعها طعام واموال . وقدمت طعاماً لأيوب . وسألها . فقالت انها عملت فى احد البيوت . وفى اليوم التالى عادت بطعام وفلوس وسألها فقالت انها تعمل فى البيوت . ولكنه اصر ان يعرف . فنزعت الغطاء من فوق رأسها . فعرف أنها باعت فى اليوم الاول ضفيرة من شعرها .. وفى اليوم الثانى باعت الضفيرة الاخرى . فأقسم ايوب ان أعطاه الله الصحة ان يضربها مائة مرة !

قال تعالى لأيوب : « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث . انا وجدناه صابرا . نعم العبد . انه اواب » .. أى أن الله اوحى لأيوب ان يأتى بحزمة من اعواد الشجر ، تضم مائة عود وان يضربها مرة واحدة . وهكذا يكون النبى قد اقسم ثم لم يحنث فى قسمه .

فالنبى ايوب ارتضى العذاب والمرض ولكنه لم يقبل ان تطعمه زوجته طعاما يهينه .. فالجوع اهون من هذا الهوان .. الموت ارحم من بيع شعرها ثم تسأل الناس ان يعطوها طعاما له .. لقد غضب النبى ايوب وتوعدها رغم انها تحمله وتنقله .. وعلى الرغم من ان الناس هربوا من شكله ورائحته .. فانها وحدها التى بقيت الى جواره .. ولكنه لم يغفر لها انها « انفردت » بالرأى والقرار .. مع انها حسنة النية .. ولكن النبى المريض رجل يفنى ولكن لا يهون !

وفى القرن التاسع عشر اى بعد ايوب بالوف السنين ظهرت مسرحية « بيت الدمية » للكاتب المسرحى النرويجى ابسن . فى هذه المسرحية نجد البطل يعمل مديرا لأحد البنوك ثم مرض .. وليس عنده نقود . والزوجة تخشى عليه من المرض . فذهبت واقترضت من احد موظفى البنك .. وادعت لزوجها ان هذه الفلوس من والدها المريض وعلى فراش الموت ايضا .. وتشاء الصدفة ان يقرر زوجها فصل هذا الرجل الذى اقرضها .. وهدد الرجل ان يفضحها .. ولم يغفر الزوج لزوجته واسمها « نورا » ان انفردت بهذا القرار ، مهما كانت حسنة النية .. ولذلك قررت هى ان تترك البيت . وخرجت من البيت ودفعت وراءها الباب بعنف .. فاغلقت الباب فى وجه الزوج والمتفرجين وكل الرجال فى القرن التاسع عشر !!

(٣)

الخليفة يزيد بن عبدالملك احب مطربة اسمها « حبابة » جميلة من بنات المدينة المنورة . وكانت بارعة فى العزف على العود . شاعرة ايضا . وكان اسمها : العالية .. ولكن الخليفة هو الذى اسماها : حبابة ..

وقال يزيد بن عبدالملك للناس حوله : خلافتى واموالى لا تساوى شيئا اذا لم اشتر حبابة هذه ..

واشتراها ..

فجاءه اخوه مسلمة بن عبدالملك يلومه على الاسراف فى الشراب وعلى قضاء الليل يستمع الى المغنيات ويرى الراقصات وينشغل عن امور الدولة . وقال له : يا أخى انك جئت بعد عمر بن عبدالعزيز ذلك الخليفة العادل الفاضل ، وانت غافل عن الظلامات ولا تسمع شكاوى الناس ولا تراهم .

ووعده الخليفة بأن يكف عن الشراب . وظل اياما .

ولكن حبابة عرفت ذلك . واتفقت حبابة مع الشاعر الاحوص ان يقول شعرا

فى ذلك وله الف دينار ..

فدخل الاحوص واستأذن الخليفة فى ان ينشده شعرا . فاذن له . قال الاحوص :

بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى
ومن شاء اسى فى البكاء واسعدا
اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى
وان لام فيه ذو البيان وفندا

ومكث الخليفة اياما لا يرى حبابة ولا يناديها ولا يدعوها الى مجلسه ، فلما كان يوم الجمعة قالت حبابة الى بعض جواريها : اذا خرج امير المؤمنين الى الصلاة فاعلمينى !

فلما اراد الخروج الى الصلاة قلن لحبابة . فتلقته والعود فى يدها وغنت البيت الاول للشاعر الاحوص :

بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى
ومن شاء آسى فى البكاء واسعدا

فغطى الخليفة وجهه وقال : لا تفعلى .. ولكنها مضت تغنى :

فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى
وان لام فيه ذو البيان وفندا

قال الخليفة : صدقت والله . فقبح الله من لامنى فيك . يا غلام مر اخى ان يصلى بالناس !!

واقام معها يشرب وتغنيه . ثم قال لها : من قال هذا الشعر ؟

قالت : الاحوص ..

فأحضره وامر له بأربعين الف درهم .

ويقال ان الخليفة سافر بها الى الشام . وطلب من حاشيته ان يتركوهما معا . لا يدق بابه احد . ولا ينقل اليه خبر من اى نوع . وشرب وشربت .. واكلت رمانا فوقفت حبة فى حلقها . وشرقت وماتت !

فرفض ان يدفنها ثلاثة ايام حتى تغيرت وتعفنت . وهو يشمها ويلقى عليها الخمر ثم يشربه ..

وعابوا عليه ذلك وقالوا انها جيفة . فوافق على غسلها ودفنها . ولكنه كان يخرجها من قبرها . ثم حملوه الى قبرها . وجلس فوقه يبكى ..

وامر ان ينبش قبرها . ليرى وجهها . وكان وجهها قد تآكل تماما .

وقالوا : ألم تر بشاعتها ؟

قال : ابدا . لم ارها أجمل من اليوم !!

وظل كذلك حتى جاء أخوه واقاربه وابعدوه بالقوة ..

وعاد حزينا عليها ومات بعد اسبوعين .. ليدفنوه الى جوار بقاياها !!

وفى العصر الحديث كانت قصة الحب بين الاديب الفرنسى جان كوكتو والمطربة الفرنسية اديت بياف .. كانت قصة حب عنيفة .. لا يأكل ولا يشرب إلا من قدميها .. يصب النبيذ بين اصابعها ويشرب .. يلقى النبيذ فى حذائها ويشرب .. تضع هى الطعام فى يديه وتأكل .. تغرق جسمه بالنبيذ وترتوى ..

اديت بياف كانت مطربة فرنسا الاولى .. ففى صوتها رعشة ونبرة كهربية .. وكانت هى التى تؤلف اغانيها .. وخاصة اغنية : الحياة من ورد .. اشهر اغنيات القرن العشرين ..

وكانت تقول عن نفسها أنها مطربة الرصيف .. فهى عاشت معظم حياتها على المقاهى على الرصيف .. وكانت إذا سألت أحدا عن أصدقائها أين يلتقيان تقول : أى رصيف .. بدلا من أن تسأله عن اسم المقهى ..

تعمقت العلاقة بينها وبين الأديب كوكتو حتى يخيل للناس انهما لا يأكلان ولا يشربان وانما يتكلمان طول الوقت . ويندهش الناس لهذين العاشقين اللذين لا يتوقفان عن الكلام .. وأنهما قادران على أن يفعلا ذلك حتى الموت ..

وكان فى استطاعة أى منهما أن يعرف فى أى وقت ما الذى يفعله الآخر : يقرأ .. ينام .. مريض .. خارج البيت .. مع امرأة أو رجل آخر .. وكثيرا ما قفز أحدهما من فراشه متجها إلى الآخر ، فقد أحس أنه فى ضيق .. وتكون المفاجأة أن يلتقيا فى منتصف الطريق . أو يكون مريضا فعلا ..

وفى يوم قال لها كوكتو .. أينا سوف يموت أولا ؟ ..

قالت : انا

قال : بل انا .

قالت : احب ان اموت قبلك لكى تكتب قصة حياتى ..

قال : بل انا لكى تغنى قصة حياتى ..

واتفق الاثنان على شكل الجنازة وعلى ملابس الدفن والحداد ..

وفى الستينات أحـــس الاثنان انهما على باب الموت .. أو ان الموت على بابهما .. فطلب اليها ان تبعث بالملابس التى سوف تموت بها .. وان يبعث لها هو ايضا بالملابس التى يحب ان يموت فيها .. وان تبعث اليه قائمة بأسماء الذين تحب ان يكونوا عند قبرها ، وان يبعث هو ايضا .. وعن الأغنيات التى يغنونها لها وهى فى طريقها الى القبر .. وان يبعث هو بالقصائد التى يحب ان تتردد اصداؤها حول جثمانه ..

وكتب كل منهم وصية سرية .. لا تفتح إلا بعد وفاة كل منهما !!

اشتد بهما المرض : نفس المرض .. التهاب رئوى وماء فى الرئة واختناق وفقدان للقدرة على النطق ..

وفى اليوم الذى تعذر عليها ان تتصل به أو تحدثه أو تكتب له اصبح من المستحيل عليه هو ايضا ان يراها أو يسمعها .. فكلاهما مريض حبا ، ومريض ضعفا .. وكلاهما تمنى ان يكون المرض الاخير .. ليكون لقاؤهما الابدى بعد ذلك ..

ماتت .. ولم يعرف . ذهب احد اصدقائهما يخبره . لم يكن موتها صدمة له . مد يديه بسرعة الى ما تحت المخدة ، واخرج قميص نومها وفستانها وحذاءها .. لقد كان الحذاء قديما مهلهلا .. فقد كان يضع فيه القهوة والشاى والنبيذ ويشرب حتى تهلهل وحتى صارت له رائحة كريهة ، هرب منها الواقفون حوله .. وأشار إلى بعض النبيذ .. وقبل أن يجىء النبيذ كان هو الآخر قد مات بعدها بنصف ساعة !!

أما هى ففعلت نفس الشىء أيضا . عندما أحست بالنهاية مدت يدها إلى ما تحت المخدة وأخرجت القميص والبنطلون والجزمة .. وتراجع الناس لهول الرائحة .. وشربت الشمبانيا فى حذائه .. آخر ما فعلت .. ثم ماتت !!

أما وصيتها فهى : ان يدفن رأسها عند قدميه .. واكون سعيدة ..

وأما وصيته : ان يدفن رأسه عند قدميها .. واكون سعيدا !!

●●●

لم يتغير قلب الانسان ، وان كان العقل يحاول جاهدا ان يفعل ذلك .. فلا يزال الحب هو وجع قلب ..

ولا يزال العاشق يرى السعادة فى ان يكون مع المحبوب فوق التراب أو تحت

التراب .. وان يكون له .. وان يكونا له : أى للحب . ففى عذاب الحب : اقصى سعادة .. وفى الموت من اجل الحب : اعظم حياة .. والحب مرض : ولكنه اصح مرض ..

والحب عقد من اللؤلؤ حباته : شولاميت وميسون ونوراً ورحمة واديت بياف وليلى وعزة ولبنى وبثينة .. ومالانهاية له من اللائى يملكن القلب فيملكن اعظم العروش والتيجان .. وقلب الملكة العاشقة مثل قلب راعية الغنم العاشقة .

والحب : اكبر واعظم وابقى واروع ميكروب .. انه الحياة الابدية !!

صعاليك اليوم

« لا حل الا الخروج من ملابسنا .. من جلودنا .. من هنا الى هناك .. والى أبعد من هناك » ـ كان ذلك هتاف طلبة جامعة موسكو سنة ١٨٦٠ . ثم اتجهوا الى المدن البعيدة . فهم يرفضون تقاليد الجامعة والحكومة وعائلاتهم النبيلة الغنية .. ولا يريدون الضبط والربط العسكرى .. انهم يريدون ان يتعلموا لكى يعلموا الشعب .. فالعلم من أجل شيء يفيد الملايين .. فالرجوع الى الشعب فضيلة ! يعملون له ومعه ومن اجله . وبذلك تذوب الفوارق الكاذبة الراسخة بين المتعلم والجاهل والغنى والفقير وابن الناس وابن النسناس ..

وفى سنة ١٨٧٣ أصبح واضحا ان روسيا وأوروبا قد شهدت مسافة واسعة بين جيلين : الماضى القديم العتيد . العتيق القوى والجيل الجديد الفقير النبيل الذى لا يملك الا حريته وغضبه وايمانه بان الماضى قد طال واستطال وتطاول على الحاضر والمستقبل . وبأن المستقبل يجب ان يبدأ الآن فورا .. بل المستقبل يجب ان يبدأ أمس وأمس الأول وخرافات امس .. وانهم قادرون على ذلك .

وبعد مائة سنة من صيحات الشباب الروسى اى فى سنة ١٩٦٠ حدث فى احدى جامعات امريكا ان اضرب الطلبة الزنوج .. واضرب الجامعيون منهم عن العمل فى الشركات وجلسوا يأكلون السندوتش فى مكاتبهم ومعاملهم وعياداتهم . لماذا ؟ انهم كافرون بالتفرقة بين الألوان فى الحقوق المدنية .. وانه ليس صحيحا ان امريكا هى بلد التسامح الدينى اللونى والعنصرى .. وان ابيات الشعر المكتوبة على قاعدة تمثال الحرية كاذبة .. فالشاعرة ايما لازاروس كتبت تطلب من المعذبين فى كل مكان ان يجيئوا الى احضان التسامح والرحمة الامريكية ..

وظهرت قصيدة لشاعر امريكى شباب زنجى اسمه جال رولف يقول :

ان كان الحب كلمة فى القاموس ففى قاموسنا ألف كلمة عن الكراهية .. من بينها الكراهية لكلمة الحب فى قاموسكم ايها الكاذبون البيض ..

الف الف كلمة صدقونى .. تعالوا انظروا الى اصابعى الى قفاى الى شفتى الى انفى .. انظروا .. انظروا .. انظروا .. انظروا ..

فمن هؤلاء فى روسيا وفى أمريكا ؟

انهم جيل واحد عاش على امتداد مائة سنة وعلى امتداد القارة الاوروبية والامريكية .. لهم نفس الظروف . ونفس المواقف . انهم غاضبون على آبائهم .. على السلطة التى فى ايديهم . على الجبروت التاريخى الذى يفرضونه بالقوة والمال والدين على الغد ومابعد الغد ..

من هم هؤلاء فى موسكو وفى نيويورك ؟

الاجابة عند أديب روسيا تورجنيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) فيما كتبه عن (هاملت ودون كيخوته)..

أما هاملت فهو احد ابطال شيكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦).. انه ذلك المفكر السلبى المتشكك المدمر والذى يرتد على نفسه وعلى الناس .. انه ذلك الشخص الانتحارى ، الذى يقتل نفسه قبل ان يغتاله الآخرون ..

ودون كيخوته هو بطل الرواية الشهيرة التى كتبها الاديب الاسبانى سرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦). فهو مثالى يؤمن ايمانا مطلقا . وعنده استعداد دائم للقتال دفاعا عن المساكين والمضطهدين والمقهورين . انه صاحب الرسالة النبوية الرفيعة . هو الذى يدعو بان العودة الى الشعب فضيلة .

والشباب اليوم اما هاملت أو دون كيخوته .. وقد اخفى كل واحد منهم فى جيبه مسدسا وتحت البالطو قنبلة .

وهم جاهزون لعرض الرأى والرؤية بالحديد والنار. ولو نزعنا دون كيخوته من حياتنا فى كل العصور ، لاستحال ان يكون لنا تاريخ .

وهذا الذى حدث فى القرن ١٩ و٢٠ قد حدث قبل ذلك مئات المرات .. الوف المرات . فقد كان هناك شبان خارجون على السلطة فى كل زمان : سلطة القبيلة وسلطة الدولة . وكان الخروج نوعا من تأكيد الذات . والتحدى . وابراز ماهو طبيعى بين الناس : الشيوخ والشباب .. القديم والجديد .. الأغنياء والفقراء .. النائمون فى السلبية والذى اقلقهم الجمود وشريعة الموت .. وحيث تتعاظم السلطة ويتضخم سلطان التقاليد ، سوف تجد دائما من يقف ويعلو ويتعالى عليها من المتمردين والثائرين دعاة التغيير والتبديل والثورة والميلاد الجديد ..

وفى أدبنا العربى : صعاليك ..

وكلمة « صعلوك » ليست شتيمة .. وانما هى نظام اجتماعى ، خارج عن النظام الاجتماعى القائم .. اى على القبيلة بما لها من سلطات مطلقة تعيش بها

ويدافع عنها كل ابنائها . وفى القبائل القديمة فى الجاهلية وبعدها ، سادة وعبيد .. اى أولاد السادة وأولاد العبيد السود من الاحباش .. وعندما يتزوج الرجل اثنتين بيضاء وسوداء ، فالابن المكرم المعظم هو ابن البيضاء . وابن السوداء مهما كانت موهبته وشجاعته فهو من الطبقة الثانية .. او بلا طبقة ، مرفوض من الأب والقبيلة هو وأمه !

والصعاليك شبان خرجوا على القبيلة ، واستغنوا عنها ، وحاربوها . واحتقروها ، اما لانهم كافرون بجمودها وامتهانها لكرامة الفرد .. واما لأن القبيلة هى التى طردتهم لتمردهم . او لانهم ارتكبوا جرائم ضدها او ضد القبائل الاخرى « فخلعتهم » ـ فأصبح الواحد منهم (خليعا) ـ اى تنصلت منه ولم تعد مسئولة عن حماقاته وجرائمه ..

وهؤلاء الصعاليك شباب عندهم مبادىء : الحرية والفردية والاعتماد على النفس فى طلب الرزق . فهم يركبون خيولهم ويستوقفون القوافل يخطفون وينهبون ..

وهم يحبون حياتهم العائلية ويدافعون عن الزوجة والابن والشرف . ففى مواجهة القبائل تكونت قبائلهم الصغيرة .

ولم نعرف إلا الشعراء من الصعاليك . وهم الذين حدثونا عن حياتهم ومثلهم العليا . ولولا الذى نظموه ما عرفناهم . فالشعر ديوان العرب ـ أى تاريخ العرب .. فصعلوك الصعاليك عروة بن الورد يقول لزوجته :

دعينى للغنى أسعى ، فإنى   رأيت النـاس شرهم الفقيـر
وأبعـدهم واهـونـهم عليـهم   وإن أمسى لـه حسب وخير
ويقصيــه النـداء وتـزدريـه   حليلتـه ، وينهـره الصغيـر
ويلفى ذو الغنى ، وله جلال   يكـاد فؤاد صـاحبـه يطيـر
قليـل ذنبه ـ والـذنب جم ـ   ولكـن للـغنـى رب غفـور !

ومن أشهر الشعراء الصعاليك : حاتم الطائى . اشهر الكرماء فى تاريخ الأدب العربى . يجود بكل ما يملك من مال وطعام .. وعندما زاره ضيف لم يجد ما يقدمه له سوى ناقته الوحيدة فذبحها من أجله .. وحاتم الطائى هذا شاعر صعلوك يخطف ويسرق وينهب أموال الأغنياء ويتصدق بها على الفقراء . وقد تحدث التاريخ عن كرمه ، ولم يعب عليه ان هذا الكرم مسروق ! فالناس غفروا

له انه لص ، لأنه شاعر وكريم ! وهو الذى قال لزوجته « ماوية » ذلك البيت الشهير :

أماوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال : الأحاديث والذكر

وفى نفس القصيدة يقول :

عنينا زمانا بالتصعلك والغنى كما الدهر ، فى أيامه العسر واليسر
كسينا صروف الدهر لينا وغلظة وكلا سقانا بكاسيهما الدهر

ويقول زعيم الصعاليك عروة بن الورد :

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر ، أو لام الصديق فأكثرا
فسر فى بلاد الله ، والتمس الغنى تعش ذا يسار ، أو تموت فتعذرا

وهؤلاء الصعاليك يرون انهم أفضل كثيرا من الشعراء المحترفين الذين يقفون بالباب ينظمون شعرا ويتقاضون عنه أجرا .. انهم شحاذون جبناء . وليسوا فقراء نبلاء ..

وكان المتنبى ، أعظم الشعراء يرتاد قصور الملوك والأمراء يطلب المكافأة عن المديح والهجاء ـ وشعراء عظماء كثيرون أيضا !

ولو كان النثر معروفا فى الجاهلية ، لقرأنا لهؤلاء الصعاليك فلسفة فى التمرد على السلطة القبلية والجهالة الفكرية . وفرض الماضى على الحاضر والمستقبل ، وسحق الشباب ..

ولكن كل الذى وصل الينا هو هذه الانطباعات العاطفية . وهذا السخط الموسيقى ، وهذه البطولات فى احتمال البرد والحر والوحوش والجوع ..

أو فى انتظار الضيف .. فيكون مجىء الضيف سببا فى بهجته وسعادته . بل ان حاتم الطائى يقول لخادمه أشعل النار .. فالدنيا برد . فإن رآها ضيف وجاء الينا فسوف اعتقك .. فتكون حرا ! يقول :

أوقد ، فإن الليل قر
والريح ، يا موقد ، ريح صر
عسى ان يرى نارك من يمر
ان جلبت ضيفا ، فأنت حر !

والشاعر الصعلوك حاتم الطائي يرى ان سرقة الأغنياء وقطع الطريق عليهم واجب بطولى واخلاقى .. وانه وحده وبذراعه سوف يحقق العدل الاجتماعى . فيأخذ من الذين يملكون ويعطى للذين لا يملكون .

ولكنه فى نفس الوقت لا يدعو غيره لأن يفعل . فليس صاحب نظرية وانما هو اعتقاده الشخصي . وهو قادر على أن يفرض عقيدته بالسيف .. وقد فعل !

وفى المدن الغنية والعائلات الغنية والثروات الضخمة ، يظهر اناس كثيرون يحاولون ان يكون لهم من كل ذلك نصيب . فيلتقون حول الأغنياء يمدون أيديهم .. أو ينفقون قدراتهم على تسلية الأغنياء وسلب أموالهم بالذوق والنكتة والحيلة . فهم صعاليك بلا عنف ، وهم متسولون عندهم حيلة .

وقد وصف الجاحظ أديبنا العظيم هذا الطراز من الناس . الواحد منهم اسمه : المكدى الذى يكدى أى يتحايل فى طلب العيش . بأن يصرخ فى الشارع أو يتمارض أو يكسر ذراعه أو يقفل عينه أو يتظاهر بالجنون .. ولكن الذى يهمنا هم المكدون أصحاب الرأى والحيلة الأدبية والفكرية والفلسفية . وقد تحدث الجاحظ عن واحد منهم اسمه « خالويه » ـ وهى شخصية من اختراعه ولا نعلم أن كان له وجود ؤ ولكن الجاحظ ذكر أناسا كثيرين قد وفدوا من بلاد أخرى على بغداد عاصمة الدنيا فى زمانه . وهذا الأديب « المكدى » هو ساخط على زمانه وعلى أقوياء زمانه .. وهو يحاول ان يمر عليهم فى بيوتهم لعرض سلعته الأدبية النادرة ويضحكهم فى نفس الوقت .. فإذا ضحكوا اعطوه .. وهذا الطراز من الشحاذين الظرفاء هم أيضا الساخطون الأذكياء .. وهم يسبقون التقلبات الاجتماعية يدعون اليها أيضا . وعلى أيام الجاحظ كانت ثورة الزط وثورة بابك الخرمى وحروب الروم والعرب .

وقد تناول كثير من الأدباء شخصية « خالويه » هذه فظهرت فى (مقامات) بديع الزمان الهمذانى (٩٦٨ ـ ١٠٠٨) . وهذه المقامات يروى حكاياتها ونوادرها رجل اسمه عيسى بن هشام ..

ثم تناولها الحريرى (١٠٥٤ ـ ١١١٦) أيضا فى مقاماته . وكان بطلها الحارث بن همام ..

ثم اليازجى (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) . وكان بطل مقاماته ونوادره يرويها واحد اسمه سهيل بن عباد ..

وأخيرا بيرم التونسى وجعل الذى يحكى نقده الاجتماعى كثيرين لهم مثل

هذه الأسماء المضحكة : العاجز بن عجبان والاكتع بن عصران وبعزق بن سعفان ..

فبطل هذه « المقامات » شخص زكى لطيف واسع العلم فى اللغة والنحو والأدب والتاريخ يفتعل موقفا من المواقف يحتار له الناس . وتكون المفاجأة انه يمثل عليهم .. فيضحكون ويستحق المكافأة لذلك ..

ولا يجدون وسيلة لأكل العيش سوى افتعال المواقف التمثيلية .. يقول بديع الزمان :

هذا الزمان شئوم
كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح
والعقل عيب ولوم
والمال ضيف ولكن
حول اللئام يحوم

ولذلك كان لابد من الدوران حول اللئام ، بحثا عن المال .. وكان الشاعر عبد الحميد الديب نموذجا للصعلوك والمكدى معا . عاش فقيرا تعسا يدور حول اللئام ويلعنهم .

يقول الديب :

ويارب أين الرزق ؟ أين السماء ؟
وأين أنت ؟ يا اله الجميع
أليس لى فى طيب عيشى رجاء
أليس لى فى ربى شفيع ؟ !

ويقول أيضا :

نهارى إما نومه بين مسجد
غرارا ، وأما فى الطريق تسكع
إذا أذنوا للفجر طرت مسارعا
الى مسجد فيه اصلى واركع
اصلى بوجدان المرائى وقلبه
وبئست صلاة يحتويها التصنع
أمر على عرضى وآخر يشفع

وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم
فأجمعت أمرى فى العداء واجمعوا

وعندما وجدوا له وظيفة فى دار الكتب ، لم يكن يتردد على مكتبه فلا يعمل شيئا .

قال :

بالأمس كنت مشردا أهليا
واليوم صرت مشردا رسميا !

ومن قبله بمئات السنين قال الاحنف العكبرى الشاعر الصعلوك المكدى المتمرد الدموى على الناس وعلى أهله والزمان :

العنكبوت بنت بيتا على وهن
تأوى اليه ومالى مثله سكن
والخنفساء لها من جنسها سكن
وليس لى مثلها ألف ولا سكن !

أما أقصى درجات التعاسة والهوان والعدم والانعدام ما قاله الشاعر الشمقمق :

ولقد أهزلت حتى
محت الشمس خيالى
من رأى شيئا محالا
فأنا عين المحال !

(٤)

وفى مواجهة القبيلة الحديثة : الدولة .. وفى مواجهة السلطات : الحكومة والبرلمان والكنيسة والبورصة والسوق والمؤسسات والزحام والحرب ..

ظهر الصعاليك مرة أخرى وبصورة مختلفة وأساليب مختلفة وأساليب متطورة . وشعارهم : الخروج ..

ففى نهاية القرن التاسع عشر فى أوروبا ظهرت « الفلسفة الوجودية » تعبيرا عن الكفر بالسلطة المطلقة للحكومة والحاكم .. وعن ضياع الفرد والحرية الفردية ..

فالدولة هى الحوت الذى ابتلع يونس .. ويونس هو كل مواطن حر .. أو يريد ان يكون حرا .. وكان لابد من اخراج يونس من بطن الحوت .. حتى لو أدى ذلك الى قتل الحوت .. ولكن من الصعب القضاء على الحوت الذى هو كل الناس .. كل التاريخ القديم والحديث ، وكل السلطات فى أى مجتمع .. اذن لابد

ان يخرج يونس وان يحكى لنا ماذا رأى حتى لا يقع ذلك لانسان آخر ..

ثم تعالت الصيحات مرة أخرى فى أوروبا ضد الشيوعية وضد المثالية أيضا فالشيوعية كالمثالية كالرأسمالية : لا ترى أهمية للفرد ، وانما الفرد يدخل ضمن المجموع .. رقما بين الأرقام .. واحدا على مقعد فى قطار .. أو واحدا تحت المظلة ..

فالحياة للقطار بكل ركابه ، ومن أجل القطار فليسقط أى راكب ، ولا يتوقف القطار .. وكذلك المثالية تنكر الواقع وتحلم بما هو أفضل ، والذى هو أفضل ليس له وجود ..

اذن فالمثالية ساخطة على الواقع ، وتحلم بواقع أفضل وأعدل وإجمل .. فالناس يجب ان يعيشوا فى عالم ينكرونه ويكرهونه ولا يعيشونه وانما يمرون به مرورا .. فالمثالية هى كل دين هى أسلوب وهدف كل دين ..

فكأن الشيوعية التى هى ضد الأديان تشبه الأديان أيضا . بل هى دين . وهى كذلك ترى الماضى مرآة المستقبل . أما الحاضر فلا قيمة له . انه ظل الماضى وشبح المستقبل ! فنحن الأفراد ظل الظلال وشبح الأشباح . ولا حول ولا قوة لنا إلا مع « الكل » .. أو بكل الناس وكل المجتمع .

وقد تحدد السلوك الوجودى بعد الحرب العالمية الأولى والثانية ولنفس الأسباب . مضافاً اليه اليأس من اصلاح الانسان للانسان . اليأس من أن ينهض الانسان ونقيم له بين انقاض الفلسفات الكبرى بيتا صغيرا جميلا .. أى من اشلاء الماركسية والنازية والفاشية والمثالية .. مسكنا كريما يحمى وجوده المحدود .. ولكن الوجود المحدود هو الوحيد المؤكد .. أما المجتمع والدولة والناس والجماهير فهى جميعا مسميات منطقية .. فالمجتمع غير محدود .. ليست له معالم واحدة ..

ان الفيلسوف الأسبانى الوجودى جاسيت (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) يقول : ان ذبابة لها وجود محدد .. له أول وآخر .. تراه وتلمسه وتحصره وتحاصره .. ولكن الجماهير .. ليس لها رأس الذبابة وأرجلها وعيناها ثم انك لا تلمسها ولا تحصرها ولا تحاصرها ..

والفلسفة الوجودية الدنمركية عند كير كورد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) والألمانية عند هيدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) والفرنسية عند سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) والايطالية عند أبانيانو والأسبانية عند أونامونو (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) والروسية

عند بردیائف (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨) والانجليزية عند كولين ويلسون (١٩٣١ ـ ......) والأمريكية عند هربرت مركوه (١٨٩٨ ـ ١٩٧٨) والمصرية عند عبد الرحمن بدوى هى محاولات من أجل انقاذ الفرد فى مواجهة القوى الغاشمة للمذاهب الكبرى والسلطات المطلقة للمؤسسات السياسية والدينية والعسكرية ..

ولكن صيحات الفلاسفة كانت فى جامعاتهم وفى محاضراتهم .. وبعض اصدائها انتقلت الى الشباب . واختار الشباب من هذه الأزياء العقلية ما يناسبه ويريحه . وما يكفيه للدلالة على انه غاضب ساخط ..

ففى انجلترا ظهر الأدباء الغاضبون . وكان سخطهم على كل المؤسسات والسلطات . وهم يستنكرون سطوتها عليهم . ولذلك فهم يهاجمونها نثرا وشعرا .. ثم بعد ذلك يخرجون الى الشارع يفعلون عكس الذى يطلبه الأكبر سنا :

الأب والمدرس والطبيب وعسكرى المرور .. فالأظافر والذقون والبنطلونات ضاقت والجاكيتات .. اتسعت .. وعكس ذلك الفتيات .. وانتقل أحمر شفاه الى وجوه الرجال .. وجلسوا على الأرصفة وناموا فى الحدائق .. وتزوجوا بلا عقد . واقاموا لأنفسهم بيوتا فى الخرائب وفى الغابات وتحت العربات القديمة .. وهربوا من الخدمة العسكرية والخدمة الدينية . وانسحبوا من المجتمع : فلا عمل ولا دراسة .. ولا وعى : فقد أدمنوا المخدرات . وسرقوا ونهبوا لأنهم يريدون ان يعيشوا بعيدا عن البيت والمدرسة والمكتبة والمؤسسة والثكنة العسكرية . وهم لا يجدون المال ، ولذلك يخطفونه من الآخرين . ويرون ذلك نوعا من العدل العنيف ، أى الذى يفرضونه بالقوة !

والغاضبون الانجليز من الأدباء أو من قراء الأدب لا يرفضون السلطات . ولكن يريدون الحوار معها ، أملا فى تصحيح مسارها .. فعن طريق هذه السلطات القوية ، يمكنهم ان يحصلوا على وقود لسياراتهم ومساراتهم .. أى انهم يخطفون منها ما يشهرونه ضدها .. أليست هذه هى الدميقراطية : حرية للرأى وابداء الرأى وحق الاختلاف .. وهذه هى قاعدة التطور فى التاريخ .. فالتطور يولد جنينا فى القوى التى لا تتطور .. فمن التقاليد الجامدة تتولد الثورة عليها ، ومن العفونة يتولد البنسلين ، ومن الأسمدة تنمو وتترعرع الأشجار .. وكذلك حركات التاريخ تتولد من الفساد لتقضى عليه !

وفى امريكا فى خمسينات وستينات هذا القرن ظهر الأدباء « الصاخبون » وهذا واضح فيما كتبه الأديب كيرواك (١٩٢٢ - ١٩٦٩) والشاعر جنيزبرج وغيرهم ساخطون على السلطة .. ثائرون .. وهم لا يريدون القضاء عليها ، فهم لا يستطيعون ، وانما يجاهدون من أجل خلق سلطات صغيرة فى مجتمعات الشباب الخارج على كل ما هو هيئة أو مؤسسة أو إدارة .. أنهم ثائرون على كل الذى يجىء فى البطاقة الشخصية . ففى البطاقة : رقم مسلسل واسم ووظيفة وعنوان . وليست هذه هى مكونات أو مؤهلات أو جوهر أى انسان .. انه ليس رقما . وانما هو كائن حى محترم ، أو يجب أن يكون كذلك . يجب أن تكون له كل الصلاحيات فى أن يعيش وأن يعمل وأن يعدل عن رأيه وأن يهرب الى آخر الدنيا ، لأن الواقع الأمريكى لا يعجبه .. فالحضارة الأمريكية هى « استعباد تكنولوجى .. فكل المواطنين عبيد باسم التقدم والنجاح والسعادة والتفوق الأمريكى على كل الدنيا .

فالغاضب الانجليزى كولن ويلسون يبحث عن سرداب يصل به الى البرلمان والكنيسة والبورصة والحانات ..

أما الصاخب الأمريكى فهو يريد مكانا آخر يبنى فيه نموذجا لما يجب أن تكون عليه الدولة الشبابية ، أو دولة الشباب .. ولذلك وجدنا شبانا يعتنقون ديانات أخرى ويهاجرون الى غابات الأمازون وينتحرون بالجملة ، أى انهم خرجوا من أمريكا وخرجوا عليها ، وعندما تكاملت حريتهم فى أن يعيشوا قضوا على حريتهم بكامل حريتهم !

أما الذى يكرهه الصاخبون الأمريكيون فهو « المربع » - أى الرجل المربع المتساوى الأضلاع .. الذى لا نعرف له طرفا .. الذى اذا قلبته أو عدلته فكأنك لم تفعل شيئا .. أنهم يكرهون الرجل « المبروز » الرجل « المرسوم » - أى المزيف .. المصطنع : الرئيس .. الوزير .. القائد .. القسيس .. الأب .. المدرس .. كلهم براويز .. وهم يريدون أن يجعلوا الشباب نسخة منهم .. مسخة لهم !!

وهؤلاء الشبان يقفون امام الكنائس يتسولون .. ويدقون الأبواب ويرقصون ويتشقلبون فى الشوارع يطلبون مساعدة من الناس .

انهم أيضا صعاليك نبلاء .. شحاذون فلاسفة .. لصوص عقائديون .. التقى عندهم وفيهم وفى جيوبهم وعلى أكتافهم : الرأى والقنبلة .

.. يحاولون فرض الرأى السياسى والدينى والفلسفى والأجتماعى والجنسى بالقوة .. فهم يجعلون حفلات الخمر والحشيش بوتقة من دخان ونار لكى يتحولوا الى كائنات أخرى ليست مربعة ولا مستطيلة ولا مثلثة .. أن المواخير هى غرف الغاز ، هى مصانع التفريخ .. حتى يكونوا مخلوقات جديدة من صنع أنفسهم . وليس من الضرورى أن تكون هذه المخلوقات على أحسن صورة .. بل يكفى انها مختلفة عن الأب والأم والمدرس والقسيس والرئيس والقائد ..

وفى احدى روايات الأديب الصاخب روبرت بلتيمور نرى فتاة قد ولدت فى أحد الكباريهات . ولكن طفلها قد اختنق فى سحب الحشيش والصخب .. وعندما راح يقلبه بقية الشبان وجدوا أن لأحدى يديه سبع أصابع .. وأن له أذنا أكبر من الأخرى .. وان له عينا سوداء والاخرى زرقاء .. وانه ذكر وانثى معا . اما المعنى : انه مخلوق غريب عجيب !

وقد انتهز الشبان الصاخبون هذه الفرصة السعيدة لميلاده . ورأوه فى ذلك نجاحا عظيما . فقد انجبوا كائنات مختلفة ـ وهذه هى البداية !

« ٥ »

ففى الجاهلية كانت الصعلكة العنيفة . وفى القرن الرابع الهجرى كانت الصعلكة اللطيفة ..

وفى الحالتين نحن امام صاخبين غاصبين بلا نظرية ولا قوة ..

وفى القرن التاسع عشر فى أوروبا كانت لهم نظرية وقوة ..

وفى القرن العشرين صاخبون وغاضبون وضاربون لهم قوة ولهم عشرات النظريات التى فتتت قواهم وشردت جموعهم وبددت اسلحتهم .. فكان الضياع !

وللضياع سببان متناقضان : أن يهبط الانسان مدينة لا يعرفها فلا يجد علامة على طريق ولا اسما ولا لغة ولا أحدا من الناس .. فلا طريق ولا هدف .. وانما شعور بالغربة والغرابة والوحدة .

أو يجد زحاما ما فى كل مكان وكل شىء .. ما لا نهاية له من العلامات والشعارات وكلها متضاربة .. ضياع بين الضوضاء اللونية والصوتية .. ضياع واختناق بين التلوث الفكرى والعاطفى والدينى ..

ولكن هذه الظواهر الأدبية والفنية والسياسية والدينية « مرحلية » ـ أى أنها تظهر وتتأكد بعض الوقت ثم تجىء من بعدها حركات أوضح وأقوى .. ويكون

دور هذه المرحلة تأكيدا للفوارق بين أنماط من الناس والحياة والأمل .. وبعد ذلك تأكيد بارز للخلافات ومحاولة مستمرة للرفض .. أى أن احدهما يرفض الآخر فتظهر « النظرية » مثل دليل العمل ومثل المرشد السياحى .. برنامجا للأداء والأمل والطموح وضرورة التغيير ..

ولم يحن بعد الوقت لانتهاء هذه المرحلة المتعددة الشوارع والميادين والمدارس والبيوت والمعابد والملاعب والمعسكرات والمسدسات ..

فقط عندما تظهر بوضوح كل المتناقضات وكل الأضواء وكل العيوب .. وتتلاشى الهلوسة السياسية والشوشرة الدينية ..

فقط عندما يؤذن صوت مسموع مقبول مطلوب منتظر من كل الناس ، وحين يتجه اليه الناس ويدورون حوله ووراءه فيكون الصف والهدف واحدا .

فى هذه اللحظة يتلاشى الصعاليك من تلقاء أنفسهم . فقد بلغتنا رسالتهم وعرفنا تضحيتهم ، وعلقنا صورهم وترحمنا على مشاعرهم النبيلة .

ولكن ليس بالمشاعر وحدها ، يعيش الانسان ، ويتقدم المجتمع ويعلو على نفسه ! □

نحن نجعل ماضينا
مستقبلا لهذا الجيل :
منتهى الظلم !!

□ أنت تجلس أمام الطبيب فيطلب اليك ان تفتح فمك وتقول : آه . وتقول . فيرى الطبيب لسانك ، واللسان مرآة الجسم . ثم يضع يده على يدك ، واذنه على قلبك . انه يريد ان يعرف أكثر . ويفتح عينيه فى عينيك . ثم بعد ذلك يطلب تحليل الدم والبول ليعرف عدد كريات الدم والدهنيات والسكريات والجلسرين والزيت . انه حريص على ان يقرأ البطاقة الشخصية لجسمك ، قبل ان يصف لك الدواء .

وبعد ذلك هو وشطارته . وأنت وبختك ..

فهل تعرف البطاقة الشخصية لهذا الجيل من الشباب . لهذا المجتمع الجديد ، لنصف سكان مصر ؟ هل وضعنا ايدينا برفق فى ايديهم ، هل ملأنا عيوننا من عيونهم ؟ هل أسندنا رءوسنا الى صدورهم ، هل تدحرجت كريات الدم تحت الميكروسكوب تعرفنا عمليات البناء والهدم فى هذا الجيل ؟ . لم نفعل !

اذن كيف نصدر حكما ظالما على جيل من أوله لآخره ونقول : فاسد .. مختل .. مغرور .. جاحد . لا أمل فيه ؟!

إن هناك عبارة قديمة تقول : الانسان عدو لمن يجهل !

فقد جاهرنا بعداء هذا الجيل . لا لشىء الا لأننا نجهله . فنحن قررنا ذلك .. فنحن ـ إذن ـ وضعنا حائطا حاجزا فاصلا بيننا وبين هذا الجيل : نحن الأعلم وهو الأجهل . نحن الابقى وهو الزائل . نحن الآباء الحكماء وهم الابناء الطائشون !

ومثل هذه الاحكام لا تدل فقط على جهلنا بهذا الجيل ، وانما على أننا قد نسينا يوم كنا جيلا شابا طائشا .. يوم كان أباؤنا يهزون اكتافهم ويمطون شفاههم أسفا على ما كنا فيه .. وحزنا على مستقبل مصر ! .. نسينا أننا كنا

صغارا وكنا أيضا ساخطين على آبائنا .. نراهم اقل علما ، وأكثر انحرافا وميلا مع الهوى .. وان كلمة تلعب بهم يمينا ، وكلمة ترمى بهم يسارا .. أما نحن ـ فى ذلك الوقت ـ فالعقل والحكمة والتاريخ . وتاريخنا هو صناعة المستقبل على انقاض حاضرهم ورفات ماضيهم . نسينا ذلك . ولا نريد أن نتذكره . ولا نريد أن نرى فى تعاقب الأجيال منطلقا عضويا تاريخيا !

فالحياة بحر له أمواج واحدة وراء الأخرى .. ومهما طال الزمن ، فلا سكن البحر ، ولا هدأت الأمواج ، ولا توقف تتابعها ، ولا هى استطاعت ان تزحزح الشاطىء .. والبحر هو التاريخ الانسانى .. تجارب الأجيال بعضها وراء بعض امواجا صغيرة وكبيرة .. ولكن لابد من ان يكون امواجا .

انظر الى البذرة تضعها فى الأرض .. وبعد أيام تصبح « نبتة » صغيرة .. ومن النبتة تخرج شجيرة ومن الشجيرة أغصان وأوراق وازهار .. ثم ثمار ، ومن الثمار تتساقط البذور لتبدأ دورة جديدة .. فكل مرحلة هى أم لمرحلة تالية كلها تتوالد بعضها من بعض . وكل مرحلة جديدة تعتمد على السابقة ثم تكون مختلفة عنها .. اختلاف البذرة عن الشجرة ، اختلاف الورقة عن الزهرة عن الثمرة عن البذرة ..

فالطفل ينمو فى بطن امه .. يعتمد عليها ويعيش فى أحشائها .. ثم يخرج منها ليخرج عليها .. الى غير نهاية .

وكذلك تتابع الأجيال وتوالدها وتعارضها وتنافرها .. ولكنها شرط من شروط التطور .. وهذه هى حركة التاريخ .

وكل جيل له مشكلة ، وكل مشكلة لها جيل أيضا .

وكان أبو « علم الاجتماع » الفيلسوف العربى ابن خلدون يرى ان الدولة عمرها ١٢٠ سنة .. الأربعون الأولى هى طفولتها والاربعون الثانية رجولتها والأربعون الاخيرة شيخوختها التى تتولد منها دولة جديدة . ولكن اذا وضعنا كلمة « جيل » بدلا من الطفولة والشباب والشيخوخة ، لم نبعد كثيرا عن لغة التطور الحديثة . فكل جيل يبلغ اربعين عاما . وكل جيل مثل كل مرحلة من مراحل عمر الانسان لها صفات ولها عقبات . ولها قضية تسود تفكيرها . وتعمل على حلها . فاذا انحلت هذه القضية انطلق الجيل الى المرحلة التالية ، أو الى الجيل الجديد . الذى له مواصفات وقضايا ومشاكل . ومشاكل الاجيال كلها واحدة . لان مشاكل الانسان واحدة . واختلاف جيل عن جيل هو فى ترتيب

المشاكل وفى وسائل حلها . والحضارة الانسانية هى التطور المستمر فى « وسائل » الحياة .

والأديب الفرنسى باربيس له رواية اسمها « الجحيم » وفى هذه الرواية ان رجلا قد ثقب الحائط ليرى ويسمع ما يجرى فى الغرفة المجاورة له . وكلما كان الثقب أوسع وأقرب الى الهدف ، كانت درايته أوضح .

وكل انسان يحاول أن يجعل له ثقبا فى جدار المعرفة أو الارادة أو المال أو الاقتصاد أو السياسة . ومن خلال هذه « العين » يرى ويسمع ويحلم .. وكذلك كل جيل له عين يبحلق منها الى مالا يعرف وما يريد ان يعرف .

جيل يريد ان يأكل ويشرب وينام .. جيل يريد ان يقرأ ويفكر ويتأمل ، ويترك لمن هو اكبر سنا ان يتولى الطعام والمسكن والأمان ..

جيل يريد ان يثأر للعار الذى لحقه على أيدى آبائه وأجداده ..

جيل تعب من الحرب والضرب ، يريد ان يسند ظهره الى الحائط ويهرب فى خيالات وأوهام .. يريد أن ينسحب من الحياة التى لا يحبها والتى فرضها الآباء والأجداد عليه .. فالشباب الأمريكى ايام حرب فيتنام ، انسحب من الحياة الاجتماعية احتجاجا على حرب فى قارة اخرى وعلى قتل الوف المواطنين باسم الحرية .. حرية فيتنام أو حرية امريكا ؟! من المؤكد ان قتل الابرياء ليس تحريرا لهم ، والمشاركة فى القتل ليس شرفا لأى امريكى . فكان الحشيش والأفيون والديانات المزيفة هى الخندق المظلم الذى تساقط فيه الشباب بمحض ارادته ، هربا من جريمة ابادة الشعب الفيتنامى باسم الحرية !

وفى بلاد العالم الثالث كان الهرب له شكل دينى .. وفى بلادنا والشرق الأدنى كانت الهجرة الى الله .. أى رفض المجتمع والانسحاب منه والعكوف على التفقه فى الدين والصلاة . فهناك ـ اذن ـ نوعان من الهجرة : ان تترك بلادنا الى بلاد اخرى ترى انها افضل .. وان تهجر بلادنا وانت فيها وتقف وتجلس وتنام على هامشها ، دون مشاركة فى شىء .. وبذلك تحذف نفسك من الحاصل النهائى لعمليات الجمع والطرح والقضية العامة لمواجهة أية قضية . فالجميع قد رفضك ، فرفضته انت أيضا .. المجتمع انكرك فتنكرت له .. المجتمع قد نبذك ، فهجرته .. وانت تقول : انهم جميعا كافرون ، وهم يقولون عنك ذلك ايضا . فهذا هو التكفير والهجرة !

وهذه هى القطيعة بين الاجيال .. هذه هى محاولة تمزيق موج البحر

الواحدة بعيدة عن الأخرى . كيف ؟ إن واحدا فى التاريخ ، وبإذن من الله ، استطاع ان يشق البحر بعصاه لينجو .. موسى عليه السلام .

ومن يومها لم يستطع احد ان يشق البحر وان يمزق أمواجه واحدة بعيدة عن الأخرى .. اى ان احدا لم يستطع ان يعطل القوانين التى اودعها الله طبائع الاشياء ـ هذه القوانين اسمها « حكمة » الله : قوانين الفيزياء والكيمياء والتطور النباتى والحيوانى والتاريخ الانسانى !

وفى دراسة عن شباب الشرق الأوسط قامت بها الجامعة الامريكية فى بيروت من ثلاثين عاما ، اهتدى الباحثون الى هذا التعبير : ان الذى يجرى فى الشرق الأوسط هو « تقويض » لعرش الأب ..

اى ان الشباب ثائر على ابويه .. على الاكبر سنا : المدرس ورجل الدين والحاكم اى على الشيوخ !

فشباب العالم الثالث ، هم ابناء الفلاحين اكبر الناس سلبية فى كل العصور . فالفلاح بالضبط كما وصفه عمرو بن العاص فى رسالة الى الخليفة عمر : يبذر الحب وينتظر الثمار من الرب .

وكما وصفه قبل ذلك المؤرخ هيرودوت بانه اقل الناس جهدا فى الانتاج .. فهو فى حالة انتظار دائم . تواكل مستمر . ثم انه خائف من صاحب الأرض وصاحب الاقطاع ورجال الحاكم والحاكم . فهو ابن الخوف . ولذلك هو راض بما هو فيه : القناعة كنز لا يفنى .. الصبر جميل .. من رضى بالقليل عاش .. قليل دائم خير من كثير منقطع .. ومن يتزوج أمى اقل له : ياعمى .. الباب الذى تجىء منه الريح ، اقفله لتستريح .. تجرى جرى الوحوش وغير رزقك لن تحوش .. الخ .

وهذا الجيل السلبى هو بالضبط الذى يتولد منه الطغاة ، فالفلاح السلبى هو نفس الفلاح الذى يقبل كل انواع الغزاة والحكام من الشرق والغرب .. وهو يرتضى العذاب والعقاب ، لانه يحتقر نفسه ، لانه لا يثور ولا يغضب .. وهو يعجب بكل من له صفات غير صفاته : يحب القوى الباطش الحاسم . وهو الذى يصنع الفرعون .. يصنعه من الطين الذى تحت قدمه .. ويرفعه .. ويرفعه ويصلى له .. حتى يقترب رأسه من حذاء الفرعون .. فاذا ضربه الفرعون بالجزمة وجد فى ذلك تعويضا عن عدم الاحساس به .. واهمال الحكام له .. وفى الوقت نفسه وجد العقوبة التى يستحقها .. فكأن الفلاح المصرى قد نحت

الفرعون لكى يعاقب نفسه على السلبية ويعاقب نفسه على انه صنع الفرعون .. ويعاقب نفسه مرة ثالثة على انه ارتضى كل هذا الهوان ..

ويحدث لأجيال الشباب شيء من مثل ذلك . فهم ساخطون على جيل الشيوخ ، ويرون فيهم جهلا وغطرسة واحتكارا للمال والسلطة وكل فرص الحياة .. ويرفضون جيل الشيوخ رفضا مطلقا . وهنا تظهر عيوب الشباب : فهم قد اختاروا العنف فى القول والعضلات ، وأحكامهم مطلقة لا تقبل المناقشة . فكأنهم تحولوا بالضبط الى الصورة والهيئة التى يرفضونها !

وفى كل حركات الشباب عيوب جيل الشيوخ ، فهم بعد ان رفضوا التواكل على آبائهم ، خلقوا لنفسهم حركة أو جماعة .. وفى داخل الجماعة يختارون من يوجههم ويعطونه السلطة المطلقة : يفكر ويدبر ويقودهم ويصدمهم بالشيوخ ، فكأنهم رفضوا دكتاتورية الشيوخ ، وارتضوا دكتاتورية الشباب !

فما هو المعنى ؟

المعنى : أن كل جيل لديه خطة سرية لمعارضة الجيل الآخر .. والقضاء عليه .. فاذا اتيحت له الفرصة ، لم يتردد لحظة فى تنفيذ هذا المخطط السرى .. أو غريزة البقاء للأصلح .. وكل جيل يرى انه الاصلح . الشيوخ اصلح لانهم التاريخ ، والشباب اصلح لانهم المستقبل الذى سوف يكون تاريخا بعدهم !

وعند الاغريق أسطورة الفتى « أوديب » الذى قتل اباه ، وتزوج أمه ـ دون ان يدرى . فلما عرف فقأ عينيه انتقاما من نفسه ، وندما على ما كان منه !

وعند الصين اسطورة زيو الذى قتل ابنه ..

وعند الفرس اسطورة « رستم وسحراب » فقد جاء فى كتاب « سماه نامه » ـ اى « كتاب الملوك » للشاعر الفردوسى : ان رستم هذا كان قائدا حربيا . سافر بعيدا . وترك زوجته حاملا . وأوصاها ان جاءه ولد وضعت إسورة ذهبية فى ذراعه ..

وولدت الزوجة ولدا . وخافت ان يستدرجه ابوه الى القتال فيموت . وبعثت لزوجها تقول : انجبت لك بنتا .. ولما كبر ابنها وجدته ميالا للقتال . واعمال البطولة . فوضعت الاسورة فى ذراعه واعترفت له بان اباه هو اعظم قائد فى ذلك الوقت . وذهب الولد يبحث عن والده . والتقى الجيشان جيشه وجيش والده ورأى الحكماء بدلا من القضاء على الجيوش ، ان يخرج القائدان ويتواجها . وخرج رستم يواجه ابنه سحراب ، وهو لا يعرفه . وتغلب سحراب فى الجولة

الاولى . وطلب مهلة من الوقت للراحة .. ولكن رستم أصر على الاستمرار فى القتال . وتغلب رستم على سحراب . وصرخ سحراب وهو غارق فى دمه : سوف تندم .. ان والدى سوف ينتقم .. انه رستم أعظم قائد فى العالم !

فقال له رستم : ولكن رستم ليس له أولاد ذكور ! فقال سحراب : له .. أنا ابنه . وهذه هى العلامة !

ولم يكد رستم يرى الاسورة الذهبية حتى راح يبكى ويقول : سحقت قلبى بقلبى .. اغرقت دمك بدمى .. ياليتنى مت قبل هذا !

اما الاسطورة الصينية فتقول ان رجلا اسمه زيو ذهب للقتال وترك زوجته حاملا وبعد سنوات عاد ، وفى الطريق الى البيت وجد شابا مغرورا يتباهى بقدرته على اصابة الهدف مهما كان صغيرا وبعيدا . وتضايق الرجل من أن يكون هناك احد اقوى واقدر منه .. فاتفقا على المراهنة .. ثم اطلق الرجل سهما اصاب الشاب وقتله !

وعاد الى البيت وبعد لحظات اتهم زوجته بالخيانة . فقد وجد زوجا من الأحذية فى البيت فقالت الزوجة : انه حذاء ولدنا أمهر الرماة فى هذا الزمان !

واكتشف الأب انه قتل ابنه ، دون ان يعرف . فأغمد السهم فى قلبه ، ومات !

والمعنى واضح : ان هناك رغبة عنيفة خفية لا شعورية بان يقضى جيل على جيل ..

إما الأب وإما الابن .. وهذا هو خطأ الاجيال !

والصحيح : بل الأب والابن معا .. بل جيل بعده جيل .. جيل يعطى لجيل ليعطى لجيل .. الى غير نهاية !

انظر الى السفينة فى البحر .. الى الطائرة فى الجو .. فالسفينة تمشى بالماء وتقاوم الماء ، ولا يغرقها الا الماء ..

فقبل ان نصدر حكما على جيل من أوله لآخره يجب ان نجلس ونفهم ، فلا نقطع لسانا ولا نفقأ عينا ولا نحطم يدا ولا نسحق قلبا ولا نحرق دما .. وانما نقلب ونقرأ ونفهم .

وهذا الجيل الذى يطلب منا ان نحكم عليه بعد دراسة القضية وظروفها واستدعاء كل الشهود ، واعطائهم فرصة للكلام والدفاع عن انفسهم ثم رفع الجلسة والمداولة والحكم بالعدل .. هذا الجيل لم يسرف فى مطالبه ، ولم ينشد منا اكثر من الذى ندعوه اليه : ان يعدل هو أيضا فى الحكم علينا ..

ولكن جيلا يتهم جيلا آخر ، ويظلمه ويقسو عليه ويرى انه لا استئناف لهذا الحكم ، فهو جيل الطغاة . والطغيان لا يخلق الا العبيد .. واذا كنا نحن الطغاة فأولادنا من العبيد .

فما اسم هذا المستقبل الذى نتوقعه لهم ولبلادنا .. لا يمكن ان يكون مستقبلا . وانما هو استمرار لما هو كائن لاننا قد جعلنا ماضينا مستقبلهم .. وجعلنا كفرنا به دينا جديدا يؤمنون به .. حرام علينا ان نقطع الألسنة ، ونفقأ العيون ونمزق الايدى ونسحق القلوب باسم الحب لهم والخوف عليهم . ان القطة تفعل ذلك جهلا : تبتلع صغارها خوفا عليهم .. ولا تدرى انها قد دفنت الصغار احياء فى احشائها .. اخرجت الصغار احياء ، واعادت الصغار كبارا « أمواتا » مع الأسف !

تعالوا إلى البيانو

لهذا الزمان أسماء كثيرة وأمراض وعلاجات عديدة .

قالوا : انه زمن الشيء الصغير : أى الذرة والقوة الذرية . فليس أسهل من فناء العالم فى لحظة .

وعلاجه حظر الأسلحة النووية .

وقالوا : أنه زمن الانسان الصغير أى رجل الشارع .. الأغلبية الصامتة .. فبعد أن كان الانسان العادى نكرة فى ظل الارستقراطية والاقطاع ، أصبح الانسان الصغير هو الملك .. هو القوة .. هو مصدر السلطات .. فإن كان الانسان الصغير لأنه صغير ، يكره القوة .. ويكره الموهبة .. والعبقرية .. وحكم الفرد البطل .. فالعلاج هو التوازن بين الانسان الصغير والانسان الكبير .. أى تعليم الانسان الصغير حتى يظهر بين أبنائه وأحفاده الكبار يحكمونه ويوجهونه ..

وقيل : اننا فى زمن اللاوعى .. أى انطلاق قوى الغرائز الكامنة فى أعماقنا .. فإذا نحن نندفع إلى الموت كأننا مندفعون إلى الحياة .. الحروب مثلا .. الصراعات الطبقية .. والتعصب الدينى واللونى والجنسى .. وكلها قوى وحشية نائمة فى قفصنا الصدرى .. ونحن نطلقها .. أو هى التى تحطم الأبواب وتجرجرنا إلى الموت .. كذلك كان الانسان البدائى يفعل دون وعى .. وكما أن الأزمات هى التى تصنع الاحقاد ، وكما أن الخوف هو الذى يثير الطفل فى أعماقنا فإذا هو يضرب ويقتل دون وعى ، فكذلك نحن .. مرضى ؟ طبعا مرضى !

والعلاج : هو وضع الروابط والضوابط والفرامل على وحوش فى داخل الانسان ..

فالحضارة الانسانية أقصر كثيرا جدا من عمر البدائية والوحشية الانسانية . من الذى يملك مصانع الفرامل لعجلات التاريخ الوحشى للانسان : الدين والأخلاق والسيف والقلم والرغيف ..

وقالوا : نحن فى زمن الرغيف .. فالانسان كما يأكل يكون .. يأكل الرغيف فقط فهو فقير .. يأكل الكعك فهو غنى .. يأكل الكعك من دم الفقير فهو

رأسمالى .. يأكله من دم الفلاح فهو أقطاعى .. يأكله من دم المؤمن ، فهو كاهن قاتل باسم الله ..

وعلاجه أنه ليس بالخبز وحده يعيش الانسان . وإنما يعيش بالقبلات أيضا .. فالخبز وبعده القبلات .. أو القبلات هى خبز الحالمين والنبلاء .. فالانسان يحتاج إلى لقمة وقبلة .. يحتاج إلى أن يملأ معدته ويملأ أحضانه أيضا .. فهو ليس حيوانا فقط ، ولكنه حيوان انسان متحضر رفيع المستوى يحب نفسه ؟ نعم . ولكنه مستعد أن يضحى بنفسه من أجل الابن والأم ومن أجل المحبوبة أيضا .. ويجد فى هذه التضحية لذة تليق بنبل الانسان الذى لم يعد يزحف على بطنه وإنما يمشى على رجليه ويرفع يديه ورأسه فوق كتفيه ..لقد استقام الأنسان فارتفع . وارتفع ، ورفع معه البناء والمداخن والأبراج والمآذن ..

وقالوا : بل نحن جربنا الرجل حاكما مقتدرا .. طاغية فاسدا .. قائدا جبارا .. ومصاصا للدماء .. لايعرف الحنان والرحمة .. والرجل هو الذى أعلن نفسه نصف آله .. وفرعونا وآلها .. وكل شىء يبدأ بالرجل وينتهى بالرجل . فهو صانع القانون وهوالذى يدوس القانون .. والمثل الأعلى للمرأة هو الرجل .. فبقدر ماتقترب منه وتجعل نفسها صورة منه تنجح . فاضطرت المرأة ، بدافع الخوف والرغبة فى أن تعيش ، إلى أن تمسخ صورتها وتشوه أنوثتها لتكون كالرجل . فمن أجل النصف العنيف بددنا النصف اللطيف ..

والعلاج : لماذا لانجرب حكم المرأة .. لماذا لايتراجع الرجال إلى الوراء قليلا .. ويتركون أماكنهم للمرأة .. صحيح أن المرأة تحكم الدنيا من وراء ستار .. فهى الأم للرجل .. وهى الزوجة .. وهى المحبوبة وهى المعشوقة .. وهى الخائنة والغادرة .. وهى أكبر قوة استهلاكية فى العالم .. فهى تحكم سرا ، فلماذا لاتحكم علنا ، لماذا لا يشهر الرجل افلاسه ، بعد أن جربنا حكمه ألوف السنين .. لماذا لايواجه نفسه بشجاعة ويقول : أنا فشلت ..فلتجرب المرأة .. وليغير الرجل ثوبه ولسانه وموقعه ..

ان الرجال يخافون من سلطة المرأة يخافون من ذلك العاجز أن يتجبر .. يخافون من ذلك الأسير ألوف السنين أن يكون طليقا ، يخافون من المظلوم أن يحكم فيكون أظلم الظالمين .. ولكن لماذا لا نجرب .. ؟ !

ويقال : اننا جربنا الشيوخ وتاريخنا من أوله لآخره ينتقل من شيخ يحكم الى شيخ يفسد .. الى شيخ سياسى الى شيخ عسكرى الى شيخ كاهن .. لماذا لا نجرب الشباب . وفى التاريخ ألوف الأمثلة على عباقرة من الشبان .. لولا شجاعتهم وتضحيتهم وجرأتهم ، ما تقدمت الحضارة الانسانية .. فالحضارة تتقدم بسرعة شاب كل مائة سنة .. لماذا لا يتراجع الشيوخ قليلا ويعطون الفرصة لمن هم اصغر واقوى واشجع واقدر على التضحية .. ان هناك مغالطة كبرى : وهى ان الشيوخ الحكام يتظاهرون بالتصابى ، لكى يقنعوا الشيوخ بانهم من دم ولحم آخر غير البشر .. وان الله الذى اعطاهم المقعد العالى اعطاهم اكسير الشباب الدائم .. وكلها اكاذيب ! فالشباب معروفة علاماته ، والشيخوخة معروفة سماتها .. فلماذا يغالط الشيوخ ادعياء الشباب ، ولا يعطون الفرصة للشباب ادعياء الشيخوخة والحكمة ؟

ولماذا الادعاء .. ان الشيخوخة معروفة ، والشباب معروف .. وأعمار الثوار والعباقرة معروفة .. كلهم شباب .. فلماذا لا تفتح لهم الابواب والنوافذ .. ونجرب ما جربته الانسانية قبل ذلك مئات السنين ..

وقالوا : ان زماننا هو زمن الارق والقلق .. فالناس فى حال من الخوف ، ومن خوف الخوف فى خوف .. وفى ليل من الأرق ونهار من القلق .. والعلاج هو الراحة .. هو ان يكف الناس عن القهوة والشاى وتعاطى التليفونات .. وان يسترخوا قليلا .. او ان يأكلوا على مهل وان يمضغوا على مهل ، وألا يقفزوا على الفراش .. وانما ان يستطعموا الحياة والعمل .. فالمصيبة الكبرى ان السرير اصبح مثل مضرب كرة التنس .. ونحن الكرة .. والسرير يضربها الى اعلى . ثم يضربها الى اعلى .. فنحن نقفز من السرير كما تقفز الكرة ونقفز على السرير كما تقفز الكرة على المضرب .. ولا نعرف من الذى يضرب من .. واذا كان السرير هو « منصة القفز » فأين السرير ؟. ومتى النوم وكيف الراحة ؟

والانسان عندما اخترع المصباح الكهربى فلكى يطول النهار ، لكى يكون كل مصباح بديلا عن الشمس .. فقد كانت الانسانية اسعد حالا عندما كانت مصابيحها من الشمع ومن الغاز .. عندما كان النهار أوله الشروق وآخره الغروب .. واليوم لا شروق ولا غروب .. بل ان راكب سفينة الفضاء يرى الشروق وبعد ٨٩ دقيقة يرى الغروب ويفعل ذلك عشرين مرة فى اليوم الواحد .. بل ان الايام والشهور والسنين تمضى دون ان ترى الشروق ـ انا شخصيا لم ار

شروق الشمس الا مرتين فى الثلاثين عاما الماضية . فانا اصحو قبل الشروق واظل عاكفا على القراءة والكتابة حتى العاشرة صباحا . ولم ار غروبا واحدا طوال حياتى فى القاهرة الا مرة او مرتين فى اربعين عاما ولا رأيت قمر ١٤ الا عشر مرات ـ تصور ؟

وقالوا : اننا فى زمن المقاعد الخشبية .. فالمقعد الذى تجلس عليه أو على طرف منه يجعلك متصلبا .. يجعلك مكسر العظام .. ثم انه ليس بيننا واحد يعرف كيف يجلس على مقعده او الى مكتبه ـ هذه نظرية علمية . فى استطاعتك ان تستمع الى تفاصيل موجعة مبكية من اطباء العظام والروماتزم .. فلا جلستك صحيحة ولا انحناؤك على المكتب .. ولا استنادك الى ذراعيك ولا انحناء عنقك على الورق .. ولا وضع ساقيك وقدميك تحت المكتب .. ولا ارتفاع المكتب .. ولا دخول المقعد تحت المكتب .. وظهر المقعد لا يساعد ظهرك على ان يستريح .. كل ذلك خطأ فى خطأ .. ولذلك فانت موجوع الظهر واسفل الظهر والعنق والكتفين . لو انك طلبت من احد اصدقائك ان يلتقط لك صورة من ظهرك .. أو يلتقط لك فيلما لترى نفسك كيف تمشى .. سوف تندهش لما ترى .. ستجد انك منحنى الظهر ، لك كتف اعلى من الاخرين .. ثم انك تضغط على احدى ساقيك اكثر من الاخرى .. ثم انك تشكو من قصبة احدى الساقين .. او لا داعى لكل ذلك انظر الى الموظفين عند خروجهم من مكاتبهم سوف تجد عجبا .. لا احد يمشى متوازيا او مستقيم الظهر .. وانما انت امام مجموعة من المشوهين .. شوهتهم المهنة .. وشوههم المكتب والمقعد والقلم والورق والاضاءة .. والعلاج لو كانت المقاعد مريحة اكثر .. لو كانت اكبر وانعم .. لو كانت عليها مساند .. لو كانت المقاعد تسمح لنا بان نتمدد وان نتراجع بعض الوقت .. لكانت اعصابنا وعضلاتنا اقل تصلبا وظهورنا اكثر استقامة .. ارجو ان نعيد النظر الى الناس الموظفين .. سوف تجد ان بعضهم يميل بكتف عن الاخرى .. كان دلوا خفيا قد تعلق فيها .. ارجو ان تنظر الى السقا الذى يحمل القربة على ظهره .. وارجو ان تنظر الى بائع العرقسوس الذى يحمل ابريقا على صدره .. هذا قد انكفا الى الامام ، وهذا قد انكسر الى الوراء .. لماذا لان كلا منهما يحمل شيئا على ظهره أو على صدره .. والموظفون كذلك : يحملون او كأنهم يحملون مالا نرى .. على اكتافهم وعلى صدورهم وعلى ظهورهم وعلى بطونهم وعلى سيقانهم ..

وقالوا : العلاج هو اليوجا .. ان تسترخى .. ان تفكر احيانا فى لا شىء ..

تجلس وتغمض عينيك ، وتسد نوافذ الحس الخمس وتطرد الخيال والتخيلات .. فقط دقائق من كل يوم .. فى هذه الدقائق القليلة تقوم بغسل نفسك .. او تنطلق من كل حواسك « ماسحات » للمطر كالتى فى مقدمة السيارات وفى مؤخرتها ايضا .. وعند فوانيسها الامامية .. ماسحات الصوت والصورة .. ماسحات الشم وماسحات الخيال .. كل يوم مرة أو مرتين .. وفى ذلك راحة يومية ، وانفلات من التوتر العضلى والضغط على العظام .. انهم فى البلاد الاسيوية يفعلون ذلك .. اذكر اننى كنت أزور وزير خارجية احدى الدول الاسيوية ذهبت فى موعدى .. جاءت السكرتيرة تقول : تفضل .. امامك دقيقة واحدة .

فوجدت الوزير ملقى على الأرض والسكرتير يدلك كتفيه وظهره وساقيه . ثم نهض الوزير وجلس على احد المقاعد كأنه تمثال .. دقيقة .. ودقيقة .. ونهض وقد انطلقت الانوار فى كل مكان من وجهه .. كأنه هو الذى اطفأ نور الوجه .. ثم هو الذى اضاءه .. والفائدة مؤكدة .

وفى كثير من بلاد العالم . الحمام .. الحمام الساخن .. وحمام البخار والتدليك مرة كل يوم .. او مرتين كل اسبوع ..

لأول مرة ادخل الحمام التركى فى اسطنبول فى العام الماضى .. قرأت عنه ولم اره . ولم اجد متعة فى الذى حدث .. وجدتنى فى قاعة شديدة الحرارة والبخار .. ثم جاء رجل فراح يدلكنى بعنف ويضغط على كل جسمى .. ويكاد يكسر عظمى يمينا وشمالا .. لم اشعر بأية لذة .. ولا بأية راحة .. ووجدت تفسيرا لذلك اننى كنت مشغولا بان اعرف ماذا يحدث وماذا فى تاريخ الدولة العثمانية .. عندما كان السلاطين يصدرون الفرمانات الخطيرة بعد كل حمام قد امتلأ بالعطور والبخور والبخار والحسناوات من كل لون وسن .. ولا اعرف متى كان يصدر القرار بعد الحمام او بعد الحريم او قبل الحريم .. بعد البخار وقبل التدليك او بعد التدليك وقبل الخمر والرقص والطبل والزمر ..

وقيل لو استغرقت فى مشاعرى .. لو تركت مشاعرى فغرقت وخلعت التفكير مع جزمتى وملابسى عند الباب ، لكان احساسى اعمق ، واعصابى اهدأ ، ورؤيتى اصفى . ولكنى لم افعل .. ولكن وعدت فى فرصة اخرى ..

ولم ار حمام الثلاثاء فى مصر .. ولكن قرأت عن وصف الحمامات المصرية فى كتاب الرحالة الانجليزى ادواردلين . الكتاب عنوانه « عادات وتقاليد مصر الحديثة » .. وقد اطال فى وصف الحمام والمعلم والصبيان والمكيساتى .. حمام

الرجال وحمام النساء .. وكان ذلك نشاطا اجتماعيا هاما جدا .. النساء يذهبن يستعرضن مالديهن من ملابس ومجوهرات .. ويعرضن بناتهن الجميلات املا فى عريس .. والرجال يذهبون ويشربون ويدخنون ويتناقشون ويبحثون ويقررون فى هدوء ..

وكانت الحمامات الرومانية القديمة اجمل .. واسعة .. مفتوحة يجلس الرجال عراة متجاورين .. يتكلمون ويناقشون طويلا فى كل شىء .. ويتواعدون ويتوعدون .. ويستأنفون اللقاءات فى الحمام عند العشاء حين تتولد الافكار والقرارات الهادئة والعاقلة ..

وفى التاريخ كانت الحمامات الرومانية والاغريقية مسرحا لاعمال عنيفة .. فاذا كان بعض المستحمين قد هدأت اعصابهم ، فقد انتهز خصومهم هذه الفرصة للانتقام حيث المستحم عار من السلاح ، نائم الاعصاب ..

وكانت الجرائم تحديدا من عيوب الحمام .. حيث الناس كلهم منزوعو السلاح .

فالآلهة « ميديا » قد وضعت « لبلياس » سما فى الماء الساخن ، فمات هادىء الاعصاب دافىء اللحم والدم . فقد اوهمته بانها وضعت فى الماء اكسير الشباب الدائم . ومات وهو يحلم بذلك !

والبطل الاغريقى « اجاممنون » بعد عودته من حروب طرواده ، اغتالته زوجته كلتمسنترا ، ضربته على رأسه فهوى تحت الماء !

وفى الثورة الفرنسية كان الكاتب العنيف « مارا » قد ملأ صحيفته المشهورة « صديق الشعب » بنقد عنيف لشباب الثورة الفرنسية . فضاقوا به . وارسلوا اليه فتاة جميلة هى « شارلوت كورداى » ذهبت اليه وهو يستحم . وكان مارا يشكو من التهاب مزمن لجلده . ولذلك كان يمضى وقتا طويلا فى الحمام . فجاءت الفتاة تبدى اعجابها بقلمه وعظمته .. ولما استدار اغمدت سكينها فى بطنه !

ويقال ان الملكة « آن » الدنمركية زوجة الملك جيمس الاول كانت حريصة على ان يكون ماء الحمام ساخنا .. ولكن فى احدى المرات القت بنفسها فى الماء الساخن جدا .. ولم تستطع ان تخرج منه .. وراحت تصرخ وانقذوها بعد وقت طويل ، لتموت بعد ذلك .. ويقال ان الحاشية هى السبب .. انتقاما من غطرستها وغيرتها الشديدة على زوجها !

وكان يقال عن نابليون ان احسن وقت لكى ينتزع منه اى انسان قرارا عندما يكون جالسا أو نائما أو فى الحمام . وفى كثير من الاحيان كان نابليون يدرك ذلك .. فلا يكاد يعرض عليه احد رأيا فانه بسرعة يفكر ثم ينهض من المقعد أو من السرير أو من الحمام ويقول : لا .

وفى سنة ١٨٠٣ كان نابليون فى الحمام عندما فوجىء باثنين من اخوته هما يوسف ولوسيان يستنكران ان يبيع نابليون مستعمرة « لويزيانا » لامريكا مقابل مبلغ تافه . وقالا له : ان قوات فرنسية ماتت من اجل الاستيلاء على هذه المستعمرة والاحتفاظ بها . فكيف تبيعها بهذا الثمن البخس . أما أخوه يوسف فقال له : اذا فعلت ذلك فسوف .. تكون نهايتك الطرد والنفى من فرنسا !

ولكن نابليون لم يعبأ بهما .. وانما راح يرشهما بالماء .. بيديه وقدميه .. وطردهما . وهنا سقط خادم نابليون مغمى عليه من هول الذى رأى !

وباع نابليون المستعمرة الفرنسية "

واول فيلسوف دعا الى النوم فى الحمام هو بنيامين فرانكلين .. كما انه هو الذى نقل « البانيو » الى امريكا .. وهو الذى ادخل عليه تعديلات كثيرة فى حركة الماء داخلا وخارجا ..

وكان يجلس ويقرأ كثيرا وهو فى الحمام ..

وكذلك كان الاديب الفرنسى ادمون روستان ، يقرأ ويكتب .. بل كتب معظم اعماله وهو فى البانيو وقد استند على لوح خشبى امامه ووضع الدواة وكأس النبيذ والورق .. ومن بين اعماله الرائعة فى الحمام تحفته الادبية « سيرانودى برجراك » .

ومن اشهر حوادث البانيو فى التاريخ حادثة العالم الاغريقى ارشميدس .. كان حائرا لا يعرف كيف حجم الاشياء .. ولكن عندما دخل البانيو ، فقد انزاح منه الماء الى الخارج .. وهنا صرخ عاريا يهتف فى الشوارع قائلا : ايوركا .. ايوركا .. ومعناها وجدتها .. وجدتها !

ومن الجرائم التاريخية التى الصقت بالعرب فى الاسكندرية انهم عندما ارادوا وقودا للحمامات احرقوا مكتبة الاسكندرية ، بما فيها من الوف المخطوطات والكتب ، اكذوبة . ولكن اراد المؤرخون ان يؤكدوا اهمية الحمام وضرورة الماء الساخن ؟!

ولايزال الذين يرون ان البانيو هو العلاج يحلمون بان يكتبوا ويفكروا على

مهل مثلما فعل فرانكلين وروستان وان يهتدوا الى الحقيقة كما فعل ارشميدس ..

ولكن حتى اذا لم يبلغوا كل ذلك فيكفي ان تتحقق الراحة فى عزلة الحمام ..

او حتى فى دورة المياه . فكثير من الناس يقرأون ويدخنون فى دورة المياه . بل ان بعض الناس قد وضعوا فى المياه الكثير من الكتب والمجلات .. يقلبون ويقرأون جالسين هادئين فى عزلة تامة .. وخصوصية كاملة .. لا يهم المكان ولا شكله .. المهم هو هذه اللحظة الانفرادية .. هذه الحرية الشخصية .. اى ان يكون الانسان وحده عاريا يفعل مابدا له .. يقرأ على مهل .. دون مقاطعة من شىء او من احد ..

ومن اطرف ما حدث فى نيويورك يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٦ .. كانت هناك مسرحية يظهر فيها بانيو تنزل فتيات عاريات جميلات .. ويتقدم عدد من الرجال يشربون الشمبانيا .. ولا يزالون يشربون .. ويجىء رجال غيرهم .. وتكون الفتيات من نصيب اخر من يشرب .. وفجأة قفز البوليس على المسرح . ان صاحب المسرح يتهم الرجل الذى يتعهد بان يملأ البانيو بالشمبانيا بانه غشاش .. وانه لم يضع شمبانيا وانما وضع نبيذا رديئا . ودخل الرجل السجن لانه غشاش .. وخرج الرجل من السجن بعد سنوات .. ليقفز الى البانيو على المسرح الذى امتلأت بالشمبانيا ويشرب .. ثم يغرق نفسه فى الشمبانيا ويموت لينزل الستار .. وينتهى عرض هذه المسرحية !

وظل الناس يتشاءمون من الشمبانيا ومن البانيو وقتا طويلا .. ولكن حاجة الناس الى الراحة والهدوء واستئناف الحياة وتذوقها اجمل والطف ، اعاد كل شىء الى مكانه من المسرح ومن حياتهم .. ولكن بصورة اخرى ..

قال لى الموسيقار محمد عبد الوهاب : ان الزمن فى صالح الفنان .. اى ان الفن اطول عمرا من الفنان .. وان الاعمال الفنية اطول عمرا من الاعمال الهندسية والطبية والفلكية .. ولذلك يجب الا يتعجل الفنان ابداعه .. وانما ان يبدع على مهل .. ولا داعى للسرعة او العجلة .. فالانسان لا يسأل : كم من الوقت استغرق الفنان فى ابداع هذا اللحن او فى هذه الصورة او هذه اللوحة او هذا التمثال ؟ وانما الانسان يتساءل ان كان هذا العمل جميلا .

وقال لى محمد عبد الوهاب انه كان من المفروض ان يسافر من مرسيليا الى الاسكندرية .. ودخل الحمام .. ووجد متعة كبرى فى الماء الدافىء .. وقيل له انه

لم يبق على قيام الباخرة سوى ساعة .. وانه من الضرورى ان يخرج فورا .. ولكنه وجد الحمام امتع .. فظل مسترخيا فى الحمام « يدندن » وقامت الباخرة وركب التى بعدها باسبوع .!

فجدول قيام ووصول الباخرة لا يهم الا القبطان .. اما الفنان فله جداول اخرى .. ويجب ان تبقى « اخرى » مختلفة .. فالفنان هو الابقى .. والفنان له « الخلود » اما القبطان فله « الزمان » !

قال لى الشاعر عبدالرحمن صدقى انه اختار زوجته الايطالية فى ظروف غريبة .. فقد ذهب الى الشاطىء .. وادهشه ان يجد فتاة جميلة قد جلست فى مياه الشاطىء تحت وسطها .. وفى يدها كتاب .. اعجبه المنظر .. ادهشته الفكرة ، قرر ان يفعل ذلك .. وتخيل نفسه جالسا الى جوارها وفى يد كل منهما كتاب يقرآن معا .. وتقدم منها وقال لها بالايطالية التى يتقنها نثرا وشعرا : تتزوجيننى ؟

قالت : نعم اتزوجك !

فلو كبرت المقاعد وكانت اكثر لينا ، لو طال نومنا ، لو طالت دقائقنا فى الحمام .. لو .. لو .. الف لو .. لكان حالنا احسن شيوخا ونساء وشبابا .. آمين !

مادام المدرسون لا يكلمون الطلبة !

عندما زارنا الرئيس الفرنسى جيسكار دستان ، منحته جامعة القاهرة الدكتوراه الفخرية . وتقدم د . حافظ غانم يضع الروب الجامعى على كتفى الرئيس الفرنسى الذى رفضه فورا . لماذا ؟ لان التقاليد الفرنسية لا تسمح لغير الاساتذة بأن يرتدوا هذه المسوح السوداء .. بينما التقاليد المصرية تعطى هذا الروب والدكتوراه لاى رئيس دولة كان مارا بالقاهرة وتعطلت طائرته .. فحتى لا يغضب ، فاننا نمنحه الدكتوراه تقديرا لكفاحه من أجل تضامن شعوب آسيا وافريقيا فى مطار القاهرة !!

وفى ذلك الوقت كان طلبة الجامعات الفرنسية قد اتهموا الرئيس الفرنسى بأنه تخرج فى الجامعة ثم خرج عليها .. فهو يقف فى صف الاساتذة ضد الطلبة والتطور . ولذلك لم يكد الروب يلامس بدلته حتى أبعده تماما خوفا من أن يضيف اليه الطلبة جهلا بتقاليد فرنسا !

ففى مثل هذه الايام من عشرين عاما تماما ثار طلبة الجامعات الفرنسية على الجامعة وعلى الحكومة وعلى الذين هم أكبر سنا . فقد أحس الطلبة انهم يقفون وحدهم .. وأن هناك هوة .. فجوة .. صدعا .. أخدودا .. بينهم وبين العالم المتطور فى كل مكان من حولهم ..

فالجامعات الفرنسية كهوف مظلمة . لا يدخلها النور . والاساتذة قد أعمتهم الكتب عن التفكير وعن رؤية الطلبة .. فهم يسمعون الطلبة ولا يرونهم ، والطلبة يرونهم ولا يسمعونهم .. فأحدهما اعمى والثانى اطرش .. والنتيجة ان الجامعات الفرنسية قد تأخرت عن كل الدنيا !

أما الاساتذة فلا صلة بينهم وبين الطلبة .. الطلبة كثيرون . والاساتذة قليلون .. وهذه المسافات بينهم تملؤها الكتب .. فالذى لا يسمعه الطالب عليه ان يبحث عنه ، والذى لايفهمه الطالب عليه أن يجهد رأسه ـ انتهى دور الاستاذ وبدأ دور الطالب !

ثم ان الطلبة إما انهم يسكنون المدن الجامعية وهى كئيبة ، لا لهو فيها ولا مرح ولا تسلية ، وإما أنهم يسكنون وحدهم فى عزلة أخرى .. فهم معزولون فى

الجامعة ، معزولون خارجها .. ولا رابط بينهم جميعا الا الضيق والقرف .. والا هذا الشعور بالغربة التامة ..

ثم هذه التقاليد الفرنسية العتيقة وهى ان الجامعات مكان للدراسات النظرية والتأمل الفلسفى .. اما علاقة هذه الدراسات الاكاديمية بالحياة العملية ، فلا علاقة . فالطالب يدرس ويفكر ويتأمل ويتفلسف ثم لا يجد الرغيف .. فكان الجامعات مصنعاً لتفريخ الفلاسفة الفقراء او الشعراء الساخطين .. أو المحامين الذين يترافعون عن قضايا خاسرة فى محكمة ليس بها قاض ولا وكيل نيابة ولا جمهور !

أذكر أننى كنت أداعب الاستاذ عباس العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) أكثر مفكرى العرب اطلاعا واقول له : يا استاذ .. انت عندك أحدث كتاب عن الصواريخ وأول وابور جاز صنعته مصر ؟!

أى لديه علم كثير ومال قليل !

وكانت للاستاذ العقاد شقة متواضعة جدا غرفها صغيرة .. والمكتب الذى يجلس اليه صغير وكأنه مكتب تلميذ ابتدائى .. وقد التوى الاستاذ بجسمه لأنه لا يستطيع أن يدخل ساقيه تحت المكتب .. وكنت أسخر من ذلك .. ولكن الأستاذ العقاد كان يجد كلاما جميلا يرويه ولم يكن يقنعنى .. فكان يقول : أن هذا البيت له مزايا فلكية نادرة .. فالشمس تدخل من هنا والهواء يجىء من هنا .. وينطلق فى اتجاه النافذة ويصطدم بالجدار فينكسر ويكون محتملا .. وعند الغروب تدخل الشعاعات الذهبية من هذا الجانب تنعكس على ذلك الجانب .. الخ .

وكان البيت متهدما كالح الالوان لا شىء فيه يضىء ويبهر الا الاستاذ نفسه !

فكان الاستاذ العقاد نموذجا للعلم الغزير الذى لا يوفر لصاحبه أمنا غذائيا وأمانا نفسيا !

وكذلك كانت شكوى الطلبة الفرنسيين انهم يتخرجون عاجزين عن كسب العيش .. فالجدل الفلسفى الذى تعلموه جعلهم يتوهمون ويتخيلون ويبررون ويغالطون انفسهم .. ثم بعد ذلك لا يجدون طعاما !

وهناك حادثة مشهورة للاديب الامريكى امرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) كانت له مزرعة . وفى المزرعة أبقار . وحاول ان يدخل بقرة صغيرة الى الحظيرة فلم يستطع فنادى ابناءه ان يساعدوه . دفعوا البقرة من الخلف وسحبوها من

الامام . ولكنها استعصت عليهم . قدموا لها طعاما .. شرابا .. داعبوها .. ضربوها .. ولكن البقرة رفضت أن تدخل الحظيرة . فنادى الاديب امرسون خادمته لعلها تجد حلا . وبسرعة وضعت الخادمة اصبعها فى فم البقرة الصغيرة فراحت ترضع اصبعها وتقدمتها الخادمة الى داخل الحظيرة !

صرخ امرسون قائلا : لم تعلمنى الوف الكتب التى قرأتها شيئا من ذلك .. اننى اخب الذين فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئا !

تكررت هذه الحيلة على ارفع مستويات القرن العشرين .. فقد اقام القصر الملكى البريطانى حفلة ، لكى تقدم الاميرة ديانا طفلها الاول وهو الملك القادم لبريطانيا .

جاءت الاميرة جميلة انيقة متألقة . وقدمت طفلها .. وفجأة راح الطفل يبكى انه يريد أن يرضع . ففعلت الاميرة ما تفعله كل الامهات فى الدنيا .. فبدلا من ان تخرج ثديها ، وضعت اصبعها فى فم الامير فراح يرضعه . وسكت !

وكان حدثا مثيرا .. صورة الاميرة وقد وضعت اصبعها غير المعقم فى فم الامير الصغير . كيف ؟ هذا العمل الشعبى الذى لا يليق بملكة بريطانيا المقبلة !

أنها فعلت بالضبط الشىء المعقول والممكن .. والانسانى .. ولو راها الاديب امرسون لزاد اعجابه بالاميرة التى استطاعت ان تجد حلا . وكان الحل الوحيد !

أن الكتب لم تقل لها ذلك .. والتقاليد الملكية لم ترخص لها بذلك .. ولن تسمح ! ولم ترحمها الصحف . ولكن صفقت لها ملايين الامهات فى كل مكان !

لقد وجدت حلا ليس فى الكتب !

وحادثة الاديب الفرنسى العظيم فيكتور هيجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) . حاول أن يمد يده الى كتاب فى أحد الرفوف العالية .. لم تبلغه يده .. حاول . لم يستطع . فراه طفل صغير . فاذا بالطفل يضع الكتب بعضها فوق بعض ويطلب الى الاديب أن يقف فوقها . فضحك .. ولم يعجبه ان يقف على الكتب بجزمته . وإنما أعجبه ذكاء الطفل . فاقترح عليه الطفل ان يحمله على كتفيه ويأتى هو بالكتاب . واعجبته الفكرة والطفل . ولكنه قال للطفل : أريد أن اتى بالكتاب دون مساعدة منك ايها الخبيث !

فما كان من الطفل الا ان اتى له بأحد المقاعد وطلب الى هيجو ان يقف

فوقه .. فضحك الاديب العظيم وادهشه جدا ان تكون عند الطفل كل هذه الحيل العملية وليست عنده فكرة واحدة .. واشار بيده الى الكتب .. الوف الكتب وهو يقول : ولكنها لم تساعدنى على تحقيق اصغر احتياجاتى !

هذه هى مشكلة مئات الوف الطلبة فى جامعات فرنسا وفى غيرها من عشرين عاما ، وقبلها بمئات السنين ..

واعلنت الحكومة الفرنسية انها سوف تساعد على حل هذه الازمة . واقترحت تعديل برامج الدراسة وتخفيف الهموم النظرية .. وانشاء معاهد وجامعات عملية ..

ولكن الطلبة رفضوا تدخل الدولة .. ووزعوا منشورات تقول : لا .. للاسكندر الاكبر .. لا للاسكندر الاكبر !

أما حكاية الاسكندر الاكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م) فهى انه زار الفيلسوف اليونانى ديوجين (٤١٢ ـ ٣٢٣ ق . م) فوجده نائما فى برميل زبالة . وسأله الاسكندر ان كان فى حاجة الى اية خدمة يؤديها له ؟ فقال له الفيلسوف : نعم .. ألا تحجب عنى اشعة الشمس !

فالطلبة يريدون من الجامعات ان تعدل وتغير من داخلها ، وليس عن طريق الدولة .. ليس عن طريق الاسكندر الاكبر .. انهم يريدون الكثير من نور الشمس ، لكى يروا طريقهم فى حياتهم العملية !

حتى الدراسة فى الجامعات الفرنسية كئيبة . فالطلبة يعيشون معظم الوقت بين جدران رطبة مظلمة . ولا عندهم مطاعم انيقة ولا حدائق ولا حفلات موسيقية غنائية راقصة .. ولا ترفيه .. بينما طلبة الجامعات الامريكية يعيشون فى جنات من البهجة والمرح والتسلية .. وطلبة الجامعات الانجليزية يجدون كل ذلك مع الاحترام العظيم من الاساتذة والعمداء . فلو كانت لطالب انجليزى شكوى فانه يذهب لرئيس الجامعة . والرئيس يدعوه الى كأس من الخمر . ويتحدثان معا ابنا لاب ، أو طالبا لاستاذ ، أو زميلا لزميل . وبعد المناقشة يتفق الاثنان على الحل . ويعود الطالب يستأنف الدراسة وهو مطمئن تماما الى الحل .. وان الحل نهائى !

بينما الطالب الفرنسى لا يجد الاستاذ ، والاستاذ لا يجد العميد ، والعميد لا يجد الرئيس .. مسافات واسعة شاسعة بين الجميع .. فاذا تخرجوا فى الجامعة اتسعت المسافات بين الذين يقولون والذين يعملون !

اذكر اننى قابلت طالبة مصرية تدرس فى برلين .. تخرجت فى كلية العلوم بالقاهرة . وراحت تدرس ما هو اعلى واكثر تخصصا . قالت لى : انها بكت فى ذلك اليوم كما لم يفعل طفل . لماذا ؟ انها قد درست فى مصر كل النظريات الفيزيائية المتطورة : نظرية النسبية لاينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) ونظرية الكم لهيزنبرج (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) ونظريات الفروض العلمية الكبرى .. وانها اكثر علما واوسع افقا من الطلبة الالمان .. ولكن عندما طلبوا اليها ان تصنع « دائرة كهربائية » فشلت تماما .. بينما الطلبة الالمان مدربون منذ المدارس الابتدائية على كل التوصيلات الكهربائية والالكترونية فالدراسة فى كلية العلوم المصرية نظرية الى أبعد حد ، عملية الى أدنى حد !

لماذا ؟ لأنه توجد فى المانيا متاحف للعلوم الحديثة مكتوب على بابها هذه العبارة : نرجو من السادة الزوار ان يلمسوا كل شىء بأيديهم !

ولذلك نجد الاطفال يجربون التليفزيون والتليفون والصواريخ والغواصات .. والانسان الآلى .. لان هذه الايدى الصغيرة هى التى سوف تطور وتخترع .. فالايدى الجاهلة لا مستقبل لها ، والاصابع الخائفة لا جرأة لها ..

والطفل الذى يعرف ، هو الشاب الذى يخترع ، هو الشيخ الذى يضع النظرية لكل مظاهر الحياة .. فالنظرية الشاملة تمر بالشاب المبدع والطفل المتطلع .. والطريق الابداعى يبدأ بلمسة اصبع .. يبدأ عمليا لا نظريا !

★★★

ولكن حدثت مشكلة جديدة ..

فالجامعات الفرنسية عدلت برامجها وخفضت أعباء نظرياتها ، وأقامت المعاهد العملية .. فماذا كانت النتيجة ؟ بقيت الجامعات النظرية كما هى ، وبقيت المعاهد العملية الملحقة بالكليات النظرية كما هى .. فعلماء يدرسون ، كما كانوا يفعلون من مئات السنين .. وعلماء آخرون يبحثون ويجربون ويطبقون ولكن ابحاثهم تتكدس فى ادراجهم ، وتجاربهم تموت فى النسيان .. كأنهم بذلك ملأوا أفواه العلماء بالورق حتى لا يصرخون .. وضحكوا عليهم .. ولذلك لم تصل ابحاثهم الى احد .. لقد اصبح هناك نوعان من العلماء : علماء يفكرون ولايطبقون ، وعلماء يطبقون ولا يفكرون فى العائد المادى على المجتمع !

وفى مصر كل ذلك وزيادة .. فعندنا معاهد للبحث العلمى .. وفيها العلماء من كل التخصصات بالمئات .. يدرسون ويجربون ويطبقون ، وبنفس السرعة

والحماس يكومون ابحاثهم فى الظلام ـ وكأنهم لا تعلموا ولا أنفقت الدولة الملايين عليهم فى الجامعات الكبرى .. فلما عادوا الى بلادهم انفقت عليهم الدولة الملايين مرة اخرى ليبحثوا ، وبعد ذلك يرمون ابحاثهم فى الزبالة .. ومعها كل أمل مصر فى التطور !

لقد ذهبت الى المعهد القومى للبحوث اتفرج واتأمل واتعجب .. وجدت ألوف الابحاث ومئات العلماء المخلصين المتحمسين .. اين ابحاثهم ؟ بعثوا بها . الى من ؟ الى المسئولين .. والمسئولون هم الوزراء والوكلاء .. والوزراء بعثوا بها لرئيس الوزراء ورؤساء مجالس الشعب والشورى والقومية المتخصصة .. ثم ماذا بعد ؟ لا شىء بعد ذلك .. الا سلال النسيان !

وسوف اختار مثلا واحدا ـ واحدا من الف ـ لقد اكتشف العلماء المصريون ان اللون الاحمر الموجود فى عروسة المولد يؤدى الى الاصابة بالسرطان ـ لاشك فى ذلك . هذه الصبغة الحمراء اسمها « اللعلى » .. وكتب العلماء عن الصبغات المناسبة والاقل ضررا . ثم كتب العلماء ايضا عن اضرار الصبغات التى تستخدم فى صناعة الشيكولاتة .. وعن الصبغات التى تستخدم فى الايس كريم . هل اقول لك الحقيقة : لم تأخذ الدولة ولا وزارة الصحة ولا وزارة التموين ولا المصانع ولا الشركات برأى العلماء المصريين !

اذكر اننى ذهبت للقاء الرئيس انور السادات كما هى العادة كل اسبوع . ولاحظت ان الغرفة قد امتلأت برائحة المبيدات .. الرائحة خانقة . والغرض من ذلك هو ابعاد الذباب أو مضايقته او قتله . فقلت للرئيس : سيادة الرئيس ان على مكتب الرئيس الامريكى بحثا لعالم مصرى قدمه لمنظمة الصحة العالمية عن مثل هذه المبيدات وانها تصيب الانسان بالسرطان .. فكيف تستخدمها فى بيتك ؟! ومن يومها لم يستخدم الرئيس هذه المبيدات فى بيته او فى اى مكان يحل به . ثم اننى نشرت هذه الحادثة . ولم اقرأ ولم أسمع عن تحذير شامل لكل الناس ضد المبيدات !

وعندما ذهب الشاعر كامل الشناوى مريضا الى مستشفى الكاتب .. حذره الدكتور عبد الله الكاتب من استخدام المبيدات . فكان رد كامل الشناوى : ان هذه المبيدات هى التى تساعدنى على النوم !

وكان رأى د . الكاتب : هذا صحيح ؟!

انها تساعدك على النوم لانها تصيبك بنوع من الدوخة التى تسبق الاصابة المؤكدة !

وكان نشر هذه الحكاية فى الاذاعة والتليفزيون دون ان تلقى صدى من أحد ، دليلا على الاحتقار الذى يلقاه العلم والاستخفاف الذى هو من نصيب العلماء فى بلادنا .. وبلاد أخرى !

★★★

صحيح أن ثورة الطلبة فى فرنسا قد أخمدها الرئيس ديجول (١٨٩٠ ـ ١٩٧٠) بعد ذلك . وذهب الطلبة الى المصايف واستراحت اعصابهم .. فكان فشلهم ذريعا . ولكنهم نجحوا فى لفت الاساتذة وعلماء النفس والتربية والاجتماع الى شيء خطير جدا هو أن الفراغ الذى بين الدراسة والحياة العملية لا يمكن أن يظل هكذا .. فليس فى الكون كله فراغ .. ولذلك لابد ان يمتلىء . وقد ملأه الشباب بالهوس الدينى والهوس السياسى وبالمخدرات والجنس والعنف !

ولكن الذى لم تفلح الجامعة فى اصلاحه ، قامت به الشركات الكبرى والمؤسسات الصناعية وذلك بتدريب خريجى الجامعات وتأهيلهم للحياة العملية .. والابداع . فالمؤسسات الصناعية اكثر حرية واكثر مالا .. وفى تنافس هائل مع المؤسسات الاخرى الوطنية والاجنبية .. فاذا لم تحتضن العلماء والشبان خطفتهم المؤسسات المنافسة او هاجروا الى أمريكا !

وكما أن الاديرة والصوامع تجعل البشرة شاحبة والعقول ايضا ، وكما ان الشواطىء تجعل البشرة برونزية ، فكذلك الجامعات هى صانعة الذبول والمعامل هى صانعة الحيوية ..

أما الذى نادى به الطلبة الفرنسيون ومن بعدهم الايطاليون والالمان والامريكان فهو مزيد من نور الشمس .. مزيد من الخروج من المدرجات والصوامع ، ليصبحوا قادرين على العمل .. على الفعل .. على الابداع .. لا أن يعيشوا يأكلون الورق ويموتون به وعليه ..

ومما كتبه أبو التاريخ هيرودوت (٤٥٨ ـ ٤٢٥ ق . م) عندما جاء الى مصر انه لاحظ ان المصريين يستطيعون أن يميزوا بين الجماجم المصرية والجماجم الفارسية . فالجمجمة الفارسية هى الهشة الرقيقة العظام . اما الجمجمة المصرية فهى السميكة التى لايمكن تحطيمها بسهولة . وتفسير ذلك عند هيرودوت أن المصريين يحلقون رؤوسهم منذ الطفولة . ويعرضونها للشمس .

والشمس تقوى العظام وتغلظها . ويقول هيرودوت ان من النادر أن تجد رجلا أصلع فى مصر . بينما الفرس الذى يطلقون شعرهم الاسود الكثيف ويضعون فوقه الطاقية ، فلا تنفذ الشمس الى جلدة الرأس وعظام الجمجمة ، فكثيرون منهم أصلع ـ اقرأ كتاب « التواريخ » الفصل الثالث لهيرودوت !

ولذلك فطلبة الجامعات الاوروبية لايطلبون اكثر مما كان يمارسه الفراعنة .. مزيدا من نور الشمس ليصبحوا اصلب عودا واقوى رأسا واقدر على الحياة الحديثة !

★★★

وعندما تأمل فيلسوف الشباب الامريكى الالمانى الاصل هربرت مركوزة (١٨٩٨ ـ ١٩٧٩) نوعيات الشباب فى هذا الزمان قال :

فيما مضى كان الالمان يفسرون عظمتهم بأنهم قبل أن يذهبوا الى الجامعات يمرون على « الثكنات » .. وفيها يتعلمون الضبط والربط والتضحية والعمل معا والموت معا .

وكانوا يسألون النمساويين فيقولون انهم يمرون على الغابات قبل أن يذهبوا الى الجامعات .. وفى الغابات يعرفون حب الحياة ويتذوقون حب الانسان للانسان .. وتخفق قلوبهم للجمال حولهم والجلال فوقهم . فهم الموسيقيون أحفاد الموسيقار موتسارت (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) .. وهم الشعراء والرسامون !

وكانوا يسألون الايطاليين ويكون ردهم انهم يمرون على الكنائس ويتوقفون عند الاديرة ، قبل أن يدخلوا الجامعات فيكون منهم الذين يحبون العلم حبهم للدين ، ويخلصون للحقيقة اخلاصهم لله .. ويرون الخير وراء كل فكرة وكل خطوة .

وكانوا يسألون الانجليز فيقولون إنهم يمرون بالورش الصغيرة وبعدها يستكملون الدراسة الجامعية .. ولذلك فكثير من العباقرة الانجليز والمخترعين لم يذهبوا الى الجامعة .. وانما درسوا وبحثوا فى حرية كاملة ، ولم يتقيدوا بالمناهج والبرامج والاساتذة !

اما الامريكان فهم طراز آخر من العلماء والباحثين .. انهم يذهبون الى كل هذه الاماكن معا .. بل ويعودون اليها بعد تخرجهم فى الجامعة .. فالعلم ينير الحياة ، والحياة تنعش العلم !

★★★

ومن ثلاثين عاما اكتشف علماء الآثار بجامعة الاسكندرية مخطوطة رومانية تحكى قصة الاب الذى بحث عن ابنه الهارب من المدرسة . ثم وجده .. ولما سأله الاب عن سبب الهرب قال الابن بالضبط ما قاله كل طلبة الجامعات الفرنسية فى مايو سنة ١٩٦٨ .

قال الطفل الهارب : ان الاستاذ يرفض أن يكلمنى !

فسأله ابوه : كيف ؟ اليس يعلمك ؟ الست تدفع له راتبه الشهرى ؟

قال الطفل : بلى .. بلى .. بلى ..

عاد الأب يسأل : هل يرفض أن يتحدث اليك وحدك ؟

قال الابن : يرفض أن يكلم جميع زملائى !

سأل الاب : ولماذا لم يهربوا مثلك ؟

اجاب الابن : انهم لم يهربوا ولكنهم لا يذهبون الى المدرسة !

فسأله ابوه : ولماذا هربت انت !

قال الابن : لانك ايضا مثل الاستاذ ترفض أن تكلمنى !

آه .. ومعناها
(١)

انت تفتح فمك امام اثنين من الناس ولا تنطق . الاول هو الدكتاتور . والثانى هو طبيب الاسنان .. الاول خوفا منه والثانى خوفا عليك !

وهناك نظريات فى الم الاسنان ..

فطبيب الاسنان المشهور هشام قنديل ، يؤكد لك بوجهه الضاحك دائما والموسيقى تملأ العيادة : ان الالم بسيط بمشيئة الله ..

وتعود تنظر الى وجهه ولا تملك الا ان تصدقه .. وهو سعيد بعمله واكثر سعادة بالنتيجة .. وتندهش كيف انه عندما يحرك اصابعه بين اسنانك كأنه عازف عود أو هارب ..

وطبيب الاسنان سابقا وجراح الفم حاليا فى لندن د . جابى جبران ، ابن الصحفى الكبير فرج جبران ، له اسلوب آخر . فهو ايضا رجل واثق من نفسه ومن علمه وعنده عبارة واحدة : لا مشكلة ..

يقولها وهو يعنى تماما : انه لاتوجد اية مشكلة من اى نوع .. اتصلت به تليفونيا فى لندن . قال : لامشكلة .. سوف اكون فى بيت اختى بمصر الجديدة . نلتقى هناك يوم كذا الساعة كذا !

وقابلته جاء فى غاية الحيوية وجلس ينظر . وسألنى . وأجبت . وقال : لا مشكلة .. إذن نلتقى فى لندن .. فى مستشفى الاميرة جريس .. قبلها بيوم سوف تجد غرفة محجوزة .. وسوف تقابلك طبيبة التخدير .. ثم اجىء لك .. وفى الساعة الثامنة صباحا اجرى لك العملية .. لا مشكلة .. العملية تستغرق ساعة وربعا .. وفى اليوم الأول لا ألم . والثانى لا ألم وفى اليوم الثالث سوف تشعر بألم وفى الرابع يزداد الألم والورم .. وفى اليوم الخامس ينحسر الورم والالم .. وفى اليوم الثامن تغادر المستشفى وفى العاشر تجىء الى عيادتى لكى افك الغرز . لا مشكلة .. وبعد ذلك أراك كل ثلاثة أيام لمدة اسبوعين .. ثم كل ستة اشهر لمدة سنتين .. لا مشكلة .. هل لديك اسئلة ؟ .. واذا خطر لك أن تسألنى قبل سفرك الى لندن اتصل بى فى البيت أو العيادة أو المستشفى .. لا مشكلة !

وكانت والدة د . جابى جبران تجلس معنا .. فطلب إليها أن تتركنا وحدنا .. واحسست بحرج شديد . ثم طلب منى ان كانت عندى اسئلة من أى نوع ، ولكن والدته قبل ان تغادر سألتنى أيهما أجمل ابنى أو أبوه .
قلت : ابنك . قالت : لا .. لا .. أبوه كان أجمل .

وهناك نظرية تقول أن الطبيب يجب الا يصارح المريض بمرضه وانما يجب ان يرفع من معنويات المريض . فالمعنويات العالية تساعد على الشفاء .. وهناك معجزات فى الطب . فكم من مريض لم يكن هناك أى أمل فى شفائه . ولأسباب لا يريها الطبيب تحسنت صحته وتحقق المستحيل والامثلة كثيرة جدا ليس مريض المصران والاسنان وانما مريض السرطان والقلب وكل طبيب عنده حكايات معناها يجب الا نغلق باب الامل ولو كان ثقب أبرة .

وهناك نظرية أكثر انتشارا وهى أن الطبيب يجب أن يصارح المريض بكل شىء يقول له الامل ضعيف .. ويقول له : أنت تجاوزت مرحلة أى أمل فى شفائك .. أمامك أيام .. أسابيع فى هذه الدنيا .

اذكر ان طبيبا استوقفنى فى الشارع وقال أنت رجل مجنون ما هذه الأدوية التى تأتى بها لامك من امريكا واوروبا انتهى لا فائدة .

بينما أطباء اخرون قالوا عن أمى أنها زى الفل .

وماتت فى الصباح ! وقالوا عن أختى فل الفل ! وماتت فى الصباح .

وكان الاستاذ توفيق الحكيم يندهش للأطباء الكبار الذين التفوا حول سريره يداعبونه ويقولون ياسلام زى الفل واحسن يا استاذ !

ويتلفت توفيق الحكيم حوله ويقلب فى ملابسه ويحاول تحريك ساقيه فلا تطاوعانه ويسألهم عن المقصود بالفل .. ويضحكون ثم يؤكدون له أنه أحسن من الفل - أى أن الحياة ما تزال صاحية فى دماغه وفى عينيه وفى ابتسامته وذاكرته وسخريته ما يزال «ينبض » يتنفس فهو - إذن - مازال حيا ومادام حيا فهو الفل ..

وكان الحكيم يسألهم أن كان المقصود بالفل هو نصفه العلوى أو هو السفلى .. العلوى الذى يطاوعه أو السفلى الذى تمرد وانعزل ولم يعد يستجيب له .. فقد انقطعت كل المواصلات السلكية واللاسلكية بينه وبين الحكومة المركزية فى دماغه . ولكن الاطباء يؤكدون له أنه فل فى فل !

وفى يوم جاءه الأطباء واقتربوا منه .. ولكن توفيق الحكيم لم يتبين الأطباء بوضوح فسألنى من هؤلاء .

قلت الدكاترة قال آه الجماعة بتوع الفل ؟!

فقالوا نعم . ومات فى اليوم التالى .

المصرى جابى جبران الذى تخرج فى اسنان القاهرة وسافر إلى بريطانيا من خمسة وعشرين عاما وتخصص فى جراحة الفم . وتدرب وتعب وشق طريقه حتى تفوق ولابد انه تعلم من اساتذته الكبار أن يكون متواضعا اذا شكره أحد ، أو ابدى اعجابه به .. ويكون رده أن هناك أطباء مصريين عظماء من مثل مجدى يعقوب الذى هو ظاهرة عالمية .. وعمر شاهين وذهنى فراج وباسل هلال .. وعشرات غيرهم .. وانه هو شخصيا لا شىء ..

وأعجبنى جدا انه فخور بهؤلاء المصريين وأنه يذكرهم سعيدا .. وتسأل الأطباء المصريين الآخرين فإذا هم يذكرون الأطباء النابهين بمنتهى السعادة .. اعجبنى واسعدنى أن أجد هذا الصفاء والنقاء بين الناجحين .. فكل واحد يحدثك عن الآخر أنه كل شىء وانه هو شخصيا لا شىء .

لا حقد ولا حسد ولا عقد .

أنت هنا فى لندن تسأل أى محل من المحلات عن شىء فيقول ليست موجودة عندنا ولكن يمكنك ان تجد فى محل كذا أو كذا . هناك أرخص !

بينما لو سألت أحد المحلات فى القاهرة عن سلعة فيقول : والله لا اعرف .. وتصدقه وتخرج لتجد المحل المجاور له هو الذى يبيعها وتخصص فيها !

فقد حدث أن اكتشف د . هشام قنديل وجود كيس على جانب من الفك .. هذا الكيس عمره عشرون عاما أو أكثر .. لايوجع ولكنه هناك . ولأنه ليس جراحا فقد رشح لى عددا من الأطباء فى مصر .. والأطباء رأوا أن عملية فى لندن أفضل وأسلم كثيرا جدا . فالعملية كبيرة ودقيقة جدا لأنها فى الفم عند الخد واللسان والعينين والأنف والمخ .. وتحتاج إلى عناية فائقة والى براعة أيضا .

قال أطباء مصريون كثيرون انهم قد أجروها فى القاهرة لكثيرين . لاخوف . ولكن الأفضل فى لندن أو فى جنيف أو باريس ..

وكان الصديق وجدى قنديل رئيس تحرير آخر ساعة ، قد مر بنفس التجربة . وأجريت له العملية فى العام الماضى بنجاح تام سألته قال : لامشكلة ! ثم أشار إلى طبيب مصرى ممتاز هو الجراح .

ذهبت إلى مستشفى الأميرة جريس (كيلى) .. المستشفى نظيف جدا .. ووجدت اسمى وغرفتى ورقمى .. الاسم مستعار ككل الأجانب ، ولم أكد أدخل الغرفة حتى بدأت أجهزة الادارة تتحرك بدقة وانتظام .. جاءت ممرضة تسألنى : كيف أدفع مصاريف العلاج والأقامة .

وجاءت ثانية تقيس النبض والضغط .. وجاءت ثالثة توضح لى كيف اتصل تليفونيا بالمرضات والممرضة الأولى اذا أردت الطبيب المعالج أو أى طبيب آخر .. وفى نهاية كل عبارة هذا التأكيد : انه لامشكلة ، وجاءت رابعة بكرسى ذى عجلات أجلس عليه لكى تعرف وزنى .. وخامسة تسألنى عن تاريخى مع المرض ، أى مرض .. وسادسة تسألنى ان كنت أدخن أو أتعاطى الخمور أو المهدئات أو المنبهات أو أى نوع من المكيفات وأن كنت قد توقفت عن واحد منها ومتى ولماذا .. ثم جاءت سابعة لأصحبها الى غرفة الأشعة للصدر والعنق والفك .. وجاءت ثامنة لأخذ عينات من الدم .. وأخيرا جاءت طبيبة البنج تسألنى : أن كانت عندى أية حساسية للمضادات الحيوية .. وأى نوع منها .. أو عندى حساسية للبنج .

وأخيرا رأيت د . جابى جبران بوجهه الضاحك يؤكد دائما . أنه لامشكلة وان كل شىء يمشى تماما وبشكل طبيعى كما قال لى فى القاهرة .

وسألنى ان كانت عندى مشكلة .. أو أريد أن أستوضح عن أى شىء .. واذا خطر لى أن أعرف أى شىء فيمكن الاتصال بالممرضة الأولى أو به فى بيته حتى الثانية عشرة مساء .. وأن كان هو يرى أنه لاشيء يدعو للقلق من أى نوع .

ثم قال : سوف يعطونك حبوبا مهدئة .. وبعدها تنام .. وسوف يعطونك حقنا منومة .. ولن تشعر بأى شىء حتى هذه الساعة من الغد !

وجاءت ممرضة تاسعة وقالت : سوف أعطيك حبوبا مهدئة .. لاتأكل بعدها ولا تشرب . وسوف تنام نوما عميقا . لامشكلة !

وجلست اتفرج على التليفزيون .. ولم ألاحظ أية رغبة فى النوم .. بل أحسست بشىء من المتعة والنشوة .. وكانت شاشة التليفزيون أتسعت وأصبحت ألوانها أوضح ..

ولم أفهم أن كانت الحبوب منبهة أو منومة .. أو هى مفرفشة ..

وفاتنى أن أسأل د . جابى جبران ان كان من الممكن أن أشعر بالعملية أثناء أجرائها .. أو رؤيتها على شاشة تليفزيونية .. فأنا لاأعرف بالضبط كيف يمكن

فتح الفم . على الآخر واجراء الجراحة فى هذا المكان الدقيق .. ولا كيف يمكن منعى من الحركة تماما .. ولا كيف يمكن ابعاد اللسان عن مكان العملية .. ولا كيف يمكن وقف اللعاب أو نزيف الدم فلا ينزل فى الحلق .. ولا كيف يمنعنى من السعال بعد أن خلعت كل ملابسى وأرتديت شيئا مختصرا لا هو قميص ولا هو بلوزة ولا هو بالطو ..

ولا ماهي الشروط التى يجب أن تتوافر لكى أمر بتجربة الذين ماتوا أكلينكيا لدقيقة أو دقيقتين ـ وهى التجارب الشهيرة التى كتبت عنها كثيرا . فعدد كبير من مرضى القلب ماتوا لدقيقة أو أكثر ورأوا أنفسهم .. رأوا أنهم فى سقف الغرفة .. ينظرون إلى أجسادهم وقد تمددت .. ويعرفون بالضبط ماذا قال الاطباء .. وعندما عادت لهم الحياة وصفوا كل شىء وحكوا للأطباء ماذا قالوا أثناء العملية بمنتهى الدقة ! .

ولكن معنى ذلك أن أموت دقيقة .. أو دقيقتين ـ لابد أن أسأل الطبيب عن هذه الامكانيات فى الصباح . لابد ! ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ..

كل الذى رأيته أشباحا تقول مامعناه : الحمد لله على السلامة ! .

خلاص ؟ ! أجريت العملية وانتقلت إلى الغرفة ولم أعد أشعر لا بوجهى ولا بفمى .

وعادت وجوه الممرضات بتعليمات جديدة . هذه الحبوب .. هذه الأقراص .. هذه الحقن .. مواعيدها .. طريقة تناولها .. الطعام المسلوق ..الشوربة .. الأكل على جانب من الوجه ..

ظهر الطبيب ليقول : كل شىء كان عاديا جدا الحمد لله . لامشكلة من أى نوع . وسوف تمضى إلى الشفاء تماما .. لامشكلة اليوم أو غدا . بعد غد سوف أقول لك ماذا سيحدث حتى نهاية الأسبوع !

ثم توقف وعاد يقول : إذا شعرت بأى ألم يجب اخطار الممرضة . لاداعى للالم على الاطلاق ! فهو من المدرسة التى ترى أن الالم ليس ضروريا . ولذلك يجب اعطاء المريض حبوبا مهدئة أو حبوبا قاتلة للألم .. وفى كل مرة أشعر بوجع أنادى الممرضة فتضاعف كميات الحبوب قاتلة الألم ..

وأشرت للدكتور جبران أن هنا فى هذا المكان ألما لاأعرف كيف أصفه .. هل هو وجع .. أو هو نوع من الصداع .. أو هو نبض موجع .. لاأعرف كيف أعبر عن ذلك .. وكان رده .. أن هذا طبيعى وسوف يزداد غدا .. وسوف يظهر ألم فى

مكان آخر .: هذا طبيعى .. وسوف يظهر نوع من « التنميل » فى مقدمة الفك والشفتين .. لمدة شهر أو شهرين .. وبعد ذلك يختفى تماما .. لا مشكلة ..

قلت لو : لو أجريت أنت هذه العملية فى مصر هل ستكون هكذا واثقا من كل شيء ؟ .

فكان رده : ان فى مصر أطباء ممتازين .. ولكن هناك فارقا كبيرا جدا بين نظام العلاج وفن التمريض والانضباط العام فى كل شيء .. فهناك كل شيء منظم جدا ومن المستحيل الخروج على النظام .. فالعمل حلقات متوالية مترابطة .. ولا يملك الانسان إلا أن ينضبط ! وكل ذلك يجعل المريض آمنا مطمئنا .. والطبيب واثقا من نجاح عملياته .. ولا أقول النجاح التام .. ولكنه على يقين من السير فى الطريق السليم .. والشفاء من الله .. ولكن أريد أن أسألك أنت .. فأنت مريض نموذجى .. أول مريض أصادفه فى حياتى .. فأنت لاتشكو .. ولا تتألم .. ولا تتوجع ولا أنت قلق على نفسك أو على أى شيء .. ولا أنت تستعجل العلاج ولا الخروج من المستشفى كيف ؟

سألته : فما الذى يفعله المريض عادة ؟

أجاب .. آوه .. الشكوى لاتنتهى .. والفزع من الألم .. والضيق بالوحدة .. وبالليل الطويل والنهار الأطول .. والطعام المسلوق والمبالغة فى الشعور بالألم .. والخوف من المضاعفات .. ومن الموت .. والسلوك العصبى مع الممرضات ومع الطبيب ..

قلت : ولكنى لاأدعى البطولة .. ولا حتى الشجاعة .. فأنا أجلس على هذا السرير كما أجلس على مقعد فى الطائرة .. أنا فى حالة استسلام تام .. فبعض الناس يخيل إليه اذا اغمض عينيه عن الطائرة حدث شيء .. فيظل مفتوح العينين .. كأنه اذا حدث شيء فى استطاعته أن ينقذ نفسه .. نركب الطائرة ولا نعرف قيادة الطائرة .. ولا الطيران كالنسور ولا السباحة كالحيتان .. ولا نعرف كيف الهبوط بالمظلات .. لانعرف أى شيء .. ولذلك نستسلم ونأكل ونشرب وننام .. لا اختيار لنا .. أو الاختيار الوحيد هو أن نسافر بالطائرة .. أو ندخل المستشفى ونعطى أفواهنا للطبيب وننتظر . فأنت تعالجنى والباقى يتكفل به الجسم نفسه فيقاوم ويساعد ثم حالتى النفسية والعصبية .. وكله على الله ..

ولكن حالة واحدة لازمتنى ولا أعرف ماهى : فلا أنا فى حالة يقظة ولا أنا فى حالة نوم .. ومن الممكن أن أتمدد وأنام دون أن أنظر إلى الساعة فتكون ظهرا ..

أو أصحو فيكون منتصف الليل ..
وجاءت ممرضة تقول : تسمع نكتة ..
قلت : اسمع .
قالت : كان من عادة أحد الأطباء الكبار أن يشرب كثيرا جدا حتى يصبح عاجزا عن الحركة . قالوا له : عد الى مرضاك ففى العيادة ثمانية من المرضى أسرع إليهم .. فقال : واحد منهم لاعلاج له لو اجتمع كل أطباء العالم .. والسبعة الباقون لو أجتمع لهم كل أطباء العالم فلن يتمكنوا من القضاء عليهم ! .
قالت : نكتة أخرى .. ذهب مريض إلى طبيب يقول له : عندما أصحو من النوم فاننى أظل فى حالة دوخة لمدة نصف ساعة .. فماذا أفعل ؟
قال له الطبيب : انهض من نومك متأخرا نصف ساعة !
قالت : نكتة ثالثة .. هذه النكتة من عندكم .. يقال أن أحد الامراء رأى الموت جالسا فى حديقة القصر فذهب إلى والده الملك فى حالة من الفزع .. قال : أريد أسرع حصان عندك ..
سأله الملك : لماذا ياولدى ؟
قال : لقد رأيت الموت فى حديقة القصر ولاحظت أنه يمد ذراعيه ناحيتى .. وأريد أن أهرب الى بغداد فورا !
وركب حصانه وانطلق ..
ونزل الملك فوجد الموت جالسا فقال له : لماذا تخيف ابنى وتحاول أن تقبض روحه ..
قال الموت : أنا ؟ أنا لم أحاول أن أقبض روحه .. وانما اندهشت لوجوده هنا .. فأنا على موعد معه فى بغداد غدا !
ثم قالت : وهذه النكتة .. ذهب الطبيب إلى أحد مرضاه فوجده يسعل بهدوء . فقال له : ان السعال أخف وأحسن الأن !
قال المريض : لقد تدربت على ذلك طول الليل !
وأخرجت ورقة من جيبها وقالت : تعرف نكتة الملك لويس الحادى عشر ؟ كانت له عشيقة جميلة . تنبأ لها أحد العرافين بموت قريب . وماتت وغضب الملك ونادى العراف . وكان طبيبا مشهورا وقال له : أنت الذى قتلتها .. فأنت أطلعتها على موعد موتها فخافت وماتت ..

وأدرك الطبيب أن الملك سوف ينتقم منه واقترب منه الملك وقال له : لابد أن تموت .. فاختر لك موته .. حرقا .. شنقا .. غرقا .

فقال له الطبيب : يامولاى لاتتعجل موتى .. لاننى سوف أموت قبلك بثلاثة أيام !

وخاف الملك على حياة الطبيب . وأسكنه معه فى القصر !

سألتها : ان كانت هذه النكت توزعها المستشفى .. أو كان كل مريض له نوع من النكت .. فقالت : انها أختارتها من أحد الكتب التى اشترتها حديثا .. ولذلك فهى تضحك معى لهذه النكت أيضا !

★ ★ ★

وعندما ذهبت إلى عيادة د . جابى جبران فى شارع الأطباء (هارلى) وكان موعد فك الغرز .. فتحت فمى .. وأخرج هذه الخيوط السمراء الدقيقة كأنها شعيرات عصبية .. سألنى : أن كانت قد أوجعتنى ؟

فقلت : نعم

قال : ولكنك لم تقل آه ..

فعلا لم أقل فقد كنت مشغولا باحساسى الذى لاأعرف كيف أصفه .. فالأوجاع درجات ولحظات أو دقائق أو ساعات .. ولكنها لاتوصف .. أو أننى لاأعرف كيف أصفها ..

قال : أنت نموذجى ؟

قلت : وأنت عالمى !

★ ★ ★

الآن لا أعرف كيف أمضيت ثمانية أيام فى هذه الزنزانة الصحية .. دعنى أصفها لك الغرفة صغيرة ونظيفة .. وبها كل ماهو ضرورى : التليفزيون والراديو والتليفون وحمام .. وترابيزة ومكتب وعدد من المقاعد وأمامها ممر طويل كنت أتمشى فيه ذهابا وأيابا .. ولاأرى الا مريضات يتحركن ببطء .. وكل واحدة سعيدة بهذه الحركة البسيطة .. أو هذه الرياضة .. ووجدت أن أسوأ شىء أن تسأل مريضا آخر : كيف حالك ؟ .. فمعنى ذلك أنه هو يستحق السؤال .. وأن مرضه أخطر من مرضك .. فكل واحد تسأله : كيف حالك اليوم ؟

يرد بسرعة : وحالك أنت ؟ !

كأننى قلت له : أنت مريض جدا كيف حالك ..

ويكون رده أقرب إلى هذا المعنى :

ان شاء الله أنت !

ولذلك كنت إذا قابلت مريضا آخر ، هززت رأسى ..

وفى احدى المرات فعلت ذلك فوجدت البؤس والتعاسة فى عينيه .. فقد كان مربوط الرأس والعنق ، وليست لديه أية قدرة على أن يحرك رأسه .

فما أعظم النعمة التى لاأدرى بها : أهز رأسى يمينا وشمالا والى الأمام والى الخلف وبسهولة .

أنها فرصة متجددة لأن احمد ربنا على الصحة وعلى أن الذى عندى أهون كثيرا جدا من الذى أصيب به الآخرون ..

وأنت أحمد ربنا أنك فى الشارع ولست مربوطا فى البيت ، وأنك فى البيت ولست فى السجن ، وأنك فى السجن ولست فى المستشفى ، وأنك فى المستشفى ولست فى المقابر !

ووجدت من الأفضل والأذوق اذا تحركت أن يكون ذلك ببطء ، لأن هناك من يعجزون عن الحركة .. والا أفعل ذلك كثيرا ، لأن هناك من يتمنى فى نهاية علاجه بعد شهر أو شهرين أن يفعل مثلى أو أقل من ذلك كثيرا ـ يعنى أنا أساوى أعظم أمال عدد كبير من المرضى ! .

فكنت أتمشى أمام المصاعد ، حتى لاأجد أحدا من المرضى !

وأمضى الوقت أمام التليفزيون .. ولا أعرف ان كنت فى حالة من اليقظة أو النوم .. أو هى حالة الهدوء .. حتى إذا جاء الصباح تكدست أمامى عشر صحف انجليزية وبعض الصحف العربية .

ولم أجد أدنى رغبة فى الكتابة . فأنا أقرأ فقط .. أو أنزلق على الصحف دون أن يعلق شىء فى دماغى .. الا الحبر الأسود فى أصابعى . تماما كالصحف المصرية التى تصيب الأصابع والنفس بالهباب !

جاءتنى أحدى المرضات : تحب اتكلم معك ؟

قلت : أشكرك .

قالت : من أى البلاد ؟

قلت : من الشرق الأوسط .

قالت : من أى بلاد الشرق الأوسط ؟

قالت : اليمن .

قالت : هل عندكم ؟
قلت : طبعا عندنا أناس مثلكم تماما .
قلت : آسفه .. أقصد عندكم مستشفيات من الدرجة الأولى وأطباء أيضا ؟
قلت : نعم . ولكن لانها عملية دقيقة فلابد أن أجىء إلى لندن .
قالت : ولكن ملامحك مصرية .. وأنا سمعتك تتكلم وأنا أعرف اللهجة المصرية تماما ..
قلت : إذن أنا مصرى كالطبيب الذى يعالجنى ..
قالت : مستر جبران ؟
قلت : نعم .. دكتور جبران ..
قالت : لا .. بل هو مستر جبران !

عرفت أنهم لايطلقون على أى طبيب لقب دكتور وأنما على الذين حصلوا على الدكتوراة فقط .. وفى لندن أطباء عالميون ولكنهم « مستر » .. واذا سألت عن د . جبران فمن الممكن أن تجد من يقول لك : لايوجد إلا « مستر » جبران .. وعندنا فى مصر نطلق على الحاصلين على الدكتوراة الفخرية لقب « دكتور » .. ونطلقها على الذين لم يحصلوا عليها أيضا ..

اذكر أننى ذهبت لزيارة والدتى ، يرحمها الله .. فوجدت على باب الشقة لافتة مكتوب عليها : الدكتور أنيس منصور .. واندهشت جدا .. أما السبب فهى أن أمى كانت تسمع كل من يسأل عنى يقول : دكتور .. فقد كنت وقتها مدرسا فى الجامعة .. وأغلب أساتذة الجامعة دكاتره .. وقد ظنت أمى أننى حصلت على الدكتوراه ولم اشأ أن أبلغها بذلك .. أو أننى لاأحب ذلك تواضعا ولم افلح فى اقناع الجيران أننى لست دكتورا !

ولن تنسى مصر يوم أنعمت على الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان بالدكتوراه الفخرية وتقدم د . حافظ غانم وزير التعليم العالى ليضع الروب الجامعى على كتفى الرئيس الفرنسى فاعتذر قائلا : عندنا فى فرنسا لايرتدى الروب إلا أساتذة الجامعات ولست أستاذا !

وتوارى الروب الجامعى ، وظل كسوفنا واضحا ـ انها تقاليدهم وانعدام تقاليدنا !

وشكوت إلى أحدى الممرضات من أن عينى اليمنى ملتهبة . فنظرت . وأشارت بأنها سوف تعود حالا .. وبعد دقائق جاءت ومعها طبيب هندى . ونظر

إلى عينى وفتحها .. وبعد دقائق أرسل زجاجتين من القطرة واحدة للعين اليمنى وواحدة للعين اليسرى . على أن أرمى الزجاجتين فى الزبالة بعد أسبوع .. فعمر القطرة أسبوع . واحد .. ورويت هذه الحكاية لاحدى اقاربى من كبار الضباط فسقط مغشيا عليه من الضحك . قال : اننى لاأزال استعمل القطرة التى اشتريتها من صنعاء أيام حرب اليمن ـ من ٢٥ عاما ! .

جاء د . جبران . ونظر إلى وجهى . وسألنى فأشرت إلى مكان من وجهى وعنقى ولسانى وأسنانى . وكان جوابه : لامشكلة ! كل ذلك سوف يختفى بالتدريج .. أحسن علاج هو الماء الساخن بالملح .. أكثر من مرة .. لامشكلة !

وعاد يسألنى : هل تريد أن تسألنى عن شىء .

قلت : شكرا ..

قال : الممرضة تقول أنك طلبت مزيدا من مسكنات الآلم . لماذا ؟

قلت : أحسست بوجع هنا .

قال : سوف يزول غدا بدون مسكنات ..

قلت : لا أعرف كيف أصف لك ماأشعر به هنا ..

ليس ولكنه كالآلم .. ليس قويا ولكنه متقطع .. ولكن هنا فى شفتى عندى حساسية زائدة .. ماتفسير ذلك !

قال : لا مشكلة .. كل هذا طبيعى .. وأن يكون لديك حساسية زائدة أفضل كثيرا من الا تكون .. لاتخف .. لامشكلة من أى نوع .. كل شىء يمشى تماما فى طريقه الصحيح .. سوف أمر عليك غدا فى التاسعة مساء ..

وفى الوقت المحدد بالدقيقة والثانية أجده أمامى ومعه الممرضة الأولى !

سألته بالعربية : ما الذى يمكن أن نقدمه للممرضات .. هدايا .. فلوس .. ماذا ؟

قال : لاشىء مطلقا .

قلت : ولكنهن يتوقعن ذلك ؟

قال : مطلقا ؟ .. أعط الممرضة الأولى علبة شيكولاته وسوف تكون سعيدة جدا !

هل فى أستطاعتك أنت أن تعطى احدى الممرضات فى مصر قرطاسا من السودانى .. هل تجرؤ ؟ ! أو تصافح الممرضات واحدة واحدة وتتمنى لهن حياة سعيدة .. أو تقول لهن : تصبحو على خير ! تستطيع ؟ !

ووافق الطبيب على أن أذهب يوما إلى أحدى المكتبات .. وذهبت ولكن لم أستطع أن أبقى طويلا .. فأنا مازال فى حالة أقرب إلى الدوخة .. ليست دوخة .. ولكنها دوشة هادئة فى دماغي .. أو هو نوع من السكون مع قدر من المخدر فى أعصابى .. كان كل عصب من أعصابى قد تغطى بطبقة من الشمع أو من الكاوتش ولذلك فأنا مغطى بطبقة من الوبر الحريرى .. تجعلنى لاأشعر بكل نسمات الهواء البارد .. ولا بكل الأصوات حولى ..

أما أعظم لذة مع أعظم ألم فقد كان يوم اقترح الصديق حسن أبو العلا المذيع اللامع فى هيئة الاذاعة البريطانية أن ننتقل بين عشرات المكتبات فى يوم واحد لنرى الجديد والقديم .. متعة عظيمة جدا ، ولكنه ألم أعظم .. فقد كان الدخول فى المكتبات الدافئة والخروج الى الهواء البارد ثم الدخول فى المكتبات لطشات على خدى الأيمن فأدير الأيسر .. فكان مؤلما .. وتحيرت يداى تدارى خدى هذا وخدى ذاك .. ثم أننى أعتذر للناس الذين اصطدم بهم ..

ولكن الناس يستمعون ولا يرون من أنا .. فقد ارتديت البالطو الأسود وتحته البلوفر الأسود وعلى دماغي طاقية سوداء لها طرطور .. وعلى خدى منديل صوف ، وعلى خدى الآخر يدى .. عفريت ؟ كأننى ولكنى لاأعرف بالضبط ما هذا الذى أشعر به .. ماهو .. كيف أصفه .. كيف أعتقله فى كلمات .. فى عبارات .. فى تشبيهات ..

وتذكرت عبارة المتصوف الألمانى أكهارت التى يقول فيها : ان أسرع حيوان ينقلك إلى الكمال : الألم !

فعندى الألم أشكال وألوان ولكن أين هو هذا الكمال الذى يتحدث عنه .. كمال ماذا ؟ كمال الأجسام ؟ كمال الناس ؟ كمال العقل ؟ لابد أنه يتكلم من ألم أخر غير الذى أشعر به ولا أعرف كيف أصفه لك ..

من الذى قال أن الالم كالسمك اذا خرج من الجسم والنفس مات .. أما خروجه فيكون بالتعبير عنه . صحيح . ولكنه سوف يبقى كما هو مادمت عاجزا عن نقله من الجسم المحدود إلى اللفظ الأكثر تحديدا .. ولكن المشكلة أن الألم قد هرب من نطاق المكان المحدود فى الفك إلى الجسم كله .. كأنه انتقل من المكان إلى الزمان .. كأنه انتقل من الوجع الخاص الى الآلم العام .. كأنه تبخر .. أى تحول من سائل إلى هواء .. يصعب أن أمسكه .. أن أقيده .. أن أعيده سائلا أو جامدا يمكن لمسه ووزنه ..

ان الألم يبدأ بأن يفرض نفسه عليك ، ثم ذلك يستأذنك فى التلاشى ..

* * *

أما هؤلاء الزملاء فى المستشفى فهم أخوة الألم .. اننا لانعرف بعضنا البعض .. لا لغة واحدة ولا لون ولا جغرافيا ولا تاريخ ولكن من المؤكد أن بيننا جميعا رباط واحد هو : الألم .. واننا جميعا نكرر كلمة واحدة : آه .. قصيرة .. طويلة .. منظمة .. متقطعة .. من الشفتين .. من البطن .. من القلب .. من العقل .. من الوحدة .. من الناس .. من اليأس ..

ولو مات أحد فسوف يموت الألم معه .. ولكن العذاب أطول عمرا ـ عذاب أهله وأصدقائه .. فالألم شخصى ولكن العذاب عام .. والموت شخصى . ولكن العزاء عام ..

والألم الجسمى من السهل أن يتساقط كأوراق الخريف .. ولكن الألم النفسى هو الفروع التى ظهرت عليها الأوراق .. بل هى الشجر .. بل أن حياتنا كلها غابة من أشجار الألم وأوراق الوجع ..

وإذا كانت غرفتى هى الزنزانة ، فأنا سجين الألم !

بصراحة أنا نسيت كيف كانت حالتى النفسية والجسمية قبل أن أدخل المستشفى .. لاأعرف هل كان جسمى أثقل ، هل كان وعيى قوى ، هل كان احساسى بالزمن أدق ، هل كان شعورى أوضح بالسرير الصغير والغرفة الضيقة وتخبطى بين السرير والمقاعد وطعامى المسلوق والشوربة الفائرة .. والليل والنهار .. وهل هناك فارق حقيقى .. ومن الغريب حقا أنه رغم العقاقير التى أتناولها فأننى أصحو فى الثامنة صباحا ، أى فى الرابعة صباحا بتوقيت القاهرة ، كما هى عادتى . فلم تفلح المسكنات وقاتلات الألم أن تعطل المنبه الذى استقر فى كل خلاياى والذى يوقظنى فى ساعة محددة ووقت مضبوط فانتفض جالسا .. واقفا متجها إلى مكتبى .. سواء نمت ساعة أو نصف ساعة !

قلت للدكتور جابر جبران : آه

قال : ماذا ؟

قلت : سنتى !

قال : سنتك .. ماذا تعنى ؟

قلت ضاحكا : أنها أغنية فى مصر مشهورة بين محمد عبد الوهاب وراقية

ابراهيم .. عندى مشكلة .. بدأت عندى مشكلة .. فأنا لاأعرف كيف أصف ماحدث .. لاأعرف ..

قال : تصف ماذا ؟

قالت : الألم !

ورفع يديه إلى أعلى : ليست هذه مشكلتى ولا من اختصاصى !

قلت : صح ! .. ولكنها من اختصاصى !

آه .. ومعناها
(٢) «وأيوب إذ نادى ربه..»

ان التاريخ لم يعرف إلا الذين قالوا : آه : آه .. وليس الذين قالوا : ها .. ها .. فالتاريخ هو قصة التعاسة الانسانية .

ولذلك فالنبى ايوب هو بطل الأبطال .

فقد ابتلاه الله ، وارتضى هو هذا البلاء .

تقول دائرة المعارف اليهودية : ان الفيلسوف الألمانى « مركوزة » يرى ان ايوب هو أول شخصية وجودية فى التاريخ . فهو تعذب ولم يقل : آه .. وانما اختار العذاب .. ارتضى العذاب .. وكأنه هو الذى ابتلى نفسه .. فكر فى الذى اصابه .. وقال للعذاب :

نعم .. ورأى انه لابد ان تكون هناك حكمة .. وان هذه الحكمة لا يعرفها .. ولكن لابـد ان الله لحكمة قد جرده من الولد والبنت والأرض والحيوانات والخدم والأصدقاء .. ولكن ايوب ظل صامدا ـ حتى زوجته كفرت به ودعته الى عبادة الشيطان ..

فمن هو ايوب عليه السلام ؟

يقول مؤرخنا المسعودى : انه ايوب بن موص بن زراح بن رعوايل بن العيص ابن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام .

ويقال عاش فى الجولان ويقال فى مدينة حوران بسوريا .. ويقال فى الأردن .

ويقال كان فى مصر على أيام موسى عليه السلام .

ويقال ان سبب بلائه ان فرعون مصر كان قد تنبأ له العرافون بأن طفلا يهوديا ذكرا سوف يقتلع ملكه ويهدم عرشه . فقرر فرعون ان يقتل كل مولود يهودى ذكر .

ويقال انه سأل أيوب : ما رأيك ؟ ويقال ان أيوب عليه السلام قد احنى رأسه وسكت . وكان السكوت من علامات الرضا . فاستحق اقسى العذاب من الله .. والقرآن الكريم يقول لموسى عليه السلام كيف ان الله نجاه من فرعون :

« إذ اوحينا الى أمك ما يوحى : ان اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليـم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له . والقيت عليك محبة منى ولتصنع على

عينى . إذ تمشى اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله .. فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا . فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى ..

والقرآن الكريم يشير الى عذاب ايوب بايجاز شديد .

يقول تعالى : « وايوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر واتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين . »

ويقول الله تعالى : واذكر عبدنا ايوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . فوهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث . انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب .

أما تفسير عذاب ايوب فقد جاء فى سفر ايوب فى التوراة ، وأسلوبه شاعرى فنى جميل . حتى ليخيل اليك وأنت تقرؤه انه عمل أدبى خيالى . وان الذى اصاب ايوب ليس إلا من خيال المؤرخين .. أو انها حكايات شعبية كتبت فى القرن الثانى قبل الميلاد ..

وايوب الذى وصفه القرآن بانه « نعم العبد انه أواب » ـ انه انسان طيب صابر كلما اصابته مصيبة عاد الى الله فازداد صبرا وايمانا .. ويقال ان الشيطان قد حقد عليه .. وانه ذهب الى الله وقال له : ان ايوب ليس إلا بشرا .. طبيعى ان يكون صابرا مؤمنا عابدا فقد اعطيته الكثير .. وانك لم تمتحنه بعد .. ولكن لو اصبته فى هذا الذى يملك لكفر بك .

وكان ايوب يملك الوف الأفدنة والابقار والأغنام والخدم وله سبعة من الأولاد وثلاث من البنات .. ثم انه فى غاية الصحة والعافية : طويل كبير الرأس جعد الشعر الأسود واسع العينين عريض الصدر قصير العنق غليظ الساقين والذراعين ينام بعمق كأنه طفل ويأكل بشهية كأنه شاب .. يدب فى الأرض إذا مشى ويملأ الأفق إذا جاء .

ولكن الله يعلم ان أيوب قادر على الصبر .. فقال للشيطان : افعل به ماشئت لترى ماذا يكون من امر ايوب .. ولكن لا تقترب من جسمه !

فأهلك الشيطان اغنام وابقار ايوب . وجاءه أحد الخدم يقول لأيوب : اللصوص سرقوا الماشية وقد نجوت أنا وجئت لاخبرك بذلك .

ثم جاء خادم آخر ليقول لأيوب : نار الله سقطت عل الخدم فأكلتهم . وقد نجوت لأخبرك بذلك .

ثم جاء خادم رابع ليقول له : بينما كان أولادك يأكلون ويشربون حين جاءت رياح شديدة وهدمت عليهم البيت فماتوا جميعا ونجوت انه لأخبرك بما جرى .

فحرق ايوب ملابسه وشعره وسقط على الأرض وسجد عاريا وهو يقول : ولماذا لم تمتني يارب عند ولادتي .. لماذا اعيش لأرى هذا اليوم الفظيع ؟

فعاد الشيطان الى الله يقول له : ولكن إذا أنا مسست جسده .. لحمه وعظمه فانه سوف يكفر تماما !

فقال الله : افعل ما تشاء بشرط ان تبتعد عن قلبه وعقله !

فذهب الشيطان ونفخ فى انف ايوب فأمتلأ جسمه بالدمامل وامتلأت الدمامل بالدود . وكان ايوب يتمرغ فى الأرض ويحك جسمه بالحجارة . وكان جسمه يتساقط منه .

وجاء ثلاثة من الأصدقاء يبكون ويلطمون حزنا على ما اصاب ايوب . وراحوا يضعون التراب على رؤوسهم ويتمرغون على الأرض .

لم يخففوا عنه . بل زادوه ألما . انهم يطالبونه بالصبر ـ مع انه صابر تماما .. ويقول له : لعل هناك حكمة . ولكنه كان يرفض ان تكون هناك فهو ليس اسوأ الناس ولا أكثرهم شرا . بل انه يرى الاشرار اغنياء يعيشون فى سعادة وأولادهم كذلك . فما المعنى وما الحكمة ؟

قال له الصديق الأول : لا تحزن . ان الله يؤدبك . طوبى لك !

افرح ايوب افرح ! فالله يعطى ويأخذ . والله يجرح وهو الذى يعصب جروحك . وهو الذى يسحق ويداه تشفيان . وإذا كان الله قد اصابك ، فإن مصائب أخرى كثيرة لم تنزل بك . افرح ايوب افرح !

وكان ايوب يقول : ان مصيبتى اثقل من رمل البحر ياليتنى مت قبل هذا . ليتنى لم اكن . يارب ليتنى اعرف ذنبى .. غلطتى ..

ويصف ايوب ما اصاب جسده فيقول : ان جسمى كالخشب مسوس .. ان جسمى مثل ملابسى اكلتها العتة !

ويقول ايوب : أننى شبعان تعبا !

ويقول : إننى مثل جبل ينهار .. أننى مثل السيل يقذفنى حجارة ووحلا . لقد

ازال المرض كرامتى .. ونزع تاج راسى .. هزمنى من كل جهة .. واقتلع أى أمل فى الشفاء ! ..

ويقول له الصديق الثانى : يجب ان تكف عن هذا الكلام .. فالله لن يلوى القضاء والقدر من اجلك .. يجعل الحق باطلا من اجلك ، فإن كنت طيبا حقا ومؤمنا صدقا فسوف يساعدك .

ويرد ايوب كرهت حياتى .. كرهت نفسى .. ولكن سوف اشكو على حريتى . سوف اقول له : لماذا تعذبنى .

قل لى لماذا ؟ لماذا تخاصمنى . لماذا كل هذا العذاب وأنت تعلم أننى برىء .. أننى لا اعترض على قضائك . ولكن فقط أريد ان أعرف !

ويقول له الصديق الثالث : انه عنادك وغرورك هو الذى ابعد عنك الناس . انها شكواك الدائمة هى التى جعلت الناس لا يصارحونك بحقيقة أمرك .. فمن أنت حتى يكلمك الله ويصارحك ويكشف لك عن سر عذابك .. من أنت .. من ادراك أنك لا تستحق ما هو أقسى من ذلك ؟

ويرد ايوب : انه عالم بكل شىء سبحانه قادر على كل شىء سبحانه ولكننى لا استحق كل هذا العذاب .

ويتلفت ايوب حوله ويتساءل : قل لى يارب .. لماذا يزداد الاشرار قوة على قوة .. وثراء على ثراء .. وأولادهم ينعمون بكل شىء .. فبيوتهم آمنة من الخوف .. وثيرانهم تلقح الأناث فلا تخطىء وأبقارهم تلد ولا تجهض .. انهم يسرحون كالأغنام وأطفالهم يرقصون .. مع انهم ليسوا مؤمنين بك يارب . قل لى ارجوك !

ويرد عليه الله قائلا : أين كنت يا أيوب عندما خلقت السماء والأرض .. أين كنت عندما دفعت الأمواج والبحار والعواصف .. وخلقت الانسان والحيوان واضاءت السماء بالشمس والنجوم .. أين كنت عندما ولدتك أمك .. وأين كنت عندما جعلت لك عقلا وقلبا .. فمن أنت يا أيوب حتى تسألنى .. وتستوضحنى .. فما الذى تعرفه من اسرار الكون ومن عظمة الله وحكمته .. لست إلا شيئا صغيرا جدا فى هذا الملكوت .. أنت وعذابك والحكمة من عذابك ووجودك ووجود كل الكون ..

صحيح أن أيوب ليس شيئا ، وكذلك عذابه إذا قورن بعذاب الانسانية كلها . ولكن أيوب مريض كله من أوله لآخره..

ولو ان الباب اغلق على أصبع أيوب لقال : آه .. لابد ان يقولها .. صحيح ان الم اصبعه ليس فى فداحة انكسار ساق أو رقبة .. ولكن لابد ان يقول : آه .

وقد قال أيوب : آه .. ألف ألف مرة .

ولكن أيوب هو المستحيل الانسانى ، فإن أحدا لم يلق مثل عذابه ، وان أحدا لم يصبر مثل صبره وليس من الضرورى !

ويحنى أيوب رأسه ويقول لله : أنا حقير تافه كيف ارد عليك .. أننى اضع يدى على فمى حتى لا تفلت كلمة ! لقد سمعت عنك يارب ، ولكنى الآن اراك .. ولذلك فأننى نادم على ماقلت . أسف لما شكوت مخطىء لأننى قلت : آه .. وسوف اتمرغ فى التراب والرمل اسفا على ذلك !

لقد نجح ايوب فى اقصى محنة ، ولذلك امره الله ان يغتسل فى الماء .. والقرآن يقول : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . « ولم يكد يغسل قدميه وساقيه وجسمه وشرب من الماء حتى عادت له صحته وحيويته .. ثم اعاد الله اليه أولاده .. أحياهم من القبور .. ويقال ان الله اعاده أكثر شبابا وانجبت زوجته سبعة من الذكور وثلاثا من البنات .

ويقال ان ايوب قد غضب على زوجته لانها قد لامته كثيرا على ايمانه بالله . وطلبت اليه ان يكفر وان يؤمن بالشيطان . ويقال ان أيوب قد توعد زوجته بأن يضربها مائة مرة إذا ما شفى من بلائه . فأوحى الله الى أيوب ان يأتى بمائة عصا ويضربها مرة واحدة . وهكذا لم يحنث أيوب فى قسمه .. يقول تعالى : .. وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ..

وكان أيوب فى السبعين عندما نزل به البلاء سبع سنين . ويقال عاش بعد ذلك سبعين عاما أخرى .. ويقال عشرين .. ويقال سبع سنوات وسبعة شهور وسبع ساعات ـ والله أعلم !

وكان الصوفى المصرى ابن الفارض (١١٨١ ـ ١٢٣٤ م) يصاب كثيرا بحالات الصوفية : بين السياحة والوجد والغياب عن الوعى . وكان يسقط فى حضرته .. وكان يصف عذابه وبلاءه بانه افدح من عذاب أيوب ؟ !

يقول فى قصيدته الطويلة (٧٦٥ بيتا) الغامضة المعانى المعقدة التراكيب :

شفتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأس محيا من عن الحسن جلت

فأوهمت صحبى ان شرب شرابهم به سر سرى فى انتشائى بنظرة

ولو ان مابى بالجبال ، وكان طور سينا بها ، قبل التجلى لذلت

فطوفان (نوح) عند نوحى كادمعى وايقاد نيران (الخليل) كلوعتى
ولولا زفيرى اغرقتنى ادمعى ولولا دموعى احرقتنى زفرتى
وحزنى ، ما (يعقوب) بث اقله وكل بلى (أيوب) بعض بليتى
وقد برج التبريح وابادنى وابدى الضنى منى خفى حقيقتى
ويمنعنى شكواى حسن نصبرى ولو اشك للاعداء مابى لاشكت
وما حل بى من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزيمتى
وكل اذى فى الحب منك إذا بدا جعلت له شكرى مكان شكيتى .

فابن الفارض يرى ان عذابه اقسى من عذاب نوح وابراهيم ويعقوب وأيوب عليهم السلام . وهو سعيد بذلك لأنه حب لله فى سبيل الله وفى السعادة الغامرة فى حضرته ..

وهذا العذاب أيضا نوع من العذاب المستخيل ، لا يقوى عليه ولا يريده وستحضره ويستسلم له إلا هذا الطراز من الصوفية ـ أى البشر الذين بلغوا فى الوجد مراتب الأنبياء . فهو بشر فوق البشر .. وهو بكلمة الآه بشر ، ولكن السعادة بها وطلب المزيد منها يجعله فوق البشر كثيرا .

وفى الأساطير القديمة صور رائعة ومروعة للعذاب .

فعند الاغريق مثلا حرب لا تنتهى بين الالهة فوق جبال الالب . ولكن الالهة يتحاربون ولا يتعذبون . فلكى يتحقق العذاب لابد ان يكون هناك انصاف الالهة .. فيكون الواحد ابن اله أو ابن الهة .. أما نصفه الثانى فهو بشر .. وعلى هذا النصف الثانى يقع العذاب ، فإذا وقع صرخ يتأوه ويطلب الرحمة والغفران .. وتسلحه الالهة بطرق مختلفة للنجاة .. وينجو ولكن الالهة يطاردونه ليوقعوا عليه العقاب والعذاب .. وهكذا تدور الحرب بين الالهة وضحاياها من انصاف الالهة والبشر .

وكان الالهة الاغريق يحقدون على البشر .. فهم يرون ان حياتهم مملة .. كل شىء مستمر كما هو .. من الازل الى الأبد .. لا عندهم خوف ولا قلق ولا حب ولا كراهية ولا مرض ولا موت .. ولذلك كانوا يحولون أنفسهم الى بشر أو الى حيوانات ضيقا بالملل والقرف الأبدى .. وكانوا يدخلون فى صراعات مع الانسان أو من أجله .. ثم يتفننون فى ابداع مخلوقات يعذبونها ـ للتسلية المقدسة !

فالاله أو البطل « اطلس » كانت له حدائق والوف الماشية .. وكانت الفواكه تملأ الجو عطرا .. وكان يمنع الطيور ان تقترب منها .. وكان يمنع النسيم ان

ينقل روائحها الجميلة الى أى مكان إلا باذنه .. وكانت الافاعى تحرس حدائقه وقصوره .. وقد اقترب من هذه القصور أحد الالهة متنكرا فمنعه اطلس .. فقررت الالهة تحويله الى حجر .. حجرا حجرا حتى صارا جبلا .. جبل اطلس المعروف .. وكان هذا الجبل يرتفع عاليا حتى كانت السماء تقف فوقه .. ثم جعلوا اطلس يحمل الكرة الأرضية على كتفيه .. وينقلها من كتف الى كتف كلما تعب ـ وعندما تحدث الزلازل والبراكين ، يكون بسبب ان اطلس ينقل الكرة الأرضية من هنا الى هناك .. وان يظل هكذا مرة حجارة ومرة ثوراً ينقل الأرض من قرن إلى قرن ـ الى الأبد . اورفيوس الذى اعطته الالهة نايا .. إذا نفخ فيه تساقطت الطيور من السماء وخرجت الحشرات من جحورها والوحوش من غاباتها والأسماك من الماء .. وتوقفت أمواج البحر كلها مسحورة مبهورة بهذا الصوت الفاتن من ناى اورفيوس .. وحسدته الالهة على حب الكائنات كلها له .. فقرروا ان يوجعوا قلبه على اعز الناس على زوجته الجميلة .. فجاءت افعى ولدغتها فماتت .. وانتقلت الى العالم الآخر واستطاع اورفيوس ان يذهب الى العالم الآخر وان يسحر الهة هناك وان يبكيهم ثم طلبت اليهم ان يرى حبيبته ولو مرة واحدة .. فوافقوا بشرط ان يمشى أمامها والا ينظر وراءه إلا عندما يخرجان من العالم الآخر .. فوافق .. ولكنه لم يستطع ان يمشى أمامها دون ان يلتفت .. والتفت وتلاشت محبوبته وظل ينظر وتتلاشى .. ويتعذب الى الابد !

وعندما عاقبت الالهة البشر حرمتهم من النار .. فجعلت لياليهم مظلمة باردة .. فما كان من برومثيوس إلا ان سرق النار من الشمس واعطاها للبشر .. فحكمت عليه الالهة ثلاثين عاما ان يظل مربوطا بالسلاسل فى حجر فى بلاد القوقاز ويجىء نسر يأكل قلبه .. وكلما اختفى القلب ظهر واحد جديد ليأكله النسر .. حتى جاء بطل الأبطال هرقل وقتل هذا النسر .. ويقال انه كلما قتل نسرا ظهر واحد جديد ـ الى الأبد !

أما تنتالوس فقد عذبته الالهة لأنه سرق كلبا كان يحرس أحد المعابد .. ويقال لأنه سرق الخمر من مائدة الالهة واعطاها للبشر ..

ويقال لأنه ذبح أحد أولاده ، وقدمه طعاما للالهة .. يريد ان يعرف ان كانت الالهة تستطيع حقا ان تعرف كل شىء . ولكن الالهة لم تعرف انهم يأكلون أنسانا .. فلما عرفوا ، القوا به فى جهنم ..

وتفننوا فى تعذيبه الى الأبد ..

وضعوه أول الأمر فى بحيرة من الماء العذب .. وجعلوا الماء يرتفع حتى شفتيه ، فإذا حاول ان يشرب انحسر الماء ـ الى الأبد !

وجعلوا بالقرب منه شجرة تفاح تقترب اغصانها منه وكلما حاول ان يختطف تفاحة ، هبت رياح فابعدت الغصن ـ الى الأبد !

ويقال انهم وضعوه عند مدخل أحد الكهوف لينزل حجر كبير مدويا حتى يقترب من شعر رأسه ثم يتوقف .. ليرتفع ويهبط بعنف مخيف ـ الى الأبد !

وبنات الجرجون لهن شعور من الافاعى وانياب وعيون مخيفة .. وإذا نظرت الواحدة الى أى انسان أو حيوان أو شيء تحول الى حجر .. وهذا هو العذاب ان يتحول الطعام الى حجر والماء والنبات .. ولكى تجد الجرجون ما تأكله لابد ان تغمض عيونها .. وإذا اغمضتها هاجمها الاعداء من الالهة .. أما العذاب الأبدى فهو ان أحد الالهة قد وجد الوسيلة للقضاء عليها وذلك بأن يجعل الجرجون ترى صورتها .. وذلك بأن أتى بمرآه .. وجعلها ترى صورتها ، فتتحول هى الأخرى الى حجارة .. ثم تعود لتصبح كائنا حيا ، لتكون حجارة مثل كل شيء آخر ـ والى الأبد !

أما سيزيف فقد حكمت عليه الالهة ان يدفع امامه فى جهنم حجرا الى أعلى الجبل ، فإذا بلغ القمة سبقه الحجر ونزل الى السفح ليرفعه من جديد ـ والى الأبد !

أما الفنان زويكس فكانت له قدرة عظيمة على نقل صور الطبيعة .. فإذا رسم عنقودا من العنب ، جاءت العصافير تنقره كأنه عنقود حقيقى .

ولكن زويكس احزنه ان العصافير لم تخف من الرجل الذى يحمل العنب .. ومعنى ذلك ان الرجل فى اللوحة لا يبدو قوى الشبه بالانسان ، وإلا لكانت الطيور قد خافت منه !

ويقال انه ظل يبكى حتى مات .

ويقال ان الذى ابكاه انه كلما رسم لوحة اصطدم بها الناس وظنوها حقيقة .. فلم تسلم له لوحة من أيدى الناس أو من مناقير العصافير ..

ويقال انه رسم لوحة لسيدة عجوز .. ولما نظر اليها راح يضحك حتى مات !

ويقال ان أحد الالهة طلب اليه ان يرسم لوحة له . فرفض فحكم عليه ان يرسم كل يوم لوحة لتفسدها العصافير والحشرات والحيوانات والناس ـ الى الأبد !

وهذا الفنان يتعذب لأنه قال : لا .. لواحد من الالهة ! وهو اختار العذاب لأنه اختار فى نفس الوقت حريته : ان يرسم ما يشعر به وما يقنعه مهما كانت العقوبة !

والقرآن الكريم يحكي لنا صورا من عذاب الأنبياء وهم ينقلون رسالاتهم الى الناس الظالمين الكافرين .

وهو عذاب عنيف ولكنه مؤقت ، وهم لذلك عبرة ودرس ..

قال تعالى : « قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . »

ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين .. ولوطا اتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين . »

« ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين . »

« وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون . ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين .. »

« وايوب إذ نادى ربه : أنى مسنى الضر .. وأنت أرحم الراحمين .. »

واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين .. »

وذا النون إذ هب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. »

« وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين . »

« والتى احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين . »

وفى الديانات اليهودية والمسيحية والبوذية والكونفوشية والبهائية صور مختلفة من العذاب الانسانى .. أو عذاب الانسان الذى يجعله الصبر أعلى من الانسان ..

وكل هؤلاء يتعذبون فى سبيل الله . ويصبرون على أذى الانسان ، لأن لهم أجرا عند الله .. ولأن السماء عندما اختارتهم ، فلأن لهم مواصفات خاصة تؤهلهم لحمل الرسالة وتحمل الظلم والهوان فى سبيلها .

وعندما ضاق نوح عليه السلام بالناس وبظلم الناس وجهل الناس وصعوبة رسالته ، طلب من الله أن يهلك الأرض ومن عليها . فإذا اهلكت لم تعد له رسالة ، ولم يعد هناك عذاب يلقاه .

ولكنه لا يدرى حكمة الله . تماما كأيوب عليه السلام فجاء فى القرآن الكريم :

« وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا .. إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .. »

أن هذا الانسان النبى لا يستوعب حكمة الله . ولا المعنى وراء الرسالة والنبوة والناس والعذاب وصلاح الناس واستمرار الحياة .. ولذلك فهو يتعذب بالجسم المحدود الذى لديه ويتألم بالجسم الفانى الذى يعيش فيه .. ولكن الله اهلك الأرض ومن عليها .

ثم اوحى الى نوح أن يحمل فى السفينة اهله وبعض الحيوان والنبات لاستئناف الحياة بعد ذلك .

ولا يزال أيوب هو النموذج العالى للصبر على الألم .. وهى مرتبة لم يبلغها أحد من قبله أو من بعده .

* * *

ثم هناك الانبياء بلا رسالة :

عذابهم كعذاب الأنبياء .. وهم يتعذبون لفشلهم .. ويتعذبون لعجزهم ويتعذبون لأنهم يريدون ذلك .

ويتعذبون لأننا نحبهم ولا نصدقهم :

الشعراء مثلا ـ كما سنرى !

آه .. ومعناها
(٣) السحاب والظلام والأشباح

من ألم الحب الى حب الألم ـ هذه قصة حياة كل شعراء القلب الذين يفقدون العقل من أجل المحبوبة .. ولا أمل عندهم فى الشفاء ، ثم انهم لا يريدون ..

وفى الحب ذات الألم ، فى القلق فى الألم فى الخوف فى الغيرة فى الاستسلام حتى الموت .

والانسان يواجه القدر ويقف له .. ويحاول .. الا فى الحب فانه يستسلم للقدر .. ولا يعرف ما هذا الذى يسرى .. ماهذا الذى يجرى .. ماهذا الذى يضىء ماهذا الذى يسلبه نور العين والعقل والحياة ..

انه الحب ، الذى لا يعرف ماهو .

انه الالم الذى لا يدرى ماهو .

وقديما سألوا احد الشعراء : مالكم قلوبكم هكذا تذوب كما يذوب الملح فى الماء ..

فقال : لاننا ننظر الى عيون لا ترونها !

وسأل احد شعراء « بنى عذرة » وهى القبيلة التى لم تعرف الا الحب العفيف : من أى القبائل انت ؟

فقال : من قوم اذا احبوا ماتوا !

فسمعته امرأة فقالت : انه من بنى عذرة ورب الكعبة !

وفى مسرحية « مجنون ليلى » لامير الشعراء شوقى جلست الفتيات يتحدثن عن الفرق بين حب بنات البادية وبنات الحضر فقالت :

ونحن الرياحين ملء الفضاء .
وهن الرياحين فى الانية .
ويقتلنا العشق والحاضرات .
يقمن من العشق فى عافية .
ولم نصطدم بهموم الحياة .
ولم ندر ـ لولا الهوى ـ ماهيه .
وانا نخف لصيد الظباء .

وانا الى الأسد الضارية .
وفى كل ناحية شاعر .
يغنى لليلاه أو راوية .

والذى يقال عن الحب يقال عن الالم .. فالحب الذ الم . والالم توأم الحب .

يقول البهاء زهير :

يقول اناس لو وصفت لنا الهوى .
فوالله ما ادرى الهوى كيف يوصف .

فقال شوقى :

يقول اناس لو وصفت لنا الهوى .
لعل الذى لم يعرف الحب يعرف .
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته .
فوالله ما ادرى كيف يوصف !

يقول ابو نواس :

يا ويح اهلى افنى بين اعينهم .
على الفراش ولا يدرون ما دائى .

فقال شوقى :

ياويح اهلى افنى بين اعينهم .
ويدرج الموت فى جسمى واعضائى .
وينظرون لجسم لاحراك به .
على الفراش ولا يدرون مادائى .

انه يحب ويتعذب .. ولكنه لا يدرى ماهذا الذى يتعذب به ..

وقديما قال العاشق جميل :

الا ايها الركب النيام الا هبوا .
اسائلكم : هل يقتل الرجل الحب .

فقالوا :

نعم . حتى يرض عظامه .
ويتركه حيران ليس له لب !.

يقول شوقى :

لك ان تلوم ولى من الاعذار .

ان الهوى قدر من الاقدار .
امرى وامرك فى الهوى ، بيد الهوى .
لو انه بيدى ، فككت أسارى .
ويقول شوقى :
يالائمى فى هواه والهوى قدر .
لو شفك الوجد لم تعزل ولم تلم .
ويقول شوقى :
ادارى العيون الفاترات السواجيا .
واشكو إلى كيد انسانها ليا .
حببتك ذات الخال والحب حالة .
اذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا .
يقول مصطفى صادق الرافعى :
الحب سجدة عابد .
ما أرضه الا جبينه .
افق الملاك نفسه .
البدء كان له لعينه .

ويحاول الشاعر الفيلسوف عباس العقاد ان يعرف لنا الحب والعذاب الهوى والهوان ، فيكون تعريفه اكثر غموضا .. يقول العقاد :

الحب ان ابصر مالا نرى .
او اغمض العين فلا أبصرا .
وان اشيع الحق ماسرنى .
فان أبى ، فالكذب المفترى .
الحب ان نصعد فوق الذرى .
والحب ان نهبط تحت الثرى .
والحب ان نؤثر لذاتنا .
وان نرى الامنا اثرا .

ثم يقول العقاد رأيه النهائى فى معنى الحب :

بنيتى : هذا هو الحب .
فهمته ؟ كلا ! ولا عبت .

لا الناس تدريها ولا الكتب !
حسبك منها لو شفت حسب !
اشارة دق لها القلب !
يقول ابراهيم ناجى :
قدر اراد شقاءنا .
لا انت شئت ولا انا .
عز التلاقى والحظوظ
السود حالت بيننا .
قد كدت اكفر بالهوى .
لو لم اكن بك مؤمنا .
ويقول ابو القاسم الشابى :
قد رقصنا مع الحياة طويلا .
وشدونا مع الشباب سنينا .
وأكلنا التراب حتى مللنا .
وشربنا الدموع حتى روينا .
جف سحر الحب ياقلبى الباكى .
فهيا بنا نجرب الموت هيا !

والشاعر البحترى حائر فى هذا الذى أوجع قلبه واشعل النار فيه ..
فى اربع منك حلت منك اربع .
فما انا ادرى ايها هاج لى كربى .
اوجهك فى عينى ام الريق فى فمى .
ام النطق فى سمعى ام الحب فى قلبى ؟.

أما شاعر العذاب والانبهار الذرى .. او شاعر الانتحار الذى يقتل ويموت .. او الذى يهدمه الحب فيهدم المحبوب ايضا كامل الشناوى فيقول :
انا عمر بلا شباب .
وحياة بلا ربيع .
اشترى الحب بالعذاب .
اشتريه فمن يبيع ؟

ويقول كامل الشناوى :
آه منها .
انا لم ادرك مداها .
آه منى .
هى لم تدرك مدايا .
حطمتنى مثلما حطمتها .
فهى منى وانا منها : شظايا .
ويقول كامل الشناوى :
قد خلت منك حياتى .
وخلت منى حياتك .
ما نراه منك أو منى .
رفاتى ورفاتك .

ولكنهم ليسوا فى سعادة الشاعر الرقيق الواقعى البهاء زهير .. فهو يحب اى احد ، واى وقت .. وهو سعيد فى جميع الاحوال .. انه ليس محبا ، ولكنه عاشق .. فالحب له واحدة ، والعاشق له الف ، والبهاء زهير له الف الف .

يقول :
ايها السائل عنى .
مذهبى فى الحب مذهب .
ليس فى العشق الا .
من يغنى لى واشرب .
فلنفسى انا اطرى .
ولنفسى انا طرب !.

وطبيعى ان يكون رأى طه حسين ان البهاء زهير ليس شاعرا ، لانه رجل سعيد فى العشق ، ولانه لم يشغل نفسه كثيرا بمعنى الحب ولا بمعنى الالم .. انه يرى الجمال فيهواه .. ويرى الجميلات فيجلس عاشقا .. فان غابت جميلة ، جاءت جميلة .. وان خلت كأس ، ملأوا له اخرى .. فهو يجد دائما ما يشربه وما يطربه .

فليس من الذين شغلوا انفسهم بمعانى الكلمات ووضع العلامات بين الالم والعذاب والهوى والهوان ، بين القلب والعقل .. بين التعذيب والعذاب ، بين

عذوبة القبلات وعذاب الزفرات .. انه يشرب ويطرب ، انه يشرب لكى يطرب ، أو انه يطرب ، ولذلك يشرب .. فالكأس فى يده والمرأة فى حضنه ..

أما المعانى وحدودها وسدودها ، فشىء يشغل النقاد من بعده والمؤرخين والفلاسفة ..

ولان الانسان متدين بغريزته فان لم يجد الها اخترع صنما ..

ولأن الشاعر عابد موهبته ، فان لم يجد عذابا اخترعه .. فاذا اخترعه اقام تمثالا عاليا ووضع السيف فى يده ، ثم وضع السيف على عنقه هو ، ونقله من عنقه إلى قلبه .

والشعراء لا يكفرون بأوثانهم ، انهم يجددونها يفرشون الورود حولها ويجعلون للورد شوكا ، ويجعلون للشوك برقا ورعدا .. ويتمرغون من الألم حول اصنامهم ويتمنون لها طول العمر .. ويرون فى العبودية حرية ، وفى الموت حياة ، وفى الفناء وجودا .. فقد خلق الله الشعراء ليتعبدوا ويصلوا . وهم بذلك يقدسون الجمال .. يقدسون صنيعا لله .. صفة من صفات الله .

والشعراء يدورون حول المعانى وينفذون اليها ، وينبهرون ويغمضون عيونهم ليروا ، أو يفتحوا عيونهم لينبهروا فلا يروا .. فللشعراء عيون اخرى .. وهم ينظرون إلى ما ننظر ولكنهم يرون ما لا نرى .

واذا كنا نصف الفلاسفة : بانهم الذين يبحثون عن قطة سوداء فى غرفة مظلمة .. فان الشعراء هم الذين يبحثون عن قطة بيضاء على سطح القمر .. يرونها ان يتخيلوا ذلك .. ونحن نعجب بهم ولا نصدقهم .. او نحن نصدق أغانيهم ، نصدق انها من قلوبهم انها من دمهم .. ولا نعرف لماذا ؟ ولا نسألهم : لماذا العذاب ؟ ولا هم يفكرون فى نهاية العذاب .. اننا نريد موسيقاهم ولوحاتهم الجميلة ، فنحن نريد لهم بقاء العذاب .. لا نريدهم ان يجدوا حلا .. ولا هم يريدون .. ونبقى هكذا نعجب ونتعجب وهم يتعذبون سعداء بانفسهم وبنا .

والشاعر يسأل نفسه : لماذا الألم ؟

ويجيب : لان الحب ألم !

ويتساءل : ولماذا الحب ؟

ويجيب : لانه لابد من الألم !

ويتساءل : هل حياة بلا ألم ؟

ويجيب : انها حياة بلا حب !
ويتساءل : فما هو ؟
ويجيب : انه هو !
ويتساءل : هل قلت انا شيئا ؟
ويجيب : كل شيء ! .
ويتساءل : ومن هو الله ؟ !
ويجيب : هو الله !

* * *

أن أروع صورة للألم والجمال معا تلك الصورة الغريزية التى أودعها الله حيوانا صغيرا ضعيفا .. ولكن الذى يعمله هذا الحيوان هو أعظم نموذج لما يفعله الفنان الشاعر الرسام الموسيقار .

كنت فى اليابان سنة ١٩٥٩ وفى جزيرة ميكو موتو .. وميكو موتو هو الذى ابتدع صناعة اللؤلؤ أو زراعة اللؤلؤ .. فحيوان اللؤلؤ ضعيف رقيق له صدفه .. والصدفة تتفتح كانها قلب انفلق اثنين .. ومن هذا القلب يستخرجون حبات اللؤلؤ .. فكيف صنع هذا الحيوان هذه التحفة الجميلة الناعمة الباهرة .. ان هذا الحيوان يعيش فى المياه الهادئة بالقرب من الشاطىء .. بين القاع والسطح .. أى فى درجة حرارة معتدلة ودرجة ملوحة مائعة .. وبعيدا عن التيارات المائية والأمواج .. وفى هذه العزلة الفنية يصنع حبة اللؤلؤ .. كيف ؟ ان هذا الحيوان يفتح نصفه لتدخل بعض الكائنات المجهرية التى يعيش عليها .. وبعض الماء الذى يتحول إلى أوكسجين .. ولكن هذه الفتحة ليست قادرة تماما على عزل مالا يحتاج من الشوائب أو طفيليات البحر .. ولذلك تتسلل اليه اجسام تؤذى لحمه الرقيق .. وتوجعه .. وهو لا يستطيع ان يستخرج الجسم الموجع .. وانما هو يفرز مادة اللؤلؤ هذه لتعزل الجسم الغريب عن جسمه .. ويظل يفرز اللؤلؤ يوما بعد شهر بعد عام .. حتى تكون هذه اللؤلؤة .. انها اروع دمعة الم .

ان هذا الفنان الموهوب لا يبكى . ولا يتوجع .. وانما هو يشهدنا على مصدر الألم فى أجمل صورة إنه لا يدفع الألم ولا يقوى على ذلك وكان الله سبحانه وتعالى قد جعل الألم ضرورة هذا الابداع .. فكان هذا الحيوان يتعرض لمصادر الألم ، لكى يتألم ، فاذا تألم افرز اجمل دموعه .. وهذه الدمعة يفرزها ويبدعها

هذا الحيوان فى سنوات من العزلة والانطواء والخلوة والتفرغ التام .

فلابد من اللؤلؤ ، ولابد من الاجسام الغريبة ، ولابد من الألم ، ولابد من الخلوة لكى يقول هذا المسكين : آه ـ انها اجمل آه عرفها حيوان !

ولكن الانسان قد استغل اوجاع هذا الحيوان ، كما نستغل نحن اوجاع الشعراء فى الأغانى والاعلانات .. فهذا الرجل ميكوموتو عرف سبب الألم .. ولكنه يستعجل الدموع .. ولذلك فهو الذى وضع جسما مستديرا يؤلم الحيوان ، فبكى حوله عاما بدلا من ثلاثة أعوام .. فبعد عام تفرز مئات الألوف من حيوان اللؤلؤ .. ملايين اللآلىء اقراطا وعقودا وخواتم للنساء فى العالم ..

ثم ان هذا العبقرى اليابانى ميكوموتو قد اختار للاجسام المؤلمة ألوانا وأحجاما ـ اذن استغل ألم هذا الحيوان ، واختصر الوقت الذى يستغرقه فى نظام حياته وقصائده واغانيه ولوحاته .

فكما ان الله خلق هذا الحيوان ليفرز اللؤلؤ ، فقد جعل الآلم ضروريا .. فاذا لم يكن ألم فلا لؤلؤ .

واذا لم يكن ألم فلا قصائد ولا لوحات ولا موسيقى ..

فالشاعر يشترى العذاب لكى يحب ، او يشترى الحب لكى يتعذب ..

إن حيوان اللؤلؤ هذا الفنان المبدع فى بيته الحجرى ، مثل الرهبان فى الصوامع ، والعلماء فى المعامل ، والشعراء فى الابراج .. انهم فى عزلة غارقون يسجلون ويكتبون .. هذا يبحث عن الحقيقة .. وهذا قد وجد الحقيقة .

وهذا يقول : كيف ـ وهم الشعراء !

وهذا يقول : لماذا ـ وهم الفلاسفة .

وهذا يقول : هكذا تماما ـ وهم الرهبان .

ونحن نقول أدام الله عذابهم ، لكى ننعم بعذه الدموع واللوحات والمقطوعات !

★ ★ ★

وفى كل العصور كان الشعراء يصرخون من الألم .. ولكن احدا لا يعرف لهم علاجا ، لانه لا يعرف لهم مرضا .. أو أن مرضاهم هو صحتهم ، وعذابهم هو هناؤهم .. لا هم يعرفون الشفاء ، ولا نحن نريده لهم .. فكأننا نتمنى العذاب ، للذين يسعدوننا ..

وفى الشعر الجاهلى ترى الشعراء يرتادون الصحارى طريقا الى المحبوبة ..

وتعترضهم الوحوش .. ويرون فى هذه الوحوش نماذج لقسوة الزمان عليهم .. انهم ايضا يعيشون فى وحشه ووحشية .. ثم يقابلون الوحوش ويقتلونها .. لعلهم يقتربون من المحبوبة أو من أهلها .. وكثير منهم تخيل انه فعل ، ونحن نصدقه كاذبا ، لاننا لا نسأل ان كان صحيحا ما قال او ما فعل .. وانما نحن مشغولون بما قال وكيف قال .. هو يكذب ونحن نصدقه .. وهو سعيد بعذابه ونحن ايضا .

وكان شعراء العصور الوسطى فى أوربا ينامون على ظهور الخيل ، لعل المحبوبة ترى فيهم شهامة وفروسية وصلابة ، فترضى .. ولكنها لا ترضى .. فليس قلبها فى يدها .. انها هى وقلبها فى يدى أمها ودينها والناس ..

وكان شعراء « الطروبادور » اى الشعراء الفرسان .. شعراء الطرب بلا مقابل وبلا نهاية وبلا ثمن ، ينامون تحت شباك المحبوبة حتى يدفنهم الجليد .. فتتباهى المحبوبة بان شبابا يموت من اجلها ..

وفى رسائل لاكيتان حامية الشعراء والعشاق تقول :

« هل مات احد من اجلك ؟ كم عددهم ؟ هل سالت دماؤهم .. فرأى الناس عذابهم .. أو انهم شربوا دماءهم حتى يموتوا فى صمت .. هل ذهبوا الى قبورهم بارجلهم .. هل حملوا معهم الزهور ونظموا القصيدة واشهدوا عليها كلابهم المخلصة .. ثم دخلوا القبر ووضعوا الزهور على الصدور .. واخرجوا من جيوبهم دودهم ليموتوا به قطعة قطعة .. أن الف دليل عندى يقول : ان الدود اكلهم ولكنه لا يستطيع ان يأكل قلوبهم فقد ظلت تدق من اجلى .. » .

وفى عصور الرومانسية الاوروبية كان « السل » هو موضة الشعراء فالشاعر يسعل وينزف .. ويظل يتعصر نفسه عشقا تماما كما قالت الفتاة سولا ميت فى شعر « نشيد الانشاد » فى التوراة : اننى اموت عشقا ! .

ويوم اصيب الموسيقار شوبان بالسل راح يبصق دما على الأرض .. وعلى البيانو .. فقالت له معشوقته المتوحشة الاديبة جورج صاند : ولكن اصابع البيانو ماتزال شديدة البياض كأسنانك .. اين دمك .. اين حبك .. اين موتك من اجلى ؟! .

ومات من اجلها ، وكثيرون ايضا .. فقد كانت جورج صاند آكلة لحوم الشعراء فى زمانها !.

★ ★ ★

وكما توزعت الحيوانات والنباتات على الأرض فى « بيئات » مختلفة الحرارة والرطوبة والضوء والوديان والجبال والصحارى والغابات والبحيرات ، فكذلك هذا الحيوان العبقرى : الشاعر والرسام والموسيقار .. كل واحد له بيئة .. له جو .. له درجة حرارة ورطوبة .. واستغراق فى الناس او ابتعاد عنهم .. وفى البيئة الخاصة تتولد المعانى .. وكما ان ذكور الطيور هى التى تبنى الاعشاش لتجىء الاناث تضع البيض وترقد عليه حتى يفقس .. فالفنان كذلك .. لابد من العش ، ولابد من الدفء ولابد من الحضانة ولابد من الخوف على البيض والافكار واللوحات ان تنسفها العواطف ، أو تأكلها الوحوش .. فالشاعر يصرخ وكأنه يفقس ، ليلا ونهارا .. فهو لا يعرف متى تكون النهاية .. وهو يبكى فى هذه الدنيا ، انه يعرف الداء ، ولا يدرى الدواء ، ولا نحن ايضا .. فكما ان النجوم تلمع ، والهوا يهب ، والماء ينساب ، فهو يغنى .. كالطير الذبيح يرقص من الألم !.

* * *

وفى التاريخ الانسانى صور مروعة رائعة من آلام المحبين ..

القديس الفرنسى ابيلار احب الراهبة هلويزة .. وحملت منه . فجاء اخوتها وانتزعوا اعضاءه ..

يقول القديس للمحبوبة : بالأمس عندما كنت اسائل نفسى : لماذا حدث ما حدث ؟ لم اجد جوابا . فعدت اسأل نفسى : وكيف حدث ما حدث ؟ ولكنى لم اجد جوابا .. ولم انم حتى وجدت هذا الجواب : لقد خلقنى الله لكى يحرمنى من جنته ومن جنتك انت ايضا .. فقد عرفت الناس فى حياتى معك وبك ، وسوف اعرفها من اجلك بعد الموت .. فما هذا الذى بينى وبينك ؟ لا اعرف .. احاول ان أعرف .. اصارحك : يبدو اننى لن اعرف !.

اما استاذنا الاعظم ارسطو ابو المنطق والعقل والعلم ونور الحضارة الاغريقية الذى بهر الحضارة الغربية كلها فقد كان يحب واحدة اسمها هربيليس . وظل هذا الحب سرا .. ولكن تلامذته عرفوه وكاشفوه .. ثم نصحوه

بعد ذلك .. يقول احد تلامذته ان ارسطو كان يقول لمحبوبته : لن استطيع ان احبك .. فانا مشغول جدا بمعنى الاستطاعة ومدلول الحب .. وماهو الفرق بين الحب والجنس .. بين ارادة قلب وارادة عقل .. ثم اننى لا اعرف معنى رغبتى فى حضنك .. ما معنى الحضن .. ولا اعرف ما هذا الذى يسرى فى شفتى أو من شفتك الا شفتى .. وكيف ينتقل من هنا الى شفتك الى القلب او الى العقل او الى الاحشاء !

ويقال ان المحبوبة قد صفعت ارسطو بكل قوتها !

فقد افسد عليها كل مشاعرها .. وافسد عليها كل المعانى البسيطة القوية التى تهز كيانها كلما رأته .

وهى لم تصفع فيلسوفا وانما صفعت كل الذين يحاولون ان يفسروا ويبرروا ويشرحوا تصنيف الحب وتنظير العشق ـ وهم بذلك يقتلون الحب والمحبين !.

وسقط استاذ اساتذة العقل فى تجربته الوحيدة ـ انه لا يستطيع ان ينسى العقل !.

والفيلسوف العظيم افلاطون ذلك الشاعر الفنان احب واحدة اسمها ارخياناسا .. كانت جميلة نحيفة واسعة العينين طويلة العنق والشعر والساقين ، كان افلاطون يقول لها ، لست فى حاجة الى ان انظر الى السماء ، عيناك سمائى .. ولا فى حاجة ان اتطلع الى الجبال . نهداك جبالى .. ولا ان اشترى بلبلا احبسه فى قفصى ، صوتك جميع البلابل .. يأكل الدنيا برا وبحرا وصواعق ونور العقل ونار القلب .

فكانت حين تذيبها هذه الكلمات ترتمى عليه ، لتجد ذراعيه تعترضانها ويقول : لا تفسدى الجلال والجمال .. لا تلق بنفسك فى الطين .. فالجسد هو الطين ..

وكانت لا تفهم تماما ما يقول ، فيعود افلاطون يؤكد لها : انه مستمتع تماما بما يرى وليس فى حاجة الى مزيد .

وتقول له : وماهو المزيد ؟.

فيقول : قولى انت !.

تقول : انت نصفى وانا نصفك .. فانت المزيد وانا المزيد .. لماذا لا تذوب فى كمال روحينا وجسدينا ..

يسألها : تقولين كمال الجسد وكمال الروح .. الجسد ناقص .. ولكن الروح هى

الكاملة .. والجسد يفسد الروح ، تماما كما تحجب السحب ضوء الشمس وضياء القمر .

تسأله : فكيف ترى نهاية عذابنا ؟

فيسألها : مامعنى هذا العذاب ؟.

تقول : لا اعرف انه العذاب .

ويرد : اعرف ولكن ماهو ؟.

وتقول : فكر انت ثم قل لى بعد ذلك .. هات قبلة !.

ويقول : الا هذه ..

وتسأله : فلماذا هذا ؟

فيقول : تقصدين الحب بيننا ؟

تجيب : نعم .

ويقول : الحب ضرورة والاستسلام له ليس ضرورة !

وانتهت العلاقات الغامضة بينهما .

هى تراه واضحا ، وهو يراها غامضة .. ولذلك يرى ان الحب ليس شعورا اصيلا ، وانما هو شعور مزيف .. مستعار .. يجب ان يوضحه العقل لنفسه ، قبل ان يقدم عليه .

ومات الحب فى عقله وفى قلبها !

اما معشوقه الفيلسوف الفرنسى فولتير فاسمها اميلى .

ولم يكن من السهل ان تحب امرأة هذا الرجل الساخر .. فلا هى تعرف ان كان جادا أو هازلا .. فى احدى رسائله الى محبوبته يقول : عندما نظرت الى صديقاتك ، ايقنت كم انا محظوظ .. فقد اخترت اجملهن واذكاهن .. كما انك اخترت اذكى الرجال وان لم اكن اغناهم واقواهم .. حبيبتى وسيدتى لا توجعى دماغك فى البحث عن معنى الحب .. الحب هو ان اشتاق اليك وان اجدك لاشتاق اليك وان اجدك .. اما اننى فعلت ذلك كثيرا فهذا صحيح .. ماالذى فعله الانسان مرة واحدة فى حياته ؟.. الشىء الوحيد فى حياتنا هو : ان نولد .. وان نموت بعد ذلك .. ولكن كل شىء فى دنيانا يتكرر ، كما تتكرر الثمار فى الشجرة الواحدة وفى الموسم الواحد .. وبعد ذلك فى الاشجار والمواسم .. هل انا خائن ؟ لست خائنا لك .. ولن اكون خائنا بعدك ، اطال الله عمرك .. لان الخائن هو الذى رغم وجودك يتخطاك الى غيرك دون ان يعترف لك بموت حبك فى قلبه ..

ولكن بعدك لا خيانة ، وبعدى لا خيانة .. تسألينني : كيف انام بعمق مع اننى اشتاق اليك ، وانك لا تنامين ولا تأكلين حتى تريني ؟ الاجابة سهلة ياسيدتى الجميلة .. نحن مختلفان .. انا جهاز دقيق معقد يحول كل شيء الى فكرة .. وانت جهاز دقيق معقد يحول كل شيء الى دقة قلب .. انت احسن حالا ياسيدتى الجميلة .. انت تحبين حقا وصدقا .. وانا ايضا .. ولكن الحب الذى اعرفه بالضبط ما معناه كالالم الذى له عمق عندك .. انه اصدق واجمل من معنى الحب عندى ومعنى الالم ايضا ! واخيرا صدقينى ياسيدتى الجميلة اننى تعيس لاننى اعرف معنى الذى اقول .. تعيس عندما احتضنك بذراع واحدة .. واذوب بعين مفتوحة .. واضع عقلى على كتفك .. اننى نصف عاشق .. اما كيف اكون عاشقا تماما . فقد حرمنى الله من هذه النعمة التى غمرك بها .. فكل خلية قلب .. وكل قلب نعمة من عند الله ـ حرمنى منها !

اما الفيلسوف الفرنسى روسو فكان اوضح واصدق . كان يحب فتاة اسمها جوليانا (١٦ سنة) سألته فى يوم : تحبنى !

قال : نعم .

ـ اكثر من أية واحدة فى حياتك ؟

ـ نعم ..

ـ هل لو انتحرت تتعذب .. او تنتحر ؟

ـ انتحر لا .. اتعذب نعم .

ـ ولماذا ؟

ـ سوف اقول لنفسى اننى انا الذى قتلتك . وسوف اندم على اننى فعلت ذلك ..

ـ فقط ؟ هذا كل ما سوف تعمله من اجلى .. ان الذى تقوله لا يستاهل من اى احد ان يموت من اجلك .. اذن فانت ترى حبى لك تافه لا يستحق منك اى شيء !

قال روسو : عندى مشكلة ياصغيرتى اننى سعيد بحبك وسعيد بعذابك .. وان كنت لا اعرف ماهذا الحب ولا هذا الالم .. كاننى استمع الى مطرب يغنى بلغة لا اعرفها .. ولكن صوته وموسيقاه وملامحه كلها تسحرنى وتبهرنى .. فانا سعيد بالذى لا افهمه ولا اريد ان افهمه .. ولا احاول .. فلا تحاولى ان تفسدى الجمال الغامض .. لا تحاولى ان تطردى السحاب من سمائى .. لا تحاولى ان تعيدى شمس الغروب الى السماء .. فالسحاب والظلام والاشباح هى اجمل ما أعطى الله للمحبين !.

آه .. ومعناها
(٤) لمس الحرير يدمي بنانك !

حياتك من أولها لآخرها ليست إلا محاولة مستمرة لأن تتفادى الألم .. وأن تحقق قدرا أكبر من اللذة ..

الراحة .. السعادة ..

الأمان .. دون أن تعرف ما معنى كل هذه الكلمات .

وإذا أنت لم تعرف لها معنى ، فليس بيننا واحد يستطيع أن يدلك على المعنى الدقيق لها ..

فالألم هو أن تفشل ..

والألم هو أن تمشى فى طريق ثم تصطدم بعقبة توقفك .. واللذة هى أن تجد الطريق مفتوحا وتزول العقبات ..

والألم هو أن تزداد ضعفا ..

واللذة أن تتضاعف قوتك ..

والألم أن تلتف القيود حول يديك وساقيك ..

واللذة أن تنكسر السلاسل وتنفك القيود ..

والشر هو ما يضاعف الألم ..

والخير هو ما يضاعف القوة والسلطة والحرية والمال والأولاد ..

ويمكنك ان تقول ـ متشائما ـ ان حياتنا مثل البندول تتأرجح بين الالم والملل .

أو تكون متفائلا فتقول : ان حياتنا تتهادى بين اللذة والسعادة .. فما هو الألم ؟

انه شعور بالوجع .. او هو شعور غير سار .

فما هو السرور ؟ هو شعور باختفاء الوجع .. مثلا : عندما تصطدم يدك فى المكتب بشدة ، فانك تشعر بوجع .. إنه الم خاطف .. وقد تصاب يدك بجرح سطحى ينزف قليلا من الدم .. فما الذى حدث ؟

الذى حدث هو تمزق فى الانسجة . وهذا هو الالم .. او كان الالم هو النتيجة .

فهل تعرف ما الذى حدث ؟

الذى حدث ان يدك ارتطمت بالمكتب .. وانتقل اثر الارتطام من خلاياك العصبية عبر العمود الفقرى الى المخ بسرعة كهربية هائلة .. وأرسل المخ ردا وتفسيرا لما حدث .. اى ان هناك لحظة او جزءا على الف من اللحظة انت لا تعرف بالضبط ماذا حدث .. ولكن الرسالة التى بعثت بها الاعصاب الى المخ .. رسالة غامضة مشوشة غير مفهومة .. ولكن المخ هو الذى قرر لك هذا الحادث .. وعرفه وقام بتوصيفه .. وتحديد مكانه .. وطبيعته .. فكان معنى رسالة المخ : ان يدك ارتطمت بالمكتب .. كان ذلك عن غير تعمد منك .. وان هذه الخبطة موجعة .. وان الوجع قد اصاب سطح الجلد وعظم الجلد .. وان هذا الالم لن يطول .. لان الخبطة لم تكن قوية ..

او بعبارة اخرى . حدث اصطدام بين اليد والمكتب .. هذا الاصطدام لم تشعر به لمدة واحد على الف او مائة الف من الثانية .. ولكن شعرت به بعد ان جاءك التفسير من المخ عن طريق العمود الفقرى .. واصابعك هذه عندها القدرة على الاحساس باللمس .. اى بمعرفة الأشياء خشنة .. ناعمة .. صلبة لينة .. ساخنة او باردة ..

ولكن لم يتفق العلماء والفلاسفة فى كل العصور على معانى هذه الكلمات الالم .. الوجع .. النفخ (بالخاء وليس الحاء).. العذاب .. الصداع .. الضيق .. الانقباض .. القرف .. القلق ..

وكما ان هناك الما سطحيا ، فهناك الم داخلى .. على شكل تقلصات .. وقد تؤدى هذه التقلصات الى ظهور الالم فى اماكن مختلفة من الجسم .. بل انه من الممكن تقطيع امعاء اى مريض دون ان يشعر بألم .. ولكن فجأة يتحسس المريض وجعا او نفخا فى مكان آخر ..

اذكر اننى اتصلت بالاستاذ العقاد انقل اليه بالتليفون وفاة صديقه الشاعر عبدالرحمن شكرى فى الاسكندرية .. وكان الشاعر قد اختفى اكثر من عشر سنوات حتى ظن الناس انه مات ـ وظن العقاد ايضا . ولم يكد العقاد يسمع النبأ حتى طلب منى ان انتظره لحظة .. ثم راح يملى ابياتا من شعر عبدالرحمن شكرى وصفا لحاله وكيف توقع وفاته ..

وسألت الاستاذ العقاد عن سبب سكوته بعض الوقت . فقال انه شعر بوجع فى جانب من العنق .. ثم قال ان هذه هى المرة الثانية فى سنوات قليلة .. اما المرة

الاولى فكانت عند سماعه نبأ اغتيال النقراشى باشا رئيس الوزراء ..
وفى اليوم التالى سألت الاستاذ العقاد .. فكان .. تفسيره : لا اعرف السبب تماما .. ولكن لا استبعد ان يكون تقلصا فى الأمعاء أو المصران الغليظ ..
وادهشنى هذا التفسير فسألت د . انور المفتى فقال : ان تفسير العقاد صحيح مائة فى المائة ، وأؤكد لك ان كثيرا من الأطباء لا يعرفون ذلك !
والشعور بالألم نبهنا الى وجود شىء فيه خطورة علينا ..
والذى لا يشعر بالألم مطلقا ، فاننا لا نعرف كيف نتفاهم معه او مع جسمه .. ولا نعرف كيف علاجه اذا مرض ..
وأول مظاهر الشفاء عند المريض بعد عملية جراحية مثلا ان يتألم هنا فقط يعرف الطبيب كيف واين يعالجه ..
ففى عالم الحيوان مثلا نحن نعرف ماالذى يوجع الحيوان او يضايقه عندما نتصور ما الذى يمكن ان نفعله نحن اذا ما حدث لنا ما اصاب الحيوان . فالحيوان لا يقول : آه .. ولا يعرف مصدر الألم .. ولكننا نعرف ان احدا اذا وخزنا بدبوس نقول : آه .. وعلى ذلك فاذا وخزنا الحيوان فانه يتألم وان لم يقل .. آه .. وانما نجد الحيوان يحاول ان يتفادى الدبوس .. او يتفادانا .. او يسلك سلوكا متباعدا .. وكذلك الاطفال .. وان كان الطفل اقدر على التعبير بالبكاء .. واذا دخلت شوكة رجل قرد فانه يظل يصرخ حتى تجتمع حوله القبيلة ويساعدوه على اخراج الشوكة من قدمه .. فالصراخ من الالم قد نبه القرود حوله فساعدوه على نزعها من قدمه . فلولا هذا الشعور بالألم ، ما انقذوه ..
ولايزال من احلام الطب وعلم النفس مساعدة الانسان على التغلب على الالم أو تخفيفه أو القضاء عليه ..
ولذلك كانت تجارب الاطباء فى اعطاء المريض عقاقير مهدئة او مسكنة أو مخدرة أو قاتلة للألم ..
وهذه المسكنات تقوم بسد قنوات الاحساس بالالم .. فلا تنقل الوجع الى المخ .. ومعنى ذلك ان هذه القنوات تتلقى الاحساس بالالم .. ولكنها لا تنقله الى المخ .. او انها تنقله الى المخ ولكن المخ لا يستطيع ان يعيد توصيفه للألم .. فقد اصيبت المراكز المخية بهذه المخدرات .. وهذه العقاقير ضرورية قبل العمليات الجراحية .. حتى لا يشعر المريض بالالم ، وحتى يتمكن الطبيب من اجراء العملية دون مقاومة او ردود فعل من المريض .. وبعد العمليات الجراحية لابد

من تخدير المريض حتى لا يشعر بالألم .. وان كان الطبيب حريصا على ان يشعر المريض بالألم .. ببعض الالم ليعرف مسار الدواء .. ومدى التئام الجروح - وليس الالم ضروريا فى هذه المرحلة من العلاج .. لان تخفيف الالم يرفع معنويات المريض .. ورفع معنويات المريض يساعد على الشفاء ..

وهناك بعض العقاقير تؤدى الى تنشيط الجسم نفسه على افراز مواد مخدرة تساعد على تسكين الالم .. وبعض المخدرات الداخلية بفرزها الجسم عقب الاصابة بالالم مباشرة .. ولذلك كثير من الجنود فى الحرب لا يشعرون بما اصابهم الا بعد ساعات من الاصابة .. وكذلك الذى تقع لهم حوادث فلا يشعر بذراعيه او ساقيه او رأسه الا بعد ساعات من الاصابة لماذا ؟ لان الجسم قد أفرز مواد مخدرة جعلت الالم يسكن بعض الوقت ..

ومؤرخو الطب يذكرون حادثة شهيرة للموسيقار روسينى .. فقد كان مطلوبا منه ان يكتب أوبرا فى عشرين يوما .. وكانت اوبرا « حلاق اشبيليه » فاعتكف فى البيت امام البيانو يعزف ويكتب وما يكتبه ينقله اخرون ويوزعونه على العازفين فى غرفة بعيدة .. وهناك مؤلف يكتب الاغانى .. وقد وجد الموسيقار صعوبة فى تأليف هذه الاوبرا فراح يقلب فى مؤلفاته السابقة ويستوحى منها شيئا جديدا .. ثم يلتقط عبارة من هنا وعبارة من هناك - تماما كما كان الاستاذ توفيق الحكيم يفعل ويقلب فى كتاباته القديمة يستوحى منها الجو العام والايقاع السريع لعباراته . واكتملت الاوبرا بعد عشرين يوما .. وفى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨١٦ جلس الموسيقار امام البيانو بين الفرقة الموسيقية يواجه الصفافير والدبدبة على الارض بين المشاهدين الذين شعروا بخيبة الامل ،

فقد كانت اوبرا فاشلة تماما ، ولكن الموسيقار كان مستغرقا فى العزف . ولم يتوقف الا عند النهاية ..

وعندما عاد الى البيت وجد الدم ينزف من ذراعه اليمنى .. ولم يجد تفسيرا لذلك .. ولم يشعر بأى ألم . ولما تأمل ملابسه اكتشف ان فى جيبه سكينا . ولم يعرف من الذى وضع السكين فى جيبه . ثم وجد على السكين اثر الدماء .

وعرفنا فيما بعد ان صديقة له عندما سمعت موسيقاه ادركت انه فشل فشلا ما بعده فشل .. وانه اكرم له ان يموت بيده فى اليوم الاول لعرض هذه الاوبرا .

وبعد ثلاث سنوات ظهرت هذه الاوبرا مع عظيم التصفيق والتهليل فى كل العواصم الاوروبية والامريكية .

اما تفسير الذى حدث هو ان الموسيقار لم يشعر بالالم ، لان جسمه قد افرز « اندورفين » - اى مخدر داخلى جعله لا يشعر بهذا الالم والنزيف ساعات طويلة !

وهناك مشكلة مع الالم .. فعندما نتعاطى مسكنا او مخدرا ، فاننا نعتاد عليه .. ومادمنا قد اعتدنا عليه .. فان الكمية التى نتعاطاها تصبح قليلة الاثر ولذلك لابد من مضاعفتها . وقد تؤدى المضاعفة الى مزيد من ذلك .. حتى يصبح تعاطى المسكنات ادمانا . اى كاننا خرجنا من الم بادمان ما يقضى على الالم - اى بمرض جديد ..

ولذلك ابتدع الكيميائيون عقاقير اسمها « قاتلة الالم » - تقتل الالم وتموت معه .. ولا تترك رغبة عميقة فى ضرورة استخدامها وتعاطيها حتى بعد زوال الالم ..

وهناك نوع من الألم اسمه الالم المزمن . اى الالم الذى يبقى دون ان يكون له علاج .

وقد اختلف العلماء فى تفسيره وتشخيصه وحتى الآن لم يجدوا له علاجا ..

انه الم هناك - اى فى مكان ما ولسبب ما .. يحسه المريض ولا يعرف اين .. ولذلك يحتار الطبيب والكيميائى وعالم النفس ، ويحنون رؤوسهم ويخرجون ويظل المريض يقول : آه - ولا علاج !

وليس الالم المزمن هو الالم الحاد .. فهناك آلام حادة من الممكن ان تزول . اى انها حادة بعض الوقت . اما الالم المزمن فمن الممكن ان يكون حادا ، ولا يزول ..

★ ★ ★

واحساس الناس بالالم مختلف .. وسبب هذا الاختلاف عادات الناس أو ثقافتهم .. فمن الممكن ان تجد فلاحا فى الحقل ينزع شكوة من قدمه ويمضى يعمل فى الطين .. بينما لو دخلت الشوكة هذه قدم واحد من ابناء المدن فانه يصرخ ، وقد يغمى عليه لمجرد ان رأى الشوكة .. ولأن لديه معلومات عن التلوث والسموم ، فانه يفرغ مما يتصور انه سوف يصاب به ..

والشوكة واحدة . ولكن الاحساس بها مختلف .. وكنا نرى فى الريف جماعة يسمون أنفسهم « الرفاعية » أى اتباع سيدى الرفاعى .. وكان الواحد منهم يضع المسمار فى جانب من الفم لينفذ إلى الجانب الآخر .. فلا تنزل قطرة من

الدم .. أو ينامون على المسامير .. أو يمشون على النار .. وكنا نصرخ لمجرد أن نرى ذلك ، بينما هم لا يشعرون بادنى الم .. أو يشعرون ولكن لديهم القدرة على التحكم فى هذا الشعور .

ونحن أبناء البحر الأبيض نبالغ فى مظاهر الألم والتعبير عنه .. بينما ابناء البلاد الباردة يقتصدون فى ذلك .. أو يتجاهلونه ، وإذا أحسوا لا يبالغون كما نفعل .

ويقال أن الامبراطور الرومانى نيرون عندما احتفل بالقضاء على خصومه فأطلق عليهم الأسود تنهشهم والناس يصرخون . فالتفت إلى جاره وكان من الجرمان يسأله ان كان يتابع ما حدث . فاعتذر له بانه لا يجد متعة فى ذلك .. فاندهش الامبراطور ليسأله : كيف ؟

فقال : كنت أتوقع شيئا مختلفا .. كان يقاوم الرجال الأسود ويتغلبوا عليها ! أى أن الذى يراه « بايخ » لم يجد فيه متعة . ولا تألم لما أصاب الرجال .. بينما الناس حوله وأمامه قد مزقهم الألم والصراخ والبكاء والعويل والسعادة !

والقبائل البدائية قد اهتدت بغريزتها أو بحكمتها القديمة إلى علاج للألم . فالمريض يضعونه وسط حلقة من الذين يدقون الطبول ويصرخون .. وبعد ساعة من الدوى والصراخ يكون المريض قد فقد الاحساس بما حوله . هنا فقط يتقدم حكيم القبيلة بعلاج المريض .

فكان الطبول المدوية نوع من التخدير أو التسكين . وبعدها يتحمل المريض بتر ساقه أو ذراعه أو العقاقير شديدة المرارة .

ومن حكم الشعوب البدائية أيضا : أن المريض يأتون له بأهله .. أولاده وزوجاته ويضربونهم .. حتى يصرخوا ويبكوا وينهاروا .. مما يضاعف ألم المريض وعذابه .. وهنا يتقدم حكيم القبيلة بعلاج المريض .. أى بعد أن أصبح حزنه عاما والمه شاملا .. فانه فى هذه الحالة يتحمل أى نوع من أنواع الألم . لأنه سوف يكون أقل فى الدرجة والشدة والحدة من الألم النفسى الذى أصابه !

أو انهم يتعاطون جميعا مواد تبعث على الضحك .. ويضحكون ويتساقطون والمريض هو الآخر يضحك .. ويظل يضحك وهو لا يدرى بما يفعله حكيم القبيلة فى ذراعه أو ساقه .. ولا يدرى أيضا بالعقاقير التى يصبها فى حلقه ! .

ويقال أن الاسكندر الاكبر عندما أصابته الحمى فى الهند ، جاء حكماء الهنود يعالجونه .. فأبعدوا عنه عشيقته الهندية وعشيقته اليونانية .. ثم أخلوا

الخيمة التى كان يقيم فيها من كل الحراس .. وأبعدوهم تماما .. ثم طلبوا منه أن ينزع ملابسه . وأن يقف عريان وهو يرتعش غارقا فى عرقه .. وطلبوا اليه أن يشرب الخمر .. وأن يشرب .. وفجأة وجد الاسكندر الأكبر أن عددا من حواة الهند قد أحاطوا به .. وان كل واحد قد أخرج ثعبانا من جراب معه .. وأن ثعابين الكوبرا قد وقفت تطل برؤوسها وتقترب وتبتعد من الاسكندر وهو فى حالة من الرعب .. وكلما حاول جنوده أن ينقذوه حذرهم السحرة الهنود .. وفجأة جاء من ورائه حكيم هندى وكواه بالنار فى ظهره !

أما تفسير ذلك فهو ان الاسكندر اتجه بكل مشاعره ناحية الثعابين ، فلما جاء الحكيم وكواه بالنار اتجهت كل مشاعره الى موقع النار ولم يعد يشعر بالثعابين .. فهذا التأرجح الحاد بين النار والثعابين قد قضى على الحمى - وذهبت عنه الحمى !

وقد رأيت فى سنة ١٩٥٩ فى جزيرة « بالى » باندونيسيا .. كيف أن طبيب القبيلة يخلع أسنان بعض الشبان .. انه يظل يضرب الشاب حتى يفقد الوعى من ألم الضرب .. وهنا يخلع أسنانه واحدة واحدة .. فاذا فرغ منها تماما راح يلقى الماء البارد على المريض الذى يفيق .. ويصحو ثم يصرخ من الألم .. وهنا يقدم له الطبيب مشروبا مخدرا يجعله يواصل النوم حتى الصباح !

أن الضرب يجعل الألم عاما ، ليختفى هذا الألم الخاص بالأسنان !

×××

ويقول الأطباء ان الاشفاق على بعض المرضى - بعض المتألمين - يجعلهم يستعذبون الألم - أى يجدون الألم عذبا .. يجدون لذة وسعادة فى أن يتألموا ، مادام ذلك يثير عطف الناس واهتمامهم .. وهذا واضح عند الأطفال ..

فالطفل الذى كلما بكى وجد أمه تسارع اليه .. هذا الطفل قد عرف كيف يوقظ أمه من عز النوم ليجد أمانا ولذة عندما تحمله بين ذراعيها .. والذى يفعله الطفل الصغير بغريزته ، يفعله الكبار أيضا بالعقل ..

فبعض الذين يشكون من الألم ، ويجدون الناس حولهم ، ينسون الألم ولايذكرون إلا هذا الاهتمام العائلى .. ولذلك فهم يتعاطون مسكنات الألم ، دون أن يكون هناك ألم .. وانما استعطاف للناس .. واثارة للشفقة .. وكثيرا ما تسمع من يقول : آه عمال على بطال ..

وتسأله ما الذى عندك . فيقول : لا أعرف ولكن تعبان .. أريد أن أنام .. لا

أعرف كيف أنام .. انه الأكل .. انه الشرب .. انه شيء فى داخلى لا أعرف ما هو .. قرفان .. مقريف ..

ـ لا .. سلامتك .. ألف سلامة لك ..

وهذه السلامة وتمنى السلام ليلا ونهارا ومن كثير من الناس ، هذا الضبط ما يريد .. ولذلك فهو لا يحب أن يشفى من المرض . وهو يتعاطى المهدئات والعقاقير دون أن يكون هناك أى سبب . لأن السبب هو : الاستمتاع بعطف الناس ووجع قلوبهم عليه !

ولذلك ينصح الأطباء بالالتفات الى هذا المعنى : هل المريض أو المتألم يجد لذة فى العذاب .. فان كان يجد هذه اللذة فلابد أن نتعاون على تقليل الاهتمام به .. حتى لا يشعر بأن اهتمامنا هو مكافأة له على ادعاء المرض ، والتظاهر بالألم !

ومن الممكن أن يؤدى هذا التظاهر بالألم ، الى مرض نفسى أو عضوى !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تتمارضوا فتمرضوا فتموتوا !

* * *

ولن ينتهى حزن الناس على جميلة جميلات الشاشة : مارلين مونرو .. لقد ظهرت كتب كثيرة عن أسباب انتحارها .. منها : ان المخابرات الأمريكية قتلتها .. لما راحت تحكى للناس ما الذى كان يقوله الرئيس كنيدى وهو سكران بين أحضانها ..

ويقال عصابات المافيا هى التى قتلتها وقتلت كيندى أيضا !

أما زوجها الأديب أرثر ميلر فيقول ان مشكلتها انها فتاة بسيطة ساذجة وانها تصدق كل ما يقال لها .. وقيل لها الكثير المتناقض فى الحياة والسياسة . وانها لم تستطع أن تتحمل كل ذلك فانتحرت ..

وفى مسرحية « بعد السقوط » لأرثر ميلر يقول أن مشكلتها أن لديها شعورا بالامتنان لكل الذين ساعدوها . وعلى الرغم من أنها ساعدت كل الذين قدموا لها خدمة .. وانها ردت لهم ذلك ألوف المرات ، فان شعورها بالامتنان لم ينته . فقد اعطتهم من مالها ووقتها ومن جسمها أيضا .. وانه لم يفلح فى اقناعها بأنها سددت ديونها وزيادة .. ولكنها أحست دائما كأنها مدينة وانها عاجزة عن الوفاء بهذه الديون فهربت من الدائنين ـ فانتحرت وماتت !

ولكن أحد أطبائها اهتدى الى التفسير الحقيقى لانتحارها . يقول : ان الدنيا

كلها انقلبت تسأل عنها .. أغنى الأغنياء .. ونجوم السينما والمسرح والصحافة والأدب والمال .. وجاءتها الورود من أركان الدنيا .. ومع الورود الدعوات والهدايا .. وتسجيلات للصلوات من أجل شفائها .. وان مارلين مونرو أحست وهى مريضة أنها حرة لأول مرة فلا مخرج ولا منتج .. ولا مواعيد للتصوير .. ولا نظام للأكل والنوم والشرب والوقوف أمام الكاميرات والصحفيين .. انها حرة تماما .. وانها سعيدة بحب الناس لها واشفاقهم عليها .. وقد أدى هذا الشعور بالاشفاق عليها الى أن تظل مريضة .. فامتنعت عن تعاطى المهدئات والعقاقير .. ولما زاد الألم والوجع فى أماكن مختلفة من جسمها وطالت وحدتها وقرفها وتعاستها اتخذت الخطوة المتوقعة فاسكتت الألم ، بالقضاء على الشعور بالألم .. بالموت !

* * *

وفى الشرق الأقصى وبعض الدول الأوربية والأمريكية انتشرت « عيادات الألم » ـ أى ازالة الألم . ومعظم هذه العيادات تستخدم الوخز بالابر .. وليس من الضرورى أن يكون الجالس فى العيادة طبيبا .. وانما هو طبيب شعبى .. أى عنده خريطة لمراكز الألم فى الجسم الانسانى . فاذا جاء الشاكى يقول له : عندى ألم هنا !

فينظر الطبيب الى الخريطة ويطلب اليه أن يجلس وأن يكشف ذراعه أو ظهره ويخزه بالابر فى مراكز الألم .. فلا يكاد يخزه مرة ويهز يده عشرات المرات وبسرعة .. أو يستخدم الابرة الكهربائية التى تهتز بسرعة هائلة .. ثم يدخل الابر فى مراكز أخرى ، حتى يذهب الألم .. ويستأنف الشاكى حياته العادية ..

وهكذا يذهب الألم دون حقن أو مسكنات تشعل النار فى جدران المعدة .. أو تؤدى الى كسل الأمعاء .. أو الخمول العام !

أو يستخدم البندول .. وذلك بأن يجلس الشاكى ثم يجىء الحكيم الشعبى ويهز البندول فوق دماغه أو فوق مكان الألم .. فيعرف من حركة البندول المنتظمة أو التى تبطىء أو تسرع عند مكان الاصابة أو الوجع .. فيكون العلاج استمرار هز البندول حتى تصبح اهتزازات البندول متوازنة . فماذا حدث ؟ هذه قصة أخرى ..

ولكن النتيجة أن الشاكى قد ذهب عنه الألم ..

أو يجلس الشاكى ويتقدم الطبيب يسأل عن أماكن الألم .. وهنا تمتد يد

الطبيب وتضع قطعة من المغناطيس ويلصقها بمشمع .. ويؤدى المغناطيس الى تخفيف الألم وذهابه تماما .. هل هذا علاج ؟ أو أنه تسكين للألم ؟ انه الاثنان معا . وقد عرفنا فى مصر محاولات د . بارون ومساعديه وذلك باستخدام المغناطيس لعلاج آلام الصداع والروماتيزم .. وأوجاع العمود الفقرى والصداع النصفى . وذلك باستخدام المغناطيس فى أماكن معروفة من الرأس والعنق والذراعين والساقين ..

ويؤكد د . بارون ومساعدوه أن الفراعنه قد عرفوا هذا العلاج واستخدموه . وأكدوا نجاحه التام . ولكن كتب الطب الفرعونى لم تسعفنا بتفاصيل عن هذا الذى حدث وكيف حدث ومتى بدأ وانتهى العلاج بالمغناطيس ..

وقد تطور حجم وشكل المغناطيس .. فقد كان كتلا من البلاستيك ومن الجلد المغنط .. ثم تحول الى حجم رأس عود الكبريت من الذهب والبلاتين المغنط ..

وعيادات الألم فى أوربا وأمريكا جعلت تخفيف الألم من اختصاص طبيب التخدير أو طبيب الأشعة أو الممارس العام .. وفى نفس الوقت لابد من مساعدة الطبيب النفسى . فالانسان ليس جسما فقط بل هو جسم + نفس + علاقات اجتماعية + ثقافة ..

أى لابد من فهم المريض والتفاهم معه ، ولابد من مساعدة المريض للطبيب .. ولابد من « ارادة » الشفاء عند المريض .. أى أن « ارادة العلاج » عند الطبيب تكملها « ارادة الشفاء » عند المريض .. وهذا العلاج يحتاج الى وقت أطول .. فكثير من الآلام الجسمية لها أسباب نفسية أو اجتماعية .. والألم الجسمى هو التعبير الظاهر عن ألم ليس ظاهرا !

ربما كان طبيب العيون الثورى الفرنسى جان بول مارا (١٧٤٣ ـ ١٧٩٣) أول من التفت الى هذا النوع من العلاج ولأسباب غير واضحة .. فكان يشكو من مرض جلدى .. وقد أثبت المؤرخون انه لم يكن مرضا جلديا ، وانما هو نوع من الحساسية الشديدة ولأسباب نفسية . ولذلك كان يجلس معظم الوقت فى البانيو البارد .. وكان الأطباء يصفونه بأن أعصابه « عريانة » .. أعصابه بلا غطاء .. فكأنها اسلاك كهربية فلا يكاد يلمس شيئا حتى يشعر بأنه تكهرب .. ولما جاءت الفتاة شارلوت كورداى لاغتياله وجدته هكذا يأكل ويشرب ويكتب فى البانيو .. اندهشت عندما راحت تتحسس جسمه .. فكأن يصرخ . وقال لها : ابعدى .. ان أصابعك تؤلمنى !

قالت : لم أكن أعرف .. اذن هذه السكين سوف تقضى على كل وجع !
وطعنته فى ظهره .. ومات !
واكتشف المؤرخون انه كان يستخدم حجرا مغناطيسيا ويطلب من خادمته أن يمر به على كل جسمه .. ويقال : انه كان يستريح الى ذلك !
ومارا هذا ينطبق عليه ما قاله الشاعر القديم فى وصف رقة المحبوبة :
لمس الحرير يدمى بنانه !
وكان الحرير يدمى جسم جان بول مارا .. لا بسبب الرقة الشديدة ، ولكن بسبب الاحساس المرضى الزائد لأى شىء !
.... وللألم بقية !

آه.. ومعناها
(٥) نهاية الثلاثي الملعون

فى سنة ١٩١٩ ذهب الموسيقار البولندى رئيس الوزراء بادروفسكى متنكرا إلى طبيب . سأله الطبيب : مالك ؟ قال له : أجلسنى أولا على كرسى طويل وهات لى كوبا من النبيذ وسيجارا واتركنى بعض الوقت لكى أتذكر بالضبط ما الذى أوجعنى طوال هذا الشهر ..

وعاد إليه الطبيب ليسمع منه : أشكرك ياولدى فقد شعرت بالأمان عندك ونمت .. وهذا ما لم يحدث فى حياتى كلها .. ولكنه شىء ما فى هذه العيادة وأشياء أخرى فى عينيك ثم هى رغبتى فى أن اجد مكانا واحدا آمنا ، وانسانا واحدا أمينا .

قال الموسيقار بادروفسكى : أنا سأقول لك وأنت تفهم وتشخص الداء .. هنا فى دماغى شواكيش .. هنا فى كتفى خوابير .. هنا فى بطنى سكاكين .. هنا فى معدتى ماء نار .. هنا فى قلبى محاولات مستمرة لايقافه .. هنا فى حلقى حبال لا أراها تحاول خنقى .. هنا فى قدمى مسامير .. هنا فى أصابعى واحد يلعب بالنار .. هنا فى عينى حرقان .. هل فهمت ياولدى ؟ !

وكان الطبيب مشغولا يكتب على ذلك ..

ولكن الموسيقار تذكر ما دار بينه وبين السياسى الفرنسى كلمنصو عندما كان يتجولان فى قاعة المرايا بقصر فرساى قبل توقيع اتفاقية السلام بعد الحرب العالمية الأولى .. قال له : كنت موسيقارا تؤلف الأوبرا والسيموفنية والكونشرتو .. ورضيت أن تكون رئيس وزراء .. الله جعلك موسيقارا والشعب جعلك رئيسا للوزراء . والشعب يقتل الكثير من أبطاله ، ولكن الله يهب الخلود كل أبطاله ؟! فما هذا الانحطاط ؟!

وعندما نظر رئيس الوزراء إلى الطبيب وجده حائرا معذبا ، كان كل هذه الأوجاع قد انتقلت إليه ..

ودار الطبيب حول رئيس الوزراء يضغط هنا وهناك .. ويقلب عينيه فى كل مكان ويتحسس بأصابعه كل عضلة وعصب وغدة .. ويدق على ظهره ويسمع ، وعلى صدره وسمع .. ويشد شفتيه وأنفه وعينيه .. وجلس الطبيب ليقول للمريض العظيم : سيدى دواؤك ليس عندى . لأن داءك ليس عندى .. والذى

قلته لا تنشره كتب الطب ، وانما صفحات الأدب والفن .. سيدى علاجك أن تعود إلى شيء كنت تعمله .. ان تعود الى بيت قديم كنت تعيش فيه .. الى عشيقة كنت تحبها .. أنت تشكو سيدى من مرض تغيير المكان ورفيق الفراش .. عد إلى ما كنت عليه ياسيدى !

وعاد الموسيقار بادروفسكى إلى البيانو .. وراح يتنقل بين العواصم الاوربية .. ثم سافر إلى أمريكا .. ولكن المتعهدين وشركات التأمين رفضت ان تساعده لانها مغامرة ليست محسوبة .. ولكنه اعتزم ان يتخلى عن البطل الشعبى ويكون البطل الالهى .. وكسب مليونا من الدولارات .

فقال أحد النقاد : يجب ان يصبح الانسان رئيسا للوزراء ويستقبل ليكون عازفا على البيانو ليكسب مليونا من الدولارات !

غلط ! فليس ذلك فى استطاعة أى رئيس للوزراء وإنما يجب أن يكون موهبة عظيمة ليكون موسيقارا أولا ، ومؤمنا بقدراته الفذة ثانيا ، ويختار الوقت المناسب ثالثا .. فيكسب بعد ذلك ما يريد !

أما الذى قاله الموسيقار فى وصف حالته الجسمية والنفسية فهو بالضبط ما يواجه الأطباء عندما يعالجون المرضى : انهم أمام اناس يعبرون « عاطفيا » عن أوجاع جسمية .. وكل هذه الكلمات التى استخدمها الموسيقار هى بالضبط ما يقوله كل الناس . ولا يعرف الطبيب مدلول هذه الكلمات ولا يدرى ما الذى يفعله امام الشعور بالارهاق أو الخوف من المرض أو الخوف من الاصابة بالمرض .. ولا معنى الانين .. ولا معنى الآه والآواه وياويلى .. ويامصيبتى .. ولا معانى الفشل والاحباط .. ولا الغضب ولا السخط ولا التمرد على المرض والمريض والطبيب .

ولذلك فكل العلوم « الانسانية » أى التى اتخذت موضوعها الانسان نفسه ، علوم غير دقيقة .. لأن الانسان غير قادر على أن يكون دقيقا واضحا فى مشاعره فكل هذه العبارات ليست فى وضوح : ٢ + ٢ = ٤ ولا فى وضوح المعادلة التى اكتشفها انشتين ليفجر بها القنبلة الذرية : الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء ..

فالطب وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال ، كلها ليست علوما .. ولكنها مثل العلوم أو تحاول ان تكون كذلك .

فنحن ندور حول هذه المعانى ونقترب منها ، ولكنها لا نراها بوضوح .. ولا

نحسبها ولا نقيسها .. فكل هذه مشاعر هى بالتقريب .. وهذه علوم بالتقريب ، وليست علوما فى دقة الرياضيات والفيزياء والكيمياء ..

والألم المرحلى هو الذى تشعر به بعض الوقت . ثم تنساه .. أو الذى تنساه رغم حدوثه لانك تتوقعه .. فالذى يعمل فى احدى الحدائق يتوقع وخز شوك الورد .. فإذا وخزه الورد عشرات المرات ، فانه لا يشعر به رغم ان دما قد سال من يديه وذراعه .. والذى يعمل فى خلايا النحل يتوقع أن يلدغه النحل .. ويحدث ، ولكنه بسرعة يمد يده إلى مكان اللدغ ويخرج ما تركه النحل فى جسمه .. بل أن المصابين بالروماتزم يتعرون امام النحل ليلدغهم ، فسم النحل علاج للروماتزم .. وكذلك سم العقرب والعناكب ، فهو يريد هذا اللسع ، وهذه الارادة تجعل الشعور به عابرا ..

وكذلك فى العنف الجنسى .. فالرجل يضرب المرأة ، وهى تريد ذلك .. وتتوجع وفى نفس الوقت تجد هذه المتعة .. وهو ايضا يتوجع لحظة ، ثم يستريح إلى ما حدث .. وبعض الرجال ، وبعض النساء .. يجدون الراحة فى الضرب بالكرباج أو الكى بالنار ..

والعشاق فى الحب فى حالة من الألم المستمر .. يتعذب العاشق ان رأى المحبوب ، ويتعذب ان لم يره .. ويتعذب شوقا اليه ، ويتعذب خوفا عليه .. وخوفا من العيون والآذان .. ولو قال له طبيب نفسى : ياأخى لماذا لا ترح نفسك وتبعد عن وجع القلب !

والطبيب الذى يقول ذلك لا يعرف العشق .. ولا يعرف كيف انه ملتقى السعادة والتعاسة .. اللذة والألم ، الراحة والأرق ، الكرامة والهوان .. وقديما قال الشاعر العربى :

وما فى الارض اشقى من محب
وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل وقت
مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى ان نأوا شوقا اليهم
ويبكى ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى
وتسخن عينه عند التلاقى !

والعشق مثال الآلام المزمنة .. التى تطول وتتضاعف ولا علاج لها .. اما لأنه لا علاج لهذا المرض ، واما لاننا لا نريد العلاج .

ولا يزال الشعراء والأدباء والفنانون أقدر على « تصوير » الألم والتعبير عنه .. وان كانوا أقل دقة وتحديدا ..

وكثير من العلوم قد اهتدى إليها الأدباء والفنانون بقدرتهم الفريدة على الحس والتعمق والخيال ..

فعلم نفس الجريمة مثلا قد استطاع الأديب الروسى دستوفيسكى أن يضع كل مفرداته وكل معانيه .. وكان أسبق علماء القرن التاسع عشر فى توصيف علم الجريمة .. وعلم النفس الجنائى ..

والقانون الجنائى .. وهو لم يقصد ذلك .. وكثير من علوم الفضاء والرحلات بين الكواكب قد اهتدى إليه أدباء من مثل الأديب الفرنسى جيل فرن قبل أن يتشجع العلماء وينظروا إلى الكواكب ، وان يبحثوا عن وسائل للوصول اليها ..

والناس عندما يعبرون عن آلامهم فانهم أدباء وفنانون بعض الوقت .. ولا يجدون القدرة على التعبير إلا إذا استعاروا بعض عبارات وأبيات الأدباء .. وبذلك يضاعفون الغموض الجميل أو الغموض الفنى لأوجاعهم ، ليزداد الأطباء حيرة فى تحديدها وتوصيفها ، وعلاجها ان أمكن !

★ ★ ★

والتعاطف من الممكن ان يؤدى إلى الألم ايضا ..

فالطفل مثلا يجرح أصبعه .. وينظر إلى عينى أمه .. فإذا رأى الخوف والقلق عليه راح يبكى .. فهو لم يعرف بالضبط ما الذى حدث له ولا خطورة الذى أصابه ، ولا الضرر الذى سوف يصيبه .. ولكن الفزع فى عينى أمه ، هو الذى أبكاه وأوجعه أيضا !

وفى القبائل البدائية تجد ان الزوجة عندما تعانى من الوحم وآلام الحمل والولادة . فان زوجها يعانى من نفس الأعراض .. هى تتوحم وهو يرجع ، هى تتقلب على جنبها وهو يقول : آه .. هى تصرخ وهو ايضا .. وعندما يجىء طبيب القبيلة فانه يكشف على الزوج ليعرف آلام الزوجة ..

وما يحدث للتوائم يؤكد هذا المعنى .. فالتوائم مهما تباعدوا فى أماكنهم واختلفوا فى ظروفهم ، فتجىء لحظات يضع الواحد يده على أسنانه ويصرخ .. ويذهب للطبيب ولا يجد سببا لذلك . ولكن يعرف ان آخاه توأمه يعانى من ألم

حقيقى فى أسنانه .. أو ينهض من نومه فى حالة من الأرق ليجد اخاه يعانى من نفس الأرق ..

والأخوان مصطفى امين وعلى أمين لهما حكايات غريبة ..

والتوأمان الوزيران محمد توفيق عبد الفتاح وزكريا توفيق عبد الفتاح لهما نوادر عجيبة ..

ثم العلاقة السحرية بين الأم والطفل لا تزال تبعث على الدهشة .. ولا يوجد تفسير علمى دقيق لان تنهض أم من عز النوم لأنها أحست بأن طفلها النائم فى غرفة اخرى سوف يقع من السرير ..

وتسرع اليه لتحول بينه وبين الوقوع ! كيف ؟ أو الأم التى تعيش فى القاهرة وتنهض من أحلى نومه وتقول : إه .. معدتى .. الحقونى ..

وتذهب للطبيب فلا يجد شيئا يدعو الألم المفاجىء . فى معدته .. وبعملية حسابية تكتشف الأم ان الابن قد أصيب فى نفس اللحظة التى أحست فيها بالألم ..

والمسافة بينهما عشرون ألف كيلو متر . كيف ؟

وعندى حكايات عن الذى كان بينى وبين والدتى .. ففى كل مرة قبل سفرى أفكر فى زيارتها اجدها مريضة جدا .. وألغى سفرى .. فتحترق الطائرة التى كنت سوف أسافر بها .. طائرة الممثلة كاميليا سنة ١٩٥٠ .. والطائرة الباكستانية فى أول رحلة لها سنة ١٩٦١ .

وكان من عادتى أن أقف على سلم الترام فى طريقى الى الجامعة .. فالترام مزدحم ، ولا داعى لان احشر نفسى بين الناس .. وفى احدى المرات كنت ابحث لامى عن دواء .. وفجأة رأيت صيدليا اعرفه .. فانتقلت من سلم الترام الى الداخل عندما جاء لورى وقتل كل الواقفين على السلم ؟ !

كيف كنت هكذا مربوطا بحبل خفى سحرى يجعلنى أشعر بأمى ، وفى نفس الوقت يكون هذا الشعور سببا فى نجاتى من الموت عدة مرات ؟ !

★ ★ ★

هل تعرف « التضاغط » ؟

هذه الظاهرة قد ولدت مع زيادة عدد سكان المدن . فالزحام فى الشارع والسوبر ماركت والاتوبيس والملاعب والمسارح والمستشفيات والمدارس والمصاعد ..

وهى حقيقة نسلم بها . ولا حيلة لنا فيها .

ونحن نسلم معها ايضا بالضوضاء . وبالقذارة ونقص الطعام والشراب والعلاج والمقاعد فى الاتوبيس والمدارس .. ونقص الاسرة فى المستشفيات .. ونحن نسلم بقصور التعليم فى المعاهد ، وقصور المعامل فى الكليات .. والسبب هو أن الناس كثيرون وليس من السهل تحقيق كل ما يحتاجون ..

ولذلك اعتدنا أيضا على الشكوى من كل ذلك .. ولانها شكوى عامة ، فقد اصبحت عادة ملازمة لنا . وليس لها علاج . لقد اعتدنا على اليأس ..

وفى الشارع ندوس بعضنا البعض .. ونتضارب بالاكتاف وبالأيدى تماما كالذين ينزلون الى الملاعب ، يعرفون مقدما انهم سوف يصابون .. فالاصابة والوقوع شرط من شروط هذه اللعبة .. وشرط من شروط الحياة معا فى المدن المكدسة بالسكان .. وفى الاتوبيس نضيق برائحة العرق ولكن نرتضيها وكذلك فى المصاعد .. وترفض السيدات الكثير من الحركات النابية يقوم بها الرجال فى الاتوبيس ويقبلن ذلك على مضض .. لانه لا علاج للزحام .. لا علاج لزيادة السكان ، ولانه لا علاج لنقص الموارد وزيادة القروض والفوائد عليها ..

فنحن نضغط بعضنا على بعض .. تماما كما تمسك قلما جافا وتضغط به على الورق فتمزق الورقة الاولى والتى تحتها والتى تحتها .. فالقلم جاف والضغط ضرورى والتمزق يجىء بعد ذلك .. ضغط فوق ضغط .. وضغط من تحت على الذين فوق .. وضغط من كل جانب ..

هذا التضاغط يفرض علينا آلاما طويلة حادة مزمنة ..

* * *

ما معنى الهذيان القومى ؟

ما معنى الجنون الوطنى ؟

ما معنى الانتحار الجماعى ؟

فى سنة ١٩٤٧ وبمناسبة مرور قرنين على ميلاد الفنان الاسبانى جويا ، أقيم معرض فى روما عن العمالقة والشياطين فى التاريخ ..

ولوحات المعرض وتماثيله كلها عن العمالقة الذين يحملون الجبال ، ويمزقون المحيطات .. عن الطيطان والهراقلة عند الأغريق .. وعن شمشون الجبار عند العبرانيين .. وعن جلجامش عند البابليين .. فمن هؤلاء ؟ لقد جاء فى أساطير القدماء ان عمالقة لهم قدرات خارقة ظهروا فى أماكن مختلفة من الأرض . ولهم

مهمة عاجلة هى انقاذ البشرية مما تعانيه .. وبعض الناس آمنوا بهم وبعض الناس كفر ..

وفى التاريخ أيضا عدد كبير من أنبياء بنى اسرائيل .. فالضياع والتيه العميق عند القبائل العبرانية جعلها تتطلع إلى نبى .. إلى منقذ .. إلى مخلص .. فلا يكاد يقف واحد فوق صخرة ويتطلع إلى السماء ويصرخ ويلعن كل الواقفين أمامه حتى يظنوه نبيا .. ويمشوا وراءه .. وقد ظهر لهم أنبياء كثيرون .. وكهنه وسحرة ..

وظهر ايضا فى كل القبائل فى كل العصور ..

فالشعوب عندما يتأزم ضميرها ، ويتعذب وجدانها تحلم بمن ينقذها .. وتبالغ فى قدراته .. وتخطى فى اختياره .. لانها تريد ان تتخفف من اعبائها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ..

وكأن الشعوب ارادت ان تعذب نفسها ، فاخترعت قصص الأبطال فى كل زمان .. كائنات لها قدرات . وكائنات شريرة ومخيفة .. جاءت تعذب الانسان وتسخر من ضعفه .. ولكن الانسان الضعيف عاش ، والأقوياء الاقلية اختفوا ..

الياذة هوميروس .. وألف ليلة وليلة .. وملاحم بابل واشور والهندوس والمايا والانكاس ..

وجويا الرسام الاسبانى رسم لوحات مخيفة مروعة . وقال عنها الناس فى زمانه : الرجل مريض .. اصيب بالشلل والصمم والهذيان .. وكان من هذيانه وهلوسته هذه الروائع الفنية ؟ ؟

ولكن الناس على زمان جويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٤) قد لاحظوا انه رسم لوحات للأسرة المالكة تدل على انهم بلهاء متخلفون عقليا وشواذ ..

وقال المؤرخون : ان الرجل مجنون !

ولكن هذا « المجنون » قد اسعده غزو الفرنسيين لبلاده .. وتحمس كثيرا ليوسف بونابرت عندما صار حاكما لاسبانيا .. تماما كما تحمس عباقرة أوروبا للفتى العبقرى نابليون ..

جويا اراد أن يصور المعنى العميق عند الناس فى أزماتهم القومية : انهم يتطلعون الى القوى الخارقة المخيفة .. فهى خارقة لانها تقدر على الذى لا يقدر عليه الناس ، وهى مخيفة لانها سوف تعاقب الناس على جهلها وضعفها

وهوانها .. فلم يكن هذيانه هو ، وانما هذا هو هذيان الشعوب التى طال عذابها بحثا عن الخلاص ..

ففى كل الازمات القومية فى كل التاريخ ، تتعذب الشعوب .. يضطرب تفكيرها ، ويختلط سلوكها ، وترتجف الدنيا أمامهم وتحتهم .. ولا يدرون لهم حلا ، ولا حتى مشكلة ولا طريقا ولا بابا ..

ويدفعهم اليأس والخوف الى ان يتوهموا اللا شىء احدا ، ويتوهمون الأحد لا شىء .. قال المتنبى :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم

اذا رأى غير شىء ظنه رجلا !

أما الألم الشخصى فيصبح ألما « قوميا » والضيق الشخصى يصير يأسا قوميا ، وانسداد أبواب الرزق ، هى العزلة للبلد بين البلاد ، وللشعب بين الشعوب .. والغربة المطلقة .. كل واحد غريب فى وطنه ووطنه غريب بين الدول الغربية .. ولا أحد يدرى بأحد .. ولا احد يسمعه أحد ان قال ، ولا أحد يريد ان يسمع او يقرأ او يقول .. فالافواه تتحرك ولكنها خرساء ، والاصوات تموت على الآذان الصماء والقلب يضخ دما بلا عواطف ..

وليست الوثبة الشيعية إلا دليلا جديدا على اعمق اعماق الناس ، فى هذيانهم القومى : انهم يتعجلون الامام الغائب .. المهدى المنتظر .. فيفرشون له الأرض بالجماجم ويبللونها بالدم ويلوثون له الهواء بالدخان واللعنات ..

وفى امريكا ، بعد نكسة فيتنام ، ظهر أنبياء ونصابون وأفاقون . ولكن وجدوا من يصدقهم ويمشى وراءهم الى المخدرات والى الانتحار والى الموت .. فى حوض نهر الأمازون ..

وبعد الحرب العالمية الثانية وانهيار كل المثل العليا ، سقطت المانيا النازية الأرية وطن السوبرمان الجرمانى .. ولكن الشعب الألمانى راح يحلم بان هتلر له ابن فى امريكا اللاتينية سوف يعود ؟

أى عودة هتلر ولكن بصورة اخرى ؟ !

وفى الارجنتين تخيلوا ان نجاتهم بعد الرئيس بيرون عن طريق زوجته الأولى .. ثم زوجته الثانية ..

وفى تونس تخيل الرئيس بورقيبة انه يمكن ان يجىء ابنه بعده ؟

وفى كوريا الشمالية لا يزال يتوهم الناس ان يجىء ابن كيم آل سونج ، خلفا

له .. مكملا رسالة والده ..

وفى مصر توهموا بان نجاة المصريين من النكسة تكون عن طريق ابن عبد الناصر ايضا ؟

وكلها صور من الهذيان القومى .. أى الألم العام : النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ..

فان لم يكن هذا البطل القومى عملاقا فسوف يكون كذلك اذا بعث مرة اخرى فى ابن هتلر وابن كيم وابن عبد الناصر وابن بورقيبة ..

★ ★ ★

★ ★ ★

والكتب المقدسة تحدثنا عن أن العمالقة عاشوا قديما .. ثم اخذوا ينقرضون . وتعاسة الانسان سببها اختفاء العمالقة ..

آدم عليه السلام كان طوله ١٢٤ قدما ..

وابراهيم ٣٢ قدما ..

نوح ٢٧ قدما ..

وموسى ١٣ قدما .

وكان من الممكن ان ينقرض الانسان لولا مجىء السيد المسيح ـ فى رأى المسيحيين .

والله بعث سيدنا محمدا رحمة للعالمين وانقاذا للانسان من كل هذه الفوضى والهذيان والهوان ..

وعلماء الآثار قد اكتشفوا ان الأرض قد عاشت عليها كائنات عملاقة جاءت من الكواكب الاخرى .. ولأسباب لا نعرفها ، اختفت ..

ويقولون : ان آدم عليه السلام وحواء ، ليسا إلا مهاجرين من كواكب وحضارات اخرى ..

ويقولون ان البحر الميت ليس إلا تجويفا لسفينة فضاء عملاقة ، ارتطمت بالأرض من عشرات ألوف السنين ..

وقد توهم كثير من علماء السياسة انه يمكن « تخليق » العمالقة .. عن طريق اختيار السلالات « الممتازة من البشر ـ النازيون فعلوا ذلك ..

والامبراطور فريدريس الأول ، كان يبحث دائما عن طوال القامة من الرجال والنساء ويزاوج بينهم .. املا فى تخليق سلالة ممتازة تعيد الى الانسانية عصر

العمالقة .. ويقال انهم عثروا له على شاب عملاق . واحتالوا على هذا الشاب ان يدخل فى نعش لانهم فى حاجة الى نعش لانسان مات فى مثل طوله وعرضه .. ودخل العملاق الابلة هذا النعش فاذا بهم يغلقونه عليه .. ويشحنون النعش الى الامبراطور فريدريش الأول . ولكن العملاق مات مختنقا . اما الامبراطور فكان يعرض النعش على ضيوفه ـ انها فرجة فالملك يريد ان يتسلى وضيوفه كذلك !

ومن هلوسات الشعوب ايضا ، أى من آلامها المبرحة ، ان يحلموا « بالمستبد العادل » ـ أى بالظالم المنفرد بالقرار ، ثم يكون عادلا ! كيف ؟ هل المطلوب ان يكون عادلا فى ظلمه فلا فرق بين احد فى الظلم ؟

أو يكون عادلا مستبدا . أى ينفرد بقرارته العادلة ، دون مشورة من أحد .. فكيف يكون فردا بشرا عادلا دائما .. ولا فرق بين العدل بين اتباعه واصدقائه واهله ثم العدل بين اعدائه وخصومه والمتآمرين عليه ، والذين يحاولون اغتياله ؟ !

ولكنها هلوسة شعبية .. وهذيان قومى ..

انه الألم الفردى مضروبا فى مليون .. فيكون الألم عاما عارما والضياع مطلقا ، والاحلام كوابيس ، والكوابيس فيها الدم والنار والحديد .. ودعوة الناس جميعا الى الانتحار .. مادام لا أمل فى حل ولا أمل فى أحد .. ولا ثقة فى مستقبل .. بل ان المستقبل والاستغراق فيه هو الذى أكل حاضر الناس والتهم ماضيهم ..

★ ★ ★

نعود الى معرض الفنان الاسبانى جويا .. ففى لوحاته : تحفة قائمة مخيفة للالة الاغريقى كورونوس ـ الذى هو الزمن ـ هذا الاله قد استدار يأكل أولاده : السنين والأيام والساعات ..

فالشعوب الاغريقية المعذبة قد اخترعت كورونوس واعطته لعناتها الثلاث : الألم والقلق والتوتر .

ولكن كورونوس وجد حلا آخر هو : قتل العذاب عن طريق قتل جميع المعذبين ـ وهذا هو الانتحار القومى !

.. فإلى مزيد من الألم !

آه .. ومعناها
(٦) فى رأس كل عظيم : صداع !

حتى تكون مثقفا عصريا أرجوك أن تصدق كل مايقوله أولاد البلد عن فوائد البصل - بما فيها التنشيط الجنسى أيضا . فأحدث الدراسات الطبية تقول أن البصل قادر على إزالة الصداع .. والصداع النصفى بصفة خاصة . لماذا ؟ لايوجد أى تفسير علمى لذلك .

وفى الكتاب الضخم للباحث الكبير د . بول غليونجى الذى عنوانه : « الطعام : هدية أوزوريس » الجزء الثانى يقول الفراعنة اعتقدوا أن البصل يخفف آلام الولادة ، ولذلك كانوا يضعون البصل فى عنق الرحم ..

قال لى د . عماد الدين عبد المجيد أخصائى أمراض النساء والولادة أن عددا كبيرا من الريفيات يضعن البصل فى عنق الرحم . أيمانا بأن البصل يخفف آلام الوضع ويجعل الطلق أسرع . فما الذى يفعله البصل ؟ لا أحد يدرى بالضبط .. هل يجفف عنق الرحم ، هل يلهبه فيجعله يتقلص هل يصعد فى الأنابيب ويضغط .. لا أحد يعرف وكان الفراعنة كما يقول د . بول غليونجى لكى يعرفوا المرأة ان كانت تنجب الأطفال أو عقيما يضعون البصل فى عنق الرحم ، فإن ظهرت رائحة البصل فى فمها بعد ذلك فليست عقيما . أما العقيم فهى التى لاتظهر رائحة البصل فى فمها !!!

ولكن من المؤكد أن البصل يقضى على الصداع . فما هو هذا الصداع ؟ فما لم تكن أمير شعراء العرب قديما : المتنبى ، وحديثا : أحمد شوقى ، وأمير شعراء الألمان جيته وشعراء الانجليز شكسبير ، فإنك لن تستطيع أن تقول لنا ماهذا الصداع .. وهو أكثر أنواع الأوجاع أو الآلام انتشارا . فلا أحد لم يصبه الصداع بعض الوقت أو من حين الى حين أو بصورة مزمنة ..

والصداع ليس مرضا ، وانما هو من أعراض مرض أو خلل أو اضطراب أو ورم أو تمدد فى الشعيرات الدموية .. انه شعور بأن دماغك ثقيل .. أو أنك تريد أن تميل به على جانب أو للأمام أو الخلف .. وأحيانا يكون فى مقدمة الرأس ، ثم ينتشر وأحيانا فى مؤخرة الرأس .. وأحيانا « يصدعك » - أى يفلق دماغك نصفين .. وفى القرآن الكريم : يومئذ يصدعون .. أى ينفرقون فرقتين .. أو

ينقسمون قسمين : وفى القرآن أيضا : والأرض ذات الصدع - أى الأرض المشقوقة لأن فيها نباتا يخرج من تحت الأرض فيقسم التربة ويشقها ..

وقد أحصى أحد الأطباء أسباب الصداع فوجدها أكثر من مائتى سبب ..

والصداع البسيط الذى يجىء ويروح بسرعة سببه الأرق أو قلة النوم أو كثرة الأكل .. أو الامساك أو الاسهال أو كثرة تعاطى الكحول ..

وهناك صداع رجالى - وهو الذى يصيب احدى العينين .. يستمر من ربع الساعة الى ثلاثة أرباع الساعة ويكون ليلا ، كل ليلة .. ولا يوجد تفسير واضح لماذا هو يصيب عينا واحدة ، ولا يصيب إلا الرجال .. ولماذا يكون ليلا ؟ .

والصداع يكون أيضا بسبب أوجاع فى أعضاء الرأس : فى العينين والأذنين والأسنان والجيوب الأنفية .. وأحيانا المخ .. والضغط عليه من الداخل .. ويكون بسبب ارتفاع الضغط ويكون بسبب أنخفاضه ..

وبسبب انقباض عضلات مؤخرة الرأس .. وعضلات تحريك العين ويكون بسبب الضغط على العين كأن يكون الضوء ضعيفا أو قويا أو يكون المنظار الذى تضعه عبئا على العين .. ولذلك يجب تغييره ..

وليس صحيحا ماكان يقال من أن النقرس هو مرض العظماء . وإنما مرضهم : الصداع والامساك .. فليس من العظماء واحد لم يتوجع فى فراشه أو فى دورة المياه .. وقد يكون السبب واحدا : الارهاق والتوتر والقلق والهم والغم والكرب العظيم . كل ذلك يؤدى إلى اضطراب الجهاز الهضمى والى الصداع والأرق والامساك بعد ذلك .. ولا نهاية لحكاياتهم فى كتب التاريخ .

* * *

١ - الموسيقار العظيم باخ كتب (أنشودة القهوة) وهى عبارة عن أوبريت فكاهى من فصل واحد . تقف البطلة تتلوى وتمسك رأسها وتتوسل إلى والدها وهى تقول : والدى .. حبيبى .. أرجوك .. أرحمنى .. ان لم تسمح لى بأن أشرب ثلاثة فناجين قهوة سادة ثلاث مرات يوميا فسوف أكون مثل ماعز ادخلوها الفرن وخرجت منه تمثالا من الفحم لايقدر على البكاء !

وكان الموسيقار العظيم يصور حالته هو فكان يعمل كثيرا ، يسهر كثيرا ، يتوجع من الامساك ..

ويصيبه الصداع المزمن .. وكان يعالج الصداع بالقهوة التى توقظه وتؤرقه فيزداد الامساك ويشتد الصداع !

٢ ـ الموسيقار الأعظم موتسارت كان لابد أن يكتب افتتاحية أوبرا « دون جوفانى » التى كان من الضرورى عرضها فى براغ بعد أيام . جاءه قائد الأوركسترا يتوسل .. وجاءه النبلاء .. والمعجبون يبوسون القدم : فى طولك فى عرضك .. العالم كله ينتظر هذه التحفة لاتخذلنا .. وكان موتسارت يقول : ليس قبل غد . اتركونى الآن !

وذهب موتسارت يرقص ويشرب ويلعب ويقلد العظماء ويضحك . وعندما عاد إلى البيت وجد قائد الأوركسترا أمام الباب .. يركع على الأرض ويقول : أتوسل إليك !

وكان موتسارت يقول له : غدا صباحا .. أننى لم أخذلك قط ، فلماذا هذه المرة ؟ !

وجلس موتسارت أمام البيانو .. وأحس بصداع شديد . فطلب إلى زوجته أن توقظه بعد ساعتين .. وبعد ساعتين أيقظته . وكان الصداع شديدا . فطلب منها أن توقظه بعد ساعتين .. ونام وصحا وجلس أمام البيانو . وطلب منها مزيدا من القهوة .. وأن تحكى له أية حكاية .. وكانت تحكى له قصة على بابا والسندباد البحرى .. وكان يعزف على البيانو ويقول لها : ولكنى سمعت هذه القصة .. حاولى أن تقوليها بشكل آخر ..

وفرغ من كتابة الافتتاحية ، وطلب من زوجته أن تبعث بها الى قائد الأوركسترا .. ثم ارتدى ملابسه كاملة وطلب إلى زوجته أن تتركه ينام بعض الوقت . ونهض من الفراش وأسرع إلى الفرقة الموسيقية وجلس أمام البيانو . ولم تكد الجماهير تراه حتى صفقت له واقفة .. لتسمع أروع افتتاحية موسيقية كتبها موسيقار فى كل العصور ..

أما هذا الصداع فاسمه « صداع موتسارت » أى الذى يصيب العظماء فى زحمة العمل وانتظار القرار الحاسم ولحظة الالهام !

٣ ـ أما أديب فرنسا العظيم بلزاك فكان ينام عادة من السادسة مساء حتى منتصف الليل ثم يعمل ١٢ ساعة بلا توقف . بشرط أن يكون إلى جواره جردل قهوة . وله وصف جميل لما تفعله القهوة فى الفنان :

أنها لاتكاد تهز معدتك حتى تتحرك جيوش مثل جيوش نابليون . وتبدأ المعركة . القوات تنتشر والعقل يوجهها . أما الذكاء فهو الذى يزودها بالذخيرة

والسلاح . وتتغطى الأوراق أمامك بالحبر .. فكل شيء يبدأ وينتهى بأفكار سوداء الشكل على الورق .. هذا السواد يشبه سحب البارود فى ميدان القتال » .

وكان بلزاك يلف رأسه بمنديل.. فقد كان يخشى أن لم يفعل أن يقع دماغه نصفين .. واحد إلى اليمين وواحد إلى اليسار .. أنه الصداع الذى يلازمه قبل وأثناء الكتابة ولا يذهب إلا عندما يفرغ من التأليف تماما !

٤ ـ الامبراطور القائد العظيم نابليون كان يدق رأسه بيده .. يضرب رأسه فى الحائط تماما كأنه وحيد القرن .. وأحيانا يترك الاجتماع ويذهب إلى الحائط يقول : لا أعرف بالضبط ماهو الذى يجتاج فى داخلى إلى أن أضربه .. أو أدقه .. أو أعيده بعنف إلى مكانه من مخى ! .

وكان نابليون سريعا فى الأكل والشرب وسيىء المضغ والهضم .. وكان أول من يغادر المائدة فيرتبك كل الحاضرين . وينهضون وراءه قبل أن يشرعوا فى الأكل .

وله عبارة مشهورة : انها القهوة وحدها التى توقظنى وتدفئنى وتهبنى قوة غير عادية وتتغلب على هذا الذى يفلق دماغى ليلا ونهارا اننى أفضل الألم مع اليقظة على الهدوء والبلادة حين لايكون عندى احساس مطلقا !

٥ ـ وكذلك الامبراطور فريدريش الأكبر كان ينام على جانب من الفراش .. ليكون على استعداد دائما لان ينهض بسرعة ويصرخ بعيدا من شدة الصداع .. وكان يقول لنفسه : أعرف ماذا تريد ؟ ـ يقول للصداع ـ أعرف أنك صداع امبراطورى .

ويوقظ الياور النائم على بابه ويقول له : حالا .. فقد جاء الصداع ! أما العلاج فهو القهوة مع الشمبانيا ..

وكان الامبراطور يقول : سوف يجيء ذلك اليوم الذى يخرج الصداع وتكون له فرقعة زجاجة الشمبانيا عندما نفتحها .. ويظل الامبراطور يشرب القهوة بالشمبانيا حتى يذهب الصداع . وكانت نصيحته أن يكون هذا الكوكتيل أكثره من البن وأقله من الشمبانيا ..

٦ ـ وأعظم الفلاسفة أيمانويل كنت ، هاجمه الصداع فى السنوات الأخيرة . ومعه الامساك الشديد . وكان يعلم أن السبب هو القهوة . ولكن القهوة هى السبب وهى علاج أيضا . وقد فكر فى طريقه للقضاء على الصداع باستخدام

القهوة ولكنه انشغل عن هذا العلاج تماما بقضاياه الفلسفية ..

وكان عنده خادم عجوز كثير النسيان .. ولذلك كان لابد أن يطلب منه القهوة أكثر من مرة .. فكان يعد له البن والماء ويشعل له الموقد ويضع كوبين فارغين أو ثلاثة للضيوف ثم يضع هو القهوة بنفسه ويصبها ويطلب من الخادم أن يقدمها للضيوف ..

وكثيرا ماكان الخادم ينسى أو يغلبه النوم .

وكان ضيوف الفيلسوف يسألونه : ولكنك أنت الذى أعددت القهوة . فما حاجتك إلى هذا الخادم ؟

فكان الفيلسوف يقول : أنا لست فى حاجة إليه .. ولكنه فى حاجة إلى أن أؤكد له دائما أنه مايزال نافعا كما كان من خمسين عاما !

وكان اذا دخل الخادم بالقهوة وقف الفيلسوف العظيم على مقعد ويصرخ كما يفعل قراصنة البحر : ابشروا .. لقد رأيت أرضا !

وكان الفيلسوف العظيم يعتقد أنه ليست القهوة التى تذهب عنه الصداع .. وانما الطريقة التى تتم بها .. هو يعملها .. وهو يجعل خادمه يقدمها .. ثم هو يضحك بعد ذلك .. فالانشغال بالاعداد والحوار والبحث عن تعبيرات تبعث عن الضحك .. أى أن الحركة والانشغال والابتهاج والاسترخاء كل ذلك يساعد على اختفاء الصداع !

٧ ـ أما الفيلسوف الفرنسى روسو فلا أحد يعرف بالضبط ما الذى قاله قبل أن يموت ، وأن كان حاول كثيرا . ولكن كانت يده اليمنى تقبض على فنجان .. لقد كان يريد أن يصنع لنفسه فنجانا من القهوة . ولكنه لم يستطع ..

تقول صاحبة البيت الذى كان يسكنه الفيلسوف : ان هذا الرجل الذى حاول اصلاح المجتمع ، لم يستطع أن يهتدى الى طريقة أخرى غير الوقوف على رأسه لكى يذهب الصداع .. أما الشىء الذى كان يحيره حقا فهو كيف يمكن أن يقضى على شعوره الدائم بأن المخدة جافة وأن المقعد جاف جدا .. وكان يحاول أن يعرف بالضبط أين يوجد الصداع من جسمه كله !

٨ ـ وللسياسى الفرنسى الشهير تاليران عبارة فى وصف القهوة : أحبها سوداء كالشيطان ، ساخنة كجهنم ، صافية كالملائكة ، حلوة كالحب !

ولكن عذابه العظيم أنه كان يتمنى أن يجىء يوم يهتدى فيه الأطباء إلى فلق

الدماغ نصفين ، وصب القهوة هناك .. فتدخل إلى المخ دون أن تمر بالفم والمعدة . كيف ؟

مات قبل أن يتحقق له هذا الأمل العظيم !

٩ ـ الساخر العظيم فولتير كانوا ينصحونه بأن يكف عن السير الطويل والنوم الخاطف مستندا إلى الحائط فى البيت أو فى الطريق العام .. وكان الأطباء يؤكدون له أن الانسان يجب أن يتمدد بالعرض ليستريح فيذهب الصداع .

وكان فولتير مثل كثير من عظماء عصره يؤمنون بأن القهوة هى العلاج من كل ألم ..

وكانوا يقولون له إن شرب خمسين فنجانا فى اليوم هو خمسون فنجانا من السم . وكان يرد عليهم قائلا : فعلا أنها سم مؤكد بدليل أننى عشت ثمانين عاما ولم أمت بعد!!

١٠ ـ والرئيس الأمريكى جيفرسون كان قد ضمن صديقا فى مبلغ من المال . مات الصديق ولم يسدد . فباع الرئيس كل مايملك وفاء لهذا الدين . وبعد ذلك عرف الرئيس الأمريكى كل أنواع الأرق والقلق والاضطرابات العصبية والصداع والامساك . هذا الصداع هدد حياته الاجتماعية والسياسية .

ومات دون علاج !

١١ ـ والثائر الفرنسى روبسبير كان قد نفذ حكم الاعدام فى ستة آلاف من الأبرياء . وفى يوم جاءه أحد الأصدقاء يصف له كيف تم اعدام واحد من الضحايا . وكان رقيقا مؤثرا فى الوصف . ولم يكد يفرغ من الوصف حتى أصيب روبسبير بتقلصات معوية ومعدية وغثيان شديد وتشبث الصداع رأسه حتى تم أعدامه « بالعروسة » ـ اسم المشنقة فى ذلك الوقت ـ يوم ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤ ـ وانتهى بذلك حكم الارهاب .. والصداع ! .

١٢ ـ والأديب الأمريكى جيمس ، هاجر إلى أوروبا . وقرر أن ينتقل من مكان إلى مكان .. بأن يعيش فى القطارات والسفن .. فأصابه التنقل المستمر باضطرابات فى معدته وفى الاثنى عشر .. فأصابه الامساك .. وأضاف إليه القلق أرقا دائما .. ويؤكد الأطباء أنه مات بالصداع ـ أى بمرض الصداع !

١٣ ـ وعالم النفس الكبير فرويد ، كان شديد الاضطراب النفسى والجسمى والعقلى .. وكانت شكواه الدائمة من تقلص فى القولون ومن قرحة المعدة ومن الأسهال الدائم والامساك الدائم .. والصداع الذى يتركه لحظة واحدة !

١٤ ـ وزعيم الهند وداعية السلام غاندى ، كان يعالج نفسه بالأعشاب والرياضة .. فهو جائع دائما عطشان دائما عريان دائما .. اذا تعب من قدميه وقف على دماغه .. واذا أرهقه دماغه وضعه تحت الماء .. واذا لم يستطع أن يضطجع وقف نائما ورأسه على الحائط .. وكان يؤدب نفسه .. ويعاقبها على نزوتها أو رغباتها الشريرة .. ولم يفلح فى أن يقضى على الصداع .. وكان يداعب الذين حوله بأنه أخرج الانجليز من بلاده ، ولكن بعض جيوب المقاومة ماتزال تدق رأسه من الداخل !

١٥ ـ وعندما وصل تشرشل إلى القاهرة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣ نصح كل الذين حوله أن يحترسوا من « الانقلاب المصرى » ـ أى انقلاب المعدة بسبب الأطعمة المصرية !

وكان تشرشل مؤسسة علاجية ، فهو الذى يشخص المرض ويعالجه ، يشخصه لكل الذين حوله ويحرص على أن يقوم هو نفسه بعلاجهم .. وكان تشرشل مشكلة الأطباء . فهم لايعرفون كيف يفرضون عليه دواء .. لأنه دائم الاجتهاد وهو مريض ليس مطيعا ، ولا هو طبيب تقليدى .. فلا يكاد يجىء الطبيب ليعالجه حتى يجد أن تشرشل قد أرتدى مسوح الأطباء ..

وهو الذى نصح روفلت فى طهران بأن يشرب القهوة السادة ومن بعدها الشاى السادة ومن بعدها كأسا من الويسكى بلا ثلج ولا ماء .. وطلب منه أن يشكره بعد شعوره بالارتياح والرغبة فى النوم العميق وانتظر يطلبه روفلت ويقدم له عظيم الامتنان ، ولكنه لم يتصل فاتصل به تشرشل ، فقيل له : إن الرئيس لم ينم طوال ليلة أمس ..

فسأل تشرشل : ألم يشرب القهوة والشاى والويسكى عندما صحا من النوم ؟

فقيل له : بل شربها قبل النوم !

ومات الرجلان وهما يتوجعان من صداع دائم ، لم يجد الأطباء له علاجا .. انه « صداع موتسارت » .. انه صداع الطفل العبقرى الذى ينام على الحكايات .. ولكن هؤلاء العظماء عندهم مواجع وكوارث يطير لها النوم من العين ، ويخلق وراءه الصداع الدائم والامساك المزمن والتخبط فى أمواج القهوة !

وسوف يدخل تشرشل التاريخ العالمى من أبواب كثيرة : السياسة والشجاعة

والذكاء .. والأدب أيضا فقد حصل على جائزة نوبل فى الأدب .. وسوف يدخلها مع طبيبه الخاص د . موران فى الموسوعات الطبية . فقد كانت له اجتهادات قاتلة فى علاج أوجاع المعدة والمصران والصداع وذهاب الامساك والاسهال ..

يقول تشرشل ان الامساك والصداع لم يذهبا عنه ألا يوم ضرب اليابانيون الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور . فقد وقف تشرشل يرقص أمام المرآة ويقول : الآن أستطيع أن أنام . فأمريكا قد دخلت الحرب إلى جانبنا .. انتهى الامساك والصداع !

١٦ ـ أما الملايينير الأمريكى هيوز فكان شديد الوسوسة .. لايثق فى أحد من الناس حوله .. لا الرجال ولا النساء .. وكان يخاف أن يدس له الناس السم فى كل طعام وشراب وكان يدفعهم إلى أن يشربوا من كوبه ويتذوقوا طعامه لكى يطمئن .. وكان يخاف أن ينام حتى لاينقض عليه أحد فيقتله ويرث ألوف الملايين التى يملكها ..

وفشل الأطباء فى إزالة الصداع .. وجعلوا له سريرا من الحرير .. ومن ريش النعام .. وجعلوا السرير يهتز وتخرج منه الوسيقى .. ولكنه لم ينم ! .

وكان النوم يجىء إليه فى حالة واحدة إذا ركب الطائرة.. فكان يركب الطائرة فينام إلى جوار الكابتن ، ويتراجع رأسه إلى الوراء .. أو ينكفىء إلى الأمام .

شىء من ذلك أصاب الزعيم العراقى عبد الكريم قاسم ، فكان يركب الطائرة وينام فى سماء بغداد .. وتقول الصحفية الايطالية أوريانا فالاتشى : إن القذافى أيضا لاينام إلا فى سيارة وراءها حراسة .. أو فى طائرة يحرسها طائرات حربية ..

أما على الأرض فهو أكثر الناس خوفا وقلقا وأرقا . !

وعلاج الصداع : النوم ..

ولا تزال الحيوانات هى أستاذ الانسان .. فلا يكاد الحيوان يشعر بتعب أو وجع حتى ينزوى ويرقد ويمتنع عن الطعام . وهو مانسميه بالحمية ـ ولا تزال الحمية علاجا ..

والاسبرين هو أرخص الأدوية وأكثرها انتشارا فى العالم وأقلها ضررا . وهو العلاج المؤكد لبعض أنواع الصداع .

والوخز بالابر أيضا ..

وبعض أبناء الريف يربطون الرأس بمنديل .. أو بشريط مبلل بالخل أرجو

الا نسخر بمثل هذه الوصفات الشعبية . فلها أساس من تاريخ الانسانية طويل جدا .

وفى موسوعة « الغصن الذهبى » للعالم الكبير چيمس فريزر يحدثنا عن تغطية الوجه عند الملوك وشيوخ القبائل . يقول ان هؤلاء كبار يرون،وجه الملك يجب أن يظل بعيدا عن العيون .. فلا يصح أن تراه الرعية .. ولذلك يغطى وجهه كاملا فلا تظهر إلا عيناه .. وأحيانا يجلس وراء ستار .. أو وراء باب مغلق ويحدث الناس دون أن يروه ـ لأن رؤية وجهه حرام ..

فإذا جلس الملك إلى القبيلة يأكل معهم كان لابد أن يغطى وجهه كله .. بما فى ذلك فمه .. أما العينان فلابد أن يراهما الناس ، وأن يرى هو الناس ..

وقد لاحظ فريزر أن الناس العاديين اذا جلسوا وحدهم فإنهم يفعلون ذلك أيضا .. وقد حاول أن يفهم سر هذا التخفى ، مع أن أحدا ليس هناك ..

واهتدى الى تفسير ذلك بأن الناس يخافون أن تتسلل الأرواح الشريرة إلى أفواههم فتضاعف مرضهم .. وذلك لابد من سد الفتحات حتى لاتدخل هذه الأرواح ..

ولاحظ أن القبائل التى تكوى مرضاها بالنار على جانبى الوجه أو فى الكتفين أو فى كعب القدم ، لاتخفى وجوه شيوخها ..

وانتهى العالم الكبير فريزر الى أن هذه القبائل أنما تعالج الصداع بربط الرأس وشده .. وسد الفم ، أى الامتناع عن الطعام بعض الوقت ..

وكل يؤدى إلى تخفيف الألم .. وتعتقد هذه القبائل أن الصداع هو دقات روح شريرة على الدماغ من داخله تريد أن تخرج .. أو تنادى الأرواح الأخرى أن تجىء إلى انقاذها . ولذلك لابد من ترك الروح تموت فى الدماغ ، دون أن تساعدها أرواح أخرى !

فربط الدماغ من ألوف السنين ، كان ولايزال ، علاجا للصداع .. !

.. فإلى أوجاع أخرى !

آه .. ومعناها

(٧) قلق التركى :
أو الساق الكاذبة !

فى « ألف ليلة وليلة » قصة ملك اسمه يونان ، كان يشكو من التهاب بشرته ، وأرق وقلق ، وجاءه طبيب اسمه بودان ، نظر اليه ، عرف داءه ، ذهب الطبيب الى بيته واخترع للملك دواء ، هذا الدواء وضع فى بطن عصا ، ثم طلب الى الملك ان يلعب الكرة ، وان يضرب الكرة بعصاه ، ومهما شعر بالتعب وقرر ان يجلس فلا يترك العصا ، واذا رأى ان ينام فلا يترك العصا ، ونفذ الملك تعليمات الطبيب .. ولعب وتعب وعرق ، وذهب الى القصر ودخل الحمام والعصا فى يده .. ونام والعصا فى يده .. ولما صحا من نومه لم يجد اثرا للالتهابات الجلدية كلها ، اختفت .. كيف ؟

ان الدواء الذى وضعه الطبيب فى داخل العصا قد تسرب من العصا الى اليد الى الجسم .. الى الدم ، وشفى الملك من هذا المرض الجلدى ، انتهت قصة الليلة الخامسة عشرة من الف ليلة وليلة .. ومعناها ان احد الاطباء قد ابتكر دواء لشفاء الحساسية .. وان هذا الدواء قد تسرب من الجلد الى شعيرات الدم الى القلب .. الى كل الشعيرات الدموية .. فكان الشفاء !

ولكن عالمنا الجليل د . بول غليونجى له تفسير آخر . وهو ان الملك المريض قد آمن بقدرة هذا الطبيب على شفائه ، وهذه احدى ضرورات الشفاء ، ثم انه لعب وانشغل تماما عن الالم وكان الملك ـ عادة ـ لا يتحرك ، وانما يمضى النهار نائما ، والليل ساهرا .. ولابد انه كان يجد صعوبة فى النوم .. ولابد انه عرف الارق والقلق .. ولكن اللعب والتعب قد شغلا الملك تماما عن الشعور بالالم .. ولما ذهب الى الحمام اراح الماء الساخن اعصابه التى كانت قد استراحت بالانشغال والاستغراق باللعب .. ونام الملك بعد ان تسلل الدواء الى كل جسمه .. وليس غريبا ، بعد ذلك ، ان تجد الملك قد شفى من مرضه !

واحدث وسائل العلاج الطبيعى من الألم هو : الحركة .. المشى .. الجرى .. السباحة .. التجديف .. تماما كما فعل الملك يونان !

* * *

ومما يروى عن الطبيب الاغريقى بقراط انه كان يطلب من مريض يسكن الى

جواره ان يجعل طريقه طويلا .. يطلب منه ان يدور حول المدينة ثلاث مرات ثم يجىء اليه .. وكان بقراط يقنع المريض بان المشى علاج .. وانه كلما طال المشوار الى عيادة الطبيب ادى ذلك الى راحة المريض .. ويقال انه سأل مريضا تأخر عن موعده فقال له المريض : لقد درت حول المدينة عشرين مرة !

فقال له بقراط : ليس عندى دواء لك .. لقد داويت نفسك !

ويقال ان بقراط ايضا جاءه مريض يقول له :

ـ سوف أموت اليوم .

فسأله : من قال لك ذلك ؟

قال : انه شعورى !

وقال بقراط : وشعورى انا ايضا غير ذلك .

قال المريض : انا متأكد !

قال بقراط : اذن اذهب الى قبرك وانتظرنى هناك ..

وذهب الرجل الى القبر . وانتظر . ولكن بقراط لم يذهب . وعلم بقراط ان الرجل عندما اظلمت الدنيا خاف من القبر .. فهرب جريا الى البيت ، ولم يكن قبل ذلك قادرا على المشى .. وعاش بعدها عشرين عاما !

* * *

والفيلسوف الاغريقى الموسيقار الطبيب فيثاغورس . كان ينصح مرضاه بان يتناولوا الاعشاب . وانها هو الدواء . وان كل العقاقير هى اعشاب فاسدة .. ولذلك فالاعشاب هى الدواء الطازج تقدمه الطبيعة للناس فى كل مكان !

وفى يوم جاءه احد تلامذته يشكو مغصا ووجعا فى احدى ساقيه وفى ظهره وانه لم يعد يرى بوضوح وان الالم مثل افعى يتلوى فى بطنه ثم فى جنبه ثم تلسعه فى أذنيه .

وسأله فيثاغورس : ماهى الاعشاب التى تناولتها ومتى ؟

فذكر له هذه الاعشاب . فطلب منه ان يعود الى الحقول ويجمعها بنفسه .. وجمعها ورجع الى الفيلسوف فقال له : عد بهذه الاعشاب والقها فى مكانها من الحقل . اذهب بسرعة . ولكن عد ببطء كأنك لا تريد ان تعود الى البيت أو كأنك تريد ان تنام فى الطريق .. على مهلك تماما !

وفوجىء الفيلسوف ان تلميذه قد عاد واسرع مما يجب فسأله عن السبب .

قال : ولكنى يااستاذ لم اعد اشعر بألم ..

وكان من عادة قاضى القضاة العز بن عبدالسلام الذى عاش فى مصر ايام شجرة الدر ، اذا أحس بالجوع ان ينهض ويتمشى فى الشوارع حتى يسكن الم الجوع . فاذا تناول طعامه نام بعده مباشرة .. وكان ينصح تلامذته ان يمشوا كثيرا قبل الطعام وليس بعده .. وكان يقول : انما يتساقط منك الوجع وانت تمشى .. فاتركه امام البيت ولا تدخل به الى فراشك !

وهم جميعا يطبقون احدث ما وصل اليه العلم الحديث . فما من دواء قد وصفه الاطباء اليوم للمريض ، ليس من بينه دعوة المتألم أو المتوجع ان يمشى .. ان يخرج .. ان يحرك ساقيه .. ان يفلت من الضيق .. من الملل .

وكان لنا استاذ للفلسفة هو الاستاذ محمد محمود خضيرى . وكان من الطف الناس وأرقهم وأكثرهم تخصصا فى اثر الفلسفة الاغريقية على الفلسفة العربية .. وكان يقول لنا ان ابن سينا الفيلسوف الطبيب ، يمكن اعتباره واحدا من علماء النفس المعاصرين ـ لولا عبارته القديمة . ولكن معانيه وافكاره وأهدافه حديثة تماما . فكان يرى ان « الملل » أو « القرف » هو الأم المرضعة لكل امراض المثقفين .. وان شعاره ما قاله الشاعر ابو تمام يوما : ان بقاءك فترة طويلة فى مكان واحد يرهقك ويبلد شعورك .. ولذلك كانت حفاوة الناس بالشمس لأنها تشرق وتغرب ، ولو بقيت طالعة دائما ، لضاق بها الناس .. قال أبو تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة .
الى الناس ان ليست عليهم بسرمد !

وعرف الناس حكمة ابن سينا بعد ذلك .. فقد كان له سكرتير يذهب اليه المرضى قبل ان يتوجهوا الى ابن سينا .. وكان هذا السكرتير فى بلد آخر .

اما الحكمة فهى ان الفيلسوف ابن سينا كان يريد ان يجعل الطريق اليه طويلا .. ففى الطريق الطويل ينشط الناس ويحاولون ويجاهدون .. وكان يرى ان نصف العلاج يتحقق فى الطريق اليه .. اما دوره هو فمتواضع جدا ـ هكذا قال ابن سينا ويقول اطباء العلاج الطبيعى لأوجاع الجسم والنفس أيضا !

★ ★ ★

والناس ثلاثة انواع :

اناس لا يحبون ان يسمعوا عن الالم ولا عن أوصافه وعلاجه . ويخافون من هذه المسيرة . فاذا حدثهم احد عن الم أو مرض ، اشاحوا بوجوههم : ان الشر بره وبعيد عن السامعين !

فهم يخافون من ذكر الالم ، ومن معرفة أوصافه واسبابه ، ويؤمنون بان الأمراض كالعفاريت تجيء على السيرة، فاذا لم يتحدث عنها، فانها لن تجيء !

واناس يحبون ان يعرفوا ما هذا الذى يشكو منه الناس ، وهل هو خطير .. وكيف يمكن شفاؤه . ولان الناس مختلفون فى الاحساس وفى تشخيص أوجاعهم ، فالمعلومات كثيرة والحكايات متضاربة .. ولكنهم يريدون ان يعرفوا .

ومن الممكن ان تتسلط عليهم القصص المتناقضة .. ويتسلط عليهم الخوف من الالم ومن المرض .. وبدلا من ان تفيدهم هذه المعلومات ، فانها تضاعف أوجاعهم ، ولذلك كان المثل الشعبى الذى يقول : آفتى معرفتى ، وراحتى ما اعرفش ـ ان المعرفة داء ، والجهل دواء ؟!

والنوع الثالث هو المتردد فى ان يسمع أو لا يسمع .. وهذا النوع من الناس شديد الوسوسة .. فهو خائف من كل مالا يخيف ، وهو لا يبالى بكل ما يبالى به الناس ، لقد انقلبت الاوضاع عنده وفى دماغه .. فهو يتهجم على الخطر جاهلا ، ويهرب من أهون المتاعب خائفا .

فأنا ـ مثلا ـ اخاف من الاصابة بالزكام، فاذا عطس انسان، فاننى افزع ودون تفكير فى ان يكون هذا العطس لسبب عارض.. كاختلاف درجة الحرارة من غرفة إلى غرفة، ولكننى بعملية حسابية بسيطة، اتوقع ان اعطس انا ايضا .

الموسيقار محمد عبدالوهاب كذلك واكثر !

وفى الشتاء اطلب من سكرتيرى ان ينظر الى الضيوف ويتأكد ان كانت عيونهم وانوفهم حمراء .. او انهم يعطسون او يرشحون .. او لا يعرفون كيف ينطقون حرف الميم .. وهى احتياطات سريعة حتى اتفادى لقاء اى انسان مزكوم ـ مهما كانت الاسباب ، وفى احدى المرات فوجئت باحد المراسلين الاجانب وقد وضع المنديل على انفه فتولانى الفزع ، وبدأت اعطس . ولم يكن الصحفى الاجنبى مزكوما . ولما سألت السكرتير كيف جعلته يدخل مكتبى ؟

فكان رده : نظرت الى انفه فكان احمر والى شفتيه .. وعينيه .. كله احمر ، ولم يكن مزكوما !

وفى احدى المرات قيل لى ان الرئيس السادات ينتظرك فى غرفته . وكان الرئيس مصابا بانفلونزا حادة .. وفزعت اكثر عندما قال لى الرئيس : اقفل الباب واجلس . الانفلونزا كسرت ضلوعى !

وتوقعت ان اصاب بالانفلونزا فورا ، والغريب اننى رغم جلوسى معه ثلاث ساعات ، فلم اعطس .. ولم ترتفع درجة الحرارة ولا اصابنى الزكام ، ولم اكد افرغ من هذا اللقاء حتى ذهبت الى الصيدلية واخذت حقنة ردكسون وحقنة نوفالجين .. وبسرعة عدت الى البيت تحت اللحاف وثلاث بطانيات .. والطاقية الصوف فى دماغى والجورب الصوف فى قدمى .. وظللت تحت الغطاء فى انتظار الزكام والانفلونزا والسخونة والعرق والارق .. وظللت حتى منتصف الليل .. واندهشت جدا كيف اننى لم اعطس ولم يصبنى الزكام !

وسألت صديقا طبيبا وقال : هذا هو الوهم .. انت مصاب بالزكام لانك تريد الاصابة او على استعداد للاصابة ، ولا تصيبك الانفلونزا لانك لا تريدها ان تعطلك عن القراءة والكتابة وانت كنت حريصا على ان تكتب ما دار بينك وبين الرئيس .. انها ارادة الانفلونزا ، وعدم ارادتها .. ثم انك احتطت للانفلونزا بالحقن !!.

يريد ان يقول ان الانفلونزا والاصابة بها : عمل ارادى .. تريدها أو لا تريدها !!

★ ★ ★

فالشعور بالالم هو هذا الانذار المبكر السريع جدا بوجود ضرر ما .. وبسرعة يتفادى الانسان الضرر .. يبعد عنه .. أو يسحب يده او جسمه .. والالم هو الثمن الذى يدفعه الانسان من اجل التفوق الفردى أو القومى أو من اجل حضارة الانسانية كلها .. فالانسان يشعر بالالم ، واحيانا لا يشعر به اذا كان يريد التفوق فى العلم او الرياضة .. فالرياضيون يتعذبون بالجوع والعطش والتدريب المستمر ، مهما كلفهم من عناء ، كل ذلك من اجل كفاءة الاداء والتفوق فى النهاية .

والانسان فى تاريخه الطويل لم يحقق هذا التطور الهائل فى كل المجالات الا بالتعب والعذاب .. والالم .. ولكن الالم يهون من اجل تحقيق شىء جديد ، أو دفع الانسانية كلها الى الامام .

ولكن كيف يمكن ان « نقيس » الألم ؟

ان الاحساس بالالم يختلف من شخص الى شخص .. بل انه يختلف فى الشخص الواحد من حالة الى حالة .. فعندما تكون فى صحة جيدة وأوجعتك اسنانك فانك لا تفزع لان أوجاع الاسنان قصيرة العمر ، ولكن اذا كنت مريضا وأوجعتك أسنانك .. فلا تخف أكثر .. وترى أن وجع الأسنان ليس إلا امتداداً لمرضك .. وان وجع الاسنان دليل على تطور المرض وتدهور حالتك !

وقد يصطدم رأسك بالحائط خطأ ، فيوجعك .. ولكن لو كانت مشتركا فى خناقة ، فانك لن تشعر بان رأسك قد اصطدم بالحائط وانك نزفت دما . لماذا ؟ لان استغراقك فى الخناقة وانفعالك الشديد جعلك لا تشعر بما اصاب رأسك .. وكذلك الجنود فى الحرب لا يشعرون بما يصيبهم .. ويقول الجراحون العسكريون ان الكثير من عمليات بتر الساق او الذراع تتم من غير بنج .. لان الجندى احس بالارتياح الشديد لبعده عن خط النار .. وهذا الاحساس يشبه البنج أو النشوة ، ولذلك اذا قطعت رجله او ذراعه فانه لا يدرى بها .

وكذلك فى حالة التنويم المغناطيسى .. فالطبيب يقنع المريض بانه سوف ينام .. يستغرق فى النوم .. وانه لن يشعر باى الم اطلاقا ، فالطبيب قد أوحى للمريض ان ينام ، واذا نام ان يكون بعمق ، واذا كان بعمق فلايشعر بالالم ـ فقط يعاوده الالم عندما يصحو من هذا التنويم !

ويبقى الالم ذكرى عميقة فى النفس .. فبعض الذين خلعوا اسنانهم او ضروسهم ، ينهضون من نومهم فزعين كأنها خلعت لتوها .. أو كأنهم وجدوا انفسهم فى عيادة احد الاطباء ـ رغم ان خلع الضرس قد حدث منذ وقت طويل ، ومع ان خلع الضرس لم يكن هكذا مؤلما . ولكن الاحساس بالالم ، هو الذى جعل الالم ذكرى حية فى أحلامهم .. فهى خوف متجدد .. أو الم لم يسكن بعد ! وكذلك فى الآلام الاخرى .

ومن اشهر هذا النوع من الالم ما يعرف فى الطب باسم « الساق الكاذبة ».. فبعض المرضى الذين بترت ساقهم أو ذراعهم ، يشعرون بعدها بوقت طويل بألم ـ كأنه فى الساق أو فى الذراع .. مع انها بترت .

ويبدأ الاحساس بان الساق قد قصرت .. أو اخذت تقصر بالتدريج .. حتى يصبح نسيانها ممكنا .. اى نسيان الالم او التسليم بالمصيبة .

ونسيان الساق اسرع من نسيان الذراع .. فالذى بترت ذراعه يظل يذكرها .. ويظل يشعر بان هناك تعبا كأنها ما تزال معلقة من كتفه .. والسبب فى

ذلك ان المراكز العصبية فى الذراع اكثر ولذلك اذا قطعت الذراع يظل صاحبها يشعر كأن الالم مايزال حيا عند كتفه .. وكثيرا ما أحس ان الساق ماتزال فى مكانها .. وان الذراع ايضا .. اما الالم الذى فى طرف الكتف فبسبب الاعصاب التى اعتادت ان تنقل الى المخ أوجاع الذراع .. اما اذا كانت هى التى قطعت فان الاحساس بها يظل وقتا طويلا .

وهناك الم يمكن تسميته « بقلل التركى » ـ فالنكتة المصرية تقول ان رجلا تركيا فصلوه من عمله .. فكان يشترى قللا يلمؤها بالماء ليشرب منها الناس .. فاذا جاءوا وقف يقول لهم : اشرب من هذه .. لا تشرب من تلك .. ضع هذه . اترك تلك !

المعنى : انه مايزال يأمر وينهى كانه مايزال رئيسا فى عمله ، فقد اعتاد على الرياسة ، فلما نزعت منه .. أصر ان يمارسها .

أو مثل فيلم « صوت الموسيقى » فالبطل الذى كان ضابطا ثم احيل الى المعاش ، فانه راح يطلق الصفارة يوقظ اطفاله وجميع الذين فى بيته طابور الصباح .. محلك سر .. الى الخلف در .. قف !

انه هو الاخر مصر على ان يستمر قائدا ، وان كل الناس جنود عنده ـ انها نفس قلل الرجل التركى !

وهى مصيبة الذين احيلوا الى المعاش .. وتوقفوا فجأة عن عمل كانوا يقومون به عشرات السنين . هذا التوقف المفاجىء يربك حياتهم .. ويلخبط جهازهم العصبى وكل الوظائف الاخرى . ولذلك فهم يحاولون بسرعة ان يكون لهم عمل آخر .. اى يستأنفون نشاطهم ولكن بصورة اخرى .. فاذا لم يستطيعوا ، كانت تصرفاتهم الاجتماعية والمنزلية استمرارا لعملهم ولكن بشكل آخر .. انها « الساق الكاذبة ».. انها قلل التركى . انها صفارة صوت الموسيقى .. والذى يعيش بعد زوجته ، أو تعيش هى بعده .. اى ان شيئا مفاجئا قد حدث . هذه المفاجأة قد اربكت حياة احد الزوجين .. ولذلك يشعر دائما ان زوجته هناك .. وانها الى جواره .. وانها على المائدة أو فى المطبخ .. أو يسمع صوتها .. ولا يستطيع ان ينسى كل ذلك بسهولة .. بالضبط كما ان احدا كان يحمل حقيبة على كتفه لمسافة طويلة ..

وعلى الرغم من انه قد انزل الحقيبة الى الأرض ، فما يزال يشعر بها على كتفه .

مايزال يشعر بان زوجته حوله وامامه .. ومايزال يشعر بزملائه فى العمل .. او فى الجيش .

كان الاستاذ فريد شحاته سكرتيرا لطه حسين ، وكان كثير الغضب ، وكان يترك عمله من حين الى حين .

وفى احدى المرات سألته : يبدو انك لا تستطيع ان تترك طه حسين ..

قال : تعرف ان هذا صحيح ففى كثير من الاحيان انهض من نومى فى حالة فزع وكأننى اسمع صوته يقول لى : يافريد اين وضعت كتاب « الأغانى ».. فأقفز من السرير .. مع ان طه حسين لم يدخل بيتنا قط .. ومع ان كتاب الاغانى هذا لم يطلبه طه حسين منذ عشرين عاما !

وقال لى فريد شحاته انه فى احدى المرات قرر ان يبعد عن القاهرة حتى لا يتصل به طه حسين لاى سبب .. لانه قرر ان يمتنع عن هذا العمل الذى لا يعود عليه بأى كسب مادى .. فسافر الى الصعيد لزيارة احد اصدقائه .. وبقى اياما . وكان ينام هادئا ويصحو ناعما .. واقسم فريد شحاته انه فى احدى المرات خيل اليه انه مايزال يتأبط ذراع طه حسين لدرجة انه التفت الى جواره - فلم يجد احدا ! انها « الساق الكاذبة » !

ويحاول العلماء ان يجدوا مقياسا للألم .. اى يخترعون جهازا لقياس الالم .. « دلورومتر » وكلمة دولور باللاتينية معناها الالم .. اى مقياس الالم . ولكن وجدوا صعوبة شديدة .. لان كل انسان عنده احساس خاص بالالم .

ولكنهم استطاعوا ان يقيسوا الم بعض الناس واحدا واحدا .. وذلك بقياس رد الفعل او صرخة الآه . شدتها وحدتها وطولها .. قياسا صوتيا .. اى قياس درجات الصوت أمام الميكروفون .

وليس بعيدا ان يهتدى العلماء الى قياس الالم وتكون الوحدة ، هى الآه .. كما تقاس الحرارة والبرودة بالدرجات المئوية . وتقاس الاصوات بوحدة « الديسبل ».. فيقال عن ذاك : انه وجع من درجة عشرين آهة .. او ثلاثين أو خمسين آهة ..

ولكن سوف يبقى الالم ضروريا للحياة ، ينبهنا الى احتمال الضرر او وقوعه او خطورته فتلتفت او لا نلتفت اليه .. والالم ليس الا « قطرات » العرق للعاملين والمخترعين وابطال الحضارة الانسانية !

صرخة طفلة في سيرك الوحوش !

نشرت صحيفة « الأخبار » حادثا وقع فى السيرك المصرى فى الكويت . فقد هاجمت نمرة طفلة صغيرة تعمل مروضة فى السيرك . كانت الطفلة تسوق النمرة الضخمة بالكرباج ليصفق الناس . وعندما أنهت النمرة لعبتها خرجت ، ووقفت الطفلة خارج السور الحديدى ، فاستدارت النمرة وأخرجت يدها تضرب الطفلة وتنشب أظافرها فى جسدها الصغير وتسحبها ناحيتها تمهيدا لالتهامها .. ولكن الأم وهى مروضة وحوش انقذت الطفلة وأدخلوها المستشفى لاجراء عدة عمليات جراحية فى وجهها وذراعها وكتفها وصدرها .

وتفسير ما حدث أن النمرة وقد ولدت ثلاثة صغار . مات واحد منها . وجاءت الطفلة التى تروض هذه النمرة وحملت ابنها الصغير تمهيدا لدفنه . فلما رأت النمرة هذه الطفلة مرة أخرى ولاحظت أنها تمشى وراءها ظنت أنها سوف تحمل أحد الصغيرين فحاولت قتلها !

ولكن أهم ما فى هذه الحادثة : كيف جاءت الأم التى تروض الأسود فى الجانب الآخر من السيرك ، والتى تضرب بكرباجها ملوك الغابة والناس يصفقون لها .. ويصفقون لابنتها أيضا .

تقول الأم انها سمعت صرخة ابنتها الصغيرة وسط هذه الضوضاء والموسيقى .

أما الشىء الغريب فهو أن الأم تبعد عن ابنتها خمسين مترا !

أى أنها سمعت صرخة ابنتها رغم كل هذه الضوضاء !

وهذا الذى تقوله الأم يدخل بنا مباشرة الى ظاهرة تسمى فى علم النفس الـ E. S. P

(Extra Sensory Perception) ومعناها : الادراك خارج المجال الحسى !

فمثلا أنا أستطيع أن أسمع صوتك إذا كنت تبعد عنى عشرين مترا ولم تكن هناك ضوضاء .. ولكن إذا استطاع واحد آخر أن يسمع صوتك رغم الضوضاء وأنت تبعد عنه مائة متر .. ألف متر .. ألف كيلو متر ، فهذا هو الـ E.S.P. أى أنه استمع ما هو أبعد من قدرة الأذن على الاستماع !

فهذه الأم سمعت أبعد مما تدركه الأذن العادية . فهى قد سمعت صرخة ابنتها ، وتأكدت من ذلك ، واتجهت إليها فى الوقت الذى توشك النمرة أن تفترسها .. فالنمرة قد أنفذت مخالبها فى جسم الطفلة الصغيرة .. وحاولت الأم إخراج هذه الأنياب ، ثم راحت تعض قدم النمرة بكل قوتها حتى صرخت النمرة من الألم !

شىء عجيب يربط الأم بطفلها .. أم الانسان وأم الحيوان أيضا ..

وكثيرا ما نهضت الأم من فراشها الدافىء رغم نومها العميق واتجهت بسرعة الى غرفة أخرى حيث ينام صغارها .. فقد أحست وهى نائمة أن أحد أطفالها سوف يقع من فوق السرير .. فذهبت إليه لتدركه قبل أن يقع فعلا . كيف أحست الأم ؟ ما هذا الذى أيقظها من نومها العميق ؟ .. ما هذا الذى يربط بين شعور الأم وطفلها .. ما هذه الخيوط السحرية التى تجعل الأم تحس بصورة مؤكدة بكل ما يشعر به طفلها الصغير ؟ ..

وكثيرا ما أحست أم فجأة بألم فى جانب من بطنها .. ومغص شديد ـ ويكون ذلك دون مقدمات . وبعد لحظات يزول هذا الألم .. وبعد أيام تتلقى خطابا من ابنها فى اوروبا أنه أحس بألم ومغص ودخل المستشفى وأجريت له عملية الزائدة الدودية ـ كيف أحست الأم وهى فى مصر بابنها فى باريس .. وبنفس الألم وفى نفس الوقت !

وفى التاريخ الاسلامى قصة عمر بن الخطاب وقائد قواته « سارية » .. فقد كان عمر بن الخطاب يخطب الجمعة عندما صرخ : يا سارية الجبل .. يا سارية الجبل !

واندهش المصلون .. وسألوه فقال له : إنه رأى قوات الأعداء يسارعون إلى الجبل يوشكون أن يحاصروا قوات المسلمين .. فنادى على القائد وحذره من هذا الخطر .. وقال سارية : إنه سمع صوت عمر بن الخطاب ! إذن فلقد رأى الخليفة عمر قوات المسلمين وقائدها والخطر عليهم .. فناداه .. والقائد سمع أيضا .. الخليفة رأى والقائد سمع والمسافة بينهما مئات الكيلو مترات !

فالخليفة رأى أبعد مما تستطيع عيناه ، والقائد سمع أبعد مما تستطيع أذناه !

فكلاهما مربوط أو مرتبط بخيط سحرى يجعل أحدهما يرى الآخر .. ويجعل الثانى يسمع . كيف ؟

وهناك أيضا مثل هذه العلاقة العجيبة بين الحيوانات أيضا .

فقد جاء فى مذكرات أوليفر هيل صاحب السيرك المشهور فى امريكا . أنه كان اذا اقترب الأطباء من صغار الدرافيل كانت أمهاتها تصرخ - مع أن المسافة بين الصغار والأمهات عشرات الأمتار . ثم روى القصة الآتية :

إنه كتب لابنته وكانت أستاذة فى علم النفس يقول إنه لاحظ أن أمهات الدرافيل تصرخ وتبكى وتصاب بتشنجات عنيفة فى السابعة والنصف من صباح كل يوم . مع أنها فى صحة جيدة . وتلقى عناية بالغة .

وكان صاحب السيرك على الساحل الغربى لأمريكا مع أمهات الدرافيل بينما الصغار على الساحل الشرقى - المسافة أكثر من خمسة آلاف كيلو متر ..

وعرفت ابنته السبب . فالأطباء يعطون الدرافيل الصغار حقنا ويرغمونها على تعاطى الأدوية - فى نفس الوقت الذى تصرخ فيه الأمهات . أى أن الأم تشعر بآلام صغيرها ، رغم المسافة بينهما . كيف ؟

ثم التجربة الشهيرة التى قام بها العلماء السوفييت . فقد حملوا فى غواصة عدداً من كلاب البحر . وابتعدت الغواصة عن الشاطىء مئات الأميال ، ونزلت الى أعماق المحيط . ثم راح الأطباء يستخدمون الابر فى وخز كلاب البحر ، وكانت الأم على الشاطىء ترتجف فى كل مرة تنفذ الابرة فى واحد من صغارها ، ولما ذبحوا واحدا منها راحت الأم تتمرغ فى الأرض وتصرخ وتبكى ، وتهجم على الأطباء تريد افتراسهم ، ولما حاولوا ذبح واحد آخر راحت الأم تضرب رأسها فى الحائط تريد أن تنتحر .

ثم هذه الحادثة التى جاءت فى كتب علم النفس الحديث والتى ظهرت فى كثير من الأفلام ، فقد خطفت عصابة طفلا صغيرا لكى تحصل من والده على فدية . دفع والده الفدية .. وأعيد الطفل . ولكن البوليس يريد أن يعرف من الذى خطفه . وقالت أم الطفل إنها تستطيع أن تعرف من الذى خطفه بمجرد أن يقترب منها المتهم .

وقالت إنها أحست بهذا الخاطف أكثر من مرة وهى تمشى فى الشارع وحاولت أن تطارده ولكن الزحام لم يمكنها من ذلك .

وعرضوا عليها المتهمين واحدا واحدا .. فأشارت الى واحد منهم . وقالت : عندما يقترب منى اشعر بانقباض !

ثم طلبت أن يعصبوا عينيها ، وأن يدخلوا جميع المتهمين غرفة مجاورة دون

أن تعرف هى .. وأدخلوا المتهمين واحدا واحدا .. وفى كل مرة يدخل الخاطف تصرخ الأم وتقول : هذا هو المجرم ! ..

وأعيدت هذه التجربة عشرين مرة ليلا ونهارا وعلى بعد متر .. وعشرة أمتار .. وعشرين مترا . ولم تخطىء الأم فى الاحساس بخاطف طفلها . كيف ؟

★ ★ ★

وكانت مصممة الأزياء الفرنسية كولو شانيل تتباهى بأن لديها حاسة شم غير طبيعية . فكانت تقول : إن فلانا سوف يجىء بعد لحظات !

وبعد لحظات يحدث ما توقعت . وكانوا يسألونها فتقول : أعرف رائحته ! ولا تكاد تراه حتى تقول له : أنت وضعت رائحة كذا .. ثم عدت فوضعت رائحة كذا ويكون ذلك صحيحا . وأجريت عدة تجارب على أناس آخرين .

واستطاعت شانيل أن تعرف ذلك !

وكانت تفتح النافذة وترفع أنفها وتحرك رأسها فى كل الاتجاهات وتقول : السيدة فلانة سوف تجىء .. بعد ساعتين .. لقد وضعت رائحة كذا .. وهى الآن فى الطريق إلينا !

وبعد ساعتين يحدث ذلك !

وكانت إحدى قريباتها تعيش معها فى نفس البيت . ولها طفلة صغيرة . وتعلقت شانيل بهذه الطفلة . وتبنتها . وكانت تستطيع فى أية لحظة أن تعرف أين توجد الطفلة .

فتقول : إنها فى غرفتها .. ليست فى غرفتها .. خرجت .. على السلم .. أمام البيت .. لقد أخذها أحد إلى خارج البيت .. إننى لا أشم لها رائحة ..

فاذا عادت الطفلة تقف شانيل وتقول : لقد عادت .. على السلم .. أمام البيت .. فى الصالة .. إنها الآن أمام ، باب هذه الغرفة ..

وينفتح الباب وتكون الطفلة مع خادمتها ! كيف ؟ وحكاية سيدنا يعقوب الذى ظل يبكى على ولده . يوسف عليه السلام حتى فقد بصره .. فعندما عاد إليه أولاده بقميص يوسف ، نهض من فراشه .. وفتح الباب .. وأدار رأسه فى كل الاتجاهات وقال : إنه يشم رائحة يوسف ..

فقط رائحة يوسف . ولكن يوسف لم يأت . لقد القاه أخوته فى البئر . وانتشله بعض التجار وذهبوا به إلى مصر ..

وبعد أيام جاءه أولاده بالقميص ، لقد شم يعقوب رائحة ولده ، وأولاده

مازالوا بعيدين عنه مئات الكليو مترات . كيف ؟

أما تفسير ذلك فهو أن الانسان كانت لديه هذه القدرة الفذة على الرؤية والسمع والشم . وكان يعتمد عليها ـ كما تعتمد الحيوانات أيضا ـ فى معرفة اعدائه من الوحوش ..

ولكن عندما عرف الانسان « البيت » والجدران .. وشعر بالأمان لم يعد فى حاجة إلى أن يقف فوق شجرة أو جبل ليرى اقتراب اعدائه .. ولم يعد فى حاجة الى أن يضع أذنه على الأرض ليسمع وقع أقدام هذه الحيوانات .. ولم يعد فى حاجة إلى أن يقف على أطراف أصابعه ، وهو تحت الريح ، ليشم رائحة الوحوش ليستعد للقائها .. انتهى . لقد توارى الانسان فى الكهوف ، ثم فى البيوت .. ومضت مئات ألوف السنين ولم يعد الانسان يعتمد على عينه وعلى أذنه وعلى أنفه فى إدراك الخطر القادم إليه ..

وهناك نظرية تقول : إن العضو يموت بموت الوظيفة .. أى أن العين إذا لم تستخدمها طويلا وبانتظام فقدت قدرتها على الابصار ..

ولذلك نجد الأسماك فى أعماق المحيط حيث الظلام تام ، لم تعد ترى ، إن العيون موجودة ولكنها لا ترى .. لقد فقدت الأسماك بصرها ، لأن العين فقدت وظيفتها .. وكذلك الانسان والحيوانات فى حديقة الحيوان أيضا ـ لم تعد هذه الحيوانات فى الأقفاص فى حاجة الى أن تبحث عن طعامها .. إلى أن تغزو وتهاجم وتباغت وتقتل لكى تعيش .. ولذلك ضعفت قدرة هذه الحيوانات التى تتوالد فى الحدائق والسيرك على السمع والشم .. وكذلك الانسان الذى انتقل من حياة الغابات الى الكهوف .. إلى البيوت .. إلى المدن .. فالانسان إذا ضعف بصره استخدم منظارا .. إذا أراد أن يرى أبعد استخدم العدسات ، عدسات المراصد والميكروسكوبات .

ولم يعد الانسان فى حاجة الى أن يسمع كما كان يفعل .. إنه يضع سماعة التليفون على أذنه .. ليسمع أبعد الأصوات فى الدنيا .. ولم يعد فى حاجة إلى أن يصرخ لكى يسمع الناس فى استراليا وأمريكا .. التليفون قد وفر عليه ذلك .. وهكذا لم يعد الانسان يستخدم عينه وأذنه وأنفه ويديه وساقيه إلا فى حدود ضيقة جدا . فضاع هذا الاحساس الفريد بالأشياء عن بعد ..

ولكن بقيت هذه القدرات الفريدة عند بعض الناس ـ عند الأمهات .. عند المحبين .. عند الذين لهم هموم مشتركة .

وبسبب هذه العلاقات القوية بين الناس أصبح إحساسهم قويا فريدا .

فإن كانت لك تجارب فى الحب القوى ، فإنك تذكر كثيرا كيف أنت ومحبوبتك فكرتما فى الشىء الواحد .. ونطقتما بالاسم الواحد .. وكيف إنك وأنت تمشى فى أحد الشوارع وتقف أمام فترينة ودخلت واشتريت شيئا لها لم تكلفك به . ثم فوجئت عند عودتك أنها تمنت لو رأيت هذا الشىء واشتريته .. وتقول لها : لقد سمعتك تقولين : أدخل .. واشتر هذا ..

وتقسم لك هى أنها قالت لفلانة صديقتها إنها رأتك أمام هذا المحل وقالت لك : ادخل واشتر هذا ..

وقال العلماء : هناك مغناطيسية ..

وجاءوا بالأجهزة فلم يجدوا هذه المغناطيسية ..

وقالوا ؛ إشعاع يخرج من هنا متجها إلى هناك .. والسؤال : كيف توجه أنت هذا الاشعاع إلى شخص لا تعرف أين هو ؟ .. وإذا حدث كيف عثرت عليه وأبلغته الرسالة التى تريدها ؟ ..

ثم كيف استطاع الطفل أن يوجه رسالة استغاثة إلى أمه بأنه سوف يقع من السرير ؟ .. وهل يدرك الطفل الرضيع معانى الاستغاثة والتوجيه والخطر ومكان الأم وقدرتها على الاستجابة فى الوقت المناسب ..

فهل كانت الطفلة مروضة الوحوش تعرف أين أمها ؟ وهل استطاعت فى فزعها أن توجه رسالة إلى أمها وسط التصفيق والطبول والصرخات ؟ .. وهل استطاعت صغار الحيوانات فى الغواصة أن تنقل الألم إلى أمها على الشاطىء ؟

إنه لغز السلوك الانسانى .. والعلاقات بين الناس .. ولم يستطع العلماء أن يهتدوا إلى شىء ، كل الذى عرفوه هو « رصد » هذه الظواهر .. إما لماذا وكيف تحدث فهو ما لم يهتد إليه أحد بعد .. وليس أوضح من الانسان ومن سلوكه ، ولكن ليس أغمض من أسراره .

وكلما تقدم الانسان فى علمه خطوة وتوهم أنه اقترب من جوهر كل شى ، وجد نفسه أبعد عن أى شىء .. ليتأكد لدينا ما قاله الله تعالى وليصدق علينا فى كل وقت ..

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ..

فقط لكى يتواضع الانسان الذى يعلم القليل أمام الكثير الشاسع العميق السحيق الذى لا يعلمه !

كلبك وقلبك : بيع وشراء !

نفرض أننى أنا وأنت جلسنا معا نتفاوض على شراء كلب .. أو كسب قلب .. فلابد أن نتكلم .. أنت تقول وأنا أيضا . ولابد أن نختلف وأن نتفق على معانى الألفاظ التى نستخدمها .. ولابد أن أنظر إليك .. فى عينيك .. وأن أفهم إن كنت جادا أو أنك تتسلى .. أو أننا نحن الاثنين استعرنا أسلوب الكلاب فى النباح .. فأنت تهوهو وأنا أيضا ..

والذى يحدث بينى وبينك من أجل الاتفاق على أتفه الأشياء ،. يحدث بين الدول الكبرى والعظمى على أخطر القضايا .. فالدول لابد أن تبعث أناسا مثلنا يتكلمون ويساومون ويفاصلون على شبر أرض أو لتر ماء ، أو الف كيلو متر فى الطريق إلى القمر .. فكلها مساحات من القوة والسلطة .. فكل أرض عرش - أى كل أرض للفرد هى شرف له ، وكل أرض للدولة هى مساحة من السيادة ..

مثلا فى سنة ١٩٨٠ أعلن فالدهايم سكرتير الأمم المتحدة أنه ذاهب لايران لعله ينجح فى التوفيق بين أمريكا وإيران من أجل إطلاق سراح الرهائن . ولم يكد الشعب الايرانى يسمع عن تصريح فالدهايم حتى امتلأت الشوارع بالمتظاهرين الذين انتظروا سيارة سكرتير الأمم المتحدة ليضربوها ويضربوه بالطوب . لماذا ؟

لأن كلمة « التوفيق » فى اللغة الفارسية معناها « التلفيق » . ولأن الوسيط بين دولتين معناه سمسار .. أى الرجل الذى يتدخل بين طرفين ويسرق الاثنين فى وقت واحد ، مدعيا أنه يخدم الحق والعدل والسلام !

فالأمريكى مثلا الذى يتصور أن هناك أسلوبا واحدا للكلام والتفاهم ، ولغة واحدة هى الانجليزية ، يخطىء كثيرا جدا . ويخسر الأطراف الأخرى من غير الأمريكان ، من الذين لهم لغات أخرى .. فالملعب فيه لاعبون كثيرون من كل لون وحجم . ثم إن الجمهور عصبى المزاج : فقد ظهرت اليابان على المسرح الاقتصادى والسياسى العالمى منافسة خطيرة لأمريكا . وظهرت كوريا الجنوبية تنافس اليابان . وظهرت سنغافورة تزاحم كوريا الجنوبية . وقفزت تايوان تهدد سنغافورة ..

وأسبانيا والبرازيل : تتقدمان فى بناء السفن ..
والصين : فى صناعات المنسوجات ..
وكل واحدة من هذه الدول هى « يابان » جديدة .. لها مفاوضون ولها لغة وأسلوب وتريد أن تكسب أرضا ومالا .. والذى يفاوض يجب أن يكون قد تدرب على السباحة فى كل المياه ، فى أحواض السباحة والمياه الحلوة والمسافات الطويلة .. وأن يكون درفيلا وحوتا عند الضرورة ، ويأكل الأسماك الصغيرة باسم الحرية ، والأسماك الكبيرة باسم السلام ..
لا أنسى أننى عرضت سيارتى للبيع . وجاء سمسار ومعه المشترى . وراح السمسار يقول عنى : إن الأستاذ لا يركب سيارته ، إنه يتركها طول الوقت لأنه على سفر . ولذلك فهى فى حالة جيدة جدا ..
فأقول أنا : يا أخى ما دام هذا رأيك فلماذا تريدنى أن أبيعها بهذا الثمن المتواضع ؟ .
يقول السمسار : يا سعادة البيه .. إنها ماركة قديمة .. والدركسيون يلعب فى يدك والعجلات تغربل ـ أى تتحرك كالغربال .. ثم إن الموتور يكح !!
ويرد المشترى : إذن فالثمن المطلوب كبير جدا مادامت حالتها بهذا السوء .
ويقول السمسار : كل الذى تحتاج إليه هو ربط بسيط .. ولكن « العضم » متين جدا .. ليس لها صوت .. إنما تأخذ المطبات كالحلاوة لا حس ولا خبر .. إنها لقطة .. وإذا لم تشترها أنت ، فعندى الف يبوسون القدم من أجل النظر إلى مثل هذه السيارة النادرة !
فأقول أنا : إذن فالمبلغ المطلوب قليل جدا !
السمسار يقول : يا سعادة البيه لأنها عربيتك فهى تساوى الألوف .. ولكن العربية فى حد ذاتها لا تساوى أكثر من هذا ..
يقول المشترى : الله الغنى عنها ..
السمسار : وهل كنت تشترى سيارة ؟ .. أنت تشترى صداقة مثل هذا الأستاذ .. إنها صداقة لا يمكن تقديرها بثمن .. إلخ .
واستطاع هذا المفاوض البارع أن يبيع السيارة وأن يتقاضى عمولة منى ومن المشترى ـ وكلانا راض عن هذه الصفقة ، التى هى مكسب لنا نحن الثلاثة ! كيف ؟! هذه شطارة المفاوض الوسيط السمسار !
فأية مفاوضة هى محاولة من اثنين فى وقت واحد لكى يغير أحدهما سعر

شيء ، ليكون الاثنان سعيدين فى النهاية !

والذى يقرأ نصوص المفاوضات بين الأمريكان والروس على الحد من الأسلحة الاستراتيجية يدهشه أن الخلافات كلها على كلمات . أو على مواقع الكلمات من الجملة الواحدة . أو على وضع النقط .

وكذلك المفاوضات بين مصر واسرائيل . كانت تتوقف من أجل نقطة أو شرطة أو علامة استفهام أو تعجب . وفى كل مرة يلتقى فيها المفاوضون بالصحفيين يقولون عبارات واحدة : إن تقدما نحو التفاهم والاتفاق فى النهاية . ولا يكون هذا حال المفاوض وراء الأبواب المغلقة . إنهم يتضاربون ويهددون بقطع المفاوضات والعودة إلى بلادهم ، على ألا يجلسوا معا مدى الحياة . ثم يعودون ويتفاوضون ويتقدمون ..

ففى اليابان كلمة نعم .. معناها غالبا : لا ..

وفى الصين كلمة لا .. معناها غالبا : نعم ..

والترجمة الفورية من الممكن أن تلخبط الدنيا . ولذلك فلابد من فهم عادات وتقاليد ولغة الطرف الثانى .

وقد حدثت أزمة بين أمريكا وبولندا بسبب الخطأ فى ترجمة خطاب الرئيس كارتر ..

وعندما التقت المذيعة بربارا والترز بالرئيس السادات سألته عن رأيه فى الرئيس كارتر قال : إننى أعشقه !

وهو يقصد طبعا أنه يحبه أو يحترمه كثيرا . ولابد أن يكون الشعب الأمريكى قد ضحك طويلا لهذه العبارة . ولكن المعنى الذى قصده السادات هو الذى فهمه الأمريكان ، أما العبارة فهى دليل على أنه ليس متمكنا من اللغة الانجليزية . وقد رفضت بربارا والترز أن تحذف هذه الكلمة أو تنبه الرئيس إلى معناها المضحك !

وعند الأمريكان تعبير يقول : إن الموضوع الفلانى لابد من وضعه فوق الترابيزة . والمعنى تأجيل النظر فيه .. بينما هذا التعبير عند الانجليز معناه : عرضه للمناقشة فورا .

وكلمة « بليون » عند الأمريكان تساوى الف مليون ، وعند الانجليز تساوى مليون مليون !

وأنت تتفاوض تحرك يديك وعينيك .. هذه الحركات من الممكن أن تحدث

ارتباكا اذا لم تكن مفهومة .. فالمفاوض الأمريكى اذا حدثك ينظر فى عينيك ، وهذا يضايقنا فى الشرق ونراه قلة أدب !

والايطالى والاسبانى يتحرك كثيراً أثناء الحديث اليك ، وقد ينهض ويتحرك فى الغرفة أو يعطيك ظهره ، وكل ذلك لا يدل على قلة ذوق أو جليطة . وإنما هو سلوك عادى جدا ..

بينما الألمانى يجلس لا يتحرك ولا يبدو على وجهه أى شىء . وليس معنى ذلك أنه لا يبالى بك أو لا يهتم .. وإنما هذا هو أسلوبه فى الحديث ..

واليابانى يضحك طول الوقت ، وليس معنى ذلك أنه سعيد لرؤيتك أو موافق على كل ما تطلبه . ولكن هذه طريقته فى اخفاء المعنى الذى يريد ..

والهندى حزين كئيب ، وليس معنى ذلك أنه تعيس لرؤيتك وآسف على الجلوس اليك . أبدا . إنه هكذا . والهندى من أبرع التجار فى العالم .

وكذلك الأمريكى أو الأوروبى يجب أن يفهم الشرقيين الذين يضحكون ويغضبون من حين إلى حين .. ثم يمسك العربى بذراعك أو يحتضنك بلا مناسبة .. أو يطلب التوقف عن المفاوضة من أجل تناول الغداء أو العشاء .. كل ذلك لا يدل على أنه لا يريد أن يتفاوض أو يصل إلى نهاية .. أبدا . إنه جاد جدا . فاذا لم تطاوعه وتسايره فإنه يرى فى ذلك قلة أدب وأنك غير جاد فى هذه المفاوضات ..

ومن الصعب على الشرقيين أن يتحملوا المفاوض الأمريكى اذا وضع ساقا على ساق ، وجعل إحدى الساقين فى وجه المفاوض .

أذكر أن أستاذا من جامعة نيويورك ذهبت معه للقاء الرئيس السادات . وكان من عادته أن يضع ساقا على ساق ويجعل الجزمة فى مواجهتك ، فسألته إن كان هذا لا يضايق أحدا فى أمريكا . وقلت له إنه لا يليق عندنا فى الشرق .. وفى لقائك بالسادات . وتنبه الأستاذ إلى ذلك . ولكن فى اللحظة الأولى من لقائه مع السادات قال : سيادة الرئيس إن أحدا فى أمريكا لا يتضايق اذا جلس أحدنا فى مواجهته وجعل جزمته هكذا !!

وضحك الرئيس .. وأصر الأستاذ الأمريكى على أن نرى حذاءه المرقع طوال ساعتين !

ومن ضمن الأخطاء التى يقع فيها المفاوض أن يعطى انطباعا أنه مستعجل .. وأن هذه المشكلة يجب أن يفرغ منها بسرعة . وينسى أن هذا ليس

إحساس الطرف الآخر . وأن عنصر الزمن عند طرف ، لا يعنى نفس المعنى عند الخصم .. مثلا عندما كانت المفاوضات ساخنة بين أمريكا وفيتنام فى باريس . كان المفاوض الأمريكى قد استأجر جناحا يدفع إيجاره يوما بيوم ـ يريد المفاوض الأمريكى أن يوهم الطرف الآخر أنه جاء يعمل بسرعة .. أو أنه لا يريد للطرف الآخر أن يعرف الزمن الذى قدره لنهاية هذه المفاوضات .

أما الوفد الفيتنامى فقد استأجر فيلا ، خارج باريس لمدة سنتين . أى أنه على استعداد لأن يتفاوض كل هذه المدة وأكثر . فالزمن لا معنى له ولكن المعنى للنهاية .

فالزمن ليس له معنى واحد عند كل الشعوب . فاذا كان الأمريكى ينظر إلى ساعته من حين إلى حين ، فإن المفاوض الفيتنامى قد خلع ساعته مع حذائه أمام قاعة المفاوضات .. وكان الأمريكان يتعذبون فى التفاوض . لأن المفاوض الفيتنامى لا يأكل ولا يشرب ولا يدخن ولا يريد أن يترك مقعده .. فكان الأمريكان هم الذين يشيرون دائما إلى ضرورة التدخين وشرب القهوة والتعجيل بالغداء .. أما الفيتناميون فكأنهم قد أكلوا وشربوا وناموا مقدما ـ فليسوا فى حاجة إلى أى شىء من كل ذلك !

وفى المفاوضات يفضل الأمريكى أن يدخل فى الموضوع مباشرة ، مهما كان جوهر الموضوع صعبا .

ولكن العرب والشرقيين عموما لا يحبون ذلك . يفضلون الدقائق السابقة على الدخول فى الموضوع . فالشرقى يحتاج إلى كلام عن العلاقات والمودة والصداقة . ويحب أن يناقش المداخل وأن يلف ويدور . أما الأمريكى فهو كالصاروخ يريد أن يصيب الهدف من أول لحظة ..

فإذا دخل أمريكى مثلا محلا للفاكهة فانه يتجه نحو التفاحة التى يريدها . ويضع يده عليها ويشتريها ويشرع فى أكلها فورا .. اما العربى الشرقى فانه يقف امام المحل ويتفرج عليه من الخارج ومن الداخل . ويشترى الى جانب التفاحة بصلا وثوما ـ مع انه لم يكن فى حاجة الى ذلك .

اما الاسرائيليون فهم يضايقونك كثيرا بطريقتهم فى المناقشة أو الحوار . فكل اسرائيلى يبدأ الحديث معك هكذا : عندى سؤال ..

فلا يقول لك صباح الخير أو مساء الخير .. أو كيف حالك . وانما عندى سؤال . وبعد السؤال سؤال آخر . وفجأة تجد أنك امام وكيل نيابة يسألك

ويتهمك . وتتضايق ولكنه لا يعرف ما الذى يفعله . انهم هكذا عندهم اسئلة وعندهم اسلوب وكيل النيابة . وان كل الناس امامهم فى أقفاص . وهو حسن النية ، ولكنه كالذى قبل أن يصافحك يفتشك ليعرف ان كانت معك اسلحة !

وهى بداية سيئة تفسد عليك وعليه أية محاولة للتفاهم ! ومنذ أيام اتصل بى مدير المركز الاكاديمى الاسرائيلى بالقاهرة ، وأنا لا أعرفه . سألنى فى التليفون : هل انت فلان ؟

ـ نعم

ـ عندى سؤال .. وسؤال .. وسؤال .

أما الاسئلة فهى : هل انت موجود فى مصر فى منتصف الشهر القادم ؟ وهل ستكون فى القاهرة أو الاسكندرية ؟ وهل اذا كنت فى القاهرة عندك وقت للقاء شاب يبحث فى الادب العربى ؟ وهل اذا جاء هذا الشاب يمكنك ان تقابله فى مكتبتك أو خارج المكتب ؟ وكم من الوقت ؟ وهل اذا أراد أن يقابلك مرة أخرى فهل هذا ممكن ؟ الف سؤال فى مكالمة واحدة !!

وهو ليس سيىء النية . وانما هو رجل دقيق . يريد اجابة واضحة محددة يبعث بها الى هذا الشاب لكى يرتب وقته ويجىء فى الموعد المحدد تماما ، وهو يعرف اين ومتى وكم !! وان كانت هناك احتمالات للقاء آخر ـ انها بداية ليست ودية ، رغم انه حريص على أن يجعلها كذلك !

والمفاوض الالمانى يتقدم ببطء شديد . ولكنه يتقدم .

والأوربيون عموما لايفاوضون وقد توقعوا الوصول السريع الى النهاية . انهم يتفاوضون لانهم يحبون الحديث . ولذلك فقد برعوا فى كل فنون الكلام .. فهم يدورون حول القضايا . وقد يقفون ويدورون حول بعضهم البعض كأنهم مصارعون .. أو أسود فى قفص أو كالكلاب يشمشمون فى الأرض وفى الجو وبعدها العناق أو الخناق .

الامريكان يفضلون تفتيت الموضوع الواحد الى قطع صغيرة .

ويحاولون كسبها واحدة واحدة . فكما ان طريق الميل يبدأ بخطوة ، فكذلك طريق الحصول على مساحة من الأرض يبدأ باستخلاص شبر واحد .

والعرب والشرقيون عموما يرون ان كسب المفاوضات يكون بكسب صداقة المفاوضين . فاذا استطاع ان يجعل الخصم صديقا كان ذلك نصف النجاح أو النجاح كله . ولذلك تجد الشرقيين يهتمون جدا بالعلاقات الودية بين كل

الاطراف . ومثل هذا التعبير شرقى مائة فى المائة : ولكنه رجل ظريف وفى غاية الأدب !

وهذا يكفى لأن تفاوضه وان تسلم له بما يريد . مع ان هذه احدى البديهات : ان يكون المفاوض لطيفا مهذبا مؤدبا ناعما رقيقا خجولا .. ولكن عند العرب من المهم جدا ان يكون أدبك بارزا ولطفك غالبا .

والفرنسيون يفضلون مناقشة المبادىء مناقشة منطقية . وهذه المناقشة اهم عندهم من الوصول الى شىء . اذ يكفى ان يبدو المفاوض متحضرا حتى لو لم يصل الى نتيجة .

والفرنسيون يرون ان « التوفيق » بين وجهات النظر نوع من الضعف . لأن القوة هى ان تأخذ بوجهة نظرى أو بوجهة نظرك ـ وليس بالاثنين معا !

والتوفيق : اهانة عند الشعوب اللاتينية . لأن معناها : قليل عندك مع قليل من عندى .. وتكون النتيجة : لا أنا رضيت . ولا أنت !

والمفاوض الامريكى يبدأ الحديث بأن يقول : عندى اقتراح عادل يرضى كل الأطراف .

وهذا يجعلك تحس انه فكر فى الذى تريده انت والذى يريده هو . وبذلك فهو اقتراح اتجه الى العدل مباشرة . والحقيقة غير ذلك . فالذى نسميه عدلا ، ليس الا وجهة نظره هو . أو قريبا منها !

والشعوب اللاتينية تفضل : الفصال والمناقشة فى السعر مرة بعد مرة .. دون ان يتضايق البائع أو المشترى .. اما الذى لا يفاصل فيرونه جاهلا أو مستهترا .

وعندما يرفض الامريكى ان يفاصل العربى أو الصينى ، فالعرب والصينيون يرون ان هذا الامريكى ليس جادا . وانه رفض المفاوضة والجلوس معا ، وانه عنيد متعنت !

كنا فى اليابان نشترى اللؤلؤ من احد المحلات الشهيرة . فطلع علينا البائع يقول : هذا العقد ثمنه الف دولار بعد خصم ٤٠ ٪ من ثمنه .

أى انه اجرى تخفيضا قدره ٤٠ ٪ ولكن لماذا ؟ انه سعر خاص بالوفود المصرية .. ومعنى ذلك ان البائع قد نزل عن مكسبه من أجلنا . وتجد ان هذا التخفيض غير معقول . ولكن امام أدب البائع وذوقه لا يخطر على بالك انه كذاب . ولكنه كذاب طبعا . فهو قد وفر عليك وعلى نفسه ان يدخل معك فى

فصال . ومع ذلك يقبل ان تفاصله . وقد استعد لذلك . ويخفض سعر العقد قليلا .

وبعد ذلك تريد ان تعرف إن كان هذا الرجل قد ضحك عليك ، فتذهب الى اى محل آخر لتعرف كم يساوى مثل هذا العقد . ولكن اللغز اليابانى الذى ليس له حل : انك لا تجد عقدين متشابهين فى محل واحد أو فى جميع المحلات . كيف ؟ هذا هو اللغز اليابانى .. اذن فلقد تحقق الذى تريد : فصال أدى الى خفض السعر ، وفصال آخر لتخفيض الذى انخفض !

والمفاوض الامريكى يريد ان يبحث عن الحقيقة بشكل علمى ، ثم انه عملى جدا بعد ذلك . مثلا لو أراد ان يشرب ماء ، فانه يبحث عن الماء الصحى المؤكد النقاء والصفاء .. فاذا لم يجده فانه يشرب ماء البرك !

ولكن المهم عنده انه حاول ، وانه عندما لم يجد مضى يبحث عن المستحيل . انه يريد ان يصل ، فوصل .

أما المفاوض اليابانى فلا يهتم كثيرا بالبحث العلمى ، ولا أن يناقش المبادىء ، ولكنه فقط يعتمد على المعلومات المتاحة لديه .. المعلومات الجاهزة امامه ..

وفشل الأمريكان فى اليابان أول الأمر هو أنهم عندما دخلوا الأسواق اليابانية كانت عقولهم أمريكية ، لم يحاولوا فهم عقلية الزبون اليابانى ، أو تصوروا أن اليابانى هو الذى يجب أن يفهم الأمريكى وليس العكس .

ذهب رئيس مجلس إدارة شركة لانتاج ماكينات الحلاقة إلى طوكيو ، ورأى أن أحسن طريق لتسويق السلعة الأمريكية هى أن يلتقى بأصحاب المحلات الكبرى ، دون الوسطاء والعملاء . جلس إليهم وشرح وضحكوا أو انحنوا أمامه عشرات المرات ، وودعهم والدموع فى عيونهم ، واعتبر نفسه ناجحا . وانتظر الطلبات بملايين الجنيهات ، لم يتلق خطابا واحدا ، فقرر العودة إلى اليابان ليعرف أين الخطأ .

زار نفس الناس . ولم يكادوا يرونه حتى سألوه ان يحدثهم عن مزايا ماكينة الحلاقة . وسألوه نفس الاسئلة . وانحنوا وضحكوا وودعوه ... ولكنه أيقن : أن اقصر الطرق فى اليابان هى اطولها .. فالافضل أن ينيب عنه من يفهم العادات اليابانية اكثر وأعمق وأسرع !

واليابانى والأمريكى والفرنسى لا يدخلون فى أية صفقة تجارية دون أن تكون

هناك وثيقة .. عقد مكتوب .. فلا يكاد يجلس إليك أحد ، حتى يضع أمامك العقد الذى أبرمته معه . ومعنى ذلك أنك أنت وهو قد اتفقتما على كل شيء ، فلا يبقى إلا الوفاء بالوعد والعهد ..

وهذا بالضبط ما يضايق العرب أو الشرقيين . لأن من الممكن أن يتفق العربى معك دون عقد . بل إن كلمته تكون أهم من العقد . فكثيرا ما يرفض العقد . وكانت هذه مشكلة كبرى فى التعامل مع العرب . فقد يلتقى التاجر العربى بالياباني ويطلب إليه سلعة بمليون أو مائة مليون دولار .. دون عقد .. وهنا يحتار اليابانى فى كيفية الوفاء بها ، أو كيفية الخلاص منها .. ولكن هذا ما يحدث كثيرا فى العالم العربى ..

ويروى أحد اليابانيين انه كان قد اتفق مع تاجر سعودى على صفقة بمائة مليون دولار . واليابانى وافق . ولا عقد هناك . وقبل وصول الصفقة الى ميناء جدة سافر الوسيط اليابانى ليخبر التاجر السعودى بذلك . وكانت مائدة عشاء ، فاذا بتاجر سعودى آخر يشترى نفس الصفقة من زميله السعودى بزيادة خمسين مليون دولار .. فلا السعودى الأول قد أبرم عقدا مع اليابانى ، ولا السعودى الثانى .. وعندما نهض الرجلان يتعانقان وجدا الوسيط اليابانى قد اغمى عليه من هول الذى يراه ولا يتفق مع الف باء التجارة اليابانية !

والشعوب اللاتينية تنظر الى العقود على انها قطع ادبية يمكن تغييرها اثناء توقيعها أو بعد ذلك .. ثم يظهرون سعادتهم بأنهم اثناء العقد قد تعرفوا على الناس الطيبين والكأس اللذيذة والفتاة الجميلة والراقصة السمراء ، وان العلاقات الانسانية اعظم وابقى من الصفقات التجارية !

ولكن ليست هذه افكارا مؤكدة وقواعد ثابتة .. فمن الممكن ان يفاجأ الأمريكى نصف المتعلم بأن الذى يفاوضه كويتى قد تعلم فى كمبريدج ، أو سعودى تخرج فى برنستون أو مصرى حاصل على تسع شهادات عليا ـ هنا يجب أن يتنبه المفاوض أو السمسار أو السياسى الأمريكى ان الذى تعلمه من الكتب قبل ان يجيء الى هذه البلاد يجب تغييره وتبديله !

يروى تاجر امريكى انه كان يجلس مع عدد من المفاوضين العرب فى نيويورك .. ولم يكن يدرى كيف يشدهم الى جانبه .. فهم قد ارتدوا الجلابيب ويضحكون دائما ويردون بكلمة أو بكلمتين ويتفادون المناقشات الفنية ـ كأنهم لا يريدون أو لا يفهمون . وتأكد لديه احساس بأنهم لا يفهمون . وفجأة ظهر د .

هنرى كيسنجر ليقفز أحد المفاوضين العرب ويغيب فى احضان كيسنجر ، الذى كان زميل الدراسة فى المانيا وأمريكا .. واخذا يتحدثان بالالمانية والفرنسية والانجليزية .. هنا تغير اسلوب وصوت المفاوض الأمريكى الذى خدعه الجلباب العربى !

★ ★ ★

وحياتك لا خلاف بين آن تفاوض رجلا على كلبه ، وان تفاوض امرأة على قلبها .. كله بيع وشراء .. كله مصالح وان اتخذت اسماء شاعرية رقيقة .. ويكفى ان تستعيد ماذا سمعت فى إحدى المرات عندما اختلفت انت مع صاحبة القلب ـ أنها اعنف وأكثر شراسة من صاحب الكلب .. والكلب !

فى انتظار عبقرى أن يجىء !

التسابق الدموى بين الدول الصناعية الكبرى جعلها تكتشف أنها غير قادرة على المنافسة . أو أنها قادرة ولكن ليس كما يجب .. فلا تزال أمريكا دون ألمانيا وألمانيا دون اليابان ، ولابد من تدارك هذا الموقف العلمى الصناعى التجارى الخطير . أما أمريكا فقد رأت ضرورة إعادة النظر فى كل مراحل التعليم : المعلم والطالب والكتاب المدرسى والرحلات والحوافز .

أما اليابان فقررت أن تدخل القليل من المرح على الأساتذة والعلماء . فالعقول اليابانية جادة جدا ، ولابد من انعاشها بالمرح والرحلات .

وفى ألمانيا انعقد هذا الأسبوع المجلس الأعلى للجامعات . واحتفل بمرور ٣٥٠ عاما على إنشائه . أما جدول الأعمال فموضوع واحد : البحث العلمى .

وقد لاحظ أعضاء المجلس أن العلماء الشبان لا يلقون من العناية ما يستحقونه . ولذلك فلابد أن تدركهم الدولة قبل أن تبتلعهم الشركات الصناعية . فالعلماء الذين يعملون لحساب الشركات الكبرى يوجهون عبقريتهم فى خدمة الشركات باختراع ما تحتاج إليه هذه المؤسسات التجارية وليس ما يحتاج إليه التطور العلمى .

ولاحظ رؤساء الجامعات الألمانية وعمداء الكليات أن سنوات الدراسة الجامعية طويلة وأنها تزداد عاما بعد عام .. ثم إن العلماء الشبان الذين يريدون الاستمرار فى التدريس يضيعون سنوات عديدة فى الحصول على الدبلومات والماجستير والدكتوراه وامتحانات الأستاذية . ولابد فى كل هذه المراحل من تقديم أبحاث اكاديمية بحته . فاذا أراد هؤلاء العلماء أن يواصلوا أبحاثهم وجدوا أن ميزانية الدولة تسمح بالقليل أو لا تسمح . فوزير المالية هو وحده الذى يحدد مجالات البحث العلمى ؟ !

بينما الشركات الكبرى تتصيد العلماء وتسخرهم فى معاملها لخدمة أهدافها التجارية ..

ولذلك اقترح عدد كبير من الأساتذه أن يتبرعوا بجانب من مرتباتهم وحوافزهم للعلماء الشبان لكى يعملوا فى حرية .. دون قيد من الدولة أو إغراء

من الشركات الكبرى ، فى المانيا أو فى أمريكا ..

فمهمة المجلس الأعلى للجامعات هى تشجيع البحث . ولا يهم مطلقا فائدة هذا البحث . المهم أن يعمل العلماء فى حرية تامة . ومن الطبيعى أن يفشل العالم أحيانا .. ولذلك تجب حماية العالم اذا فشل . فتاريخ التقدم العلمى محفوف بالفشل واليأس .

والألمان يضربون مثلا بأحد المستشرقين أمضى من عمره عشرين عاما يبحث فى « الهمزة » وهل هى بداية الحروف الهجائية .. أو هو الألف .. أو أن الألف صار ألفا لأنه عبارة عن التقاء همزتين ـ ولا توجد شركة أدوية أو مطاط أو الكترونية تدفع مليما واحدا لعالم يريد أن يثبت أن الهمزة وليست الالف هى بداية الحروف الهجائية .. أو أن الصفر هو بداية الأرقام !

ومنذ سنوات قابلت أحد الشبان المصريين يدرس فى المانيا : وموضوع بحثه : ما هى الفوارق بين فأر الحقل المصرى وفأر الصحراء الليبى ـ أما الذى ينفق على هذا البحث فهو إحدى شركات الأدوية . لأن لها هدفا هو كيف تقتل الاثنين معا بمادة سامة واحدة .. خاصة أن الفأر الليبى يرفض تناول العقاقير والمواد الكيماوية ـ وهذا لغز لم يفلح فى حله إلا باحث مصرى .. بينما كان زميل له مصرى أيضا يبحث عن عدد حبات اللقاح التى تنقلها الفراشة فى أرجلها ـ أما من الذى ينفق على هذا البحث فإحدى الجامعات !

واذكر أننى كنت أزور « معهد الرازى » للسموم بالقرب من مدينة طهران . وفى هذا المعهد علماء من كل الدنيا ، يبحثون فى فوائد السموم التى يستخرجونها من أنياب الثعابين والعناكب والعقارب . أما أكبر الوفود العلمية فقد كان الوفد الفرنسى الذى جاء يبحث عن كيفية استخدام شحم الثعبان فى نعومة بشرة المرأة . وكان هذا الوفد الفرنسى يعمل لحساب الشركات التى تنتج أدوات التجميل !

ووجدت أيضا وفدا يابانيا يبحث عن فوائد ألبان الحمارة . فقد امتلأت كتب التاريخ الرومانى والأغريقى والفرعونى باستخدام لبن الحمارة فى حمام السيدات الجميلات ، لأن لهذا اللبن خاصية تنعيم البشرة بما فيه من دهون وفيتامينات .. وقد عرفت اليمن القديمة مزايا هذا اللبن ، فكانت تملأ به حمامات بلقيس ملكة سبأ وتضيف اليه الكثير من العطور والتوابل والورود . وقد رأيت فى فيلم « ملكة سبأ » بطولة الممثلة الايطالية جينا لولو بريجيدا ، قبل

أن تلتقى بالملك سليمان لتبهره وتفتنه انها قد أخذت حمامها من اللبن الساخن مرة ومن اللبن البارد مرة أخرى .. ثم أقبلت عليه يلفها البخور وتبرق أمامهما الهدايا من ذهب وفضة وماس !

وكانت كليوبطره تحكم مصر من حمامها الدافىء من لبن الحمير ..

وكذلك شجرة الدر . فقد اندهش الذين اقتحموا قصرها بعد قتلها بالقباقيب ، أن بالقرب من القصر زريبة بها عدد كبير من إناث الحمير .. واشاعوا فى ذلك الوقت أن الأرمن يأكلون الحمير ـ فقد كانت أرمنية ؟ !

والمخترع الأمريكى أديسون هو الذى قال عن نفسه لست من العلماء وإنما أنا من المخترعين .. فالعالم هو الذى يبحث من أجل العلم ومعرفة الحقيقة . أما أنا فأبحث عن الفلوس ، ولذلك أخترع ما آراه نافعا !

وهذا هو الفارق بين أديسون الأمريكى وبين أعظم عقل خلقه الله : نيوتن الانجليزى .. فهذا العبقرى نيوتن عاش ومات من أجل العلم . وان كان قد استخدم عبقريته الرياضية فى الكسب عن طريق المضاربات حتى ترك ثروة تبلغ ١٦٠ ألف جنيه وهى تعادل الآن مئات الملايين !

ولا يزال اسحاق نيوتن هو المثل الأعلى للعالم . فهو عندما ولد كان طفلا مبتسرا . والداية التى أخرجته من بطن أمه ، أكدت أنه سوف يموت بعد ساعات .. فهو ضعيف الوزن ـ ولكنه عاش ٨٤ عاما . بينما مات أبوه فى الثلاثين .. وكانوا يسندون رقبته بالياقات الجافة حتى لا تقع إلى الامام أو إلى أحد الجانبين .. ثم كان تلميذا بليدا . وفجأة تفجرت العبقرية فى سن صغيرة . واختاروه أستاذا للرياضيات فى جامعة كمبريدج وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . وظل يشغل هذا المنصب ٣٦ عاما .

واستطاع عقل نيوتن الجبار أن يسع الكون كله ويكشف قوانين الجاذبية وحركة الأجسام فى الأرض وفى الفضاء .. واستطاع أن يخترع علما من أوله لآخره : حساب التفاضل والتكامل ..

وكانت له طريقة خاصة فى حل المشاكل الرياضية العويصة : أن يبحلق فى الفراغ فى تركيز شديد .. ساعة وخمسا وعشر ساعات ، لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك . وفجأة وكأنه آلة الكترونية يمسك ورقة وقلما ويكتب الحل دون أن يشطب أو يقرأ ما كتب !

ولما سئل نيوتن عن سر عبقريته قال : لا سر ، وإنما أنا صاحب فكر صبور !
ولما كان الناس ينظرون إلى نيوتن على أنه أعظم العظماء وعبقرى العباقرة وأنه نصف إله ، كان يسخر ويقول : أنا مثل طفل صغير قد اكتشف فى رمال الشاطىء ظلطة ملونة .. ثم اكتشف ظلطة أخرى بينما « محيط الحقيقة » أمامى لا أعرف منه شيئا !

* * *

وكل الدول العظمى والكبرى تضاعف من ميزانيتى : التسليح والبحث العلمى .
وفى زمن الحرب يتحول العلماء إلى جنود .. وتصبح العلوم كلها فى خدمة الحرب . فمن أجل الحرب كانت السيارة والطيارة والغواصة وسفن الفضاء وأقمار التجسس .. ثم حرب النجوم - أى استخدام سفن الفضاء فى تحطيم سفن التجسس وجمع المعلومات .. وبعد أن انهدمت الحضارة الانسانية كلها بالحرب العالمية الثانية كان لابد للانسان أن يعيد البناء ، وزراعة الأرض والمصانع واستئناف الحياة فى سلام .. ولكن أهم ما كان يجب أن يسارع ببنائه : الانسان .
فالانسان قد شردته الحرب ، وهزمه اليأس .. ولابد أن ينهض من جديد ، يستأنف الحياة ، والتطور .. وعندما احتل الحلفاء (أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا) ألمانيا تسابقوا فى فك مصانعها .. وتسابقوا أكثر فى خطف علمائها .. ولذلك عندما أطلق الروس أول قمر صناعى ، ثم لحقهم الأمريكان ، والتقى القمران فى الفضاء - تقول النكتة إنهما راحا يتكلمان الألمانية !
وليست صيحات علماء التربية فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان الا انذارا لخطورة هذا الضياع الهائل للشبان فى كل هذه الدول . ولابد من انقاذ الشبان ، ففى ذلك انتشال للدولة حتى تلحق بالدول الأخرى التى نافستها وتقدمتها . فهذه الدول مشغولة بدفع النابغين إلى صفوف العبقرية .. فالنابغون كثيرون . والمخترعون أيضا . ولكن الذى تبحث عنه هذه الدول العظمى طراز آخر من الناس : المواهب الخارقة القادرة على اختصار الوقت والجهد والمال بقفزات فريدة !

* * *

دعنى أذكر لك حادثة مصرية : من عشرين عاما جاءنى رجل قصير القامة

كبير الرأس أبيض الشعر قال لى إنه هو وأخوه عبدالله سليمان كان لهما سيرك فى برلين . ولديهما صور مع هتلر وجواب بخط يده يبدى اعجابه الشديد بنشاطهما فى المانيا . وقد ذهبت إلى المانيا ورأيت أخاه هذا ورأيت الخطاب . أما السيرك فلم يعد له وجود . فأخوه وأولاده وأحفاده قد اتخذوا صناعات مختلفة . أما هو ـ عبدالعزيز سليمان ـ فيعمل جزمجيا . كيف ؟ .

ولكنى لست جزمجيا عاديا ـ هو يقول ويدفع عن نفسه تهمة أن يكون مجرد أسطى . فقد اهتدى إلى نظرية جديدة فى صناعة الجلود ، فهو يستخدم بقايا الجلود التى تتناثر من أيدى الجزمجية ويعالجها ببعض المواد الكيماوية ـ فاذا الفتافيت والقصاقيص قطعة واحدة . وهو يلونها حسب رغبته .. ثم إنه لا يحتاج إلى فرن لطبخ الجلد الجديد ، فدرجة حرارة الغرفة تكفى ، وذلك بفضل المادة التى ابتدعها واحتفظ بسرها .. وقدم لى صندوقا به أربعون نوعا من الجلود من صناعته هو .. وقد استخدم الجلد والرمل ومسحوق الزجاج ومسحوق الفضة والنحاس فى صناعة أنواع فاخرة من الجلود ..

ولما وجد أننى لست مقتنعا تماما كان لابد أن أذهب إلى بيته . والبيت متواضع والزوجة والأولاد .. والبيت غرفتان . واحدة كتب عليها لافتة باللغة الألمانية يقول فيها : معمل العالم الجليل عبدالعزيز سليمان . ممنوع الاقتراب والتصوير قطعيا !!

ودخلت لأجد معملا نظيفا جدا أنيقا جدا وبه أشكال وأحجام من الأوانى امتلأت بالمواد الكيماوية .. ولها رائحة خانقة .. لقد أنفق أمواله كلها على هذا المعمل .. ووجدت أكواما من الجلد . وأوراقا بها مقالات رياضية .. والذى أضحكنى أن زوجته لا تعرف الألمانية ولا أولاده .. ولكنه أراد أن يعطى لنفسه هذه الأهمية التى لا يجدها عند أحد من الناس !

ولما استأذن ليحضر أكياسا من الورق اقتربت زوجته لتسألنى : يا سعادة البيه .. الكلام ده صحيح ولا الراجل انهبش فى مخه !

قلت لها : صحيح يا سيدتى . زوجك مخترع عظيم . ولكن بلدنا لا يقدر .. وسوف نذهب معا إلى وزير الصناعة . وسوف ترين صورته فى الصحف .

وعندما عاد الرجل سارعت زوجته ، على غير العادة ، لتساعده ، فأدهشه ذلك ؟ . هل ذهبت كلماتى إلى أعماقها ؟ ولكنه لم يلتفت إلى هذا الاهتمام المفاجىء المؤقت .. وإنما اتجه إلى المعمل يعرض آخر أبحاثه !

والدموع فى عينيه وفى عينى دخلنا مكتب وزير الصناعة . والرجل كان يرتعش ولا يعرف كيف يشرح نظريته .. فكثيرا ما كانت تغلبه اللغة الألمانية التى يتقنها تماما .

وخرجنا على موعد ووعد بالمساعدة التامة ..

وانشغلت عن الرجل .. وبعد سنة أو تزيد وجدت أولاده فى مكتبى : البقية فى حياتك أبونا مات .. وأوصانا بأن ندفن معه الاختراعات والأبحاث التى كتبها .. وأن نضع على قبره هذه العبارة : من أجل صناعة الجلود عاش ومات : جزمه !

★ ★ ★

وأذكر أيضا أن طالبا من مدرسة المنصورة الثانوية جاءنى من ١٨ عاما ومعه اختراع عبارة عن استخدام أشعة الشمس فى تشغيل راديو صغير .. هذا الراديو فى صندوق كبير من صنعه هو .. والخلايا الشمسية من تركيبه الكيمائى .. أما هذا الطالب فله مطلب وحيد : أن يساعده أى أحد على أن يقرأ .. أو يسافر للخارج لكى يتعلم أفضل وأسرع ..

وكانت لدى الطالب اختراعات عملية مثلا : سرير للطفل تستطيع الأم أن تهزه وهى بعيدة عنه لكى ينام الطفل عن طريق توصيلات كهربية .. واخترع ساعة تدق عدة مرات لكى توقظ عددا من الناس فى أوقات مختلفة .. واخترع أنواعا من المصابيح توضع فى البيوت فتضىء كل واحد تبعا لعداد يضبطه .. واخترع أنواعاً من المصابيح توضع فى البيوت فتضىء كل واحد منها ساعة أو ساعتين .. وتنتقل الاضاءة من واحد إلى الآخر وفقا لعداد يمكن ضبطه على النحو الذى نريد .. واخترع حقنة يمكن أن يعطيها الانسان لنفسه بأن يضعها على ذراعه أو على فخذه .. ثم هى تندفع برفق وبحساب شديد ، حسب الزمبلك الذى أوصله بها ..

ومشكلة هذا الشاب أن دماغه يفرز أشكالا وأدوات .. ولكن ينقصه شىء ما لا يعرفه .. ينقصه العلم .. إنه مثل طفل يفتح فمه وينطق بعض الأصوات والحروف .. إنه يريد أن « يفسر » .. أن ينطق ـ ولابد أن نساعده على ذلك .

وذهبت معه إلى أحد العلماء الكبار فى مصر . وحمل الطالب كل « اختراعاته » أو محاولاته أن يخترع .. أن يقول بيديه .. وكان الأستاذ سعيدا .. ودمعت عيناه .. ورأى فى هذا الطالب تعويضا من الله عن ابنه الذى مات صغيرا .

واكتفى الأستاذ بهذه الرؤية وهذا اللقاء ، ولم يفعل شيئا .

ولا أعرف أين اختفى هذا الطالب .. فقد خرج من مكتب الأستاذ ولم يظهر فى أى مكان آخر .. ويقال إنه انتحر .. ويقال هاجر إلى أمريكا .. وكان وحيد والدته التى ماتت بعد غيابه بشهور !!

وعلى الرغم من تشجيعنا للشباب لأن يفكر ويغامر ويخاطر ، فإننى لم أسمع عن أحد قد قفز من المحاولات الصغيرة إلى ما هو أكبر وأعظم .. هل لأننا نشجعهم صغارا ونتركهم كبارا ؟ هل هم نبات شيطانى بسرعة ينمو وبسرعة يموت ؟ هل نحن ننظر إلى هؤلاء الشبان على أنهم تسلية ، فندهش ونتعجب لها .. كأننا نتفرج على الحاوى يخرج الكتكوت من جيبه ، ثم تجده فى جيبك . ونضحك . ولا نذهب إلى أبعد من الابتهاج إلى أن مصر ما تزال قادرة على الولادة وقادرة على وأد أبنائها وهى تضحك !!

فما الذى يحدث فى اليابان ـ مثلا .. نفرض أن شركة راديوهات تريد تطويرا فى الشكل .. عشرين شكلا مختلفا ولونا وحجما واستخداما . وأن تظل هذه الأشكال سرا . فالشركة تدعو مئات من خريجى الفنون الجميلة والمهندسين والرسامين وتطلب إليهم أن يفكروا معها . وتدفع لكل مشترك مبلغا من المال . وتدفع مكافآت سخية لصاحب الاختراع الجديد ـ ويتقدم عادة ألوف الشبان . ثم تعود الشركة فتطلب اليهم اختراع مادة أكثر صلابة وأرخص وأيسر عند التشكيل وأخف وزنا ..

ويتقدم ألوف الكيمائيين .. ومن بين كل الأبحاث تختار خمسة أو عشرة . وتدفع . ثم تنتقى عددا ليكون من هيئة المخترعين لديها ..

وكل مخترع ينتقل للأعمال الادارية له مرتب . فإذا ظل فى إدارة المعامل ، فله مرتب أكبر .. واذا اختار أن يظل مخترعا ، فهو صاحب أكبر أجر .. وتتولى الشركة إسكانه واختيار زوجته وتربية أولاده على حسابها .. وتنصحه بأن يجعلهم أيضا من المشتغلين بالبحث . فإن فعل ، كان تعليمهم على حسابها . وكانوا من علمائها وموظفيها جيلا بعد جيل .

* * *

أخيرا جدا نحن اكتشفنا أن الشاب المصرى ضائع . وأخيرا جدا اهتدينا إلى الوسيلة الوحيدة لكى يجد الشاب نفسه وذلك بأن نعطيه أرضا . وفى الأرض وعلى صدرها وفى أحضانها ينهد حيلة وينقطع نفسه .. فينكتم فلا يتعاطى المخدرات ولا يدمن العنف . فنحن أردنا أن نزرع به أرض مصر ، وأن نزرعه هو

أيضا .. زوجته وأولاده .. لا بأس !

ولكن هناك فارقا كبيرا جدا بين أن نتخلص من الشباب من دوشته وتسكعه وسخطه ، وبين أن نخلص الشباب من القرف والملل واليأس فنعطيه أعظم الفرص ليكون أعظم العلماء ..

إن الذى نحتاج إليه فى مصر ، أكثر من غيرنا ، هو أن نستثمر الشباب استثمارا ايجابيا ، فلا ننظر إليه على أنه مخرب مجنون ، ولذلك نملأ عينيه وفمه بالتراب . فلا يرى ولا يتكلم ـ غلط !

الشباب أعظم ثروات مصر ونحن لا نلقى بثرواتنا فى التراب .. إنه ذهب .. ماس .. بل إن الذهب والماس لا يستطيع أن يشترى لنا شبابا متدفقا بالحياة والأمل ، وطنيًا مخلصا .. فالذى لا يمكن شراؤه بالفلوس هو أغلى من الفلوس .

فليس التعليم هو الذى نريد فقط ، وإنما التفوق هو الذى نتمناه .. فالنابغون هم وحدهم القادرون على أن يطيروا بنا من التخلف إلى التقدم ، ومن إخفاء رؤوسنا فى الأرض ، إلى رفعها فى السماء !

ومن التى
لا تقتل زوجها ؟!

كثرت حوادث قتل الأزواج . واندهش الناس . وجاءت هذه الدهشة فضيحة للرجل والمرأة .. فقد دلت على السذاجة والجهل .

فالمرأة تريد أن تؤكد لبنات جنسها ولنا ، أنها تستطيع أن تقتل أيضا . ومن قال إنها لا تستطيع ؟ !

ومن قال إنها لم تقتل منذ كانت حتى اليوم ؟ .

إن الذين يتعمقون فى تفسير تآمر المرأة والأفعى على طرد أبينا آدم من الجنة ، يجدون أن السبب هو رغبتها فى أن تقتله .. ولما كان القتل لا يرتكب فى الجنة ، نزلت بزوجها الى الأرض .. وكان ما نعرفه .. إذن فلقد نسيت المرأة أنها قاتلة الرجل منذ كانت ومنذ كان ولكنها هذه تريد أن تجعل الجريمة دموية . فقد أضاعت مئات ألوف السنين تقتل بلا دماء ..

وجاءت دهشة الرجل دليلا جديدا على غروره وجهله . فقد تصور أنه هو وحده الذى يريق الدماء فى القتل وفى الحرب .

ففوجىء بأن المرأة تستطيع . ونسى أن الذى يقتل والدم فى يده سوف يلقى جزاءه لأنه أشهد الدنيا عليه ، اليس الدم فى يده ، أما هى فقتلت ولا تزال تقتل زوجها وكل رجل يتعرض لها : أبوها وابنها دون ان يرى أحد بقعة دم فى يدها أو ثوبها .. ولذلك لم يعاقبها أحد ! !

أو كأن المرأة ضاقت بأن يصفها الرجل بالجنس اللطيف ـ ويقصد الناعم .. أى ذات البشرة والثوب والخد الناعم . وهذا صحيح فالنعومة فى ظاهرها .. أما فى أعماقها فمذبحة العلاقات الانسانية كلها !

ودهشة الرجل من أن تقتل المرأة زوجها يدل على سذاجته .. وأن تفعل هى ذلك يدل على جهلها أيضا ..

فالرجل لسذاجته لا يتصور لحظة واحدة ، أن تقتله زوجته .. مع أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى ينام مع عدوه فى فراش واحد . وأن هذه فرصة يجب

ألا يضيعها عدو على نفسه ..

والمرأة عندما أرادت أن تثبت قدرتها على القتل ، أثبتت عجزها عن فعل ذلك .. فقصص « كليلة ودمنة » تحدثنا عن أن الأسد عندما مرض وتقدمت به السن ، لم يعد قادرا على أن يصطاد فريسته من الغابة .. وانما ينتظر الحيوانات التى تزوره لتطمئن على صحته ، فكان يفترسها .. ويقال ان الذئب عاتب الثعلب يوما لأنه الحيوان الوحيد الذى لم يذهب الى ملك الغابة ليطمئن على صحته . وقرر الثعلب أن يذهب .. فلاحظ أن آثار الأقدام تتجه كلها الى عرين الأسد .. ولم ير أثرا لقدم تخرج من العرين . فأيقن أن عرين الأسد : طريق بلا عودة فلم يذهب !

فأن تقتل المرأة زوجها ليس دليلا على قوتها ، وانما على عجزها ، وهذا يدل على جهل المرأة بأنها لا تعرف قدرتها الهائلة . فلا هى مريضة ولا هى عجوز . وانما هى فى عنفوان شرها وجبروتها ، وهى لذلك قادرة كاسرة ـ ولكنها لا تدرى !

قرأت للباحثة الأمريكية آن جونس كتابا ممتعا بعنوان « نساء يقتلن ـ الفاتنات القاتلات ـ لماذا تقتل المرأة ؟ ومن الذى تقتله ! »

فهى تروى لنا قصة السيدة التى انتظرت الملك جورج الثالث . ووقفت بين المتفرجين وفى يدها ورقة تريد أن تقدمها له . وتحت الورقة اخفت سكينا طويلا . ومازالت تزاحم الناس حتى اقتربت من الملك . وفوجئت بأن الملك قد انحنى تحية لها . وبهذه الرقة أحرجها ، فلم تستطع أن تغمد السكين فى بطنه . وأخذ الملك الورقة وأعطاها لواحد من حاشيته .. واكتشفوا السكين . وجردوها من السلاح . وكانت الورقة بيضاء . ولما سئلت قالت انها أرادت أن تلفت نظر الملك .. ثم تلفت نظر الحاشية والشعب كله إذا هى ضربته . فعندما تقع الجريمة على شخصية هامة ، تكون الجريمة هامة . ويكون القاتل أهم . لقد كانت لها شكوى : إنها فقيرة تريد معونة من الملك ..

وفى ديسمبر سنة ١٧٢٦ رحلوها الى أمريكا ـ فقد كانت أمريكا فى ذلك الوقت منفى المجرمين الانجليز !

وهذا ما يفعله كثير من المجرمين أيضا ، أو من الارهابيين أو أبطال حركات التحرير .. انهم يلفتون العالم الى قضاياهم بعنف . انهم يطلقون النار على شخصية هامة ، لكى يصبح القاتل هاما .. وكذلك مشكلته !

وتقول السيدة آن جونس : فما الذى يدهش الرجل في أن تكون المرأة قاتلة ؟
ان الرجل يندهش .. وهذا خطأ في تفكيره . فهو قد استراح الى أن المرأة انسان سلبي . وانا هناك في البيت . يجب أن تفنى في خدمة الرجل ، وتموت إذا هو تخلى عنها . فالبيت لها والشارع له . وسعادته وتربية أولاده هى حياتها ، أما هو فيعمل ويغامر ويقامر ويعربد ، وله كل الحقوق وعليها كل الواجبات ..
وتقول أيضا : انه في أعقاب الثورات الأمريكية والفرنسية والانجليزية ، ازداد غرور الرجل وانحطت المرأة في البيت . وانعزلت عن جميع الرجال . فكان المألوف في القرن الثامن عشر في أمريكا ألا يتحدث الرجل الى المرأة إذا وجدها ـ وعليها أن تحنى رأسها بما معناه انها في غاية الخجل لأن رجلا يكلمها أو يحاول ذلك . والمعنى : تعميق المسافة بين الجنسين ليبقى كل واحد على حاله .
ولا يتم اللقاء إلا في الزواج . وكان الزواج في القرن الثامن عشر في فتاة في السادسة عشرة . وأصبح مألوفا أن تجد فتيات أمهات .. حتى صار من الصعب أن تعرف بالدقة ان كانت هذه أم الطفل أو أخته الكبرى !
ولذلك استراح علماء النفس وعلماء الجريمة ورجال القانون والقضاة والمحلفون إذا ظهرت أمامهم مجرمة أن يتساءلوا : يا ترى ما الدافع ؟
أى ما الذى دفعها الى ارتكاب هذه الجريمة ـ أن تقتل زوجها مثلا .
وتكون كلمة « الدافع » معناها : سبب القتل !
مع أن « الدافع » مختلف تماما عن السبب .. فإذا قتلت امرأة زوجها المخمور دائما ، قيل ان دافعها هو أن زوجها سكران ، وانه يضربها ويستولى على فلوسها فيجوع أولادها . وتتعرى هى . ولكن السبب غير هذا الدافع .. السبب هو انها تريد حياة أفضل مع رجل آخر ليس مخمورا لتعيش في هدوء .
وعندما يحاول هؤلاء الخبراء ان يجدوا الدافع فانهم يقولون مثلا ـ وقد امتلأت بذلك كل مرافعات المحامين وحجج القضاة وشهادة المحلفين ـ ان السبب هو اضطراباتها الشهرية .. أو هى حالة جنون مفاجئة أو هى الغيرة وحدها . لماذا ؟
لأن هناك مفهوما خاطئا آخر : وهو أن المرأة تعيش للحب وتموت وتميت بسبب الغيرة . فليس في حياتها شىء إلا أن تحب زوجها ، وإلا أن تدافع عنه حتى الموت .. موتها هى أو موت المرأة الأخرى وموت الزوج !
ويقال أيضا ـ في القرنين ١٨ و ١٩ ـ ان كثرة جرائم المرأة سببها حركات

التحرير .. فالمرأة تحررت ولما قررت أن تأخذ حقها بذراعها . ولم تكن ذراعها خالية من السكين أو المسدس أو السم !

وفى القرن التاسع عشر ساد التفكير الجنائى فى أوروبا وأمريكا فذهب العالم الايطالى شيزاره لمبروزو : الى أن هناك نوعين من المرأة المجرمة .. المجرمة بفطرتها والمرأة العادية ..

أما المجرمة بالفطرة فهى التى تولد مجرمة ويظهر ذلك فى طفولتها .. فهى تضرب وتسرق وتكذب وتخون .. ثم تصبح مجرمة . ويكون اجرامها نتيجة طبيعية . فلا يصح أن نفاجأ بها . فقد ولدت لتقتل . وتكون هذه المرأة خشنة عنيفة أقرب الى الرجل منها الى المرأة ..

أما المرأة العادية فهى الرقيقة الطبيعية السلبية التى تولد للحب وللزواج وللوفاء وللأمومة والتضحية .

ولكن الذى حير العالم الايطالى لمبروز هو : كيف تتحول المرأة العادية فجأة الى امرأة مجرمة ؟ ثم كيف يمكن أن نتنبأ بسلوكها هذا .. وكيف إذا وقفنا أمام طفلتين صغيرتين أن نتنبأ بأن هذه سفاحة غدا ، وأن الأخرى ضحية لها أو لغيرها من النساء ؟

وقد حدث كثيرا . أن وقفت امرأة ممزقة القلب والملابس تبكى وعلى وجهها بعض الكدمات ومتهمة بالقتل ، أن اتجهت المحكمة والمحلفون الى أنها لم تقصد أن تقتل زوجها .

وانما هو حاول قتلها ، وأنها دافعت عن نفسها ، وقاومت فاتجه المسدس اليه هو ، فمات .. ويكون بالدليل القاطع هى القاتلة . ولكن هذا الموقف الغريب من رجال القضاء والقانون وعلم النفس سببه : اعتقادهم بأن المرأة أضعف من أن تقتل ، وانها أضعف من أن تكون مجرمة صاحبة رأى أو صاحبة موقف .

وينتهى قرار المحكمة باعدام هذه القاتلة ، بينما بعض المحلفات يبكين حزنا على جمالها وبراءتها .. وعلى ظلم الرجل للمرأة ..

وقد وصفت السيدة آن جونس محاكمات النساء المجرمات بأنها تكشف ألوانا من القسوة لا نظير لها : فالرجل فى غاية القسوة على المرأة ، والنساء أيضا أشد قسوة على بنات جنسهن .. فلا تكاد المرأة ترتكب جريمة حتى يتحد الجميع ضدها ، رجالا ونساء كأن الرجل هو الذى له حق القتل ، أما المرأة فقد ولدت لتكون ضحية فقط ..

وقالت : ان أسخف المحاكمات هى محاكمة المرأة للمرأة ..

وقالت : ان أحد أصدقائى المحامين همس فى أذنى : بصراحة ان أجمل ما فى محاكمات المرأة سيقان المحلفات ! !

أما أشهر القضايا التى تعرضت لها السيدة آن جونس فهى مأساة وقعت فى أمريكا سنة ١٩٨٠ . فقد قتلت امرأة زوجها الأول بالسم .. وقتلت زوجها الثانى وهو قسيس بالسم أيضا .. ثم قتلت زوجها الثالث بالسم بعد أن فشل أولادها فى القضاء عليه .. ثم ذهبت امام المحكمة تبكى كأنهم جميعا حاولوا قتلها .. ففى المرة الأولى احبت شابا فى مثل سنها .

وكانت هى التى تنفق عليه .. ثم استعانت برجل يهذب لها الحديقة . واحبته .. ولما علم زوجها بأن لها عشيقا ، استعانت بعشيقها على قتل زوجها بالسم ومات . وهرب العشيق فذهبت تبكى للقسيس فحركت قلب القسيس واكتسحته بذكائها ولباقتها وجمالها . فقرر القسيس أن يتزوجها . وكانت نموذجا رفيعا للسيدة المؤمنة . وكان ينادونها بالأخت فلانة ـ لأنها زوجة قسيس . وعرفت الأخت أن أختا أخرى تعاكس القسيس وتذهب اليه بعد الصلاة تعترف .. أو تهمس بالحب .. فقررت أن تتخلص من القسيس فوضعت له السم فى احدى الحفلات العامة . وسقط القسيس أمام الجميع ..

وسقط رجل آخر ـ هى التى وضعت له السم لتخفى معالم جريمتها ولتضلل العدالة .. وفى المرة الثالثة تزوجت صاحب صيدلية وعلمها كيف تقف الى جواره تبيع .. وكان رجلا بخيلا .. يبعث بكثير من الأموال الى زوجته السابقة وأولادها .. بينما يدعى أنه فقير وأنه مدين . وكان ذلك سببا كافيا لقتله . وقررت أن يكون موته سريعا جدا قبل سفره الى أوروبا .. ووضعت له مجموعة من السموم فى كأس .

ولكنه كرجل يتذوق الخمر ، ويعرف رائحة السموم لم يكد يقرب الكأس من فمه حتى اكتشف رائحة غريبة .. وهنا انهال عليه أبناؤها بالضرب فلما سقط على الأرض وضعت السم فى فمه .. فمات بعد لحظات .. ولكن السم الذى على وجهه وشفتيه وملابسه هو الذى ساعد على كشف الجريمة !

ولكن واحدة من علماء النفس هى السيدة فريدا أدلر لها نظرية أخرى . تقول فى كتابها : « أختى المجرمة » : ولماذا نذهب بعيدا فى معرفة أسباب الجريمة ؟ لماذا لا يكون الزواج هو السبب .. أى هذا النمط الممل من الحياة

معا .. وجهان متقابلان كل يوم ومعظم ساعات الليل والنهار .. ثم بعد ذلك فى سرير واحد . تحت غطاء واحد .. كل سنة وكل يوم وحتى الموت ـ حتى موت من ؟

وتقول : أى حتى موت أحدهما . فإما أن ينتظر كل منهما موت الآخر ، ليستأنف حياة أفضل بعد ذلك . أو يعجل بالوفاة فيعيش فى السجن أو مستشفى الأمراض العقلية .

وتقول : ولكن التحقيق مع عدد من المجرمات اثبت أن المرأة القاتلة لا تفكر كثيرا فى الذى يجىء بعد ارتكاب الجريمة ـ فقد رأيت واحدة حكم عليها بالسجن المؤبد .. لم تكد تدخل السجن حتى راحت تصرخ .. لقد أفزعتها زميلاتها فى الزنزانة وافزعها أكثر أن تجد واحدة عندها شذوذ جنسى قد أقبلت عليها تعتصر نهديها وردفيها وساقيها .. فأغمى عليها !

أما تعليق د . فريدا أدلر فهو أن القاتلة لم تخف أن تقتل . ولم تفزع من رؤية الدم . ولم تأسف على أنها قتلت الرجل الذى أحبته .. لأنها تتطلع الى نوع من العزلة لا تجد فيها رجلا .. ولكنها لم تفكر لحظة واحدة فى أن تنفرد بها مجرمة أخرى شاذة تحتقر جسمها ونفسها .. مع أنها قتلت زوجها احتراما لجسمها ، واكراما لنفسها !

وأصبحت النكتة فى مصر الآن : كيف تقتلين زوجك ؟ واحدة تريد أن تقطعه وتلقى به للكلاب .. وواحدة تضع له السم .. وواحدة تلقى به فى النار .. وواحدة تعلقه من لسانه .. وواحدة تضعه فى دولاب فى الحائط ليموت مختنقا .. أو يموت واقفا ، كما يحب الرجال أن يظهروا فى صورة البطل : يعيش واقفا ويموت واقفا .. أو تحبسه فى غرفة يموت من العطش فلا يكاد يرى ست كريمة تحذر الأمهات من الجفاف الذى يصيب الأطفال حتى يصرخ : أنا .. عيل .. الحقينى ياست كريمة .. ثم يموت ..

ولكن أحدا من الرجال لم يرد على هذه النكتة بأن يقول : كيف أقتل زوجتى ؟

أدبا وحياء من الرجال .. ولأنهم أكثر فهما لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة . ولأن البرىء هو الرجل رغم مظاهر القوة والعنف والصوت الغليظ والذراعين أيضا .. ولأنه يعلم فى النهاية انه لن يقتل إلا علنا .. فى الحرب أو بالعصابات لأسباب أكبر من منافسة امرأة أخرى ، أو من ضيقها بقانون الحياة معا تنفيذا لعقد مبرم بين رجل وامرأة أمام مأذون أو قسيس ..

ولا نهاية لهذه الحرب المعلنة بين آدم وحواء .. ولا نهاية .. فلا الرجال انقرضوا ولا النساء .. ولكن الحب والكراهية مثل موج البحر .. طالع نازل .. ويحاول الموج أن يزحزح الشاطىء .. فلا زحزح الشاطىء ، ولا الشاطىء قضى على الموج .

وقديما كان سيدنا سليمان يندهش لحقيقة علمية يعرفها كل طفل الآن : كيف أن الانهار تصب فى البحار ، فلا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت ؟ !

أما سبب ذلك فهو نظرية تبخير المياه تحت أشعة الشمس .. فالمياه تتبخر من البحار وتبرد فتسقط مطرا على الجبال لتفيض فى الأنهار التى تصب فى البحار التى تتبخر منها المياه وتصبح سحابا تدفعه الرياح فيسقط على الأنهار .. الى الأبد .

وفى زمن الحرب تتناقص الجريمة ، فالناس كلهم قد اتجهوا الى هدف واحد : القضاء على العدو ..

وفى مواجهة الحرب ترتفع نسبة الزواج ، فيولد أطفال عوضا عن الرجال الذين ماتوا .. وفى زمن السلم يتباعد الناس أملا فى أن ينعموا بحرية أكثر فترتفع نسبة الطلاق .. ويجىء انتقام المرأة عقابا للرجل .. فكأن الرجل عندما قرر وقف اطلاق النار على الحدود ، لم يستطع أن يوقفها داخل الحدود .. فى بيته .. فى سريره .

وسوف تزداد جرائم القتل ، دليلا على أن المرأة تفضل أن تشتعل الحرب على الحدود ، ليستقر الحب داخل الحدود .. فإذا كان سلام هناك ، فاستئناف القتل بمفردها هو الذى جعلها تنزل أمها حواء من السماء الى الأرض .

فما هو ـ إذن ـ هذا الجديد الذى أدهش الرجال وأسعد النساء ؟

لا جديد .. انها حكاية قديمة تتكرر ..

ولكن بأسلحة أخرى !

إنها لحظة أبدية

نشوان أتسـاند على الجدران .. لا أقوى على دخول بـاب مسجد الرسـول عليه الصلاة والسلام .. لا عندى كلام .. ولا عندى فكرة واحدة تراودنى أو أراودها .. ولا أعرف أين تبددت قواى .. طاشت .. ضاعت .. لا أجدها .. لا اجدنى .. لا العين تـرى ولا الانف ولا يدى ولا قدمى .. وانما فى اذنـى ما لا أقـوى عليه ..

ما قاله الامام البوصيرى فى مدح رسول الله :

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة
منى اليك ، ولو انصفت لم تلم
محضتك النصح لكن لست تسمعه
ان المحب عن العذال فى صمم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع ، وان تفطمه ينفطم

ولكنى اسندت ظهرى إلى باب رسول الله ووجدتنى اذنا واحدة يذيبها أمير الشعراء شوقى حين يقول ، وما أجمل واجل الذى قال :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد انلتك اذنا غير واعية
ورب مستمع والقلب فى صمم
والنفس من خيرها فى خير عافية
والنفس من شرها فى مرتع وخم
ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله ، يجعلنى فى خير معتصم
القى رجائى اذا عز المجير على
مفرج الكرب فى الدارين والغمم
اذا خفضت جناح الذل أسأله

عز الشفاعة ، لم أسأل سوى لمم
وان تقدم ذو تقوى بصالحة
قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الانبياء ومن
يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
سناؤه وسناء الشمس طالعة
فالجرم فى فلك والضوء فى علم
ياجاهلين على الهادى ودعوته
هل تجهلون مكان الصادق العلم
لقبتموه أمين القوم فى صغر
وما الأمين على قول بمتهم
فاق البدور وفاق الأنبياء . فكم
بالخلق والخلق من حسن ومن عظم
آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتق والقدم
اتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام فى صنم
والارض مملوءة جورا مسخرة
لكل طاغية فى الخلق محتكم
دع عنك روما واثينا وما حوتا
كل اليواقيت فى بغداد والتوم
وخل كسرى وايوانا يدل به
هوى على اثر النيران والايم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره
فى نهضة العدل . لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت
دار السلام لها القت يد السلم
يارب صلِّ وسلم ما اردت على
نزيل عرشك خير الرسل كلهم

محيى الليالى صلاة ، لا يقطعها
الا بدمع عن الاشفاق منسجم
يارب هبت شعوب من منيتها
واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس وملك أنت مالكه
قد أدخلا من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته
أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لاجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب احسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل ، وامنح حسن مختتم !

* * * *

وأصبحت عينا واحدة .. تبكى عينى على عينى .. او يبكى بعضى على بعضى .. الكل يبكى على الكل .. وان كنت لا اعرف اين البعض واين الكل .. ولا كيف تصير العين اذنا والأذن عينا .. كل الذى اعرفه اننى لم اعد مسيطرا على نفسى .. ولا معنى السيطرة .. ولا معنى الاحتواء .. كان جسمى يحتوينى . فانا فى داخله .. والان لا أعرفه اين داخلى واين خارجى ومن الذى يمسك كل ذلك ..

ولا حتى ما الذى افكر فيه .. فلم تعد لكلمة « فيه » هذه معنى .. فأنا لا أفكر « فى » احد .. أو فى شىء .. وانما الفكر اشعاع العقل ، انه يخرج .. ينطلق يتجه .. كأشعة الشمس .. تتدفق إلى كل ناحية .. وأصبحت أفكارى مثل ناقة رسول الله : مأمورة .. لا أحد يوجهها .. لا أحد يقول لها شيئا ، ولو قال فإنها لا تسمع .. ولو سمعت فكأنها لم تسمع .. انها كما نقول بلغة العصر : مبرمجة .. قد أودع فيها نظام .. يسيرها .. هى لا تدرى .. وهى لا تعى .. هى مأمورة .. وكذلك أفكارى .. مشاعرى .. هذا الذى لا أعرف له اسما ولا رسما ولا جسما .. هذا الذى يشع منى .. هذا الذى ينطق فى كل اتجاه .. ربما أفكار .. ربما مواجد .. ربما مواجع .. ربما عشق .. شوق .. ندم .. عظيم

الندم .. كلها مأمورة .. تعرف إلى أين . وماذا نفعل هناك بعيدا عنى .. أفكار لها اجنحة .. حمام .. صقور .. انها تطير وتحط هناك .. تشرب .. تغتسل .. تنتحر .. تتمسح فى الارض .. فى العتبات .. انها جميعا مأمورة .. ان تغادرنى .. ان تحل عنى .. ان تتحلل منى .. ان تتبرأ منى .. لقد تخلى عنى كل الذين عايشونى وساندونى .. وعايشتهم وساندتهم .. تخلى عنى دماغى .. عمودى الفقرى .. عظامى .. ذاكرتى .. عقلى .. ثقافتى .. تاريخى .. ولا أعرف ما الذى بقى منى .. كأننى مدين حملت معى كل فلوسى .. ولما رأت فلوسى مستحقها هربت منى .. ذهبت إلى أصحابها .. فأصبحت فقيرا . فقد كانت أموالى مستعارة .. وثروتى مقترضة .. لقد كانت أطرافى صناعية .. وألوانى مزيفة .. ونور العين وهما ، وجلاء المسمع وهما ، وصفاء العقل وهما ، وحرارة القلب وهما .. وفجأة أصبحت لا أنا .. انكشفت انفضحت .. من الذى كشفنى .. من الذى فضحنى .. عرانى .. جردنى .. افلسنى .. اعادنى كما ولدتنى أمى : عاريا عاجزا بلا اسم .. ولا أثم .. ولا جسم .. ولا نسب .

ياأنا الذى ذهب .. ياأنا الذى راح .. ياأنا الذى هاجر بعيدا ولم يعد .. فقد كنت وطنا لهذه الطيور والصقور والضباع .. التى استقرت هنا فى قفصى الصدرى .. لم أكن أعلم اننى غابة .. (سفارى) .. واننى هكذا مروض للوحوش .. لم أكن اعرف ان هذه الوحوش قد ظلت وحوشا وان تظاهرت بانها قد خلعت الناب والمخلب .. سبحان الله .. لقد رأيت الافعى تلتف على ذيل الاسد .. ورأيت الاسد يحمل على رأسه صقورا ونصورا .. ياسبحان الله .. كل ذلك خرج منى .. كلهم أصدقاء لبعضهم البعض .. لقد تحالفوا على صاحب هذا السيرك .. إلى أين .. رأيتهم يلقون بسلاحهم .. الأفعى تنفض سمها .. والأسد ينزع انيابه ، والصقر منقاره ، والضبع مخالبه ، والنفس شيطانها .. انتهت المهمة : تركونى طفلا على الباب .. اللهم رحمتك .. اننى فقدت توازنى .. لقد نقص وزنى كثيرا .. كأننى على سطح القمر .. فأنا لا امشى ولكن اقفز .. وانا لا اقفز وانما أطير .. فوق رءوس الناس .. هل كنت شعاعا بلا وزن ولا لون ولا حجم .. هل لم أعد أنا ، وإنما صرت واحدا مثل كل واحد .. امد يدى إلى يدى لا اجدها . امد يدى إلى رأسى ولا اجدها .. اضع يدى على معدتى ، فاذا هى تنفذ إلى الناحية الاخرى .. اين الذى كان هنا .. اين الذى كنت احتويه ، والذى يحتوينى .. اين الذى كان أنا ..

هل هذا هو الموت الهادىء .. هل هذه هى الراحة الابدية .. ان كان موتا فما اسهل الموت وما اجمله .. وما أخفه .. وما اجهلنا به ، لست ميتا ، فاننى لا ازال احمل حذائى فى يدى .. واحرص عليه .. اذن فانا لم أمت .. مازلت اتمسك بهذا المتاع التافه .. ما ازال مرتبطا بالأرض ..

بتراب الأرض اذن ماهذا ؟ موت مؤقت .. عينة من الموت .. ولكن من المؤكد اننى أخف وزنا ، أرق حسا ، الطف معنى ، أسعد ماذا .. أسعد جسما ونفسا وعقلا .. بل أنا السعادة نفسها . كيف ؟

لو كنت أعرف ماذا حدث ؟

لو كنت أعرف كيف يذوب جسمى من عينى .. لو كنت أعرف كيف يمكن أن يستحم الانسان من عينيه وفى عينيه .. لو كنت أعرف اننى أحمل فى رأسى بئرين لزمزم .. وأننى أتطهر من نفسى بنفسى .. كيف ؟

. هل هذا الذى فى داخلى مظاهرة ندم .. فكل خلية تقول : آسف .. عفوا .. مغفرة .. انما هى الحياة الدنيا .. هو الشيطان .. غرور العلم المحدود .. نسينا .. أنسينا .. وضعنا أصابعنا فى آذاننا .. وضعنا أيدينا على عيوننا .. لم نمسح غشاوة على قلوبنا .. ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل .. العفو من شيم الكرام .. كيف الدموع التى تنزل تعود إلى العين .. وكيف العين ترى من جديد .. والأذن تسمع من جديد .. والأصابع تلمس .. والقلب يدق فى رأسى .. والعقل يعى .. وأرانى بين الناس .. جلبابى الأبيض .. وحذائى .. وقطرات العرق على وجهى .. والهواء .. بارد من الداخل .. وساخن من الخارج .. وعادت رائحة البخور والعطور والعرق .. والمصحف فى كف والحذاء فى كف .. يسقط الحذاء ، والكف التى حملته .. وكانت نظرتى لحذائى بصقة على بياضه واخضراره ..

من كل ماقرات لم يهز رأسى فى تلك اللحظة إلا منظر رجل جاء متلصصا خائفا إلى رسول الله .. يضع يده فى يده : يارسول الله ، أن الشاعر كعب بن زهير قد جاء يطلب الامان منك .. جاء تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه التوبة إن جئتك به ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

نعم .

قال : أنا يارسول الله الشاعر كعب بن زهير . !

فحاول المسلمون أن يتهجموا عليه يقتلونه .. فقد قال كذا وكذا ضد الرسول والمسلمين . قال واحد من المسلمين : دعني وعدو الله أريد أن أضرب عنقه .

فقال الرسول عليه السلام : دعه أنت .. فإنه قد جاء تائبا !

ثم ألقى كعب بن زهير قصيدته التى تمايل لها الرسول عليه السلام .. ألقاها مرة ومرة .. ثم ألقاها فى المسجد أمام الرسول والمؤمنين :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول
نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة
القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم
اذنب ولو كثرت فى الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

نعم .. نعم .. لاتأخذنى بأقوال الوشاة

ولم أذنب .. وما أكثر الأقاويل .. ومن الذى لايقول .. اذا كانت صناعته الكلام .. سلاحه الكلام يعيش به ، وسلاحه الكلام يموت به .. فكيف لايقول ويجول ويصول .. ومن الذى ليست له جاهلية .. ومن الذى ليست له عنجهية .. ومن الذى لم يكن له أصنام وأزلام .. ومن الذى لم يعرف « اللات » فى السياسة .. و « العزى » فى الفلسفة .. ومن الذى لم يدق بابا فلم يرد عليه أحد ، ومن الذى لم يقبل بابا .. ولما لم ينفتح ، فمن الذى لم يمسح شفتيه بالعتبات يفعل ذلك ويلعن الأيام وضرورة الحياة وأن يكون زوجا وأبا وأن يكون حاقدا وحاسدا ومنتقما .. من الذى لم يذنب .. ومن الذى لو عادت به الدنيا إلى أبعد من باب رسول الله شبرا أو شبرين ، لم ترتد له المخالب والأنياب وتدفقت فى شرايينه كل الأطماع والأوجاع ؟ !

لاأعرف بالضبط ماهذا الذى يجرى على .. ما الذى يكتسحنى يمينا وشمالا .. ولكن أحاول أن أفهم .. أننى أذكر حالات مشابهة .. أو أستحضر حالات لعلنى أعرف ماهذا الذى أنا فيه، أو الذى هو فى داخلى ..

تماما كما تذهب إلى أحدى المصحات وترى الأطباء والمرضى وعربات الاسعاف .. فخيل اليك أن أمراضا توشك أن تنقض عليك .. ولذلك فأنت تتلمس صدرك .. معدتك .. عنقك .. مع أن شيئا لم يصبك .. ولكنه الخوف .. واحتمال العدوى ..

تماما كما تذهب إلى أحد أقسام الشرطة .. والجو المقبض .. والوجوه الصارمة .. والسجناء .. كل ذلك يجعلك تتلمس يديك خوفا من السلاسل .. أو تمد رأسك خوفا من ضيق الزنزانة .. مع أنك لم تفعل شيئا .. ولكنه الخوف العميق .. ولكنها الأخطاء التى ارتكبتها سرا ونجوت منها .. كأن جسمك يريد أن يدل عليك .. أن يفضحك أن يسلمك لرجال العدالة ..

كأن جسمك يشهد عليك .. يخرج عن طاعتك ..

ويوم قال لى صديق من رجال المال .. ألم تر مليونا فى حياتك . ؟

قلت : أبدا .

قال : ولا عشرين مليونا .. اذن تعال معى ..

ونزلنا إلى البدروم فى أحدى المؤسسات وانفتح باب حديد .. ومن ورائه باب حديد .. ووجدت أمامى تلا من العشرينات والعشرات .. انها عشرون مليونا .. وبلا تفكير وجدتنى أتلمس جيوب البنطلون والجاكتة .. وأنظر إلى المسافة بين قميصى وجسمى .. فجأة ودون تفكير منى انطلق الطمع والجشع والرغبة فى السطو ولذلك امتدت يدى تبحث عن مكان يتسع لكل هذه الأموال فى جيوبى .. ولابد أن يكون الحقد على الرجل والحسد له أيضا .. والرغبة القوية فى أن يزول من الوجود وبذلك أصبح وحدى صاحب هذه الثروة .. فضحنى المال .. كما فضحنى رجال الأمن والسجناء والأطباء والمرضى ..

هل تعرف كيف يصيدون فارا أو ثعبانا .. انهم يضعون أمام جحر الفار قطعة من الطماطم أو البيض .. فاذا شمها خرج .. ويضعون أمام جحر الثعبان فارا فلا يكاد يشمه حتى يخرج .. وقد وجدتنى أمام مغريات .. أمام مصايد من كل نوع .. فلما اقتربت منها خرجت الشرور من داخلى أو كادت ..

أما الفيض النورانى على باب الرسول فكان مصيدة لكل خلية .. لكل كرة بيضاء وحمراء .. مصيدة من نور .. مصيدة ومغسلة .. ومشرحة وزنزانة .. وعناية مركزة .. ولم أعرف أن كل هذه الأمراض والشرور تسكن معا فى داخلى .. لاأعرف أين ولا كيف ولا متى .. أنها لاتسكن .. أنها داخلى .. خرجت

كما تخرج الألوان من القماش .. كما يخرج جلدى من جسمى .. لم يخرج الجلد .. وانما تغير .. تبدل .. كيف ؟ الله أعلم .. نعم الله وحده يعلم .. وأحاول أن أعلم .. ولكن لاأجدنى قادرا على ذلك .. فما الذى أريد أن أعرفه .. ان الذى أعرفه هو الذى أستطيع أن أضم أصابعى عليه .. وأقلبه أمام عينى .. أو هو الذى أستطيع أن أضعه فى كوب وأشربه .. أو الذى أقلبه فى يدى وأضعه فى جيبى .. فما هذا الذى يمكن أن تضمه الأصابع ويحتويه الجيب .. لاأعرف . !

★ ★ ★
★ ★ ★

ما اسم هذا الذى حدث ؟

فقد أستطيع أن أقول الاسم .. أو أحاول ذلك ..

مع أن كل الذى حدث ليس إلا لحظة واحدة .. كانت طويلة عريضة عميقة خاطفة .. خطفتنى منى . نعم فأنا الخاطف المخطوف .. الأخذ المأخوذ .. الباهر المبهور .. كيف ؟

من يقول ما المعنى ؟

لم أجد الا استاذنا العظيم الامام الغزالى الذى أنقذنا من الضياع بكتابه العشرين صفحة : « المنقذ من الضلال » .. أى الذى أنقذه هو من الضلال الفلسفى ، والملايين من بعده .. قل لى ياأستاذ الأساتذة ماهذا الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ وكيف جرى ؟ ولماذا جرى ؟

ما المعنى ياأستاذ ..

يقول حجة الاسلام الامام الغزالى :

قال الله تعالى : « وأقم الصلاة لذكرى » .

وقال تعالى : « ولا تكن من الغافلين » .

وقال عز وجل : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » .

سكارى من الهم ومن حب الدنيا .. فكم من مصل لم يشرب خمرا وهو لايعلم مايقول فى صلاته ..

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا ، غفر الله له ماتقدم من ذنبه » ..

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع يديك فتقول : اللهم اللهم .. فمن لم يفعل فهى خداع ..

وروى عن الله سبحانه وتعالى أنه قال فى الكتب التى سبقت القرآن : ليس كل مصل أتقبل صلاته ، وأنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ، ولم يتكبر على عبادى ، وأطعم الفقير الجائع لوجهى .

قال عليه الصلاة والسلام : انما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، واشعرت المناسك لاقامة ذكر الله تعالى .

وقال عليه السلام : واذا صليت فصل صلاة مودع .

أى مودع لنفسه ، مودع لهواه ، مودع لعمره ، سائر إلى مولاه ..

قال تعالى : ياأيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

وقال تعالى : واتقوا الله ، ويعلمكم الله .

وقال تعالى : واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه .

قال عليه السلام : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله الا بعدا . والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟!

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ، اشتغالا بعظمة الله عز وجل !

قال عليه السلام :

لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه .

رأى صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث فى لحيته وهو يصلى فقال : لو خشع قلب هذا الرجل أخشعت جوارحه ..

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه . فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟

قال : جاء وقت امانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملتها أنا !

ويقال ان النبى داود عليه السلام سأل ربه : الهى من يسكن بيتك ؟ وممن تقبل الصلاة ؟

فاوحى الله إليه : يا داود انما يسكن بيتى واقبل الصلاة منه : من تواضع

لعظمتى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى ، يطعم الجائع ، ويود القريب ، ويرحم المصاب ، فذلك الذى يضىء نوره فى السماوات كالشمس ، ان دعانى لبيته . وان سألنى اعطيته . اجعل له فى الجهل حلما ، وفى الغفلة ذكرا ، وفى الظلمة نورا .. وانما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان ، لا تيبس انهارها ، ولا تذبل ثمارها .

* * *

ويقول الامام الغزالى أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى فى نعليه . ثم نزع نعليه .. فنزع الناس نعالهم فقال : لم خلعتم نعالكم ؟

قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا !

فقال صلى الله عليه وسلم : ان جبرائيل عليه السلام أتانى فاخبرنى أن فى نعلى خبثا . فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما . فإن رأى خبثا فليمسحه بالأرض وليصل فيهما ..

وقال بعض المفسرين : ان الصلاة فى النعلين أفضل لانه صلى الله عليه وسلم قال : لم خلعتم نعالكم .. أى أن الرسول لم يجد سببا عندهم لخلع النعال . لأن خلع النعلين قد يجعل الانسان ينشغل قال صلى الله عليه وسلم : وإذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه . وكان الرسول عليه السلام يضع نعليه الى يساره ، عندما كان اماما .. وغير ذلك من المعانى الدقيقة والأفكار المضيئة .. فما المعنى يا استاذ ؟

المعنى : كيف يتحقق للانسان الخشوع فى الصلاة .. لا يشغله عنه شىء .. أى لا يشغله عن الله شىء .. حتى ولا حذاؤه .. أين يضعه .. الى يمينه .. وراءه .. امامه .. ولذلك رأى الرسول ان يصلى المسلمون باحذيتهم مادامت نظيفة حتى لا ينشغلوا بها ..

ما المعنى يا استاذ !

* * *

لقد كنت خاشعا لم اشعر بشىء .. بأحد .. بنفسى .. بجسمى .. بعقلى .. بأننى - وبأنه .. وبأنهم .. وبأننى كنت وأننى سأكون .. وأننى جئت وأننى سوف أعود .. وبأننى انسلخت .. غيرت جلدى .. أو أن جلدى هو الذى غيرنى .. واننى هنا على باب رسول الله لست الا بقايا .. بقاياى .. شاهدا على

نفسى .. على جسمى .. حارسا لملابسى .. التى لم أخلعها .. ولكنها سقطت عنى .. خلعتنى .. كيف ذلك ؟

انها ـ كما يقول الغزالى ـ لحظة خشوع . كاننى صليت واقفا .. كاننى بطارية جافة .. بددت طاقاتها فى لحظة .. واخمدتنى .. فلا أنا حى ولا أنا ميت .. ولا أنا واقع ولا راكع ولا ساجد .. وانما هنا .. وبقاياى هناك .. أو بعضى هنا والكل هناك .. المتهم هنا وحيثيات الحكم والادانة هناك .. الشهود والقضاء والنيابة والمحامون ورجال الأمن والاطباء والتجار والفلاسفة وادغال الغرائز .. كلها هناك .. كلهم يتشفعون . والحمد الله قبلت شفاعتهم ، والا ما كان هذا الصفاء والهناء والرواء والجلاء والشفاء ..

انها لحظة .. نعم ولكن كالابدية ! .

يا أيتها المرأة أكرهك !

تحتفل المانيا بمرور مائتي عام على ميلاد واحد من أعظم فلاسفتها : شوبنهور (١٧٨٨ ـ ١٨٧١) .. أجملهم عبارة ، وأوضحهم فكرة ، وأكثرهم ضيقا بالدنيا ، وقرفا من الناس ، واحتقارا لأساتذة الفلاسفة . والمرأة !

المرأة : مصيدة الشيطان .

المرأة : خديعة الانسان للانسان !

★

لا حرب بغير امـرأة !

★

المرأة تضحك عندما تستطيع ، ولكنها تبكى عندما تريد !

★

الذى يتأثر بدموع المرأة كالذى يتألم عندما يرى الأوز تنزل الماء حافى القدمين : مغفل !

★

طويلة الشعر واللسان قصيرة النظر ضيقة الأفق !

★

سيف المرأة : لسانها الذى لا يصدأ !

★

آخر ما يموت فى المرأة : لسانها !

★

من يمسك بامرأة يمسك بافعى من ذيلها !

★

حتى لو انجبت لك عشرين طفلا ، لا تثق بها !

المرأة هى الرجل وقد اضطرب عقله وقلبه !

★

اناث الحيوانات أكثر خطورة من الذكور !

الأفعال : رجل .. الأقوال : امرأة !

★

الرجل هو الرأس الذى تديره المرأة !

شباب الرجل فى قلبه .. شباب المرأة فى وجهها !

★

اقتل .. اقتل .. اقتلها ولا تخف !

★ ★

ويقول الاستاذ العقاد اعدى اعداء المرأة فى الأدب العربى الحديث واحد تلامذة الفليسوف شوبنهور ، فى التى اشركت معه رجلا أو رجالا اخرين :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
والقاك جسما مستباحا ، وطالما
لقيتك جم الخوف جم التردد ؟
رويدك انى لا أراك مليئة
بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك : سم فى الضلوع وعثرة
ترد مهاد الصفو غير ممهد
اذا لم يكن بد من الحان والطلى
ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى !

ويقول العقاد وقد رآها هانت :

هونت خطبك جدا وخلته لن يهونا
حمدا لكيدك حمدا
حمدا يفيض العيونا
بدلت بالنار بردا
وبالهيام سكونا
انى أمنت الفتونا
وأنت ماذا أمنت ؟
قد هنت والله هنت !

وقال العقاد ايضاً

خذى عشيقين مثلى
لا ، بل خذى الناس طرا
يلقاك هذا بليل
وذاك يلقاك ظهرا
ان تخدعى رب نبل
يخدعك نذلان مكرا
ونشربى الشهد مرا
حتى يقال جننت
قد هنت والله هنت !

ويصبب العقاد مثل استاذه شوبنهور كل ضيقه فى قرفه ويأسه فى جوهر وحقيقة المرأة فيقول :

خل الملام فليس يثنيها
حب الخداع طبيعة فيها
هو سترها وطلاء زينتها
ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها فيما تكيد به
من يصطفيها أو يعاديها
وهو انتقام الضعف ينقذها
من طول ذل بات يشقيها
أنت الملوم اذا أردت لها
ما لم يرده قضاء باريها
خنها ! ولا تخلص لها أبدا
تخلص الى أغلى غواليها !

★ ★ ★

والفليسوف الألمانى ارتور . شوبنهور قد ولد معه فى نفس العام لورد بايرون امير شعراء الانجليز ، وهو أيضا متشائم معذب بأمه ، فقرر أن يعذب كل النساء . واذا كان أحب المرأة فقد احب ما لابد منه .. ولكن احتقاره للمرأة عظيم .. انه هو الآخر يرد إلى المرأة مالقيه من أمه وبسببها ..

والفيلسوف شوبنهور كانت له جدة أصابها الجنون ..
وأبوه التاجر الغنى لم يطق طعم الحياة فانتحر ..
وأمه لم تحتمل الحياة مع ابنها هذا الفيلسوف ، فعاشت وحدها .. ومرت عشرات السنين لا يراها . ويوم لقيها تشاجـرا على السلالم وركلته . فنهض يقول لها : سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس الا بأنك أم الفيلسوف شوبنهور !
وقال لها : انت عارى وانا فخارك !
وكان شوبنهور لا يثق فى احد من الناس .. لا أمه ولا أبيه .. ويحمد الله ان لم يكن له أخوة .. فليس فى الدنيا شقيق ولا صديق .. واذا نام اغلق الأبواب والنوافذ ووضع المسدس تحت المخدة .. ولا يعطى رقبته للحلاق .. واذا سار فمع كلبه . واذا انحرف الكلب فانه يصرخ فيه قائلا : أنت يا انسان !
والناس يتضايقون من هذه الاهانة التى يسمعونها . فكانوا يشيرون الى الكلب بأنه شوبنهور الصغير !
ولد فى مدينة دانسج التى فى بولندا الآن واسمها جدانسك . درس الفلسفة . تفرغ لها ، تفوق فيها . ولكن عاش فى عصر عدد كبير من عمالقة الفلسفة والشعر والموسيقى . ولانه كان مخالفا لكل الذين حوله ، لم يلتفت اليه أحد . فقد اختار له هدفا قائلا : اساتذة الفلسفة أى القادرين على الاشارة اليه والاشادة بكتبه .. وحتى لو فعلوا فهم كذابون وهم جهلة . وهم يكرهون من يخالفهم ويحتقرون من يتعالى عليهم .. مع ان أى انسان أحسن وأذكى وانفع .. لأن عقولهم تحجرت . فليس فى أيديهم الا حجارة ، وليس فى أفواههم الا تراب ، وفى عقولهم ليس الا هواء !
وكان يعتقد انه استطاع ان يحل كل مشاكل الفلسفة .. فعل ذلك فى كتاب واحد . كتابه الشهير « العالم : ارادة وفكرة » ولذلك نقش على خاتم فى اصبعه صورة لأبى الهول وقد انتحر .. فعند الأغريق اسطورة تقول ان ابا الهول هذا الوحش المخيف كان يقطع الطريق على الناس يسألهم ..ويقول لمن يسأله بانه اذا عرف الاجابة فسوف يموت وبذلك يستريح الناس من خطره ..
سألته خادمته : سيدى الاستاذ هل فى نيتك ان تعيش طويلا ؟
أجاب : هذا سؤال لا يصدر إلا عن امرأة .. لأن المرأة تكره ان يعيش الرجل .. وتكره ان تموت بعد زوجها .. ولذلك تتوقع ان يموت كل الرجال ليبقى

لها رجل واحد هى التى تقتله .. ليس فى (نيتى) أن أعيش .. وانما (أريد) ان أعيش .. فالحياة إرادته .. وسوف تموتين قبلى . واجعل لك جنازة تليق بمقامك .. فقد كنت مخلصة مثل كلبى .. بل هو أفضل قليلا ، فلم يسألنى مثل هذا السؤال .. اذهبى ونامى فى بيتك ولا تدقى بابى حتى أفتح لك !

رأته جرسونة فى مطعم يضع قطعة ذهبية على المائدة ، ثم عندما ينتهى الطعام يضعها فى جيبه .. فسألته : ما هذا الذى تفعله كل يوم ؟

قال : أبدا اننى أراهن نفسى واكسب الرهان كل يوم .. فقد راهنت نفسى اذا توقف هؤلاء الانجليز الذين يرتادون مطعمك عن الكلام فى ثلاثة أمور : الخيول والكلاب والنساء فسوف أتبرع بهذه العملة الذهبية للفقراء . وأنت ترين أننى اكسب الرهان كل يوم .. وحتى الموت !

فما الذى يراه فى هذه الدنيا ؟ كانت الدنيا على أيامه قد حطمتها حروب نابليون صاعدا هابطا .. منتصرا ومنكسرا .. فوقف الناس ولم يقعدوا .. وقعد الناس ولم يقوموا .. وصفق الناس للبطل الذى رد اعتبار الانسان للانسان .. وجاء البطل وقطع ايدى الناس وجفف دموعهم ، ثم اقتلع عيونهم لعلهم لا يرون نكبات الحروب والجوع والدمار واليأس والفقر والضياع .

ويوم انتصر نابليون فى احدى معاركه على الألمان ظل شوبنهور واقفا طول الليل تحية للبطل الفريد فى التاريخ .. وقرر ان يتطوع ليحارب فى صفوفه .. ولكن الصيحات والمدافع والرماد والدماء وامتهان الانسان وتعاسة الجميع ، قد هزت شوبنهور بعنف .. فكان الناطق بلسان كل المعذبين بين الناس ، ولم يكن غضبه على نابليون . وانما كان غضبه على الخدعة الكبرى التى حطمت الانسان . فقد اكتشف ان الانسان العوبة الأقدار .. وانه يحاول جاهدا ان يفلت من خيوط القوى الغاشمة ، ولكنه لم يستطع . ولم يعرف اليأس .

يقول شوبنهور : اننى ارى الخيوط تتدلى من السماء . ونحن مربطون بها .. اننا نتوهم اننا نتحرك فى حرية . ولكن اكثر الناس توهما هم أطول الناس خيطا .. لذلك يجب ان يتزود الانسان بكسين .. بمقص ليقطع بيده خيوط عبوديته .. ليموت بيده . ليقضى على الحياة بارادته . لأن الحياة اهانة كبرى لعقل الانسان !

ولنفرض ان ثلاثة .. ثلاثين جلسوا معا ينظرون الى احد الشوارع .. فهذا الشارع بكل ما فيه من طول وعرض والوان واناس وحيوانات وأصوات وأضواء

وروائح .. كل ذلك موجود لاننا نحن نراه .. فاذا لم أر الشارع فالشارع لا وجود له .. انه من صنع تصورى .. من ادراكى من فهمى .. وكل واحد منا يرى دنياه على صورته . وفق قدرته .. حسب علمه .. طبقا لاحتياجه ..

فما هذا الذى فى داخل كل انسان ؟

فى داخلك : ارادة وعقل ..

فأنت تريد ان تعيش . لا شك فى ذلك . ولكى تعيش فأنت فى حاجة الى طعام وشراب ونوم .. لا شك فى ذلك . ولأن الدنيا قد أمتلأت بالناس فلابد ان تصارع الناس لكى تحصل على نصيبك من الدنيا . والناس يريدون ما تريد . ولذلك يزاحمونك .. وهم يريدون أكثر ، يطمعون . وهذا الطمع يدفعهم الى أن يدوسوا عليك . إلى أن يسحقوك .. أو يقتلوك .. أو يتمنوا ذلك ..

ولكن فى داخل جسمك ارادة للحياة . فالحياة نفسها تريد ان تمتد .. ان تستمر .. فالدم يندفع فى الجنين ويشق لها شعيرات .. عروقا وأوردة . ويندفع فى كل اتجاه يغذى اعضاءك وغددك ..

فنحن أمام ارادتين :

ارادة الحياة نفسها ، ولا سلطان لك عليها ..

وارادتك أنت لحياتك .. وعقلك هو الذى يتسلط على الارادة أو يعوق الارادة أو يضىء لها الطريق .. أو يطفىء لها الطريق .. يرصف لها الطريق أو يضع العقبات ..

وقد يتصور الانسان ان كل شىء بارادته . وانه يدوس عقله من أجل أن يحقق الذى يريده . وانه قادر على ان يجعل العقل حذاء فى قدمه .. والحقيقة انه يستطيع ذلك أحيانا . لان ارادة الانسان ليست عملا حرا .. انه هو الآخر العوبة فى ارادة الحياة .. فالحياة تريد ان تستمر رغم أنف الانسان . والحياة تلجأ الى خدع كثيرة لكى تستمر .

ولذلك فقد وجدت الحياة عميلا قويا : المرأة ..

فالرجل اكثره : عقل .

والمرأة أكثرها : ارادة للحياة .

ولذلك فالمرأة حريصة بكل ما أوتيت من حيل ، وبكل مازودتها الطبيعة من خدع ان تقتنص الرجل من اجل ان ترتبط به . وهى ترتبط به لكى يكون ابا وتستمر الحياة .. ولا يهم بعد ذلك ان عاش هذا الرجل أوراح فى ستين داهية .

انها كسبت للحياة كائنا آخر .. ولذلك نجد أناث العناكب بعد ان تتم عملية اللقاح تلتهم الذكر لصالح صغارها .. فهى فى حاجة الى ان تطعم صغارها ، وأقرب طعام فى متناولها هو الذكر .. فعندما تلتهم الذكر تكون حذفت واحدا ولكنها قد اضافت عشرين !

ومن خدع ارادة الحياة : الحب ..

ان تلتهب مشاعر الرجل والمرأة . وتكون الراحة ان يلتقيا وان يتعانقا وان يتناسلا .. وبذلك تمتد الحياة . فكما ان الماء يشق طريقه بين الصخور ، والدم طريقه بين العروق ، فكذلك الحب انه يشعل النار والخيال ويهدد الحياة نفسها . ولذلك نرى العشاق الصغار يهددون بالانتحار ان لم يتحقق لهم ما يريدون . والذى يريدونه هو ان يكونوا معا من اجل ان يتدفق فيهم نهر الحياة قطرة قطرة .. ومولودا مولودا .

وانا أقول لك لماذا يشعر العاشقان بالخجل ، ولذلك يلتقيان سرا ؟ يشعران بالخجل لانهما ارتكبا خيانة . خيانة للعقل عندما استبدت بهما ارادة الحياة . وضحكت عليهما . وصورت لهما انهما فى قمة الانسانية والرقة والذوق الرفيع .. والحقيقة انهما ضحية .. وانهما لم يفلحا فى ان يتخلصا من هذه الفضيحة . ولذلك فهما يستشعران العار .. فكان لقاؤهما سرا كأنهما لصان .. وقبلاتهما خطفا ، لأنهما لصان .. وهما يجلسان على كف عفريت ويتوهمان انهما اختارا هذا المكان الناعم بالذات . والحقيقة غير ذلك !

المرأة كلها : ارادة الحياة ..

فالمرأة لعبتها وشغلتها : الرجل .. لا تفكر الا فيه .. ولا تتصيد غيره .. ولا تصبر الا عليه .. وهى التى تفوز به فى النهاية ..

والرجل شغلته الانسانية كلها .. وقضايا الانسان .. المرأة نظرتها ضيقة .. شخصية .. ولذلك فالمرأة عندها قدرة على التركيز على شخص واحد . تعرف كل صغيرة عنه . تعرف بالضبط كم حركة من شفتيه .. وكم حركة فى أصابعه .. وكم شعرة بيضاء فى رأسه .. والرجل قد لا يرى وجه المرأة بوضوح .. انه ينظر اليها عموما .. وهى ترمقه خصوصا . هو اذا حدثها فعن الانسان وعن التاريخ ولكنها تقول له : كلمنى عن نفسك عن أحوالك .. عن أمك حماتى .. عن التى عرفتها قبلى ..

وارادة الحياة تدفع الرجل الى ان يختار المرأة التى يتعادل معها : ان كان

طويلا اختار القصيرة .. ان كان ابيض يختار السمراء .. ان كان قويا اختار الضعيفة .. ان كان رقيقا اختار العنيفة .. او ان الحياة هى التى اختارت له ما يحقق التعادل من اجل ميلاد طفل متوازن يجمع صفات الابوين ، ليكون افضل منهما قليلا ..

ولكن المرأة لا تختار الا الشاب .. الا القوة .. الا ارادة الحياة القوية .. واذا خيروا المرأة بين الجميل والشاب ، اختارت الشاب .. بين الغنى العجوز ، والشاب الفقير اختارت الشاب .. انها اختارت الحياة .. فارادة الحياة فيها اختارت حياة فيه ..

وفى عالم الطيور والحيوانات نجد الذكور تتصارع وتتقاتل .. وتستسلم الانثى لأقوى الذكور .. فى جبلاية القرود ترى الذكور تتزاحم على الاناث ، حتى اذا ظهر الذكر القوى كانت له .. وفى رحلة ملكة النحل الشهيرة المعروفة برحلة الزفاف تجد ملكة النحل تخرج من الخلية وراءها عدد كبير من الذكور يتساقطون من الاعياء ، فلا يبقى الا واحد ، هو أقواها هو الذى يلقحها . فاذا عادت الى الخلية ، وحاول هذا العريس ان يدخل بيت الزوجية ، وقف له ألوف النحل تطرده وتقتله .. فقد انتهى دوره وانتهى هو أيضا !

يقول الشاعر القديم :

اذا شاب شعر المرء أو قل ماله

فليس له فى ودهن نصيب !

واجمل العلاقات بين رجل وامرأة هى القائمة على الحب ..

ولكن اصح العلاقات هى التى يختارها الأبوان .. فهما يختاران الاقوى والاغنى . انهما يختاران بالضبط ما تريده الحياة نفسها !

وهناك فارق آخر بين المرأة والرجل . فالرجل يريد ان يعرف الاشياء لكى يسيطر عليها ..

والمرأة تريد ان تعرف الرجل لكى تسيطر عليه ، وبذلك تسيطر على الأشياء ايضا . فالمرأة لا تمسك الدنيا بيديها ، ولكن بيد الرجل . فاذا اخطأ الرجل فهو الذى أخطأ .. هو الذى قال .. هو الذى فعل .. وهى التى تورطت عندما صدقته .. وعندما توهمت انه قد فهم كل شىء .. فهى غلطته وليست غلطتها !

والمرأة ليس عندها ذوق ولاهى تتذوق الجمال . وانما هى تتظاهر بذلك لكى تعجب الرجل . أو لكى تلفت نظره . وتدفعه الى شراكها . وتستولى عليه ..

والمرأة قد تحب اللون الأحمر . ولكن اذا وجدت ان الرجل يحب اللون الأزرق ، فانها ترتدى الأزرق . لا لأن هذا ذوقها ، ولكنه لانه ذوق الرجل الذى تريد ان تقترب منه اكثر واكثر لتنقض عليه .. ولم تعرف فى التاريخ امرأة واحدة تفوقت فى اى شىء .

ومن اخطاء الانسان المساواة بين المرأة والرجل . لان هذه المساواة معناها اعطاء المرأة مالا تستحق .. معناه جهل الرجل بما سوف تفعله المرأة بعد ذلك .. انها سوف تأخذ نصيبها وتستولى على نصيب الرجل ايضا .

ولذلك فتوريث المرأة الخطأ : لانها حيوان مسرف . وتجد المرأة اللذة فى الاسراف .. لان الاسراف معناه تبديد مال الرجل وجعله عاجزا لتلومه وتوبخه دائما .. وتتهمه بانه فقير وانه غير قادر على ان يأتى لها بما يأتى به الآخرون لزوجاتهم أو عشيقاتهم .. فاذا احنى الرجل رأسه ركبته المرأة .

وليس صحيحا ان المرأة هى « الجنس اللطيف » وانما هى « الجنس العنيف ».. ولطف المرأة ليس الا حيلة .. ولطف المرأة يشبه همسها وهى فى احضانك . ولكن لو حدث ان اخطأت فى اسمها وهى بين ذراعيك ، فسوف ترى اى حيوان مفترس .. اى مصاصة للدماء .. فأين ذهبت الرقة واللطف وهمس اللمس ولمس الهمس ؟.. كل ذلك كان طلاء .. كان قشرة ! فالمرأة كالأرض فى أحشائها براكين وزلازل .. فقط هذه القشرة الارضية هى اللطف والرقة السطحية .. ولكن تحتها : جهنم !

وتعدد الزوجات فى بلاد الشرق هو الفهم الصحيح لارادة الحياة .. فالرجل الشرقى اسلم فهما للدنيا ولارادة الحياة .. انه يستطيع أن يحقق ارادة الحياة بانتشاره وتعدد زوجاته وتعدد الاطفال . والغرب يستنكر هذا التعدد للزوجات . والغرب كاذب منافق فالرجل الغربى يجمع أكثر من امرأة سرا .. وينجب منها أيضا !

ولقد خربت أوروبا عندما اعطت المرأة سلطات اكبر ، ففى بلاط لويس الثالث عشر ، انفردت النساء بالملك والقصر والحكم ، فخربت فرنسا .. وهذا الانحطاط هو الذى ادى الى قيام الثورة الفرنسية على هذا الاضمحلال الاخلاقى والعلمى والفنى !

وكلما ضعفت علاقة الرجل بالمرأة ، كان ذلك أفضل .. ولكن لا يقْدر على ذلك الا الفلاسفة والا العباقرة ..

فالفلاسفة اناس يجعلون العقل سلطانا على الحياة .. لاشىء يشغلهم عن التفكير وعن التأمل .. فارادة الحياة .. أو الغريزة الجنسية لا تسخرهم من اجل الاستسلام للمرأة . لانهم يرون المرأة تعطل تطور الفكر ونبل الانسان ..

والفلاسفة يجدون زادهم العقلى فى العزلة والانطواء على النفس . ولذلك فهم يهجرون الناس . ويقللون علاقاتهم بالناس . لان الناس وحوش تقتات على دماء الناس وتعيش على راحتهم وعلى اصالتهم . فالفيلسوف رجل فى حالة حرب بين ارادته وعقله . ولكنه انتصر للعقل وبالعقل . وهذه المعركة من الممكن ان تهز كيانه .. ان تصيبه بالجنون ، وقد عرف التاريخ عباقرة اصيبوا بالجنون .. ويكون الجنون انتصارا للعقل على غريزة الحياة . وكذلك الانتحار ايضا . فالانتحار معناه ان انسانا بعقله قرر ان يقضى على ارادة الحياة .. وعلى الحياة !

ولكن الناس فى الشرق قد حققوا هذا الانتصار دون انتحار . وذلك بالزهد فى الحياة .. عاشوا للتأمل والفلسفة .. عاشوا سادة على أجسادهم .. ابتعدوا عن الناس .. انعزلوا .. بعض الرهبان سكنوا الصوامع ، بعض المتصوفة سكنوا الجبال .. لقد احتكمت الارادة والعقل لهم .. فحكموا للعقل .. وربطوا غريزة الحياة ، غريزة التناسل ، بخيوط

ولفوا حولها الأشواك وعلقوا لافتة تقول : ممنوع اقتراب المرأة والكلاب ! .

ولابد من ابتعاد الكلاب .. لأن الفيلسوف والزاهد والمتصوف هو الرجل الذى لا يطيق الضوضاء ، حتى ولو كان ذلك نباح كلب .. ولا شىء يدلك على انك انسان متحضر إلا حبك للهدوء .. وكراهيتك للضوضاء .. ولذلك فالأطفال والبدائيون أكثر الناس صخبا وحركة واضطرابا !

★ ★ ★

وكما ان الحياة تدب فى الانسان ، فالموت أيضا .. أى كما ان لدى الانسان رغبة فى أن يعيش ، ففى داخل الانسان كل ما يعوق الحياة وما يقضى عليها أيضا مثل المرض واليأس والرغبة فى الهرب والانتحار والجنون ..

فعند الاغريق حيوان خرافى له ألف رأس .. هذه الرؤوس عندما تجد طعاما فانها تقاتل بعضها البعض من أجل الحصول على الطعام .. بل ان هذه الرؤوس تخطف الطعام من بعضها البعض ..

وفى استراليا نوع من النمل ينقسم نصفين : رأس وذيل .. والرأس يحارب الذيل .. وقد يقتل أحدهما الأخر .. أو يموتان معا .. أو يجىء حيوان آخر يأكلهما.

وفى الجزر التى تعيش فيها السلاحف تجد الكلاب تهجم عليها وتقلبها على ظهرها .. ثم تنزع قفصها الصدرى وتأكلها وهى حية تنزف دما .. وفجأة تظهر الذئاب تأكل الكلاب .. وفجأة تظهر الصقور والنسور تنهش الجميع .. فالحياة هكذا تعيش عل الحياة ..

والديانات السماوية تكافىء الذين يعيشون ويحرصون على الحياة مهما تعذبوا . ولذلك فالجنة مكافأة للقلب .. ولكن لا نجد فى الديانات مكافأة لصاحب العقل الكبير ، وانما لأصحاب القلب الكبير .. ويكون صاحب القلب مغفلا ، ويكون صاحب العقل فيلسوفا .. والديانات رسمت لنا جهنم رسما دقيقا مفصلا . وفى الروايات والقصص والملاحم الاغريقية ، عندما يرمون الناس فى جهنم ينزل الستار .. لأن المؤلفين لا يعرفون كيف يصفون الجنة .. أما النار فقد أخذوا صورها من واقع الانسان وحياته .

أما أوصاف الجنة فمن أين يأتون بها .. ويجب ألا نخدع الناس : فأنت فى النار .. فى بيتك .. وفى عملك .. وفى نفسك !

وكل الديانات تريد للانسان ان يحب وان يتسامح وان يتزوج لكى يكون له أولاد ..

وبعد ذلك تتعاقب صور العذاب والهوان . فالرجل عندما يتزوج يفقد بعض حريته .. وعندما يكون له أولاد يفقد الكثير من شجاعته .. ويفقد الأكثر من زوجته .. فالمرأة منذ ولدت وهى تريد ان تكون أما .. فإذا جاءها الولد لم تعد زوجة .. وانما أصبحت مثل أنثى العنكبوت أكثر استعدادا لأن تمزق زوجها ألف قطعة لكى تقدمه لأولادها كزوجة ، وبدا الى غير نهاية دورها كأم !

فالرجل يعمل ساعتين .. إذا كان أعزب وأربعا إذا كان متزوجا وعشرا إذا كانت عنده أولاد .. وتظهر على جسمه حبات العرق وعلى لسانه كلمات : الكفاح والجهاد والشرف والأسرة والعرض والوطن والوطنية .. والكلام عن الوطنية هو تعصب لشىء ما . وأكثر الناس تعصبا لأى شىء ، هم الذين لا يجدون شيئا عظيما فى حياتهم .. فهم يفتعلون مبادىء العظمة لينهاروا عشاقا لها !

ويعمل الرجل ساعات من أجل شراء لعبة لطفل ، أو جزمة لأم الطفل .. هذه هى بالضبط حياته ..

وهذه بالضبط رسالته : لقد ضاع كانسان ، وتلاشى كرجل ، وأصبح العوبة فى يد ارادة الحياة التى امتدت فى أطفاله !

وقمة الارادة هى الجنس .. التناسل .. ولذلك حدث فى التاريخ ان عبد الاغريق واليهود أعضاء التناسل عند الرجل والمرأة . لقد عبدوا الحياة ، فعبدوا أدواتها أيضا .

وإذا اختلف الناس ففتش عن المرأة .. وإذا اختلفت الجماعات ففتش عن الجنس .. وليست اسطورة ان تقع حرب طروادة من أجل هيلين الشقراء .. فهذا هو بالضبط ما يحدث فى كل التاريخ ..

وبعد .. فإن الحياة شر . لأن الناس شر : والناس شر لأنهم كذابون منافقون . وهم يكذبون وينافقون من أجل ان يحصلوا على ما يريدون .. حاول ان تلاحظ جيدا من يجىء اليك يطلب خدمة .. كم هو رقيق لطيف ظريف مجامل .. كل كلمة هى آية فى النعومة والأدب .. ثم انه يشيد بك .. انظر اليه بعد ذلك وقد اعتذرت عن ان تقدم له شيئا ، أين ذهبت الأضواء فى وجهه وفى عينيه .. وأين الكلمات .. كيف انطفأ كل شىء فيه .. وكيف تلاشى هو دون ان يكلف خاطره ان يمد يدا أو يعدك بلقاء قريب . لا شىء من ذلك ..

افرض انك حققت لأى انسان ما يريد .. أنظر كيف هو سعيد .. ثم ابحث عنه بعد ذلك فلن تجده .. أو حاول ان تجده .. وان تقارن بين صورته الآن .. أنت امام اثنين من البشر ، لا علاقة بينهما .. لقد اختلف الرجل طالبا راجيا ، عن الرجل بائسا .. أو عنه وقد نال الذى يريده .. فما هذا ؟

هذا هو الانسان : صاحب مصلحة وكل العلاقات مصالح . كما ان العلاقات بين الرجل والمرأة : جنس فى جنس . أما الذى يقال عن الحب والشوق والوصال والهجر فكلها قشور تتستر على الحقيقة .

فالحب تعبير مهذب ، عن رغبة غير مهذبة !

وعندما اصدر الفيلسوف ارتور شوبنهور كتابه العظيم ، لم يلق أى اهتمام من أساتذة الفلسفة ومن الفلاسفة .. وبعضهم قرأه ولم يقل شيئا . وكان سكوتهم تأكيدا لحقدهم على الفيلسوف الصاعد ..

وبدأ بعضهم يقول : ليس مفهوما . انه معقد .. انه لا يرى إلا عيوب الناس مع انه ملىء بالعيوب !

وقال شوبنهور عبارته الشهيرة : هل فى كل مرة يتصفح واحد من الناس كتابا ، ثم يسمع صوت حمار ينهق ، فلماذا يكون الحمار هو المؤلف دائما ؟ !

كأن الناس مجموعة من الطرش يستمعون الى سيمفونية .. وحتى لا يعرف

العازفون انهم طرش ، فقد اتفقوا مع واحد يشير الى مواطن التصفيق .. لكى يصفقوا .. حتى هذا الرجل قد استأجروه لأن يفعل ذلك .. كذب فى كذب هذا : هو الانسان . ولذلك فالانسان شرير . الحياة كلها شر فى شر ...

وجوهر الشر هو : الألم ..

إذا اردت ، تعذبت بارادتك .. وان حققت لذة تعطشت الى لذة أخرى .. وان لم تتحقق لك لذة تعذبت .

والسعادة غير ممكنة . وانما السعادة هى الخلو من الألم .. أو محاولة تقليل وتقليص الألم ..

وكما ان النوم عدو العقل ، فالموت عدو الارادة .

والطبيعى ان يقع الانسان على الأرض ، ولكن المشى هو مقاومة السقوط .. تأجيل السقوط ..

وكذلك ولد الانسان ليموت ، والارادة ، ارادة الحياة ، هى تأجيل للموت ..

وحياتنا من أولها لآخرها مثل بندول يتأرجح بين الموت والملل .. فالملل .. معناه ان تكون كل الأشياء لها طعم واحد ولون واحد وصوت واحد .. كأن كل الأشياء تجمدت فى شىء واحد .. كأن كل الأشياء قد اعدمت نفسها لكى تعدم الانسان أيضا ..

وأكبر الناس نجاحا أكثرهم مللا .. لأنه يجد كل ما يريد .. ويحقق كل ما يستطيع .. فهو لا يعرف الكفاح ولا العذاب ولا متعة التخلص من العذاب وبلوغ الهدف .

★ ★ ★

ويرى شوبنهور ان الفلوس هى أعظم ما فى الحياة .. فالذى عنده الفلوس عنده كل الرغبات .. أى القدرة على تحقيقها .. والفلوس هى الشىء الوحيد الذى يعرف ألف ألف رغبة .. فالخبز مثلا يقضى على الجوع .. والماء يقضى على العطش .. والملابس تقينا من البرد .. إلا الفلوس فانها كل هؤلاء .. وإذا كان الانسان بلا قرش فانه يمشى على قدميه .. وإذا كان معه قرش اشترى حصانا أو سيارة أو طيارة .. أى ان الفلوس خلقت لها ألف ألف قدم ..

وتقوم الفلوس فى حياتنا بدور العقل سيد الارادة ، وتقوم بدور الارادة سيدة العقل !

× × ×

وفى يوم جاءت الخادمة للفيلسوف تقول له : سيدى الأستاذ هل تريد قهوتك ؟

فقال : قهوتى ؟ لا اظن أننى فى حاجة الى قهوة .. أو نبيذ ..

سألته : هل أعد لك غرفتك ؟

قال : ولا غرفتى !

سألته : اذن هى نزهتك ؟

قال : ولا نزهتى !

سألته ألا ترى انك قد اكتفيت اليوم من كل شىء ؟

فأجاب : نعم

ـ أنت مشغول سوف اعود اليك بعد ساعة !

وعادت ، لتجد الفيلسوف شوبنهور جالسا على مقعده ويده على المائدة وكلبه عند قدميه .. وعندما حيته لم يرد .. لقد مات أستاذ فلاسفة الوجودية ورائد التحليل النفسى ولسان حال اليأس والمرارة وأعظم أعداء المرأة فى كل العصور ..

وبعد وفاته عثرنا على خطاب لم يكمله يبدأ بهذه العبارة : عزيزتى عزيزتى لقد انتصرت عليك .. فلم أر اقبح من عقل ووجه وجسم أية امرأة ـ أمى مثلا !

عندما تزحلقت الراقصات

عند افتتاح الباليه الانجليزى على مسرح الاوبرا الجديدة تزحلقت راقصة .. والثانية .. والثالثة ونزل الستار .. وضحك الناس وأعلنت ادارة الأوبرا ان الراقصات قد تزحلقن بسبب نقط من الزيت سقطت من سقف المسرح . وتضايق الناس لهذا الذى حدث .. وتضايقوا أكثر لأن الأميرة مرجريت كانت ضيفة السيدة سوزان مبارك .. وقال الناس حولى : انكشفت وزارة التموين إنها تخفى الزيت فى سقف الأوبرا .

وعندما عادت الراقصات كان التصفيق حادا . وكان المعنى .. ولا يهمك ! المهم أن يستمر العرض واننا سعداء بدار الأوبرا فى جميع الأحوال .

وعرفنا عند خروجنا أن الزيت من استيراد الانجليز أنفسهم .. وأنه من « الماكينة » التى أتوا بها لتحريك الديكور وهم الذين يديرونها .

وهكذا افتتحت دار الأوبرا سلسلة الأخطاء التى سوف تقع بعد ذلك إن شاء الله .. ولا نهاية لها فى كل أوبرات العالم .. بسبب التوتر الشديد ومحاولة الانضباط مع « عصا المايسترو والايقاع الموسيقى الدقيق .

وفى اليوم التالى تأخرنا عن الحضور دقائق فاقفلت الدكتورة رتيبة الحفنى الباب واسعدنا ذلك .. فلابد أن نحترم المواعيد .. فلابد أن ننضبط فى كل موقع لأن البلد سايبة .. ولكن مديرة الأوبرا عادت وفتحت لنا الباب - مائتى نسمة - فشكرا لها ولكننا اقسمنا الا نعود إلى هذه الغلطة .

وفى اليوم التالى تأخر العرض المسرحى ربع ساعة من أجل نائب رئيس الوزراء - غلطة يجب الا تتكرر .

ولا أذكر كم عدد المرات التى تفرجت فيها على الأوبرا القديمة .. مئات المرات وجلست فى الصالة وفى البنوار وفى أعلى التياترو وكثيرا جداً بين الكواليس والسبب حبى لفنون المسرح وصداقتى للشاعر عبد الرحمن صدقى مدير الأوبرا ولشكرى راغب مدير المسرح .

وكل مدير أوبرا فى العالم عنده سجل لا أول له ولا آخر للأحداث الغريبة التى وقعت من الممثلين والاداريين والأجهزة المستخدمة أو قضاء وقدرا .

مثلا مثلا .. جاءت إلى مصر فرقة أوبرا « بروجى وبس » للموسيقار الأمريكى جرشوين وهى أوبرا زنجية وكانت بطلتها من أجمل الزنجيات طولها وعرضها وجهها عيناها شفتاها .. دلالها وهى تغنى وفى اليوم الثالث اختفت البطلة .. وانطلقت سيارات البوليس تبحث عن كمال الملاخ وعنى .. فقد طلب منا عبد الرحمن صدقى .. ان نستضيف البطلة والممثلة الثانية .. ودرنا بهما حول الهرم والقلعة وحدائق الحيوانات وفى أحد مطاعم القاهرة شربت الاثنتان الكثير من الخمر .. وفجأة خلعت احداهما الجزمة وانهالت ضربا على الأخرى .. ولم تكن الثانية اقل شراسة من الأولى .. وتكاثر الناس وطارت الأطباق والفناجين .. وسالت الدماء .. ونقلنا الاثنتين إلى عيادة أقرب طبيب .. وطبيعى لم تظهرا على المسرح .

وفى يوم آخر جاءت فرقة « موريس اسكاند » المسرحية الفرنسية وكانت تعرض مسرحية « البشارة إلى مريم » للشاعر الفرنسى كلودل .. ثم مسرحية « جيجى » للأديبة الفرنسية كوليت اما بطلة جيجى فهى فتاة صغيرة اسمها انى فوليير وقد دعانا عبد الرحمن صدقى إلى غداء فى بيته ولا أعرف من الذى أصر على أكل الملوخية .. واصيبت البطلة الصغيرة باسهال شديد وارتبكت الفرقة .. واقترح بعض الخبراء اعطاء البطلة عقاقير تمسك بطنها .. فامسكتها ولكن اصابها المغص الشديد .. واختفت الفتاة فى ليلة الافتتاح وظهرت أخرى حاولوا بكل الحيل أن يجعلوها صغيرة ذات ضفائر .. ووقعت الضفيرة فى أول نصف ساعة .

وفى كتب تاريخ الأوبرا تتصدر أوبرا « توسكا » للموسيقار « بوشينى » قائمة العروض المسرحية ذات الأحداث الكثيرة مع ان هذه الأوبرا من أسهل الاوبرات جميعا .. فابطالها ثلاثة والباقى كورس ليس من الضرورى أن يظهر على المسرح .. وفى سنة ١٩٦٠ بنيويورك كان المفروض ان المطربة السوبرانو اليونانية ماريا كالاس . تلقى بنفسها من أعلى وكان فى انتظارها عدد من المراتب المطاط فلا خوف عليها .. ولكن مساعد المدير الذى عينوه حديثا قد استبدل المراتب المطاط بمراتب ذات سوست .. فلم تكد تسقط عليها المطربة الأولى حتى قفزت إلى أعلى مرة ومرة .. والناس يضحكون

وقد أدى هذا الحادث الى اختفاء ماريا كالاس من الموسم الغنائى فى نيويورك وفى أمريكا كلها ..

ومرة أخرى فى سنة ١٩٨٠ فى سان فرانسيسكو لم يكن عند المخرج متسع من الوقت لاجراء التدريبات اللازمة بالملابس الكاملة .. وكان لابد من أن يجىء عدد من الجنود ويطلقوا النار على البطل . ولم يتسع الوقت ليقول للذين سيطلقون النار متى يدخلون ومتى يخرجون وعلى من يطلقون النار على الرجل ان يخرجوا وراء الممثلين .

ودخل الجنود وفجأة بدلا من ان يجدوا رجلا واحدا وجدوا رجلا وسيدة .. والاثنان فى حالة فزع وضيق .. وارتبكا فاطلقوا النار على السيدة .. بدلا من الرجل وسقط الرجل مغشيا عليه .. وارتبك الجنود أكثر . فهم أطلقوا النار خطأ على السيدة توسكا .. ولكن الرجل هو الذى سقط ثم انها كانت تقول له : هيا بنا نهرب .

ولابد ان يخرج الجنود بعد وراء الأبطال .. وكان لابد أن تلقى توسكا بنفسها إلى الهاوية .. وقفز الجنود وراءها .

وفى فيينا سنة ١٩٥٨ عندما عرضت اوبرا « دون جوفانى » للموسيقار موتسارت كان من الضرورى أن يختفى دون جوفانى بين السحاب .. ولذلك أعدوا له مصعدا يرتفع بين تصفيق الناس .. ولكن المصعد توقف فى منتصف الطريق .. ولم تفلح الادارة المسرحية فى تحريك المصعد .. وكان لابد من اخفاء هذه الغلطة بسرعة .. والحل الوحيد هو اشعال حريقة لا تظهر لها نار .. ولكن السحب فقط .. فجمع مدير المسرح أكواما من الملابس واحرقها بسرعة وادار المراوح لكى يتجه الدخان إلى داخل المسرح .. وفى الارتباك الشديد وضعوا المراوح تدفع الدخان إلى الصالة .. واختفى البطل واختفى المتفرجون يسعلون ويعطسون خارج المسرح .

وفى نيويورك سنة ١٩٥٩ ارتفع الستار عن « دون جوفانى » وادى ارتفاع الستار إلى انفتاح الأبواب الخلفية للمسرح على الشارع ٥٥ .. فرأى الناس من داخل المسرح حركة المرور .. والضوضاء والأنوار .. بينما وقف اثنان من الجنود يندهشون لما حدث .. وكان الناس فى داخل المسرح أكثر دهشة .. وكانت لحظة ذات مغزى عميق .. ففى تلك الليلة ، كما فى نيويورك نفسها لا يعرف

الناس ما هى حدود الواقع والخيال ـ ففى نيويورك « تختلط دائما الحقيقة بالاكذوبة ، والسعادة والتعاسة بالجنون والقتل .

ومرة ثانية فى نيويورك سنة ١٩٦٠ اهتدى المخرج إلى حيلة لادخال البطلة فحملها « شيالان » على محفة وكانت ثقيلة الوزن . فوضع الشيال الأول المحفة ، ولكن الشيال الثانى ثقل عليه الوزن فوضعها بسرعة .. فانكفأت السيدة على جانب من المحفة وضحك الجمهور ولكن الشيال الأول لم يتحرك بل ظل متجها للجمهور .. ولم تستطع البطلة أن تتحرك ، فقد اشتبك فستانها بنسيج الخشب .. ولكن بسرعة أرسل المخرج اثنين من النجارين يحطمان المحفة بالشواكيش .. والموسيقى تعزف والمطربة تغنى .. والناس يصفقون .. ويضحكون .

وفى باريس سنة ١٩٥٤ ظهرت اوبرا « ريجولتو » للموسيقار فردى وفى الفصل الثانى تهامس الناس ثم تضاحكوا كيف يكون البطل احدب الظهر وبسرعة يختفى الكيس القطنى الذى وضعه على ظهره ليبدو احدب .. ولاحظ الممثلون ذلك .. ولكنهم بسرعة أحاطوا به وأعادوا الكيس القطنى إلى مكانه .. وأضاف المطرب من عنده هذه العبارة : لم يعد الانسان يعرف نفسه .. وضحك الناس .

وفى اليوم التالى أبعده المخرج من العمل بالفرقة .. لأنه لم يستأذن فى هذه الاضافة .

وفى لندن سنة ١٩٢٠ ظهرت أوبرا « روميو وجولييت » للموسيقار دليوس .. ويقود الاوكسترا المايسترو البريطانى سيرتوماس بيتشام وكان قد عين مساعدا جديدا له .. ووقع المساعد فى خطأ فظيع .. فقد أشار لمدير المسرح باغراق الزوق الذى يستقله العاشقان .. وهم يغنيان أجمل الألحان .. تحت الماء ـ أما غلطة مساعد الموسيقار فقد قفز أكثر من عشر صفحات وعجل بهذه النهاية ولما جاء هذا المشهد مرة أخرى أعاد مدير المسرح نفس المشهد دون أن يغرق العاشقان .. !!

أما فى المكسيك فقد عرضوا اوبرا « كارمن » للموسيقار بيزيه على الأرض .. فى احدى حلقات المصارعة .. وكانت التدريبات طويلة وشاقة وقد احس البطل انه فى حاجة إلى شراب فخرج يطلب المزيد من الشراب وأمسك به البوليس بتهمة السكر والعربدة .. وحاول أن يقنع البوليس بانه ليس مخمورا وانما

يتظاهر دائما بذلك لأنه يمثل ويغنى فى أوبرا كارمن .. ولكن البوليس لم يتركه إلا فى القسم واشتبك مع البوليس فضربهم وضربوه واراقوا دمه .. ولم يصدقوه الا عندما غنى لهم أغنيته الشهيرة : تلك الزهرة التى القيتها .. مرة ومرة .. واعتذروا له بعد ذلك ولكن تأخر العرض المسرحى اسبوعا .

وفى روما سنة ١٩٥١ كانوا يعرضون اوبرا بوليوتو للموسيقار دونتستى وشاء المخرج ان يأتى بأسد فى قفص على المسرح وكان من المفروض أن يدور الغناء حول القفص وبالقرب منه .. ويبدو أن الاسد لم يألف كل الأصوات أما صوت المطربة الأولى فلم يزعجه .. حتى جاء صوت المطرب القوى الغليظ فانزعج الأسد وأخرج يده من قضبان القفص ومزق كتف المطرب .. فسقط مغشيا عليه والدم ينزف منه عندما نزل الستار .. وهرب المتفرجون مع زئير الأسد .

وفى اوبرا « عايدة » للموسيقار فردى كانت العادة أن تظهر الخيول والابل والفيلة .. حدث كثيرا وامتدت خراطيم الفيلة تخطف حقائب السيدات وفى أوبرا عايدة بالاقصر ظهرت قطط كثيرة ولكنها لم تتوقف طويلا على المسرح فقد أفزعتها الضوضاء فهربت .

وفى أوبرا الناى السحرى للموسيقار موتسارت عندما عرضت فى ساحة كراكالا فى روما سنة ١٩٣٨ ظهرت الحمير الوحشية .. ولكن الجماهير لم تسترح إلى ظهور هذه الحمير .. فحركتها غير المضبوطة تفسد الانسجام الحركى والغنائى والموسيقى .

وفى ذلك اطلقت الحمير أصواتا كريهة فتضايق المشاهدون وخرجوا .

وفى روما سنة ١٩٧٠ عندما عرضوا اوبرا « كارمن » كان لابد أن يظهر على المسرح ٣٨ حصانا تتحرك فى مؤخرة المسرح ذهابا وإيابا .. وكان لابد أن تقف بعض هذه الخيول على جبل بعيد .

وفى الفصل الثالث كان لابد أن يجىء حصان إلى مقدمة المسرح .. ولكن الموسيقى والطبول قد أفزعت الحصان فقفز من المسرح إلى إحدى الطبول الضخمة . وسمع المتفرجون قائد الأوركسترا وهو يقول : ابن الش .. إلخ ونزل الستار ..

وفى سنة ١٩٥٨ عرضت لندن اوبرا « بوريس جودونوف » للموسيقار مشورسكى .. وكان المطرب ضخما يوغوسلافيا .. فأتوا له بحصان ضخم ..

وظل المتفرجون فى فزع لا يعرفون ما الذى يمكن أن يفعله هذا الحصان .. ونزل المطرب الأول وجلس وراء الحصان يبكى على اطلال روسيا .. بينما تبول وتبرز الحصان فى هدوء تام .. والناس يضحكون ..

ونزل الستار !

وفى اوبرا « كارمن » فى نيويورك سنة ١٩٦١ ظهر كلب يرتاد المسرح فى هدوء .. ان هذا الكلب يملكه احد الاداريين . ولذلك اعتاد أن ينام وان يقف فى أمان .. ولم يشأ مدير المسرح أن يطرده وظل الكلب يقترب من مقدمة المسرح حتى وقف إلى جوار المايسترو الذى حاول أن يبعده بعصاه .. ويبدو أن الكلب قد اعتاد على اللعب بالعصا وعلى أن يلقوا له العصا فيأتى بها .. ولا زال الكلب يقترب والمايسترو يحاول ابعاده حتى هجم الكلب على عصا المايسترو وانتزعها وهرب إلى أعماق المسرح .. ونزل الستار !

وأحيانا يكون الجمهور نفسه هو الذى يؤدى إلى افساد العرض المسرحى .. وقد يلتفت أحد المطربين أو الراقصين إلى الجمهور يريد أن يقول شيئا .. شتيمة مثلا .. ثم يعود إلى الاداء .. وهذا لا يحدث عادة إلا فى ايطاليا .. اما فى الدول الاوروبية الأخرى فالجمهور ساكن .. منضبط فى حالة استسلام تام ..

اذكر اننى شخصيا كنت ضحية لمقلب من الفنان الكبير سليمان بك نجيب مدير الاوبرا فقد طلبت منه تذاكر دعوات كثيرة ، فى أيام متتابعة ـ مستغلا خفة دمه .. وحبى له وحبه لى .. فما كان منه إلّا أن قال لى : اسمع ياسى زفت .. اليوم فقط .. بس لازم تلبس بدلة سموكنج بدلا من العفريتة اللى انت لابسها عندك سموكنج ؟!

قلت : لا ..

فنادى شكرى راغب مدير المسرح وقال : شوف البلاوى دى .. هات له زفت اسموكنج .. لأن مولانا الملك سوف يحضر الليلة .. ياالله فى ستين داهية انت وهوه !

وكانت هذه هى لهجته العادية لكل الذين يحبهم ويحبونه !

ودخلت فى غرفة الملابس وارتديت بدلة سموكنج .. ثم خلعتها وارتديت واحدة أخرى مناسبة .. وترددت لأن البدلة غير مضبوطة .. ولكنهم استعجلونى قبل أن تفتح الستارة .. وكانت اوبرا « حلاق اشبيلية » الجميلة .

وكان الكرسى فى الصف الثالث على الشمال ـ وربما كانت هذه الحادثة هى

التى جعلتنى بعد ذلك أؤلف كتابا عن المسرح عنوانه « كرسى على الشمال » .. ولم أكد استقر على المقعد حتى شعرت بالاكلان فى كل جسمى .. فالبدلة قد امتلأت بالبق وحشرات أخرى .. وأنا أتوجع وأتحرك كثيرا .. والذين ورائى وإلى جوارى يستنكرون ذلك ويطلقون أنواعاً من الشتائم الفرنسية والايطالية والألمانية .. ومعناها : ما هذه المصيبة .. اخرجوه .. اننا لا نعرف كيف نرى .. اخرجوه ..

وأنا لا استطيع أن التزم الهدوء وألوف الخراطيم الشائكة تنفذ إلى لحمى ودمى .. وأخيرا قالها واحد بصوت مرتفع : اخرجوه والا خرجنا جميعا ! .

واتجهت العيون إلى مصدر الصوت .. وتوقف العرض المسرحى بضع ثوان .. ومع نهاية الفصل الأول هربت إلى أعماق المسرح والقيت بالجاكت والبنطلون .. حتى وجدتنى بملابسى الداخلية فى غرفة مدير المسرح شكرى راغب الذى انهار من الضحك !

وفى ميلانو سنة ١٩٧٠ عرضوا اوبرا « دون كارلو » للموسيقار فردى .. وكان المطرب العالمى بلاسيدو دومنجو لسبب ما قد انخفض صوته قليلا .. فقال احد المتفرجين : حان وقت النوم هيا بنا .

وضحك الناس . وتوقف المطرب وتوقف العرض المسرحى كله .. واتجه المايسترو إلى الجمهور .. وخرج صاحب التعليق وهو يقول : النوم أفضل !

وتوقف العرض المسرحى كله .. ونزل الستار !

وفى سنة ١٩٠٠ فى روما عندما عرضت اوبرا « توسكا » ، كانت عصا المايسترو ترتجف .. فقد علم أن الملكة مرجريتا ضمن المتفرجين . وقيل له ان قنبلة قد وضعت فى الكواليس .. فطلب هو وقف العرض المسرحى لانه عاجز تماما ! وبعد شهور اغتيل الملك امرتو الأول !

وعلى أيام موسولينى عرضت أوبرا « توسكا » للموسيقار فردى .. وكان الايطاليون يكتبون على الجدران فى كل مكان كلمة : فردى .. وكان البوليس يمحو هذه الكلمة .

فلم يكن الايطاليون يقصدون تحية الموسيقار وانما كلمة فردى تضم الحروف الأولى من عبارة أخرى تقول : يحيا ملك ايطاليا !

ولذلك عندما كانوا يرددون كلمة « فردى » اثناء العرض كان البوليس يتدخل .. ويحدث شغب . ويتوقف العرض المسرحى !

وفى إحدى الاوبرات التى كان يقودها توينى ، وقف الجمهور يقول : فردى .. فردى .. فردى !

ووقف المايسترو توسكانيننى على المسرح متوجها إلى الجمهور : اما انا وأما موسولينى يجب أن تختاروا الآن !

فقالوا : انت .. انت .. انت !

وانفتح الستار عن اوبرا البلياتشو للموسيقار فردى !

وأحيانا تفسد قوى الطبيعة العرض المسرحى .

وفى سان فرانسيسكو سنة ١٩٧٦ عرضوا اوبرا « زيجفريد » للموسيقار فاجنر .. وهبت العواصف بعنف وأطاحت بكل الديكور .

وفى سنة ١٩٧٠ احترقت دار الاوبرا المصرية ومعها الوف الوثائق ، والديكور التاريخى لاوبرا « عايدة » مع أن المطافىء كانت على مدى أمتار منها !.

وفى روما سنة ١٩٥٤ عرضوا اوبرا « تورنادو » للموسيقار بوتشينى .. وفجأة انقطع الحبل الذى يمسك الجسر وانهار الجسر وفوقه الممثلون !

وفى سنة ١٩٤٨ عرضت سان فرانسيسكو اوبرا « شهامة ريفية » للموسيقار ماسكانى . وكان من المفروض أن يظهر حمار على رأسه قبعة من الخوص .. يخرج منها اذناه .. وكان يجر عربة ترتاد المسرح .. عندمت اهتز المسرح .. والديكور . فقد وقع زلزال حقيقى .. وأخذ الحمار ينهق .. وأوقع المطربة وهدم الديكور وانطلق إلى ظلمات المسرح .. وخرج الجمهور !

وفى سنة ١٩٠٦ عرضت مدينة نابلى اوبرا « تس » للموسيقار دلارنجر ، والأوبرا مأخوذة عن رواية « تس » للأديب الأنجليزى توماس هاردى .. عندما ثار بركان فيزوف فى الفصل الثانى ..وهرب الممثلون والمتفرجون .. وإنهدم المسرح !

★ ★ ★

وفى سنة ١٩٥٦ فى فيينا عرضت أوبرا « لوهنجرين » للموسيقار فاجنر .. وظهرت المغنية الأولى وفجأة طارت احدى اسنانها .. وفزعت ، فسوف يؤدى ذلك إلى نطق غير سليم .. وبسرعة لمحتها تلمع على أرض المسرح .. فاتجهت إليها وبسرعة وضعتها فى فمها .. ولكن الخوف مايزال ظاهرا على وجهها .. فأدركتها إحدى الاداريات التى ألقت لها بلبانة لكى تثبتها بين أسنانها حتى

نهاية العرض .. وأنطلقت المغنية الأولى : كم أنا سعيدة .. وأعادتها مرة أخرى ..

مما ضايق المايسترو .. فهذه الاعادة ليست فى النص !

ولم تظهر هذه المطربة فى المسرحية بعد ذلك إلا بعد الكشف على سلامة أسنانها !

★ ★ ★

وفى برلين عرضوا أوبرا « زواج فيجارو » للموسيقار موتسارت .. والمسرح يدار الكترونيا .. وكل شىء منضبط بالدقيقة والثانية .. وقد دربوا الممثلين على أحداث الأصوات الجانبية وأطفاء الأنوار .. ولكن لابد فى أحد المشاهد من أن تنطفىء الشموع الالكترونية .. واقترب منها البطل فانطفأت واحدة واحدة .. ولكن فجأة حدث ارتباك فى الأجهزة الالكترونية .. فانطفأت احدى الشموع .. وفى هذه اللحظة أسدل الستار بسرعة والموسيقى تعزف والمطرب مايزال يغنى ويقترب من الجمهور وهو وراء الستار الذى أنفتح مرة أخرى بينما اطفئت كل الشموع !

ولم يضحك الجمهور الألمانى ، وإنما ضايقه أن تكون البرامج الالكترونية ليست دقيقة .. وخاصة أن بين المتفرجين وفدا يابانيا جاء لتسويق الأجهزة الالكترونية فى ألمانيا ؟ !

★ ★

وفى إحدى المرات حاولنا اقناع الأستاذ العقاد أن يذهب الى الأوبرا ـ عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم والشجاعى وصلاح طاهر وأنا ـ ولكن الأستاذ العقاد لم يوافق .. وذكر لنا أسبابا لم نجدها وجيهة وحاول أن يقنعنا . ورجوناه . وتركنا له أن يختار اليوم .. واختار . وكانت مشكلة .. فالأستاذ العقاد طويل .. ولن يخلع الطربوش .. وسوف يضايق الذين وراءه .. ثم أنه يجب أن يقوم مرة أو مرتين إلى دورة المياه أثناء العرض .. وكان ذلك ممكنا لو أننا وجدنا له بنوارا . ولكن فى اليوم الذى اختاره ظهرت مشكلة أخرى .. أنها أجازة الفرقة .. ووجدنا ذلك حلا سعيدا .. فالفرقة سوف تقوم بتدريباتها العادية .. وسوف يجلس الأستاذ وحده فى الصالة .. بلا جمهور وسوف نجلس الى جواره وفى أستطاعته أن يتحرك وأن يتكلم . وسرنا وراء الأستاذ إلى الصالة . وسبقنا هو الى الصف الأول وجلس .. وكنا سعداء بأنه جاء وأنه جلس .. طبعا هناك أماكن

أفضل . ولكن هو الذى اختار المكان .

وظهر المخرج يدرب الفرقة .. ويلعن ويشتم .. وبدأنا نتكلم .. فلم يكن ذلك عرضا حقيقيا .. أنها بروفات .. والمخرج عصبى جدا وأشار لنا أن نسكت .. وبلغ من وقاحة المخرج أنه أدار لنا ظهره ورفع إحدى ساقيه يشير بها إلينا أن نسكت .. ثم قال كلمة لاتليق .. وهو أننا إذا لم نسكت فسوف ينزل ويضع الحذاء فى أفواهنا - طبعا هو لايعرف من هؤلاء الذين يتفرجون ..

وتضايق عبد الرحمن صدقى ووقف وعاتبه بشدة .. ونبه إلى أن من بين المتفرجين أعظم مفكر فى العالم العربى ..

والتفت الى عبد الرحمن صدقى ليقول له : وأنا أعظم مخرج فى العالم .. وتضايق الأستاذ العقاد ، ونحن أيضا .. وأشار عبدالرحمن صدقى الى مدير المسرح شكرى راغب .. فانطفأت كل الأضواء ونزل الستار .. وسمعنا زعيق وشتائم المخرج .. والتففنا حول الأستاذ نعتذر .. وكانت أول وأخر مرة يدخل فيها الأوبرا ! .

معًا فوق بركان

كنت فى إحدى صيدليات هونج كونج اشترى عقاقير البرد . اشتريت وخرجت واصطدمت باحد المارة . ولم اكمل اعتذارى عندما صرخت : أفتكر حضرتك احمد يوسف ؟! وبالأحضان والقبلات . لقد كان المرحوم احمد يوسف كبير مصورى اخبار اليوم . وكان المفروض ان نلتقى يوم ٧ اكتوبر سنة ١٩٥٩ فى طوكيو . ولكنه هو الذى توقف فى هونج كونج .

وتذكرت ذلك اللقاء التاريخى بين الصحفى استانلى والمكتشف الانجليزى لفنجستون قبلنا بـ ٩٠ عاما ، فقد انقطعت أخبار لفنجستون عن الدنيا فارسلوا اليه هذا الصحفى يبحث عنه .. ووجده . ولم يكد يراه حتى قال : افتكر حضرتك د . لفنجستون !

وتزاملنا فى هذه الرحلة التاريخية ، اطول رحلة قام بها صحفى ، فقد استغرقت ٢٢٨ يوما من الهند والتبت الى سيلان وسنغافورة واندونيسيا واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان وجزر هاواى وامريكا .. وكان احمد يوسف مصورا ومحررا وصديقا ولطيفا ومجاملا واجتماعيا ودقيقا فى عمله لا يأكل ولا يشرب ـ كانه يكتفى بان ينظر الى الدنيا بعينيه فيشبع !

وفى يوم قررنا ان نذهب الى الاستاذ على منصور المحامى لنسأله : ان كان احمد يوسف وانا من المجرمين ؟

أما الموضوع فهو ان المذيع السورى فؤاد شحادة قد زارنا ومعه فتاة شقراء جميلة . والدموع فى عينيها . والسيجارة ترتجف بين شفتيها . ونظرت الى فؤاد شحادة اسأله : ماهذا ؟ فقال : انها تحب فريد الاطرش وقد خانها . فقررت ان تطلق عليه الرصاص .

ونظرت اليها فوجدت انها جادة واخرجت المسدس من شنطتها واعدت النظر اليه فأكد لى هذا المعنى وانهم فى سوريا يتعاملون بالمسدسات والشعر .. فالذى يتغنى بالشعر هو نفسه الذى يطلق الرصاص ثم يقول شعرا .. وينتهى كل شىء .. ولم افهم .

وسألته عن الحكمة فى اختيارى انا لكى اكون شاهدا على ذلك .. وكان من

رأيهما ان أمهد لها لقاء اخيرا مع فريد الاطرش لعله يعتذر لها . أو تقتله .. والامل كبير فى ان اضغط على فريد الاطرش فيعتذر ..

وبسرعة ذهبت لاحمد يوسف وطلبت منه ان يلتقط لها صورة . واتفقت مع الشقراء ان نذهب جميعا الى « اوبرج الاهرام » قبل مجىء فريد الاطرش .. وقلت لها : ولكن عندى شروط .. الشرط الاول ان تطلقى الرصاص بعيدا عن فريد الاطرش .. الشرط الثانى ان يكون ذلك قبل التاسعة مساء .. لانه فى التاسعة تكون « اخبار اليوم » قد بدأت فى الطبع .. أما بعد ذلك فان خبر الاعتداء على فريد الاطرش سوف تنشره كل الصحف الا أخبار اليوم .

ووافقت . واتخذ احمد يوسف مكانا قريبا من مسرح العمليات . وجلست معها على اليمين والمذيع فؤاد شحادة على اليسار .. ثم نهض فؤاد شحادة ووقف على الباب فى انتظار فريد الاطرش .. ولم يأت فريد الاطرش .. وطلبت منها ان تمسك المسدس وتخرجه لكى نلتقط لها الصور ابيض واسود والوانا .. وكانت عند احمد يوسف فكرة وهى ان نقول لها ان المذيع السورى بلدياتها قد تحدث تليفونيا الى فريد الأطرش وانه هو الذى منعه من الحضور .. وعندما تنهض للهجوم عليه ، يلتقط احمد يوسف الصور المطلوبة ..

وذهبت اليها وامسكت حقيبتها بيد مرتجفة ونزعت الرصاص من المسدس وقلت لها : ان الزميل احمد يوسف صديق عزيز لفريد الاطرش ولذلك فقد نصحه الا يجىء !

وبسرعة نهضت الفتاة واخرجت المسدس وصوبته نحو احمد يوسف الذى سقط على الارض .. ووجدتنى على الباب مع فؤاد شحادة نتسابق الى سيارة احمد يوسف !!

وفى الليل اتصل بنا البوليس وكانت اجابتنا واحدة : انها فتاة مجنونة . قابلناها مصادفة . ولم نصدقها .

وفى الصباح اتصل بنا فريد الاطرش وقال ضاحكا : قلت للبوليس مش معقول ، فأحمد يوسف حبيبى وانت اعز الحبايب وفؤاد شحادة صديق العمر !

★ ★ ★

وكان المرحوم على امين قد بعث بخطاب طويل مع احمد يوسف يقول فيه :

ان الرئيس جمال عبد الناصر قد قرأ لى مقالا عن الصين فى « اخبار اليوم » فأعجبه جدا .. وطلب منى على امين ان التقى بالملكة نازلى وبناتها وبزوج بنتها

رياض غالى وان تكون لنا احاديث طويلة مصورة .

وفى مدينة هونولولو نزلنا بفندق جميل على شاطىء واكيكى . وكنا ندفع فى الغرفة الطويلة العريضة الجميلة على المحيط الهادى ١٨ دولارا مع الافطار .. ونذهب الى الافطار اخر الناس .. اى فى الساعة الحادية عشرة فيكون افطارنا هو الغداء ..

ولحسن حظنا ثار بركان كان نائما مائة عام .. واستأجرنا طائرة صغيرة ، وذهبنا نتفرج على البركان الذى صوره احمد يوسف لاخر ساعة ، وكان اول مصور فى العالم يلتقط هذه الصور .. وكانت الطائرة صغيرة جدا بمحرك واحد .. وكنا ثلاثة احمد يوسف والطيار وانا . وفى داخل الطائرة كنا نشعر بحرارة ووهج البركان الذى هو بحيرة من النار تحتنا . لقد كان الخوف مميتا .. اى ان الخوف قد انقذنا من الشعور تماما .. فكان الطيران حول البركان كان روحيا ـ فقد انعدم احساسنا باجسادنا وتعطل العقل . فنحن ندور كاننا ارواح حول جهنم قبل السقوط فيها .. واشهد ان احمد يوسف كان ثابتا لا يهتز .. ولسبب ما توقفت الكاميرات فلم تعد تطلق شرارتها التى تسبق التقاط الصورة .. وتقدم واحد يصلح لنا الكاميرا .. وكان فزعنا عظيما عندما عرفنا ان هذا هو الطيار الذى ترك الطائرة تدور من تلقاء نفسها حول جهنم !!

وعندما نزلنا الى المطار كنا غرقى فى العرق .. ووجدنا بعض الشظايا قد نفذت الى جناح الطائرة بالقرب من خزان الوقود !

وقررنا الاحتفال بهذا السبق العالمى .. فأكلنا ورقصنا على الشاطىء فى ضوء القمر وعلى موسيقى ناعمة الامواج من المحيط الهادى .. وكانت بنات الهولا يقدمن لنا الايس كريم فى جوز الهند ـ كل جوزة هند فى حجم البطيخة ..

وفى الصباح لسعتنا الشمس ـ فقد نمنا على رمال الشاطىء .. واتجهنا الى قاعة الافطار عندما رقعت بالصوت : يا ابو عبدالله ـ اى احمد يوسف ـ الليلة القادمة سوف تنام فى السجن .. فليس معنا دولار واحد .. انتهت الاقامة ومعها الفلوس .. يانهار اسود !

واقترحت على احمد يوسف ان نقوم معا بتجربة قد قمت بها من قبل من عشر سنوات فى البندقية ، عندما انتهت فلوسنا وتأخر موعد وصول السفينة فأخذت الاخوين سيف وانلى وادهم وانلى ورحت اتسول عليهما واقول انهما من وزراء كوريا .. وانهما لاجئان سياسيان .. وكنا نتردد على المقاهى والمطاعم وكان

الناس يصدقوننا ويقدمون لنا المكرونة والتفاح .. وكان المفروض ان يقوم احمد يوسف بدور الشحاذ وحده فهو نحيف نحيل واسمر اللون ويبدو من ابناء امريكا اللاتينية .. ولكنه لم يوافق .. اذن ليست امامنا الا فكرة واحدة وقلت : تعال معى !

وذهبنا الى الغرفة فى الفندق ، وخلعنا ملابسنا ولففنا ملاءات الفرش حولنا .. وجعلت من الفوطة عمامة . ونزلنا الى الشاطىء وقد أمسك احمد يوسف ملاءة مخدة مكتوبا عليها بخط غليظ : قارىء كف فرعونى !

وانا امشى وراءه .. وتقدمت الايدى .. لكى اقرأ الكف .. واحدة وبعدها واحدة .. وتعبنا من المشى .. واتينا بمقعد وجلست عليه مقرفصا واحمد يوسف يجوب الشاطىء يدعو لقارىء الكف الفرعونى .. وجمعنا مبلغا من المال جعلنا نطيل الاقامة فى جزر هاواى اسبوعا آخر .

★ ★ ★

وذهبنا الى هوليود .. وترددنا على استديوهات . وذهبنا للقاء مارلين مونرو .. واخذوا الكاميرات من احمد يوسف ، لانه ليس عضوا فى نقابات المصورين الامريكان .. ثم ما حاجته لالتقاط اية صورة ، فعندهم صور اجمل واكبر ومستعدون ان يبعثوها الى اخبار اليوم فتصلها قبلنا !

وفى اليوم التالى ذهبنا لمقابلة الملكة نازلى : وجاءت بناتها وصورهن جميعا احمد يوسف وقالت كلاما طويلا . وشكت من الصحف المصرية ومن الاكاذيب التى تنشرها . وتناولنا غداءنا مع رياض غالى زوج الاميرة فتحية . ولاحظنا ان قميصه ليس نظيفا وانه ممزق . وقال كلاما طويلا .. ولم انشر كلمة واحدة مما قال ولا مما قالت الملكة نازلى حتى الآن . قد رجتنى الملكة نازلى وكذلك رياض غالى الا ننشر كلمة واحدة .. فلا نشرت كلاما ولا احمد يوسف نشر صورا - حتى الآن !

وامام فيلا الملكة نازلى فى ضاحية « بفرلى هيلز » الارستقراطية وقفنا نحن الاثنين : مارأيك ياأبو عبدالله ؟

قال : ولا صورة ؟

قلت : وانا ايضا ولا كلمة !

قال : وعلى امين ماذا سنقول له ؟

قلت : لن يغضب فهو يحب ان يكون للصحفى كلمة شرف !

قال : افرض ان مصطفى امين اقنعنى بنشر الصور .
قلت : افرض اننى اقنعت على امين بعدم نشر الموضوع !

وضحكنا عندما تخيلنا اقتراحا اخر وهو ان مصطفى امين سوف يطلب الينا ان نحكى له كل ما حدث .. ثم يقنعنا نحن الاثنين بان ننتحر ويكتب هو القصة على انها اعترافات قبل ان نموت .. وسوف يترحم علينا بحرارة ويدعو غيرنا من الصحفيين ان يفعلوا نفس الشىء من اجل زيادة توزيع اخبار اليوم .!

* * *

وكان المرحوم احمد يوسف يظل طول الليل يكتب خطابات انيقة لخطيبته فى ذلك الوقت : الزميلة نوال البيلى .. وكان يحكى لها بالتفصيل كل ما حدث فى ذلك اليوم . وفجأة وجدته يقول لى : لابد ان اكون فى مصر اول يناير .

ـ لماذا ؟

ـ انه عيد ميلاد نوال !

ـ ابعث لها برقية .. فأمامنا موضوعات اخرى فى امريكا وفى اوروبا ..

ـ سوف تغضب .

ـ دعنى اكتب لها خطابا محاولا اقناعها بالاحتفال بعيد ميلادها فى اول اى شهر آخر .. واننا هنا سوف نطفىء لها شمعة ..

ودعانا الصديق فوزى دسوقى الملحق العسكرى الى قضاء رأس السنة فى مدينة بلتمور . وكان الجليد يغطى الطرقات . والسيارات قد جنحت يمينا وشمالا . وكان الخوف من الجليد اكبر من الخوف من جهنم البركان .. فهنا الخوف من شدة البرد ..

واذا كان لابد من الموت فانا افضل الموت محترقا ، على الموت متجمدا وسهرنا حتى الفجر ، ولم نستطع العودة الى واشنطون ولم نحسن اختيار الفندق . فقد كان صغيرا جدا . وبعد ساعة من النوم سمعنا ضوضاء شديدة فى الغرفة .. ووجدنا حولنا عددا من الزنوج يضحكون . وقفز كل منا فى سريره .. ايه الحكاية .. انهم جميعا قد امسكوا المقشات الكهربية التى كانوا قد وضعوها تحت السرير .. ماهذا ؟ انها غرفة البواب .. وقد كانت الغرفة الواحدة الخالية .. وقد فتحوا النوافذ ودخل الهواء باردا .. وملأوا الغرفة يتحدثون ويتناقشون بأصوات عالية غليظة .. وكأننا لاشىء .. فقلت : ياأبو عبدالله ..

ـ نتوكل على الله !
ـ الى اين ؟
ـ الى واشنطون ..
ـ كيف ؟
ـ مشيا طبعا ! عندك حل ؟
فرحت أصرخ واقول :
ـ ثعبان .. ثعبان تحت السرير !
وهرب الزنوج واغلقت الباب . وظلوا يضحكون .. ونمنا !

★ ★ ★

وفى يوم ذهبنا لزيارة السفير المصرى وكان رجلا مهذبا .. هو الذى عرض علينا اية خدمات . فقلت له : اريد ان ادخل مستشفى البحرية !

ولم اكن قد فكرت فى ذلك من قبل وانما الفكرة قفزت من رأسى . اما السبب فهو الخوف من ان اكون قد اصبت باى مرض فى دورانى حول الارض من الحار الى البارد والامطار والعواصف .. فسألنى من اى شىء اشكو .. فقلت لا اعرف ، ولكن لابد ان شيئا ما اصابنى .. فانا مرهق جدا .. نحيف جدا . ثم اننى لا انام ولا آكل .. ولابد ولابد .. واعطانى خطابا وواحدا آخر لاحمد يوسف . وعلى باب المستشفى تعانقنا هو ذاهب الى القاهرة لكى يتزوج .. وانا الى المجهول . ودخلت المستشفى ولا اعرف بالضبط ما الذى حدث .. فقد نقلونى من غرفة مظلمة الى غرفة مضيئة الى نصف مضيئة الى نصف مظلمة .. ورأيت مئات الانابيب والشاشات والحقن .. ولا اعرف كم من الوقت مضى .. وبعد يومين او ثلاثة أو اربعة او خمسة .. وجدت فى يدى دفترا كبيرا من البيانات ووجدتنى على باب المستشفى . وعدت الى المستشفى لاجد خطابا من « ابو عبدالله » يتمنى لى الشفاء العاجل والعودة السريعة لكى اشهد حفل زفافه !

★ ★ ★

وفى يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ افترقنا فى الجبهة . فقد كان لابد ان اعود فعندى موعد مع عدد من ضيوف برنامج « نجمك المفضل » الذى كنت اعده للتليفزيون وتقدمه السيدة ليلى رستم . وتركت احمد يوسف فى الجبهة . ولم يشأ ان يعطينى الصور التى معه ، فلن تمضى سوى ايام قليلة وبعدها يعود .

ولم يعد الا بعد شهور .. فقد وقع فى الأسر .. ولابد ان شكله النحيل النحيف هو الذى انقذه . فلم يشك الاسرائيليون لحظة واحدة فى انه جندى ريفى غلبان ، ولا يمكن ان يكون ضابطا .. ودفن احمد يوسف الكاميرا والافلام فى رمال سيناء .. واحس بعدها كانه دفن نفسه حيا . فلم يمسك كاميرا سنوات طويلة .. ولكن عندما بدأت عملى رئيسا لتحرير اخر ساعة سنة ١٩٧٠ ، اقنعت احمد يوسف بان يستأنف نشاطه وابداعه من جديد .. وكان الموضوع الذى اخترته مقنعا جدا .. فقد اتفقت مع السيدة ام كلثوم ان اصورها وهى تعرض فساتين ام كلثوم .. واحدا واحدا .. وكل مجوهراتها ايضا .. وان الذى سوف يصورها هو احمد يوسف كبير مصورى اخبار اليوم .. وانه وانه .. فوافقت .

وحاول احمد يوسف ان يطلب من ام كلثوم ان تقف وان تميل وان تنظر وان تتلفت يمينا وشمالا .. فداعبته ام كلثوم قائلة : انت جرى لك ايه .. انا ام كلثوم !

فقال لها : وانا اعرف الصور التى يحب الناس ان يروها .. انا اكلمك باسم ملايين المصريين والعرب !.

وأعجبها ذلك . فكانت تطلب إليه كيف تقف وكيف تضحك .. وكيف تتمايل وتتمخطر .. وطلب منها أن تتظاهر بأنها تغنى قالت : وأتظاهر لماذا ؟ أنا أغنى فعلا .. تحب تسمع ايه ياسى أنيس ؟

قلت : هلت ليالى القمر !

قالت : لا

قلت : طيب أغنيها أنا !

ورويت لأم كلثوم كيف أننى فى سنة ١٩٥٢ اشتركت فى مهرجان الشباب بفيينا . وكنت أيامها مدرسا للفلسفة فى الجامعة . ولكنى اشتركت على أنى طالب جامعى . وسألونى عن الحياة فى مصر وعن الحريات الفردية .. وعن حق الفتاة فى أن تسهر وتسكر وأن يكون لها مفتاح للباب فى جيبها .. فوافقت كثيرا وطويلا عن تطور صناعة المفاتيح فى مصر .. ثم جاءت اللحظة الحاسمة وطلبوا منى أن أغنى النشيد القومى المصرى . ولم أتذكره . حاولت . وأخيرا غنيت : هلت ليالى القمر !

وبعد أن فرغت منها وجدت عددا من الشباب المصرى قد سقط على الأرض من الضحك ـ ولم أكن أعلم أن هناك واحدا من مصر !

وضحكت أم كلثوم وغنت : سلام الله على الأغنام !

وتقدمت بالشكر للسيدة أم كلثوم لأنها كانت سببا فى ميلاد جديد لكبير مصورى « أخبار اليوم » .. وضحكت وقالت : يعنى هو دلوقت نونو ؟ !

* * *

وكأنما ضاق أحمد يوسف بالناس ، فاتجه إلى تصوير الحشرات .. فكانت صوره الجميلة عن النحل وخلايا النحل .. ثم صوره البديعة عن العيون وعن الأصابع والأظافر .. وكان ذلك اتجاها فنيا .. فقد حاول أن يجعل الكاميرا فى يده ميكروسكوبا يكشف مالاتراه العين المجردة ..

والتقينا على فترات متباعدة ..

ثم اتفقنا على أن نصور الأستاذ العقاد فى حياته اليومية . وذهبنا للأستاذ . وعرضت عليه الفكرة . ووافق فورا . ولكنه قال لنا : ولكن حياتى ليست فيها أحداث .. ولا ألوان ..

لانه اما أن يجلس يقرأ . وأما أن يتمشى .. وهو اذا جلس للقراءة أو الكتابة فقد ارتدى البيجاما والطاقية ووضع الكوفية . وهو لايتحرك كثيرا الا لكى يأتى بكتاب أو يفتح الباب أو ينادى على الخادم ليصنع له الشاى .. أو يرد على التليفون .. ولون البيجاما فاتح .. والجدار كالح .. والمكتب « جربان » مثل الأبواب والنوافذ .. ومن رأى العقاد أنها خسارة فادحة وإضاعة للوقت واتلاف للافلام الملونة فى التقاط صورة ومناظر ليس فيها جمال .. فاقترحت عليه أن نصوره فى الشارع .. فقال العقاد انه رأى صورة له وهو يمشى فى الشارع .. وكان البنطلون واسعا .. وكان الطربوش مثل اسطوانة وقعت على رأسه من احدى البلكونات وأنه يريد أن ينتهز أقرب فرصة ليتخلص منها .

هذا اذا كانت الصورة من الخلف .. أما إذا كانت الصورة من الامام .. فقال انه يبدو منحنيا قليلا .. وأنه قد اكتشف هذا أخيرا .. وأنه يبدو شديد الضيق .. فهو لايستطيع أن يمشى دون أن ينظر تحت قدميه .. ولذلك ينحنى أكثر .. وأن الجاكتة مفتوحة وأن البنطلون يبدو معلقا متجاوزا خط الوسط .. وأن الكرافتة ليست ملونة .. فقد فكر فى اقتناء واحدة جديدة .. ولكنه ينسى دائما ..

ومعنى ذلك أنه لايصح تصويره .. فكان لابد أن نقترح عليه أن نصوره باخراج آخر .. نختار له الألوان .. ونزرر الجاكتة ونكوى البنطلون ونأتى له

بكرافتة ملونة .. ولا داعي للطربوش .. واننا على استعداد أن ندهن له المكتب بلون بنى قاتم .. وأن نأتي له بالمخلوقات التي يحبها : الأطفال والكلاب أو نملأ له البيت بتلامذته وعشاقه ..

وفجأة بعد أن استعد أحمد يوسف تماما للتصوير قال لنا الأستاذ العقاد : ولكن ماهو الغرض من هذه الصور ؟

فقلت : الناس يريدون أن يروك ياأستاذ فى حياتك العادية .

قال : ولكن يامولانا ليست هذه حياة عادية .. كيف أكون عاديا وأنت وزميلك تتفرجان .. أن وجودكما معا لايجعلنى على حريتى فى القراءة والكتابة .. أنتما تحاولان أن تجعلانى أقوم بدور العقاد .. بينما أنا العقاد كيف أبدو كأننى شخص آخر ..

قلت : اذن نتلصص عليك ياأستاذ .. ندخل دون أن تدرى بنا ونصورك ..

قال : ولكنى عرفت أنكما سوف تتسللان .. أن هذا يحتم على أن أحتاط للأمر .. فاغلق الباب ..

قلت : ولكن كيف نصورك ياأستاذ ..

نريد أن نصورك .. وسوف ننشر مع الصور أنك لست على حريتك .. وأنك جاملتنا فسمحت لنا بالدخول والتصوير ..

قال : على شرط .

قلت : مقبول أى شرط ياأستاذ .

قال : أرى الصور قبل نشرها !

ولم ير الصور ولا نشرناها حتى اليوم !

★ ★ ★

وذهبنا معا إلى د . طه حسين وهو رجل لطيف رقيق مجامل وفيه أبوة غامرة .. وطلبنا من د . طه حسين أن نلتقط له بعض الصور . فأشار بأن نستأذن زوجته أولا .. انها حريصة على أن يبدو كل شىء أنيقا جميلا .. ثم ابتسم وضحك وظلت ابتسامته طويلا ..

وذهب سكرتير طه حسين يستأذن . وبعد لحظات جاءت السيدة سوزان طه حسين ووضعت الورود فى أماكن مختلفة من مكتب طه حسين .. ثم أعادت ربط كرافتة طه حسين .. وزررت الجاكتة .. وأخرجت منديلا ومسحت به شفتيه .. وسوت شعره وهو يقول لها : مرسى شيرى .. ثم خرجت السيدة سوزان وكان

ذلك تصريحا بأن التصوير ممكن ! .

* * *

ثم كانت هذه المغامرة .. فقد أتينا بجحش صغير ودخلنا به المجلس الأعلى لرعاية الفنون فى الزمالك .. وكان توفيق الحكيم فى انتظارنا .. ونزل الجحش من السيارة . وتلقاه توفيق الحكيم سعيدا . وراح يقلب فى وجهه وفى أذنيه ..

ويقول : عيبه ايه الحيوان الطيب الجميل ده .. يقولون أنه حمار .. وأيه يعنى .. فالناس نوعان من الحمير .. هذا الحمار الجميل ، وبقية الحمير قبيحة لانها لاتعترف بذلك .. والله أنا أستطيع أن اتكلم الى هذا الحمار طول النهار ولا أشعر بالملل .. بينما حمير كثيرون أجلس إليهم وأتكلم كلاما فارغا ، ردا على كلامهم الأكثر فراغا .. ولا أطيق أن يمضى الكلام بنا دقيقة واحدة .. أنظر إلى رشاقته .. أنظر الى جمال عينيه .. إلى سيقانه .. من أين هذا الجحش الجميل .. آه لو كان فى استطاعتى أن أخذه معى الى البيت .. سوف يقول الناس : توفيق الحكيم أتجنن ؟ !

وقال لى توفيق الحكيم : تقدر تقنع يوسف السباعى أن يخصص لهذا . الجحش غرفة فى المجلس .. قل ليوسف السباعى أن الحكيم قد عين هذا الجحش مستشارا له .. قل له وسوف أقنعه بذلك ..

وكان أحمد يوسف قد التقط مائة صورة للحكيم والحمار الصغير .. وطلب منا أن نعرض عليه الصور قبل النشر .. فلا عرضناها ولا نشرناها !

* * *

ولابد أن لدى المرحوم أحمد يوسف فى أوراقه الخاصة هذه الصور النادرة :

١ ـ صورة الاديب الأيطالى البرتو مورافيا وزوجته الأولى السيدة الزة مورانته وقد وقفت تتخانق معه فى فندق سميراميس القديم .. وأنا أحاول أن أفض هذا الخلاف !

٢ ـ صورة المطربة الفرنسية جوليت جريكو وهى تغنى وقد وقفت بينى وبين المرحوم الشاعر صالح جودت ونحن نردد وراءها ونصفق !

٣ ـ صورة لطفى السيد وقد وقفت أمامه وأمسكت كتاب « الاخلاق » للفيلسوف أرسطو والذى ترجمه هو من الفرنسية .. وكنت أقرأ المقدمة بناء على طلبه .. وهو يتمنى لى لو أكملت مشواره الفلسفى . وكان على فراش المرض .. الموت بعد ذلك بشهور !

٤ ـ صورتى مع الفنان الكبير سيف وانلى .. هو جلس أمامى وأنا الذى أرسمه .. وكان جادا فقد توهم أننى قادر على تصويره .. وقد ساعدنى بأن رسم الاطار الخارجي لوجهه .. وطلب منى أن أضع نقطا فى مكان العين والأنف والأذن .. ولم أفعل طبعا !

٥ ـ صورة على أمين عندما دعا سكرتيرة مجلة « ال » الفرنسية الى الغداء .. وفجأة راح يضحك فانقلبت على ملابسه بقايا المانجو .. فقد لاحظ على أمين أن سكرتيرة تحرير مجلة « ال » تأكل المانجة بالشوكة والسكين .. وأنها قطعتها الى شرائح صغيرة .. بينما هو أكل أربع حبات وتكوم القشر أمامه .. فلما ضحك سقطت كلها على ملابسه .. عندما نهض التقط له أحمد يوسف هذه الصورة ونحن نضحك جميعا !

٦ ـ ثم صورة توفيق الحكيم وقد أعطى وثيقة « جائزة الدولة التقديرية » لحفيد الفنان الكبير صلاح طاهر وهو يقول له : العب بها .. أخرج بها إلى الشارع واملأها ترابا وهاتها .. فهى لاتساوى وزنها ترابا .. وخرج حفيد صلاح طاهر إلى الشارع وعاد بها وقد تكومت مائة قطعة فى يديه . ولما سألناه قال انه لم يجد ترابا .. الشارع كله طين ومطر !

٧ ـ وأملى عظيم فى أن تجد الزميلة نوال البيلى ، الهمها الله الصبر على فقيدنا الغالى ، هذه الصورة التى التقطها مصورنا الكبير فى مدينة توبا باليابان ..

ففى هذه المدينة يوجد أكبر تجمع لحيوان اللؤلؤ . وهناك معرض دائم لكل أشكال وألوان وأحجام اللؤلؤ . أما اللؤلؤ الذى به عيوب فكانوا يعرضونه للبيع وذلك بأن تجلس السيدات على جانبى الطريق ويطلبون من السياح أن يلعبوا : جوز ولا فرد ..

ولعبت وصورنى أحمد يوسف وأنا أكسب من هذه اللعبة مايملأ ثلاثة جوارب من هذا اللؤلؤ .. أما صورتى فهى هكذا : جالس على الأرض وأمامى « مشنة » بها حيوان اللؤلؤ المريض .. وكنا نفتح أصداف هذه الحيوانات ونستخرج اللؤلؤ .. وكل واحد وبخته .. جوز .. أو فرد .. وعلى الجانبين يوجد فتيات وقد جلسن وانحنى عليهن السياح الأمريكان والأوروبيون ..

ولكن الصورة التى وعدنى بها المرحوم أحمد يوسف ، وانشغلنا وباعدت بيننا هموم الحياة فهى تحفة فنية نادرة .. فهناك اسطورة تقول أن اللؤلؤ يطيل

العمر .. وان كيلو بطره كانت تذيب اللؤلؤ فى النبيذ ثم تشربه ، ويقولون أن اللؤلؤ هو دموع الملائكة على أهل الأرض الذين لايضعون اللؤلؤ فى عيونهم أو فى قلوبهم ..

ولكن أحدا لايستطيع أن يأكل اللؤلؤ .. ولذلك وجدوا حلا .. والحل هو أن بعض الزوار يطلبون إليهم أن يغطوا أجسامهم بعقود اللؤلؤ .. الرقبة والذراعين والصدر والساقين .. وأنهم يفعلون ذلك مرة كل سنة .. وتشاء الصدفة أن أكون هذا الشخص سنة ١٩٥٩ .. صدفة .. وحكوا لى الأسطورة ووافقت فورا .. ودخلت فى أحدى الغرف . ونزعت ملابسى .. والتفت ألوف . عشرات الألوف من حبات اللؤلؤ حول عنقى وذراعى وصدرى وساقى .. ثم أطلقوا الأضواء على جسمى .. فكنت لامعا متألقا .. نجما سقط من السماء لتتلقاه كاميرا أحمد يوسف .. وكان يرحمه الله يصرخ من روعة الصورة النادرة .. وكانت بالألوان .. ووعدنى فى مناسبات كثيرة أن يقدمها فى البوم فخم .. ولم يف بالوعد !

* * *

رحم الله زميلا صديقا رقيقا مرحا .. فنانا صحفيا .. سجل الدنيا حوله . ونسى نفسه .. ولكننا لن ننساه .

رسالة إلى طفل لم يولد بعد !

كان الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى أبعد نظرا وأعمق نظرة من كل الناس فى زمانه : فهو ليس على يقين من أى شىء يسمعه أو يسمع عنه ..

كان أبو العلا المعرى أعمى .. وهو يعرف أنه لابد أن يكون لأى أنسان طول وعرض .. وأن يكون له لون ، وأن يكون قريبا أو بعيدا .. ولكنه هو شخصياً لايعرف كيف يتحقق من كل هذه الصفات .. فقدرته على معرفة الأشياء تجىء عن طريق اللمس .. فهو يلمس الجدران ولكنه لايلمس النجوم .. وهو يعرف طول وعرض الحلة والطشت ولكن لايعرف كم يكون طول القرية أو اتساع المدينة .. انه يسمع عن ذلك ..

وهو ليس أسوأ حالا منا نحن القادرين على الرؤية .. فنحن نعرف حدود الأرض ومسافات النجوم ولكننا نعيش فى ركن من كوكب الأرض التى هى أيضا فى ركن من المجموعة الشمسية التى هى فى ركن من المجرة التى هى واحدة من ألف ألف مليون مجرة مثلها .. فالانسان هكذا ضئيل وليس على يقين من كل الذى حوله .. لا كيف كان ولا كيف يمضى ولا من أين جاء ولا الى أين يذهب ..

وأمام هذه الحيرة فى الذى يسمعه والذى يسمع عنه وفى معنى أن يكون رجلا موهوبا عظيما ثم هو بعد ذلك مثل « طوبة » قد ألقيت فى ركن من بيت مظلم .. فهو أعمى مريض فقير موهوب .. أعمى لايرى ، مريض لاينهض ، فقير لايستطيع ، موهوب يتعذب فما دلالة كل ذلك ؟

(١)

أبو العلاء يرى انه لامعنى للحياة .. ولا حكمة . وانما الانسان هو الذى يجعل لكل شىء حكمة أو معنى .. لانه لا يريد ان يبدو امام نفسه تافها لا قيمة له..

وهو لا يملك الا ان يفعل ذلك .. فالعقل الانسانى لا يستطيع ان يفكر الا اذا جعل لكل شىء بداية ونهاية .. الا اذا وضع لكل شىء رقما فى الطول والعرض والارتفاع والوزن والكثافة والموجة ومكانا فى الجدول الذرى .. فالعقل الانسانى يحول كل شىء الى ارقام .. وكما ان الطفل الصغير عندما يمسك الاشياء

ويضعها فى فمه .. اى يحول كل شىء الى طعام او كأنه طعام . فكذلك العقل هو الذى يجعل الدنيا ارقاما .. والدنيا ليست ارقاما ، كما ان كل شىء ليس طعاما ، ولكن هى طبيعة العقل كما ان هذه ايضا سلوكيات الطفل ..

وهذا العذاب فى الدنيا لا معنى له ، لان الدنيا كلها بلا معنى ولا حكمة ولا غاية ..

ولذلك يرى ابو العلاء المعرى ان اللعنة هى ان توجد .. والعذاب هو ان نحيا .. وأن والده قد جنى عليه .. لذلك فهو لم يتزوج .. لانه لا يريد ان يجنى على احد ..

يقول ابو العلاء :

هذا جناه ابى على
وما جنيت على احد !

ويقول امير الشعراء شوقى

بينى وبين ابى العلاء قضية
فى البر استرعى لها الحكماء
هو قد راى نعمى ابيه خيانة
وارى الجناية من ابى نعماء !

ولكن امير الشعراء هو الاخر يرى ان الحياة مصيبة على الاحياء .. وانه لذلك اشفق على ولده « على » من هذه الحياة .. وكان يتمنى لمولوده ان يجىء فى غير هذا الزمان ، يقول شوقى :

صار شوقى ابا « على »
فى الزمان الترلى
وجناها جناية
ليس فيها بأول !

ثم قال شوقى مرة اخرى :

« على » لو استشرت اباك قبلا
فان الخير حظ المستشير
اذا لعلمت انا فى غناء
وإنك من لقائك فى سرور
وماضقنا بمقدمك المفدى

ولكن جئت فى الزمن الاخير !

فان امير الشعراء ضيق هو الاخر بزمانه ، وكان يتمنى لطفله زمانا اخر .. أو الا يولد . فما حاجته الى ان يعانى ما يعانيه ابوه ..؟!

★ ★

قال ابو العلاء المعرى :

واذا اردتم بالبنين كرامة
فالحزم اجمع : تركهم فى الأظهر !

اى ان اكرام الطفل الا يولد .. وان يبقى هناك فى ظهر ابيه او بطن امه !

ويعلق الاستاذ العقاد على ذلك قائلا : فابو العلاء والد رءوف صد ابناءه عن الحياة رحمة بهم . فيالها من رحمة لا يعرفها له ابناؤه ! ثم متى كان الابناء يعرفون البر للآباء ؟!

ويتخيل العقاد محاورة بين ابى العلاء المعرى وبين ابن له يتوسل اليه ان يريه الحياة ، ولكن المعرى ينصحه بالبقاء فى عالم العدم .

يقول العقاد :

يا ابى طال فى الظلام قعودى فمتي انت
مخرجي للوجود
طال شوقى اليك
فأحلل قيودى
يا أبى : عالم الظلام مخيف
ليس يقوى عليه طفل ضعيف
فاجرنى من ظله المسدود

★ ★

حدثونا عن الحياة العجاب
فلهجنا بحسنها الخلاب
وظمئنا لحوضها المورود

★ ★

ارنى الجهر يا ابى والخفاء
اى شىء ذاك المسمى شقاء
اى سر يراد بالمولود

ما لوجوه الحسان ؟ ما النوّار ؟
ما الدرارى ؟ ما الفلا ؟ ما البحار ؟
ان دأب الوليد حب الجديد

★ ★ ★

ولدى : اننى ابوك الرحيم
انا بالعيش يابنى عليم
لا تصدق مقالة من بعيد

★ ★ ★

شرها يابنى شر ثقيل
خيرها يابنى خير قليل
اهلها يابنى اهل حقود

★ ★ ★

زعموها الى الخلود تؤدى
ما رأينا سوى فناء ولحد
فيه مود على تجاليد مودى

★ ★ ★

قف بباب الحياة لا تدخلنها
واعتصم يابنى ما استطعت منها
سوف القاك فانتظر بالوصيد

★ ★ ★

هكذا اقنع المعرى الوليدا
فتنحى عن الحياة بعيدا
والتقى الشيخ وابنه فى اللحود !

(٢)

والاديب العربى العظيم ابو القاسم الحريرى كان عالما من علماء اللغة وواحدا من علماء البلاغة . وكان هو الاخر سيىء الظن بالناس . كان فقيرا مثل ابي العلاء دميما مثل البحترى وابى حيان التوحيدى والفيلسوف سقراط . وكان يعرف ان الذى حذفه الله من وجهه قد اضافه الى لسانه ، والذى اخذه من

رزقه قد اضافه الى الوف الكلمات التى يعرفها ويلعب بها ..

ويقال ان رجلا ذهب اليه فى المسجد ليراه ويسمع منه ويتعلم فوجده قبيحا دميما . فتراجع قليلا . وادرك الحريرى ذلك فقال :

ما انت اول سار غره قمر
ورائد اعجبته خضرة الدمن
فاختر لنفسك غير اننى رجل
مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى !

وكانت العرب تضرب المثل بالمعيدى هذا ، فقد كان اقبح الناس .

وقال العرب : سماعك بالمعيدى خير من ان تراه !

وكان سيىء الظن بالزمان وبالمعنى لهذه الحياة .. وكان يرى ان العلماء افقر الناس .. ومن سوء حظ العلماء والادباء انهم يتسولون حقهم فى الحياة من الذين لا علم عندهم ولا ادب .. وان موهبة الادب لعنة اصابت الادباء .. ولذلك فبطل « المقامات » التى كتبها الحريرى رجل يتكسب من براعته اللغوية والبلاغية . فهو « اراجوز » الملوك والأمراء .. وصناعته : الادب وهدفه : لقمة العيش .. فبالله عليك ما كرامة الادب والبلاغة .. وما معنى هذه الحياة واية حكمة فيها ..

وفى المقامة « العمانية » او التاسعة والثلاثين يحكى لنا الحريرى ان فى احدى الجزر قصرا وعلى باب القصر حراس ، والحراس فى غاية من الحزن . يبكون . فكان لابد ان يسألوهم عن السبب . فأجابوا : « ان رب هذا القصر هو قطب هذه البقعة ، وشاه هذه الرقعة . الا انه لم يخل من كمد ، لخلوه من ولد . »

فزوجته حامل . ولكن المخاض والولادة صعبة جدا . وحار الاطباء فى امر هذه الام والمولود .. وراح الحراس يبكون !

وهذه « المقامات » لها بطل . والبطل اسمه « ابو زيد السروجى » هو الاديب البليغ الفصيح الأراجوز الذى يكتسب من ابهار الناس واضحاكهم عليه . فقال ابو زيد السروجى للحراس : عندى تميمة !

وذهب الحراس الى صاحب القصر يزفون اليه البشرى .

فاحضر لأبى زيد السروجى قلما وماء ورد وزعفران . وصلى ابو زيد وركع وسجد واستغفر . وابعد الحاضرين جميعا . ثم اخذ القلم وكتب رسالة الى الجنين فى بطن امه :

ايهذا الجنين انى نصيح
لك والنصح من شروط الدين
انت مستعصم بكن كنين
وقرار من السكون مكين
ماترى فيه مايروعك من الف
مداج ولا عدو مبين
فمتى ما برزت منه تحولت
الى منزل الاذى والهون
وتراءى لك الشقاء الذى تلقى
فتبكى له بدمع هتون
فاستدم عيشك الرغيد وحاذر
ان تبيع المحقوق بالمظنون
واحترس من مخادع لك يرقيك
ليلقيك فى العذاب المهين
ولعمرى لقد نصحت لك
كم يضيع مشبه بظنين

« ثم انه طمس المكتوب على غفلة . وتفل عليه مائة تفلة . وشد الزبد فى خرقة حرير . بعد ما ضمخها » وامر ابو زيد بتعليق هذه القصيدة على فخذ الام . وبسرعة نزل الولد من بطن امه .. « فامتلأ القصر حبورا . واستطير عميده وعبيده سرورا . واحاطت الجماعة بابى زيد تثنى عليه . وتقبل يديه .

فالحريرى هو الآخر لا يريد للمولود ان يولد .. فقد نصحه ، ولكن الولد لم ينتصح ولم يستجب . فاختار الحياة الدنيا . فأسعد ابويه .. ولابد ان يجىء دوره هو الاخر يتعذب .. ويلعن والده الذى جنى عليه .. ويلعن نفسه لانه لم يستمع الى نصيحة ابى زيد السروجى .

(٢)

وفى القرن الثامن عشر انشغل الادباء والنقاد والمؤرخون بكتاب ليس له نظير فى اى أدب عالمى .. الكتاب فى تسعة اجزاء ظهرت تباعا ، والمؤلف قسيس اسمه لورانس استرن (١٧١٣ ـ ١٧٦٨) . كانت حياته هى التعاسة نفسها . فقير .

امه بائعة متجولة . وساعده اقاربه حتى دخل الجامعة وتخرج فيها قسيسا .

تزوج فكان زواجه شقيا . هو عصبى وهى عصبية . وبسرعة احس الاثنان كأنهما يعيشان فى جسد واحد .. لابد ان يتباعدا ، ولكى يتباعدا لابد ان يتمزقا .. وتباعدا حتى لم يعد احدهما يرى الآخر او يسمعه .. او اذا رآه كأنه لا يراه ، واذا سمعه فكأنه لا يسمعه .. واتسعت المسافة بينهما .. حتى دخلت مستشفى الامراض العقلية .. وهو رأى الدين قيدا شديدا .. فلابد للقسيس ان ينال قدرا من الخطيئة ، والا استحال عليه ان يعيش ، وان ينصح الناس بالابتعاد عن الرذيلة .. ثم رأى ان الحياة الزوجية هي الموت . ولذلك لابد من انعاشها بالرذيلة .. فاحب واحدة .. وعاش لها . وانتقل الى فرنسا . وفى فرنسا استدعى زوجته وابنته وعشيقته ليعيشوا معا .. اما الزوجة فتصاب بنوبات من الجنون . وأما العشيقة فعندها ربو دائم .. واما هو فمصاب بنزيف مستمر وسل رئوى وقد شخصه الاطباء بانه الزهرى . ورفض ان يصدق ذلك . ولكن اكدوا له ان المرض قديم ، وانه قد توارى فى الدم عشرين عاما .

اما كتابه الضخم فعنوانه « حياة وافكار ترايسترام شاندى ».. وهذا الكتاب او الرواية او المذكرات ليس لها شكل ادبى معروف .. ولكنها فيضان من الافكار والصور .. والالفاظ النابية والمشاهد العارية .. وقد صدرت اجزاء من هذا الكتاب تحت اسم مستعار .. ولما عرف الناس ان المؤلف قسيس تهافتوا على هذا الكتاب الغريب !

يستهل القسيس استرن كتابه بقوله : هناك نوعان من العذاب : ان تكون قسيسا وان تكون اديبا .. واحد يخاف الله والثانى يخاف الناس .. واحد يدفع الاخر الى النار ، والثانى يستدرجه الى الجنة .. ولكن مادام للانسان جسد فله مطالب . ومادامت له مطالب فله هفوات . والانسان هو الحيوان الذى لابد ان يخطىء . واكبر خطيئة ان تولد .. ولكننا لا نعرف كيف لا نولد .. فلا احد قد استشار احدا .. ولا اعرف لو كانوا استشارونى هل اخرج للدنيا او لا اخرج .. فما الذى يمكن أن أقوله واذا قلت فما الذى افعله ، واذا فعلت فهل اكون اديبا او قسيسا ؟!

ثم يمضى الحوار بين الجنين وبين ابويه اربعة اجزاء كاملة .. ولا يولد هذا الجنين الا فى صفحة ٢٠٩ من الجزء الرابع .. اى بالضبط فى نصف هذه الرواية الطويلة .. والحوار بين الجنين وبين والديه يستعرض كل مشاكل الدنيا

ومتاعب الحياة والعلاقات الاجتماعية والسياسية .

ويرى الجنين ان الحياة صعبة شاقة .. وان الانسان لم يتهيأ لكل ذلك .. فلا عنده افكار ولا عنده اسلحة ، ولا عنده برامج للاصلاح .. او التخلص من هذه الحياة .. ولا يعرف وهو فى بطن امه ، ان كان قادرا على ان يبقى فى بطنها .. ولا ما الذى يمكن عمله اذا كبر ككل الاطفال وظهرت اظافره واسنانه . وتحركت فيه كل غرائز الحيوان . وهل تستطيع الام ان تحتمل هذا النمو المتزايد للطفل او الشاب او الرجل .. هل من الضرورى ان تكبر فى بطن الام .. او ان تصغر الاجنة ، هل يمكن ادخال واحد اخر ليتعايش الذكر والانثى معا فى داخل بطن الام .. واذا تعايشا فما الذى يمكن عمله بعد ذلك ..

حيرة .. دوخة .. عذاب .. ان يظل الطفل فى بطن امه .. وان يترك بطن امه .. مصيبة اخرى : ان الطفل يفكر فى كل شىء .. ومصيبة ثالثة : ان يكشف هذا الطفل ان والديه لم يفكرا فى كل ذلك .. فهذا الطفل جاء من غير تفكير .. ففى لحظة حظ وضع الاب والام بذور هذا الطفل وانشغلا بمصائب الحياة الزوجية .. والمفاجأة : ان هذا الطفل جاء يحاسبهما على ذلك .. ورغم هذا الحوار فان احدهما لا يملك للآخر شيئا .. لاهما قادران على انقاذه ، ولا هو قادر على ان يطيل بقاءه فى ظلمات البطن .. وفى العدم ..

يقول لورانس استرن : لابد انكما تدركان الان ان الحياة الزوجية هى افشل ما صنع الانسان .. اضعف واعقد علاقة تربط رجلا بامرأة .. ولابد من « الرباط » حتى لا يهرب الاثنان عندما يشعران بالندم .. ويقول الطفل فى بطن امه : ارى انكما تريدان ان تهربا منى .. تريدان ان تتنصلا من مسئوليتكما عن وجودى .. ولكن فات الاوان .. ولا معنى للندم .. انتما ارتكبتما الجريمة .. وانا الذى سوف اعاقبكما على ذلك .. وقد بدأ العقاب .. فالعقاب يخرج من الجريمة ، كما يخرج الطفل من بطن امه .. الزواج هو الجريمة ، والطفل هو اقسى واقصى درجات العقاب .. تعال ايها المجرم .. وتعالى انت ايتها المجرمة .. انا الخطيئة .. انا الذنب .. انا اللعنة عليكما حتى اموت ؟

وقد وصف الفيلسوف فولتير هذا الكتاب : بانه تحفة ادبية شريرة .. والفيلسوف هيوم قال : احسن واجمل كتاب ردىء فى الثلاثين عاما الماضية !

قال فولتير ايضا : ان القسيس استرن ارتكب غلطة ثانية .. الغلطة الاولى انه تزوج وانجب والغلطة الثانية انه قد اوقف الحوار بين الجنين وابويه .. بان

سمح لهذا الجنين أن يولد .. كان من الواجب ان يظل يلعن والديه وكل اب وكل ام هذا « الرباط المقدس » الذى لم يكن رباطا فى اى يوم ، ولا كان مقدسا بين رجل وامرأة .!

وقال فولتير ايضا : لقد اغضبنى هذا الجنين لانه لم يذكر اسمى فى عالمه هناك . ولو دعانى لقلت له : ايها الجنين .. عش قليلا ومت حيث انت . فانت احسن حالا منا جميعا . اننا لم نعرف والدينا الا بعد عشر سنوات .. ولم نحاورهما الا عند الثلاثين .. ولم نلعنهما الا عند الاربعين .. ولم نلعن انفسنا ودينا ودنيانا الا بعد الخمسين .. وانت سبقتنا جميعا ، فاحتقرت كل الناس وانت لم تولد بعد !

(٤)

ولكن اروع تحفة ادبية فلسفية كتبتها سيدة هى رواية « خطاب الى طفل لن يولد » للكاتبة الايطالية المعاصرة اوريانا فالاتشى .. عبارة عن حوار بين ام وجنين فى بطنها .. ماذا حدث حتى صار خليه .. جنينا ..

وتتساءل : هل من حق المرأة ان تعطى الحياة لطفل فى هذا العالم .. حيث الحياة عنف ، والعدل ظلم ، والحلم كذب ، والغد كالامس .. هل من حق اى ام ان تلقى فى هذه الدنيا بمن يتعذب .. اى متعة لها فى زيادة عدد المعذبين ؟!

هل هو الطفل الذى يقرر ان كان يحب ان يولد او هو لا يحب ؟

فى هذه الرواية تتحدث الام الى الذى فى بطنها حوارا طويلا فاتنا ، تحدثه عن الدنيا التى سوف يصادفها .. مشاكلها .. وتتمنى له ان يكون ولدا .. لان الفتاة تتعذب وهى صغيرة وهى كبيرة .. وانها فى دنيا الرجال سوف تلقى كل انواع الهوان .. والذنب ذنبها دائما . وان احبت فهى فاجرة ، وان غلطت فهى عاهرة ، وان تزوجت فهى مصدر التعاسة ، وان انجبت فالاطفال اولادها وحدها ، واذا نجح الاولاد فبفضل الاب ، واذا فشلوا فالسبب هو الام .. فهى ملعونة منذ ولادتها ..

وتحكى لهذا الجنين ماذا دار بينها وبين ابيه .. هو يريدها ان تتخلص من الجنين .. وصاحباتها يقلن لقد اجهضن انفسهن عدة مرات .. فلا داعى لوجع القلب ..

وانه اذا ولد فسوف يعتمد عليها تماما ، وتعتمد هى عليه .. لن يكون وحده ،

ولن تكون وحدها .. مرضها مرضا له ، ومرضه مرض لها ..

وتقول له انها رأت فى نومها انثى الكانجرو .. وكيف ان صغيرها فى حجم الدودة .. وان هذه الدودة تزحف من تلقاء نفسها وسط الشعر الكثيف حتى تصل الى ثدى الكانجرو وترضع .. ثم تزحف الى جيب الكانجرو لتكمل نموها .. ولكنها لا تراه دودة .. ولا تراه رجلا ولا امرأة .. وانما هو شخص .. شخصية .. له ملامح مستقلة متميزة ..

وتقول له : اناس يقولون ان الطفل ابن الدولة .. واناس يقولون بل ابن الكنيسة .. واناس يقولون بل الطفل ابن امه .. ولكنى أرى انك لست ابنا لاحد .. انت ابن لنفسك .. انت لنفسك . وانت سوف تقف على قدميك وفى طريقك نحو هدفك .. حياتك فى يدك وموتك ايضا .

وتقول انها كانت نائمة على ظهرها بامر الطبيب . ودق الباب وجاء خطاب من ابويها . يقولان : كانت صدمة لنا انك حامل بغير زواج . ولكن نحن لم نفلح فى ان نعلمك . انت التى علمتينا . وقد تلقينا الدرس الذى اوجعنا ..

ثم كان مع الخطاب صندوق صغير به حذاء المولود .. ابيض . هذا الحذاء مصنوع من الجلد ، جلد الابقار التى سلخوها فكلما كان للطفل حذاء لابد من ذبح الابقار ، ولكى يكون للطفل بالطو من الفرو لابد من ذبح الدببة او الثعالب .. فلكى يعيش احد لابد من ان يعيش على موت غيره .. وفى هذا الزحام يدوس الناس بعضهم بعضا ويقتل بعضهم البعض ..

وتقول له : هذا هو العنف الذى جوهر الحياة ..

وتقول : من السهل ان تبكى من الصعب ان تضحك .. سوف تبكى عندما يبهرك النور .. سوف تبكى من الخوف ومن الجوع .. وسوف تبتسم وتكون ابتسامتك لى لاننى لم اترك البويضة تنمو فى بطن امرأة اخرى .. فقد جعلتها فى بطنى انا ..

وهى نائمة على ظهرها الفت للجنين عددا من القصص . من هذه القصص ان طفلة صغيرة كانت تنظر الى شجرة كبيرة . ولابد ان تقف على كرسى لكى تتمكن من رؤيتها الشجرة لها ازهار . الازهار عندما تذبل تسقط جاء رجل وجاءت امرأة .. وتعانقا وناما تحت الشجرة .. فجاء فلاح طاردهما . طارد الرجل ثم هجم على المرأة وعانقها بقوة . ثم القى بها على الشجرة . وعندما تكسرت تحتها الاغصان مدت يدها الى زهرة .. صرخت الطفلة تنادى امها ..

جاءت الام فوجدت المرأة قد ماتت .. ومن يومها وانا اعرف ان الذى يقطف زهرة يموت .. هذه الطفلة الصغيرة هى انا .. ولكنى اريدك ان تقطف الازهار دون خوف من الموت ياولدى .

الاشجار وحدها هى التى لا تلتهم احدا لكى تعيش .. انها ليست كالحيوانات . فالاشجار تعيش على الهواء والماء والشمس .. واذا لم تكن شمس ذبلت ، واذا لم يكن هواء اختفت ، واذا لم يكن ماء ماتت ..

وقصة اخرى : ان طفلة كانت تحب الشيكولاتة : وان امها راحت تعمل عند سيدة غنية . وفى بيت السيدة الغنية كانت كمية كبيرة من الشيكولاته . عندما رأتها الطفلة برقت عيناها . فحذرتها امها . ولكن صاحبة البيت جاءت والقت الشيكولاتة من النافذة للطيور .. ثم استخرجت لنفسها واحدة .. وفكت اوراقها الذهبية واكلتها .. ولم تعط الطفلة واحدة .. ومنذ ذلك اليوم ياولدى وانا اكل الشيكولاتة التى اقترنت بهوان امى وعذابى وقسوة هذه السيدة .. ولكنى اريد ان أغرقك فى الشيكولاتة تحتك وفوقك ليلا ونهارا ..

وتقول له انها لا تعرف اى نوع من الرجال هو . التاريخ يقول : انه فى كل مرة يولد هوميروس يولد هتلر .. أى طاغية .. ولكن يجب أن تعتاد ياولدى على عذاب امك .. فالأم هى « الكترا » التى ترتدى الحداد دائما .. اليست اما ؟!

ان القرار الذى اتخذه طفل اوريانا فالاتشى : انه مات .. مات الجنين .. وكان لابد من التضحية اما بالجنين واما بالام .. وعاشت الام . واحس الناس حولها بالارتياح : فالمؤسسة التى تعمل بها احست انها انقذت سمعتها .. اذ كيف تحمل وهى لم تتزوج .. واحس ابواها بالسعادة فقط اختفى العار .. واحس الاطباء بالراحة فهم لم يقتلوا طفلا ، وانما انقذوا اما ..

ورغم الحوار الطويل جدا مع هذا المولود الذى لم يولد .. ولن يولد ، وينبغى الا يولد فى هذه الدنيا ، فقد تمنت له اوريانا فالاتشى الا يولد .. انها ايضا كانت تتمنى الا تكون امرأة ، حتى لا يعذبها الرجل .. ولا تتمنى ان تكون رجلا حتى لا تعذب النساء .. وحتى لا تقتل الرجال فى الحروب ..

ثم ان الرجال بلهاء .. هؤلاء الذين صعدوا الى القمر ـ مثلا .. انه انجاز علمى عظيم .. هؤلاء الرجال لم يبتسموا لم يضحكوا .. ولا عرفوا ذلك .. انهم فقط صعدوا .. وهناك تركوا مخلفاتهم .. وهذه المخلفات دليل على انهم ذهبوا الى هناك .. تماما كما تفعل الكلاب انها تتبول على الاشجار والمقاعد .. وهذا

البول معناه : وضع علامات مشمومة تدل على ان هذه منطقتها . هذه حدودها .. ثم عاد رواد الفضاء الى الارض .. وبقيت مخلفاتهم مع علم الدولة فوق .. ولم يضحكوا لذلك ولم يبتسموا ولا عرفوا ولا فى نيتهم ذلك !

اما جنين اوريانا فالاتشى ، فقد اختار الا يكون وان تكون هى لتكتب عن الذى حدث ، والذى لم يحدث .. فابوها قد جنى عليها وامها ، اما هى فلم تجن على احد .

مصطفى شردى جدا

كان من المستحيل أن يتألق مصطفى شردى إلا فى عصر الرئيس حسنى مبارك . عصر الحرية الى أقصى حدود التجاوزات ودون تدخل من الرئيس أو أية محاولة لذلك . لقد كان مصطفى شردى صحفيا ممتازا ومصورا بارعا ومخلصا عاطفيا . وكان فى استطاعته أن يظل لامعا .. ولكن كان يحتاج الى رجل من طراز حسنى مبارك ليسمح له بالانطلاق صاروخا فى أى وقت لأى ارتفاع نحو اى هدف دون خوف على قلمه أو صحيفته أو حزبه !

لقد تباعدنا عشرات السنين .. قضى هو معظم الوقت فى بورسعيد ثم سافر الى الخليج ليعود وقد امتلأ بالحب والغضب على كل ما يقرأ ويسمع عن مصر .. كان غاضبا عاما ساخطا شاملا . ولكن عندما ظهر حزب الوفد تولدت امامه الفرصة .. فلم يبق إلا أن يرشحه أستاذنا مصطفى أمين فانطلق مصطفى شردى من قاعدة الصواريخ بعد أن تحددت له القاعدة والهدف ..

وانشغل وانشغلنا .. واتسعت المسافات واختلفت الطرق والوسائل ولكنه كان هنا دائما وهنا فى القلب وفى العقل ايضا .. فلاتزال حياتنا السعيدة الرومانسية فى بورسعيد فى الخمسينات هى الحياة وهى الذكرى للصداقة العميقة : الحب والمرح ..

وقد حاولت جاهدا أن اتذكر كيف كنت اسافر من القاهرة الى بورسعيد .. لم أتاكد حتى الآن ان كنت أسافر فى سيارة أو فى قطار .. فى سيارتى أو سيارة أحد من الأصدقاء .. لا أعرف . وكل الذى اذكره هو بورسعيد .. كيف كانت فى الخمسينات : مدينة صغيرة جميلة نظيفة . الشوارع قصيرة منتظمة الجوانب . والبيوت اوروبية .. والناس وجوههم حمراء بيضاء نحاسية فى غاية الصحة والعافية .. ولم أكن اعرف من أهل بورسعيد سوى مصطفى شردى ود . فاروق سعدة ومحمد قورة - وكنت اسميه جحا بورسعيد . أما ابراهيم سعدة فقد كان مايزال يدرس فى سويسرا .. وان كان يبعث بمقالات من نار مكتوبة على الآلة الكاتبة - رغم ان خطه جميل جدا . وكنا ننظر الى مصطفى شردى وابراهيم سعدة على انهما تلميذان مخلصان لعلى امين يطبقان حرفيا ما يريد : فالصحفى

يجب ان يعرف التصوير ـ مصطفى شردى يتقن ذلك . وان يكتب على الآلة الكاتبة ـ ابراهيم سعدة بارع فى ذلك ..

اما أهل بورسعيد فهم يعرفون بعضهم البعض .. ولذلك عندما نمشى فى الشارع نجدهم يقولون : ازيك يا مصطفه افندى .. ازيك يا دكطور .. أو ينادون بعضهم البعض من بعيد وكأنهم فى بيت واحد .. هم فعلا فى بيت واحد لأنهم اسرة واحدة ..

اما الذى فى بورسعيد فى ذلك الوقت .. ففيها الأصدقاء أولا .. وفيها الهدوء والجمال .. المطاعم الصغيرة نظيفة واصحابها يونانيون .. والفنادق مطلة على البحر .. أو على الميناء .. والبيوت من خشب أو من زجاج .. أو من حديد .. ثم مطعم جاثولا .. كأنه احد المطاعم فى ميناء فرنسى أو ايطالى .. ولا يكاد نجلس حتى يجىء ماسح الأحذية ـ بورسعيد اليوم ليس بها ماسح احذية ولا حلاق ولا ترزى ولا مقهى ـ يرون ذلك تضييعا للوقت الذى هو من ذهب !! ثم يجىء قارىء الكف .. وقبل ان تفتح يدك يقول لك : عشرة صاغ .

وكنا نجدها مبلغا كبيرا . ولكن فى هذا الجو الهادى النظيف النقى تمد له يديك الاثنتين واحدة بالعشرة قروش والثانية ليقرأها لك .. قال لى قارىء الكف : أنت بحار ؟

قلت : لا

ـ أنت طيار ؟

ـ لا ..

ـ اذن سوف تعمل بحارا أو طيارا وتلف حول الأرض .. لفة كبيرة جدا يا سعادة البيه ..

ـ متزوج ؟

ـ لا ..

ـ اذن سوف تتزوج .. واحدة .. اثنين .. ثلاث .. اربع .. ما شاء الله .. كفاية كده والا اقول لك كمان .

ـ هل لايزال عندك كلام تقوله ؟

ـ نعم .. بس عشرة صاغ ثانية .. ووجدتها كثيرة . فقلت : هذا يكفى .. وظللنا نضحك .. فلا أنا بحار ولا طيار ولا فى نيتى أن اكون .. ولكن بعدها بشهور قمت برحلتى حول العالم فى ٢٢٨ يوما وكان ذلك فى يونيو سنة ١٩٥٩ .. أما الزوجات

الأربع فكن مطبا وقعت فيه !

ومد مصطفى شردى يده وهو يضحك : احنا من بورسعيد زى بعض .. ده اجنبى من القاهرة ..

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى شلن كويس ؟

ـ عشرة صاغ !

ـ شلن !

ـ لا عشرة .. انت حر سوف اقول لك على قدر فلوسك .. هات !

وراح يقلب فى كف مصطفى شردى وقال له : سوف تتزوج .

ـ وهل هذا خبر .. كل انسان سوف يتزوج ..

ـ قريبا .

ـ هات الشلن .

ـ طيب .. ايه رأيك انك سوف تسافر وتعيش بعيدا .. ليس الآن .. ولكن بعد عشر سنين .. ويمكن أكثر .. وسوف تكون سعيدا .. ايه رأيك ان أولادك ذكور وليسوا بنات ..

ـ كم واحد ؟

ـ مش عارف .. لكن فيهم اثنين توائم .

ـ مصطفى وعلى ؟ ! هاها !

وحدث ما توقع قارىء الكف .. بعدها بوقت قريب تزوج مصطفى شردى وكان من بين أبنائه الثلاثة توأمان .. ثم سافر الى أبى ظبى سنوات يصدر أكبر صحف الخليج فى ذلك الوقت .. ومعه كل زملاء الدراسة من أبناء بورسعيد .. فمصطفى شردى لا يستطيع أن يعمل إلا بين الذين يحبهم ويحبونه .

وكانت بورسعيد عندنا : راحة .. واحة .. قطعة من الجنة .. وكنت أهرب اليها كلما عذبتنى القاهرة .. والقاهرة قطعة من العذاب ، ان لم تكن العذاب كله .. والدواء والشفاء فى بورسعيد .. وأحسن الأسماك والكابوريا فى بيت فاروق سعدة .. وكانت زوجته هولندية يرحمها الله .. وكانت عنده ابنتان جميلتان . واحدة منهما كانت تتخيل القصص المرعبة وتحكيها وتصرخ .. أما مصطفى شردى فاكتشفنا انه جاد جدا حين يقول او يكتب انه يرى ان كل شىء فى بورسعيد ليس له نظير فى الدنيا . مع انه لم يكن قد رأى اى مكان آخر من الدنيا ..

وكان لنا صديق يهودى من أسرة هرارى وكان بارعا فى قراءة الكف . فكان يقول : قناة السويس سوف تتغطى بالدماء مرة أخرى وسوف تنسد ثم تتغطى بالدماء وتتفتح ولن تنسد بعد ذلك ..

فكنا نقول : يا هرارى انسد أنت .. قرفتنا !

وكنا نسأله : يا هرارى فاذا لم يحدث ذلك ؟

كان يقول وهو شاب مهذب مثقف عاشق لمصر : اقتلونى ..

ـ واين نجدك ؟

ـ آه .. لن تجدونى .. فمكتوب فى يدى اننى سوف اترك مصر .. ولكن اذا حدثت حرب بين مصر واسرائيل فسوف ابعث لكم ببرقية من أى مكان فى الدنيا !

وكان مصطفى شردى يقول : تقصد خراب بورسعيد .. ؟ ! أنت تغرينى بان اقتلك من الآن !

وعندما وقع العدوان الثلاثى تلقيت برقية جاءت من هرارى من السويد يتمنى لمصر الحبيبة السلامة .. ولما كانت النكسة العسكرية تلقيت خطابا من هرارى بعث به من ريودى جانيرو عاصمة الأرجنتين .. ولما عقدت اتفاقية كامب دافيد جاءتنى سيدة فى واشنطون وتقول لى ان معها رسالة شفوية .. وسألتنى : أنت تعرف هرارى المصرى ؟

قلت : نعم : أين هو ؟

قالت : انه يهنىء مصر بالسلام ونهاية الحروب مع اسرائيل ..

ـ اين هو ؟

ـ فى احد المستشفيات ..

ـ هل استطيع ان أراه ..

ـ لا ..

ـ انه يعانى من غيبوبة شديدة عندما رأى السادات وبيجين وكارتر فى التليفزيون يوقعون هذه الاتفاقية .. ولكنه طلب منى أن أبحث عنك بأى شكل ..

وبعدها بأيام مات هرارى !

وطلب منى مصطفى شردى أروى له الحكاية .. فلم يصدقنى إلا عندما أسمعته تسجيلا صوتيا لهرارى يحدثنا فيه عن نبوءاته .. وعن أيامنا السعيدة فى بورسعيد !

وعندما وقع العدوان الثلاثى على بورسعيد .. كان مصطفى شردى فى حالة

من الجنون .. فقد هدموا عليه المعبد .. فهو يرى كل شيء في بورسعيد جميلا .. وكل شيء في بورسعيد ليس له مثيل في الدنيا : لا الشوارع ولا البيوت ولا الناس .. ولا الخيول والكلاب والطيور .. حتى الشمس عندما تشرق على بورسعيد يكون غروبها ايضا له مواصفات خاصة ..

وأذكر ان مصطفى شردى كتب مقالا عن « المعدية » بين طرق القناة .. واظن التذكرة كانت بخمسة مليمات .. والذى كتبه مصطفى شردى عن هذه المعدية كان شعرا أو قريبا من ذلك .. ورأيت المعدية ولم أجد شيئا مما قاله مصطفى شردى . ولكنه كان يراها كذلك ، وافلح في اقناعنا ..

وأذكر اننى كتبت مقالا ونسبته الى مصطفى شردى وقلت فيه : ان الخيول في بورسعيد رأسمالية بطبيعتها وتحتقر الشيوعية .. فالحصان اذا جر الحنطور فانه يهز رأسه يمينا ثم يمينا ولا يهزها يسارا أبدا !

وقلت ايضا : ان طيور النورس في مياه بورسعيد لا تقترب إلا من السفن الامريكية أو البريطانية .. ولكنها ترفض الاقتراب من السفن الشيوعية .. فالسفن الرأسمالية تلقى بفائض الطعام في البحر ، أما السفن الشيوعية فليس فيها طعام .. بل انها تنتظر هذه الطيور لتصيدها وتأكلها !

وعندما تزوج مصطفى شردى طلبت اليه أن يكتب مقالا عن عادات الزواج والزفاف في بورسعيد . ظنا منى أنهم أيضا مختلفون عن بقية شعب مصر وشعوب العالم . فكتب مقالا . وغيرت عنوان المقال وجعلته : عروستى من بورسعيد .. ونسيت انه مايزال عريسا فغضب اهل العروس . فقد تحدث مصطفى شردى عن عامة العرسان ، وليس عن خاصة العرسان . ولأن اهل العروس لا يعرفون ماذا يمكن أن يحدث في مهنة الصحافة ، فظنوه يسخر منهم .. ولم يصدقوا اننى انا الذى غيرت عنوان المقال !

وبعدها عرفت المتاعب والمشاكل بسبب هذه المداعبات ..

وفي يوم كتب مصطفى شردى مقالا في مجلة « الجيل » التى كنت رئيس تحريرها عن كلب على شاطىء بورسعيد .. كلب .. ينام كل ليلة عند كابينة على الشاطىء .. والناس يقارنون بين اخلاص الكلب ، وعدم اخلاص صاحبة الكابينة .. وأنا في القاهرة لم أفهم النكتة أو المصيبة التى في هذا الخبر الصغير !

وانقلبت الدنيا .. فالرئيس جمال عبدالناصر اتصل بمصطفى أمين وعاتبه

بشدة .. وعاتبنى مصطفى أمين .. وعاتبت مصطفى شردى الذى صدر قرار بوقفه عن العمل . لماذا ؟ لأن الكلب هو كلب السيد المحافظ الذى يتردد كل ليلة ويسهر حتى الصباح فى هذه الكابينة .. وبقية الفضيحة تعرفها كل بورسعيد .. ونحن فى القاهرة لا نعرف !!

وفى يوم ذهبنا إلى أحد ملاهى بورسعيد .. الملهى صغير .. الفرقة التى تغنى وترقص ايطالية . عرفوا أننا صحفيون فجلسوا معنا .. قالت احدى الراقصات انها قرفت من هذه المدينة .. ليست فيها حياة وانها لذلك سوف تأخذ اجازتها وتعود الى ايطاليا ..

وسألنى مصطفى شردى ماذا تقول بنت الـ .. فنقلت اليه ما قالت .. فغضب قائلا : انها وقحة كيف تشتم بورسعيد وشعب بورسعيد وكفاحنا وتاريخنا .. لابد ان تغادر هذه البلاد فورا !

ثم طلب الينا ان نترك الملهى دون ان نكمل طعامنا . ولم نفلح فى اقناعه بانها زهقت هذا شعورها .. ولابد انها زهقت من بلادها ايضا وجاءت الى بلادنا .. شعور خاص ليس من الضرورى ان نتفق على ان بورسعيد مدينة مقدسة .. أبدا .. لقد غضب مصطفى شردى .. وترك المكان واضطررنا ان نبرح المكان أيضا !

وفى يوم كنت فى هونج كونج فى أحد الملاهى العارية . فسألنى جارى : من أى البلاد ؟ قلت : من مصر . قال : من مصر وتتفرج على هذه الرقصات العارية .. ان عندكم فى بورسعيد ما هو أروع وأبشع من ذلك !

ونقلت لمصطفى شردى هذا الذى سمعت .. فغضب مصطفى شردى وقال : انه رجل كاذب مخمور .. ان بورسعيد اشرف مكان فى العالم !

وعندما زرت مكتبة فرديناند دلسبس وجدت فى احد الكتب صفحات عن الليالى الحمراء فى بورسعيد وان الأجانب وحدهم هم الذين يرونها !

ولم يصدق مصطفى شردى ما جاء فى هذا الكتاب ايضا !!

وفى أوائل سنة ١٩٦٢ سافرت ليلا إلى بورسعيد .. وفوجىء بى مصطفى شردى وقال : خيرا ؟ !

قلت : لا خير !

قال : شىء آخر ؟ !

قلت : انه نفس الشىء . وقد جئت إليك لتساعدنى !

كان الرئيس جمال عبد الناصر قد فصلنى من عملى رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » ومن عملى مدرسا للفلسفة بالجامعة . ولم أجد إلا حلا واحدا هو أن أهرب من مصر إلى السعودية .. ومطلوب أن يساعدنى مصطفى شردى عن طريق أصدقائه وبلدياته وأقاربه فى ميناء بورسعيد .. أما والدتى فأنا كفيل باختراع عدد من القصص تقنعها بضرورة السفر .. لانها لا تعرف اننى مفصول من عملى .. ولا أريدها ان تعرف .

وأشهد ان مصطفى شردى قد أعتبر هذا الموضوع مشكلته هو .. وانه لابد ان يجد لها حلا . وقابلت عددا من رجال الجمارك . وتناقشنا فى الهرب على سفينة شحن .. وبملابس عمال الميناء .. وملابس البمبوطية .. وعرفت من هم الذين سوف يدخلون معى الميناء والزورق والسفينة النرويجية .. وبعد ذلك عدلنا الخطة إلى إحدى السفن البريطانية التى يعمل عليها بحارة من اليمن .. وأخيرا قررنا ان تكون احدى ناقلات البترول .. ثم عدت إلى بورسعيد مرة اخرى لاتأكد من كل المواعيد والناس والدخول والخروج .. وماذا يحدث لو .. وماذا أقول لو .. وأين يكون مصطفى شردى فى حالة ما اذا .. وأين فاروق سعدة .. وأين وأين . واخترعت لأمى عددا من القصص التى صدقتها فورا .

واتفقت مع صديقى المرحوم كمال الملاخ ان يكون على صلة يومية بوالدتى .. وان يكتب لها ما يرى من الحكايات وان يحكى لها ما شاء من القصص حتى أتمكن من الكتابة إليها بعد ذلك !

وفى ذلك الوقت كان من عادتى ان اسهر فى بيت مصطفى أمين .. كل ليلة .. وكان يسهر ايضا معنا : محمد عبد الوهاب وكامل الشناوى وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل وأحمد رجب ومجدى العمروسى .. كل ليلة .. وفى الليلة السابقة على الهرب ملأت عينى من كل الحاضرين . وقررت ان اكتب خطاب اعتذار لعلى أمين الذى طلب منى الا افعل شيئا دون ان يعرف لكى نفكر معا فيما هو الانسب ..

وتسللت من بيت مصطفى أمين مبكرا .. ورحت اتمشى فى شوارع الزمالك .. ارى البيت الذى اقمت فيه عندما جئت ادرس فى الجامعة .. انه شارع الامير حسين رقم ٣٨ .. بيت السيدة نعمت هانم يكن .. وكان والدى يعمل مأمورا لتفاتيشها الزراعية .. وقبل ذلك عند أخيها عز الدين بك يكن .. وقبل ذلك عند عدلى باشا يكن .. ومررت على البيت الذى كانت تشكنه ماتيلدا .. انها ايطالية

رومانسية مجنونة فكرت فى طريقة لاغتيال الرئيس عبد الناصر .. وفى يوم فوجئت بها وقد حملت كراسة ضخمة سجلت فيها ٤٢ طريقة لاغتيال الملوك والرؤساء فى التاريخ .. وتسألنى : ما رأيك ؟ قلت : انا فى عرضك .. بعد ان اطفش من هذا البلد ، نفذيها انت على راحتك !

ومررت على بيت أم كلثوم .. ثم اتجهت إلى امبابة .. وكنت أسكن بيتا عند أطراف المدينة .. ولكى أصل إلى هذا البيت لابد ان أمر على « مقالب » الفول .. وهذه المقالب كانت تخرج الرماد الملتهب وتلقيه فى الطريق .. فإذا مررت فوقه ليلا كان يطلق شرارا .. ومن بعيد كان يجىء صوت الكلب .. كلبى .. فلا يكاد يسمع صوت الصفارة التى تردد لحنى « مراعى الاستبس » للموسيقار الروسى برودين حتى ينبح نباحا عاليا .. مع ان المسافة بيننا تزيد على ثلاثة كيلو مترات .

كاننى مت وهذه روحى هائمة فوق كل الأماكن التى عشت فيها ومشيت عليها !

ومررت على بيت كمال الملاخ .. ووجدت ضوءا خافتا فى غرفته .. وكدت أصعد اليه لاستودعه .. ثم مررت على بيت كامل الشناوى .. انه ما يزال فى بيت مصطفى أمين .

ثم عدت إلى بيتنا .. وكان فى مواجهة مسجد السلطان ابى العلا .. بيت طويل نحيف .. واقف على حيله .. البيت مظلم تماما .. ولكن عندما دخلت سمعت أمى تسعل : كإنها تريد أن تقول انها لم تنم .. وكيف تنام وأنا سوف أسافر بعد ساعات .. وحقيبتى وجدتها أمام باب غرفتى .. وذهبت إلى أمى احييها .. وعلى غير العادة قبلت يدها طويلا .. فبكت . وتركتها حتى لا ترى دموعى .. مصيبة ان يكون للانسان أم ، وان يحبها جدا وان يجد نفسه مضطرا إلى فراقها .. سعداء جدا اللقطاء الذين لا يعرفون لهم أبا ولا أما ولا أخا ولا أختا .. كان ذلك شعورى وأملى الذى لم يتحقق .. وقد دفعنى خوفى على أمى اننى كنت ادعو الله ان تموت قبلى حتى لا تتعذب من بعدى . الحمد لله لقد ماتت لكى انفذ لها كل ما أوصت به .. يرحمها الله انها لم تمت .. والله لم تمت لا فى قلبى ولا فى عينى ولا فى احلامى .. اننى نعشها وكفنها وقبرها المتحرك وعمرها الثانى !

وبعد ساعات لا أعرف كم عددها ، سمعت طرقا على الباب ..

قلت : ماما ؟ فيه حاجة ؟ !

قالت : على أمين ..

قلت : مين ؟ !

قالت : على بيه ..

قلت : على بيه ماله ؟ !

قالت : هنا ..

وقفزت من السرير .. ولم أعرف كيف اتكلم ولا كيف اعتذر لعلى أمين عن السلم الضيق ستة ادوار بلا أسانسير .. وكان على أمين يلهث على السلم الطويل .. وطلب كوبا من الماء ..

قلت له : خير ياعلى بيه ؟

قال : انزل معى !

قلت : إلى أين ؟

لقد عرف على أمين اننى سوف أهرب فى ذلك اليوم .. واذهلتنى المفاجأة .. وفى سيارة على أمين وجدت مصطفى شردى .. اذن مصطفى شردى طاوعنى فى ترتيب كل خطوات الهرب .. ولكن قلبه لم يطاوعه فذهب واخطر على أمين بكل شىء .. وعرفت ان على أمين كان يعرف التفاصيل أولا بأول !

★ ★ ★

وفى السنوات الأخيرة كنا نشفق على مصطفى شردى .. وكان هو يشفق علينا .. فقد تعلم من مدرسة « أخبار اليوم » ان الصحفى جندى يموت واقفا فى المعركة .. وقد قرر ان يموت حيث يعمل وبسبب ما يعمل .. وقد عاش مصطفى شردى بقلبه ومات بقلبه ايضا !

أما « زنزانة المجد » .. فهى مكتبه الذى كان يعمل به .. غرفة فى الدور الأرضى مظلمة .. ألوانها كئيبة ضيقه .. مغلقة ليلا ونهارا .. وهو واقف معظم الوقت .. ويتصور بحسن نية ان عصير الليمون بلا سكر ثم هذه اللعبة المغناطيسية التى تتحرك على مكتبه ، هى التى ستؤدى إلى تهدئة التوتر النفسى بمجرد النظر إليها .. ولو نظر لوجدها لا تتحرك .. لقد نسى ان يهزها .. فقط ان يهزها !

ولكن لأنه عاطفى فهو رافض بعنـف .. والرافض العنيف كالذى يصدق بعنف .. كلاهما لا يرى إلا جانبا واحداً من كل شىء ..

فالأول يقول : لا شمس ولا جديد ..

والثانى يقول : كل شيء جديد تحت الشمس .. حتى الشمس نفسها متجددة !

ويقال كان من الممكن أن يعيش أطول لو انه انتقل إلى غرفة أوسع أو أكثر إضاءة وأحسن تهوية .. ويقال لو كل المحررين كانت لهم غرف أوسع ، ما تحول ضيقهم الشخصى إلى ضيق عام .. ولتبدل سخطهم على أنفسهم ، إلى سخط على كل الحكومة ..

ولو كان المايسترو مصطفى شردى هادىء الخطوة عميق النفس عرف « طاقيـة الثلج » عند كل مقال ، لطال عمره .. وهو كلام يقال دائما متأخرا جدا ـ فالأعمار بيد الله ..

ولم يكن جديدا علينا ان يكون مصطفى شردى عالى النبرة ملتهب العبارة خطابى الأسلوب . فقد كان دائما كذلك .. وكنت اطلب إليه فى الستينات بعد كتابة كل مقال ان يحذف كلمة « جدا » .. وكنت اداعبه وأقول له : احذفها من المقال وسوف اضعها إلى اسمك هكذا : مصطفى جدا شردى جدا جدا من بورسعيد جدا جدا جدا .. فهذا هو مزاجه فى الكتابة وفى التفكير .. ولذلك كان مصطفى شردى ومزاجه اميل إلى أن يكون معارضا .. وأكثر أهل بورسعيد لهم نفس المزاج حتى كنا نداعبهم باننا سوف نطلب لهم الحكم الذاتى يوما ما ..

ولم يكن مجنونا ذلك المواطن البورسعيدى الذى بعث ببرقية للرئيس جمال عبد الناصر هذا نصها : أهنئكم باسم شعب بورسعيد الشقيق بعيد الأضحى المبارك ـ ثم كتب اسمه وعنوانه ليسهل على البوليس اعتقاله واسقاطه فى غياهب مستشفى الأمراض العقلية حتى اخرجه أنور السادات ـ وكان المواطن البورسعيدى قد طار عقله فلم يعد يفرق بين العباسية وبين بورسعيد .. وبين الذين حبسوه وبين الذين حرروه ! !

ولم يتنبه زملاء مصطفى شردى إلى أن مرض القلب غدار خائن .. وانه من الممكن ولأى انفعال صغير ان يتوقف القلب مرة واحدة .. ولم يخطر على بالهم وهم يتحدثون اليه عن الذى يمكن كتابته من موضوعات بمناسبة ثورة الانقاذ فى السودان ، ان مجرد وجودهم معه وحوله ولو لم ينطلقوا بكلمة واحدة يكفى لان يتلقوا فيه العزاء بعد لحظات . وهذا ما حدث ..

★ ★ ★

وعندما قلت لفؤاد سراج الدين : ان البن فى مكتبك ردىء جدا .. فأنا أعرف انك رجل وطنى .. ولكن لم اتصور انك وطنى لدرجة انك تقدم لنا تراب مصر على انه قهوة !

فكان فؤاد سراج الدين ينادى بأعلى صوته لمصطفى شردى : يامصطفى .. فى عرضك هات له أحسن بن .. لا داعي للفضيحة !

ولكن لم أعرف ان البن فعلا كان له طعم التراب الذى وارينا تحته مصطفى شردى .. بأسرع مما كنا نتصور ..

يرحمه الله ويخفف عن زوجته وأولاده وزملائه . فقد خسرت بورسعيد عاشقا ، والدقهلية ابنا ، واخبار اليوم تلميذا ، والوفد ركنا ، والمعارضة عاصفة ، ونحن صديقا غاليا رقيقا مجاملا ، واللغة العربية أكثر الناس استهلاكا لكلمة : جدا . جدا ! !

كمال الملاخ :
ولكننا ضحكنا أكثر

بدأت صداقتنا من غرفة واحدة فى صحيفة الأهرام سنة ١٩٥٠ . الغرفة صغيرة . أما المكتب الكبير المجاور لنا فهو للأستاذ أحمد الصاوى محمد . وقد بدأ المرحوم كمال الملاخ يضع بعض الرسومات الصغيرة فى باب البريد الذى يكتبه الاستاذ الصاوى بعنوان « زكيبة البريد » . ثم كتب الأستاذ الصاوى بابا آخر بعنوان « ابر النحل » . أما مقالة « ما قل ودل » ففى الصفحة الأولى . وقد كافح كمال الملاخ طويلا حتى ينتشر عشرة سطور بتوقيع : القناع الأبيض . ولم يكن مسموحا لأحد منا فى هذه المرحلة المبكرة من حياتنا أن يوقع بإمضائه . وأول مرة يظهر فيها اسمى فى الأهرام كان على سبيل الخطأ عندما كتبت مقالا عن الباليه الهندى!

والمرة الثانية عندما سافرنا نحن الاثنين إلى أوروبا . فجاء فى باب المجتمع : يسافر اليوم على ظهر الباخرة اسبريا الزميلان كمال الملاخ وانيس منصور . وكنا نضحك لأننا سافرنا على « ظهر » الباخرة فعلا وليس مجازا . وكان معنا الفنانون الكبار : صلاح طاهر وحسين بيكار وحسن فؤاد وجمال وكمال الاخوان سيف وادهم وانلى !

وكنا نخرج معا وندخل معا ونعيش ونتغذى ولا نفترق فى فرح أو مأتم . ونتبادل اسرارنا . ولم تكن لنا اسرار فانا أعرف وأنا جالس فى المكتب اين هو ومع من ومتى وكيف والى متى .. واذا سبقنى كمال الملاخ الى الخزانة وقبض مرتبى وهرب الى الاسكندرية فانا أعرف من هى المحبوبة .. وأعرف اننى سوف اذهب الى المهندس يوسف الملاخ واشكو له . ويعطينى مرتبى من جيبه ، ويدعونى الى الغداء ، وكان يرحمه الله رجلا انيقا فخما نبيلا .

وكان كمال الملاخ يعرفنى على اصدقائه وصديقاته .. وأتضايق . ولكنه يرى أن من الضرورى أن أكون معه . لكى يسألنى فيما بعد عن رأيى فى كذا وكذا .. ونختلف ونتشاجر . ثم يعود يسألنى .. وفى احدى المرات جاء عيد ميلاد المحبوبة الرسامة .. وكان لابد ان يقيم لها حفلة . ولم تكن معه فلوس . فطلب منى ومن صلاح طاهر . وكان لابد ان نذهب معه للاحتفال بعيد ميلادها .

فاستأجر لذلك عازف الجيتار الاسبانى المعروف مورالوسى . وعلى ظهر باخرة فى النيل جلست المحبوبة ونحن حولها والعاشق الولهان يجمع لها الزهور ويضعها فى شعرها ويقدم لها الشمبانيا ويقدم لنا العصير .. والعازف مورالوسى يغنى .. ثم استدرجنا واحدا واحدا ، فقد أفلس وهو تورط فهو يريد سلفة عاجلة !

ثم احب طالبة فى الجامعة الامريكية . وقال إنه الحب الأخير .. وحدثنى عنها .. عن عينيها واصابعها وصوتها ودموعها وبكائها فى التليفون .. وعرفت ان هذه ليست الا حلقة فى سلسلة طويلة . وعلى سلم بيتها وجدت الصديق صلاح طاهر .. ودون أن أسأله ظللنا نضحك نحن الاثنين .. فانا احمل لها بعض الهدايا ، وصلاح طاهر حمل لها هدايا أخرى - وكان من عادة كمال الملاخ أن يعطينا حق شراء الهدايا ودفع ثمنها إلى أن يتمكن من سداد الديون !

وظهرت المعشوقة الثالثة . وطلب منى ان اذهب الى والدتها واقول لها : ان كمال يحبها ويريد أن يتزوجها فى اسرع وقت .

ولابد ان اعود اليه بالرد فى تلك الليلة !

وطالت الجلسة وتكلمنا وتناقشنا وجاء ضيوف وخرج ضيوف وانتصف الليل ونسيت المهمة التى ذهبت من أجلها . وعند توديعى قالت لى أمها : اذا كنت انت الذى تريدها فأنا موافقة الآن والف مبروك عليك وعليها ؟!

وقلت لكمال الملاخ انها تحتاج الى بعض الوقت ، وإن من الأفضل أن يذهب بنفسه وحده وأن يتولى الرد على كثير من الشروط : الشرط الأول أن يشهر اسلامه .. الخ .

ونزلت من السيارة لأجد كمال الملاخ فى انتظارى يروح ويجيء امام البيت منذ ثلاث أو أربع ساعات ، وفوجئت به يقول لى : طبعا وافقت !

قلت : بشرط ان تجلسا معا !

قال : ملعون .. فى ستين داهية !

وفى ذلك الوقت كنت أكتب القصة القصيرة يوميا فى الأهرام بلا توقيع - اكثر من ٥٠٠ قصة قصيرة مترجمة ومقتبسة ومؤلفة ، ولم ينشروا اسمى مرة واحدة !

ثم انتقلت الى العمل فى « أخبار اليوم » سنة ١٩٥٢ . وكان مصطفى امين وعلى امين يستعدان لاصدار « الاخبار » اليومية .. فاخذنا كامل الشناوى

معه ، ودون تفكير ذهبنا الى اخبار اليوم قمة الصحافة المصرية الحديثة .. وجلسنا فى غرفة واحدة . هذه الغرفة تشبه زنازين السجون . فنوافذها عالية بالقرب من السقف .

فقد كانت خزانة « أخبار اليوم » وبعد يومين أو ثلاثة وجدت كمال الملاخ يقول لى : يجب أن نعود الى الأهرام !

وجمع اوراقه . وطلب منى ان افعل . اما السبب فهو ان السعاة اذا رأونا لاينهضون واقفين يؤدون التحية الواجبة ..

وهناك سبب اقوى من ذلك : وهو ان على امين اذا رأى كمال الملاخ فانه لايصافحه !

وحاولت ان اقنعه بان السعاة لايعرفوننا ، وعلى أمين لا يعرفنا .. ثم كيف نعود الى الأهرام وقد نسينا ان نقدم استقالتنا ؟!

وشكوت الى كامل الشناوى . ولابد ان يكون كامل الشناوى قد نقل هذه الشكوى بصورة مضحكة لمصطفى امين وعلى امين .. ثم انه جعلنا اضحوكة السهرات فى اخبار اليوم وخارجها .. فتغير اسلوب على امين ومصطفى امين - فنحن لم نستطع ان نفرق بين هذين التوأم .. فلا يكاد الواحد منهما يرانا حتى يمد يده بصورة واضحة جدا مع هذه العبارة : حتى لاتغضب وحتى لاتترك اخبار اليوم !

ويضحك احدهما أو الاثنان معا ومن كان يشاهد هذا الموقف المسرحى من الزملاء .. وكان ذلك سببا كافيا لان يجمع كمال الملاخ أوراقه ويقرر العودة وحده الى الأهرام . فهو لم يأت الى اخبار اليوم ليكون اضحوكة من يساوى ومن لا يساوى !

الى هذه الدرجة كان شديد الحساسية . وكانت هذه هى المشكلة الأولى فى صداقتنا . فقد كان كمال الملاخ ، يرحمه الله ، فنانا طفلا مشغولا بنفسه وممتلئا بكبريائه . وصلته بالناس : ان يحب وان يكره . وانما يقول : انا احب فلانا وانا اكره علانا ..

وانا اختلف معه تماما ، فانا اقول : اعرف فلانا ويعجبنى تفكيره ، واعرف فلانا ولكنى اختلف معه فى تفكيره .. وفلان صديقى .. وفلان من الممكن أن يكون صديقا .. وكل الاصدقاء اعداء تحت التمرين .. الخ .

مثلا يقول : انا اكره فلانا وزوجته افضل منه كثيرا !

لماذا ؟ لأن فلانا هذا عندما دعاه الى العشاء لم يكن متحمسا .. وعندما جلسوا الى المائدة جعله يجلس بعيدا عن زوجته .. أو عن الصدارة .. أو عندما جلس لم يجد امامه شوكة وسكينة .. وعندما ودعه كان وداعه فاترا .. الخ .

وبعملية حسابية سريعة وجاهزة عند كمال الملاخ يقول : لا احب هذا الرجل لانه لا يعرف اقدار الناس .. وايه يعنى الأكل والشرب ؟ وايه يعنى هو ؟! هذه آخر مرة أراه !

سافرنا معا الى أوروبا لأول مرة سنة ١٩٥٠ ، وعلى ظهر الباخرة كان لابد أن نصحو فى الثالثة صباحا لكى يتمكن البحارة من غسل ظهر الباخرة . ومعنى ذلك أن نرتدى ملابسنا كلها ، ونحمل حقائبنا وننتظر البحارة ومعهم الجرادل ساعة أو ساعتين .. ثم نستأنف النوم بعد ذلك ..

وصادقت « حداد » الباخرة . وعرفت منه أن ابنته متزوجة من أحد الصحفيين ولذلك فهو يكره هذه النوعية من البشر . وقدمت له كمال الملاخ على انه الصحفى الوحيد ، أما نحن جميعا فرسامون .. فإذا بالرجل يلقى على كمال الملاخ كوبا من النبيذ ويطرده .

ويغضب كمال الملاخ ويصر على ان نشكوه لقبطان الباخرة . وذهبت للقبطان واعتذرت له عن الذى حدث !!

وسألنى كمال : ماذا قلت للقبطان ؟

قلت : طلبت ان يسمح لنا بالفرجة على حفلات الدرجة الأولى كل ليلة بدلا من ان نظل مقبورين فى الخيام فوق ظهر الباخرة !

ـ ولم تقل له ما فعله هذا الرجل الحداد الحقير ؟

ـ لو قلت له ذلك لرفض ان يسمح لنا بالفرجة حتى منتصف الليل مع اغنى الاغنياء واجمل الجميلات .. ما رأيك أنت ؟!

أما رأيه فهو ان امتنع عن الصعود الى الدرجة الأولى حيث كنت اقوم بدور المذيع بعدة لغات ..

ولم يكن كمال الملاخ يعترض على ان آتى له آخر الليل بالمكرونة الفخمة والآيس كريم والفاكهة من « فضلة » خير ركاب الدرجة الأولى !

وفى ايطاليا نزلت ضيفا على اسرة ايطالية . فلم استطع ان أنفق ما معى من مال على شىء . وقبل إبحار الباخرة من البندقية عائدة الى مصر . لم أعرف بالضبط ما الذى يمكن أن افعله بالمائة والخمسين جنيها التى معى ـ نحن فى

سنة ١٩٥٠ وهذا مبلغ كبير جدا كان يكفى للسفر إلى أوروبا والحياة فيها شهرا كاملا !! فعرضت أن أقرض كل الزملاء بشرط . قالوا : نقبل أى شرط بما فى ذلك مسح البلاط !

قلت : أوافق ..

وكان كمال الملاخ وبقية الفنانين يسكنون فى فنادق مدينة البندقية الرطبة المظلمة . وكنت أسكن فى احد فنادق حى الليدو الاستقراطى ـ معى فلوس . اما الشرط فهو ان اطل عليهم من نافذتى ويقفون امام الفندق يقولون بصوت مرتفع : حسنة لله يا بيه .. حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة !

وعندما استمع الى توسلاتهم القى اليهم بالفلوس من النافذة . وعندى الصورة التى التقطها لنا جميعا الفنان الكبير حسن فؤاد !

وبعد لحظات وجدت الباب يدق .. انه كمال الملاخ يطلب قرضا اضافيا ، فقد نسى ان يشترى للمحبوبة بلوزة وشنطة وجزمة ؟!

وفى رحلة أخرى على ظهر الباخرة الايطالية انوتريا ، سمعنا بزلزال فى الاسكندرية فجلست وكتبت اسماء الضحايا ـ اى اسماء تخطر على البال . وطلبت من كمال الملاخ ان يوزع كشف الضحايا فى الدرجة الأولى . وبعد لحظات تعالى « الصويت » والصراخ والبكاء .. فقد قرأ ركاب الدرجة الأولى اسماء هى اسماء أقارب لهم .. وهنا اعلن قبطان السفينة انه اتصل بكل السفن القادمة من الاسكندرية . فلم يجد لديهم اية معلومات عن الزلازل .

ولذلك كان لابد من تطبيق المادة ١٧٤ فقرة ٢٢ من القانون البحرى الخاص باقلاق المسافرين . والقانون يقضى بحبس المتهمين ومعاقبتهم فورا .. أو تسليمهم للسلطات المصرية .. فظللنا مختبئين تحت سريرين فى غرفة احد البحارة حتى وصلنا الاسكندرية بعد ١٤ ساعة !!

وفى يوم كنا نجلس فى مطعم الاكسلسيور : كمال الملاخ وموريس جندى مدير الوكالة المتحدة وانا .. عندما دق جرس التليفون . فقد لاحظ احد حراس الهرم فتحة بالقرب من الهرم ، وفى سيارتى ذهبنا ، وينظر كمال الملاخ من الفتحة الى مراكب الشمس .. ويكون حديث الدنيا كلها . وقد انفردت صحيفة « نيويورك تايمس » بالخبر وصورة الملاخ والرسم الكروكى لمراكب الشمس كما رآها كمال الملاخ من مرآة وقد انعكست عليها صور المراكب وألواحها الخشبية والحبال التى تشدها . وضجت الصحف العالمية ، وشعرت باهانة بالغة عندما استولت

« نيويورك تايمس » على الاكتشاف والمكتشف ، بينما لم تحصل الصحف الأخرى على سطر واحد .. والفضل فى ذلك يرجع إلى الصديق حمدى فؤاد الذى ترك معنا الاهرام ليعمل فى اخبار اليوم ، وكان ايضا مراسلا لنيويورك تايمس !

ولم يستطع كمال الملاخ ان يلتقى بكل وسائل الاعلام العالمية . فكنت انوب عنه فى ذلك . فتحدثت فى الاذاعة البريطانية وصوت امريكا وصوت المانيا على اننى كمال الملاخ . تحدثت فى الأدب والفلسفة وعلم النفس والحب والجمال .. وكان كمال الملاخ يتلقى خطابات من كل الدنيا تبدى اعجابها وسعادتها برؤية وجهه المشرق وابتسامته الطيبة .. ومن بين الخطابات رسالة طويلة جاءت من المشرفة على البرنامج الموسيقى فى اذاعة كولونيا . تقول له : اعجبنى صوتك ونبرتك الاجنبية وانت تردد الاغانى الالمانية الشعبية !

وسألنى .. فقلت : انا الذى كنت أغنى نيابة عنك !

وكان حديثا مع الهرتسيوك المستشار الصحفى للسفارة الالمانية فى القاهرة ، وهو الذى ترجم لى قصتين نشرهما فى كتاب عن القصة القصيرة المصرية . فقد سألنى :

- هرملاخ هل زرت المانيا ؟!
- نعم . عشرين مرة !
- اذن فأنت تتكلم الالمانية جيدا ..
- استطيع ان اعبر عن نفسى . ولكنى تخصصت فى الأدب والفلسفة الالمانية .. واعرف كل الفلاسفة الالمان .. واستطيع ان اذكر لكم اسماءهم جميعا .. ونظرياتهم ..
- عجيب جدا .. كيف يتسع وقتك لكل ذلك ؟
- انه الحب يا سيدى !
- حب ماذا ؟
- حب كل ما هو المانى .. كما يقول النشيد القديم : المرأة الالمانية والاغانى والنبيذ ..
- أوه .. أنت تعرف هذا النشيد ؟
- والأغانى مثل : أضعت قلبى فى هيدلبرج .. اضعت قلبى !
- رائع يا هر ملاخ !
- واغنية السكارى فى حانات ميونخ .. مثلا : واحد وعشرون .. اثنان

وعشرون .. ثلاثون .. وهكذا يمضى المارش البافارى .. وأغنية : لو كنت وحدك .. لأحببتك وحدك .. لو كنت وحدك لأحببت الدنيا من أجلك .. ولكنى اراك فى الف شىء .. فى مليون .. فى كل الدنيا ، فاحببت الدنيا وحدها من اجلك وحدك ..

- انت تغنى ايضا .. وصوتك جميل يا هر ملاخ !

- شكرا .

- هل تحب ان توجه تحية لاحد فى المانيا ؟

- نعم اليها .. ٣٧ شارع الزيزفون فى برلين الغربية الى هيلجا أبعث بالعبارة الأولى من الفصل السابع من كتاب المتصوف الالمانى اكهارت .. واقول لها : اننى لا اقوى على اكمال الطريق .. ضاعت آمالى .. ضاعت .. خسارة !

- هل تقول للسادة المستمعين ياهر ملاخ عن قصة هذه العبارة ؟

- نعم . العبارة تقول : ان اسرع حيوان ينقلك الى الكمال : الالم .. وانا اقول لهيلجا اننى لا أقوى على ان اركب الالم الى الكمال .. فالكمال لله .. والالم للناس .. كفى عذابا لنا .. فلا أنا قادر ولا انت قادرة على ألم المتصوفين والقديسين !

- شكرا يا هر .. منصور ..

- عفوا !

وقبل أن يعود كمال الملاخ ليعمل فى الأهرام سنة ١٩٥٧ فوجئت به يقول : ان واحدا جاء اليك وترك هذه البطاقة . ويريدك ان تطلبه .

فنظرت الى البطاقة وقلت : آه .. انه ابن عمى ؟

- وفوجئت بهذا السؤال : انيس .. هل انت مسلم ؟

ولم يخطر على باله اننى مسلم . فلم يكن الدين من قضايانا . قلت وقال ، وشكوت وشكا .. ولنا اصدقاء من كل دين ولغة ولون .. ولكن احدا لم يسأل الآخر عن دينه ولا وجدنا لذلك ضرورة .

وفى اوائل ثورة يوليو كان من عادة الرئيس جمال عبد الناصر ان يبعث لنا ببطاقات المعايدة .. لكمال الملاخ فى عيد الأضحى المبارك ، وانا فى عيد الفصح المجيد - مع انه كمال وليم الملاخ ، وأنا انيس محمد منصور ..

يرحمه الله .. أعز الاصدقاء وأرقهم وألطفهم وأكثرهم حساسية وكبرياء .. فقد امتلأت حياتنا معا بكثير من المرح والهموم .. والعذاب - الذى راح ضحيته الفنان والناقد والكاتب والأثرى كمال الملاخ ! .

سيزيف اللبنانى

سيزيف اللبنانى يواجه : الشظايا بألواح من زجاج !

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد
إلى أن يرى احسان هذا لذا ذنبا

« المتبنى »

ذهبت مسائلا عن « خير شىء » .
لأعرف كنه أخلاق البرية
فقالت لى الكنيسة : خير شىء
هو الزهد الذى يمحو الخطية
وقالت لى الشريعة : خير شىء
شمول العدل أبناء الرعية
وقال أخو الحصافة : خير شىء
هو الحق المبين بلا مريه
وقال أخو الجهالة : خير شىء
سرور النفس فى الدنيا الدنيه
وقال لى الفتى : وصل الصبايا
وقالت لى : الهوى ـ البنت الصبيه
ولما أن خلوت سألت نفسى
لأعرف رأيها فى ذى القضية
فقالت لى : لا أرى خيرا وأبقى
من الاحسان للنفس الشقية !

« ايليا أبو ماضى »

عندما ذهبت لالمانيا بعد الحرب مباشرة وجدت الدنيا الجميلة قد انهارت على رؤوس أصحابها .. المدن خرائب .. المصانع أكوام من الخردة .. والناس فى بعض ملابسهم .. والوجوه لونها الأحمر الوردى والأحمر الدموى أصبحت درجات من اللون الأصفر والباهت والأزرق .. النفوس كسيرة ، والعيون حسيرة .. ماذا جرى لك يا أعظم بلاد الله ؟!

ورأيت الشاب يقف واضعا يديه فى جيبه أمام والده .. ورأيت من تزوره فى مكتبه يمد ساقيه فى وجهك .. ورأيت بعض المديرين يمضغون اللبان .. وكنت أرى فى الوجوه والادمغة والعيون : كل الفلاسفة وعباقرة الموسيقى ..

ووجدت المطاعم ضوضاء .. وفى الحانات صخب .. وإذا امسكت سيجارة فى يدك اتجهت اليك العيون .. وإذا اخرجت قطعة شيكولاته من جيبك خرجت لك من الأنفاس شقراوات الراين يطلبن فتفوته .. هذه إذن المانيا بعد الحرب . فأصابت الحرب المانيا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا .. انكسر شيء هام .. سقط .. انهار ..

ليست الهزيمة فقط هى التى اصابت كل الناس .. وإنما الهزائم فى الحرب وفى الحقل وفى المصنع وفى البيت وفى العقل وفى القلب .. فكل الناس كأنهم اسرى حرب .. وكل الناس كأنهم ضحاياها .. والناس ضائعون بين الذى كان وبين الذى هو كائن .. وبين الأمل فى العودة إلى الماضى أو الحرص على الحاضر واليأس من المستقبل .. أى مستقبل !

قال لى صديقى الأديب البرتو مورافيا ونحن نتحدث فى شقته الجميلة عن الذى اصاب روما بعد هزيمة الفاشية والنازية معا : هل تذكر الفتاة ادريانا .. بطلة روايتى « فتاة روما » .. انها بالضبط صورة جميلة مثيرة جنسيا فاشلة نفسيا ، مهزومة دينيا ، ممزقة اجتماعيا .. هذه كل ايطاليا .. فإذا أردت أن تدرس ما حدث لكل الناس ، فأمامك ادريانا .. انها ليست فتاة من روما .. انها من روما وباريس وبرلين ونيويورك .. صدقنى !

وصدقته . فما الذى حدث فى العالم كله فى أعقاب الحروب ؟ ماذا جرى لنا فى القاهرة وفى بيروت وماذا جرى لهم فى تل أبيب أيضا !

★ ★ ★

كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان : الصدق والشجاعة والتضحية والمواجهة فأنا أحبك معناها اننى فعلا احبك .. وأكرهك معناها أننى أعنى

ذلك .. وأنت أخى معناها أنك أخى أو مثل أخى وأقسم على ذلك ..

والآن لا أنت أخى ولا صديقى ولا زميلى ولا حتى جارى .. فأنت هناك .. وأنت هنا .. انظر إليك ولا أراك ، واتجه اليك ولا اسمعك .. ولا يعنينى أمرك لا كثيرا ولا قليلا .. فعندى مشاكلى ، وعندى أيضا .. ولا يهمنى كثيرا ماذا اصابك ، أنت فى حالك وأنا فى حالى .. وليس عندى وقت لك ، ولا عندك ..

تغيرت الأشياء والناس والعلاقات .. ومعانى الحياة وطرق النجاح .. والهروب من هذه الحياة ! وإذا دخلت بيتا من البيوت فأنك تجد البيت ساكنا كأن أحداً لا يسكنه .. والحقيقة أن فى كل غرفة واحدا ، هذا الواحد يقرأ أو يكتب .. أو أنه نائم .. ولكن لا شأن له بالأخوة فى الغرف الأخرى .. انهم معا فى بيت واحد ، وليسوا معا .. وهذه من أهم صفات المجتمع الحديث : الناس كثيرون فى كل مكان ، ولكن كل واحد وحده .. كأنه لا يشعر بالآخرين .. أو كأنه ينفض عن اعصابه كل الذى له علاقة بوجود الآخرين .. لا يريدهم ، كما أنهم لا يريدونه !

ماذا جرى ؟ ماذا طرأ ؟ منذ متى ؟

فكما أن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم ولقائهم ، فهم كذلك فى عاداتهم وتقاليدهم . والذى تراه المرأة الشرقية من الحشمة لا تراه الغربية كذلك ..

فالمرأة الشرقية تستر وجهها .. والمرأة الغربية تسفر عنه ..

والرجال يغطون الرأس احتراما ، وفى الغرب يرفعون القبعة احتراما .. والمرأة الهندية تكشف كتفيها ، والمرأة الصينية تكشف ساقيها ولا تكشف قدميها ..

والهنود يكتفون برفع الكفين معا للتحية ، وفى الشرق العربى يرون ذلك ترفعا عن التحية .. وفى دول الخليج يقبلون الكتف والصدر والجبهة والأنف ، وفى بعض قبائل أواسط أفريقيا ، يبصقون على الوجه ..

وعلى الرغم من أننا نعيش جميعا فى القرن العشرين ، فإن شعوب العالم ليست على نفس الدرجة من التطور الاجتماعى والصناعى .. فالمسافة بين الولايات المتحدة الامريكية وبين القبائل البدائية فى حوض الامازون أكثر من عشرين قرنا .. والمسافة بين اليابان وبين القبائل البدائية فى جزر المحيط الهادى يمكن حسابها بعشرات القرون .. فالامريكان والروس قد وصلوا الى الكواكب الأخرى ، وفى الوقت نفسه هناك قبائل تعيش على السمك وعلى قطف

الثمار من الغابات وعلى تعاويذ الساحر وعفاريت الغابة .
والانسانية كلها قد مرت بمراحل حتى وصلت إلى ما هى عليه اليوم ..

فالانسان الأول كان يعيش فى الغابات .. يصيد الحيوانات ويقطف الثمار من الأشجار .. الأشجار لكل الناس . والحيوانات التى يصيدها يجب أن يسارع بقتلها وأكلها ، قبل أن تأكله .. ولذلك فقد كان الانسان يهاجم الحيوانات . فإذا قتلها أكلها بدمها فورا . قبل ان تهاجمه الحيوانات وتأكله هو والفريسة ولابد أن الانسان الأول كان يأكل ويخطف بسرعة ، تماما كما تفعل الكلاب الضالة الآن .. فهو لا يعرف متى يأكل فى المرة القادمة .. ولم يكن الانسان فى ذلك الوقت يحتاج إلا لقوة عضلاته وبعض الأدوات البدائية التى يقتل بها . وكان يعيش فى الكهف .

وقد لاحظ الفيلسوف الالمانى « كنت » ان الطفل لم يكن يبكى فى ذلك الوقت ولو بكى لاكلته الوحوش .. فقد اعتاد الأبوان ان يكتما صوت الطفل ، حتى لا تهتدى إليه الوحوش .. ولكن بعد أن احس الانسان بالامان ، لم يعد يعبأ كثيرا بأن يبكى الطفل أو يصرخ ، أو تبكى أمه أو تصرخ عند الولادة .. فلا خوف من أن يسمع أحد صوتها بل ان الانسان أصبح يشجع الأن على أن تصرخ عند الولادة ، لأن هذا يساعد على خروج الجنين .. وكذلك يشجع الطفل على البكاء لأن البكاء يقوى رئتيه وحباله الصوتية .. ثم أن البكاء يرهق الطفل فيجعله ينام .. ومن الناحية التربوية يجب إلا نستسلم لبكاء الطفل كوسيلة من وسائل الضغط علينا ليأكل ويشرب عندما يريد هو ، لا عندما نريد نحن ! وبذلك يعتاد على ان يطلب فى أى وقت ، وعلى أن نجيبه إلى ما يريد ! .

وفى ذلك الوقت لم يكن للمرأة دور كبير فى الحياة الاجتماعية .. وانما الرجل يتركها وراءه فى الكهف أو تحت الشجر .. أو فوق الشجر ترضع طفلها وتدافع عن نفسها حتى يعود لها ..

وقد انتقلت الانسانية من مرحلة صيد الحيوانات وقطف الثمار الى مرحلة زراعة الأرض . نعرف متى حدث ذلك .. ولكن انتقلنا الى قطع أشجار الغابات وتسوية الأرض وزراعتها .. يرى بعض العلماء أن المرأة وقد تركها الرجل وراءه قد صنعت شيئين : البيت : وزراعة الأرض .. فهى التى اقامت لنفسها الكوخ والبيت لحماية نفسها وطفلها .. أما الرجل فمايزال فى حالة الصيد والقنص .. وليست أعمال العنف والمافيا والحروب الا استمرارا لصورة الصيد والقتل ،

ولكن بصورة أخرى ..

والمرأة التى تركها الرجل وراءه مئات الوف السنين .. هى التى قطعت الاشجار لكى تفسح مكانا للبيت .. ثم سوت الأرض ونثرت البذور .. والمرأة هى صانعة البيت وحارثة الأرض ..

وعندما انتقل الانسان الصياد الى الانسان الفلاح ، لم يعد فى حاجة الى أكثر من ذراع قوية وفأس . لا مؤهلات أكثر من ذلك . فالرجل القوى هو المثل الأعلى فى المجتمع الزراعى . والانسان الزراعى كان يبلغ الرجولة دون العشرين . فى حاجة الى شباب آخر يزرع ويحرث ويحصد .. ولذلك تزوج فى سن مبكرة . وجاءت الأولاد ليساعدوه فى عمله .

وإذا كان الخطف والجشع من صفات مجتمع العبيد ، فإن التعاون من صفات المجتمع الزراعى . فالأسرة هى نواة المجتمع . والأسرة عادة من أب وزوجة وكثير من الأولاد . ويجب أن يكونوا فى صحة جيدة ليقدروا على الزراعة .. والطفل الزراعى يولد فلاحا ليس فى حاجة الى علوم أو فنون تؤهله لأن يكون فلاحا . وانما إلى عضلات ومحراث .. ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى الريف : الأسرة .. العائلة .. العصب .. الدم الواحد .. وكل عائلة لها كبير . ومن القرية تتكون العائلات أو من العائلة ..

وكما أن لكل فلاح أرضا وبيتا فله حرمة أيضا . والحرمة هى بيته وأولاده .. وهى شرفه . وهى العفه . فالانسان يجب أن يحرص على أرضه التى هى عرضه .. فالشرف والفضيلة والعفه هى من أهم الحدود والاسوار التى اقامها الانسان الزراعى لنفسه وحول نفسه ..

إننا لا نتعرف متى انتقلنا من حالة صيد الحيوانات الى زراعة الأرض واستئناس الحيوانات لتكون خادمة فى الحقل ، ثم إننا لم ننتقل من هذه الحالة إلى تلك الحالة بصورة نهائية .. فما يزال الكثيرون يعيشون وكأنهم فى عصر الصيد والقنص .. ونحن عندما نذهب إلى أحد مطاعم بيروت ونطلب « الكبيبة النيئة » .. أو نذهب إلى أحد المطاعم الأوروبية ونطلب أن تكون اللحم بدمها ، فنحن ما نزال فى عصر الصيد .. أيام كنا نصيد الحيوانات ونأكلها بدمها .. فلم يكن الانسان قد اخترع النار .. وحتى بعد أن اخترع النار ، فأنه بدلا من أن يضع اللحم فوقها ، فأنه يأكلها نيئة على ضوء النار ! والشعب اليابانى يأكل الجمبرى حيا ، والأسماك نيئة .. وبعض الشعوب الآسيوية والأفريقية تأكل

مخ القرد ، وهو حى جالس تحت منضدة خرج منها رأسه !

.. ثم يتركونه بعد أن نزعوا مخه . باعتبارها وجبة ارستقراطية فادحة الثمن ـ لقد جربت ذلك فى هونج كونج فى بيت أحد الأغنياء وندمت على ذلك ، ولا ازال ـ فالصورة لم تغادر عينى حتى عدلت عن أكل اللحوم نهائيا منذ ثلاثين عاما !

وكل الرذائل الآن كانت فضائل قبل ذلك .. فالجشع والطمع والخطف من أهم صفات الانسان فى عصر الصيد والقنص .. واليوم نراها رذائل .. والعنف والقسوة التى هى من فضائل الحرب ، نراها وحشية فى زمن السلم .. ولو رأينا رجلا ينطلق فى الشارع يمسك مدفعا رشاشا .. ولم نجد فى الشارع احدا ، لقلنا انه مجنون .. لو عرفنا أن لصا هاجمه لوجدنا له العذر وقلنا : ولكن ما ضرورة المدفع الرشاش .. ولكن إذا عرفنا أنه يطارد أحد جنود الأعداء الذى اعتدى على بيته وأسرته وهدد أخرين ، لوجدنا فى هذا السلوك شجاعة وبطولة ..

ومن أهم معالم البيت فى المجتمع الزراعى الأسوار .. تفصل بين الأرض التى أملكها والتى تملكها أنت .. والأسوار بين بيتى وبيتك والأبواب المغلقة بينى وبينك .. والحرص على استقرار الأسرة .. الزوجة الواحدة أم الخلية .. ملكة الخلية .. والأولاد كلهم معا فى بيت العائلة ..

والمثل الأعلى فى المجتمع الزراعى : أن كل أسرة لها كبير .. وهذا الكبير هو مصدر السلطات . هو الآمر الناهى .. هو الذى يقرر ويحكم ويعاقب .. وهو الذى يملك .. والقرية لها كبير .. والمدينة لها كبير .. والدولة لها كبير .. والكون كله له كبير .

وكل عائلة تكفى نفسها بنفسها .. هى التى تزرع وتطحن وتعجن وتخبز .. هى تحمل وتدافع عن كل افرادها .. وهى التى تباهى بقوتها .. بما لديها من الأفراد ومالدى الأفراد من الأرض والأشجار والثمار والحيوانات ..

وانتقل المجتمع كله من الزراعة الى الصناعة .. وتغيرت أساليب الحياة .. وتغيرت معها العادات والتقاليد والاخلاق والمثل العليا .. فلم تعد الأسرة قادرة على اطعام نفسها أو حمايتها .. وإذا كانت الأسرة تصنع أدواتها البدائية .. فقد ظهرت صناعات أكبر وأكثر تعقيدا .. ظهرت المصانع فى اماكن أخرى .. فى قرى أخرى ومدن أخرى .. وسافر اليها العمال ينفصلون عن بيت العائلة .. وظهرت هناك فروق بين الفلاح والعامل .. فالعامل فى حاجة الى ان يتعلم ويعد

ان يتعلم فى حاجة الى ان يتدرب .. وبعد ذلك فى حاجة الى سنوات للتدريب واكتساب المهارة . فإذا كان الفلاح قادرا على ان يكون أبا وزوجا فى العشرين فإن العامل محتاج الى سنوات اطول فى الدراسة والتدريب ليكون قادرا على بناء الأسرة وكذلك الزوجة العاملة أيضا .. ومادام الأب قد تعلم فإن أولاده يجب أن يتعلموا أيضا وهو لا يستطيع أن ينفق على أولاد كثيرين . ولذلك يجب ان يكون عنده طفل أو اثنان على الأكثر ..

فابتعد الناس عن الأرض وعن بيت العائلة .. وانتقلوا الى جوار المصانع يعملون فى الدكاكين القذرة والورش الرطبة .. وفى المناجم المظلمة الخانقة .. لقد ذهبوا كأفراد .. كعائلات ..

والانسان الذى اخترع الالات ، أصبح عبدا لها .. فهو قد اخترعها لكى يخفف عن نفسه أعباء العمل اليدوى الشاق البطىء .. فقد اراحته فعلا . ولكن فجأة وجد أن هذه الالات فى حاجة الى هذا العدد الكبير من العمال .. انها تعمل على انقاص عدد الأيدى العاملة .. وعلى أن تختار احسن العمال وأكثرهم كفاءة وعلما وتجربة . !

هذه الآلة قد اخرت النضج العقلى عند المال ، واخرت أيضا النضج الاقتصادى .

فالعامل لا ينمو اقتصاديا إلا بعد الدراسة والتدريب . فإذا نضج اقتصاديا بدأ يفكر فى العمل وبناء الأسرة .. فجاء الزواج متأخرا . ثم ان الرجل الذى كان يتزوج لتقوم زوجته بكثير من الأعمال فى البيت ، لم يعد فى حاجة الى كل ما تعمله المرأة فى البيت .. فكل الذى كانت تصنعه موجود الآن فى الدكاكين والمطاعم .. والسوبر ماركت .. فكل واحد يستطيع ان يشترى الطلب جاهزا .. دون حاجة الى زواج !

لقد انحسر دور المرأة تماما !

فالرجل لا يستطيع ان يتزوج مبكرا ، ولا المرأة .

وقد أدى الى ظهور نساء يعملن على تسلية الرجل واقناعه دون حاجة الى زواج .. وقد أدى هذا النوع من النساء الى تأخير الزواج ..

وكان الرجل فى المجتمع الزراعى يفزع إذا عرف ان فتاة كانت مخطوبة لرجل آخر .. أو حتى تزوجته ثم انفصلت عنه .. أما فى المجتمع الصناعى فينظر الى المرأة التى اغلقت على نفسها الباب والشباك على انها امرأة جاهلة عبيطة

ساذجة .. ويرى ان المرأة التى يريدها زوجة يجب أن تكون عرفت وسمعت وقرأت .. أى على دراية بالدنيا .. لتكون أكثر حرصا على أسرتها وزوجها وأولادها . وتكون قادرة على حماية نفسها وتكون عونا لزوجها على مصاعب الحياة !

وإذا كانت الأسوار العالية والأبواب من رموز الحياة الزراعية ، فإن الأسوار المغنطة والفواصل الزجاجية والأندية والشواطىء والمايوه من علامات الانفتاح الصناعى ، والنضج العقلى والحرية الاجتماعية أيضا .

وجاء العلم يحمي السلوك الاجتماعى الجديد .. فظهرت حبوب منع الحمل . فالأسرة تستطيع أن تحدد عدد الأطفال .. وكذلك المرأة غير المتزوجة فى استطاعتها ان تعيش على هواها وعلى هوى الرجال ، دون ان يكون عندها أولاد .. فحبوب منع الحمل قد ساعدت كثيرا جدا ، على تأخير الزواج وعلى تحديد النسل .. وعلى تستر الرذيلة على أوسع نطاق !

ولو ظهرت حبوب منع الحمل هذه فى عصور البداوة ، لاختفت الرومانسية والعذرية فى الشعر والفن .. فمن يقرأ أشعار العشاق فى الجاهلية العربية وفى عصر الطروبادور فى أسبانيا وفرنسا ، ومن يقرأ خطابات الآنسة « مى زيادة » يجد أن الشكوى واحدة : انهم يريدون ويريدون ولكن ماذا يحدث بعد الحمل والولادة ؟

فالتاريخ كله لم يعرف إلا (أمًّا عذراء) واحدة وكانت معجزة ارادها الله - مريم العذراء ! فنحن الآن فى عصر الأمهات بلا زواج وعصر الزوجات اللاتى لسن أمهات - والسبب حبوب منع الحمل !

وفى المجتمع الزراعى كانت الأسرة هى وحدة المجتمع .. وكانت مصدر العادات والتقاليد وحامية لها أيضا .. أما فى العصر الصناعى فقد تقلص دور الأسرة . كما تقلصت العادات والتقاليد .

التقاليد الاجتماعية والاخلاقية والدينية .. أما العادات الحديثة فليست فى حاجة الى أسرة كأن يشرب الانسان من كوب أو يأكل بالملعقة أو يجلس الى مائدة . ويشرب كل واحد من كوب وكل واحد يأكل من طبق خاص ، لا من طبق واحد .. وقد سجل ذلك فى كتابه الشهير « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . وقد نقل كل هذه العادات الى بيته .. ولكنه لم ينقل الحضارة الفرنسية بتقاليدها الحديثة فى البيت والشارع والمصنع . فليس اسهل من نقل العادات ، وليس

أصعب من ارساء التقاليد ..

انتهى دور الأسرة .. وقامت المؤسسات الاقتصادية والصناعية بدور الأسرة فى المجتمع الزراعى . فأصبح الولاء للمؤسسة . والإخلاص للمؤسسة .. ورئيس المؤسسة هو كبير العائلة . واروع صورة لذلك فى اليابان . فالمؤسسة هى بيت العائلة . وكما أن أحدا لا يخرج على العائلة أو يتنصل منها . فكذلك العامل اليابانى يعيش للمؤسسة ويموت فى سبيلها .. هى التى تنفق عليه وهى التى تختار له الزوجة وتعلم له الأولاد .. ولوائح المؤسسة هى القانون الاخلاقى .. وقوانينها دينية .. هى دنياه وهى أخرته أيضا .. ولم يحدث قط ان خرج واحد يابانى من مؤسسة سونى مثلا ليعمل فى مؤسسة ناشيونال ـ لم يحدث أبدا .. لا هو يفعل ، وإذا فعل فإن المؤسسة الاخرى لا تقبله لاجئا اليها .. وهذا هو أحد اسرار الثروة اليابانية .. حياته ومماته ارتبطا نهائيا بالمؤسسة التى يعمل لها وبها ..

★ ★ ★

وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية ذهب الرجال للحرب .. ولم يعد منهم مائة مليون .. فكانت المرأة تعمل بدلا منهم فى الحقول والمصانع . فلما انتهت الحرب كانت المرأة قد اتخذت لها مكانا واكتسبت حقوقا ، فكان صعبا ألا تكون مساوية للرجل .

وتساوت بالرجل فى كل مكان ومجال .. ولم يعد الرجل هو صاحب القرار صانع القانون وأول من يعتدى عليه .. فالمرأة شريكة له أيضا .

ولكن كل الاضطرابات الاجتماعية والاخلاقية والعقلية قد اصابت الانسان بعد الحرب . فقد اعتاد الرجال على العنف والدم والنار فى الحرب .. ولذلك فهم أيضا يلجأون الى العنف فيما بعد الحرب .. وراح الرجال الذين بهدلهتم الحرب فى كل الجبهات برا وبحرا وجوا ، يحاولون ان يعوضوا الذى فات فى ممارسة العنف الجنسى والقتل والسطو والتحلل من كل القيود .. وإذا كان الزواج أيام الحرب ، فإن الطلاق ينتشر أيام السلام ..

فالخوف من الموت ، يدفع الناس الى الزواج ليكون لهم أولاد .. والاطمئنان الى السلام يغرى الناس بأن يتمردوا على القيود ويهربوا من البيت والزوجة والأولاد .. فلم تعد الأسرة أو العائلة هى الهدف والوسيلة . وانما كل واحد يفكر وحده ولوحده .. فالفرد هو وحدة المجتمع .. والمجتمع افراد أعضاء فى

نقابة أو فى مؤسسة أو مصنع . وكل واحد له رقم خاص كالسيارات .. ولا جامع بينهم إلا المصنع .. إلا لوائح العمل والعقاب والثواب .. ولم يعد من الضرورى أن يرتبط الرجل والمرأة برباط الزواج « المقدس » ـ فلا شىء مقدس فى العصر الصناعى .. وانما من الممكن ان يتعايش الرجل والمرأة بلا زواج .. ولم يعد المجتمع ينظر الى الأبن غير الشرعى على انه كارثة ولعنة وخطيئة كبرى .. فالمجتمع ينظر الى هذا الطفل على أنه ضحية .. ولم يكن فى استطاعة الأم ان تتزوج والده .. وكما انها لم تعطل غريزتها كأنثى ، فهى لم تتجاهل غريزتها كأم .. ولذلك تعترف الدولة بالطفل كمواطن من الدرجة الأولى لحظة مولده .. فلا أحد يسأل المستشار الالمانى السابق فيلى برانت عن أبويه . ولا أحد يسأل نجمة السينما صوفيا لورين ، أفلم يتزوج أبوها أمها . إلا لكى يحصل على فلوس النجمة العالمية !

ولا أحد يعيب عبقرى الرسم والنحت والتصوير والموسيقى والفلسفة والاختراعات دافنشى على انه ابن غير شرعى ـ فمثله بالملايين فى كل الدنيا !

أكثر واعنف من كل ذلك حدث فى بريطانيا بعد العدوان الثلاثى على مصر .. وفى امريكا بعد هزيمتها فى فيتنام .. وفى مصر بعد هزيمتها سنة ١٩٦٧ .. والله وحده يعلم كيف تكون لبنان « بعد » هذه الحروب الطاحنة من داخلها ومن خارجها .. حروب القبائل والأديان والمذاهب والشعوب والشعوبية .. ولا أحد يعرف متى نقول « بعد » الحروب .. فنحن نعلم بهذه الكلمة من عشر سنوات ..

شىء واحد ادهشنى فى كل المعارك فى لبنان .. شىء لم أجد له نظيرا إلا فى الأساطير الاغريقية .. وهو دليل على حيوية الشعب اللبنانى وعلى ارادة الحياة ، وعلى تحدى الفناء .. ففى كل مرة تقع الغارات تتحطم الواجهات الزجاجية للمحلات .. فانهم فى اليوم التالى يصنعون واجهات زجاجية جديدة .. تتحطم هذه الواجهات الزجاجية فيضعون واجهات أخرى .. أما اللغز فهو : انهم يعرفون أن الزجاج لا يناسب الشظايا .. ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج .. على مواجهة الموت بكل أبهة الحياة .. يضعون الزجاج وهم يعلمون مقدما ، أنه قد يبقى يوما أو أسبوعا .. ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج ، على مواجهة الموت بالحياة ، على مواجهة النهاية اليومية ، بالبداية اليومية .

انها صيغة لبنانية للاسطورة الاغريقية القديمة : اسطورة سيزيف ..

فسيزيف حكمت عليه الالهة بأن يدفع أمامه حجرا ضخما الى أعلى الجبل ، حتى إذا بلغ قمة الجبل انحدر الحجر الى السفح ليرفعه الى القمة الى السفح الى القمة .. الى الأبد .. ان سيزيف يعلم ان الحجر مهما ارتفع فلكى يسقط .. ولكنه يغيظ الالهة بأن يدفع الحجر .. كان لديه أملا فى أن تتوقف هذه العملية التى لم يعد لها معنى ، ولم تعد لها نهاية .. يدفع الحجر كأنه يجد لذة فى ذلك ؛ بينما ارادت الالهة ان تقتله بالملل .. وبشعوره بسخافة الذى يعمله .. ولكن سيزيف مصر أيضا على ان يؤدى السخافة بلذة ، على ان يقوم بالعبث وكأنه يقصد ذلك ..

ولابد ان الشعب اللبنانى يتحدى الشظايا العسكرية والاجتماعية والدينية بواجهات أكثر شفافية وصلابة من الزجاج .. فالى متى ؟ نحن لا نعرف ..

وكما اننا لا نعرف بالضبط ما معنى هذا الذى بين العرب .. ما اسم هذا المبدأ ؟ ما اسم هذا الدين ؟ ما هى البطولة ؟ ما الرجولة ؟ ما الحلال والحرام ؟ ما الوطنية ما الخيانة ؟ ما الشجاعة ما الجبن !

ان كانت حيرتنا عقلية ، فإن الأجيال التالية سوف تكون حيرتها اجتماعية اخلاقية عسكرية سياسية زراعية صناعية ..

ان الشاعر ايليا ابو ماضى رجل طيب .. فلاح لبنانى هاجر الى أمريكا وبقى فلاحا .. لا فلاحا أمريكيا يركب التراكتورات ، ولكنه فلاح لبنانى يزرع شجرة أرز ويجلس فى ظلها يتغنى ويؤهل نفسه لراحة النفوس الشقية .. ومن الذى ليس شقيا يا سيدى ..

فالذى يحارب لنا شقى ، والذى يحاربنا أكثر شقاء .. والعذاب على الجانبين .. والمصيبة الكبرى ان الذين يقتلون يحملون المصاحف على اسنة السيوف .. يقتلون ويذبحون باسم الله ويفتحون أبواب الجنة ويوصدونها فى وجوه المسلمين الآخرين ؟ كيف ؟ والمسيحيين الآخرين ..

فلم يعد هناك إلا « الانسان الآخر » .. أنا الآخر .. وأنت الآخر .. أما الانسان الذى ليس آخر فلا وجود له .. فكلنا أعداء .. لا صداقه ولا اخاء .. فالآخرون هم العذاب .. النار ..

الآخرون هن الزبانية لأننا نعيش جميعا فى جهنم ـ قالها لنا الفيلسوف الوجودى سارتر من ثلاثين عاما ..

ولم نصدقه .. وكنا نعيب عليه انه وصف لنا جهنم ، مداخلها وسراديبها

وينابيع النار فيها ، ولم يرسم لنا مخارجها .. واليوم نرى أن الخروج أو التفكير فى ذلك ترف عظيم - لا نقدر عليه ..

وقد صدقت علينا عبارة كتبها الشاعر الايطالى دانتى اليجيرى على باب جهنم

يقول فيها : ايها الداخلون اتركوا وراءكم أملا فى النجاة!

تركنا . ولا نعرف متى تنتهى صناعة الزجاج فى لبنان .. أو هل يفلحون فى تصدير فائض انتاجهم الى بقية البلاد العربية - .

الفهـــرس

تجريف الحاضر لبناء الماضى : مأساة ! ٥
ولكننا لم نخرج من يونيو ١٥
يدخل قلبك ويسرق كلبك ! ٢٧
حتى يعود نهر عمر بن عبد العزيز ٤١
نهاية كرة القدم : بداية كرة الندم ! ٥٥
شباب بلا شيخوخة : آمالنا المجنونة ٦٩
مجرمون وأبرياء ٨١
تعالوا نرفع أيدينا عن شباب مصر ! ٩٥
هناك أكثر من حمار دائما !! ١٠٧
واحدة من تلك الليالى ١١٩
يعيش الخضر : يسقط الحزب ١٢٩
دماء بلا جروح ! ١٤٣
هو عبقرى وهى عبقرية ١٥٣
ميكى ماوس والسلام العالمى ! ١٦٣
ولم يظهر بيننا ذلك الشاب الأخضر ١٧٣
الجوزة والقنبلة ! ١٨٣
لماذا يتكلمون ويفهمون ويأكلون ؟! ١٩١
التعبوية الغنائية ٢٠٣
علا شأنك يا قمر ٢١٧
قلب الإنسان لم ولن يتغير ٢٢٧
صعاليك اليوم ٢٣٧

نحن نجعل ماضينا مستقبلا لهذا الجيل : منتهى الظلم !! ٢٤٩
تعالوا إلى البيانو ٢٥٧
مادام المدرسون لا يكلمون الطلبة ! ٢٦٧
آه . . ومعناها (١) ٢٧٧
آه . . ومعناها (٢) « وأيوب إذ نادى ربه . . » ٢٩١
آه . . ومعناها (٣) السحاب والظلام والأشباح ٣٠١
آه . . ومعناها (٤) لمس الحرير يدمى بنانه ! ٣١٥
آه . . ومعناها (٥) نهاية الثلاثى الملعون !! ٣٢٧
آه . . ومعناها (٦) فى رأس كل عظيم صداع ! ٣٣٧
آه . . ومعناها (٧) قلل التركى أو الساق الكاذبة ! ٣٤٧
صرخة طفلة فى سيرك الوحوش ! ٣٥٥
كلبك وقلبك : بيع وشراء ! ٣٦١
فى انتظار عبقرى أن يجىء ! ٣٧١
ومن التى لا تقتل زوجها ؟ ! ٣٧٩
إنها لحظة أبدية ٣٨٧
يا أية امرأة أكرهك ! ٣٩٩
عندما تزحلقت الراقصات ٤١٣
معا فوق بركان ٤٢٣
رسالة إلى طفل لم يولد بعد ٤٣٥
مصطفى شردى جداً ٤٤٧
كمال الملاخ : ولكننا ضحكنا أكثر ٤٥٩
سيزيف اللبناني ٤٦٧

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ اعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى :

١ ـ يسقط الحائط الرابع

٢ ـ وداعا أيها الملل

٣ ـ كرسى على الشمال

٤ ـ ساعات بلا عقارب

٥ ـ مع الآخرين

٦ ـ شىء من الفكر

٧ ـ لو كنت أيوب

٨ ـ يعيش .. يعيش ..

٩ ـ الوجودية

١٠ ـ عذاب كل يوم

١١ ـ طريق العذاب

١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين

١٣ ـ مالا تعلمون

١٤ ـ لحظات مسروقة

١٥ ـ كتاب عن كتب

١٦ ـ أنتم الناس ايها الشعراء

١٧ ـ أيها الموت .. لحظة من فضلك

١٨ ـ أوراق على شجر

١٩ ـ فى تلك السنة

٢٠ ـ دراسات فى الأدب الامريكى

٢١ ـ دراسات فى الأدب الالمانى

٢٢ ـ دراسات فى الأدب الايطالى

٢٣ ـ فلاسفة وجوديون

٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم

٢ ـ بلاد الله خلق الله

٣ ـ غريب فى بلاد غريبة

٤ ـ اليمن ذلك المجهول

٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى

٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو

٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب

٢ ـ حلمك يا شيخ علام

٣ ـ مين قتل مين

٤ ـ جمعية كل واشكر

٥ ـ الأحياء المجاورة

٦ ـ سلطان زمانه

٧ ـ حقنة بنج

٨ ـ العبقرى

٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسرى فريد ريش

ديرنمات :

١ ـ رومولوس العظيم

٢ ـ زيارة السيدة العجوز

٣ ـ زواج السيد مسيسى

٤ ـ الشهاب

٥ ـ هى وعشاقها

* للأديب السويسرى ماكس فريش :

١ ـ أمير الأراضى البور

٢ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو :

١ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الامريكى آرثر ميللر :

١ ـ بعد السقوط

* للأديب الامريكى تنسى وليامز :

١ ـ فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل :

١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

١ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف :

١ ـ الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أرابال

١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ الوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين .. اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

١٦ ـ قل لى يا أستاذ

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أرواح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة

رقم الإيداع : ١٩٨٨ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 09 - 0089 - 3

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

كل هموم لها زمن ، وكل زمن له هموم ..

ومادام الإنسان يفكر ويعاود التفكير ، ويصطدم ويحاول أن يفلت ، ولا يعرف اليأس ، ولا يخشى ما كان ، ثم يحاول ذلك ، فالهموم تتولد فيه ومنه وحوله وتسبقه إلى الوجود ..

وكما أن الإنسان حيوان عاقل ، فالعقل هو الذى يربط الأشياء وينظمها ، ويعود بحلها ويعقدها ، ثم يحلم بأن يفكها ليربط خيوطا جديدة ، وينسج منها لوحات فنية .. وأعمالا أدبية.. وبرامج سياسية .. ونظما فلسفية .

لاتخف من نفسك ولاتخف عليها ، فأنت مع غواص تدرب على سباحة المسافات الطويلة والغوص فى البحار العميقة .. بحار النفس الإنسانية ..

أنت مع الكاتب الكبير **أنيس منصور**

الذى وضعت يدك على كتفيه عبر مائة وثلاثين كتابا فتحت رأسك على عوالم باهرة ، وفتحت قلبك على مشاعر باهرة .

أما أسلوبه فهو من أسهل الأساليب العربية فى الأدب الحديث .. وأما معانيه فهى المتجددة المتدفقة .. وأما أهدافه فهي أن يعرف بك نفسك ، وأن يعرف منك نفوس الآخرين .. وأن يجدد اقامتك فى الدنيا ، ويمد فى تأشيرة دخولك وخروجك فتكون أكثر حرية وأنضج حكمة ..

ففى كتابه الجديد : **هموم هذا الزمان**

كل أحلام وأوهام وسعادة ونور للنفس فى الدنيا ، وضياء للدنيا فى كل نفس .. وكل هذه المعانى قد التقت فى مكان صغير جدا .. فى قلمه اللامع الذى لا يجف ولا يصدأ ..

ابراهيم المعلم